مدارج السالكين

بين منازل "إياك نعبد وإياك نستعين"

للامام السلفي العلامة المحقق

أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب

ابن قيم الجوزية

٦٩١ - ٧٥١

رحمه الله وغفر لنا وله وللمؤمنين

الجزء الأول

بتحقيق الفقير إلى عفو الله ورحمته

محمد حامد الفقي

الناشر

دار الكتاب العربي

بيروت - لبنان

الطبعة الثانية
١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وبه نستعين . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ﴾

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك لهُ رب العـالمين ، وإله المرسلين ، وقيوم السموات والأرضين . وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله المبعوث بالـكتاب المبين ، الفارق بين الهدى والضلال ، والغى والرشاد ، والشك واليقين . أنزله لنقرأه تدبرًا ، ونتأمله تبصرًا ، ونسعد به تذكرًا ، ونحمله على أحسن وجوهه ومعانيه ، ونصدق به ونجتهد على إقامة أوامره ونواهيه . ونجتنى ثمار علومه النافعة الموصلة إلى الله سبحانه من أشجاره ، ورياحين الحِـكَم من بين رياضه وأزهاره . فهو كتابه الدالُّ عليه لمن أراد معرفته ، وطريقه الموصلة لسالـكها إليه ، ونوره المبين الذى أشرقت له الظلمات ، ورحمته المهداة التى بها صلاح جميع المخلوقات ، والسبب الواصل بينه وبين عباده إذا انقطعت الأسباب ، وبابه الأعظم الذى منه الدخول ، فلا يغلق إذا غُلِّقت الأبواب/. وهو الصراط المستقيم الذى لاتميل به الآراء ، والذكر الحـكيم الذى لاتزيغ به الأهواء ، والنُزُلُ الـكريم الذى لايشبع منه العلماء ، لاتفنى عجائبه ، ولا تقلِع سحائبه ، ولا تنقضى آياته ، ولا تختلف دلالاته ، كلما ازدادت البصائر فيه تأملا وتفـكيرا ، زادها هداية وتبصيراً . وكلما بَجّست مَعينهُ فَجّر لها ينابيع الحِـكمة تفجيراً . فهو نور البصائر من عماها ، وشفاء الصدور من أدوائها وجَواها ، وحياة القلوب ، ولذة النفوس ، ورياض القلوب ، وحادى الأرواح ، إلى بلاد الأفراح ، والمنادى بالمساء والصباح : ياأهل الفلاح ، حَيَّ على الفلاح . نادى منادى الإيمان على رأس الصراط المستقيم (٤٦ : ٣١ ياقومنا أجيبوا داعىَ الله وآمنوا به يَغفِرْ لـكم من ذنوبكم ويُجِرْكم من عذاب أليم) .

أسمعَ ــ والله ــ لو صادف آذانا واعية ، وبَصّرَ لو صادف قلوباً من الفســاد

خالية . لكن عَصَفت على القلوب هذه الأهواء فأطفأت مصابيحها . وتمكنت منها آراء الرجال فأغلقت أبوابها وأضاعت مفاتيحها . ورانَ عليها كَسْبها فلم تجد حقائق القرآن إليها منفذاً . وتحكمت فيها أسقام الجهل فلم تنتفع معها بصالح العمل.

واعجباً لها ! كيف جعلت غذاءها من هذه الآراء التى لا تُسْمِن ولا تغنى من جوع ولم تقبل الاغتذاء بكلام رب العالمين ، ونصوص حديث نبيه المرفوع . أم كيف اهتدت فى ظلم الآراء إلى التميز بين الخطإ والصواب ، وخفى عليها ذلك فى مطالع الأنوار من السنة والكتاب ؟ .

واعجبا ! كيف ميزت بين صحيح الآراء وسقيمها ، ومقبولها ومردودها ، وراجحها ومرجوحها ، وأقرَّت على أنفسها بالعجز عن تلقى الهدى والعلم من كلام من كلامه لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وهو الكفيل بإيضاح الحق مع غاية البيان ؟ وكلام من أوتى جوامع الكلم ، واستولى كلامه على الأقصى من البيان .

كلا ، بل هى والله فتنة أعمت القلوب عن مواقع رشدها . وحيرت العقول عن طرائق قصدها . يُرَبَّى فيها الصغير ، و يهرم فيها الكبير .

وظنت خفافيش البصائر أنها الغاية التى يتسابق إليها المتسابقون ، والنهاية التى تنافس فيها المنافسون ، وتزاحموا عليها . وهيهات . أين الشُّهَى من شمس الضحى ؟ وأين الثرى من كواكب الجوزاء ؟ وأين الكلام الذى لم تُضمن لنا عصمة قائله بدليل معلوم ، من النقل المصدَّق عن القائل المعصوم ؟ وأين الأقوال التى أعلا درجاتها : أن تكون سائغة الاتباع ، من النصوص الواجب على كل مسلم تقديمها وتحكيمها والتحاكم إليها فى محل النزاع ؟ وأين الآراء التى نهَى قائلُها عن تقليده فيها وحَذَّر(١) ، من النصوص التى فُرض على كل عبد أن يهتدى بها

(١) فإن أئمة الهدى رضى الله عنهم قد نهوا الناس وحذروهم من تقليدهم فى دين الله . وأمروهم بعرض كلامهم على نصوص كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . فإن وافق ، وإلا فليضربوا بكلامهم عرض الحائط .

ويتبصر ؟ وأين المذاهب التي إذا مات أربهـا فهى من جملة الأموات ، من النصوص التي لاتزول إذا زالت الأرض والسموات ؟

سبحان الله ! ماذا حُرم المعرضون عن نصوص الوحى ، واقتباس العـلم من مشكاته من كنوز الذخائر ؟ ! وماذا فاتهم من حياة القلوب واستنارة البصائر ؟ قنعوا بأقوال استنبطتها معاول الآراء فِـكَرا ، وتقطعوا أمرهم بينهم لأجلهـا زُبرا . وأوحى بعضهم إلى بعض زُخْرُف القول غروراً . فاتخـذوا لأجل ذلك القرآن مهجورا .

دَرَسَت معالم القرآن فى قلوبهم فليسوا يعرفونها . ودَثَرت معاهده عندهم فليسوا يعمرونها . ووقعت ألويته وأعلامه من أيديهم فليسوا يرفعونها . وأفَلَت كواكبه النيرة من آفاق نفوسهم فلذلك لايحبونها . وكُسفت شمسه عند اجتماع ظلم آرائهم وعقدها فليسوا يبصرونها .

خلعوا نصوص الوحى عن سلطان الحقيقة ، وعزلوها عن ولاية اليقين . وشنوا عليها غارات التأويلات الباطلة . فلا يزال يخرج عليها من جيوشهم كمين بعد كمين . نزلت عليهم نزول الضيف على أقوام لئام . فعاملوها بغير مايليق بها من الإجلال والإكرام . وتلقوها من بعيد ، ولـكن بالدفع فى صدورها والأعجاز . وقالوا : مالكِ عندنا من عبور ، وإن كان ولابد ، فعلى سبيل الاجتياز . أنزلوا النصوص منزلة الخليفة فى هذا الزمان . له السكة والخطبة وماله حكم نافذ ولاسلطان ، المتمسك عندهم بالـكتاب والسنة صاحب ظواهر ، مبخوس حظه من المعقول . والمقلد للآراء المتناقضة المتعارضة والأفـكار المتهافتة لديهم هو الفاضل المقبول . وأهل الـكتاب والسنة ، المقدمون لنصوصها على غيرها ، جهال لديهم منقوصون (٢ : ١٣ وإذا قيل لهم : آمنوا كما آمن الناسُ ، قالوا أنؤمنُ كما آمنَ السفهاء ؟ ألا إنهم هم السفهاء ولـكن لايعلمون) .

حرموا ــ والله ــ الوصول ، بعدولهم عن منهج الوحى ، وتضييعهم الأصول .

وتمسكوا بأعجازٍ لاصدور لها ، فخانتهم أحرص ما كانوا عليها . وتقطعت بهم أسبابها أحوج ما كانوا إليها . حتى إذا بُعثِر ما فى القبور ، وحُصِّل ما فى الصدور ، وتميز لكل قوم حاصلهم الذى حصلوه . وانكشفت لهم حقيقة ما اعتقدوه ، وقَدِموا على ما قَدّموه (٤٧:٣٩ وبدا لهم من الله مالم يكونوا يحتسبون) وسُقِط فى أيديهم عند الحصاد لَمَّا عاينوا غَلّة ما بذروه .

فياشِدَّة الحسرة عند مايعاين المبطل سعيه وكَدّه هباءاً منثوراً ؛ ويا عُظْمَ المصيبة عند ما يتبين بَواراقَ أمانيه خُلَّباً وآماله كاذبة غروراً . فما ظنُّ من انطوت سريرته على البدعة والهوى ، والتعصب للآراء ، بربه يوم تُبلَى السرائر ؟ وماعذر من نبذ الوحيين وراء ظهره فى يوم لا تنفع الظالمين فيه المعاذر ؟

أفيظن المعرض عن كتاب ربه وسنة رسوله أنْ ينجو من ربه بآراء الرجال ؟ أو يتخلص من بأس الله بكثرة البحوث والجدال ، وضروب الأقيسة وتنوع الأشكال ؟ أو بالإشارات والشطحات ، وأنواع الخيال ؟

هيهات والله . لقد ظن أكذبَ الظن ، وَمَنَّتْهُ نفسه أبين المحال . وإنما ضُمنت النجاة لمن حَكّم هدى الله على غيره ، وتزود التقوى وائتم بالدليل . وسلك الصراط المستقيم ، واستمسك من الوحى بالعروة الوثقى التى لا انفصام لها والله سميع عليم .

وبعد ، فلما كان كمال الإنسان إنما هو بالعلم النافع ، والعمل الصالح . وهما الهدى ودين الحق ، وبتكميله لغيره فى هذين الأمرين ، كما قال تعالى (والْعَصْرِ إن الإنسانَ لفى خُسْرٍ . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات . وتواصَوْا بالحق وتواصوا بالصبر) أقسم سبحانه أن كل أحد خاسر إلا من كَمّل قوته العلمية بالإيمان ، وقوته العملية بالعمل الصالح ، وكمل غيره بالتوصية بالحق والصبر عليه ، فالحق هو الإيمان والعمل ، ولا يتمان إلا بالصبر عليهما ، والتواصى بهما — كان حقيقاً بالإنسان أن يُنفق ساعات عمره — بل أنفاسه — فيما ينال به المطالب العالية، ويخلُص به من الخسران المبين . وليس ذلك إلا بالإقبال على القرآن وتفهمه وتدبره

واستخراج كنوزه و إثارة دفائنه ، وصرف العناية إليه ، والعكوف بالهمة عليه . فإنه الكفيل بمصالح العباد ، فى المعاش والمعاد . والموصل لهم إلى سبيل الرشاد . فالحقيقة والطريقة ، والأذواق والمواجيد الصحيحة ، كلها لاتقتبس إلا من مشكاته ، ولا تستثمر إلا من شجراته .

ونحن – بعون الله – ننبه على هذا بالكلام على فاتحة الكتاب وأم القرآن ، وعلى بعض ماتضمنته هذه السورة من هذه المطالب ، وما تضمنته من الرد على جميع طوائف أهل البدع والضلال . وما تضمنته من منازل السائرين ، ومقامات العارفين ، والفرق بين وسائلها وغاياتها ، ومواهبها وكسبياتها ، و بيان أنه لايقوم غير هذه السورة مقامها ، ولا يسد مسدها . ولذلك لم ينزل الله فى التوراة ولا فى الإنجيل ولافى القرآن مثلها .

والله المستعان ، وعليه التكلان . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

* * *

اعلم أن هذه السورة اشتملت على أمهات المطالب العالية أتم اشتمال ، وتضمنتها أكمل تضمن .

فاشتملت على التعريف بالمعبود – تبارك وتعالى – بثلاثة أسماء ، مرجع الأسماء الحسنى والصفات العليا إليها ، ومدارها عليها . وهى « الله ، والرب ، الرحمن » و بنيت السورة على الإلٰهية ، والربوبية ، والرحمة فـ « إياك نعبد » مبنى على الإلٰهية . و « إياك نستعين » على الربوبية . وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم بصفة الرحمة . والحمد يتضمن الأمور الثلاثة . فهو المحمود فى إلٰهيته ، وربوبيته ، ورحمته . والثناء والمجد كمالان لجده .

وتضمنت إثبات المعاد ، وجزاء العباد بأعمالهم ، حسنها وسيئها . وتفرُّدَ الرب تعالى بالحكم إذ ذاك بين الخلائق ، وكون حكمه بالعدل . وكل هذا تحت قوله « مالك يوم الدين » .

وتضمنت إثبات النبوات من جهات عديدة .

أحدها : كونه رب العالمين[1] . فلا يليق به أن يترك عباده سُدًى هَمَلاً لا يُعَرِّفهم ماينفعهم فى معاشهم ومعادهم وما يضرهم فيهما ، فهذا هَضْم للربوبية ، ونسبة الرب تعالى إلى مالا يليق به . وما قَدَره حق قدره من نسبه إليه .

الثانى : أخذها من اسم « الله » وهو المألوه المعبود . ولا سبيل للعباد إلى معرفة عبادته إلا من طريق رسله .

الموضع الثالث : من اسمه « الرحمن » فإن رحمته تمنع إهمال عباده ، وعدم تعريفهم ما ينالون به غاية كمالهم . فمن أعطى اسم « الرحمن » حقه عرف أنه متضمن لإرسال الرسل ، و إنزال الكتب ، أعظم من تضمنه إنزال الغيث و إنبات الكلأ ، و إخراج الحب . فاقتضاء الرحمة لما تحصل به حياة القلوب والأرواح أعظم من اقتضائها لما تحصل به حياة الأبدان والأشباح ، لكن المحجوبون إنما أدركوا من هذا الاسم حظ البهائم والدواب . وأدرك منه أولو الألباب أمراً وراء ذلك .

---

(١) أى مربيهم بالنعم — وأجلها الوحى ، وإرسال الرسل ، وإنزال الهدى والعلم والحكمة — والآلاء المتتالية ، التى لاتنقطع عنهم طرفة عين ، وهو القيوم الذى يقوم بعلمه وحكمته وقدرته على تدبير أمور العالمين فى كل لحظة ، وهو القاهر فوق عباده الحكيم الخبير ، الذى يسخر هذه العوالم لبعضها ، ويسخر جميع ما فى السموات والأرض منها للانسان ، ليربيه وينميه ، فيربو بها وينمو ويسمو على درجات الكمال والكرامة الإنسانية ، إذا عرف نعم ربه عليه ، ورحمته به ، وحكمته البالغة فى تدبيره إياه ، وقدرذلك قدره ، فشكره واحتفظ بكرامته ، واعتز بإخلاص إنسانيته المعنوية الكريمة وتصفيتها ، وتزكيتها بالتأمل والتفكر فى الآيات الكونية ، والتدبر والفقه ، والعمل بالآيات العلمية . لتكون نفسه عابدة ، بمنتهى الذل وأخلص المحبة ، هذا الرب الرحمن الرحيم وحده ، فإنه هو الذى يبدؤها دائماً بإحسانه وفضله ، ويعطيها جميع عناصر القوة والعزة والكرامة ، والحياة الطيبة فى الدنيا والآخرة ، لتسمو وتسعد ، والكل فى ذلك سواء ، فقير إلى الله وحده . والله وحده هو الغنى الحميد . ولا يزال العبد المخلص يرقى بصادق العبودية على معارج الكرامة حتى يكون مع الأبرار فى عليين . جعلنا الله كذلك .

الموضع الرابع : من ذكر « يوم الدين » فإنه اليوم الذى يدين الله العباد فيه بأعمالهم ، فيثيبهم على الخيرات ؛ و يعاقبهم على المعاصى والسيئات . وما كان الله ليعذب أحداً قبل إقامة الحجة عليه . والحجة إنما قامت برسله وكتبه . وبهم اسْتُحِق الثواب والعقاب . وبهم قام سوق يوم الدين . وسيق الأبرار إلى النعيم . والفجار إلى الجحيم .

الموضع الخامس : من قوله « إياك نعبد » فإن مايُعبد به الرب تعالى لايكون إلا على مايحبه و يرضاه . وعبادته ــ وهى شكره وحبه وخشيته ــ فطرى ومعقول للعقول السليمة . لكن طريق التعبد وما يعبد به لاسبيل إلى معرفته إلا برسله و بيانهم . وفى هذا بيان أن إرسال الرسل أمر مستقر فى العقول . يستحيل تعطيل العالم عنه ، كما يستحيل تعطيله عن الصانع . فمن أنكر الرسول فقد أنكر المرسِل . ولم يؤمن به . ولهذا جعل الله سبحانه الكفر برسله كفراً به .

الموضع السادس : من قوله « اهدنا الصراط المستقيم » فالهداية : هى البيان والدلالة ، ثم التوفيق والإلهام ، وهو بعد البيان والدلالة . ولا سبيل إلى البيان والدلالة إلا من جهة الرسل . فإذا حصل البيان والدلالة والتعريف ترتب عليه هداية التوفيق ، وجعلُ الإيمان فى القلب ، وتحبيبه إليه ، وتزيينه فى القلب ، وجعله مؤثِراً له ، راضياً به . راغباً فيه .

وهما هدايتان مستقلتان ، لا يحصل الفلاح إلا بهما . وهما متضمنتان تعريف مالم نعلمه من الحق تفصيلا و إجمالا . و إلهامنا له ، وجعلنا مريدين لاتباعه ظاهراً و باطناً . ثم خَلْقُ القدرة لنا على القيام بموجب الهدى بالقول والعمل والعزم . ثم إدامة ذلك لنا وتثبيتنا عليه إلى الوفاة .

ومن هنا يعلم اضطرار العبد إلى سؤال هذه الدعوة فوق كل ضرورة ، و بطلان قول من يقول : إذا كنا مهتدين ، فكيف نسأل الهداية ؟ فإن المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم . ومالا نريد فعله تهاوناً وكسلا مثل مانريده ،

أو أكثر منه أو دونه . وما لا نقدر عليه — مما نريده — كذلك . وما نعرف جملته ولا نهتدى لتفاصيله ، فأمر يفوت الحصر . ونحن محتاجون إلى الهداية التامة . فمن كملت له هذه الأمور كان سؤال الهداية له سؤالَ التثبيت والدوام .

وللهداية مرتبة أخرى — وهى آخر مراتبها — وهى الهداية يوم القيامة إلى طريق الجنة . وهو الصرط الموصل إليها . فمن هُدى فى هذه الدار إلى صراط الله المستقيم ، الذى أرسل به رسله ، وأنزل به كتبه ، هُدى هناك إلى الصراط المستقيم ، الموصل إلى جنته ودار ثوابه . وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذ الصراط الذى نصبه الله لعباده فى هذه الدار ، يكون ثبوت قَدَمه على الصراط المنصوب على مَتْن جهنم . وعلى قدر سيره على هذه الصراط يكون سيره على ذاك الصراط . فمنهم من يمر كالبرق ، ومنهم من يمر كالطَّرْف ، ومنهم من يمر كالريح ، ومنهم من يمر كشَدِّ الركاب ، ومنهم من يسعى سعيا ، ومنهم من يمشى مشيا ، ومنهم من يحبو حَبْوا ، ومنهم المخدوش المسلَّم ، ومنهم المكردَس فى النار . فلينظر العبد سيره على ذلك الصراط من سيره على هذا ، حَذْو القُذَّة بالقذة ، جزاء وفاقا (هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ؟) .

ولينظر الشبهات والشهوات التى تعوقه عن سيره على هذا الصراط المستقيم . فإنها الكلاليب التى بجَنَبَتى ذاك الصراط ، تخطفه وتعوقه عن المرور عليه . فإن كثرت هنا وقويت فكذلك هى هناك (وما ربك بظلاَّم للعبيد) .

فسؤال الهداية متضمن لحصول كل خير ، والسلامة من كل شر .

الموضع السابع : من معرفة نفس المسئول . وهو الصراط المستقيم . ولا تكون الطريق صراطاً حتى تتضمن خمسة أمور : الاستقامة ، والإيصال إلى المقصود ، والقرب ، وسعته للمارين عليه ، وتعيُّنه طريقاً للمقصود . ولا يخفى تضمن الصراط المستقيم لهذه الأمور الخمسة .

فوصفه بالاستقامة يتضمن قربه ، لأن الخط المستقيم هو أقرب خط فاصل

بين نقطتين . وكلما تعوج طال و بعد . واستقامته تتضمن إيصاله إلى المقصود . ونصبه لجميع من يمر عليه يستلزم سَعَته . و إضافته إلى المنعم عليهم ، ووصفُهُ بمخالفة صراط أهل الغضب والضلال ، يستلزم تَعَيُّنَه طريقا .

و « الصراط » تارة يضاف إلى الله ، إذ هو الذى شرعه ونصبه ، كقوله تعالى (٦ : ١٥٣ وأن هذا صراطى مستقيما) وقوله (٤٢ : ١٥٣ و إنك لتهدى إلى صراط مستقيم : صراطِ الله) وتارة يضاف إلى العباد ، كما فى الفاتحة . لكونهم أهل سلوكه . وهو المنسوب لهم . وهم المارون عليه .

الموضع الثامن : من ذكر المنعَم عليهم ، وتمييزهم عن طائفتى الغضب والضلال فانقسم الناس بحسب معرفة الحق والعمل به إلى هذه الأقسام الثلاثة . لأن العبد إما أن يكون عالماً بالحق ، أو جاهلا به . والعالم بالحق إما أن يكون عاملا بموجبه أو مخالفاً له . فهذه أقسام المكلفين . لا يخرجون عنها ألبتة . فالعالم بالحق العامل به : هو المنعم عليه . وهو الذى زكَّى نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح . وهو المفلح (٩١ : ٩ قد أفلح من زكاها) والعالم به المتبع هواه : هو المغضوب عليه . والجاهل بالحق : هو الضال . والمغضوب عليه ضال عن هداية العمل . والضال مغضوب عليه لضلاله عن العلم الموجب للعمل . فكل منهما ضال مغضوب عليه ، ولكن تارك العمل بالحق بعد معرفته به أولى بوصف الغضب وأحق به . ومن ههنا كان اليهود أحقَّ به . وهو متغلظ فى حقهم . كقوله تعالى فى حقهم (٢ : ٩٠ بئسما اشتروا به أنفسهم : أن يكفروا بما أنزل الله بَغْياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده ، فباءوا بغضب على غضب) وقال تعالى (٥ : ٦٠ قل هل أنبئكم بشر من ذلك مَثوبة عند الله ؟ مَنْ لعنه الله وغضب عليه ، وجعل منهم القردة والخنازير وعَبَدَ الطاغوت . أولئك شر مكاناً وأضل عن سواء السبيل) والجاهل بالحق : أحق باسم الضلال . ومن هنا وصفت النصارى به فى قوله تعالى (٥ : ٧٧ قل يا أهل الكتاب لا تَغْلُوا فى دينكم غير الحق ،

ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً ، وضلوا عن سواء السبيل) فالأولى : فى سياق الخطاب مع اليهود . والثانية : فى سياقه مع النصارى . وفى الترمذى وصحيح ابن حِبَّان . من حديث عدي بن حاتم قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اليهود مغضوب عليهم . والنصارى ضالون » .

ففى ذكر المنعَم عليهم ــ وهم من عرف الحق واتبعه ــ والمغضوب عليهم ــ وهم من عرفه واتبع هواه ــ والضالين ــ وهم من جهله ــ : ما يستلزم ثبوت الرسالة والنبوة . لأن انقسام الناس إلى ذلك هو الواقع المشهود . وهذه القسمة إنما أوجبها ثبوت الرسالة .

وأضاف النعمة إليه ، وحذف فاعل الغضب لوجوه .

منها : أن النعمة هى الخير والفضل . والغضب من باب الانتقام والعدل . والرحمة تغلب الغضب ، فأضاف إلى نفسه أكمل الأمرين ، وأسبقهما وأقواها . وهذه طريقة القرآن فى إسناد الخيرات والنعم إليه . وحذف الفاعل فى مقابلتهما ، كقول مؤمنى الجن (٧٢ : ١٠ وأنَّا لا ندرى أشَرٌّ أريد بمن فى الأرض ، أمْ أراد بهم ربهم رَشَدا ؟) ومنه قول الخَضِر فى شأن الجدار واليتيمين (١٨ : ٨٢ فأراد ربك أن يبلغا أشُدَّهما ويستخرجا كنزهما) وقال فى خرق السفينة (١٨ : ٧٩ فأردت أن أعيبها) ثم قال بعد ذلك (وما فعلته عن أمرى) وتأمل قوله تعالى (٢ : ١٨٧ أُحِلَّ لكم ليلة الصيام الرَّفَثُ إلى نسائكم) وقوله (٥ : ٣ حُرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير) وقوله (٤ : ٢٣ حرمت عليكم أمهاتكم) ثم قال (٤ : ٢٤ وأحل لكم ما وراء ذلكم) .

وفى تخصيصه لأهل الصراط المستقيم بالنعمة ما دل على أن النعمة المطلقة هى الموجبة للفلاح الدائم . وأما مطلق النعمة : فعلى المؤمن والكافر . فكل الخلق فى نعمه . وهذا فصل النزاع فى مسألة : هل لله على الكافر من نعمة أم لا ؟ .

فالنعمة المطلقة لأهل الإيمان . ومطلق النعمة تكون للمؤمن والكافر ،

كما قال تعـالى (١٤ : ٣٤ وإن تَعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفَّار) .

والنعمة من جنس الإحسان ، بل هى الإحسان . والرب تعالى إحسانه على البر والفاجر . والمؤمن والـكافر .

وأما الإحسان المطلق : فللذين اتقوا والذين هم محسنون .

الوجه الثانى : أن الله سبحانه هو المنفرد بالنعم (١٦ : ٥٣ وما بكم من نعمة فمن الله) فأضيف إليه ما هو منفرد به . وإن أضيف إلى غيره فلـكونه طريقاً ومَجْرًى للنعمة . وأما الغضب على أعدائه : فلا يختص به تعـالى ، بل ملائـكته وأنبياؤه ورسله وأولياؤه يغضبون لغضبه . فـكان فى لفظة « المغضوب عليهم » بموافقة أوليائه له : من الدلالة على تفرده بالإنعام ، وأن النعمة المطلقة منه وحده ، هو المنفرد بها ـ ما ليس فى لفظة « المنعم عليهم » .

الوجه الثالث : أن فى حذف فاعل الغضب من الإشـعار بإهانة المغضوب عليه ، وتحقيره وتصغير شأنه ما ليس فى ذكر فاعل النعمة ، من إكرام المنعَم عليه والإشادة بذكره ، ورفع قدره ، ما ليس فى حذفه . فإذا رأيت من قد أكرمه ملك وشرفه ، ورفع قدره ، فقلت : هـذا الذى أكرمه السلطان ، وخلع عليه وأعطاه ماتمناه . كان أبلغَ فى الثناء والتعظيم من قولك : هذا الذى أُكرم وخُلع عليه وشُرف وأُعطى .

وتأمل سراً بديعاً فى ذكر السبب والجزاء للطوائف الثلاثة بأوجز لفظ وأخصره . فإن الإنعام عليهم يتضمن إنعامه بالهداية ، التى هى العلم النافع والعمل الصالح . وهى الهدى ودين الحق . ويتضمن كمال الإنعام بحسن الثواب والجزاء . فهذا تمام النعمة . ولفظ « أنعمت عليهم » يتضمن الأمرين .

وذكر غضبه على المغضوب عليهم يتضمن أيضـاً أمرين : الجزاء بالغضب الذى موجبه غاية العذاب والهوان ، والسبب الذى استحقوا به غضبه سبحانه .

فإنه أرحم وأرأف من أن يغضب بلا جناية منهم ولا ضلال . فكأن الغضب عليهم مستلزم لضلالهم . وذكر الضالين مستلزم لغضبه عليهم وعقابه لهم . فإن من ضل استحق العقوبة التى هى موجب ضلاله ، وغضب الله عليه .

فاستلزم وصف كل واحد من الطوائف الثلاث للسبب والجزاء أبين استلزام ، واقتضاه أكمل اقتضاء ، فى غاية الإيجاز والبيان والفصاحة ، مع ذكر الفاعل فى أهل السعادة ، وحذفه فى أهل الغضب . وإسناد الفعل إلى السبب فى أهل الضلال

وتأمل المقابلة بين الهداية والنعمة ، والغضب والضلال . فذكر « المغضوب عليهم » و « الضالين » فى مقابلة المهتدين المنعم عليهم . وهذا كثير فى القرآن ، يقرن بين الضلال والشقاء ، و بين الهدى والفلاح . فالثانى كقوله (٢ : ٤ أولئك على هدى من ربهم ، وأولئك هم المفلحون) وقوله (٦ : ٨٢ أولئك لهم الأمن وهم مهتدون) والأول كقوله تعالى (٥٤ : ٤٧ إن المجرمين فى ضلال وسُعُر) وقوله (٢ : ٧ ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة . ولهم عذاب عظيم) وقد جمع سبحانه بين الأمور الأربعة فى قوله (٢٠ : ١٢٣ فإما يأتينَّكم منِّى هُدًى ، فمن اتَّبع هداى فلا يضل ولا يشقى) فهذا الهدى والسعادة . ثم قال (٢٠ : ١٢٤ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضَنْكاً . ونحشره يوم القيامة أعمى . قال : رب ، لِمَ حشرتنى أعمى ، وقد كنتُ بصيراً ؟ قال : كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تُنْسَى) فذكر الضلال والشقاء .

فالهدى والسعادة متلازمان . والضلال والشقاء متلازمان .

فصل

وذكر « الصراط المستقيم » مفرداً معرفاً تعريفين : تعريفاً باللام ، وتعريفاً بالإضافة . وذلك يفيد تعيُّنه واختصاصه ، وأنه صراط واحد . وأما طرق أهل الغضب والضلال فإنه سبحانه يجمعها و يفردها ، كقوله (٦ : ١٥٣ وأنَّ هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السُّبُل فتفرَّقَ بكم عن سبيله) فوحَّد لفظ

«الصراط» و «سبيله» . وجمع « السبل » المخالفة له . وقال ابن مسعود « خَطَّ لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطًّا ، وقال : هذا سبيل الله ، ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن يساره ، وقال : هذه سُبل ، على كل سبيل شيطان يدعو إليه ، ثم قرأ قوله تعالى (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله . ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) » وهذا لأن الطريق الموصل إلى الله واحد . وهو مابعث به رسله وأنزل به كتبه . لايصل إليه أحد إلا من هذه الطريق . ولوأتى الناسُ من كل طريق ، واستفتحوا من كل باب ، فالطرق عليهم مسدودة ، والأبواب عليهم مغلقة ، إلا من هذا الطريق الواحد . فإنه متصل بالله ، موصل إلى الله . قال الله تعالى (١٥ : ٤١ هذا صراطٌ عليّ مستقيم) قال الحسن : معناه صراط إلىّ مستقيم . وهذا يحتمل أمرين : أن يكون أراد به أنه من باب إقامة الأدوات بعضها مقام بعض ، فقامت أداة « على » مقام « إلى » والثانى : أنه أراد التفسير على المعنى . وهو الأشبه بطريق السلف . أى صراط موصل إليَّ . وقال مجاهد : الحق يرجع إلى الله ، وعليه طريقه ، لايُعَرِّج على شيء . وهذا مثل قول الحسن وأبين منه . وهو من أصح ما قيل فى الآية . وقيل : « علىّ » فيه للوجوب ، أى عليّ بيانه وتعريفه والدلالة عليه . والقولان نظير القولين فى آية النحل . وهى (١٦ : ٩ وعلى الله قَصْد السبيل) والصحيح فيها كالصحيح فى آية الحجر : أن السبيل القاصد ـ وهو المستقيم المعتدل ـ يرجع إلى الله ، ويوصل إليه . قال طُفَيل الغَنَوى :

مَضَوا سَلفاً ، قَصْدَ السبيل عليهم ... وصَرْفُ المنايا بالرجال تَشَقْلَبُ

أى ممرنا عليهم ، وإليهم وصولنا . وقال الآخر :

فهن المنايا : أيُّ وادٍ سلكتُه ... عليها طريقى ، أو علىّ طريقها

فإن قيل : لو أريد هذا المعنى لكان الأليق به أداة « إلى » التى هى للانتهاء ، لا أداة « على » التى هى للوجوب . ألا ترى أنه لما أراد الوصول قال

(٨٨ : ٢٢ ، ٢٣ إن إلينا إيابهم ، ثم إن علينا حسابهم) وقال (٣٠ : ٢٣ إلينا مَرْجعهم) وقال (٦ : ١٠٨ ثم إلى ربهم مرجعهم) وقال . لما أراد الوجوب (٨٨ : ٢٦ ثم إن علينا حسابهم) وقال (٧٥ : ١٧ إن علينا جمعه وقرآنه) وقال (٦ : ٣٨ ومامن دابة فى الأرض إلا على الله رزقها) ونظائر ذلك ؟ .

قيل : فى أداة « على » سر لطيف . وهو الإشعار بكون السالك على هذا الصراط على هدًى . وهو حق . كما قال فى حق المؤمنين (٢ : ٤ أولئك على هدى من ربهم) وقال لرسوله صلى الله عليه وسلم (٢٧ : ٧٩ فتوكل على الله إنك على الحق المبين) والله عز وجل هو الحق ، وصراطه حق ، ودينه حق . فمن استقام على صراطه فهو على الحق والهدى . فكان فى أداة « على » على هذا المعنى ماليس فى أداة « إلى » فتأمله ، فإنه سر بديع .

فإن قلت : فما الفائدة فى ذكر « على » فى ذلك أيضاً . وكيف يكون المؤمن مستعلياً على الحق ، وعلى الهدى ؟ .

قلت : لما فيه من استعلائه وعلوه بالحق والهدى ، مع ثباته عليه ، واستقامته إليه . فكان فى الإتيان بأداة « على » ما يدل على علوه وثبوته واستقامته . وهذا بخلاف الضلال والريب . فإنه يؤتى فيه بأداة « فى » الدالة على انغماس صاحبه ، وانقماعه وتدسسه فيه ، كقوله تعالى (٩ : ٤٥ فهم فى رَيْبهم يتردَّدون) وقوله (٦ : ٣٩ والذين كذبوا بآياتنا صُمٌّ وبُكْمٌ فى الظلمات) وقوله (٢٣ : ٢٤ فذَرْهم فى غَمْرتهم حتى حين) وقوله (٤٢ : ١٤ وإنهم لفى شك منه مُريب)

وتأمل قوله تعالى (٣٤ : ٢٤ وإنَّا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) فإن طريق الحق تأخذ علواً صاعدة بصاحبها إلى العلى الكبير ، وطريق الضلال تأخذ سُفلا ، هاوية بسالكها فى أسفل سافلين .

وفى قوله تعالى (١٥ : ٤١ قال : هذا صراط عليَّ مستقيم) قول ثالث . وهو قول الكسائى : إنه على التهديد والوعيد ، نظير قوله (٨٩ : ١٤ إن ربك لبالمرصاد) كما يقال : طريقك على ، وممرك على . لمن تريد إعلامه بأنه

غير فائت لك ، ولا مُعجِز . والسياق يأبى هذا ، ولا يناسبه لمن تأمله . فإنه قاله مجيباً لإبليس الذى قال (١٥ : ٣٩ لأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلَصين) فإنه لاسبيل لى إلى إغوائهم ، ولا طريق لى عليهم .

فقرر الله عز وجل ذلك أتم التقرير . وأخبر أن الإخلاص صراط عليه مستقيم . فلا سلطان لك على عبادى الذين هم على هذا الصراط ، لأنه صراط عليَّ . ولا سبيل لإبليس إلى هذا الصراط ، ولا الْحَوْم حول ساحته ، فإنه محروس محفوظ بالله . فلايصل عدو الله إلى أهله .

فليتأمل العارف هذا الموضع حق التأمل ، ولينظر إلى هذا المعنى ، ويوازن بينه وبين القولين الآخرين ، أيهما أليق بالآيتين ، وأقرب إلى مقصود القرآن وأقوال السلف ؟ .

وأما تشبيه الكسائى له بقوله (إن ربك لبالمرصاد) فلا يخفى الفرق بينهما سياقاً ودلالة . فتأمله . ولا يقال فى التهديد : هذا طريق مستقيم عليَّ ، لمن لا يسلكه . وليست سبيل المهدِّد مستقيمة . فهو غير مهدد بصراط الله المستقيم . وسبيله التى هو عليها ليست مستقيمة على الله . فلا يستقيم هذا القول ألبتة .

وأما من فسره بالوجوب ، أى عليّ بيان استقامته والدلالة عليه . فالمعنى صحيح . لكن فى كونه هو المراد بالآية نظر . لأنه حذف فى غير موضع الدلالة . ولم يؤلَف الحذف المذكور ، ليكون مدلولاً عليه إذا حذف . بخلاف عامل الظرف إذا وقع صفة . فإنه حذفٌ مألوف معروف . حتى إنه لايُذكَر ألبتة . فإذا قلت : له درهم على . كان الحذف معروفاً مألوفاً . فلو أردت : عليَّ نقدُه ، أو عليّ وزنه وحفظه ، ونحو ذلك ، وحذفت : لم يَسُغ . وهو نظير : عليّ بيانه . المقدر فى الآية ، مع أن الذى قاله السلف أليق بالسياق . وأجلُّ المعنيين وأكبرهما .

وسمعت شيخ الإسلام تقى الدين أحمد بن تيمية رضى الله عنه يقول : وهما نظير قوله تعالى (٩٢ : ١٢ ، ١٣ إن علينا لَلْهُدَى . وإن لنا للآخرةَ والأولى) قال : فهذه ثلاثة مواضع فى القرآن فى هذا المعنى .

قلت : وأكثر المفسرين لم يذكر فى سورة (والليل إذا يغشى) إلا معنى الوجوب ، أى علينا بيـان الهدى من الضلال . ومنهم من لم يذكر فى سورة « النحل » إلا هذا المعنى كالبغوى . وذكر فى « الحِجْر » الأقوال الثلاثة . وذكر الواحدى فى بسيطه المعنيين فى سورة «النحل» واختار شيخنا قول مجاهد والحسن فى السور الثلاث .

فصــل

والصراط المستقيم : هو صراط الله . وهو يخبر أن الصراط عليه سبحانه ، كما ذكرنا ، ويخبر أنه سبحانه على الصراط المستقيم . وهـذا فى موضعين من القرآن : فى هود ، والنحل . قال فى هود (١١ : ٥٦ ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ، إن ربى على صراط مستقيم [١]) وقال فى النحل (١٦ : ٧٦ وضرب الله مثلا : رجلين ، أحدهما أبْـكمُ لا يقدر على شىء ، وهو كَلٌّ على مولاه ، أينما يُوجِّهه لا يأت بخير ، هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ؟) فهذا مثل ضربه الله للأصنام التى لا تسمع . ولا تنطق ولا تعقل ، وهى كَلٌّ على عابدها ، يحتاج الصنم إلى أن يحمله عابده ، و يضعه و يقيمه و يخدمه . فكيف يسوونه فى العادة بالله الذى يأمر بالعدل والتوحيد ؟ وهو قادر متكلم ، غنى . وهو على صراط مستقيم فى قوله وفعله . فقوله صدق ورشد ونصح وهدى . وفعله حكمة وعدل ورحمة ومصلحة . هـذا أصح الأقوال فى الآية . وهو الذى لم يذكر كثير من المفسرين غيره . ومن ذكر غيره قدمه على الأقوال ، ثم حكاها بعده ، كما فعل البغوى . فإنه جزم به ، وجعله تفسير الآية . ثم قال : وقال الكلبى : يدلـكم على صراط مستقيم .

قلت : ودلالته لنا على الصراط هى من موجب كونه سبحانه على الصراط

---

(١) وكذلك قوله فى سورة الحجر (١٥:٤١ قال : هذا صراط على مستقيم)

المستقيم . فإن دلالته بفعله وقوله ، وهو على الصراط المستقيم فى أفعاله وأقواله . فلا يناقض قول من قال : إنه سبحانه على الصراط المستقيم .

قال : وقيل : هو رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بالعدل . وهو على صراط مستقيم .

قلت : وهذا حق لا يناقض القول الأول . فالله على الصراط المستقيم ، ورسوله عليه . فإنه لا يأمر ولا يفعل إلا مقتضاه وموجبه . وعلى هذا يكون المثل مضروباً لإمام الكفار وهاديهم ، وهو الصنم الذى هو أبكم ، لا يقدر على هدى ولا خير . والإمام الأبرار ، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى يأمر بالعدل . وهو على صراط مستقيم (١) .

---

(١) وهذا هو الأحق بالآية والانسب بالسياق . فإنه سبحانه يذكر أنه ما أفسد عقول المشركين إلا أولئك الطواغيت المستكبرون ، والأصنام الحية الأجسام ، الميتة القلوب والأرواح ، من الشيوخ الدجاجلة والسادة الصادين للعامة والدهماء عن صراط الله المستقيم ، فإنهم يأمرون بالجور وأظلم الظلم ، ويدعون إلى التقليد الأعمى وقتل الإنسانية العاقلة المميزة ، ليتهيأ لهم استعباد الناس ، وإيقاعهم فى الشرك الأكبر والوثنية وليعيش أولئك الطواغيت عالة وكلا على أولئك المستذلين الأغفال المستعبدين لهم ولموتاهم ، غارقين فى لين العيش ـ مما يأخذون بدجلهم وإضلالهم من عصارة عرق ودماء الصناع والزراع ـ من أولئك الأغفال ، بحساب أنهم رجال الدين الذين لاينبغى أن تكد أيديهم ، أو تتعب أجسامهم فى صناعة أو زراعة ، لأنهم حملة الدين وحماته ، ورجال الكهنوت ، فهم ـ مع هذا الدجل والضلال والإضلال ، والتعطل عن إفادة الأمة بعمل مجد نافع ـ يذل لهم العامة ويستخذون ، ويجرون وراءهم على غير هدى ولا بينة . ويتركون طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم واتباعه فيما دعاهم إليه من الدين الحق الذى أنزله الله لإعزاز الإنسانية ، وتحطيم أغلال التقليد والجهالةعنها : لتخرج إلى الحياة الطيبة ، عارفة بنعم ربها شاكرة لها . وهذا الرسول الداعى إلى الهدى والعدل هو الذى عاش من طفولته شاكراً لأنعم ربه ، يعمل بيديه ورجليه وعقله الأعمال النافعة المثمرة،فيعود بها على الناس براً وإحساناً وإطعاماً للجائع ، ومواساة لليتيم =

وعلى القول الأول : يكون مضروباً لمعبود الكفار ومعبود الأبرار . والقولان متلازمان . فبعضهم ذكر هذا . و بعضهم ذكر هذا . وكلاهما مراد من الآية . قال ، وقيل : كلاهما للمؤمن والكافر . يرويه عطية عن ابن عباس . وقال عطاء : الأبكم أُبَيُّ بن خَلَف ، ومن يأمر بالعدل : حمزة وعثمان بن عفان ، وعثمان بن مظعون .

قلت : والآية تحتمله . ولا يناقض القولين قبله ، فإن الله على صراط مستقيم ، ورسوله وأتباع رسوله . وضد ذلك : معبود الكفار وهاديهم ، والكافر التابع والمتبوع والمعبود . فيكون بعض السلف ذكر أعلى الأنواع . و بعضهم ذكر الهادى . و بعضهم ذكر المستجيب القابل . وتكون الآية متناولة لذلك كله . ولذلك نظائر كثيرة فى القرآن .

وأما آية هود : فصريحة لا تحتمل إلا معنى واحداً . وهو أن الله سبحانه على صراط مستقيم . وهو سبحانه أحق من كان على صراط مستقيم . فإن أقواله كلها صدق ورشد وهدى وعدل وحكمة (٦ : ١١٥ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا) وأفعاله كلها مصالح وحكم ، ورحمة وعدل وخير . فالشر لا يدخل فى أفعاله ولا أقواله ألبتة ، لخروج الشر عن الصراط المستقيم . فكيف يدخل فى أفعال من هو على الصراط المستقيم ، أو أقواله ؟ وإنما يدخل فى أفعال من خرج عنه وفى أقواله .

وفى دعائه عليه الصلاة والسلام « لبيك وسعديك ، والخير كله بيديك ، والشر ليس إليك » ولا يلتفت إلى تفسير من فسره بقوله : والشر لا يُتقرب به

= والأرمل ، وسداداً لعوز المعوزين ، وهو يأمرهم بما أوحى الله إليه بالعدل والإحسان فى كل نعم الله عليهم ، بتكريم الإنسانية أن تذل وتستعبد إلا لله العلى العظيم . فتعبده وحده ، ولا تعبده إلا بما شرع ، لتحيا بذلك الحياة الطيبة ، وتحظى فى الآخرة بأحسن المثوبة وخير الجزاء من الرحمن الرحيم .

إليك ، أو لا يصعد إليك . فإن المعنى أجل من ذلك ، وأكبر وأعظم قدرا . فإن مَنْ أسماؤه كلها حسنى ، وأوصافه كلها كمال ، وأفعاله كلها حكم ، وأقواله كلها صدق وعدل : يستحيل دخول الشر فى أسمائه أو أوصافه ، أو أفعاله أو أقواله . فطابِقْ بين هذا المعنى و بين قوله (إن ربى على صراط مستقيم) وتأمل كيف ذكر هـذا عقيب قوله (١١ : ٥٦ إنى توكلت على الله ربى وربكم) أى هو ربى ، فلا يُسلمنى ولا يضيعنى . وهو ربكم فلا يسلطكم علىّ ولا يمكنكم منى . فإن نواصيكم بيده ، لا تفعلون شيئاً بدون مشيئته . فإن ناصية كل دابة بيده ، لا يمكنها أن تتحرك إلا بإذنه . فهو المتصرف فيها . ومع هـذا ، فهو فى تصرفه فيها وتحريكه لها ، ونفوذ قضائه وقدره فيها : على صراط مستقيم . لا يفعل ما يفعل من ذلك إلا بحكمة وعدل ومصلحة . ولو سلطكم علىّ فله من الحكمة فى ذلك ماله الحمد عليه . لأنه تسليط من هو على صراط مستقيم . لا يظلم ولا يفعل شيئاً عبثاً بغير حكمة .

فهكذا تكون المعرفة بالله ، لا معرفة القدرية المجوسية ، والقدرية الجبرية ، نفاة الحكم والمصالح والتعليل . والله الموفق سبحانه .

فصـل

ولما كان طالب الصراط المستقيم طالبَ أمرٍ أكثرُ الناس ناكبون عنه ، مريداً لسلوك طريقٍ مرافقُه فيها فى غاية القلة والعزة . والنفوس مجبولة على وحشة التفرد ، وعلى الأنس بالرفيق ، نبه الله سبحانه على الرفيق فى هذه الطريق ، وأنهم هم الذين (أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . وحَسُن أولئك رفيقاً) فأضاف الصراط إلى الرفيق السالكين له . وهم الذين أنعم الله عليهم ، ليزول عن الطالب للهداية وسلوك الصراط وحشة تفرده عن أهل زمانه و بنى جنسه . وليعلم أن رفيقه فى هذا الصراط : هم الذين أنعم الله عليهم . فلا يكترث بمخالفة

الناكبين عنه له . فإنهم هم الأقلّون قدرا ، وإن كانوا الأكثرين عددا ، كما قال بعض السلف « عليك بطريق الحق ، ولا تستوحش لقلة السالكين . وإياك وطريق الباطل ، ولا تغتر بكثرة الهالكين » وكلما استوحشت فى تفردك فانظر إلى الرفيق السابق ، واحرص على اللحاق بهم . وغض الطرف عمن سواهم . فإنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً . وإذا صاحوا بك فى طريق سيرك ، فلا تلتفت إليهم . فإنك متى التفت إليهم أخذوك وعاقوك .

وقد ضربت لذلك مثلين . فليكونا منك على بال .

المثل الأول : رجل خرج من بيته إلى الصلاة ، لا يريد غيرها . فعرض له فى طريقه شيطان من شياطين الإنس ، فألقى عليه كلاماً يؤذيه . فوقف ورد عليه ، وتماسكا . فربما كان شيطان الإنس أقوى منه ، فقهره ، ومنعه عن الوصول إلى المسجد ، حتى فاتته الصلاة . وربما كان الرجل أقوى من شيطان الإنس ، ولكن اشتغل بمهاوشته عن الصف الأول ، وكمال إدراك الجماعة . فإن التفت إليه أطمعه فى نفسه . وربما فترت عزيمته . فإن كان له معرفة وعلم زاد فى السعى والجمز(١) بقدر التفاته أو أكثر . فإن أعرض عنه واشتغل بما هو بصدده ، وخاف فوت الصلاة أو الوقت : لم يبلغ عدوه منه ما شاء .

المثل الثانى : الظبى أشد سعياً من الكلب ، ولكنه إذا أحس به التفت إليه فيضعف سعيه . فيدركه الكلب فيأخذه .

والقصد : أن فى ذكر هذا الرفيق : مايزيل وحشة التفرد ، ويحث على السير والتشمير للحاق بهم .

وهذه إحدى الفوائد فى دعاء القنوت « اللهم اهدنى فيمن هديت » أى أدخلنى فى هذه الزمرة ، واجعلنى رفيقاً لهم ومعهم .

والفائدة الثانية : أنه توسل إلى الله بنعمه ، وإحسانه إلى من أنعم عليه بالهداية

---

(١) الجمز : سرعة السير والعدو .

أى قد أنعمت بالهداية على من هديت ، وكان ذلك نعمة منك . فاجعل لى نصيباً من هـذه النعمة ، واجعلنى واحـداً من هؤلاء المنعم عليهم . فهو توسل إلى الله بإحسانه .

والفائدة الثالثة : كما يقول السائل للكريم : تصـدق علىّ فى جملة من تصدقت عليهم . وعلمنى فى جملة من علمته . وأحسن إلىّ فى جملة من شملته بإحسانك .

فصـل

ـ ولما كان سؤال الله الهداية إلى الصراط المستقيم أجلّ المطالب ، ونَيْلُه أشرفَ المواهب : علَّم الله عباده كيفية سؤاله ، وأمرهم أن يقدموا بين يديه حمدَه والثناء عليه ، وتمجيده . ثم ذكر عبوديتهم وتوحيدهم . فهاتان وسيلتان إلى مطلوبهم . توسلٌ إليه بأسمائه وصفاته ، وتوسل إليه بعبوديته . وهاتان الوسيلتان لايكاد يرد معهما الدعاء . ويؤيدهما الوسيلتان المذكورتان فى حديثى الاسم الأعظم اللذين رواهما ابن حبان فى صحيحه . والإمام أحمد والترمذى .

أحدهما : حديث عبد الله بن بُريدة عن أبيه قال « سمع النبى صلى الله عليه وسلم رجلا يدعو ، ويقول : اللهم إنى أسألك بأنى أشهد أنك الله الذى لا إله إلا أنت ، الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كُفواً أحد . فقال : والذى نفسى بيده ، لقد سأل الله باسمه الأعظم ، الذى إذا دُعى به أجاب ، وإذا سُئل به أعطى » قال الترمذى : حديث صحيح . فهذا توسل إلى الله بتوحيده ، وشهادة الداعى له بالوحدانية . وثبوت صفاته المدلول عليها باسم «الصمد» وهو كما قال ابن عباس « العالم الذى كمل علمه ، القادر الذى كملت قدرته » وفى رواية عنه « هو السيد الذى قد كمل فيه جميع أنواع السؤدد » وقال أبو وائل « هو السيد الذى انتهى سؤددة » وقال سعيد بن جبير « هو الـكامل فى جميع صـفاته وأفعاله وأقواله »

و بنفى التشبيه والتمثيل عنه بقوله « ولم يكن له كفواً أحد » وهذه ترجمة عقيدة أهل السنة . والتوسل بالإيمان بذلك ، والشهادة به هو الاسم الأعظم .

والثانى : حديث أنس « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يدعو : اللهم إنى أسألك بأن لك الحمد ، لا إله إلا أنت ، المنّان ، بديع السموات والأرض . ذا الجلال والإكرام ، ياحى ياقيوم . فقال : لقد سأل الله باسمه الأعظم » فهذا توسل إليه بأسمائه وصفاته .

وقد جمعت الفاتحة الوسيلتين ، وهما التوسل بالحمد ، والثناء عليه وتمجيده ، والتوسل إليه بعبوديته وتوحيده . ثم جاء سؤال أهم المطالب ، وأنجح الرغائب — وهو الهداية — بعد الوسيلتين . فالداعى به حقيق بالإجابة .

ونظير هذا : دعاء النبى صلى الله عليه وسلم ، الذى كان يدعو به إذا قام يصلى من الليل . رواه البخارى فى صحيحه من حديث ابن عباس « اللهم لك الحمد ، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن . ولك الحمد ، أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن . ولك الحمد ، أنت الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والنبيون حق ، والساعة حق ، ومحمد حق . اللهم لك أسلمت ، و بك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت . و بك خاصمت ، و إليك حاكمت . فاغفر لى ماقدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، أنت إلهى لا إله إلا أنت » فذكر التوسل إليه بحمده والثناء عليه و بعبوديته له . ثم سأله المغفرة .

فصل

فى اشتمال هذه السورة على أنواع التوحيد الثلاثة التى اتفقت عليها الرسل صلوات الله وسلامه عليهم .

التوحيد نوعان : نوع فى العلم والاعتقاد . ونوع فى الإرادة والقصد . و يسمى

الأول : التوحيد العلمى . والثانى : التوحيد القصـدى الإرادى . لتعلق الأول بالأخبار والمعرفة . والثانى بالقصد والإرادة . وهـذا الثانى أيضاً نوعان : توحيد فى الربوبية ، وتوحيد فى الإلهية . فهذه ثلاثة أنواع .

فأما توحيد العلم : فمداره على إثبات صفات الـكمال ، وعلى نفى التشبيه والمثـال . والتنزيه عن العيوب والنقائص . وقد دل على هذا شيئان : مجمل ، ومفصل .

أما المجمل : فإثبـات الحمد له سبحانه . وأما المفصـل : فذكر صفة الإلٰهية والربوبية ، والرحمة والملك . وعلى هذه الأربع مدار الاسماء والصفات .

فأما تضمن الحمد لذلك : فإن الحمد يتضمن مدح المحمود بصفات كماله ، ونعوت جلاله ، مع محبته والرضا عنه ، والخضوع له . فلا يكون حامداً من جحد صفات المحمود ، ولا من أعرض عن محبته والخضوع له . وكلما كانت صفات كمال المحمود أكثر كان حمده أكمل ، وكلما نقص من صفات كماله نقص من حمده بحسبها . ولهذا كان الحمد كله لله حمداً لايحصيه سواه ، لكمال صفاته وكثرتها . ولأجل هذا لايحصى أحد من خلقه ثناء عليه ، لمـا له من صفات الـكمال ، ونعوت الجلال التى لايحصيها سواه . ولهذا ذم الله تعالى آلهة الـكفار ، وعابها بسلب أوصاف الـكمال عنها . فعابها بأنها لاتسمع ولا تبصر ، ولا تتكلم ولا تهدى ، ولا تنفع ولا تضر . وهذه صفة إله الجهمية ، التى عاب بها الأصنام ، نسبوها إليه ، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً . فقال تعالى حكاية عن خليله إبراهيم عليه السلام فى محاجَّته لأبيه (١٩ : ٤٢ ياأبتِ لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً ؟) فلو كان إله إبراهيم بهذه الصفة والمثابة لقال له آزر : وأنت إلهك بهذه المثابة ، فـكيف تنـكر علىّ ؟ لـكن كان — مع شركه — أعرف بالله من الجهمية . وكذلك كفار قريش كانوا — مع شركهم — مقرين بصفات الصانع سبحانه وعلوه على خلقه . وقال تعالى (٧ : ١٤٨ واتخذ قوم موسى من بعده من حُليهم عجلا

جسداً له خُوار . ألم يروا أنه لايكلمهم ولا يهديهم سبيلا ؟ اتخذوه وكانوا ظالمين) فلو كان إله الخلق سبحانه كذلك لم يكن فى هذا إنكار عليهم ، واستدلال على بطلان الإلهية بذلك .

فإن قيل : فالله تعالى لايكلم عباده .

قيل : بلى ، قد كلمهم . فمنهم من كلمه الله من وراء حجاب ، منه إليه بلا واسطة ، كموسى. ومنهم من كلمه الله على لسان رسوله الملكى . وهم الأنبياء . وكلم الله سائر الناس على ألسنة رسله . فأنزل عليهم كلامه الذى بلغته رسله عنه . وقالوا لهم : هذا كلام الله الذى تكلم به ، وأمرنا بتبليغه إليكم . ومن ههنا قال السلف : من أنكر كون الله متكلماً فقد أنكر رسالة الرسل كلهم . لأن حقيقتها تبليغ كلامه الذى تكلم به إلى عباده . فإذا انتفى كلامه انتفت الرسالة . وقال تعالى فى سورة طه عن السامرى (٢٠ : ٨٨ فأخرج لهم عجلا جسداً له خوار ، فقالوا : هذا إلهكم و إله موسى ، فنسى . أفلا يرون أن لا يرجع إليهم قولا ، ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً ؟) ورَجْع القول : هو التكلم والتكليم . وقال تعالى (١٦ : ٧٦ ضرب الله مثلا : رجلين أحدهما أبكم لايقدر على شىء ، وهو كَلٌّ على مولاه ، أينما يوجهه لايأت بخير ، هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل ، وهو على صراط مستقيم ؟) فجعل نفى صفة الكلام موجباً لبطلان الإلهية . وهذا أمر معلوم بالفطر والعقول السليمة والكتب السماوية : أن فاقد صفات الكمال لايكون إلهاً ، ولا مدبراً ، ولا ربًّا ، بل هو مذموم ، معيب ناقص ، ليس له الحمد ، لافى الأولى ، ولا فى الآخرة . و إنما الحمد فى الأولى والآخرة لمن له صفات الكمال ، ونعوت الجلال ، التى لأجلها استحق الحمد . ولهذا سمى السلف كتبهم التى صنفوها فى السنة ، و إثبات صفات الرب وعلوه على خلقه ، و كلامه وتكليمه : توحيداً . لأن نفى ذلك و إنكاره والكفر به إنكار للصانع ، وجحد له . و إنما توحيده : إثبات صفات كماله ، وتنزيهه عن التشبيه والنقائص . فجعل المعطلة جحد الصفات وتعطيل الصانع عنها

توحيداً . وجعلوا إثباتها لله تشبيهاً وتجسيماً وتركيباً . فسموا الباطل باسم الحق ، ترغيباً فيه ، وزخرفاً يُنفِّقونه به . وسموا الحق باسم الباطل تنفيراً عنه . والناس أكثرهم مع ظاهر السِّكَّة ، ليس لهم نقد النقاد (١٨ : ١٧ من يهد الله فهو المهتدى . ومن يضلل فلن تجد له وليًّا مرشداً) والمحمود لايحمد على العدم والسكوت ألبتة ، إلا إذا كانت سلب عيوب ونقائص ، تتضمن إثبات أضدادها من الكمالات الثبوتية ، و إلا فالسلب المحض لاحمد فيه ، ولا مدح ولا كمال .

وكذلك حمده لنفسه على عدم اتخاذ الولد المتضمن لكمال صمديته وغناه وملكه ، وتعبيد كل شيء له . فاتخاذ الولد ينافى ذلك ، كما قال تعالى (١٠ : ٦٧ قالوا اتخذ الله ولدا ، سبحانه ، هو الغنى . له مافي السموات ومافى الأرض) .

وحمد نفسه على عدم الشريك ، المتضمن تفرده بالربوبية والإلهية ، وتوحده بصفات الكمال التى لايوصف بها غيره ، فيكون شريكا له . فلو عدمها لكان كل موجود أكمل منه . لأن الموجود أكمل من المعدوم . ولهذا لايحمد نفسه سبحانه بعدم إلا إذا كان متضمناً لثبوت كمال . كما حمد نفسه بكونه لايموت لتضمنه كمال حياته . وحمد نفسه بكونه لا تأخذه سِنة ولانوم ، لتضمن ذلك كمال قيوميته . وحمد نفسه بأنه لايعزُب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ، لكمال علمه و إحاطته . وحمد نفسه بأنه لايظلم أحداً ، لكمال عدله و إحسانه . وحمد نفسه بأنه لاتدركه الأبصار ، لكمال عظمته ، يُرى ولا يدرَك ، كما أنهُ يعلم ولا يحاط به علما . فمجرد نفى الرؤية ليس بكمال . لأن العدم لايرى . فليس فى كون الشيء لايرى كمال ألبتة . و إنما الكمال فى كونه لايحاط به رؤية ولا إدراكا ، لعظمته فى نفسه ، وتعاليه عن إدراك المخلوق له . وكذلك حمد نفسه بعدم الغفلة والنسيان ، لكمال علمه .

فكل سلب فى القرآن حمد الله به نفسه فلمضادته لثبوت ضده ، ولتضمنه كمال ثبوت ضده .

فعلمت أن حقيقة الحمد تابعة لثبوت أوصاف الـكمال ، وأن نفيها نفى لحمده ، ونفى الحمد مستلزم لثبوت ضده .

فصـل

فهذه دلالة على توحيد الأسماء والصفات .

وأما دلالة الأسماء الخمسة عليها ، وهى « الله ، والرب ، والرحمن ، والرحيم ، والملك » فمبنى على أصلين :

أحدهما : أن أسماء الرب تبارك وتعـالى دالة على صفات كماله . فهى مشتقة من الصفات . فهى أسماء ، وهى أوصاف . و بذلك كانت حُسْنَى ، إذ لو كانت ألفاظاً لامعانى فيها لم تـكن حسنى ، ولا كانت دالة على مدح ولا كمال . ولساغ وقوع أسماء الانتقام والغضب فى مقام الرحمة والإحسان ، و بالعـكس . فيقال : اللهم إنى ظلمت نفسى ، فاغفرلى إنك أنت المنتقم . واللهم أعطنى ، فإنك أنت الضار المانع ، ونحو ذلك .

ونفى معانى أسمائه الحسنى من أعظم الإلحاد فيها . قال تعالى (٧ : ١٧٠ وذروا الذين يلحدون فى أسمائه ، سيجزون ما كانوا يعملون) ولأنها لو لم تدل على معان وأوصاف لم يجز أن يخبر عنها بمصادرها و يوصف بها . لـكن الله أخبر عن نفسه بمصادرها ، وأثبتها لنفسه ، وأثبتها له رسوله ، كقولهِ تعالى (٥١ : ٥٨ إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) فعلم أن « القوىَّ » من أسمائه ، ومعناه الموصوف بالقوة . وكذلك قوله (٣٥ : ١٠ فلله العزة جميعاً) فالعزيز من له العزة ، فلولا ثبوت القوة والعزة له لم يسم قوياً ولا عزيزاً . وكذلك قوله (٤ : ١٦٦ أنزله بعلمه) (١١ : ١٤ فاعلموا أنما أنزل بعلم الله) (٢ : ٢٥٥ ولا يحيطون بشىء من علمه)

وفى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم « إن الله لاينام ، ولا ينبغى له أن ينام ، يخفض القسط و يرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل النهار ، وعمل النهار قبل

الليل ، حجابه النور ، لو كشفه لأحرقت سُبحات وجهه ماانتهى إليه بصره من خلقه » فأثبت المصدر الذى اشتُقَّ منه اسمه « البصير » .

وفى صحيح البخارى عن عائشة رضى الله عنها « الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات » .

وفى الصحيح حديث الاستخارة « اللهم إنى أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك » فهو قادر بقدرة .

وقال تعالى لموسى (٧ : ١٤٤ إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى) فهو متكلم بكلام .

وهو العظيم الذى له العظمة ، كما فى الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى : العظمة إزارى ، والكبرياء ردائى » وهو الحكيم الذى له الحكم (٤٠:١٢ فالحكم لله العلى الكبير) وأجمع المسلمون أنه لو حلف بحياة الله ، أوسمعه ، أو بصره ، أو قوته ، أو عزته أو عظمته : انعقدت يمينه ، وكانت مكفرة . لأن هذه صفات كماله التى اشتقت منها أسماؤه .

وأيضاً : لو لم تكن أسماؤه مشتملة على معان وصفات لم يسغ أن يخبرعنه بأفعالها . فلا يقال : يسمع ويرى ، ويعلم ويقدر ويريد . فإن ثبوت أحكام الصفات فرع ثبوتها . فإذا انتفى أصل الصفة استحال ثبوت حكمها .

وأيضاً فلو لم تكن أسماؤه ذوات معان وأوصاف لكانت جامدة كالأعلام المحضة ، التى لم توضع لمسماها باعتبار معنى قام به . فكانت كلها سواء ، ولم يكن فرق بين مدلولاتها . وهذا مكابرة صريحة ، وبَهت بَيِّن . فإن من جعل معنى اسم « القدير » هو معنى اسم « السميع ، البصير » ومعنى اسم « التواب » هو معنى اسم « المنتقم » ومعنى اسم « المعطى » هو معنى اسم « المانع » فقد كابر العقل واللغة والفطرة .

فنفى معانى أسمائه من أعظم الإلحاد فيها : والإلحاد فيها أنواع ، هذا أحدها .

الثانى : تسمية الأوثان بها ، كما يسمونها آلهة . وقال ابن عباس ومجاهد « عدلوا بأسماء الله تعالى عما هى عليه ، فسموا بها أوثانهم ، فزادوا ونقصوا . فاشتقوا اللات من الله ، والعزى من العزيز ، ومناة من المنان » وروى عن ابن عباس (يلحدون فى أسمائه) « يكذبون عليه » وهذا تفسير بالمعنى .

وحقيقة الإلحاد فيها : العدول بها عن الصواب فيها ، وإدخال ما ليس من معانيها فيها ، وإخراج حقائق معانيها عنها . هذا حقيقة الإلحاد . ومن فعل ذلك فقد كذب على الله . ففسر ابن عباس الإلحاد بالكذب ، أو هو غاية الملحد فى أسمائه تعالى ، فإنه إذا أدخل فى معانيها ماليس منها ، وخرج بها عن حقائقها ، أو بعضها ، فقد عدل بها عن الصواب والحق ، وهو حقيقة الإلحاد .

فالإلحاد : إما بجحدها وإنكارها ، وإما بجحد معانيها وتعطيلها ، وإما بتحريفها عن الصواب ، وإخراجها عن الحق بالتأويلات الباطلة ، وإما بجعلها أسماء لهذه المخلوقات المصنوعات ، كإلحاد أهل الإتحاد . فإنهم جعلوها أسماء هذا الكون ، محمودها ومذمومها ، حتى قال زعيمهم[1] « وهو المسمى بكل اسم ممدوح عقلا ، وشرعاً وعرفاً ، وبكل اسم مذموم عقلاً وشرعاً وعرفاً » تعالى الله عما يقول الملحدون علواً كبيراً .

فصل

الأصل الثانى : أن الاسم من أسمائه تبارك وتعالى كما يدل على الذات والصفة التى اشتق منها بالمطابقة . فإنه يدل عليه دلالتين أخريين بالتضمن واللزوم . فيدل على الصفة بمفردها بالتضمن ، وكذلك على الذات المجردة عن الصفة . ويدل على الصفة الأخرى باللزوم . فإن اسم « السميع » يدل على ذات الرب وسمعه بالمطابقة . وعلى الذات وحدها . وعلى السمع وحده بالتضمن . ويدل على اسم «الحى» وصفة الحياة بالالتزام . وكذلك سائر أسمائه وصفاته . ولكن يتفاوت الناس

(١) هو أبو سعيد الخراز ، الذى قال عن ربه : وهو المسمى بأبى سعيدالخراز .

فى معرفة اللزوم وعدمه . ومن ههنا يقع اختلافهم فى كثير من الأسماء والصفات والأحكام . فإن من علم أن الفعل الاختيارى لازم للحياة ، وأن السمع والبصر لازم للحياة الكاملة ، وأن سائر الكمال من لوازم الحياة الكاملة ـ أثبت من أسماء الرب وصفاته وأفعاله ماينكره من لم يعرف لزوم ذلك ، ولا عرف حقيقة الحياة ولوازمها ، وكذلك سائر صفاته .

فإن اسم « العظيم » له لوازم ينكرها من لم يعرف عظمة الله ولوازمها .

وكذلك اسم « العلي » واسم « الحكيم » وسائر أسمائه ، فإن من لوازم اسم «العلي» العلو المطلق ، بكل اعتبار . فله العلو المطلق من جميع الوجوه : علو القدر ، وعلو القهر ، وعلو الذات . فمن جحد علو الذات فقد جحد لوازم اسمه « العلي » .

وكذلك اسمه «الظاهر» من لوازمه : أن لايكون فوقه شيء ، كما فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم « وأنت الظاهر ، فليس فوقك شيء » بل هو سبحانه فوق كل شيء . فمن جحد فوقيته سبحانه فقدجحد لوازم اسمه « الظاهر » ولايصح أن يكون «الظاهر» هو من له فوقية القدر فقط ، كما يقال : الذهب فوق الفضة ، والجوهر فوق الزجاج . لأن هذه الفوقية تتعلق بالظهور ، بل قد يكون المفوَّق أظهر من الفائق فيها . ولا يصح أن يكون ظهور القهر والغلبة فقط ، وإن كان سبحانه ظاهراً بالقهر والغلبة ، لمقابلة الاسم بـ« الباطن » وهو الذى ليس دونه شيء ، كما قابل « الأول » الذى ليس قبله شيء ، بـ« الآخر » الذى ليس بعده شيء .

وكذلك اسم « الحكيم » من لوازمه ثبوت الغايات المحمودة المقصودة له بأفعاله ، ووضعه الأشياء فى مواضعها ، وإيقاعها على أحسن الوجوه . فإنكار ذلك إنكار لهذا الاسم ولوازمه . وكذلك سائر أسمائه الحسنى .

فصـل

إذا تقرر هذان الأصـلان . فاسم « الله » دال على جميع الأسماء الحسنى . والصفات العليا بالدلالات الثلاث . فإنه دال على إلٰهيته المتضمنة لثبوت صفات الإلٰهية له ، مع نفى أضدادها عنه .

وصفات الإلٰهية (١) : هى صفات الـكمال ، المنزهة عن التشبيه والمثـال ، وعن العيوب والنقائص . ولهذا يضيف الله تعالى سائر الأسماء الحسنى إلى هذا الاسم العظيم ، كقوله تعالى (٧ : ١٨٠ ولله الأسمـاء الحسنى) ويقال « الرحمن والرحيم ، والقدوس والسلام ، والعزيز ، والحـكيم » من أسماء الله ، ولا يقال : « الله » من أسماء « الرحمن » ولا من أسماء « العزيز » ونحو ذلك .

فعلم أن اسمه « الله » مستلزم لجميع معانى الأسماء الحسنى ، دال عليها بالإجمال والأسماء الحسنى تفصيل وتبيين لصفات الإلٰهية ، التى اشتق منها اسم «الله» واسم « الله » دال على كونه مألوهاً معبوداً ، تألهه الخلائق محبة وتعظيما وخضوعاً ، وفزعاً

---

(١) يريد ـ رحمنا الله وإياه ـ صفات الرب التى استحق بها أن يكون هو الإله وحده لاشريك له . وإلا فالآلهة الباطلة كثيرة لا تحصى ، بما اتخذ الناس بجهلهم وضلالهم وتسويل الشيطان لهم ، وما زين لهم فى الأرض وأغواهم فاتخذوا من دون الله أوليـاء أعطوهم من ذل القلوب وحبها ، وتعظيمها وتقديسها ، واللجأ إليهم ، ودعائهم ، وتقريبهم القرابين ، وإقامتهم الشعائر لهم ـ ماهو من خصائص الإلهية التى لا تليق إلا لرب العالمين سبحانه وتعالى . فإنهم ماألهوا أولياءهم هذا التأليه إلا حين دانوا بما أوحى إليهم الشيطان من أن فيهم شيئاً من الله . سموه نوراً انبثق من الرب وفاض منه ، فـكانت لهم من ذلك النور والسر خصائص الرب وأسماؤه وصفاته ، من الحيـاة الدائمة والقدرة والغنى ، والـكرم والرحمة ، والقوة والبطش والقهر ، والإعطاء ، والمنع ، والرفع والخفض ، كما تنادى بذلك أعمالهم وأقوالهم ، فقد قال الشعرانى فى كتاب « العهود المحمدية » إن للأولياء : العزل ، والتولية ، والخفض والرفع ، والإعطاء ، والمنع ، والقبض ، والبسط والقهر ،والتحكم فى الله تعالى اهـ ربنا عن ذلك علواً كبيراً .

إليه فى الحوائج والنوائب . وذلك مستلزم لـكمال ربو بيته ورحمته ، المتضمنين لـكمال الملك والحمد . و إلٰهيته وربو بيته ورحمانيته وملـكه مستلزم لجميع صفات كماله . إذ يستحيل ثبوت ذلك لمن ليس بحى ، ولا سميع ، ولا بصير ، ولا قادر ، ولا متكلم ، ولا فعال لما يريد ، ولا حكيم فى أفعاله .

وصفات الجلال والجمال : أخص باسم « الله » .

وصفات الفعل والقدرة ، والتفرد بالضر والنفع . والعطاء والمنع ، ونفوذ المشيئة وكمال القوة . وتدبير أمر الخليقة : أخص باسم « الرب » .

وصفات الإحسان ، والجود والبر ، والحنان والمنة ، والرأفة واللطف : أخص باسم « الرحمن » وكرر إيذاناً بثبوت الوصف ، وحصول أثره ، وتعلقه بمتعلقاته .

فالرحمن : الذى الرحمة وصفه . والرحيم : الراحم لعباده . ولهذا يقول تعالى (٣٣ : ٤٣ وكان بالمؤمنين رحيما) (٩ : ١١٧ إنه بهم رءوف رحيم) ولم يجىء رحمان بعباده ، ولا رحمان بالمؤمنين ، مع مافى اسم « الرحمن » الذى هو على وزن فعلان من سعة هذا الوصف ، وثبوت جميع معناه الموصوف به .

ألا ترى أنهم يقولون : غضبان ، للممتلىء غضبا ، وندمان وحيران وسكران ولهفان لمن ملىء بذلك ، فبناء فَعْلان للسعة والشمول . ولهذا يقرن استواءه على العرش بهذا الإسم كثيراً ، كقوله تعالى (٢٠ : ٥ الرحمن على العرش استوى) (٢٦ : ٥٩ ثم استوى على العرش الرحمن) فاستوى على عرشه باسم الرحمن ، لأن العرش محيط بالمخلوقات ، قد وسعها . والرحمة محيطة بالخلق واسعة لهم ، كما قال تعالى (٧ : ١٥٦ ورحمتى وسعت كل شىء) فاستوى على أوسع المخلوقات بأوسع الصفات . فلذلك وسعت رحمته كل شىء . وفى الصحيح من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لما قضى الله الخلق كتب فى كتاب ، فهو عنده موضوع على العرش . إن رحمتى تغلب غضبى » وفى لفظ « فهو عنده على العرش » .

فتأمل اختصاص هذا الكتاب بذكر الرحمة ، ووضعه عنده على العرش ، وطابق بين ذلك و بين قوله (الرحمن على العرش استوى) وقوله (٢٥ : ١٥٦ ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيرا) ينفتح لك باب عظيم من معرفة الرب تبارك وتعالى ، إن لم يغلقه عنك التعطيل والتجهم .

وصفات العدل ، والقبض والبسط ، والخفض والرفع ، والعطاء والمنع ، والإعزاز والإذلال ، والقهر والحكم ، ونحوها : أخص باسم « الملك » وخصه بيوم الدين ، وهو الجزاء بالعدل ، لتفرده بالحكم فيه وحده ، ولأنه اليوم الحق ، وما قبله كساعة . ولأنه الغاية ، وأيام الدنيا مراحل إليه .

فصل

وتأمل ارتباط الخلق والأمر بهذه الأسماء الثلاثة . وهى « الله ، والرب ، والرحمن » كيف نشأ عنها الخلق ، والأمر ، والثواب ، والعقاب ؟ وكيف جمعت الخلق وفرقتهم ؟ فلها الجمع . ولها الفرق .

فاسم « الرب » له الجمع الجامع لجميع المخلوقات . فهو رب كل شىء وخالقه ، والقادر عليه ، لايخرج شىء عن ربوبيته . وكل من فى السموات والأرض عبد له فى قبضته ، وتحت قهره . فاجتمعوا بصفة الربوبية ، وافترقوا بصفة الإلهية ، فألَّهه وحده السعداء ، وأقروا له طوعاً بأنه الله الذى لاإله إلا هو ، الذى لاتنبغى العبادة والتوكل ، والرجاء والخوف ، والحب والإنابة والإخبات والخشية ، والتذلل والخضوع إلا له .

وهنا افترق الناس ، وصاروا فريقين : فريقاً مشركين فى السعير ، وفريقاً موحدين فى الجنة .

فالإلهية هى التى فرقتهم ، كما أن الربوبية هى التى جمعتهم .

فالدين والشرع ، والأمر والنهى ــ مظهره ، وقيامه ــ : من صفة الإلهية . والخلق

والإيجاد والتدبير والفعل : من صفة الربوبية . والجزاء بالثواب والعقاب والجنة والنار : من صفة الملك . وهو ملك يوم الدين . فأمرهم بإلهيته ، وأعانهم ووفقهم وهداهم وأضلهم بربوبيته . وأثابهم وعاقبهم بملكه وعدله . وكل واحدة من هذه الأمور لاتنفك عن الأخرى .

وأما الرحمة : فهي التعلق ، والسبب الذى بين الله و بين عباده . فالتأليه منهم له ، والربوبية منه لهم . والرحمة سبب واصل بينه و بين عباده ، بها أرسل إليهم رسله ، وأنزل عليهم كتبه . وبها هداهم . وبها أسكنهم دار ثوابه . وبها رزقهم وعافاهم وأنعم عليهم . فبينهم و بينه سبب العبودية ، و بينه و بينهم سبب الرحمة .

واقتران ربوبيته برحمته كاقتران استوائه على عرشه برحمته . ف(الرحمن على العرش استوى) مطابق لقوله (رب العالمين ، الرحمن الرحيم) فإن شمول الربوبية وسعتها بحيث لايخرج شيء عنها أقصى شمول الرحمة وسعتها . فوسع كل شيء برحمته وربوبيته ، مع أن فى كونه رباً للعالمين مايدل على علوه على خلقه ، وكونه فوق كل شيء ، كما يأتى بيانه إن شاء الله .

فصل

فى ذكر هذه الأسماء بعد الحمد ، وإيقاع الحمد على مضمونها ومقتضاها : مايدل على أنه محمود فى إلهيته ، محمود فى ربوبيته ، محمود فى رحمانيته ، محمود فى ملكه ، وأنه إله محمود ، ورب محمود ، ورحمان محمود ، وملك محمود . فله بذلك جميع أقسام الكمال : كمال من هذا الاسم بمفرده ، وكمال من الآخر بمفرده ، وكمال من اقتران أحدهما بالآخر .

مثال ذلك : قوله تعالى (والله غنى حميد) (والله عليم حكيم) (والله قدير والله غفور رحيم) فالغنى صفة كمال . والحمد صفة كمال ، واقتران غناه بحمده كمال

أيضاً . وعلمه كمال ، وحكمته كمال ، واقتران العلم بالحكمة كمال أيضاً . وقدرته كمال ومغفرته كمال ، واقتران القدرة بالمغفرة كمال ، وكذلك العفو بعد القدرة (٤ : ١٤ إن الله كان عفواً قديراً) واقتران العلم بالحلم (٤ : ١١ والله عليم حليم) .

وحملة العرش أربعة : اثنان يقولان « سبحانك اللهم وبحمدك ، لك الحمد على حلمك بعد علمك » واثنان يقولان « سبحانك اللهم وبحمدك ، لك الحمد على عفوك بعد قدرتك » فما كل من قدر عفا ، ولا كل من عفا يعفو عن قدرة ، ولا كل من علم يكون حليما ، ولا كل حليم عالم . فما قُرن شيء إلى شيء أزين من حلم إلى علم . ومن عفو إلى قدرة ، ومن ملك إلى حمد ، ومن عزة إلى رحمة (٢٦ : ٩ وإن ربك لهو العزيز الرحيم) ومن ههنا كان قول المسيح عليه السلام (٥ : ١٢١ إن تعذبهم فإنهم عبادك . وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) أحسن من أن يقول : وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم . أى إن غفرت لهم كان مصدر مغفرتك عن عزة . وهى كمال القدرة . وعن حكمة ، وهى كمال العلم . فمن غفر عن عجز وجهل بجرم الجانى [لا يكون قادراً حكيماً عليما . بل لا يكون ذلك إلا عجزاً[1]] فأنت لا تغفر إلا عن قدرة تامة ، وعلم تام ، وحكمة تضع بها الأشياء مواضعها . فهذا أحسن من ذكر « الغفور الرحيم » فى هذا الموضع ، الدال ذكره على التعريض بطلب المغفرة فى غير حينها ، وقد فاتت . فإنه لو قال : وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم . كان فى هذا — من الاستعطاف والتعريض بطلب المغفرة لمن لا يستحقها — ماينزه عنه منصب المسيح عليه السلام ، لاسيما والموقف موقف عظمة وجلال ، وموقف انتقام ممن جعل لله ولداً ، واتخذه إلهاً من دونه . فذكر العزة والحكمة فيه أليق من ذكر الرحمة والمغفرة . وهذا بخلاف قول الخليل عليه السلام (١٤ : ٣٥ و ٣٦ واجنبنى وبَنيَّ أن نعبد الأصنام . رب إنهن أضللن كثيراً من الناس . فمن تبعنى فإنه منى ، ومن عصانى فإنك غفور رحيم) ولم يقل :

(١) مابين المربعين زدناه ليتصل الكلام .

فإنك عزيز حكيم . لأن المقام مقام استعطاف وتعريض بالدعاء ، أى إن تغفر لهم وترحمهم ، بأن توفقهم للرجوع من الشرك إلى التوحيد ، ومن المعصية إلى الطاعة ، كما فى الحديث « اللهم اغفر لقومى فإنهم لايعلمون » .

وفى هذا أظهر الدلالة على أن أسماء الرب تعالى مشتقة من أوصاف ومعان قامت به ، وأن كل اسم يناسب ماذكر معه ، واقترن به ، من فعله وأمره . والله الموفق للصواب .

فصــل

فى مراتب الهداية الخاصة والعامة . وهى عشر مراتب

المرتبة الأولى : مرتبة تكليم الله عز وجل لعبده يقظة بلا واسطة ، بل منه إليه . وهذه أعلى مراتبهـا ، كما كلم موسى بن عمران ، صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه . قال الله تعـالى (٤ : ١٦٣ وكلم الله موسى تكليما) فذكر فى أول الآية وحيه إلى نوح والنبيين من بعده ، ثم خص موسى من بينهم بالإخبار بأنه كلمه . وهذا يدل على أن التكليم الذى حصل له أخص من مطلق الوحى الذى ذكر فى أول الآية . ثم أكده بالمصدر الحقيقى الذى هو مصدر « كلم » وهو «التكليم» رفعاً لما يتوهمه المعطلة والجهمية والمعتزلة وغيرهم من أنه إلهام ، أو إشارة ، أو تعريف للمعنى النفسى بشىء غير التكليم . فأكده بالمصدر المفيد تحقيق النسبة ورفع توهم المجاز . قال الفراء : العرب تسمى مايوصل إلى الإنسان كلاماً بأى طريق وصل . ولـكن لاتحققه بالمصدر ، فإذا حققته بالمصدر لم يكن إلا حقيقة الـكلام ، كالإرادة . يقال : فلان أراد إرادة ، يريدون حقيقة الإرادة . ويقال : أراد الجدار ، ولا يقال : إرادة . لأنه مجاز غير حقيقة . هذا كلامه . وقال تعالى (٧ : ١٤٢ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه ، قال : رب أرنى أنظر إليك) وهذا التكليم غير التكليم الأول الذى أرسله به إلى فرعون . وفى هذا التكليم

الثانى سأل النظر ، لافى الأول . وفيه أعطى الألواح . وكان عن مواعدة من الله له . والتكليم الأول لم يكن عن مواعدة . وفيه قال الله له (٧ : ١٤٣ ياموسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى و بكلامى) أى بتكليمى لك بإجماع السلف.

وقد أخبر سبحانه فى كتابه : أنه ناداه وناجاه . فالنداء من بُعد ، والنجاء من قرب . تقول العرب : إذا كبرت الحلقة فهو نداء . أو نجاء[1] وقال له أبوه آدم فى محاجته « أنت موسى الذى اصطفاك الله بكلامه ، وخط لك التوراة بيده ؟ » . وكذلك يقول له أهل الموقف إذا طلبوا منه الشفاعة إلى ربه.وكذلك فى حديث الإسراء فى رؤية موسى فى السماء السادسة أو السابعة ، على اختلاف الرواية . قال « وذلك بتفضيله بكلام الله » ولو كان التكليم الذى حصل له من جنس ماحصل لغيره من الأنبياء لم يكن لهذا التخصيص به فى هذه الأحاديث معنى . ولا كان يسمى « كليم الرحمن » وقال تعالى (٤٢ : ٥١ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا ، أو من وراء حجاب ، أو يرسل رسولاً فيوحى بإذنه مايشاء) ففرق بين تكليم الوحى ، والتكليم بإرسال الرسول ، والتكليم من وراء حجاب .

فصــل

المرتبة الثانية : مرتبة الوحى المختص بالأنبياء . قال الله تعالى (٤ : ١٢٦ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده) وقال (٤٢ : ٥١ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب ـ الآية) فجعل الوحى فى هذه الآية قسماً من أقسام التكليم . وجعله فى آية النساء قسيماً للتكليم . وذلك باعتبارين . فإنه قسيم التكليم الخاص الذى هو بلا واسطة ، وقسم من التكليم العام الذى هو إيصال المعنى بطرق متعددة .

---

(١) فى لسان العرب : وفى حديث الشعبى «إذا عظمت الحلقة فهى نداءونجاء»

والوحى فى اللغة : هو الإعلام السريع الخفى ، ويقال فى فعله : وَحَىَ ، وأوحى . قال رؤبة * وَحَى لها القرار فاستقرت * وهو أقسام ، كما سنذكره .

فصـل

المرتبة الثالثة : إرسال الرسول الملكى إلى الرسول البشرى . فيوحى إليه عن الله ما أمره أن يوصله إليه .

فهذه المراتب الثلاث خاصة بالأنبياء ، لاتكون لغيرهم .

ثم هذا الرسول الملكى قد يتمثل للرسول البشرى رجلا ، يراه عياناً ويخاطبه . وقد يراه على صورته التى خلق عليها . وقد يدخل فيه الملك ، ويوحى إليه مايوحيه ، ثم يَفْصِم عنه ، أى يقلع . والثلاثة حصلت لنبينا صلى الله عليه وسلم .

فصـل

المرتبة الرابعة : مرتبة التحديث . وهذه دون مرتبة الوحى الخاص ، وتكون دون مرتبة الصديقين ، كما كانت لعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم « إنه كان فى الأمم قبلكم محدَّثون ، فإن يكن فى هذه الأمة فعمر بن الخطاب » .

وسمعت شيخ الإسلام تقى الدين بن تيمية رحمه الله يقول : جزم بأنهم كائنون فى الأمم قبلنا . وعلق وجودهم فى هذه الأمة بـ « إن » الشرطية ، مع أنها أفضل الأمم ، لاحتياج الأمم قبلنا إليهم ، واستغناء هذه الأمة عنهم بكمال نبيها ورسالته ، فلم يحوج الله الأمة بعده إلى مُحدِّث ولا مُلْهَم ، ولا صاحب كشف ولا منام ، فهذا التعليق لكمال الأمة واستغنائها لا لنقصها .

والمحدَّث : هو الذى يحدَّث فى سره وقلبه بالشىء ، فيكون كما يحدث به .

قال شيخنا : والصديق أكمل من المحدث . لأنه استغنى بكمال صديقيته

ومتابعته عن التحديث والإلهام والـكشف . فإنه قد سَلَّمَ قلبه كله وسره وظاهره و باطنه للرسول . فاستغنى به عما منه[١] .

قال : وكان هذا المحدث يعرض مايحدث به على ماجاء به الرسول . فإن وافقه قبله ، و إلا رده . فعلم أن مرتبة الصديقية فوق مرتبة التحديث .

قال : وأما ما يقوله كثير من أصحاب الخيالات والجهالات « حدثنى قلبي عن ربى » فصحيح أن قلبه حدثه ، ولـكن عَمَّن ؟ عن شيـطانه ، أو عن ربه ؟ فإذا قال « حدثنى قلبي عن ربى » كان مسنداً الحديث إلى من لم يعلم أنه حدثه به ، وذلك كذب . قال : ومحدث الأمة لم يكن يقول ذلك ، ولا تفوَّه به يوماً من الدهر . وقد أعاذه الله من أن يقول ذلك . بل كتب كاتبه يوماً « هـذا ما أرى الله أمير المؤمنين ، عمر بن الخطاب » فقال « لا . امْحُهْ ، واكتب : هذا ما رأى عمر بن الخطاب . فإن كان صواباً فمن الله ، و إن كان خطأ فمن عمر ، والله ورسوله منه برىء » وقال فى الـكلالة « أقول فيها برأيي . فإن يكن صواباً فمن الله . و إن يكن خطأ فمنى ومن الشيطان » فهذا قول المحدث بشهادة الرسول صلى الله عليه وسلم . وأنت ترى الاتحادى والحلولى والإباحى الشطاح ، والسماعى : مجاهر بالقِحَة والفرية . يقول « حدثنى قلبي عن ربى » .

فانظر إلى مابين القائلين والمرتبتين والقولين والحالين . وأعط كل ذى حق حقه ، ولا تجعل الزغل والخالص شيئاً واحداً .

---

(١) كذا فى الأصل . ولعل الصواب « لرسالة الرسول ، فاستغنى بها عن التحديث» لأن الصديقية تكون أيضاً بعد موت الرسول ، كما نرجو أن يكون شيخ الإسلام وتلميذه من الصديقين . وإنما كان تسليمهم لرسالة الرسول صلى الله عليه وسلم علماً وعقيدة وعملا وحالا وأدباً وخلقاً ، ودعوة وحباً وكرهاً وموالاة .

فصــل

المرتبة الخـامسة : مرتبة الإفهام . قال الله تعالى (٢١ : ٧٨ ، ٧٩ وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث ، إذ نَفَشَت فيه غنم القوم ، وكنا لحـكمهم شاهدين . ففهّمناها سليمان ، وكُلاًّ آتينا حكما وعلماً) فذكر هذين النبيين الـكريمين ، وأثنى عليهما بالعـلم والحـكم . وخص سليمان بالفهم فى هذه الواقعة المعينة . وقال على ابن أبى طالب ــ وقد سئل « هل خصكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بشىء دون الناس ؟ » ــ فقال « لا ، والذى فَلَق الحبة و برأ النِّسَمة ، إلا فهماً يؤتيه الله عبداً فى كتابه ، وما فى هذه الصحيفة . وكان فيها العقل ، وهو الديات ، وفكاك الأسير ، وأن لا يقتل مسلم بكافر » وفى كتاب عمر بن الخطاب لأبى موسى الأشعرى رضى الله عنهما « والفهمَ الفهمَ فيما أُدلى إليك » فالفهم نعمة من الله على عبده ، ونور يقذفه الله فى قلبه . يعرف به ، و يدرك مالا يدركه غيره ولا يعرفه ، فيفهم من النص مالا يفهمه غيره ، مع استوائهما فى حفظه . وفهم أصل معناه ،

فالفهم عن الله ورسوله عنوان الصديقية ، ومنشور الولاية النبو ية ، وفيـه تفاوتت مراتب العلماء ، حتى عُدَّ ألفٌ بواحد . فانظر إلى فهم ابن عباس ، وقد سأله عمر ، ومن حضر من أهل بدر وغيرهم عن سورة (إذا جاء نصر الله والفتح) وما خص به ابن عباس من فهمه منها « أنهـا نَعْىُ الله سبحانه نبيه إلى نفسه » و إعلامه بحضور أجله ، وموافقة عمر له على ذلك ، وخفائه عن غيرهما من الصحابة وابن عباس إذ ذاك أحدثهم سناً ، وأين تجد فى هذه السورة الإعلام بأجله ، لولا الفهم الخاص ؟ و يدق هذا حتى يصل إلى مراتب تتقاصر عنها أفهام أكثر الناس ، فيحتاج مع النص إلى غيره . ولا يقع الاستغناء بالنصوص فى حقه . وأما فى حق صاحب الفهم : فلا يحتاج مع النصوص إلى غيرها .

فصـل

المرتبة السـادسة : مرتبة البيان العام . وهو تبيين الحق وتمييزه من الباطل بأدلته وشواهده وأعلامه . بحيث يصير مشهوداً للقلب ، كشهود العين للمرئيات

وهذه المرتبه هى حجة الله على خلقه ، التى لا يعذب أحداً ولا يضله إلا بعد وصوله إليها . قال الله تعالى (٩ : ١١٥ وما كان الله ليُضِلَّ قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم مايتقون) فهذا الإضلال عقوبة منه لهم ، حين بين لهم ، فلم يقبلوا مابينه لهم ، ولم يعملوا به . فعاقبهم بأن أضلهم عن الهدى ، وما أضل الله سبحانه أحداً قط إلا بعد هذا البيان .

و إذا عرفت هذا عرفت سر القدر ، وزالت عنك شكوك كثيرة ، وشبهات فى هذا الباب . وعلمت حكمة الله فى إضلاله من يضله من عباده . والقرآن يصرح بهذا فى غير موضع ، كقوله (٦١ : ٥ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) (٤ : ١٥٥ وقولهم قلوبنا غُلْفٌ . بل طبع الله عليهـا بكفرهم) فالأول : كفر عناد . والثانى : كفر طبع ، وقوله (٦ : ١١٠ ونُقَلِّبُ أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ، ونذرهم فى طغيانهم يعمهون) فعاقبهم على ترك الإيمان به حين تيقنوه وتحققوه ، بأن قلَّب أفئدتهم وأبصارهم فلم يهتدوا له .

فتأمل هذا الموضع حق التأمل . فإنه موضع عظيم .

وقال تعالى (٤١ : ١٧ وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) فهذا هدى بعد البيان والدلالة . وهو شرط لاموجب . فإنه إن لم يقترن به هدى آخر بعده لم يحصل به كمال الاهتداء . وهو هدى التوفيق والإلهام .

وهذا البيان نوعان : بيان بالآيات المسموعة المتلوة ، و بيان بالآيات المشهودة المرئية . وكلاهما أدلة وآيات على توحيد الله وأسمائه وصفاته وكماله ، وصـدق ماأخبرت به رسله عنه . ولهذا يدعو عباده بآياته المتلوة إلى التفكر فى آياته المشهودة

ويحضهم على التفكر فى هذه وهذه . وهذا البيان هو الذى بعثت به الرسل . وجعل إليهم وإلى العلماء بعدهم ، وبعد ذلك يضل الله من يشاء . قال الله تعالى (٦٤ : ٤ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم . فيضل الله من يشاء ويهدى من يشاء . وهو العزيز الحكيم) فالرسل تبين . والله هو الذى يضل من يشاء ويهدى من يشاء بعزته وحكمته .

فصل

المرتبة السابعة : البيان الخاص . وهو البيان المستلزم للهداية الخاصة ، وهو بيان تقارنه العناية والتوفيق والاجتباء ، وقطع أسباب الخذلان وموادها عن القلب فلا تتخلف عنه الهداية ألبتة . قال تعالى فى هذه المرتبة (١٦ : ٣٧ إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدى من يضل) وقال (٣٨ : ٥٦ إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء) فالبيان الأول شرط . وهذا موجب .

فصل

المرتبة الثامنة : مرتبة الإسماع . قال الله تعالى (٨ : ٢٣ ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولَّوا وهم معرضون) وقد قال تعالى (٣٥ : ٢٢ وما يستوى الأعمى والبصير . ولا الظلمات ولا النور . ولا الظل ولا الحرور . وما يستوى الأحياء ولا الأموات . إن الله يُسمع من يشاء . وما أنت بمسمع من فى القبور . إنْ أنت إلا نذير) وهذا الإسماع أخص من إسماع الحجة والتبليغ . فإن ذلك حاصل لهم ، وبه قامت الحجة عليهم . لكن ذاك إسماع الآذان ، وهذا إسماع القلوب . فإن الكلام له لفظ ومعنى ، وله نسبة إلى الأذن والقلب وتعلق بهما . فسماع لفظه حظ الأذن ، وسماع حقيقة معناه ومقصوده حظ القلب . فإنه سبحانه نفى عن الكفار سماع المقصود والمراد الذى هو حظ القلب ، وأثبت لهم سماع الألفاظ الذى هو حظ الأذن

فى قوله (٢١ : ٢ ماياًتيهم من ذكر من ربهم مُحْدَث إلا استمعوه وهم يلعبون ، لاهية قلوبهم) وهذا السماع لا يفيد السامع إلا قيام الحجة عليه ، أو تمكنه منها .
وأما مقصود السماع وثمرته ، والمطلوب منه : فلا يحصل مع لهو القلب وغفلته وإعراضه ، بل يخرج السامع قائلا للحاضر معه (٤٧ : ١٦ ماذا قال آنفاً ؟ أولئك الذين طبع الله على قلوبهم) .

والفرق بين هذه المرتبة ومرتبة الإفهام : أن هذه المرتبة إنما تحصل بواسطة الأذن ، ومرتبة الإفهام أعم . فهى أخص من مرتبة الفهم من هذا الوجه . ومرتبة الفهم أخص من وجه آخر . وهى أنها تتعلق بالمعنى المراد ولوازمه ومتعلقاته وإشاراته . ومرتبة السماع مدارها على إيصال المقصود بالخطاب إلى القلب ويترتب على هذا السماع سماع القبول .

فهو إذن ثلاث مراتب : سماع الأذن ، وسماع القلب ، وسماع القبول والإجابة

فصل

المرتبة التاسعة : مرتبة الإلهام . قال تعالى (٩١ : ٧ ، ٨ ونفسٍ وماسواها . فألهمها فجورها وتقواها) وقال النبى صلى الله عليه وسلم لحصين بن منذر الخزاعى لما أسلم « قل : اللهم ألهمنى رشدى ، وقنى شر نفسى » .

وقد جعل صاحب المنازل « الإلهام » هو مقام المحدثين . قال : وهو فوق مقام الفراسة . لأن الفراسة ربما وقعت نادرة ، واستصعبت على صاحبها وقتاً ، أو استعصت عليه ، والإلهام لا يكون إلا فى مقام عتيد .

قلت : التحديث أخص من الإلهام . فإن الإلهام عام للمؤمنين بحسب إيمانهم فكل مؤمن فقد ألهمه الله رشده الذى حصل له به الإيمان . فأما التحديث : فالنبى صلى الله عليه وسلم قال فيه « إن يكن فى هذه الأمة أحد فعمر » يعنى من المحدثين . فالتحديث إلهام خاص . وهو الوحى إلى غير الأنبياء

إما من المكلفين ، كقوله تعالى (٢٨ : ٧ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه) وقوله (٥ : ١١١ و إذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى و برسولى) و إما من غير المكلفين ، كقوله تعالى (٢٩:١٦ وأوحى ربك إلى النَّحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون) فهذا كله وحى إلهام .

وأما جعله فوق مقام الفراسة : فقد احتج عليه بأن الفراسة ربما وقعت نادرة كما تقدم . والنادر لاحكم له . وربما استعصت على صاحبها واستصعبت عليه فلم تطاوعه . والإلهام لا يكون إلا فى مقام عتيد ، يعنى فى مقام القرب والحضور .

والتحقيق فى هذا : أن كل واحد من «الفراسة» و «الإلهام» ينقسم إلى عام وخاص . وخاص كل واحد منهما فوق عام الآخر ، وعام كل واحد قد يقع كثيراً ، وخاصه قد يقع نادراً . ولكن الفرق الصحيح : أن الفراسة قد تتعلق بنوع كسب وتحصيل . وأما الإلهام فموهبة مجردة ، لا تنال بكسب ألبتة .

فصل

قال : وهو على ثلاث درجات .

الدرجة الأولى : نبأ يقع وحياً قاطعاً مقروناً بسماع . إذ مطلق النبأ الخبر الذى له شأن . فليس كل خبر نبأ ، وهو نبأ خبر عن غيب معظم .

و يريد بالوحى والإلهام : الإعلام الذى يقطع من وصل إليه بموجبه ، إما بواسطة سمع ، أو هو الإعلام بلا واسطة .

قلت : أما حصوله بواسطة سمع : فليس ذلك إلهاماً . بل هو من قبيل الخطاب . وهذا يستحيل حصوله لغير الأنبياء . وهو الذى خُصَّ به موسى ، إذ كان المخاطِبُ هو الحق عز وجل .

وأما ما يقع لكثير من أرباب الرياضات من سماع : فهو من أحد وجوه ثلاثة . لا رابع لها . أعلاها : أن يخاطبه الملك خطاباً جزئياً . فإن هذا يقع لغير الأنبياء . فقد كانت الملائكة تخاطب عمران بن حصين بالسلام . فلما اكْتَوَى تركت خطابه . فلما ترك الكى عاد إليه خطاب ملكى . وهو نوعان .

أحدهما : خطاب يسمعه بأذنه . وهو نادر بالنسبة إلى عموم المؤمنين .

والثانى : خطاب يلقى فى قلبه يخاطب به الملك روحه ، كما فى الحديث المشهور « إن للملك لَمَّة بقلب ابن آدم . وللشيطان لمة . فلمة الملك : إيعاد بالخير ، وتصديق بالوعد . ولمة الشيطان : إيعاد بالشر وتكذيب بالوعد » ثم قرأ (٢ : ٢٦٨ الشيطان يَعِدُكم الفقر ويأمركم بالفحشاء . والله يعدكم مغفرة منه وفضلا) وقال تعالى (٨ : ١٢ إذ يوحى ربك إلى الملائكة : أنى معكم . فثبتوا الذين آمنوا) قيل فى تفسيرها : قَوُّوا قلوبهم ، وبشروهم بالنصر . وقيل : احضُروا معهم القتال . والقولان حق . فإنهم حضروا معهم القتال ، وثبتوا قلوبهم .

ومن هذا الخطاب : واعظ الله عز وجل فى قلوب عباده المؤمنين . كما فى جامع الترمذى ومسند أحمد من حديث النواس بن سمعان عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن الله تعالى ضرب مثلاً : صراطاً مستقيما . وعلى كَنَفَتَى الصراطِ سوران ، لهما أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وداع يدعو على رأس الصراط . وداع يدعو فوق الصراط . فالصراط المستقيم : الإسلام . والسوران : حدود الله . والأبواب المفتحة : محارم الله . فلا يقع أحد فى حَدٍّ من حدود الله حتى يكشف الستر . والداعى على رأس الصراط : كتاب الله . والداعى فوق الصراط : واعظ الله فى قلب كل مؤمن » فهذا الواعظ فى قلوب المؤمنين هو الإلهام الإلهى بواسطة الملائكة .

وأما وقوعه بغير واسطة : فمما لم يتبين بعد . والجزم فيه بنفى أو إثبات موقوف على الدليل . والله أعلم .

فصل

النوع الثانى من الخطاب المسموع : خطاب الهواتف من الجان . وقد يكون المخاطب جنياً مؤمناً صالحاً . وقد يكون شيطاناً . وهذا أيضاً نوعان .

أحدهما : أن يخاطبه خطاباً يسمعه بأذنه .

والثـانى : أن يلقى فى قلبه عند ما يُلِمُّ به . ومنه وعده وتَمْنيته حين يَعِدُ الإنسى ويُمَنِّيه ، ويأمره وينهاه . كما قال تعـالى (٤ : ١٢٠ يعدهم ويمنيهم . وما يعدهم الشيطان إلا غروراً) وقال (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء) وللقلب من هذا الخطـاب نصيب . وللأذن أيضاً منه نصيب . والعصمة منتفية إلا عن الرسل . ومجموع الأمة .

فمن أين للمخاطب أن هذا الخطاب رحمـانى ، أو ملـكى ؟ بأى برهان ؟ أو بأى دليل ؟ والشيطان يقذف فى النفس وحيه . ويلقى فى السمع خطـابه . فيقول المغرور المخدوع « قيل لى ، وخوطبت » صدقت ، لـكن الشأن فى القائل لك والمخاطب . وقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه لغيلان بن سلمة ــ وهو من الصحابة لما طلق نساءه ، وقسم ماله بين بنيه ــ « إنى لأظن الشيطان ــ فيما يسترق من السمع ــ سمع بموتك . فقذفه فى نفسك » فمن يأمن القراء بعدك ياشهر ؟ .

فصـل

النوع الثالث : خطاب حالى . تـكون بدايته من النفس ، وعوده إليها . فيتوهمه من خارج . وإنما هو من نفسه ، منها بدا وإليها يعود .

وهذا كثيراً مايعرض للسالك ، فيغلط فيه . ويعتقد أنه خطاب من الله . كلمه به منه إليه . وسبب غلطه : أن اللطيفة المدركة من الإنسان إذا صفت بالرياضة[1] ، وانقطعت علقها عن الشواغل الـكثيفة : صار الحـكم لها بحكم استيلاء الروح والقلب على البدن ، ومصير الحـكم لهما . فتنصرف عناية النفس والقلب إلى تجريد المعانى التى هى متصلة بهما ، وتشتد عناية الروح بها . وتصير فى محل

(١) ليست الرياضة ــ بالجوع والظمأ ، وأخذ النفس بما يضاد فطرتها وسنة الله الحـكيم العليم الرحيم فيها ــ من أسباب تصفية الروح ولا القلب ولا النفس ، وإنما سبب التصفية : هو العلم النافع من تدبر كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم . والعقيدة الصحيحة ، والعمل الصالح ثمرة ذلك العلم ، وقد غلط أشد الغلط من خدع بصوفية الهند وشعوذة قرائهم .

تلك العلائق والشواغل . فتملأ القلب . فتصرف تلك المعانى إلى المنطق ، والخطاب القلبي الروحى بحكم العادة . ويتفق تجرد الروح . فتتشكل تلك المعانى للقوة السامعة بشكل الأصوات المسموعة . وللقوة الباصرة بشكل الأشخاص المرئية . فيرى صورها ، ويسمع الخطاب . وكله فى نفسه ليس فى الخارج منه شىء . ويحلف أنه رأى وسمع . وصدق ، لكن رأى وسمع فى الخارج ، أو فى نفسه ؟ ويتفق ضعف التمييز . وقلة العلم ، واستيلاء تلك المعانى على الروح . وتجردها عن الشواغل .

فهذه الوجوه الثلاثة هى وجوه الخطاب . ومن سَمَّع نفسه غيرها فإنما هو غرور ، وخدع وتلبيس . وهذا الموضع مقطع القول ، وهو من أجل المواضع لمن حققه وفهمه . والله الموفق للصواب .

فصل

قال « الدرجة الثانية : إلهام يقع عياناً . وعلامة صحته : أنه لا يخرق ستراً . ولا يجاوز حداً . ولا يخطىء أبداً » .

الفرق بين هذا وبين الإلهام ، فى الدرجة الأولى : أن ذلك علم شبيه بالضرورى الذى لايمكن دفعه عن القلب . وهذا معاينة ومكاشفة . فهو فوقه فى الدرجة ، وأتم منه ظهوراً . ونسبته إلى القلب نسبة المرئى إلى العين . وذكر له ثلاث علامات .

إحداها « أنه لايخرق ستراً » أى صاحبه إذا كوشف بحال غير المستور عنه لايخرق ستره ويكشفه ، خيراً كان أو شراً ، أو أنه لا يخرق ماستره الله من نفسه عن الناس . بل يستر نفسه ، ويستر من كوشف بحاله .

الثانية « أنه لا يجاوز حداً » يحتمل وجهين .

أحدهما : أنه لايتجاوز به إلى ارتكاب المعاصى ، وتجاوز حدود الله . مثل الكهان ، وأصحاب الكشف الشيطانى .

الثانى : أنه لا يقع على خلاف الحدود الشرعية ، مثل أن يتجسس به على

العورات التى نهى الله عن التجسس عليهـا وتتبعها . فإذا تتبعها وقع عليها بهذا الـكشف . فهو شيطانى لارحمانى .

الثالثة : أنه لا يخطىء أبدا . بخلاف الشيطانى . فإن خطأه كثير . كما قال النبى صلى الله عليه وسلم لابن صائد « ماترى ؟ قال : أرى صادقاً وكاذباً . فقال : لُبِّس عليك » فالـكشف الشيطانى لابد أن يكذب . ولا يستمر صدقه ألبتة .

فصـل

قال « الدرجة الثالثة : إلهام يجلو عين التحقيق صرفاً . وينطق عن عين الأزل محضاً . والإلهام غاية تمتنع الإشارة إليها » .

عين التحقيق عنده : هى الفناء فى شهود الحقيقة[1] ، بحيث يضمحل كل ماسواها فى ذلك الشهود . وتعود الرسوم أعداماً محضة . فالإلهام فى هذه الدرجة : يجلو هذا العين للملْهَم صرفاً . بحيث لايمازجها شىء من إدراك العقول ولاالحواس فإن كان هناك إدراك عقلى أو حسى لم يتمحض جلاء عين الحقيقة . والناطق عن هذا الـكشف عندهم : لا يفهم عنه إلا من هو معه ، ومشارك له . وعند أرباب هذا الـكشف : أن كل الخلق عنه فى حجاب . وعندهم : أن العلم والعقل والحال حجب عليه . وأن خطاب الخلق إنمـا يكون على لسان الحجاب ، وأنهم لايفهمون لغة ما وراء الحجاب من المعنى المحجوب . فلذلك تمتنع الإشارة إليه ، والعبارة عنه . فإن الإشارة والعبارة إنمـا يتعلقان بالمحسوس والمعقول ، وهذا أمر وراء الحس والعقل .

وحاصل هذا الإلهام : أنه إلهام ترتفع معه الوسائط وتضمحل وتعدم ، لـكن فى الشهود لا فى الوجود . وأما الاتحادية ، القائلون بوحدة الوجود : فإنهم يجعلون ذلك

(١) هى عند الصوفية ــ المتحدث بلسانهم ابن عربى والسهروردى والجيلى ، وإخوانهم ــ الحقيقة الإلهية التى فاض منها جميع الموجودات ، وجميع الموجودات مظاهر ومجالى لها ، وأسماء وصفات لها .

اضمحلالاً وعدماً فى الوجود . و يجعلون صاحب المنازل منهم[1] . وهو برىء منهم عقلاً وديناً وحالاً ومعرفة . والله أعلم .

فصل

المرتبة العاشرة من مراتب الهداية : الرؤيا الصادقة . وهى من أجزاء النبوة كما ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة » .

وقد قيل فى سبب هذا التخصيص المذكور : إن أول مبتدأ الوحى كان هو الرؤيا الصادقة ، وذلك نصف سنة . ثم انتقل إلى وحى اليقظة مدة ثلاث وعشرين سنة ، من حين بعث إلى أن توفى ، صلوات الله وسلامه عليه . فنسبة مدة الوحى فى المنام من ذلك : جزء من ستة وأربعين جزءًا . وهذا حسن . لولا ما جاء فى الرواية الأخرى الصحيحة « إنها جزء من سبعين جزءاً » .

وقد قيل فى الجمع بينهما : إن ذلك بحسب حال الرائى ، فإن رؤيا الصديقين من ستة وأربعين . ورؤيا عموم المؤمنين الصادقة من سبعين . والله أعلم .

والرؤيا : مبدأ الوحى . وصدقها بحسب صدق الرائى . وأصدق الناس رؤيا أصدقهم حديثاً . وهى عند اقتراب الزمان لاتكاد تخطىء ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم . وذلك لبعد العهد بالنبوة وآثارها . فيتعوض المؤمنون بالرؤيا . وأما فى زمن قوة نور النبوة : ففى ظهور نورها وقوته مايغنى عن الرؤيا .

ونظير هذا الكرامات التى ظهرت بعد عصر الصحابة . ولم تظهر عليهم ، لاستغنائهم عنها بقوة إيمانهم ، واحتياج من بعدهم إليها لضعف إيمانهم[2] . وقد

---

(١) لعل لهم شبهة فى ذلك . ومن حام حول الحمى أوشك أن يواقعه

(٢) بل لعله لأن شأن الصحابة والتابعين رضى الله عنهم كان غير شأن من بعدهم . فقد كان الصحابة والتابعون ــ بتمسكهم بالكتاب والسنة ، وشدة يقظتهم ، المكتسب من مشكاتهما وحرصهم عليهما ــ أصدق إيماناً وأنور بصيرة ، وأهدى سبيلا ، =

نص أحمد على هذا المعنى . وقال عبادة بن الصامت « رؤيا المؤمن كلام يكلم به الرب عبده فى المنام » وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « لم يبق من النبوة إلا المبشرات . قيل : وما المبشرات ، يارسول الله ؟ قال : الرؤيا الصالحة ، يراها المؤمن أو ترى له » و إذا تواطأت رؤيا المسلمين لم تكذب . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم لأصحابه لما أروا ليلة القدر فى العشر الأواخر قال « أرى رؤياكم قد تواطأت فى العشر الأواخر . فمن كان منكم مُتَحَرِّيها فليتحرها فى العشر الأواخر من رمضان » .

والرؤيا كالكشف ، منها رحمانى . ومنها نفسانى . ومنها شيطانى . وقال النبى صلى الله عليه وسلم « الرؤيا ثلاثة : رؤيا من الله ، ورؤيا تحزين من الشيطان ، ورؤيا مما يحدث به الرجل نفسه فى اليقظة . فيراه فى المنام » .

والذى هو من أسباب الهداية : هو الرؤيا التى من الله خاصة .

ورؤيا الأنبياء وحى . فإنها معصومة من الشيطان . وهذا باتفاق الأمة ، ولهذا أقدم الخليل على ذبح ابنه إسماعيل عليهما السلام بالرؤيا .

وأما رؤيا غيرهم : فتعرض على الوحى الصريح . فإن وافقته و إلا لم يعمل بها.

فإن قيل : فما تقولون إذا كانت رؤيا صادقة ، أو تواطأت ؟ .

قلنا : متى كانت كذلك استحال مخالفتها للوحى ، بل لاتكون إلا مطابقة له ، منبهة عليه ، أو منبهة على اندراج قضية خاصة فى حكمه ، لم يعرف الرائى اندراجها فيه ، فيتنبه بالرؤيا على ذلك. ومن أراد أن تصدق رؤياه فليتحر الصدق

= وأبعد عن ضلالة . فكان الشيطان أبعد من التلاعب بعقولهم ، والتغرير بهم . بخلاف من بعدهم ، خصوصاً بعد دخول اليهود والفرس والروم والهند بتقاليدهم وأهوائهم وصوفيتهم. وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم « خير القرون قرنى ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم . والآخر شر إلى يوم القيامة » أو كما قال . وكم للامام أحمد بن تيمية وإخوانه من أئمة الهدى سلفاً وخلفاً من كرامات ، على نحو ما أكرم الله الصادقين من أتباع رسله ، مثل الصحابة رضى الله عنهم أجمعين .

وأكل الحلال ، والمحافظة على الأمر والنهى . ولينم على طهارة كاملة مستقبل القبلة . ويذكر الله حتى تغلبه عيناه . فإن رؤياه لاتكاد تكذب ألبتة .

وأصدق الرؤيا : رؤيا الأسحار . فإنه وقت النزول الإلهى ، واقتراب الرحمة والمغفرة ، وسكون الشياطين . وعكسه رؤيا العَتَمة ، عند انتشار الشياطين والأرواح الشيطانية . وقال عبادة بن الصامت رضى الله عنه « رؤيا المؤمن كلام يكلم به الرب عبده فى المنام » .

وللرؤيا ملك موكل بها ، يُريها العبد فى أمثال تناسبه وتشاكله . فيضربها لكل أحد بحسبه . وقال مالك « الرؤيا من الوحى وحى » وزَجَر عن تفسيرها بلا علم . وقال « أتتلاعب بوحى الله ؟ » .

ولذكر الرؤيا وأحكامها وتفاصيلها وطرق تأويلها مظان مخصوصة بهسا ، يخرجنا ذكرها عن المقصود . والله أعلم .

فصــل

فى بيان اشتمال الفاتحة على الشفاءين : شفاء القلوب ، وشفاء الأبدان

فأما اشتمالها على شفاء القلوب : فإنها اشتملت عليه أتم اشتمال . فإن مدار اعتلال القلوب وأسقامها على أصلين : فساد العلم . وفساد القصد .

ويترتب عليهما داءان قاتلان ، وهما الضلال والغضب . فالضلال نتيجة فساد العلم . والغضب نتيجة فساد القصد . وهذان المرضان هما ملاك أمراض القلوب جميعها . فهداية الصراط المستقيم : تتضمن الشفاء من مرض الضلال . ولذلك كان سؤال هذه الهداية : أفرض دعاء على كل عبد . وأوجبه عليه كل يوم وليلة . فى كل صلاة ، لشدة ضرورته وفاقته إلى الهداية المطلوبة . ولا يقوم غير هذا السؤال مقامه .

والتحقق بـ (إياك نعبد و إياك نستعين) علماً ومعرفة ، وعملاً وحالاً : يتضمن

الشفاء من مرض فساد القلب والقصد . فإن فساد القصد يتعلق بالغايات والوسائل . فمن طلب غاية منقطعة مضمحلة فانية ، وتوسل إليها بأنواع الوسائل الموصلة إليها كان كلا نوعي قصده فاسدا . وهذا شأن كل من كان غاية مطلوبه غير الله وعبوديته : من المشركين ، ومتبعى الشهوات ، الذين لا غاية لهم وراءها ، وأصحاب الرياسات المتبعين لإقامة رياستهم بأى طريق كان من حق أو باطل . فاذا جاء الحق معارضاً فى طريق رياستهم طحنوه وداسوه بأرجلهم . فإن عجزوا عن ذلك دفعوه دفع الصائل . فإن عجزوا عن ذلك حبسوه فى الطريق ، وحادوا عنه إلى طريق أخرى . وهم مستعدون لدفعه بحسب الإمكان . فإذا لم يجدوا منه بدأ أعطوه السكة والخطبة[1] وعزلوه عن التصرف والحكم والتنفيذ ، وإن جاء الحق ناصراً لهم وكان لهم صالوا به وجالوا ، وأتوا إليه مذعنين . لا لأنه حق ، بل لموافقته غرضهم وأهواءهم ، وانتصارهم به (٢٤ : ٤٨ ـ ٥٠ وإذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون . وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين . أفى قلوبهم مرض ، أم ارتابوا ؟ أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ؟ بل أولئك هم الظالمون) .

والمقصود : أن قصد هؤلاء فاسد فى غاياتهم ووسائلهم . وهؤلاء إذا بطلت الغايات التى طلبوها ، واضمحلت وفنيت ، حصلوا على أعظم الخسران والحسرات . وهم أعظم الناس ندامة وتحسرا ، إذا حَقَّ الحق و بطل الباطل ، وتقطعت بهم أسباب الوصل التى كانت بينهم ، وتيقنوا انقطاعهم عن رَكْب الفلاح والسعادة . وهذا يظهر كثيراً فى الدنيا . ويظهر أقوى من ذلك عند الرحيل منها والقدوم على الله . ويشتد ظهوره وتحققه فى البرزخ . وينكشف كل الانكشاف يوم اللقاء ، إذا حقت الحقائق . وفاز المحقون وخسر المبطلون . وعلموا أنهم كانوا

---

(١) السكة : المراد منها الإسم والشعار يضرب على النقود ، ويقصد بذلك ما كان عليه الخلفاء فى وقته ، إذ لم يكن لهم من الخلافة إلا الصور . أما الحكم النافذ فى الأمور فلغيرهم .

كاذبين ، وكانوا مخدوعين مغرورين . فياله هنـاك من علم لاينفع عالمه ، و يقين لاينجى مستيقنه .

وكذلك من طلب الغاية العليا والمطلب الأسمى ، ولـكن لم يتوسل إليه بالوسيلة الموصلة له و إليه ، بل توسل إليه بوسيلة ظنها موصلة إليه ، وهى من أعظم القواطع عنه . لحاله أيضاً كحال هذا . وكلاهما فاسد القصد . ولا شفاء من هذا المرض إلا بدواء « إياك نعبد و إياك نستعين » .

فإن هذا الدواء مركب من ستة أجزاء (١) عبودية الله لا غيره (٢) بأمره وشرعه (٣) لا بالهوى (٤) ولابآراء الرجال وأوضاعهم ، ورسومهم ، وأفـكارهم (٥) بالاستعانة على عبوديته به (٦) لا بنفس العبد وقوته وحوله ولا بغيره .

فهذه هى أجزاء (إياك نعبد و إياك نستعين) فإذا ركبها الطبيب اللطيف ، العالم بالمرض ، واستعملها المريض ، حصل بها الشفاء التام . وما نقص من الشفاء فهو لفوات جزء من أجزائها ، أو اثنين أو أكثر .

ثم إن القلب يعرض له مرضان عظيمان ، إن لم يتداركهما العبد تراميا به إلى التلف ولا بد . وهما الرياء ، والـكبر . فدواء الرياء بـ(إياك نعبد) ودواء الـكبر بـ(إياك نستعين) .

وكثيراً ما كنت أسمع شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول (إياك نعبد) تدفع الرياء (و إياك نستعين) تدفع الـكبرياء .

فإذا عوفى من مرض الرياء بـ(إياك نعبد) ومن مرض الـكبرياء والعجب بـ(إياك نستعين) ومن مرض الضلال والجهل بـ(اهدنا الصراط المستقيم) عوفى من أمراضه وأسقامه ، ورفَل فى أثواب العافية ، وتمت عليه النعمة . وكان من المنعم عليهم « غير المغضوب عليهم » وهم أهل فساد القصد ، الذين عرفوا الحق وعدلوا عنه « والضالين » وهم أهل فساد العلم ، الذين جهلوا الحق ولم يعرفوه .

وحُقَّ لسورة تشتمل على هذين الشفاءين : أن يُسْتَشْفَى بها من كل مرض ،

ولهذا لما اشتملت على هذا الشفاء الذى هو أعظم الشفاءين ، كان حصول الشفاء الأدنى بها أولى ، كما سنبينه . فلا شيء أشفى للقلوب التي عقلت عن الله وكلامه ، وفهمت عنه فهماً خاصاً ، اختصها به ، من معانى هذه السورة .

وسنبين إن شاء الله تعالى تضمنها للرد على جميع أهل البدع بأوضح البيان وأحسن الطرق .

فصــل

وأما تضمنها لشفاء الأبدان : فنذكر منه ماجاءت به السنة ، وما شهدت به قواعد الطب ، ودلت عليه التجربة .

فأما ما دلت عليه السنة : ففى الصحيح من حديث أبى المتوكل الناجى عن أبى سعيد الخدرى « أن ناساً من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم مروا بحَىٍّ من العرب . فلم يَقْرُوهم ، ولم يُضَيِّفُوهم . فلُدغ سيد الحى . فأتوهم . فقالوا : هل عندكم من رُقية ، أو هل فيكم من راق ؟ فقالوا : نعم ، ولكنكم لم تقرونا . فلا نفعل حتى تجعلوا لنا جعلا ، فجعلوا لهم على ذلك قطيعاً من الغنم ، فجعل رجل منا يقرأ عليه بفاتحة الكتاب . فقام كأن لم يكن به قَلَبَة . فقلنا : لاتعجلوا حتى نأتى النبى صلى الله عليه وسلم . فأتيناه ، فذكرنا له ذلك . فقال : مايدريك أنها رقية ؟ كلوا ، واضربوا لى معكم بسهم » .

فقد تضمن هذا الحديث حصول شفاء هذا اللديغ بقراءة الفاتحة عليه . فأغنته عن الدواء . وربما بلغت من شفائه مالم يبلغه الدواء[1] .

هذا مع كون المحل غير قابل ، إما لكون هؤلاء الحى غير مسلمين ، أو أهل بخل ولؤم . فكيف إذا كان المحل قابلاً .

(١) لم نجد فى الروايات الصحيحة أن أحداً من الصحابة ـ لا فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا بعده ـ فعل مثل ذلك مرة ثانية . ولعله ـ والله أعلم ـ كان هذا الحادث بصنع الله لأولئك الصحابة الذين كانوا فى حاجة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومنعهم أهل الحى حقهم من الضيافة ، مع جوعهم وشدة حاجتهم ، فسلط الله الحشرة على رئيسهم فلدغته ، ليستخرج لهم بتلك اللدغة والرقية حقهم .

فصــل

وأما شهادة قواعد الطب بذلك : فاعلم أن اللدغة تكون من ذوات الْحُمات والسموم . وهى ذوات الأنفس الخبيثة التى تتكيف بكيفية غضبية ، تثير فيها سُمية نارية ، يحصل بها اللدغ . وهى متفاوتة بحسب تفاوت خبث تلك النفوس وقوتها وكيفيتها . فإذا تكيّفت أنفسها الخبيثة بتلك الكيفية الغضبية أحدث لهـا ذلك طبيعة سمية ، تجد راحة ولذة فى إلقائها إلى المحل القابل ، كما يجد الشرير من الناس راحة ولذة فى إيصال شره إلى من يوصله إليه . وكثير من الناس لا يهنأ له عيش فى يوم لايؤذى فيه أحداً من بنى جنسه . ويجد فى نفسه تأذياً بحمل تلك السمية والشر الذى فيه ، حتى يفرغه فى غيره . فيبرد عند ذلك أنينه . وتسكن نفسه . ويصيبه فى ذلك نظير مايصيب من اشتدت شهوته إلى الجماع . فيسوء خلقه . وتثقل نفسه حتى يقضى وطره . هذا فى قوة الشهوة . وذاك فى قوة الغضب .

وقد أقام الله تعالى بحكمته السلطان وازعاً لهذه النفوس الغضبية . فلولا هو لفسدت الأرض وخربت (٢ : ٢٥١ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ، ولـكن الله ذو فضل على العـالمين) وأباح الله ـ بلطفه ورحمته ـ لهذه النفوس من الأزواج وملك اليمين مايكسر حدتها .

والمقصود : أن هذه النفوس الغضبية إذا اتصلت بالمحل القابل أثرت فيه ، ومنها مايؤثر فى المحل بمجرد مقابلته له ، وإن لم يمسه ، فمنها مايطمس البصر ، ويسقط الحبَل .

ومن هذا نظر العائن . فإنه إذا وقع بصره على المعين حدثت فى نفسه كيفية سمية أثرت فى المعين بحسب عدم استعداده . وكونه أعزل من السلاح ، وبحسب قوة تلك النفس . وكثير من هذه النفوس يؤثر فى المعين إذا وُصف له . فتتكيف نفسه وتقابله على البعد فيتأثر به . ومنكر هذا ليس معدوداً من بنى آدم إلا بالصورة

والشكل[١] . فإذا قابلت النفس الزكية العلوية الشريفة التى فيها غضب وحمية للحق هذه النفوس الخبيثة السمية . وتكيفت بحقائق الفاتحة وأسرارها ومعانيها ، وماتضمنته من التوحيد والتوكل ، والثناء على الله ، وذكر أصول أسمائه الحسنى ، وذكر اسمه الذى ماذكر على شر إلا أزاله ومحقه ، ولا على خير إلا نماه وزاده . دفعت هذه النفس بمـا تكيفت به من ذلك أثر تلك النفس الخبيثة الشيطانية ، فحصل البرء . فإن مبنى الشفاء والبرء على دفع الضد بضده . وحفظ الشىء بمثله . فالصحة تحفظ بالمثل . والمرض يدفع بالضد . أسبابٌ ربطها بمسبباتها الحكيم العليم خلقاً وأمراً . ولا يتم هذا إلا بقوة من النفس الفاعلة . وقبول من الطبيعة المنفعلة. فلو لم تنفعل نفس الملدوغ لقبول الرقية ، ولم تقو نفس الراقى على التأثير ، لم يحصل البرء .

فهنا أمور ثلاثة : موافقة الدواء للداء ، و بذل الطبيب له ، وقبول طبيعة العليل . فمتى تخلف واحد منها لم يحصل الشفاء . و إذا اجتمعت حصل الشفاء ولابد بإذن الله سبحانه وتعالى .

ومن عرف هذا كما ينبغى تبين له أسرار الرقَى . وميز بين النافع منها وغيره . ورقى الداء بمـا يناسبه من الرقى . وتبين له أن الرقية براقيها وقبول المحل ، كما أن السيف بضاربه مع قبول المحل للقطع . وهذه إشارة مطلعة على ما وراءها لمن دق نظره ، وحسن تأمله . والله أعلم .

وأما شهادة التجارب بذلك : فهى أكثر من أن تذكر . وذلك فى كل زمان . وقد جربت أنا من ذلك فى نفسى وفى غيرى أموراً عجيبة . ولا سيما مدة

---

(١) هذا باعتقاد الشيخ رحمه الله وغفر لنا وله . ولو أن الأمر كما ذكر لاستطاع كل يهودى ونصرانى ومشرك ، بل وكل عدو:أن يؤذى عدوه بإرسال تلك السموم — التى صورها الشيخ — من أشعة عينيه ، فتقتله كما يقتله لسع الحية ، ولدغ الثعبان . والله خير حافظا . وهو أرحم الراحمين . وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم

المقام بمكة . فإنه كان يعرض لى آلام مزعجة ، بحيث تكاد تقطع الحركة منى . وذلك فى أثناء الطواف وغيره . فأبادر إلى قراءة الفاتحة ، وأمسح بها على محل الألم فكأنه حصاة تسقط. جربت ذلك مرارا عديدة . وكنت آخذ قدحاً من ماء زمزم فأقرأ عليه الفاتحة مرارا . فأشربه فأجد به من النفع والقوة مالم أعهد مثله فى الدواء والأمر أعظم من ذلك . ولكن بحسب قوة الإيمان ، وصحة اليقين[1] . والله المستعان

فصــــل

فى اشتمال الفاتحة على الرد على جميع المبطلين من أهل الملل والنحل ، والرد على أهل البدع والضلال من هذه الأمة .

وهذا يعلم بطريقين ، مجمل ومفصل :

أما المجمل : فهو أن الصراط المستقيم متضمن معرفة الحق ، و إيثاره ، وتقديمه على غيره ، ومحبته والانقياد له ، والدعوة إليه ، وجهاد أعدائه بحسب الإمكان .

والحق : هو ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وما جاء به علماً وعملاً فى باب صفات الرب سبحانه ، وأسمائه وتوحيده ، وأمره ونهيه ، ووعده ووعيده ، وفى حقائق الإيمان ، التى هى منازل السائرين إلى الله تعالى . وكل ذلك مسلَّمٌ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، دون آراء الرجال وأوضاعهم وأفكارهم واصطلاحاتهم .

فكل علم أو عمل أو حقيقة ، أو حال أو مقام خرج من مشكاة نبوته ، وعليه السكة المحمدية ، بحيث يكون من ضَرب المدينة . فهو من الصراط المستقيم وما لم يكن كذلك فهو من صراط أهل الغضب والضلال. فما ثَمَّ خروج عن هذه الطرق الثلاث : طريق الرسول صلى الله عليه وسلم وما جاء به ، وطريق أهل

---

(١) هل ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو عن خلفائه الراشدين ، فعل شيء من ذلك ؟ وقد جاعوا يوم الخندق ، حتى ربط رسول الله الحجر على بطنه ، ومرت به صعاب أشد من ذلك .

الغضب ، وهى طريق من عرف الحق وعانده . وطريق أهل الضلال : وهى طريق من أضله الله عنه . ولهذا قال عبد الله ابن عباس وجابر بن عبد الله رضى الله عنهم « الصراط المستقيم : هو الإسلام » وقال عبد الله بن مسعود وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهما « هو القرآن » وفيه حديث مرفوع فى الترمذى وغيره ، وقال سهل بن عبد الله « طريق السنة والجماعة » وقال بكر بن عبد الله المزنى « طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

ولا ريب أن ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه علماً وعملاً وهو معرفة الحق وتقديمه ، و إيثاره على غيره . فهو الصراط المستقيم .

وكل هذه الأقوال المتقدمة دالة عليه جامعة له .

فبهذا الطريق المجمل يعلم أن كل ماخالفه فباطل . وهو من صراط الأمتين : الأمة الغضبية ، وأمة أهل الضلال .

فصل

وأما المفصل : فبمعرفة المذاهب الباطلة ، واشتمال كلمات الفاتحة على إبطالها . فنقول :

الناس قسمان : مقر بالحق تعالى ، وجاحد له . فتضمنت الفاتحة إثبات الخالق تعالى ، والرد على من جحده ، بإثبات ربوبيته تعالى للعالمين .

وتأمل حال العالم كله ، علويه وسفليه ، بجميع أجزائه : تجده شاهداً بإثبات صانعه وفاطره ومليكه . فإنكار صانعه وجحده فى العقول والفطر بمنزلة إنكار العلم وجحده ، لا فرق بينهما ، بل دلالة الخالق على المخلوق ، والفعال على الفعل ، والصانع على أحوال المصنوع عند العقول الزكية المشرقة العلوية، والفطر الصحيحة : أظهر من العكس .

فالعارفون أرباب البصائر يستدلون بالله على أفعاله وصنعه ، إذا استدل الناس

بصنعه وأفعاله عليه . ولا ريب أنهما طريقان صحيحان ، كل منهما حق والقرآن مشتمل عليهما .

فأما الاستدلال بالصنعة فكثير . وأما الاستدلال بالصانع فله شأن . وهو الذى أشارت إليه الرسل بقولهم لأممهم (١٤ : ١٠ أفى الله شك؟) أى أيشك فى الله حتى يطلب إقامة الدليل على وجوده ؟ وأى دليل أصح وأظهر من هذا المدلول ؟ فكيف يستدل على الأظهر بالأخفى ؟ ثم نبهوا على الدليل بقولهم (فاطر السموات والأرض) .

وسمعت شيخ الإسلام تقى الدين بن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول : كيف يطلب الدليل على من هو دليل على كل شىء ؟ وكان كثيراً ما يتمثل بهذا البيت :

وليس يصح فى الأذهان شىء إذا احتاج النهار إلى دليل

ومعلوم أن وجود الرب تعالى أظهر للعقول والفِطَر من وجود النهار ، ومن لم ير ذلك فى عقله وفطرته فليتهمها .

و إذا بطل قول هؤلاء بطل قول أهل الإلحاد ، القائلين بوحدة الوجود ، وأنه ما ثم وجود قديم خالق ووجود حادث مخلوق ، بل وجود هذا العالم هو عين وجود الله ، وهو حقيقة وجود هذا العالم . فليس عند القوم رب وعبد ، ولا مالك ومملوك ، ولا راحم ومرحوم ، ولا عابد ومعبود[1] ، ولا مستعين ومستعان به ، ولا هاد ولا مهدى ، ولا منعم ولا منعَم عليه ، ولا غضبان ومغضوب عليه . بل الرب هو نفس العبد وحقيقته ، والمالك هو عين المملوك ، والراحم هو عين المرحوم ، والعابد هو نفس المعبود . و إنما التغاير أمر اعتبارى

(١) قال ابن عربى الحاتمى شيخ الصوفية ، الناطق بلسانهم :

العبد رب ، والرب عبد ياليت شعرى ، من المكلف ؟
إن قلت : عبد ، فذاك رب أو قلت : رب ، أنى يكلف ؟

بحسب مظاهر الذات وتجلياتها . فتظهر تارة فى صورة معبود ، كما ظهرت فى صورة فرعون . وفى صورة عبد ، كما ظهرت فى صورة العبيد ، وفى صورة هاد ، كما فى صورة الأنبياء والرسل والعلماء . والكل من عين واحدة، بل هو العين الواحدة ، فحقيقة العابد ووجوده ، أو إنِّيته : هى حقيقة المعبود ووجوده و إنيته .

والفاتحة من أولها إلى آخرها تبين بطلان قول هؤلاء الملاحدة وضلالهم .

فصل

والمقرون بالرب سبحانه وتعالى : أنه صانع العالم نوعان(١) :

نوع ينفى مباينته لخلقه ، ويقولون : لا مباين ولا محايث . ولا داخل العالم ولا خارجه ، ولا فوقه ولا تحته ، ولا عن يمينه ولا عن يساره ، ولا خلفه ولا أمامه ، ولا فيه ولا بائن عنه .

فتضمنت الفاتحة الرد على هؤلاء من وجهين(٢) :

أحدهما : إثبات ربوبيته تعالى للعالم . فإن الربوبية المحضة تقتضى مباينة الرب للعالم بالذات ، كما باينهم بالربوبية ، وبالصفات والأفعال ، فمن لم يثبت ربًّا مبايناً للعالم ، فما أثبت ربًّا . فإنه إذا نفى المباينة لزمه أحد أمرين ، لزوماً لا انفكاك له عنه ألبتة : إما أن يكون هو نفس هذا العالم . وحينئذ يصح قوله . فإن العالم لايباين ذاته ونفسه . ومن ههنا دخل أهل الوحدة ، وكانوا معطلة أولا ، واتحادية ثانياً .

وإما أن يقول : ما ثم رب يكون مبايناً ولا محايثاً ، ولا داخلا ولا خارجا ، كما قالته الدهرية المعطلة للصانع .

وأما هذا القول الثالث المشتمل على جمع النقيضين : إثبات رب مغاير للعالم مع نفى مباينته للعالم ، وإثبات خالق قائم بنفسه ، لا فى العالم ولا خارج العالم ، ولا فوق العالم ولا تحته ، ولا خلفه ولا أمامه ، ولا يَمْنته ولا يَسْرته : فقول له

---

(١) ليس فى كلام النوع الثانى ، (٢) لم يذكر إلا وجهاً واحداً .

خَبِيء . والعقول لا تتصوره حتى تصـدق به . فإذا استحال فى العقل تصوره . فاستحالة التصديق به أظهر وأظهر . وهو منطبق على العـدم المحض ، والنفى الصِّرف . وصدقه عليه أظهر عند العقول والفطر من صدقه على رب العالمين .

فضَعْ هذا النفى وهذه الألفاظ الدالة عليه على العدم المستحيل . ثم ضعها على الذات العلية القائمة بنفسها ، التى لم تحلَّ فى العالم ، ولا حَلَّ العالم فيها ، ثم انظر أى المعلومين أولى به ؟

واستيقظ لنفسك ، وقم لله قَوْمة مفـكر فى نفسه فى الخلوة فى هذا الأمر ، متجرد عن المقالات وأربابهـا ، وعن الهوى والحمية والعصبية ، صادقاً فى طلب الهداية من الله . فالله أكرم من أن يخيب عبداً هذا شأنه . وهذه المسألة لا تحتاج إلى أكثر من إثبات رب قائم بنفسه ، مباين لخلقه . بل هذا نفس ترجمتها .

فصل

ثم المثبتون للخالق تعالى نوعان :

أهل توحيد ، وأهل إشراك . وأهل الإشراك نوعان :

أحدهما : أهل الإشراك به فى ربوبيته وإلهيته ، كالمجوس ومن ضاهاهم من القدرية . فإنهم يثبتون مع الله خالقاً آخر ، وإن لم يقولوا : إنه مكافىء له . والقدرية المجوسية تثبت مع الله خالقين للأفعال ، ليست أفعالهم مقدورة لله ، ولا مخلوقة لهم . وهى صادرة بغير مشيئته . ولا قدرة له عليها ، ولا هو الذى جعل أربابها فاعلين لها ، بل هم الذين جعلوا أنفسهم شائين مريدين فاعلين .

فربوبية العالم الكاملة المطلقة الشاملة تبطل أقوال هؤلاء كلهم . لأنها تقتضى ربوبيته لجميع ما فيه من الذوات والصفات والحركات والأفعال .

وحقيقة قول القدرية المجوسية: أنه تعالى ليس رباً لأفعال الحيوان ، ولا تناولتها ربوبيته . وكيف تتناول مالا يدخل تحت قدرته ومشيئته وخلقه ؟ مع أن فى عموم حمده ما يقتضى حمده على طاعات خلقه . إذ هو المعين عليها والموفق لها . وهو

الذى شاءها منهم ، كما قال فى غير موضع من كتابه (٧٦ : ٣٠ وما تشاءون إلا أن يشـاء الله) فهو محمود على أن شاءها لهم ، وجعلهم فاعليها بقدرته ومشيئته . فهو المحمود عليها فى الحقيقة . وعندهم : أنهم هم المحمودون عليها ، ولهم الحمد على فعلها . وليس لله حمد على نفس فاعليتها عندهم ، ولا على ثوابه وجزائه عليها .

أما الأول : فلأن فاعليتها بهم لا به . وأما الثانى : فلأن الجزاء مستحق عليه استحقاق الأجرة على المستأجر . فهو محض حقهم ، الذى عاوضوه عليه .

وفى قوله (و إياك نستعين) رد ظاهر عليهم . إذ استعانتهم به إنما تكون عن شىء هو بيده وتحت قدرته ومشيئته . فـكيف يستعين من بيده الفعل وهو موجده ، إن شاء أوجده و إن شاء لم يوجده ، بمن ليس ذلك الفعل بيده ، ولا هو داخل تحت قدرته ولا مشيئته ؟ .

وفى قوله (إهدنا الصراط المستقيم) أيضاً رد عليهم . فإن الهداية المطلقة التامة هى المستلزمة لحصول الاهتداء . ولولا أنها بيده تعالى دونهم لما سألوه إياها . وهى المتضمنة للارشاد والبيان ، والتوفيق والإقدار ، وجعلِهم مهتدين . وليس مطلوبهم مجرد البيان والدلالة ، كما ظنته القدرية . لأن هذا القدر وحده لايوجب الهدى ، ولا ينجى من الردى . وهو حاصل لغيرهم من الـكفار ، الذين استحبوا العمى على الهدى ، واشتروا الضلالة بالهدى .

فصـل

النوع الثانى : أهل الإشراك به فى إلهينه . وهم المقرون بأنه وحده رب كل شىء ، ومليكه وخالقه ، وأنه ربهم ورب آبائهم الأولين ، ورب السموات السبع ، ورب العرش العظيم . وهم مع هـذا يعبدون غيره ، و يعدلون به سواه فى المحبة والطاعة والتعظيم . وهم الذين اتخذوا من دون الله أندادا . فهؤلاء لم يوفوا « إياك نعبد » حقه ، و إن كان لهم نصيب من « نعبدك » لـكن ليس لهم نصيب من « إياك نعبد » المتضمن معنى : لا نعبد إلا إياك ، حباً وخوفاً ورجاء

وطاعة وتعظيما ، فـ « إياك نعبد » تحقيق لهذا التوحيد ، وإبطال للشرك فى الإلهية ، كما أن « إياك نستعين » تحقيق لتوحيد الربوبية ، وإبطال للشرك به فيها ، وكذلك قوله (اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم) فإنهم أهل التوحيد ، وهم أهل تحقيق « إياك نعبد ، وإياك نستعين » وأهل الإشراك : هم أهل الغضب والضلال .

فصل

فى تضمنها الرد على الجهمية معطلة الصفات

وذلك من وجوه :

أحدها : من قوله (الحمد لله) فإن إثبات الحمد الكامل له يقتضى ثبوت كل ما يحمد عليه ، من صفات كماله ، ونعوت جلاله . إذ مَنْ عدم صفات الكمال فليس بمحمود على الإطلاق . وغايته : أنه محمود من وجه دون وجه . ولا يكون محموداً بكل وجه ، وبكل اعتبار ، بجميع أنواع الحمد : إلا من استولى على صفات الكمال جميعها . فلو عدم منها صفة واحدة لنقص من حمده بحسبها .

وكذلك فى إثبات صفة الرحمة له : مايتضمن إثبات الصفات التى تستلزمها : من الحياة ، والإرادة والقدرة ، والسمع والبصر ، وغيرها .

وكذلك صفة الربوبية : تستلزم جميع صفات الفعل وصفة الإلهية تستلزم جميع أوصاف الكمال : ذاتاً وأفعالاً ، كما تقدم بيانه .

فكونه محموداً إلهاً رباً ، رحماناً رحيما ، ملكا معبودا ، مستعاناً ، هادياً منعماً ، يرضى ويغضب ـ مع نفى قيام الصفات به : جمع بين النقيضين . وهو من أمحل المحال .

وهذه الطريق تتضمن إثبات الصفات الخبرية من وجهين :

أحدهما : أنها من لوازم كماله المطلق . فإن استواءه على عرشه من لوازم علوه ، ونزوله كل ليلة إلى سماء الدنيا فى نصف الليل الثانى : من لوازم رحمته وربوبيته . وهكذا سائر الصفات الخبرية .

الوجه الثانى : أن السمع ورد بها ، ثناء على الله ومدحاً له ، وتعرفاً منه إلى عباده بها . فجحدُها وتحريفها عما دلت عليه ، وعماأريد بها : مناقض لما جاءت به . فلك أن تستدل بطريق السمع على أنها كمال ، وأن تستدل بالعقل كما تقدم .

فصل

فى تضمنها للرد على الجبرية

وذلك من وجوه :

أحدها : من إثبات عموم حمده سبحانه . فإنه يقتضى أن لايعاقب عبيده على مالا قدرة لهم عليه ، ولا هو من فعلهم . بل هو بمنزلة ألوانهم ، وطولهم وقصرهم ، بل هو يعاقبهم على نفس فعله بهم . فهو الفاعل لقبائحهم فى الحقيقة . وهو المعاقب لهم عليها . فحمده غليها يأبى ذلك أشد الإباء ، وينفيه أعظم النفى . فتعالى من له الحمد كله عن ذلك علواً كبيراً ، بل إنما يعاقبهم على نفس أفعالهم التى فعلوها حقيقة . فهى أفعالهم لا أفعاله . وإنما أفعاله العدل ، والإحسان والخيرات .

الوجه الثانى : إثبات رحمته ورحمانيته ينفى ذلك . إذ لا يمكن اجتماع هذين الأمرين قط ـ أن يكون رحماناً رحيما ـ ويعاقب العبد على ما لا قدرة له عليه ، ولا هو من فعله ، بل يكلفه مالا يطيقه ، ولا له عليه قدرة ألبتة ، ثم يعاقبه عليه . وهل هذا إلا ضد الرحمة . ونقض لها وإبطال ؟ وهل يصح فى معقول أحد اجتماع ذلك ، والرحمة التامة الكاملة ، فى ذات واحدة ؟ .

الوجه الثالث : إثبات العبادة والاستعانة لهم ، ونسبتها إليهم ، بقولهم « نعبد ، ونستعين » وهى نسبة حقيقية لا مجازية . والله لا يصح وصفه بالعبادة والاستعانة التى هى من أفعال عبيده ، بل العبد حقيقة هو العابد المستعين . والله هو المعبود المستعان به .

فصل

في بيان تضمنها للرد على القائلين بالموجب بالذات ، دون الاختيار والمشيئة
و بيان أنه سبحانه فاعل مختار . وذلك من وجوه :

أحدها : من إثبات حمده . إذ كيف يحمد على ماليس مختاراً لوجوده ؛ ولا هو بمشيئته وفعله ؟ وهل يصح حمد الماء على آثاره وموجباته ؟ أو النار والحديد وغيرها فى عقل أو فطرة ؟ و إنما يحمد الفاعل المختار بقدرته ومشيئته على أفعاله الحميدة . هذا الذى ليس يصح فى العقول والفطر سواه . فخلافه خارج عن الفطرة والعقل وهو(١) لا ينكر خروجه عن الشرائع والنبوات . بل يتبجح بذلك ، و يعده فخرا .

الثانى : إثبات ر بو بيته تعالى : يقتضى فعله بمشيئته واختياره، وتدبيره وقدرته . وليس يصح فى عقل ولا فطرة ر بو بية الشمس لضوئها ، والماء لتبريده ، وللنبات الحاصل به ، ولا ر بو بية شىء أبداً لما لا قدرة له عليه ألبتة . وهل هذا إلا تصريح بجحد الر بو بية ؟

فالقوم كَنَوْا للأغمار ، وصرحوا لأولى الأفهام .

الثالث : إثبات ملكه . وحصول ملكٍ لمن لااختيار له ، ولا فعل ولامشيئة غير معقول ، بل كل مملوك له مشيئة واختيار وفعل أتم من هذا الملِك وأكمل (١٦ : ١٧ أفمن يخلق كمن لايخلق ؟ أفلا تذكرون ؟) .

الرابع : من كونه مستعاناً ، فإن الاستعانة بمن لا اختيار له ولا مشيئة ولا قدرة محال .

الخامس : من كونه مسئولاً أن يهدى عباده ، فسؤال من لااختيار له محال . وكذلك من كونه منعما .

---

(١) أى والقائل بالموجب بالذات . و إن لم يذكر قبل ، لـكنه مفهوم من السياق .

فصل

فى بيان تضمنها للرد على منكرى تعلق علمه تعالى بالجزئيات

وذلك من وجوه :

أحدها : كمال حمده ، وكيف يستحق الحمد من لا يعلم شيئاً من العالم وأحواله وتفاصيله ، ولا عدد الأفلاك ، ولا عدد النجوم ، ولا من يطيعه ممن يعصيه ، ولا من يدعوه ممن لا يدعوه ؟

الثانى : أن هـذا مستحيل أن يكون إلها ، وأن يكون ربا ، فلا بد للإله المعبود ، والرب المدبر ، من أن يعلم عابده ، و يعلم حاله .

الثالث : من إثبات رحمته . فإنه يستحيل أن يرحم من لا يعلم .

الرابع : إثبات ملـكه . فإن ملكا لا يعرف أحداً من رعيته ألبتة ، ولا شيئاً من أحوال مملـكته ألبتة ، ليس بملك بوجه من الوجوه .

الخامس : كونه مستعانا .

السادس : كونه مسئولا أن يهدى سائله ويجيبه .

السابع : كونه هاديا .

الثامن : كونه منعما .

التاسع : كونه غضباناً على من خالفه .

العاشر : كونه مجازيا ، يدين الناس بأعمالهم يوم الدين .

فنفى علمه بالجزئيات مبطل لذلك كله .

فصل

فى بيان تضمنها للرد على منكرى النبوات

وذلك من وجوه :

أحدها : إثبــات حمده التام . فإنه يقتضى كال حكمته ، وأن لا يخلق خلقه عبثا ، ولا يتركهم سُدًى ، لا يُؤمَرون ولا يُنهون . ولذلك نَزَّه الله نفسه عن هذا فى غير موضع من كتابه . وأخبر أن من أنــكر الرسالة والنبوة ، وأن يكون ماأنزل على بشر من شىء ـ فإنه ما عرفه حق معرفته ، ولا عظمه حق تعظيمه ، ولا قدره حق قدره ، بل نسبه إلى مالايليق به ، ويأباه حمده ومجده .

فمن أعطى الحمد حقه ـ علماً ومعرفة و بصيرة ـ استنبط منه « أشهد أن محمداً رسول الله » كما يستنبط منه « أشهد أن لا إله إلا الله » وعلم قطعاً أن تعطيل النبوات فى منافاته للحمد ، كتعطيل صفات الكمال ، وكإثبات الشركاء والأنداد.

الثانى : إلهيته ، وكونه إلهاً . فإن ذلك مستلزم لـكونه معبوداً مطاعا . ولا سبيل إلى معرفة ما يعبد به و يطاع إلا من جهة رسله .

الثالث : كونه ربا . فإن الربوبية تقتضى أمر العباد ونهيهم . وجزاء محسنهم بإحسانه ، ومسيئهم بإساءته . هذا حقيقة الربوبية . وذلك لايتم إلا بالرسالة والنبوة .

الرابع : كونه رحماناً رحيما . فإن من كال رحمته : أن يُعرِّف عباده نفسه وصفاته و يدلهم على مايقربهم إليه ، و يباعدهم منه . و يثيبهم على طاعته ، ويجزيهم بالحسنى . وذلك لايتم إلا بالرسالة والنبوة . فكانت رحمته مقتضية لها .

الخامس : ملــكه . فإن الملك يقتضى التصرف بالقول ، كما أن المِلْك يقضى التصرف بالفعل . فالمَلِك هو المتصرف بأمره وقوله ، فتنفذ أوامره ومراسيمه حيث شاء . والمالك هو المتصرف فى ملــكه بفعله . والله له الملك . وله الملك . فهو المتصرف فى خلقه بالقول والفعل .

وتصرفه بقوله نوعان : تصرف بكلماته الكونية ، وتصرف بكلماته الدينية ، وكمال الملك بهما .

فإرسال الرسل : موجب كمال ملكه وسلطانه ، وهذا هو المَلك المعقول فى فطر الناس وعقولهم . فكل مَلك لا تكون له رسل يَبُثُّهم فى أقطار مملكته فليس بملك .

وبهذه الطريق يعلم وجود ملائكته ، وأن الإيمان بهم من لوازم الإيمان بملكه . فإنهم رسل الله فى خلقه وأمره .

السادس : ثبوت « يوم الدين » وهو يوم الجزاء ، الذى يدين الله فيه العباد بأعمالهم خيراً وشراً . وهذا لا يكون إلا بعد ثبوت الرسالة والنبوة ، وقيام الحجة التى بسببها يُدان المطيع والعاصى .

السابع : كونه معبوداً . فإنه لا يُعبد إلا بما يحبه ويرضاه . ولا سبيل للخلق إلى معرفة ما يحبه ويرضاه إلا من جهة رسله . فإنكار رسله إنكار لكونه معبوداً .

الثامن : كونه هادياً إلى الصراط المستقيم . وهو معرفة الحق والعمل به ، وهو أقرب الطرق الموصلة إلى المطلوب . فإن الخط المستقيم : هو أقرب خط موصل بين نقطتين . وذلك لا يعلم إلا من جهة الرسل . فتوقفه على الرسل ضرورى ، أعظم من توقف الطريق الحسى على سلامة الحواس .

التاسع : كونه منعماً على أهل الهداية إلى الصراط المستقيم . فإن إنعامه عليهم إنما تم بإرسال الرسل إليهم ، وجعلهم قابلين الرسالة ، مستجيبين لدعوته . وبذلك ذكَّرهم مِنَّته عليهم وإنعامه فى كتابه .

العاشر : انقسام خلقه إلى منعم عليهم ، ومغضوب عليهم ، وضالين . فإن هذا الانقسام ضرورى — بحسب انقسامهم فى معرفة الحق ، والعمل به — إلى عالم به ،

عامل بموجبه . وهم أهل النعمة . وعالم به معاند له . وهم أهل الغضب . وجاهل به وهم الضالون . هذا الانقسام إنما نشأ بعد إرسال الرسل . فلولا الرسل لكانوا أمة واحدة . فانقسامهم إلى هذه الأقسام مستحيل بدون الرسالة . وهذا الانقسام ضرورى بحسب الواقع . فالرسالة ضرورية .

وقد تبين لك بهذه الطريق ، والتى قبلها : بيان تضمنها للرد على من أنكر المعاد الجسمانى ، وقيامة الأبدان . وعرفت اقتضاءها ضرورة لثبوت الثواب والعقاب والأمر والنهى . وهو الحق الذى خُلقت به وله السمواتُ والأرض ، والدنيا والآخرة . وهو مقتضى الخلق والأمر ، ونفيه نفىٌ لهما .

فصل

إذا ثبتت النبوات والرسالة ثبتت صفة التكلم والتكليم

فإن حقيقة الرسالة : تبليغ كلام المرسِل . فإذا لم يكن ثَمَّ كلام فماذا يبلِّغ الرسول ؟ بل كيف يعقل كونه رسولا ؟ ولهذا قال غير واحد من السلف : من أنكر أن يكون الله متكلما ، أو يكون القرآن كلامه : فقد أنكر رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، بل ورسالة جميع الرسل ، التى حقيقتها : تبليغ كلام الله تبارك وتعالى . ولهذا قال منكرو رسالته صلى الله عليه وسلم عن القرآن (٧٤ : ٢٤ ، ٢٥ إنْ هذا إلا سحر يؤثَر . إن هذا إلا قول البشر) و إنما عنوا القرآن المسموع الذى بُلِّغوه ، وأنذروا به .

فمن قال : إن الله لم يتكلم به ، فقد ضاهأ قوله قولهم . تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

فصــل

فى بيان تضمنها للرد على من قال بقدم العالم

وذلك من وجوه :

أحدها : إثبات حمده . فإنه يقتضى ثبوت أفعاله ، لاسيما وعامة مواد الحمد فى القرآن ـ أو كلها ـ إنما هى على الأفعال ، وكذلك هو ههنا . فإنه حَمِد نفسه على ربوبيته ، المتضمنة لأفعاله الاختيارية . ومن المستحيل مقارنة الفعل لفاعله . هذا ممتنع فى كل عقل سليم ، وفطرة مستقيمة . فالفعل متأخر عن فاعله بالضرورة .

وأيضاً فإنه متعلَّق الإرادة والتأثير والقدرة ، ولا يكون متعلقها قديماً ألبتة .

الثانى : إثبات ربوبيته للعالمين . وتقرير ما ذكرناه . والعالم كل ما سواه فثبت أن كل ماسواه مربوب . والمربوب مخلوق بالضرورة . وكل مخلوق حادث بعد أن لم يكن . فإذاً ربوبيته تعالى لـكل ماسواه :تستلزم تقدمه عليه ، وحدوث المربوب . ولا يتصور أن يكون العـالم قديماً وهو مربوب أبداً . فإن القديم مستغن بأزليته عن فاعل له . وكل مربوب فهو فقير بالذات . فلا شىء من المربوب بغنى ولا قديم .

الثالث : إثبات توحيده . فإنه يقتضى عدم مشاركة شىء من العـالم له فى خصائص الربوبية ، والقدرة من خصائص الربوبية . فالتوحيد ينفى ثبوته لغيره ضرورة ، كما ينفى ثبوت الربوبية والإلٰهية لغيره .

فصـل

في بيان تضمنها للرد على الرافضة

وذلك من قوله (إهدنا الصراط المستقيم) إلى آخرها .

ووجه تضمنه إبطال قولهم : أنه سبحانه قسم الناس إلى ثلاثة أقسام « منعم عليهم » وهم أهل الصراط المستقيم ، الذين عرفوا الحق واتبعوه . و « مغضوب عليهم» وهم الذين عرفوا الحق ورفضوه . و «ضالون» وهم الذين جهلوه فأخطأوه .

فـكل من كان أعرف للحق ، وأتبع له : كان أولى بالصراط المستقيم .

ولا ريب أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورضى الله عنهم : هم أولى بهذه الصفة من الروافض . فإنه من المحال أن يكون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ ورضى الله عنهم ـ جهلوا الحق وعرفه الروافض ، أو رفضوه وتمسك به الروافض .

ثم إنا رأينا آثار الفريقين تدل على أهل الحق منهما . فرأينا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فتحوا بلاد الـكفر ، وقلبوها بلاد إسـلام . وفتحوا القلوب بالقرآن والعلم والهدى . فآثارهم تدل على أنهم هم أهل الصراط المستقيم . ورأينا الرافضة بالعكس في كل زمان ومكان . فإنه قطُّ ماقام للمسلمين عدو من غيرهم إلا كانوا أعوانَهم على الإسلام . وكم جرُّوا على الإسلام وأهله من بليَّة ؟ وهل عاثت سيوف المشركين عُبّاد الأصنام ـ من عسكر هولاكو وذويه من التتار ـ إلا من تحت رءوسهم ؟ وهل عطلت المساجد ، وحرقت المصاحف ، وقتل سروات المسلمين وعلماؤهم وعبـادهم وخليفتهم ، إلا بسببهم ومن جرّائهم ؟ ومظاهرتُهم للمشركين والنصارى معلومة عند الخاصة والعامة ، وآثارهم في الدين معلومة .

فأي الفريقين أحق بالصراط المستقيم ؟ وأيهم أحق بالغضب والضلال ، إن كنتم تعلمون ؟

ولهذا فسر السلف الصراط المستقيم وأهله : بأبي بكر وعمر ، وأصحـاب

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورضى الله عنهم ، وهو كما فسروه . فإنه صراطهم الذى كانوا عليه . وهو عين صراط نبيهم . وهم الذين أنعم الله عليهم ، وغضب على أعدائهم ، وحكم لأعدائهم بالضلال ، وقال أبو العالية ـ رُفيع الرياحى ـ والحسن البصرى ، وهما من أجل التابعين « الصراط المستقيم : رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحباه » وقال أبو العالية أيضاً فى قوله «صراط الذين أنعمت عليهم : هم آل رسول الله صلى الله عليه وسلم(١) ، وأبو بكر وعمر » وهذا حق . فإن آله وأبا بكر وعمر على طريق واحدة . ولا خلاف بينهم ، وموالاة بعضهم بعضاً ، وثناؤهم عليهما ، ومحاربة من حاربا ، ومسالمة من سالما : معلومة عند الأمة . خاصها وعامها . وقال زيد بن أسلم « الذين أنعم الله عليهم : هم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر وعمر » .

ولا ريب أن المنعم عليهم : هم أتباعه ، والمغضوب عليهم : هم الخارجون عن اتباعه ، وأتبع الأمة له وأطوعهم : أصحابه وأهل بيته . وأتبع الصحابة له : السمع والبصر ، أبو بكر وعمر . وأشد الأمة مخالفة له : هم الرافضة ، فخلافهم له معلوم عند جميع فرق الأمة . ولهذا يبغضون السنة وأهلها ، و يعادونها و يعادون أهلها . فهم أعداء سنته صلى الله عليه وسلم . وأهل بيته وأتباعه من بنيهم أكمل ميراثاً ؟ بل هم ورثته حقاً .

(١) الآل : كل من يؤول إلى النبي صلى الله عليه وسلم بأخص صفاته وأبرز مزاياه . وليست الولادة البشرية من خصائص رسول الله ، بل هو فيها مثل غيره من البشر ، كما جاء صريحاً فى كتاب الله ، وكما تقتضيه كلمات الله . وإنما خصوصيته صلى الله عليه وسلم : هى الرسالة والهدى والعلم والحكمة . التى أخرج الله بها من الظلمات إلى النور . فآله : هم أتباعه فى هذه الرسالة وهداها ـ بقطع النظر عن الزمن والبلد والأب والجد ـ على علم وبصيرة من ربهم. كما أن آل فرعون : هم أتباعه على ظلمه وبغيه وكفره فى كل زمان ومكان ، وبأى إسم . وقد صرح الله سبحانه بما يقتضى هذا جلياً ، فى قوله (٣٣ : ٤٠ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين) .

فقد تبين أن الصراط المستقيم : طريق أصحابه وأتباعه . وطريق أهل الغضب والضلال : طريق الرافضة .

وبهذه الطريق – بعينها – يرد على الخوارج. فإن معاداتهم الصحابة معروفة .

فصل

وسر الخلق والأمر، والكتب والشرائع ، والثواب والعقاب : انتهى إلى هاتين الكلمتين . وعليهما مدار العبودية والتوحيد . حتى قيل : أنزل الله مائة كتاب وأربعة كتب . جمع معانيها فى التوراة والإنجيل والقرآن . وجمع معانى هذه الكتب الثلاثة فى القرآن . وجمع معانى القرآن فى المفصل . وجمع معانى المفصل فى الفاتحه ، ومعانى الفاتحة فى « إياك نعبد وإياك نستعين » .

وهما الكلمتان المقسومتان بين الرب وبين عبده نصفين . فنصفهما له تعالى وهو « إياك نعبد » ونصفهما لعبده . وهو « إياك نستعين » .

وسيأتى سر هذا ومعناه إن شاء الله فى موضعه .

و «العبادة» تجمع أصلين : غاية الحب بغاية الذل والخضوع . والعرب تقول: طريق معبد أى مذلل . والتعبد : التذلل والخضوع . فمن أحببته ولم تكن خاضعاً له ، لم تكن عابداً له . ومن خضعت له بلا محبة ، لم تكن عابداً له ، حتى تكون محباً خاضعاً . ومن ههنا كان المنكرون محبة العباد لربهم منكرين حقيقة العبودية ، والمنكرون لكونه محبوباً لهم . بل هو غاية مطلوبهم – ووجهه الأعلى نهاية بغيتهم – : منكرين لكونه إلهاً ، وإن أقروا بكونه ربا للعالمين وخالقاً لهم . فهذا غاية توحيدهم . وهو توحيد الربوبية، الذى اعترف بهمشركو العرب ، ولم يخرجوا به عن الشرك ، كما قال تعالى (٤٣ : ٨٧ ولئن سألتهم من خلقهم ؟ ليقولن الله) وقال تعالى (٣٩ : ٣٨ ولئن سألتهم من خلق

السموات والأرض ؟ ليقولن الله) (٢٢ : ٨٤ ـ ٨٩ قل لمن الأرض ومن فيها ؟ ـ إلى قوله ـ سيقولون لله . قل فأنّى تُسْحَرون ؟) ولهذا يحتج عليهم به على توحيد إلهيته ، وأنه لا ينبغى أن يعبد غيره ، كما أنه لاخالق غيره ، ولا رب سواه .

و «الاستعانة» تجمع أصلين : الثقة بالله ، والاعتماد عليه . فإن العبد قد يثق بالواحد من الناس ، ولا يعتمد عليه فى أموره ـ مع ثقته به ـ لاستغنائه عنه . وقد يعتمد عليه ـ مع عدم ثقته به ـ لحاجته إليه ، ولعدم من يقوم مقامه . فيحتاج إلى اعتماده عليه . مع أنه غير واثق به .

و « التوكل » معنى يلتئم من أصلين : من الثقة ، والاعتماد . وهو حقيقة « إياك نعبد وإياك نستعين » وهذان الأصلان ـ وهما التوكل ، والعبادة ـ قد ذكرا فى القرآن فى عدة مواضع ، قرن بينهما فيها . هذا أحدها .

الثانى : قول شعيب (١١ : ٨٨ وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب) .

الثالث : قوله تعالى (١٠ : ١٢٣ ولله غيب السموات والأرض ، وإليه يرجع الأمر كله ، فاعبده وتوكل عليه) .

الرابع : قوله تعالى حكاية عن المؤمنين (٦٠ : ٤ ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير) .

الخامس : قوله تعالى (٧٣ : ٨ ، ٩ واذكر اسم ربك وتَبَتَّلْ إليه تبتيلاً . رب المشرق والمغرب لاإله إلا هو ، فاتّخذه وكيلاً) .

السادس : قوله تعالى (٤٣ : ١٠ قل : هو ربى . لاإله إلا هو ، عليه توكلت وإليه أنيب) .

فهذه ستة مواضع يجمع فيها بين الأصلين . وهما «إياك نعبد وإياك نستعين» .

وتقديم « العبادة » على « الاستعانة » فى الفاتحة من باب تقديم الغايات على الوسائل . إذ « العبادة » غاية العباد التى خلقوا لها ، و «الاستعانة» وسيلة إليها .

ولأن « إياك نعبد » متعلق بألوهيته واسمه « الله » و « إياك نستعين » متعلق بربوبيته واسمه « الرب » فقدم « إياك نعبد » على « إياك نستعين » كما قدم اسم « الله » على « الرب » فى أول السورة . ولأن « إياك نعبد » قسم الرب . فكان من الشطر الأول ، الذى هو ثناء على الله تعالى ، لكونه أولى به . و « إياك نستعين » قسم العبد . فكان من الشطر الذى له ، وهو «اهدنا الصراط المستقيم» إلى آخر السورة .

ولأن « العبادة » المطلقة : تتضمن « الاستعانة » من غير عكس . فكل عابد لله عبودية تامة : مستعين به ولاينعكس . لأن صاحب الأغراض والشهوات قد يستعين به على شهواته . فكانت العبادة أكمل وأتم . ولهذا كانت قسمَ الرب .

ولأن «الاستعانة » جزء من « العبادة» من غير عكس . ولأن «الاستعانة» طلب منه ، و « العبادة » طلب له .

ولأن العبادة لا تكون إلا من مخلص ، و « الاستعانة » تكون من مخلص ومن غير مخلص .

ولأن « العبادة » حقه الذى أوجبه عليك ، و « الاستعانة » طلب العون على العبادة . وهو بيان صدقته التى تصدق بها عليك . وأداء حقه : أهم من التعرض لصدقته .

ولأن « العبادة » شكر نعمته عليك ، والله يحب أن يشكر ، و « الإعانة » فعله بك وتوفيقه لك . فإذا التزمت عبوديته ، ودخلت تحت رقها أعانك عليها . فكان التزامها والدخول تحت رقها سبباً لنيل الإعانة . وكلما كان العبد أتم عبودية كانت الإعانة من الله له أعظم .

و «العبودية » محفوفة بإعانتين : إعانة قبلها على التزامها والقيام بها ، و إعانة بعدها على عبودية أخرى . وهكذا أبدا ، حتى يقضى العبد نَحْبه .

ولأن « إياك نعبد » له . و « إياك نستعين » به . وماله مقدم على ما به .

لأن ماله متعلق بمحبته ورضاه . ومابه متعلق بمشيئته . وما تعلق بمحبته أكمل مما تعلق بمجرد مشيئته ، فإن الكون كله متعلق بمشيئته ، والملائكة والشياطين والمؤمنون والكفار ، والطاعات والمعاصي . والمتعلق بمحبته : طاعاتهم و إيمانهم . فالكفار أهل مشيئته ، والمؤمنون أهل محبته . ولهذا لا يستقر فى النار شىء لله أبداً . وكل ما فيها فإنه به تعالى و بمشيئته .

فهذه الأسرار يتبين بها حكمة تقديم « إياك نعبد » على « إياك نستعين » .

وأما تقديم المعبود والمستعان على الفعلين ، ففيه : أدبهم مع الله بتقديم اسمه على فعلهم . وفيه الاهتمام وشدة العناية به . وفيه الإيذان بالاختصاص ، المسمى بالحصْر . فهو فى قوة : لا نعبد إلا إياك ، ولا نستعين إلا بك . والحاكم فى ذلك ذوق العربية والفقه فيها ، واستقراء موارد استعمال ذلك مقدما . وسيبويه نص على الاهتمام ، ولم ينف غيره .

ولأنه يقبح من القائل : أن يعتق عشرة أعبد مثلا ، ثم يقول لأحدهم : إياك أعتقت . ومن سمعه أنكر ذلك عليه ، وقال : وغيرَه أيضاً أعتقت . ولولا فهم الاختصاص لما قبح هذا الكلام ، ولا حسن إنكاره .

وتأمل قوله تعالى (٢ : ٤٠ و إياى فارهبون) (٢ : ٤١ و إياى فاتقون) كيف تجده فى قوة : لا ترهبوا غيرى ، ولا تتقوا سواى ؟ وكذلك « إياك نعبد و إياك نستعين » هو فى قوة : لا نعبد غيرك . ولا نستعين بسواك . وكل ذى ذوق سليم يفهم هذا الاختصاص من علة السياق .

ولا عبرة بجدل من قلَّ فهمه ، وفتح عليه باب الشك والتشكيك . فهؤلاء هم آفة العلوم ، و بلية الأذهان والفهوم ، مع أن فى ضمير « إياك » من الإشارة إلى نفس الذات والحقيقة ما ليس فى الضمير المتصل . ففى : إياك قصدت ، وأحببت : من الدلالة على معنى : حقيقتك وذاتك قصدى ، ما ليس فى قولك : قصدتك وأحببتك . و إياك أعنى ، فيه معنى : نفسك وذاتك وحقيقتك أعنى .

ومن هٰهنا قال من قال من النحاة : إن « إيّا » اسم ظاهر مضاف إلى الضمير المتصل . ولم يردَّ عليه بردٍّ شاف .

ولولا أنَّا فى شأن وراء هذا لأشبعنا الكلام فى هذه المسألة ، وذكرنا مذاهب النحاة فيها ، ونصرنا الراجح . ولعلنا أن نعطف على ذلك بعون الله .

وفى إعادة « إياك » مرة أخرى دلالة على تعلق هذه الأمور بكل واحد من الفعلين . ففى إعادة الضمير من قوة الاقتضاء لذلك ماليس فى حذفه ، فإذا قلت لملك مثلا : إياك أحب ، و إياك أخاف . كان فيه من اختصاص الحب والخوف بذاته ، والاهتمام بذكره ، ماليس فى قولك : إياك أحب وأخاف .

فصل

إذاعرفت هذا ؛ فالناس فى هذين الأصلين ـ وهما العبادة والاستعانة ـ أربعة أقسام .

أجلها وأفضلها : أهل العبادة والاستعانة بالله عليها . فعبادة الله غاية مرادهم وطلبهم منه أن يعينهم عليها ، و يوفقهم للقيام بها . ولهذا كان من أفضل مايُسأل الرب تبارك وتعالى:الإعانةَ على مرضاته ، وهو الذى عَلَّمه النبى صلى الله عليه وسلم لِحِبِّه معاذ بن جبل رضى الله عنه ، فقال « يا معاذ ، والله إنى لأحبك . فلا تنس أن تقول دُبُر كل صلاة : اللهم أعنى على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك » .

فأنفع الدعاء : طلب العون على مرضاته . وأفضل المواهب : إسعافه بهذا المطلوب . وجميع الأدعية المأثورة مدارها على هذا ، وعلى دفع مايضاده ، وعلى تكميله وتيسير أسبابه . فتأملها .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ: تأملت أنفع الدعاء ؛ فإذا هو سؤال العون على مرضاته . ثم رأيته فى الفاتحة فى « إياك نعبد و إياك نستعين » .

ومقابل هؤلاء : القسم الثانى . وهم المعرضون عن عبادته والاستعانة به . فلا عبادة ولا استعانة . بل إن سأله أحدهم واستعان به ، فعلى حظوظه وشهواته ، لا على

مرضاة ربه وحقوقه . فإنه سبحانه يسأله من فى السموات والأرض : يسأله أولياؤه وأعداؤه و يمدُّ هؤلاء وهؤلاء . وأبغض خلقه : عدوه إبليس ، ومع هذا فقد سأله حاجة فأعطاه إياها ، ومتعه بها . ولـكن لما لم تـكن عوناً له على مرضاته . كانت ز يادة له فى شقوته ، و بعده عن الله وطرده عنه . وهكذا كل من استعان به على أمر وسأله إياه ، ولم يكن عوناً على طاعته : كان مبعداً له عن مرضاته ، قاطعاً له عنه ولا بد .

وليتأمل العاقل هذا فى نفسه وفى غيره . وليعلم أن إجابة الله لسائليه ليست لـكرامة السائل عليه ، بل يسأله عبده الحـاجة فيقضيها له ، وفيها هلاكه وشقوته . ويكون قضاؤها له من هوانه عليه ، وسقوطه من عينه . ويكون منعه منها لـكرامته عليه ومحبته له . فيمنعه حمايةً وصيانة وحفظاً ، لا بخلا . وهذا إنما يفعله بعبده الذى ير يد كرامته ومحبته ، و يعامله بلطفه . فيظن — بجهله — أن الله لا يحبه ولايكرمه . و يراه يقضى حوائج غيره ، فيسىء ظنه بر به . وهذا حشو قلبه ولا يشعر به . والمعصوم من عصمه الله . والإنسان على نفسه بصيرة ، وعلامة هذا : حمله على الأقدار . وعتابه الباطن لها . كما قيل :

وعاجز الرأى مِضـياع لفرصته   حتى إذا فات أمر عاتب القدرا

فوالله لو كشف عن حاصله وسره لرأى هناك معاتبة القدر واتهامه ، وأنه قد كان ينبغى أن يكون كذا وكذا ، ولـكن ماحيلتى ، والأمر ليس إلىّ ؟ والعاقل خصم نفسه . والجاهل خصم أقدار ر به .

فاحذر كل الحذر أن تسأله شيئاً معيناً خِيرته وعاقبته مغيبة عنك . و إذا لم تجد من سؤاله بدا ، فعلقه على شرط علمه تعـالى فيه الخيرة . وقدم بين يدى سؤالك الاستخارة . ولا تـكن استخارة باللسان بلا معرفة ، بل استخـارة من لا علم له بمصالحه ، ولا قدرة له عليها ، ولا اهتداء له إلى تفاصيلهـا . ولا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ، بل إن وُكِل إلى نفسه هلك كل الهلاك ، وانفرط عليه أمره .

وإذا أعطاك ما أعطاك بلا سؤال : تسأله أن يجعله عوناً لك على طاعته وبلاغاً إلى مرضاته ، ولا يجعله قاطعاً لك عنه ، ولا مبعداً عن مرضاته . ولا تظن أن عطاءه كلّ ما أعطى لكرامة عبده عليه ؛ ولا منعه كل ما يمنعه لهوان عبده عليه ، ولكن عطاؤه ومنعه ابتلاء وامتحان ، يمتحن بهما عباده . قال الله تعالى (٨٩ : ٢٥ و ١٦ فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونَعَّمه ، فيقول : ربى أكْرَمَن . وأما إذا ما ابتلاه فقَدَر عليه رزقه فيقول : ربى أهانَنْ * كلا) أى ليس كل من أعطيتُه ونعمته وخولته : فقد أكرمته ، وماذاك لكرامته علىّ . ولكنه ابتلاء منى ، وامتحان له : أيشكرنى فأعطيه فوق ذلك ، أم يكفرنى فأسلبه إياه ، وأُخَوِّل فيه غيره ؟ وليس كل من ابتليته فضيقت عليه رزقه ، وجعلته بقَدَر لا يفضل عنه ، فذلك من هوانه علىّ ، ولكنه ابتلاء وامتحان منى له : أيصبر ؟ فأعطيه أضعاف أضعاف ما فاته من سَعة الرزق ، أم يتسخط ؟ فيكون حظه السخط .

فرد الله سبحانه على من ظن أن سعة الرزق إكرام ، وأن الفقر إهانة ، فقال : لم أبتل عبدى بالغنى لكرامته علىّ ، ولم أبتله بالفقر لهوانه علىّ . فأخبر أن الإكرام والإهانة لا يدوران على المال وسعة الرزق وتقديره . فإنه سبحانه يوسع على الكافر لا لكرامته ، ويُقَتِّر على المؤمن لا لإهانته . إنما يكرم من يكرمه بمعرفته ومحبته وطاعته ، ويهين من يهينه بالإعراض عنه ومعصيته . فله الحمد على هذا وعلى هذا . وهو الغنى الحميد .

فعادت سعادة الدنيا والآخرة إلى « إياك نعبد وإياك نستعين » .

فصل

القسم الثالث : من له نوع عبادة بلا استعانة . وهؤلاء نوعان .

أحدهما : القدرية ، القائلون بأنه قد فعل بالعبد جميع مقدوره من الألطاف ، وأنه لم يبق فى مقدوره إعانة له على الفعل.فإنه قد أعانه بخلق الآلات وسلامتها ، وتعريف الطريق ، وإرسال الرسل ، وتمكينه من الفعل . فلم يبق بعد هذا إعانة مقدورة يسأله إياها . بل قد ساوى بين أوليائه وأعدائه فى الإعانة . فأعان هؤلاء كما أعان هؤلاء . ولكن أولياءه اختاروا لنفوسهم الإيمان ، وأعداءه اختاروا لنفوسهم الكفر ، من غير أن يكون الله سبحانه وفق هؤلاء بتوفيق زائد ، أوجب لهم الإيمان . وخذل هؤلاء بأمر آخر ، أوجب لهم الكفر . فهؤلاء لهم نصيب منقوص من العبادة ، لا استعانة معه . فهم موكولون إلى أنفسهم . مسدود عليهم طريق الاستعانة والتوحيد . قال ابن عباس رضى الله عنهما : الإيمان بالقدر نظام التوحيد ، فمن آمن بالله وكذب بقدره نقض تكذيبه توحيده .

النوع الثانى : من لهم عبادات وأوراد ، ولكن حظهم ناقص من التوكل والاستعانة ، لم تتسع قلوبهم لارتباط الأسباب بالقدر ، وتلاشيها فى ضمنه ، وقيامها به ، وأنها بدون القدر كالموات الذى لا تأثير له ، بل كالعدم الذى لا وجود له ، وأن القدر كالروح المحرك لها ، والمعول على المحرك الأول .

فلم تنفذ قوى بصائرهم من المتحرك إلى المحرك ، ومن السبب إلى المسبب . ومن الآلة إلى الفاعل . فضعفت عزائمهم وقصرت هممهم ، فقل نصيبهم من « إياك نستعين » ولم يجدوا ذوق التعبد بالتوكل والاستعانة ، وإن وجدوا ذوقه بالأوراد والوظائف .

فهولاء لهم نصيب من التوفيق والنفوذ والتأثير ، بحسب استعانتهم وتوكلهم . ولهم من الخذلان والضعف والمهانة والعجز بحسب قلة استعانتهم وتوكلهم . ولو توكل العبد على الله حق توكله فى إزالة جبل عن مكانه ، وكان مأموراً بإزالته ، لأزاله .

فإن قلت : فما معنى التوكل والاستعانة ؟ .

قلت : هو حال للقلب ينشأ عن معرفته بالله ، والإيمان بتفرده بالخلق ، والتدبير والضر والنفع ، والعطاء والمنع ، وأنه ما شاء كان ، وإن لم يشأ الناس . وما لم يشأ لم يكن ، وإن شاءه الناس . فيوجب له هذا اعتماداً عليه ، وتفويضاً إليه ، وطمأنينة به ، وثقة به ، ويقيناً بكفايته لما توكل عليه فيه ، وأنه مَلِيٌّ به ، ولا يكون إلا بمشيئته ، شاءه الناس أم أبوه .

فتشبه حالته حالة الطفل مع أبويه فيما ينويه من رغبة ورهبة هما مَلِيَّان بهما . فانظر فى تجرد قلبه عن الالتفات إلى غير أبويه ، وحبس هَمِّه على إنزال ماينويه بهما . فهذه حال المتوكل . ومن كان هكذا مع الله ، فالله كافيه ولا بد . قال الله تعالى (٦٥ : ٣ ومن يتوكل على الله فهو حسبه) أى كافيه . و «الحسب» الكافى . فإن كان – مع هذا – من أهل التقوى كانت له العاقبة الحميدة ، وإن لم يكن من أهل التقوى فهو .

القسم الرابع : وهو من شهد تفرد الله بالنفع والضر ، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ولم يَدُرْ مع مايحبه ويرضاه . فتوكل عليه ، واستعان به على حظوظه وشهواته وأغراضه ، وطلبها منه ، وأنزلها به . فقضيت له ، وأسعف بها . سواء كانت أموالاً أو رياسة أو جاهاً عند الخلق ، أو أحوالا من كشف وتأثير وقوة وتمكين ، ولكن لا عاقبة له . فإنها من جنس الملك الظاهر والأموال ، لا تستلزم الإسلام ، فضلاً عن الولاية والقرب من الله . فإن الملك والجاه والمال والحال معطاة للبر والفاجر ، والمؤمن والكافر . فمن استدل بشىء من ذلك على محبة الله لمن آتاه إياه ورضاه عنه ، وأنه من أوليائه المقربين . فهو من أجهل الجاهلين ، وأبعدهم عن معرفة الله ومعرفة دينه ، والتمييز بين ما يحبه ويرضاه ، ويكرهه ويسخطه . فالحال من الدنيا . فهو كالملك والمال ، إن أعان صاحبه على طاعة الله ومرضاته ، وتنفيذ أوامره : ألحقه بالملوك العادلين البررة ، وإلا فهو وبال على صاحبه ، ومبعد له عن الله ، وملحق له بالملوك الظلمة ، والأغنياء الفجرة .

فصل

إذا عرف هذا : فلايكون العبد متحققاً بـ «إياك نعبد» إلا بأصلين عظيمين أحدهما : متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم .

والثانى : الإخلاص للمعبود . فهذا تحقيق « إياك نعبد » .

والناس منقسمون بحسب هذين الأصلين أيضاً إلى أربعة أقسام :

أحدها : أهل الإخلاص للمعبود والمتابعة . وهم أهل « إياك نعبد » حقيقة . فأعمالهم كلها لله، وأقوالهم لله ، وعطاؤهم لله ، ومنعهم لله ، وحبهم لله ، وبغضهم لله . فمعاملتهم ظاهراً وباطناً لوجه الله وحده . لا يريدون بذلك من الناس جزاء ولا شكوراً ، ولا ابتغاء الجاه عندهم ، ولا طلب المحمَدة ، والمنزلة فى قلوبهم ، ولا هرباً من ذمهم . بل قد عَدُّوا الناس بمنزلة أصحاب القبور ، لا يملكون لهم ضراً ولا نفعاً ، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً . فالعمل لأجل الناس ، وابتغاء الجاه والمنزلة عندهم ، ورجائهم للضر والنفع منهم : لا يكون من عارف بهم ألبتة ، بل من جاهل بشأنهم ، وجاهل بربه . فمن عرف الناس أنزلهم منازلهم . ومن عرف الله أخلص له أعماله وأقواله ، وعطاءه ومنعه وحبه وبغضه . ولا يعامل أحد الخلق دون الله إلا لجهله بالله وجهله بالخلق ، وإلا فإذا عرف الله وعرف الناس آثر معاملة الله على معاملتهم .

وكذلك أعمالهم كلها وعبادتهم موافقة لأمر الله ، ولما يحبه ويرضاه . وهذا هو العمل الذى لايقبل الله من عامل سواه . وهو الذى بَلا عباده بالموت والحياة لأجله . قال الله تعالى (٦٧ : ٢ الذى خلق الموت والحياة ليَبْلُوَكم أيُّكم أحسنُ عملاً) وجعل ما على الأرض زينة لها ليختبرهم أيهم أحسن عملاً . قال الفضيل بن عياض : العمل الحسن هو أخلصه وأصوبه . قالوا : ياأبا علي ما أخلصه وأصوبه ؟ قال : إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً : لم يقبل . وإذا كان صوابا ، ولم يكن خالصاً : لم يقبل ، حتى يكون خالصاً صوابا . والخالص : ما كان لله .

والصواب : ما كان على السنة . وهذا هو المذكور فى قوله تعالى (١٨ : ١١٠ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ، ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) وفى قوله (٤ : ١٢٥ ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله وهو محسن) فلا يقبل الله من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه ، على متابعة أمره . وما عدا ذلك فهو مردود على عامله ، يُرَد عليه أحوج ماهو إليه ـ هباء منثورا . وفى الصحيح من حديث عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم « كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد » وكل عمل بلا اقتداء فإنه لا يزيد عامله من الله إلا بعداً . فإن الله تعالى إنما يُعبَد بأمره ، لا بالآراء والأهواء .

فصل

الضرب الثانى[1] : من لا إخلاص له ولا متابعة . فليس عمله موافقاً لشرع ، وليس هو خالصاً للمعبود ، كأعمال المتزينين للناس ، المرائين لهم بما لم يشرعه الله ورسوله . وهؤلاء شرار الخلق ، وأمقتهم إلى الله عز وجل، ولهم أوفر نصيب من قوله (٣ : ١٨٨ لاتَحْسَبَنَّ الذين يفرحون بما أَتَوا ويحبون أن يُحمَدوا بما لم يفعلوا . فلا تحسبنهم بمفَازة من العذاب . ولهم عذاب أليم) يفرحون بما أتوا من البدعة والضلالة والشرك ، ويحبون أن يحمدوا باتباع السنة والإخلاص .

وهذا الضرب يكثر فيمن انحرف ـ من المنتسبين إلى العلم والفقر والعبادة ـ عن الصراط المستقيم . فإنهم يرتكبون البدع والضلالات ، والرياء والسمعة ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوه من الإتباع والإخلاص والعلم . فهم أهل الغضب والضلال .

---

(١) هذا هو القسم الثانى من الأقسام الأربعة التى انقسم إليها الناس بحسب الإخلاص والمتابعة .

فصــل

الضرب الثالث : من هو مخلص فى أعماله ، لـكنها على غير متابعة الأمر ، كجهال العبَّاد ، والمنتسبين إلى طريق الزهد والفقر ، وكل من عبد الله بغير أمره ، واعتقد عبادته هذه قربة إلى الله فهذا حاله . كمن يظن أن سماع المُـكاء والتصدية قربة ، وأن الخلوة التى يترك فيها الجمعة والجماعة قربة ، وأن مواصلة صوم النهار بالليل قربة ، وأن صيام يوم فطر الناس كلهم قربة . وأمثال ذلك .

فصــل

الضرب الرابع : من أعماله على متابعة الأمر ، لـكنها لغير الله . كطاعة المرائين ، وكالرجل يقاتل رياء وحَمِيَّة وشجاعة ، ويحج ليقال ، ويقرأ القرآن ليقال . فهؤلاء أعمالهم ظاهرها أعمال صالحة مأمور بها ، لـكنها غير صالحة . فلا تقبل (٩٨ : ٥ وما أُمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) فـكل أحد لم يؤمر إلا بعبادة الله بما أمر . والإخلاص له فى العبادة . وهم أهل « إياك نعبد وإياك نستعين » .

فصــل

ثم أهل مقام « إياك نعبد » لهم فى أفضل العبادة وأنفعها وأحقها بالإيثار والتخصيص أربع طرق . فهم فى ذلك أربعة أصناف :

الصنف الأول : عندهم أنفع العبادات وأفضلها : أشقها على النفوس وأصعبها .

قالوا : لأنه أبعد الأشياء عن هواها ، وهو حقيقة التعبد .

قالوا : والأجر على قدر المشقة . ورووا حديثاً لاأصل له « أفضل الأعمال أحمزها » أى أصعبها وأشقها .

وهؤلاء : هم أهل المجاهدات والجور على النفوس .

قالوا : و إنما تستقيم النفوس بذلك . إذ طبعها الـكسل والمهانة ، والإخلاد إلى الأرض . فلا تستقيم إلا بركوب الأهوال وتحمل المشاق .

الصنف الثانى ، قالوا : أفضل العبادات التجرد ، والزهد فى الدنيا ، والتقلل منها غاية الإمكان ، واطّراح الاهتمام بها ، وعدم الاكتراث بكل ماهو منها .

ثم هؤلاء قسمان :

فعوامهم : ظنوا أن هذا غاية ، فشمروا إليه وعملوا عليه . ودعوا الناس إليه ، وقالوا : هو أفضل من درجة العـلم والعبادة . فرأوا الزهد فى الدنيا غاية كل عبادة ورأسها .

وخواصهم : رأوا هذا مقصوداً لغيره ، وأن المقصود به عكوف القلب على الله ، وجمع الهمة عليه ، وتفريغ القلب لمحبته ، والإنابة إليه ، والتوكل عليه ، والاشتغال بمرضاته . فرأوا أن أفضل العبادات فى الجمعية على الله ، ودوام ذكره بالقلب واللسان ، والاشتغال بمراقبته ، دون كل مافيه تفريق للقلب وتشتيت له .

ثم هؤلاء قسمان . فالعارفون المتبعون منهم : إذا جاء الأمر والنهى بادروا إليه ولو فرّقهم وأذهب جمعيتهم . والمنحرفون منهم يقولون : المقصود من العبادة جمعية القلب على الله . فإذا جاء مايفرقه عن الله لم يلتفت إليه . وربما يقول قائلهم :

يطالَب بالأوراد من كان غافلا فـكيف بقلب كل أوقاته ورد ؟

ثم هؤلاء أيضاً قسمان . منهم من يترك الواجبات والفرائض لجمعيته . ومنهم من يقوم بها و يترك السنن والنوافل ، وتعلم العلم النافع لجمعيته .

وسأل بعض هؤلاء شيخاً عارفاً ، فقال : إذا أذن المؤذن وأنا فى جمعيتى على الله ، فإن قمت وخرجت تفرقت ، و إن بقيت على حالى بقيت على جمعيتى [1] ، فما الأفضل فى حقى ؟

---

(١) إن هذا تناقض ظاهر . فإن حقيقة الصلاة ، والغرض الحقيقى منها : هو الاتصال بالله ، وعروج الروح إليه ، وهذا يعلمه المؤمنون المصلون الصادقون ، الذين =

فقال : إذا أذن المؤذن وأنت تحت العرش فقم ، وأجب داعى الله ، ثم عد إلى موضعك . وهذا لأن الجمعية على الله حظ الروح والقلب ، وإجابة الداعى حق الرب . ومن آثر حظ روحه على حق ربه فليس من أهل « إياك نعبد » .

الصنف الثالث : رأوا أن أنفع العبادات وأفضلها : ما كان فيه نفع متعد ، فرأوه أفضل من ذى النفع القاصر . فرأوا خدمة الفقراء ، والاشتغال بمصالح الناس وقضاء حوائجهم ، ومساعدتهم بالمال والجاه والنفع أفضل . فتصدوا له وعملوا عليه واحتجوا بقول النبى صلى الله عليه وسلم « الخلق كلهم عيال الله ، وأحبهم إليه أنفعهم لعياله » رواه أبو يعلى .

واحتجوا بأن عمل العابد قاصر على نفسه ، وعمل النفّاع متعد إلى الغير . وأين أحدهما من الآخر ؟ .

قالوا : ولهذا كان فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب .

قالوا : وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه « لأن يهدى الله بك رجلا واحداً خير لك من حُمْر النعم » وهذا التفضيل إنما هو للنفع المتعدى . واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم « من دعا إلى هُدًى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه ، من غير أن ينقص من أجورهم شىء » واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم « إن الله وملائكته يصلون على معلمى الناس الخير » و بقوله صلى الله عليه وسلم « إن العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض ، حتى الحيتان فى البحر ، والنملة فى جحرها » .

واحتجوا بأن صاحب العبادة إذا مات انقطع عمله ، وصاحب النفع لا ينقطع عمله ، مادام نفعه الذى نسب إليه .

= عرفوا الله ربهم بأسمائه وصفاته ، وآثارها فى أنفسهم وفى الآفاق ، وعرفوه من آياته الكونية والقرآنية . والصوفى أجهل الناس بهذه المعرفة وأبعدهم عنها . وإنما جمعيته مع شيطانه وهواه ، ثم غره الشيطان لجاهليته وتمكن سلطانه عليه وولايته ـ فأوهمه أنه مع الله .

واحتجوا بأن الأنبياء إنما بعثوا بالإحسان إلى الخلق وهدايتهم، ونفعهم فى معاشهم ومعادهم. لم يبعثوا بالخلوات والانقطاع عن النـاس والترهب. ولهذا أنـكر النبي صلى الله عليه وسلم على أولئك النفر الذين هموا بالانقطاع للتعبد، وترك مخالطة الناس. ورأى هؤلاء التفرق فى أمر الله، ونفع عباده، والإحسـان إليهم، أفضل من الجمعية عليه بدون ذلك.

الصنف الرابع، قالوا: إن أفضل العبادة: العمل على مرضاة الرب فى كل وقت بما هو مقتضى ذلك الوقت ووظيفته. فأفضل العبادات فى وقت الجهاد: الجهاد، وإن آل إلى ترك الأوراد، من صلاة الليل وصيام النهار. بل ومن ترك إتمام صلاة الفرض، كما فى حالة الأمن.

والأفضل فى وقت حضور الضيف مثلا: القيام بحقه، والاشتغال به عن الورد المستحب. وكذلك فى أداء حق الزوجة والأهل.

والأفضل فى أوقات السحر: الاشتغال بالصلاة والقرآن، والدعاء والذكر والاستغفار.

والأفضل فى وقت استرشاد الطالب، وتعليم الجاهل: الإقبال على تعليمه والاشتغال به.

والأفضل فى أوقات الأذان: ترك ماهو فيه من ورده، والاشتغال بإجابة المؤذن

والأفضل فى أوقات الصلوات الخمس: الجد والنصح فى إيقاعها على أكمل الوجوه، والمبـادرة إليها فى أول الوقت، والخروج إلى الجامع. وإن بعـد كان أفضل.

والأفضل فى أوقات ضرورة المحتاج إلى المساعدة بالجاه، أو البدن، أو المال: الاشتغال بمساعدته، وإغاثة لهفته، وإيثار ذلك على أورادك وخلوتك.

والأفضل فى وقت قراءة القرآن: جمعية القلب والهمة على تدبره وتفهمه، حتى كأن الله تعالى يخاطبك به. فتجمع قلبك على فهمه وتدبره، والعزم على

تنفيذ أوامره أعظم من جمعية قلب من جاءه كتاب من السلطان على ذلك .

والأفضل فى وقت الوقوف بعرفة : الاجتهاد فى التضرع والدعاء والذكر دون الصوم المضعف عن ذلك .

والأفضل فى أيام عشر ذى الحجة : الإكثار من التعبد ، لاسيما التكبير والتهليل والتحميد . فهو أفضل من الجهاد غير المتعين .

والأفضل فى العشر الأخير من رمضان : لزوم المسجد فيه والخلوة والاعتكاف دون التصدى لمخالطة الناس والاشتغال بهم ، حتى إنه أفضل من الإقبال على تعليمهم العلم ، و إقرائهم القرآن ، عند كثير من العلماء .

والأفضل فى وقت مرض أخيك المسلم أو موته : عيادته ، وحضور جنازته وتشييعه ، وتقديم ذلك على خلوتك وجمعيتك .

والأفضل فى وقت نزول النوازل وأذاة الناس لك : أداء واجب الصبر مع خلطتك بهم ، دون الهرب منهم . فإن المؤمن الذى يخالط الناس ليصبر على أذاهم أفضل من الذى لا يخالطهم ولا يؤذونه .

والأفضل خلطتهم فى الخير . فهى خير من اعتزالهم فيه ، واعتزالهم فى الشر ، فهو أفضل من خلطتهم فيه . فإن علم أنه إذا خالطهم أزاله أو قَلَّله فخلطتهم حينئذ أفضل من اعتزالهم .

فالأفضل فى كل وقت وحال : إيثار مرضاة الله فى ذلك الوقت والحال . والاشتغال بواجب ذلك الوقت ووظيفته ومقتضاه .

وهؤلاء هم أهل التعبد المطلق . والأصناف قبلهم أهل التعبد المقيد . فمتى خرج أحدهم عن النوع الذى تعلق به من العبادة وفارقه يرى نفسه كأنه قد نقص وترك عبادته . فهو يعبد الله على وجه واحد . وصاحب التعبد المطلق ليس له غرض فى تعبد بعينه يؤثره على غيره ، بل غرضه تتبع مرضاة الله تعالى أين كانت . فمدار تعبده عليها . فهو لا يزال متنقلاً فى منازل العبودية ، كلما رفعت له منزلة

عمل على سيره إليها ، واشتغل بها حتى تلوح له منزلة أخرى . فهذا دأبه فى السير حتى ينتهى سيره . فإن رأيت العلماء رأيته معهم . و إن رأيت العباد . رأيته معهم . و إن رأيت المجاهدين رأيته معهم . و إن رأيت الذاكرين رأيته معهم ، و إن رأيت المتصدقين المحسنين رأيته معهم . و إن رأيت أرباب الجمعية وعكوف القلب على الله رأيته معهم[1] . فهذا هو العبد المطلق ، الذى لم تملكه الرسوم ، ولم تقيده القيود ، ولم يكن عمله على مراد نفسه ، ومافيه لذتها وراحتها من العبادات . بل هو على مراد ربه ، ولو كانت راحة نفسه ولذتها فى سواه . فهذا هو المتحقق بـ « إياك نعبد و إياك نستعين » حقاً ، القائم بهما صدقاً . مَلْبَسه ماتهيأ . ومأكله ماتيسر . واشتغاله بما أمر الله به فى كل وقت بوقته . ومجلسه حيث انتهى به المكان ووجده خالياً . لاتملكه إشارة . ولا يتعبده قيد . ولا يستولى عليه رسمْ . حر مجرد . دائر مع الأمر حيث دار ، يدين بدين الآمر أنى توجهت ركائبه . ويدور معه حيث استقلت مضاربه . يأنس به كل محق . ويستوحش منه كل مبطل ، كالغيث حيث وقع نفع . وكالنخلة لا يسقط ورقها . وكلها منفعة حتى شوكها . وهو موضع الغلظة منه على المخالفين لأمر الله ، والغضب إذا انتهكت محارم الله . فهو لله و بالله ومع الله . قد صحب الله بلا خلق ، وصحب الناسَ بلا نفس . بل إذا كان مع الله عزل الخلائق عن البين ، وتخلى عنهم . و إذا كان مع خلقه عزل نفسه من الوسط وتخلى عنها . فواهاً له ! ما أغْرَبَه بين الناس ! وما أشدَّ وحشته منهم ! وما أعظم أنسه بالله وفرحه به ، وطمأنينته وسكونه إليه ! ! والله المستعان . وعليه التكلان .

---

(١) عجيب أن يجعل ذلك قسما مستقلا ، مع أن المعقول عند الفقيه المتبصر فى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم : أن عكوف القلب على الله هو الإخلاص الذى هو جزء لازم لقبول العمل أى عمل .

فصـــــل

ثم للناس فى منفعة العبادة وحكمتهـا ومقصودها طرق أربعة . وهم فى ذلك أربعة أصناف .

الصنف الأول : نفاة الحِـكَم والتعليل ، الذين يردون الأمر إلى محض المشيئة ، وصِرْف الإرادة . فهؤلاء عندهم القيام بها ليس إلا لمجرد الأمر ، من غير أن تكون سبباً لسعادة فى معاش ولا معاد ، ولاسبباً لنجـــاة . و إنما القيام بها لمجرد الأمر ومحض المشيئة ، كما قالوا فى الخلق : إنه لم يخلق ماخلقه لعلة ، ولا لغـاية هى المقصودة به ، ولا لحـكمة تعود إليه منه . وليس فى المخلوقات أسباب مقتضيات لمسبباتها ، ولا فيها قُوًى ولا طبائع . فليست النار سبباً للإحراق ، ولا الماء سبباً للإرواء والتبريد ، و إخراج النبات ، ولا فيه قوة ولا طبيعة تقتضى ذلك . وحصول الإحراق والرِّى ليس بهما ، لـكن بإجراء العادة الاقترانية على حصول هذا عند هذا ، لابسبب ولا بقوة قامت به . وهكذا الأمر عندهم فى أمره الشرعى سواء . لا فرق فى نفس الأمر بين المأمور والمحظور ، ولـكن المشيئة اقتضت أمره بهذا ونهيه عن هذا ، من غير أن يقوم بالمأمور به صفة اقتضت حسنه ، ولا المنهى عنه صفة اقتضت قبحه .

ولهذا الأصل لوازم وفروع كثيرة فاسدة . وقد ذكرناها فى كتابنا الـكبير المسمى « مفتاح دار السعادة ، ومطلب أهل العلم والإرادة » و بينا فساد هذا الأصل من نحو ستين وجهاً ، وهو كتـاب بديع فى معناه . وذكرناه أيضاً فى كتابنا المسمى « سَفَر الهجرتين ، وطريق السعادتين » .

وهؤلاء لايجدون حلاوة العبادة ولا لذتها ، ولايتنعمون بها . وليست الصلاه قرة أعينهم . وليست الأوامر سرور قلوبهم ، وغذاء أرواحهم وحياتهم . ولهذا يسمونها «تكاليف» أى قد كلفوابها . ولو سمى مُدَّع لمحبة ملك من الملوك أو غيره مايأمره به تـكليفاً ، وقال : إنى إنما أفعله بكلفة : لم يعده أحد محباً له . ولهذا

أنكر هؤلاء ـ أو كثير منهم ـ محبة العبد لربه . وقالوا : إنما يحب ثوابه ومايخلقه له من النعيم الذى يتمتع به . لأنه يحب ذاته . فجعلوا المحبة لمخلوقه دونه . وحقيقة العبودية هى كمال المحبة . فأنكروا حقيقة العبودية ولُبَّها . وحقيقة الإلٰهية : كونه مألوهاً محبوباً بغاية الحب ، المقرون بغاية الذل والخضوع ، والإجلال والتعظيم . فأنكروا كونه محبوباً . وذلك إنكار لإلٰهيته ، وشيخ هؤلاء : هو الجَعْد بن درهم الذى ضَحَّى به خالد بن عبد الله القَسْرِى فى يوم أضحى . وقال « إنه زعم أن الله لم يكلم موسى تكليما ، ولم يتخذ إبراهيم خليلا » و إنما كان إنكاره : لكونه تعالى محبوباً محباً ، لم ينكر حاجة إبراهيم إليه ، التى هى الخلة عند الجهمية ، التى يشترك فيها جميع الخلائق. فكلهم أخِلاّء لله عندهم .

وقد بينا فساد قولهم هذا و إنكارهم محبة الله من أكثر من ثمانين وجهاً فى كتابنا المسمى « قرة عيون المحبين ، وروضة قلوب العارفين » وذكرنا فيه وجوب تعلق المحبة بالحبيب الأول من جميع طرق الأدلة النقلية والعقلية والذوقية والفطرية وأنه لا كمال للإنسان بدون ذلك ألبتة ، كما أنه لا كمال لجسمه إلا بالروح والحياة ، ولالعينه إلا بالنور الباصر ، ولا لأذنه إلا بالسمع ، وأن الأمر فوق ذلك وأعظم .

فصل

الصنف الثانى : القدرية النفاة ، الذين يثبتون نوعاً من الحكمة ، والتعليل . ولكن لا يقوم بالرب ، ولا يرجع إليه . بل يرجع إلى مجرد مصلحة المخلوق ومنفعته .

فعندهم : أن العبادات شرعت أثماناً لما يناله العباد من الثواب والنعيم ، وأنها بمنزلة استيفاء أجرة الأجير .

قالوا : ولهذا يجعلها الله تعالى عوضاً كقوله (٧ : ٤٣ ونُودوا أن تِلْكُم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون) وقوله (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) وقوله (هل تجزون إلا ما كنتم تعملون) وقوله صلى الله عليه وسلم ـ فيما يحكى عن ربه

عز وجل ـ «ياعبادى ، إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفيكم إياها» وقوله تعالى (٣٩ : ١٠ إنما يوفَّى الصابرون أجرهم بغير حساب) .

قالوا : وقد سماه الله سبحانه جزاء وأجراً وثواباً . لأنه يثوب إلى العامل من عمله ، أى يرجع إليه منه (١) .

قالوا : ولولا ارتباطه بالعمل لم يكن لتسميته جزاءً ولا أجراً ولا ثواباً معنى .

قالوا : ويدل عليه الوزن . فلولا تعلق الثواب والعقاب بالأعمال واقتضائها لها ، وكونها كالأثمان لها ، لم يكن للوزن معنى . وقد قال تعالى (٧ : ٨، ٩ والوزن يومئذ الحق . فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خَفَّت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون) .

وهاتان الطائفتان متقابلتان أشد التقابل . وبينهما أعظم التباين .

فالجبرية لم تجعل للأعمال ارتباطاً بالجزاء ألبتة . وجوزت أن يعذب الله من أفنى عمره فى طاعته ، وينعم من أفنى عمره فى معصيته . وكلاهما بالنسبة إليه سواء . وجوزت أن يرفع صاحبَ العمل القليل على من هو أعظم منه عملاً ، وأكثر وأفضل درجات . والكل عندهم راجع إلى محض المشيئة ، من غير تعليل ولا سبب ، ولا حكمة تقتضى تخصيص هذا بالثواب ، وهذا بالعقاب .

والقدرية أوجبت على الله سبحانه رعاية الأصلح . وجعلت ذلك كله بمحض الأعمال وثمناً لها ، وأن وصول الثواب إلى العبد بدون عمله فيه تنغيص باحتمال مِنَّة الصدقة عليه بلا ثمن .

---

(١) إنما كان الجزاء ثواباً ـ والله أعلم ـ لأنه يثوب إلى العامل ، وترجع إليه ثمرة عمله فى الدنيا لينقدها ويحاسب نفسه عليها ، ويعرف ما فى عمله من نقص وانحراف عن الجادة ـ ولابد ـ بقدر ماوجد فى ثمرته التى ثابت . ورجعت إليه فى الدنيا ، كـكل الشئون والأعمال الدنيوية ، من صناعة وزراعة وتجارة وغيرها ، فيتدارك العبد النقص ، ويتحرى الصراط المستقيم . فإذا لم ينقد عمله ، ولم يحاسب نفسه ، لما يغلب عليه من الغفلة والجهالة والتقليد الأعمى ، كان ذلك قاطعاً لعذره يوم القيامة .

فقاتلهم الله . ما أجهلهم بالله وأغرَّهم به ! جعلوا تفضله و إحسانه إلى عبده بمنزلة صدقة العبد على العبد ، حتى قالوا : إن إعطاءه ما يعطيه أجرة على عمله أحب إلى العبد وأطيب له من أن يعطيه فضلاً منه بلا عمل .

فقابلتهم الجبرية أشد المقابلة . ولم يجعلوا للأعمال تأثيراً فى الجزاء ألبتة .

والطائفتان جائرتان ، منحرفتان عن الصراط المستقيم ، الذى فطر الله عليه عباده ، وجاءت به الرسل ، ونزلت به الكتب . وهو أن الأعمال أسباب موصلة إلى الثواب والعقاب . مقتضية لهما كاقتضاء سائر الأسباب لمسبباتها ، وأن الأعمال الصالحة من توفيق الله وفضله ومَنّه ، وصدقته على عبده . إن أعانه عليها ووفقه لها ، وخلق فيه إرادتها والقدرة عليها ، وحَبَّبها إليه ، وزَيّنها فى قلبه وكرَّه إليه أضدادها . ومع هذا فليست ثمناً لجزائه وثوابه ، ولا هى على قدره ، بل غايتها — إذا بذل العبد فيها نُصْحه وجهده ، وأوقعها على أكمل الوجوه — أن تقع شكراً له على بعض نعمه عليه . فلو طالبه بحقه لبقى عليه من الشكر على تلك النعمة بقية لم يقم بشكرها . فلذلك لو عَذَّبَ أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم . ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم . كما ثبت ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم . ولهذا نفى النبى صلى الله عليه وسلم دخول الجنة بالعمل ، كما قال « لن يدخل أحداً منكم الجنـة عمله — وفى لفظ : لن يدخل أحد منكم الجنة بعمله . وفى لفظ : لن ينجى أحداً منكم عمله — قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل » وأثبت سبحانه دخول الجنة بالعمل ، كما فى قوله (١٦ : ٣٢ ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) ولا تنافى بينهما . إذ توارد النفى والإثبات ليس على معنى واحد . فالمنفىُّ استحقاقها بمجرد الأعمال ، وكون الأعمال ثمناً وعوضاً لها ، رداً على القدرية المجوسية ، التى زعمت أن التفضل بالثواب ابتداء متضمن لتكرير المنة .

وهذه الطائفة من أجهل الخلق بالله ، وأغلظهم عنه حجاباً . وحُقَّ لهم

أن يكونوا مجوس هذه الأمة . ويكفى فى جهلهم بالله : أنهم لم يعلموا أن أهل سمواته وأرضه فى مِنَّته ، وأن من تمام الفرح والسرور ، والغبطة واللذة : اغتباطهم بمنة سيدهم ومولاهم الحق ، وأنهم إنما طاب لهم عيشهم بهذه المنة . وأعظمهم منه منزلة ، وأقربهم إليه : أعرفهم بهذه المنـة ، وأعظمهم إقراراً بها ، وذكراً لها ، وشكراً عليها ، ومحبة له لأجلها . فهل يتقلَّب أحد قط إلا فى منته ؟ (٤٩ : ١٧ يَمُنُّون عليك أن أسلموا ، قل لا تَمُنُّوا علىَّ إسلامكم ، بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين) .

واحتمال مِنة المخلوق : إنمـا كانت نقصاً لأنه نظيره . فإذا مَنَّ عليه لمستعلَى عليه ، ورأى الممنونُ عليه نفسه دونه . هذا مع أنه ليس فى كل مخلوق ، فلرسول الله صلى الله عليه وسـلم المنة على أمته ، وكان أصحابه يقولون « الله ورسوله أَمَنُّ » ولا نقص فى منة الوالد على ولده ، ولا عار عليـه فى احتمالها . وكذلك السيد على عبده . فـكيف برب العالمين الذى إنمـا يتقلب الخلائق فى بحر منته عليهم ، ومحض صدقته عليهم ، بلا عوض منهم ألبتة ؟ وإن كانت أعمالهم أسباباً لما ينالونه من كرمه وجوده .. فهو المنان عليهم . بأن وفقهم لتلك الأسباب وهداهم لها ، وأعانهم عليها ، وكملها لهم ، وقبلها منهم على ما فيها ؟ وهذا هو المعنى الذى أثبت به دخول الجنة فى قوله (بما كنتم تعملون) .

فهذه باء السببية ، رداً على القدرية والجبرية ، الذين يقولون : لا ارتباط بين الأعمال والجزاء ، ولا هى أسباب له . وإنما غايتها أن تكون أمارات .

قالوا : وليست أيضاً مطردة ، لتخلف الجزاء عنهـا فى الخير والشر . فلم يبق إلا محض الأمر الـكونى والمشيئة .

فالنصوص مبطلة لقول هؤلاء ، كما هى مبطلة لقول أولئك . وأدلة المعقول والفطرة أيضاً تبطل قول الفريقين . وتبين لمن له قلب ولب : مقدار قول أهل السنة . وهم الفرقة الوسط . المثبتون لعموم مشيئة الله ، وقدرته ، وخلقه العباد

وأعمالهم ، ولحكمته التامة المتضمنة ربط الأسباب بمسبباتها ، وانعقادها بها شرعاً وقدراً ، وترتيبها عليها عاجلاً وآجلاً .

وكل واحدة من الطائفتين المنحرفتين تركت نوعاً من الحق ، وارتكبت لأجله نوعاً من الباطل ، بل أنواعاً . وهدى الله أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه (٢ : ٢١٣ والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) و (٦٢ : ٤ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم) .

فصل

الصنف الثالث : الذين زعموا أن فائدة العبادة : رياضة النفوس ، واستعدادها لفيض العلوم عليها ، وخروج قواها عن قوى النفوس السَّبُعية والبهيمية . فلو عُطلت عن العبادات لكانت من جنس نفوس السباع والبهائم . والعبادات تخرجها عن مألوفاتها وعوائدها ، وتنقلها إلى مشابهة العقول المجردة . فتصير عالمة قابلة لانتقاش صور العلوم والمعارف فيها . وهذا يقوله طائفتان .

إحداهما : من يقرب إلى النبوات والشرائع من الفلاسفة ، القائلين بقدم العالم ، وعدم انشقاق الأفلاك ، وعدم الفاعل المختار .

الطائفة الثانية : من تفلسفت من صوفية الإسلام[1] . وتقرب إلى الفلاسفه . فإنهم يزعمون أن العبادات رياضات لاستعداد النفوس وتجردها ، ومفارقتها العالم الحسى ، ونزول الواردات والمعارف عليها .

ثم من هؤلاء من لا يوجب العبادات إلا لهذا المعنى . فإذا حصل لها بقى مخيراً فى حفظه أوراده ، أو الاشتغال بالوارد عنها . ومنهم من يوجب القيام بالأوراد والوظائف . وعدم الإخلال بها . وهم صنفان أيضاً .

---

(١) ليس فى الإسلام صوفية ، بل كل منهما مستقل بنفسه . فللاسلام مصادره من الكتاب والسنة ، وعقائده وشرائعه . وللصوفية مصادرها وعقائدها وطقوسها من كتب فلاسفة الهند واليونان ، ثم كتب ابن عربى والسهروردى وأشباههما .

أحدهما : من يوجبونه حفظاً للقانون ، وضبطاً للنفوس*.

والآخرون : الذين يوجبونه حفظاً للوارد ، وخوفاً من تدرج النفس ـ بمفارقتها له ـ إلى حالتها الأولى من البهيمية .

فهذه نهاية أقدام المتكلمين على طريق السلوك . وغاية معرفتهم بحِكَم العبادة وما شُرعت لأجله . ولا تـكاد تجد فى كتب القوم غير هذه الطرق الثلاثة ، على سبيل الجمع ، أو على سبيل البدل .

فصل

وأما الصنف الرابع : فهم الطائفة المحمدية الإبراهيمية ، أتباع الخليلين ، العارفون بالله وحكمته فى أمره وشرعه وخلقه ، وأهل البصائر فى عبادته ، ومراده بها .

فالطوائف الثلاث محجوبون عنهم بمـا عندهم من الشُبه الباطلة ، والقواعد الفاسدة . ما عندهم وراء ذلك شيء . قد فرحوا بما عندهم من المحال ، وقنعوا بما ألفوه من الخيال . ولو علموا أن وراءه ما هو أجل منه وأعظم ، لما ارتضوا بدونه ، ولـكن عقولهم قصرت عنه ، ولم يهتدوا إليه بنور النبوة ، ولم يشعروا به ، ليجتهدوا فى طلبه ، ورأوا أن ما معهم خير من الجهل ، ورأوا تناقض ما مع غيرهم وفساده .

فتركّب من هذه الأمور إيثار ماعندهم على ما سواه : وهذه بلية الطوائف . والمعافَى من عافاه الله .

فصـل

فاعلم أن سر العبودية ، وغايتها وحكمتها : إنما يطلع عليها من عرف صفات الرب عز وجل ، ولم يعطلها . وعرف معنى الإلهية وحقيقتها ، ومعنى كونه إلها ، بل هو الإله الحق ، وكل إله سواه فباطل ، بل أبطل الباطل . وأن حقيقة الإلٰهية لاتنبغى إلا له ، وأن العبادة موجب إلٰهيته وأثرها ومقتضاها ، وارتباطها بها كارتباط متعلق الصفات بالصفات ، وكارتباط المعـلوم بالعلم ، والمقدور بالقدرة ، والأصوات بالسمع ، والإحسان بالرحمة ، والعطاء بالجود .

فمن أنكر حقيقة الإلٰهية ولم يعرفها كيف يستقيم له معرفة حكمة العبادات وغاياتها ومقاصدها ، وما شرعت لأجله ؟ وكيف يستقيم له العلم بأنها هى الغاية المقصودة بالخلق ، والتى لها خلقوا ، ولها أرسلت الرسل ، وأنزلت الكتب ، ولأجلها خلقت الجنة والنار ؟ وأن فرض تعطيل الخليقة عنها : نسبة لله إلى مالا يليق به ، و يتعالى عنه مَنْ خلق السموات والأرض بالحق ، ولم يخلقهما باطلا . ولم يخلق الإنسان عبثاً ولم يتركه سُدًى مهملا . قال تعالى (٢٣ : ١١٥ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ؟) أى لغير شيء ولا حكمة ، ولا لعبادتى ومجازاتى لكم ، وقد صرح تعالى بهذا فى قوله (٥١ : ٥٦ وماخلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) فالعبادة : هى الغاية التى خلق لها الجن والإنس والخلائق كلها . قال الله تعالى (٧٥ : ٣٦ أيحسب الإنسان أن يترك سُدًى ؟) أى مهملا . قال الشافعى : لايؤمر ولا يُنْهَى ، وقال غيره : لايثاب ولا يعاقب . والصحيح : الأمران . فإن الثواب والعقاب مترتبان على الأمر والنهى . والأمر والنهى طلب العبادة و إرادتها . وحقيقة العبادة امتثالهما . وقال تعالى (٣ : ١٩١ و يتفكرون فى خلق السموات والأرض : ر بنا ماخلقتَ هذا باطلا ، سبحانك ! فقِنا عذاب النار) وقال (١٥ : ٨٥ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق) وقال (٤٥ : ٢٢ وخلق الله السموات والأرض بالحق ، ولتُجْزَى كل نفس بما كسبت) .

فأخبر أنه خلق السموات والأرض بالحق ، المتضمن أمره ونهيه ، وثوابه وعقابه

فإذا كانت السموات والأرض وما بينهما خلقت لهذا ، وهو غاية الخلق ، فكيف يقال : إنه لاعلة له ، ولا حكمة مقصودة هى غايته ؟ أو إن ذلك لمجرد استئجار العباد حتى لا ينكّد عليهم الثواب بالمنة ، أو لمجرد استعداد النفوس للمعارف العقلية ، وارتياضها بمخالفة العوائد ؟ .

فليتأمل اللبيب الفرقان بين هذه الأقوال ، و بين مادل عليه صريح الوحى يجد أن أصحاب هذه الأقوال ماقدروا الله حق قدره ، ولا عرفوه حق معرفته

فالله تعالى إنما خلق الخلق لعبادته ، الجامعة لكمال محبته . مع الخضوع له والانقياد لأمره .

فأصل العبادة : محبة الله ، بل إفراده بالمحبة ، وأن يكون الحب كله لله . فلا يحب معه سواه ، و إنما يحب لأجله وفيه ، كما يحب أنبياءه ورسله وملائكته وأولياءه . فمحبتنا لهم من تمام محبته ، وليست محبة معه ، كمحبة من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحبّهِ .

و إذا كانت المحبة له هى حقيقة عبوديته وسرها . فهى إنما تتحقق باتباع أمره ، واجتناب نهيه . فعند اتباع الأمر واجتناب النهى تتبين حقيقة العبودية والمحبة . ولهذا جعل تعالى اتباع رسوله عَلَماً عليها ، وشاهداً لمن ادعاها ، فقال تعالى (٣ : ٣١ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يُحْبِبْكم الله) فجعل اتباع رسوله مشروطاً بمحبتهم لله ، وشرطاً لمحبة الله لهم . ووجود المشروط ممتنع بدون وجود شرطه وتحققه بتحققه فعلم انتفاء المحبة عند انتفاء المتابعة . فانتفاء محبتهم لله لازم لانتفاء المتابعة لرسوله ، وانتفاء المتابعة ملزوم لانتفاء محبة الله لهم . فيستحيل إذاً ثبوت محبتهم لله ، وثبوت محبة الله لهم بدون المتابعة لرسوله .

ودل على أن متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم : هى حب الله ورسوله ، وطاعة أمره . ولا يكفى ذلك فى العبودية ، حتى يكون الله ورسوله أحبَّ إلى العبد مما سواهما . فلا يكون عنده شىء أحب إليه من الله ورسوله . ومتى كان عنده شىء أحب إليه منهما فهذا هو الشرك الذى لا يغفره الله لصاحبه ألبتة ، ولا يهديه الله . قال الله تعالى (٩ : ٢٤ قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم و إخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموالٌ اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله ، فتربصوا حتى يأتى الله بأمره . والله لا يهدى القوم الفاسقين) .

فكل من قدّم طاعة أحد من هؤلاء على طاعة الله ورسوله ، أو قول أحد

منهم على قول الله ورسوله ، أو مرضاة أحد منهم على مرضاة الله ورسوله ، أو خوف أحد منهم ورجاءه والتوكل عليه على خوف الله ورجائه والتوكل عليه . أو معاملة أحدهم على معاملة الله : فهو ممن ليس الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما وإن قاله بلسانه فهو كذب منه ، وإخبار بخلاف ماهو عليه . وكذلك من قدم حكم أحد على حكم الله ورسوله . فذلك المقدَّم عنده أحبُّ إليه من الله ورسوله ، لكن قد يشتبه الأمر على من يقدم قول أحد أو حكمه ،أو طاعته أو مرضاته ، ظناً منه أنه لا يأمر ولا يحكم ولا يقول إلا ماقاله الرسول . فيطيعه ، ويحاكم إليه ، ويتلقى أقواله كذلك . فهذا معذور إذا لم يقدر على غير ذلك(١) . وأما إذا قدر على الوصول إلى الرسول ، وعرف أن غير من اتبعه هو أولى به مطلقاً ، أو فى بعض الأمور . ولم يلتفت إلى الرسول ولا إلى من هو أولى به . فهذا الذى يخاف عليه . وهو داخل تحت الوعيد . فإن استحل عقوبة من خالفه وأذله ، ولم يوافقه على اتباع شيخه . فهو من الظلمة المعتدين . وقد جعل الله لكل شىء قدرا .

فصل

وبنى « إياك نعبد » على أربع قواعد : التحقق بما يحبه الله ورسوله ويرضاه ، من قول اللسان والقلب ، وعمل القلب والجوارح .

فالعبودية : اسم جامع لهذه المراتب الأربع . فأصحاب « إياك نعبد » حقاً هم أصحابها .

فقول القلب : هو اعتقاد ماأخبر الله سبحانه به عن نفسه ، وعن أسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه على لسان رسله .

---

(١) المتتبع لنصوص الكتاب والسنة بتدبر : لايجد فيها مايعذر هؤلاء ، بل يجد أن الله سبحانه ينعى عليهم أشد النعى : أنهم انسلخوا ـ بالتقليد الأعمى ـ من آيات الله فى أنفسهم وفى الآفاق ، واتبعوا الشيطان فكانوا من الغاوين ، وأن الله قد أعطاهم من السمع والبصر والفؤاد والنعم والآيات ماييسر لهم معرفة الحق والهدى ، والصراط السوى بكل سهولة . وماظلمهم الله شيئاً ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون .

وقول اللسان : الإخبار عنه بذلك ، والدعوة إليه ، والذبُّ عنه ، وتبيين بطلان البدع المخالفة له ، والقيام بذكره ، وتبليغ أوامره .

وعمل القلب : كالمحبة له ، والتوكل عليه ، والإنابة إليه ، والخوف منه والرجاء له ، و إخلاص الدين له ، والصبر على أوامره ، وعن نواهيه ، وعلى أقداره ، والرضى به وعنه ، والموالاة فيه ، والمعاداة فيه ، والذل له والخضوع ، والإخبات إليه ، والطمأنينة به ، وغير ذلك من أعمال القلوب التى فرضُها أفرضُ من أعمال الجوارح ومستحبها أحب إلى الله من مستحبها . وعمل الجوارح بدونها إما عديم المنفعة أو قليل المنفعة .

وأعمال الجوارح : كالصلاة والجهاد ، ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات ، ومساعدة العاجز ، والإحسان إلى الخلق ونحو ذلك .

ف «إياك نعبد» التزام لأحكام هذه الأربعة ، و إقرار بها ، و «إياك نستعين» طلب للإعانة عليها والتوفيق لها ، و « اهدنا الصراط المستقيم » متضمن للتعريف بالأمرين على التفصيل ، و إلهام القيام بهما ، وسلوك طريق السالكين إلى الله بها

فصل

وجميع الرسل إنما دعوا إلى « إياك نعبد ، و إياك نستعين » فإنهم كلهم دعوا إلى توحيد الله و إخلاص عبادته ، من أولهم إلى آخرهم . فقال نوح لقومه (٧ : ٥٩ اعبدوا الله مالكم من إله غيره) وكذلك قال هود وصالح وشعيب (٧ : ٦٥ ، ٧٣ ، ٨٥) و إبراهيم . قال الله تعالى (١٦ : ٣٦ ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) وقال (٢١ : ٢٥ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدوا) وقال تعالى (٢٣ : ٥١ ، ٥٢ ياأيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا . إنى بما تعملون عليم ، و إن هذه أمتكم أمة واحدة . وأنا ربكم فاتقون) .

فصـــل

والله تعـالى جعل العبودية وصفَ أكمل خلقه ، وأقربهم إليه . فقال (٤ : ١٧٢ لن يَسْتَنْـكِفَ المسيح أن يكون عبداً لله ، ولا الملائـكة المقربون . ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً) وقال (٧ : ٢٠٦ إن الذين عند ربك لايستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون) وهذا يبين أن الوقف التام فى قوله فى سورة الأنبياء (٢١ : ١٩ وله من فى السموات والأرض) ههنا . ثم يبتدىء (ومَنْ عنده لايستكبرون عن عبادته ولايستحسرون . يسبحون الليل والنهار لايفترون) فهما جملتان تامتان مستقلتان ، أى إن له من فى السموات ومن فى الأرض عبيداً وملـكا . ثم استأنف جملة أخرى فقال (ومَنْ عنده لا يستكبرون عن عبادته) يعنى أن الملائـكةَ الذين عنده لايستكبرون عن عبادته يعنى لا يأنفون عنها ، ولايتعاظمون ولايستحسرون ، فيعيون وينقطعون ـ يقال : حَسَر واستحسر ، إذا تعب وأعيـا ـ بل عبادتهم وتسبيحهم كالنفَس لبنى آدم . فالأول : وصف لعبيد ربوبيته . والثانى : وصف لعبيد إلٰهيته . وقال تعالى (٢٥ : ٦٣ ـ ٧٧ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هَوْنا) إلى آخر السورة . وقال (٧٦ : ٦ عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا) وقال (٣٨:١٧ واذكر عبدنا داود) وقال (٣٨ : ٤١ واذكر عبدنا أيوب) وقال (٣٨:٤٥ واذكر عبادنا إبراهيم وإسحق ويعقوب) وقال عن سليمان (٣٨ : ٣٠ نعم العبد إنه أواب) وقال عن المسيح (٤٣ : ٥٩ إن هو إلا عبد أنعمنا عليه) فجعل غايته العبودية لا الإلهية ، كما يقول أعداؤه النصارى . ووصف أكرم خلقه عليه ، وأعلاهم عنده منزلة بالعبودية فى أشرف مقاماته . فقال تعالى (٢ : ٢٥ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا) وقال تبارك وتعالى (٢٥ : ١ تبارك الذى نزل الفرقان على عبده) وقال (١٨ : ١ الحمد لله الذى أنزل على عبده الـكتاب) فذكره بالعبودية فى مقام إنزال الـكتاب عليه ، وفى مقام التحدى بأن يأتوا بمثله ، وقال (٧٢ : ١٩ وأنه لما قام عبد الله يدعوه

كادوا يكونون عليه لِبَداً) فذكره بالعبودية فى مقام الدعوة إليه . وقال (١٧ : ١ سبحان الذى أسرى بعبده ليلا) فذكره بالعبودية فى مقام الإسراء . وفى الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا تطرونى كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم فإنما أنا عبد . فقولوا عبد الله ورسوله » وفى الحديث « أنا عبد . آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد » وفى صحيح البخارى عن عبد الله بن عمرو قال « قرأت فى التوراة صفة محمد صلى الله عليه وسلم : محمد رسول الله ، عبدى ورسولى ، سميته المتوكل ، ليس بفَظٍّ ولا غليظ ، ولا صَخّاب بالأسواق ، ولا يجزى بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو و يغفر » .

وجعل الله سبحانه البشارة المطلقة لعباده . فقال تعالى (٣٩ : ١٨ فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) وجعل الأمن المطلق لهم . فقال تعالى (٤٣ : ٦٨ ، ٦٩ يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون . الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين) وعزل الشيطانَ عن سلطانه عليهم خاصة ، وجعل سلطانه على من تولاه وأشرك به . فقال (١٥ : ٤٢ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان ، إلا من اتبعك من الغاوين) وقال (١٦ : ٩٩ ، ١٠٠ إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون ، إنما سلطانه على الذى يتولّونه والذين هم به مشركون) .

وجعل النبى صلى الله عليه وسلم إحسان العبودية أعلى مراتب الدين ، وهو الإحسان . فقال فى حديث جبريل — وقد سأله عن الإحسان — « أن تعبد الله كأنك تراه . فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

فصل

فى لزوم « إياك نعبد » لكل عبد إلى الموت

قال الله تعالى لرسوله (١٥ : ٩٩ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) وقال أهل النار (٧٤ : ٤٦ ، ٤٧ وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين) واليقين ههنا : هو الموت بإجماع أهل التفسير . وفى الصحيح — فى قصة موت عثمان بن مظعون

رضى الله عنه ـ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « أما عثمان فقد جاءه اليقين من ربه » أى الموت وما فيه . فلا ينفك العبد من العبودية مادام فى دار التكليف ، بل عليه فى البرزخ عبودية أخرى لما يسأله الملكان « من كان يعبد ؟ وما يقول فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ » ويلتمسان منه الجواب . وعليه عبودية أخرى يوم القيامة ، يوم يدعو الله الخلق كلهم إلى السجود . فيسجد المؤمنون . ويبقى الكفار والمنافقون لا يستطيعون السجود . فإذا دخلوا دار الثواب والعقاب انقطع التكليف هناك ، وصارت عبودية أهل الثواب تسبيحاً مقروناً بأنفاسهم لا يجدون له تعباً ولا نصبا .

ومن زعم أنه يصل إلى مقام يسقط عنه فيه التعبد ، فهو زنديق كافر بالله وبرسوله[1] . وإنما وصل إلى مقام الكفر بالله ، والانسلاخ من دينه . بل كلما تمكن العبد فى منازل العبودية كانت عبوديته أعظم ، والواجب عليه منها أكبر وأكثر من الواجب على من دونه . ولهذا كان الواجب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ بل على جميع الرسل ـ أعظم من الواجب على أممهم . والواجب على أولى العزم : أعظم من الواجب على من دونهم . والواجب على أولى العلم : أعظم من الواجب على من دونهم . وكل أحد بحسب مرتبته .

(١) هم الصوفية : يزعمون أن ربهم هو الحقيقة الكونية الأولى ، والنواة التى خرج منها كل شىء ، وشبهوه والوجود المنفصل عنه بالنخلة والنواة . فالرسل ـ عند الصوفية ـ يجهلون هذه الحقيقة فيعبدون الله ربهم ، ويدعون الناس إلى عبادته ، والتزام شرائعه وأحكامه . أما العارف من الصوفية : فهو الذى عرف هذه الحقيقة ، وعلم أن العبد هو الرب لأن فيه من النواة ، وفسروا الآية (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) بذلك ، أى حتى تصل إلى هذه الحقيقة . فتصير عارفا . فيسقط عنك حينئذ التكليف . فلا واجب ولا حرام عليك ، ولا حدود تقف عندها . وإنما ذلك على الذين لايزالون فى حجاب جهل هذه الحقيقة . قال هذا لسانهم ابن عربى فى تفسيره وقال شارحاً وموضحا :

العبد رب ، والرب عبد فليت شعرى : من المكلف ؟
إن قلت : عبد ، فذاك رب أو قلت : رب ، أنى يكلف ؟

فصــل

فى انقسام العبودية إلى عامة وخاصة

العبودية نوعان : عامة ، وخاصة .

فالعبودية العامة : عبودية أهل السموات والأرض كلهم لله ، بَرِّهم وفاجرهم ، مؤمنهم وكافرهم . فهذه عبودية القهر والملك . قال تعالى (١٩ : ٨٨ ـ ٩٣ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً . لقد جئتم شيئاً إدًّا . تكاد السموات يَتَفَطَّرن منه وتَنْشَقُّ الأرض وتَخِرُّ الجبال هَدًّا . أن دَعَوْا للرحمن ولدا . وماينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا . إنْ كلُّ من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمنِ عبدا) فهذا يدخل فيه مؤمنهم وكافرهم .

وقال تعـالى (٢٥ : ١٧ ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله . فيقول : أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء ؟) فسماهم عباده مع ضلالهم . لـكن تسميةً مقيدة بالإشارة . وأما المطلقة : فلم تجىء إلا لأهل النوع الثانى ، كما سيأتى بيانه إن شاء الله .

وقال تعالى (٣٩ : ٤٦ قل اللهم فاطر السموات والأرض عالمَ الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون) وقال (٤٠ : ٣١ وما الله يريد ظلماً للعباد) وقال (٤٠ : ٤٨ إن الله قد حكم بين العباد) فهذا يتناول العبودية الخاصة والعامة .

وأما النوع الثانى : فعبودية الطاعة والمحبة ، واتباع الأوامر . قال تعـالى (٤٣ : ٦٨ يا عبادى لا خوف عليـكم اليوم ولا أنتم تحزنون) وقال (٣٩ : ١٨ فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) وقال (٢٥ : ٦٣ ، ٦٤ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا * وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سـلاما) وقال تعالى عن إبليس (١٥ : ٤٠ لأغوينَّهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلَصين) فقال تعالى عنهم (١٥ : ٤١ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان) .

فالخلق كلهم عبيد ربوبيته . وأهل طاعته وولايته : هم عبيد إلٰهيته .

ولا يجىء فى القرآن إضافة العباد إليه مطلقاً إلا لهؤلاء .

وأما وصف عبيد ربوبيته بالعبودية : فلا يأتى إلا على أحد خمسة أوجه : إما مُنكَّرا . كقوله (إن كل من فى السموات والأرض إلا آت الرحمن عبدا) والثانى : معرفا باللام ، كقوله (٤٠ : ٣١ وما الله يريد ظلماً للعباد) (٤٠ : ٤٨ إن الله قد حَكَمَ بين العباد) .

الثالث : مقيداً بالإشارة أو نحوها ، كقوله (أأنتم أضللتم عبادى هؤلاء) .

الرابع : أن يذكروا فى عموم عباده . فيندرجوا مع أهل طاعته فى الذكر . كقوله (٣٩ : ٤٦ أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون) .

الخامس : أن يذكروا موصوفين بفعلهم . كقوله (٣٩ : ٥٣ قل يا عبادىَ الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله) .

وقد يقال : إنما سماهم « عباده » إذ لم يقنطوا من رحمته ، وأنابوا إليه ، واتبعوا أحسن ما أنزل إليهم من ربهم ، فيكونون من عبيد الإلهية والطاعة .

وإنما انقسمت العبودية إلى خاصة وعامة ، لأن أصل معنى اللفظة : الذل والخضوع . يقال « طريق مُعَبَّد » إذا كان مُذَلَّلاً بوطء الأقدام ، و « فلان عَبَّده الحب » إذا ذلله ، لكن أولياؤه خضعوا له وَذَلُّوا طوعاً واختياراً ، وانقياداً لأمره ونهيه . وأعداؤه خضعوا له قهراً ورغماً .

ونظير انقسام العبودية إلى خاصة وعامة : انقسام «القنوت» إلى خاص وعام ، و « السجود » كذلك . قال تعالى فى القنوت الخاص (٣٩ : ٩ أَمَّنْ هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً ؟ يَحْذَرُ الآخرة ويرجو رحمة ربه) وقال فى حق مريم (٦٦ : ١٢ وكانت من القانتين) وهو كثير فى القرآن .

وقال فى القنوت العام (٢ : ١٧٦ وله من فى السموات والأرض كل له قانتون) أى خاضعون أذلاء .

وقال فى السجود الخاص (٧ : ٢٠٦ إن الذين عند ربك لا يستكبرون

عن عبادته و يسبحونه وله يسجدون) وقال (١٩ : ٥٨ إذا تتلى عليهم آيات الرحمٰن خرُّوا سُجَّدًا وَ بُكيًا) وهو كثير فى القرآن .

وقال فى السجود العام (١٣ : ١٥ ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغُدوِّ والآصال) .

ولهذا كان هذا السجود الكُرْه غير السجود المذكور فى قوله (٢٢ : ١٨ ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس) فخص بالسجود هنا كثيراً من الناس وعمهم بالسجود فى سورة النحل (١٦ : ٤٩ ولله يسجد مافى السموات والأرض من دابة والملائكة) وهو سجود الذل والقهر والخضوع . فكل أحد خاضع لربوبيته ، ذليل لعزته . مقهور تحت سلطانه تعالى .

فصل

فى مراتب « إياك نعبد » علماً وعملا

للعبودية مراتب ، بحسب العلم والعمل . فأما مراتبها العلمية فمرتبتان :

إحداهما : العلم بالله . والثانية : العلم بدينه .

فأما العلم به سبحانه ، فخمس مراتب : العلم بذاته ، وصفاته ، وأفعاله ، وأسمائه ، وتنزيهه عما لا يليق به .

والعلم بدينه مرتبتان . إحداهما : دينه الأمرى الشرعى . وهو الصراط المستقيم الموصل إليه .

والثانية : دينه الجزائى ، المتضمن ثوابه وعقابه . وقد دخل فى هذا العلم العلمُ بملائكته وكتبه ورسله .

وأمامراتبها العلمية،فمرتبتان : مرتبة لأصحاب اليمين ، ومرتبة للسابقين المقربين

فأما مرتبة أصحاب اليمين : فأداء الواجبات ، وترك المحرمات ، مع ارتكاب المباحات ، و بعض المكروهات ، وترك بعض المستحبات .

وأما مرتبة المقربين : فالقيام بالواجبات والمندوبات . وترك المحرمات والمكروهات ، زاهدين فيما لا ينفعهم فى معادهم [١] ، متورعين عما يخافون ضرره . وخاصتهم : قد انقلبت المباحات فى حقهم طاعات وقربات بالنية [٢]

(١) الزهد فى الشىء : إنما يكون عن استغناء عنه واحتقار له واستصغار لشأنه . ولذلك لم يرد فى القرآن إلا فى شأن الذين اشتروا يوسف عليه السلام بثمن بخس دراهم معدودة والمؤمن لا يمكن أن يرى شيئاً مما أحله الله من الطيبات حقيراً ، ولا يستغنى عنه ، لأنه نعمة كريمة من ربه الحكيم ، واحتقار النعمة واستصغارها كفر بها وبمن أنعم بها . ومن ثم لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يزهد فى مباح أحله الله أبداً ، بل كان يأكل مايجد ويلبس مايجد من الحلال الطيب ، وكان يمقت الزهد فى الحلال ممن يحاوله ، كمقته زهد من زهدوا فى اللحم والنساء ونوم الليل وفطر النهار ، إذ سمعهم يحسنون ذلك ويقصدون العزم على فعله . وأشقى الناس وأخسرهم ــ فى الأولى والآخرة ــ وأمقتهم عند الله : الذين زهدوا فى نعم الله ، فاحتقروها ، وزعم لهم شيطانهم أنها باطل وشر ، وأن الخير كل الخير لهم فى الزهد فيها والتجافى عنها والاستغناء الفطرى عنها ، فشقوا فى الدنيا والآخرة واضطروا أن يأخذوها من طريق حرام ، لأن معايشهم لازم لها هذه النعم . أما المؤمنون الراشدون : فيرون أنها كلها حق وحكمة ، وأن الله ماخلق شيئاً باطلا ولاعبثاً ، فهم أبداً يثنون بها على مسديها سبحانه ، محسنين الانتفاع بها ، بوضعها فى مواضعها فى كل وقت وحال بما يناسبه ، مقدرين لها قدرها ، وقدر مافيها من الخير والجمال ، لأنها من الله الذى لا يكون منه إلا الخير والجميل ، فيزيدهم الله بها حسناً و (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) و(للذين أساءوا السوأى) . (قل من حرم زينة الله التى أخرج بعباده والطيبات من الرزق ؟ قل : هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا . خالصة يوم القيامة)

(٢) يقصد رحمه الله من « النية » عقد القلب وتوجه عزمه وقصده فى حسن تلق هذه النعم والآلاء ، بأنها من ربهم العليم الحكيم ، الذى ما أعطى عباده هذه النعم إلا ليربيهم بها ، وينمى فيهم ملكات الخير ، ويزيدهم بها من عناصر الإنسانية الكريمة يرقون بها على معارج الخير والإحسان والرشد والحكمة ، فيكونون من الأبرار . فهم فى كل شئونهم وأحوالهم عابدون ذاكرون لربهم الرحمن ، بكل أنواع الذل والخضوع والمحبة والإسلام . فهم فى حقلهم عابدون ، وفى متاجرهم عابدون ، =

فليس فى حقهم مباح متساوى الطرفين ، بل كل أعمالهم راجحة . ومَنْ دونهم يترك المباحات مشتغلا عنها بالعبادات . وهؤلاء يأتونها طاعات وقربات . ولأهل هاتين المرتبتين درجات لا يحصيها إلا الله .

فصـل

ورحَى العبودية تدور على خمس عشرة قاعدة . مَنْ كَمَّلها كمل مراتب العبودية .

وبيانها : أن العبودية منقسمة على القلب ، واللسان ، والجوارح . وعلى كل منها عبودية تخصه .

والأحكام التى للعبودية خمسة : واجب ، ومستحب ، وحرام ، ومكروه ، ومباح . وهى لكل واحد من القلب ، واللسان ، والجوارح .

= وفى مضاجعهم مع أزواجهم عابدون ، وهكذا لايرون فى شىء مما آتاهم الله مايشغلهم عن ربهم وينسيهم أسماءه ، وما يرون فى شىء إلا أنه عنصر جديد من عناصر التربية والإحسان ، فيزدادون لمسديها إليهم سبحانه شكراً وحباً وخضوعاً وذلا وإسلاماً وطاعة . وليس المراد من « النية » المعنى الاصطلاحى فى كتب الفقه ، الذى يريدون منه أن يقصد العبادة الاصطلاحية الصورية ، ويعبرون عنها بقولهم : نويت كذا لله ـ ويقصدون من ذلك : أن نية الموافقة فى الأكل واللبس ونحو ذلك من المباحات للرسول صلى الله عليه وسلم : تجعل المباح عبادة اصطلاحية ، ومشروعة لها حكم بقية ماشرع الله لرسوله من العبادات . فإن هذا هو الباب الذى دخل منه الشيطان بالبدع المحدثة ، وحسنها إلى قلوب أكثر الناس وأعمالهم ، فطم بها الوادى ، وعمت بها البلوى ، حتى جرهم إلى الشرك والوثنية . والذى ينبغى أن يعرفه المؤمن ويدين به من صميم قلبه : أن الأعمال والأحوال البشرية للرسول صلى الله عليه وسلم هى منه كغيرها من غيره من بقية البشر . لأن الله يقول له (قل إنما أنا بشر مثلكم) فلا ينبغى أبداً أن تخلط بالرسالة وأعمالها وأحوالها ، فإنها من عند الله ، وقد جعلها لنا ديناً ، وجعل فيها الأسوة الحسنة برسول الله صلى الله عليه وسلم . وهو مقام ينبغى التأمل فيه حق التأمل . فإنه دقيق ، غاب فهمه عن كثير فأخطأهم التوفيق . والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل .

أ — فواجب القلب : منه متفق على وجوبه ، ومختلف فيه .

فالمتفق على وجوبه : كالإخلاص ، والتوكل ، والمحبة ، والصبر ، والإنابة ، والخوف ، والرجاء ، والتصديق الجازم ، والنية فى العبادة . وهذه قدر زائد على الإخلاص . فإن الإخلاص هو إفراد المعبود عن غيره .

ونية العبادة لها مرتبتان .

إحداهما : تمييز العبادة عن العادة .

والثانية : تمييز مراتب العبادات بعضها عن بعض .

والأقسام الثلاثة واجبة .

وكذلك الصدق . والفرق بينه وبين الإخلاص : أن للعبد مطلوباً وطلباً ، فالإخلاص : توحيد مطلوبه . والصدق : توحيد طلبه .

فالإخلاص : أن لا يكون المطلوب منقسما . والصدق : أن لا يكون الطلب منقسما . فالصدق بذل الجهد ، والإخلاص إفراد المطلوب .

واتفقت الأمة على وجوب هذه الأعمال على القلب من حيث الجملة .

وكذلك النصح فى العبودية . ومدار الدين عليه . وهو بذل الجهد فى إيقاع العبودية على الوجه المحبوب للرب المرضى له . وأصل هذا واجب . وكماله مرتبة المقربين .

وكذلك كل واحد من هذه الواجبات القلبية له طرفان ، واجب مستحق . وهو مرتبة أصحاب اليمين ، وكمال مستحب . وهو مرتبة المقربين .

وكذلك الصبر واجب باتفاق الأمة ، قال الإمام أحمد : ذكر الله الصبر فى تسعين موضعاً من القرآن ، أو بضعاً وتسعين ، وله طرفان أيضاً : واجب مستحق ، وكمال مستحب .

وأما المختلف فيه فكالرضا . فإن فى وجوبه قولين للفقهاء والصوفية .

والقولان لأصحاب أحمد . فمن أوجبه قال : السخط حرام . ولا خلاص عنه إلا بالرضا . ومالا خلاص عن الحرام إلا به فهو واجب .

واحتجوا بأثر « من لم يصبر على بلائى ، ولم يرض بقضائى ، فليتخذ ربًّا سواى » .

ومن قال هو مستحب ، قال : لم يجىء الأمر به فى القرآن ولا فى السنة ، بخلاف الصبر ، فإن الله أمر به فى مواضع كثيرة من كتابه . وكذلك التوكل . قال (١٠ : ٨٤ إن كنتم آمَنْتُم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين) وأمر بالإنابة . فقال (٣٩ : ٥٤ وأنيبوا إلى ربكم) وأمر بالإخلاص كقوله (٩٨ : ٥ وما أُمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) وكذلك الخوف كقوله (٣ : ١٧٥ فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) وقوله (٢ : ١٥٠ فلا تخشوهم واخشون) وقوله (٢ : ٤٠ و إياى فارهبون) وكذلك الصدق . قال تعالى (٩ : ١١٩ يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) وكذلك المحبة . وهى أفرض الواجبات . إذ هى قلب العبادة المأمور بها ، ومُخُّهَا وروحها

وأما الرضا : فإنما جاء فى القرآن مدحُ أهله ، والثناء عليهم . لا الأمر به .

قالوا : وأما الأثر المذكور فإسرائيلى . لا يحتج به .

قالوا : وفى الحديث المعروف عن النبى صلى الله عليه وسلم « إن استطعت أن تعمل الرضا مع اليقين فافعل ، فإن لم تستطع ، فإن فى الصبر على ماتكره النفس خيراً كثيراً » وهو فى بعض السنن .

قالوا : وأما قولكم « لا خلاص عن السخط إلا به » فليس بلازم . فإن مراتب الناس فى المقدور ثلاثة : الرضا . وهو أعلاها ، والسخط . وهو أسفلها ، والصبر عليه بدون الرضا به . وهو أوسطها . فالأولى للمقربين السابقين . والثالثة للمقتصدين . والثانية للظالمين ، وكثير من الناس يصبر على المقدور فلا يسخط . وهو غير راض به . فالرضا أمر آخر .

وقد أشكل على بعض الناس اجتماع الرضا مع التألم ، وظن أنهما متباينان . وليس كما ظنه . فالمريض الشارب للدواء الكريه متألم به راض به ، والصائم فى شهر رمضان فى شدة الحر متألم بصومه راض به ، والبخيل متألم بإخراج زكاة ماله راض بها . فالتألم كما لا ينافى الصبر لا ينافى الرضا به .

وهذا الخلاف بينهم ، إنما هو فى الرضا بقضائه الكونى ، وأما الرضا به ربًّا وإلهاً ، والرضا بأمره الدينى : فمتفق على فرضيته ، بل لا يصير العبد مسلماً إلا بهذا الرضا : أن يرضى بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولا .

ومن هذا أيضاً اختلافهم فى الخشوع فى الصلاة . وفيه قولان للفقهاء ، وهما فى مذهب أحمد وغيره .

وعلى القولين اختلافهم فى وجوب الإعادة على من غلب عليه الوسواس فى صلاته . فأوجبها ابن حامد من أصحاب أحمد ، وأبو حامد الغزالى فى إحيائه ، ولم يوجبها أكثر الفقهاء .

واحتجوا بأن النبى صلى الله عليه وسلم أمر من سها فى صلاته بسجدتى السهو ولم يأمره بالإعادة مع قوله « إن الشيطان يأتى أحدكم فى صلاته ، فيقول : اذكر كذا ، اذكر كذا — لما لم يكن يذكر — حتى يضل الرجل أن يدرى كم صلى » ولكن لا نزاع أن هذه الصلاة لا يثاب على شىء منها إلا بقدر حضور قلبه وخضوعه . كما قال النبى صلى الله عليه وسلم « إن العبد لينصرف من الصلاة ولم يكتب له إلا نصفها ، ثلثها ، ربعها — حتى بلغ عشرها » وقال ابن عباس رضى الله عنهما « ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت منها » فليست صحيحة باعتبار ترتب كال مقصودها عليها ، وإن سميت صحيحة باعتبار أنا لا نأمره بالإعادة (١)

---

(١) القول بأن الصلاة التى لا خشوع فيها ألبتة ولا تدبر للقراءة والذكر تسمى صحيحة ، مبنى على أن كلمة «الصحة» إنما تطلق على ما اجتمعت الشروط الاصطلاحية =

ولا ينبغى أن يعلق لفظ الصحة عليها . فيقال « صلاة صحيحة » مع أنه لا يثاب عليها فاعلها .

والقصد : أن هذه الأعمال ـ واجبها ومستحبها ـ هى عبودية القلب . فمن عطلها فقد عطل عبودية الملك ، وإن قام بعبودية رعيته من الجوارح .

والمقصود : أن يكون ملك الأعضاء ـ وهو القلب ـ قائماً بعبوديته لله سبحانه ، هو ورعيته .

وأما المحرمات التى عليه : فالكبر ، والرياء ، والعجب ، والحسد ، والغفلة ، والنفاق . وهى نوعان : كفر ، ومعصية .

فالكفر : كالشك ، والنفاق ، والشرك ، وتوابعها .

والمعصية نوعان : كبائر ، وصغائر .

فالكبائر : كالرياء ، والعجب ، والكبر ، والفخر ، والخيلاء ، والقنوط من رحمة الله ، واليأس من روح الله ، والأمن من مكر الله ، والفرح والسرور بأذى المسلمين ، والشماتة بمصيبتهم ، ومحبة أن تشيع الفاحشة فيهم ، وحسدهم على ما آتاهم الله من فضله ، وتمنى زوال ذلك عنهم ، وتوابع هذه الأمور التى هى أشد تحريماً من الزنا ، وشرب الخمر وغيرهما من الكبائر الظاهرة . ولا صلاح للقلب ولا للجسد إلا باجتنابها ، والتوبة منها . وإلا فهو قلب فاسد . وإذا فسد القلب فسد البدن .

وهذه الآفات إنما تنشأ من الجهل بعبودية القلب ، وترك القيام بها .

فوظيفة « إياك نعبد » على القلب قبل الجوارح . فإذا جهلها وترك القيام بها امتلأ بأضدادها ولابد . وبحسب قيامه بها يتخلص من أضدادها .

= فى أعمالها البدنية الظاهرة ، دون الأعمال الباطنة كالإخلاص ، كما تطلق فى عرف الأطباء على سلامة الجسد ، دون سلامة النفس من فساد العقائد والأخلاق . وصحة الصلاة بهذا المعنى لا تقتضى سقوط الفرض وعدم المؤاخذة فى الآخرة . والمراد أنها صحيحة ظاهراً كتسمية المنافق مسلماً فى الظاهر . اهـ

وهذه الأمور ونحوها قد تكون صغائر فى حقه ، وقد تكون كبائر ، بحسب قوتها وغلظها ، وخفتها ودقتها .

ومن الصغائر أيضاً : شهوة المحرمات وتمنيها . وتفاوت درجات الشهوة فى الكبر والصغر ، بحسب تفاوت درجات المشتهَى . فشهوة الكفر والشرك : كفر . وشهوة البدعة : فسق . وشهوة الكبائر : معصية . فإن تركها لله مع قدرته عليها أثيب . وإن تركها عجزاً بعد بذله مقدوره فى تحصيلها : استحق عقوبة الفاعل ، لتنزيله منزلته فى أحكام الثواب والعقاب ، وإن لم ينزل منزلته فى أحكام الشرع . ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم « إذا تواجه المسلمان بسيفيهما ، فالقاتل والمقتول فى النار . قالوا : هذا القاتل . يا رسول الله . فما بال المقتول ؟ قال : إنه كان حريصاً على قتل صاحبه » فنزله منزلة القاتل ، لحرصه على قتل صاحبه ، فى الإثم دون الحكم . وله نظائر كثيرة فى الثواب والعقاب .

وقد علم بهذا مستحب القلب ومباحه .

فصل

وأما عبوديات اللسان الخمس . فواجبها : النطق بالشهادتين ، وتلاوة ما يلزمه تلاوته من القرآن . وهو ما تتوقف صحة صلاته عليه[(١)] ، وتلفظه بالأذكار الواجبة فى الصلاة التى أمر الله بها ورسوله ، كما أمر بالتسبيح فى الركوع والسجود ، وأمر بقول « ربنا ولك الحمد » بعد الاعتدال ، وأمر بالتشهد ، وأمر بالتكبير .

ومن واجبه : رد السلام . وفى ابتدائه قولان .

---

(١) وكذلك من أوجب الواجبات : مايتوقف صحة إيمان العبد عليه . من آيات أسماء الله وصفاته ، وشرائعه وعبادته ، وغير ذلك . فإن عدم معرفة ذلك من القرآن يجعل إيمانه تقليدياً صورياً ميتا كذباً ، لاينفعه ، ولايدفع عنه هجات العدو من شياطين الإنس والجن بالخرافات الجاهلية ، والبدع الوثنية وغيرها .

ومن واجبه : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وتعليم الجاهل ، وإرشاد الضال ، وأداء الشهادة المتعينة ، وصدق الحديث .

وأما مستحبه : فتلاوة القرآن ، ودوام ذكر الله ، والمذاكرة فى العلم النافع ، وتوابع ذلك .

وأما محرمه : فهو النطق بكل ما يبغضه الله ورسوله ، كالنطق بالبدع المخالفة لما بعث الله به رسوله ، والدعاء إليها ، وتحسينها وتقويتها ، وكالقذف وسب المسلم ، وأذاه بكل قول . والكذب ، وشهادة الزور ، والقول على الله بلا علم . وهو أشدها تحريماً .

ومكروهه : التكلم بما تَرْكُهُ خير من الكلام به ، مع عدم العقوبة عليه .

وقد اختلف السلف : هل فى حقه كلام مباح ، متساوى الطرفين ؟ على قولين . ذكرها ابن المنذر وغيره . أحدها : أنه لا يخلو كل ما يتكلم به : إما أن يكون له أو عليه . وليس فى حقه شىء لا له ولا عليه .

واحتجوا بالحديث المشهور . وهو « كل كلام ابن آدم عليه ، لا له . إلا ما كان من ذكر الله وما والاه » .

واحتجوا بأنه يكتب عليه كلامه كله . ولا يكتب إلا الخير والشر .

وقالت طائفة : بل هذا الكلام مباح ، لا له ولا عليه ، كما فى حركات الجوارح . قالوا : لأن كثيراً من الكلام لا يتعلق به أمر ولا نهى . وهذا شأن المباح

والتحقيق : أن حركة اللسان بالكلام لا تكون متساوية الطرفين ، بل إما راجحة وإما مرجوحة . لأن للسان شأناً ليس لسائر الجوارح . وإذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كلها تكفر اللسان ، تقول « اتق الله . فإنما نحن بك . فإن استقمت استقمنا ، وإن اعوججت اعوججنا » وأكثر ما يُكِبُّ الناس على مناخرهم فى النار حصائد ألسنتهم . وكل ما يتلفظ به اللسان فإما أن يكون مما يرضى الله ورسوله أولا . فإن كان كذلك فهو الراجح ، وإن لم يكن كذلك فهو

المرجوح . وهذا بخلاف حركات سائر الجوارح . فإن صاحبها ينتفع بتحريكها فى المباح المستوى الطرفين ، لما له فى ذلك من الراحة والمنفعة ، فأبيح له استعمالها فيما فيه منفعة له ، ولا مضرة عليه فيه فى الآخرة . وأما حركة اللسان بما لا ينتفع به فلا يكون إلا مضرة . فتأمله (١) .

فإن قيل : فقد يتحرك بما فيه منفعة دنيوية مباحة مستوية الطرفين . فيكون حكم حركته حكم ذلك الفعل .

قيل : حركته بها عند الحاجة إليها راجحة ، وعند عدم الحاجة إليها مرجوحة لا تفيده . فتكون عليه لا له .

فإن قيل : فإذا كان الفعل متساوى الطرفين ، كانت حركة اللسان التى هى الوسيلة إليه كذلك ، إذ الوسائل تابعة للمقصود فى الحكم .

قيل : لا يلزم ذلك . فقد يكون الشىء مباحاً ، بل واجباً ، ووسيلته مكروهة ـ كالوفاء بالطاعة المنذورة ـ هو واجب ، مع أن وسيلته ـ وهو النذر ـ مكروه منهى عنه . وكذلك الحلف المكروه مرجوح ، مع وجوب الوفاء به أو الكفارة ، وكذلك سؤال الخلق عند الحاجة مكروه ، ويباح له الانتفاع بما أخرجته له المسألة . وهذا كثير جداً . فقد تكون الوسيلة متضمنة مفسدة تكره أو تحرم لأجلها ، وما جعلت وسيلة إليه ليس بحرام ولا مكروه .

فصل

وأما العبوديات الخمس على الجوارح : فعلى خمس وعشرين مرتبة أيضاً . إذ الحواس خمسة . وعلى كل حاسة خمس عبوديات .

فعلى السمع : وجوب الإنصات ، والاستماع لما أوجبه الله ورسوله عليه ، من

(١) الواقع : أن اللسان والجوارح فى الحركة ـ مضرة ، ومنفعة ، ومسئولية ـ سواء ، وظهور ذلك من اللسان : إنما هو لكثرة استعمال الإنسان له . فهو متنبه له ، وغافل عن الجوارح الأخرى وخصوصاً السمع والبصر .

استماع الإسلام والإيمان وفروضهما ، وكذلك استماع القراءة فى الصلاة إذا جهر بها الإمام ، واستماع الخطبة للجمعة ، فى أصح قولى العلماء .

ويحرم عليه استماع الكفر والبدع ، إلا حيث يكون فى استماعه مصلحة راجحة : من ردّه ، أو الشهادة على قائله ، أو زيادة قوة الإيمان والسنة بمعرفة ضدها من الكفر والبدعة ونحو ذلك ، وكاستماع أسرار من يهرب عنك بسره ، ولا يحب أن يطلعك عليه ، ما لم يكن متضمناً لحق لله يجب القيام به ، أو لأذى مسلم يتعين نصحه ، وتحذيره منه .

وكذلك استماع أصوات النساء الأجانب التى تُخْشى الفتنة بأصواتهن ، إذا لم تدع إليه حاجة : من شهادة ، أو معاملة ، أو استفتاء ، أو محاكمة ، أو مداواة ونحوها .

وكذلك استماع المعازف ، وآلات الطرب واللهو ، كالعود والطنبور واليراع ونحوها . ولا يجب عليه سَدُّ أذنه إذا سمع الصوت ، وهو لا يريد استماعه ، إلا إذا خاف السكون إليه والإنصات . فحينئذ يجب لتجنب سماعها وجوبَ سد الذرائع .

ونظير هـذا المحرِمُ : لا يجوز له تعمد شم الطيب . و إذا حملت الريح رائحته وألقتها فى مشامِّه لم يجب عليه سد أنفه .

ونظير هذا : نظرة الفجاءة لا تحرم على الناظر ، وتحرم عليه النظرة الثانية إذا تعمدها .

وأما السمع المستحب : فـكاستماع المستحب من العـلم ، وقراءة القرآن ، وذكر الله ، واستماع كل ما يحبه الله ، وليس بفرض .

والمكروه : عكسه . وهو استماع كل مايكره ولا يعاقب عليه .

والمباح ظاهر .

وأما النظر الواجب : فالنظر فى المصحف ، وكتب العلم عند تعين تعلم الواجب منها ، والنظر إذا تعين لتمييز الحلال من الحرام فى الأعيان التى يأكلها أو ينفقها أو يستمتع بها ، والأمانات التى يؤديها إلى أربابها ليميز بينها ، ونحو ذلك .

— والنظر الحرام : النظر إلى الأجنبيات بشهوة مطلقاً ، و بغيرها إلا لحاجة ، كنظر الخاطب ، والمستام والمعامِل ، والشاهد ، والحاكم ، والطبيب ، وذى المحرم .

— والمستحب : النظر فى كتب العلم والدين التى يزداد بها الرجل إيماناً وعلما . والنظر فى المصحف ، ووجوه العلماء الصالحين والوالدين ، والنظر فى آيات الله المشهودة ، ليستدل بها على توحيده ومعرفته وحكمته(١)

— والمكروه : فضول النظر الذى لامصلحة فيه . فإن له فضولاً كما للسان فضولا . وكم قاد فضولها إلى فضولٍ عَزَّ التاخص منها ، وأعيَى دواؤها . وقال بعض السلف : كانوا يكرهون فضول النظر ، كما يكرهون فضول الكلام .

— والمباح : النظر الذى لامضرة فيه فى العاجل والآجل ولامنفعة .

ومن النظر الحرام : النظر إلى العورات . وهى قسمان .

عورة وراء الثياب ، وعورة وراء الأبواب .

ولو نظر فى العورة التى وراء الأبواب فرماه صاحب العورة ، ففقأ عينه ، لم يكن عليه شىء ، وذهبت هَدَرا ، بنص رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديث المتفق على صحته(٢) . و إن ضعفه بعض الفقهاء ، لكونه لم يبلغه النص ، أو تأوله .

(١) النظر والتأمل فى آيات الله الكونية : أوجب الواجبات . فإنه قد ورد الأمر المشدد به فى القرآن كثيراً جداً ، وجاء التوعد الشديد لمن عمى وغفل عن آيات الله الكونية . فإن العمى عنها مؤد ولابد إلى التكذيب بآيات الله فى الأنفس والآفاق ، وآياته القرآنية وخسرانها ، ثم يثمر ذلك اتخاذ الآلهة من الموتى وعبادتهم من دون الله ، والأرباب من المشايخ وغيرهم ، يشرعون من الدين ما لم يأذن به الله . ومن المحال أن يكون إيمان بالله وكتابه ورسوله إلا ثمرة التفكر فى آيات الله فى الأنفس وفى الآفاق . أما النظر إلى المصحف ووجوه العلماء : فلا أدرى من أين جاء استحبابه ؟ اللهم إلا إذا كان على أنه من سنن الله وآياته . فيكون للاعتبار .

(٢) فى البخارى ومسلم من حديث أبى هريرة رضى‌الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من اطلع فى بيت قوم بغير إذنهم ، فقد حل لهم أن يفقؤا عينه » ورواه أبو داود ، وفيه « ففقؤا عينه فقد هدرت »

وهذا إذا لم يكن للناظر سبب يباح النظر لأجله ، كعورة له هناك ينظرها ، أو ريبة هو مأمور - أو مأذون له - فى الاطلاع عليها .

وأما الذوق الواجب : فتناول الطعام والشراب عند الاضطرار إليه ، وخوف الموت . فإن تركه حتى مات مات عاصياً قاتلا لنفسه . قال الإمام أحمد وطاووس : من اضطر إلى أكل الميتة فلم يأكل حتى مات ، دخل النار .

ومن هذا : تناول الدواء إذا تيقن النجاة به من الهلاك ، على أصح القولين . وإن ظن الشفاء به . فهل هو مستحب مباح ، أو الأفضل تركه ؟ فيه نزاع معروف بين السلف والخلف .

والذوق الحرام : كذوق الخمر ، والسموم القاتلة . والذوق الممنوع منه للصوم الواجب .

وأما المكروه : فكذوق المشتبهات ، والأكل فوق الحاجة ، وذوق طعام الفجاءة . وهو الطعام الذى تفجأ آكله ، ولم يُرد أن يدعوك إليه ، وكأكل أطعمة المرائين فى الولائم والدعوات ونحوها . وفى السنن : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « نهى عن طعام المتبارين » وذوق طعام من يطعمك حياء منك لابطيبة نفس .

والذوق المستحب : أكل مايعينك على طاعة الله عز وجل ، مما أذن الله فيه . والأكل مع الضيف ليطيب له الأكل ، فينال منه غرضه . والأكل من طعام صاحب الدعوة الواجب إجابتها أو المستحب .

وقد أوجب بعض الفقهاء الأكل من الوليمة الواجب إجابتها ، للأمر به عن الشارع .

والذوق المباح : مالم يكن فيه إثم ولا رجحان .

وأما تعلق العبوديات الخمس بحاسة الشم ، فالشم الواجب : كل شم تعين طريقاً للتمييز بين الحلال والحرام ، كالشم الذى تعلم به هذه العين هل هى خبيثة

أو طيبة ؟ وهل هى سم قاتل أولا مضرة فيه ؟ أو يميز به بين مايملك الانتفاع به ، ومالايملك ؟ ومن هذا شم المقوِّم ، وربُّ الخِبْرة ، عند الحكم بالتقويم ، و [شم] العبيد ونحو ذلك .

— وأما الشم الحرام : فالتعمد لشم الطيب فى الإحرام ، وشم الطيب المغصوب والمسروق ، وتعمد شم الطيب من النساء الأجنبيات خشية الافتتان بما وراءه .

— وأما الشم المستحب : فشم ما يعينك على طاعة الله ، ويقوى الحواس ، ويبسط النفس للعلم والعمل . ومن هذا : هدية الطيب والريحان إذا أهديت لك . ففى صحيح مسلم عن النبى صلى الله عليه وسلم « من عُرض عليه ريحان فلا يرده . فإنه طيب الريح ، خفيف المحمل » .

— والمكروه : كشم طيب الظَّلَمة ، وأصحاب الشبهات ، ونحو ذلك .

— والمباح : مالامنع فيه من الله ولا تَبِعة ، ولا فيه مصلحة دينية ، ولاتعلق له بالشرع .

— وأما تعلق هذه الخمسة بحاسة اللمس ، فاللمس الواجب : كلمس الزوجة حين يجب جماعها ، والأمة الواجب إعفافها .

— والحرام : لمس مالا يحل من الأجنبيات .

— والمستحب : إذا كان فيه غض بصره ، وكف نفسه عن الحرام ، وإعفاف أهله .

— والمكروه : لمس الزوجة فى الإحرام للذة . وكذلك فى الاعتكاف ، وفى الصيام ، إذا لم يأمن على نفسه .

ومن هذا لمس بدن الميت ـ لغير غاسله ـ لأن بدنه قد صار بمنزلة عورة الحى تكريماً له . ولهذا يستحب ستره عن العيون ، وتغسيله فى قميصه فى أحد القولين ، ولمس فخذ الرجل ، إذا قلنا : هى عورة .

— والمباح : مالم يكن فيه مفسدة ولا مصلحة دينية .

وهذه المراتب أيضاً مُرَتَّبة على البطش باليد ، والمشى بالرجل . وأمثلتها لاتخفى .

فالتكسب المقدور للنفقة على نفسه وأهله وعياله : واجب . وفى وجوبه لقضاء دينه خلاف . والصحيح : وجوبه ليمكنه من أداء دينه ، ولا يجب لإخراج الزكاة . وفى وجوبه لأداء فريضة الحج نظر . والأقوى فى الدليل : وجوبه لدخوله فى الاستطاعة ، وتمكنه بذلك من أداء النسك . والمشهور عدم وجوبه .

ومن البطش الواجب : إعانة المضطر ، ورمى الجمار ، ومباشرة الوضوء والتيمم .

والحرام : كقتل النفس التى حرم الله قتلها ، ونهب المال المعصوم ، وضرب من لايحل ضربه ، ونحو ذلك ، وكأنواع اللعب المحرم بالنص كالنّرد ، أو ماهو أشد تحريماً منه عند أهل المدينة ، كالشطرنج ، أو مثله عند فقهاء الحديث كأحمد وغيره ، أو دونه عند بعضهم . ونحو كتابة البدع المخالفة للسنة تصنيفاً أو نسخا ، إلا مقروناً بردها ونقضها ، وكتابة الزور والظلم ، والحكم الجائر ، والقذف والتشبيب بالنساء الأجانب ، وكتابة مافيه مضرة على المسلمين فى دينهم أو دنياهم ، ولا سيما إن كسبت عليه مالا (٢ : ٧٩ فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون) وكذلك كتابة المفتى على الفتوى مايخالف حكم الله ورسوله ، إلا أن يكون مجتهداً مخطئاً ، فالإثم موضوع عنه .

وأما المكروه : فكالعبث واللعب الذى ليس بحرام ، وكتابة مالافائدة فى كتابته ، ولا منفعة فيه فى الدنيا والآخرة .

والمستحب : كتابة كل مافيه منفعة فى الدين ، أو مصلحة لمسلم ، والإحسان بيده بأن يعين صانعاً ، أو يصنع لأخْرق ، أو يُفرغ من دَلْوه فى دلو المستسقى ، أو يحمل له على دابته ، أو يمسكها حتى يحمل عليها ، أو يعاونه بيده فيما يحتاج إليه ونحو ذلك . ومنه : لمس الركن بيده فى الطواف ، وفى تقبيلها بعد اللمس قولان

والمباح : مالا مضرة فيه ولا ثواب .

وأما المشى الواجب : فالمشى إلى الجمعات والجماعات ، فى أصح القولين ، لبضعة

وعشرين دليلا ، مذكورة فى غـير هذا الموضع . والمشى حول البيت للطواف الواجب ، والمشى بين الصفا والمروة بنفسه أو بمركوبه ، والمشى إلى حكم الله ورسوله إذا دُعى إليه ، والمشى إلى صلة رحمه ، وبر والديه ، والمشى إلى مجالس العلم الواجب طلبه وتعلمه ، والمشى إلى الحج إذا قربت المسافة ولم يكن عليه فيه ضرر .

والحرام : المشى إلى معصية الله ، وهو من رَجْلِ الشيطان . قال تعالى (١٧ : ٦٤ وأجلب عليهم بخيلك ورَجِلك) قال مقاتل : استعن عليهم بركبان جندك ومُشاتهم . فكل راكب وماش فى معصية الله فهو من جند إبليس .

وكذلك تتعلق هذه الأحكام الخمس بالركوب أيضاً .

فواجبه : فى الركوب فى الغزو ، والجهاد ، والحج الواجب .

ومستحبه : فى الركوب المستحب من ذلك ، ولطلب العلم ، وصلة الرحم ، وبر الوالدين . وفى الوقوف بعرفة نزاع : هل الركوب فيه أفضل ، أم على الأرض ؟ والتحقيق : أن الركوب أفضل إذا تضمن مصلحة : من تعليم للمناسك ، واقتداء به ، وكان أعون على الدعاء . ولم يكن فيه ضرر على الدابة .

وحرامه : الركوب فى معصية الله عز وجل .

ومكروهه : الركوب للهو واللعب ، وكل ما تركه خير من فعله .

ومباحه : الركوب لما لم يتضمن فوت أجر ، ولا تحصيل وزر .

فهذه خمسون مرتبة على عشرة أشياء : القلب ، واللسان ، والسمع ، والبصر ، والأنف ، والفم ، واليد ، والرجل ، والفرج ، والاستواء على ظهر الدابة .

فصـل

فى منازل « إياك نعبد » التى ينتقل فيها القلب منزلة منزلة فى حال سيره إلى الله

وقد أكثر الناس فى صفة المنازل وعددها . فمنهم من جعلها ألفاً . ومنهم من جعلها مائة . ومنهم من زاد ونقص . فكلٌّ وصفها بحسب سيره وسلوكه . .

وسأذكر فيها أمراً مختصراً جامعاً نافعاً . إن شاء الله تعالى .

فأول منازل العبودية « اليقظة » وهى انزعاج القلب لروعة الانتباه من رَقْدة الغافلين . ولله ما أنفع هذه الروعة ! وما أعظم قدرَها وخطرها ! وما أشد إعانتها على السلوك ! فمن أحسَّ بها فقد أحس والله بالفلاح ، وإلا فهو فى سكرات الغفلة فإذا انتبه شمَّر لله بهمته إلى السفر إلى منازله الأولى ، وأوطانه التى سُبِى منها .

فحيَّ على جنَّات عَدْنٍ . فإنها ... منازلك الأولى . وفيها المخيَّم
ولكننا سَبْيُ العدو . فهل ترى ... نعود إلى أوطاننا ونُسَلَّمَ ؟

فأخذ فى أُهْبة السفر ، فانتقل إلى منزلة « العزم » وهو العقد الجازم على المسير ، ومفارقة كل قاطع ومُعوِّق ، ومرافقة كلِّ معين وموصل . و بحسب كمال انتباهه و يقظته يكون عزمه . و بحسب قوة عزمه يكون استعداده .

فإذا استيقظ أوجبت له اليقظة « الفكرة » وهى تحديق القلب نحو المطلوب الذى قد استعدَّ له مجملا ، ولما يهتد إلى تفصيله وطريق الوصول إليه .

فإذا صحت فكرته أوجبت له « البصيرة » فهى نور فى القلب يبصر به الوعد والوعيد ، والجنة والنار ، وما أعد الله فى هذه لأوليائه ، وفى هذه لأعدائه . فأبصرَ الناسَ وقد خرجوا من قبورهم مُهْطِعين لدعوة الحق ، وقد نزلت ملائكة السموات فأحاطت بهم . وقد جاء الله ، وقد نُصِب كرسيه لفصل القضاء . وقد أشرقت الأرض بنوره ، ووُضِع الكتاب ، وجِيء بالنبيين والشهداء . وقد نُصب الميزان ، وتطايرت الصُّحُف . واجتمعت الخصوم. وتَعلَّق كل غريم بغريمه ولاح الحوض وأكوابه عن كَثَب . وكثر العِطاش وقل الوارد . ونُصِب الجسر للعبور ، ولُزَّ الناس إليه . وقسمت الأنوار دون ظلمته للعبور عليه . والنارُ يَحْطِم بعضها بعضاً تحته . والمتساقطون فيها أضعافُ أضعاف الناجين .

فينفتح فى قلبه عين يرى بها ذلك . و يقوم بقلبه شاهد من شواهد الآخرة يريه الآخرة ودوامها ، والدنيا وسرعة انقضائها .

فـ« البصيرة » نور يقذفه الله فى القلب ، يرى به حقيقة ما أخبرت به الرسل. كأنه يشاهده رأى عين . فيتحقق ـ مع ذلك ـ انتفاعه بما دعت إليه الرسل ، وتضرره بمخالفتهم . وهذا معنى قول بعض العارفين « البصيرة : تحقق الانتفاع بالشىء والتضرر به » وقال بعضهم « البصيرة : ما خَلَّصك من الحيرة ، إما بإيمان وإما بعيان » .

و « البصيرة » على ثلاث درجات . من استكملها فقد استكمل البصيرة : بصيرة فى الأسماء والصفات ، وبصيرة فى الأمر والنهى ، وبصيرة فى الوعد والوعيد .

فالبصيرة فى الأسماء والصفات : أن لا يتأثر إيمانك بشبهة تعارض ما وصفَ الله به نفسه ، ووصفه به رسوله . بل تكون الشُبه المعارضة لذلك عندك بمنزلة الشُبه والشكوك فى وجود الله . فكلاهما سواء فى البلاء عند أهل البصائر .

وعقد هذا : أن يشهد قلبك الرب تبارك وتعالى مستويا على عرشه ، متكلماً بأمره ونهيه ، بصيراً بحركات العالم علويه وسُفْليِّه ، وأشخاصه وذواته ، سميعاً لأصواتهم ، رقيباً على ضمائرهم وأسرارهم ، وأمرُ الممالك تحت تدبيره ، نازل من عنده وصاعد إليه ، وأملاكه بين يديه تنفذ أوامره فى أقطار الممالك . موصوفاً بصفات الكمال ، منعوتاً بنعوت الجلال ، منزها عن العيوب والنقائص والمثال . هو كما وصف نفسه فى كتابه ، وفوق ما يصفه به خلقه . حى لا يموت . قيوم لاينام . عليم لا يخفى عليه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض . بصير يرى دَبيب النملة السوداء ، على الصخرة الصماء ، فى الليلة الظلماء . سميع يسمع ضجيج الأصوات ، باختلاف اللغات ، على تفنن الحاجات . تمت كلماته صِدْقا وعدلا . وجلت صفاته أن تقاس بصفات خلقه شَبها ومثلا . وتعالت ذاته أن تشبه شيئاً من الذوات أصلا . ووسعت الخليقة أفعالُه عدلا . وحكمة ورحمة وإحسانا وفضلا. له الخلق والأمر . وله النعمة والفضل . وله الملك والحمد . وله الثناء والمجد . أولٌ

ليس قبله شيء . وآخر ليس بعده شيء . ظاهر ليس فوقه شيء . باطن ليس دونه شيء . أسماؤه كلها أسماء مَدْح وحمد وثناء وتمجيد . ولذلك كانت حسنى . وصفاته كلها صفات كمال ، ونعوته كلها نعوت جلال ، وأفعاله كلها حكمة ورحمة ومصلحة وعدل . كل شيء من مخلوقاته دال عليه ، ومرشد لمن رآه بعين البصيرة إليه . لم يخلق السموات والأرض وما بينهما باطلا ، ولا ترك الإنسان سُدًى عاطلا . بل خلق الخلق لقيام توحيده وعبادته ، وأسبغ عليهم نِعَمه ليتوسلوا بشكرها إلى زيادة كرامته . تعرّف إلى عباده بأنواع التعرفات . وصرّف لهم الآيات . ونوّع لهم الدلالات . ودعاهم إلى محبته من جميع الأبواب . ومدّ بينه و بينهم من عهده أقوى الأسباب . فأتمّ عليهم نعمه السابغة . وأقام عليهم حجته البالغة ، أفاض عليهم النعمة ، وكتب على نفسه الرحمة . وضَمَّن الكتاب الذى كتبه : أن رحمته تغلب غضبه .

وتفاوتُ الناسِ فى هذه البصيرة بحسب تفاوتهم فى معرفة النصوص النبوية وفهمها ، والعلم بفساد الشبه المخالفة لحقائقها .

وتجد أضعف الناس بصيرة أهلَ الكلام الباطل المذموم الذى ذمه السلف ، لجهلهم بالنصوص ومعانيها ، وتمكن الشبه الباطلة من قلوبهم . وإذا تأملت حال العامة — الذين ليسوا مؤمنين عند أكثرهم — رأيتهم أتم بصيرة منهم ، وأقوى إيماناً ، وأعظم تسليما للوحى ، وانقياداً للحق .

فصل

المرتبة الثانية من البصيرة

البصيرة فى الأمر والنهى . وهى تجريده عن المعارضة بتأويل ، أو تقليد ، أو هوى . فلا يقوم بقلبه شبهة تعارض العلم بأمر الله ونهيه ، ولا شهوة تمنع من تنفيذه وامتثاله ، والأخذ به ، ولا تقليد يريحه عن بذل الجهد فى تلقى الأحكام من مشكاة النصوص .

وقد علمت بهذا أهلَ البصائر من العلماء من غيرهم .

فصل

المرتبة الثالثة : البصيرة فى الوعد والوعيد

وهى أن تشهد قيام الله على كل نفس بما كسبت فى الخير والشر ، عاجلا وآجلا ، فى دار العمل ودار الجزاء ، وأن ذلك هو موجب إلٰهيته وربوبيته ، وعدله وحكمته . فإن الشك فى ذلك شك فى إلٰهيته وربوبيته . بل شك فى وجوده. فإنه يستحيل عليه خلاف ذلك . ولايليق أن ينسب إليه تعطيل الخليقة ، وإرسالها هملا ، وتركها سدى . تعالى الله عن هذا الحسبان علواً كبيراً .

فشهادة العقل بالجزاء كشهادته بالوحدانية . ولهذا كان الصحيح : أن المعاد معلوم بالعقل . وإنما اهتُدِى إلى تفاصيله بالوحى . ولهذا يجعل الله سبحانه إنكار المعاد كفراً به سبحانه . لأنه إنكار لقدرته ولإلٰهيته . وكلاهما مستلزم للكفر به . قال تعالى (١٣ : ٥ وإن تعجب ! فعجب قولهم : أئِذا كُنَّا تراباً أئِنَّا لفى خَلْقٍ جديد ؟ أولئك الذين كفروا بربهم . وأولئك الأغلال فى أعناقهم . وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) .

وفى الآية قولان :

أحدهما : إن تعجب من قولهم « أئذا كنا تراباً أئنا لفى خلق جديد » فعجب قولهم ! كيف ينكرون هذا . وقد خُلقوا من تراب ، ولم يكونوا شيئا .

والثانى : إن تعجب من شركهم مع الله غيره ، وعدم انقيادهم لتوحيده وعبادته وحده لا شريك له . فانكارهم للبعث ، وقولهم « أئذا كنا تراباً أئنا لفى خلق جديد » أعجب .

وعلى التقديرين : فانكار المعاد عجب من الإنسان . وهو محض إنكار الرب والكفر به ، والجحد لإلٰهيته.وقدرته.، وحكمته وعدله وسلطانه .

* * *

ولصاحب المنازل فى « البصيرة » طريقة أخرى قال :

« البصيرة مايخلصك من الحيرة . وهى على ثلاث درجات . الدرجة الأولى : أن تعلم أن الخبر القائم بتمهيد الشريعة يصدر عن عين لايخاف عواقبها ، فترى من حقه أن تؤديه يقيناً ، وتغضب له غيرةً » .

ومعنى كلامه : أن ما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم صادر عن حقيقة صادقة ، لايخاف متبعها فيما بعدُ مكروهاً . بل يكون آمناً من عاقبة اتباعها . إذ هى حق . ومتبع الحق لا خوف عليه ، ومن حق ذلك الخبر عليك : أن تؤدى ما أُمرت به منه من غير شك ولاشكوى ، والأحوط بك والذى لاتبرأ ذمتك إلا به تناول الأمر بامتثال صادر عن تصديق محقق ، لايصحبه شك ، وأن تغضب على من خالف ذلك غيرة عليه أن يضيع حقه ، ويهمل جانبه .

وإنما كانت الغيرة عند شيخ الإسلام من تمام « البصيرة » لأنه على قدر المعرفة بالحق ومستحقه ومحبته وإجلاله : تكون الغيرة عليه أن يضيع ، والغضب على من أضاعه . فإن ذلك دليل على محبة صاحب الحق وإجلاله وتعظيمه . وذلك عين البصيرة . فكما أن الشك القادح فى كمال الامتثال مُعمٍ لعين البصيرة ، فكذلك عدم الغضب والغيرة على حقوق الله ـ إذا ضُيعت ، ومحارمه إذا انتُهِكتْ ـ معم لعين البصيرة .

قال « الدرجة الثانية : أن تشهد فى هداية الحق وإضلاله : إصابة العدل ، وفى تلوين أقسامه : رعاية البر ، وتعاين فى جذبه : حبل الوصل » .

يريد ـ رحمه الله ـ بشهود العدل فى هدايته من هَداه ، وفى إضلاله من أضَلَّه : أمرين .

أحدهما : تفرده بالخلق . والهدى والضلال .

والثانى : وقوع ذلك منه على وجه الحكمة والعدل ، لا بالاتفاق ، ولا بمحض المشيئة المجردة عن وضع الأشياء مواضعها ، وتنزيلها منازلها ، بل بحكمة اقتضت

هدى من علم أنه يزكو على الهدى ، و يقبله و يشكره عليه ، و يثمر عنده . فالله أعلم حيث يجعل رسالاته ، أصلا وميراثا . قال تعالى (٦ : ٥٣ وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا : أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا ؟ أليس الله بأعلم بالشاكرين ؟) وهم الذين يعرفون قدر نعمته بالهدى ، و يشكرونه عليها ، و يحبونه و يحمدونه على أن جعلهم من أهله . فهو سبحانه ما عدل عن موجب العدل والإحسان فى هداية من هدى و إضلال من أضل ، ولم يطرد عن بابه ، ولم يبعد عن جنابه ، من يليق به التقريب والهدى والإكرام ، بل طرد من لا يليق به إلا الطرد والإبعاد . وحكمته وحمده تأبى تقريبه و إكرامه ، وجعله من أهله وخاصته وأوليائه .

ولا يبقى إلا أن يقال : فلم خلق من هو بهذه المثابة ؟

فهذا سؤال جاهل ظالم ضال ، مفرط فى الجهل والظلم والضلال . لأن خلق الاضداد والمتقابلات هو من كمال الربوبية ، كالليل والنهار ، والحر والبرد ، واللذة والألم ، والخير والشر ، والنعيم والجحيم

قوله « وفى تلوين أقسامه رعاية البر »

يريد بتلوين الأقسام : اختلافها فى الجنس والقدر والصفة ، من أقسام الأموال والقوى ، والعلوم والأعمال ، والصنائع وغيرها . قسمها على وجه البر والمصلحة ، فأعطى كلا منهم مايصلحه ، وما هو الأنفع له ، بِرًّا وإحسانا .

وقوله « وتعاين فى جذبه حبل الوصال » .

يريد تعاين فى توفيقه لك للطاعة ، وجذبه إياك من نفسك : أنه يريد تقريبك منه . فاستعار للتوفيق الخاص الجذب ، وللتقريب الوصال . وأراد بالحبل السبب الموصل لك إليه .

فأشار بهذا إلى أنك تستدل بتوفيقه لك ، وجذبك نفسك ، وجعلك متمسكا بحبله ــ الذى هو عهده ووصيته إلى عباده ــ على تقريبه لك . تشاهد ذلك ليكون

أقوى فى المحبة والشكر ، و بذل النصيحة فى العبودية . وهذا كله من تمام البصيرة . فمن لا بصيرة له فهو بمعزل عن هذا .

قال « الدرجة الثالثة : بصيرة تُفَجِّر المعرفة ، وتثبت الإشارة ، وتنبت الفراسة »

يريد بالبصيرة فى الكشف والعيان : أن تتفجر بها ينابيع المعارف من القلب ، ولم يقل « تُفجِّر العلم » لأن المعرفة أخص من العلم عند القوم . ونسبتها إلى العلم نسبة الروح إلى الجسد . فهى روح العلم ولُبّه .

وصدق ـ رحمه الله ـ فإن بهذه البصيرة تتفجر من قلب صاحبها ينابيع من المعارف ، التى لا تنال بكسب ولا دراسة . إن هو إلا فهم يُؤتيه الله عبداً فى كتابه ودينه ، على قدر بصيرة قلبه[1] .

وقوله « وتثبت الإشارة » .

يريد بالإشارة : مايشير إليه القوم من الأحوال والمنازلات ، والأذواق التى ينكرها الأجنبى من السلوك ، و يثبتها أهل البصائر . وكثير من هذه الأمور ترد على السالك . فإن كان له بصيرة ثَبّتت بصيرتُه ذلك له وحققته عنده . وعَرَّفته تفاصيله . و إن لم يكن له بصيرة ، بل كان جاهلا ، لم يعرف تفصيلَ ما يرد عليه . ولم يهتد لتثبيته .

قوله « وتنبت الفراسة » .

يعنى أن البصيرة تنبت فى أرض القلب الفراسة الصادقة . وهى نور يقذفه الله فى القلب ، يفرق به بين الحق والباطل ، والصادق والكاذب . قال الله تعالى (١٥ : ٧٥ إن فى ذلك لآيات للمتوسمين) قال مجاهد : للمتفرسين . وفى الترمذى من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « اتقوا فِراسة المؤمن . فإنه ينظر بنور الله عز وجل » ثم قرأ (إن فى ذلك لآيات للمتوسمين) .

---

(١) وهل يكون هذا الفهم فى الكتاب إلا بتلاوة الكتاب حق تلاوته وتدبره ببيان الرسول صلى الله عليه وسلم والحرص على كسب العلوم والعقائد والشرائع والهدى منه ؟

و « التوسُّم » تفعل من السيما . وهى العلامة . فسمى المتفرس متوسماً . لأنه يستدل بمايشهد على ما غاب . فيستدل بالعيان على الإيمان . ولهذا خَصَّ الله تعالى بالآيات والانتفاع بها هؤلاء . لأنهم يستدلون بما يشاهدون منها على حقيقة ما أخبرت به الرسل ، من الأمر والنهى ، والثواب والعقاب . وقد ألهم الله ذلك لآدم ، وعلمه إياه حين علمه أسماء كل شيء[1] . و بنوه هم نسخته وخلفاؤه . فكل قلب فهو قابل لذلك . وهو فيه بالقوة . و به تقوم الحجة ، وتحصل العبرة ، وتصح الدلالة . و بعث الله رسله مذكِّرين ومنبهين ، ومكملين لهذا الاستعداد ، بنور الوحى والإيمان . فينضاف ذلك إلى نور الفراسة والاستعداد . فيصير نوراً على نور . فتقوى البصيرة ، و يعظم النور ، و يدوم ، بزيادة مادته ودوامها . ولا يزال فى تزايد حتى يُرى على الوجه والجوارح ، والكلام والأعمال . ومن لم يقبل هدى الله ولم يرفع به رأسا دخل قلبه فى الغلاف والأكِنَّة . فأظلم ، وعمى عن البصيرة . فحجبت عنه حقائق الإيمان . فيرى الحق باطلا ، والباطل حقا ، والرشد غيا ، والغى رشدا . قال تعالى (٨٣ : ١٤ كلا ، بل رَانَ على قلوبهم ما كانوا يكسبون) و « الرين » و « الران » هو الحجاب الكثيف المانع للقلب من رؤية الحق ، والانقياد له .

وعلى حسب قوة البصيرة وضعفها تكون الفراسة . وهى نوعان :

فراسة علوية شريفة ، مختصة بأهل الإيمان ، وفراسة سُفلية دنيئة مشتركة بين المؤمن والكافر . وهى فراسة أهل الرياضة والجوع والسهر والخلوة ، وتجريد البواطن من أنواع الشواغل . فهؤلاء لهم فراسة كشف الصور ، والإخبار ببعض المغيبات[2] السفلية التى لا يتضمن كشفها والإخبار بها كمالا للنفس ، ولا زكاة ولا

(١) آتاه الله ربه من السمع والبصر والفؤاد وغيرها ما عرف به حقائق الأشياء ومزاياها وصفاتها ، ليشكرها بحسن الانتفاع بها ، ووضعها فى مواضعها الصالحة لها بأصل الخلق والفطرة لأنها إنما خلقت وسخرت له . (٢) لا يعلم الغيب إلا الله .

إيمانا ولا معرفة . وهؤلاء لا تتعدى فراستهم هـذه السفليات . لأنهم محجوبون عن الحق تعالى . فلا تصعد فراستهم إلى التمييز بين أوليائه وأعدائه ، وطريق هؤلاء وهؤلاء .

وأما فراسة الصادقين ، العارفين بالله وأمره : فإن همتهم لما تعلقت بمحبة الله ومعرفته وعبوديته ، ودعوة الخلق إليه على بصيرة . كانت فراستهم متصلة بالله ، متعلقة بنور الوحى مع نور الإيمان . فميزت بين ما يحبه الله وما يبغضه ، من الأعيان والأقوال والأعمال . وميزت بين الخبيث والطيب ، والمحق والمبطل ، والصادق والكاذب . وعرفت مقادير استعداد السالـكين إلى الله . فحملت كل إنسان على قدر استعداده ، علماً و إرادة وعملا .

ففراسة هؤلاء دائماً حائمة حول كشف طريق الرسول وتعرفها ، وتخليصها من بين سائر الطرق ، و بين كشف عيوب النفس ، وآفات الأعمـال العائقة عن سـلوك طريق المرسلين . فهذا أشرف أنواع البصيرة والفراسة . وأنفعها للعبد فى معاشه ومعاده .

فصل

فإذا انتبه وأبصر أخذ فى « القصد » وصدْقِ الإرادة . وأجمع القصدَ والنيةَ على سفر الهجرة إلى الله . وعلم وتيقن أنه لا بد له منه . فأخذ فى أُهْبةِ السفر ، وتَعْبِئةِ الزاد ليوم المعاد . والتجرد عن عوائق السفر ، وقطع العلائق التى تمنعه من الخروج .

وقد قسم صاحب المنازل « القصد » إلى ثلاث درجات فقال :

« الدرجة الأولى : قصد يبعث على الارتياض ، و يُخَلِّص من التردد ، و يدعو إلى مجانبة الأغراض » .

فذكر له ثلاث فوائد : أنه يبعث على السلوك بلا توقف ، ولا تردد ، ولا علة غير العبودية ، من رياء أو سمعة ، أو طلب محمدة ، أو جاه ومنزلة عند الخلق .

قال « الدرجة الثانية : قصدٌ لا يلقَى سبباً إلا قطعه ، ولا حائلا إلا منعه ولا تحاملا إلا سهله » .

يعنى أنه لا يلقى سبباً يُعَوِّق عن المقصود إلا قطعه ، ولا حائلا دونه إلا منعه ولا صعوبة إلا سهلها .

قال « الدرجة الثالثة : قصد الاستسلام لتهذيب العلم ، وقصد إجابة داعى الحكم ، وقصد اقتحام بحر الفناء » .

يريد أنه ينقاد إلى العلم ليتهذب به ويصلح . ويقصد إجابة داعى الحكم الدينى الأمرى كلما دعاه . فإن للحكم فى كل مسألة من مسائل العلم منادياً ينادى للإيمان بها علما وعملا . فيقصد إجابة داعيها . ولكن مراده بداعى الحكم : الأسرار والحِكم الداعية إلى شرع الحكم . فإجابتها قدر زائد على مجرد الامتثال . فإنها تدعو إلى المحبة والإجلال ، والمعرفة والحمد . فالأمر يدعو إلى الامتثال . وما تضمنه من الحِكم . والغايات تدعو إلى المعرفة والمحبة .

وقوله « وقصد اقتحام بحر الفناء » .

هذا هو الغاية المطلوبة عند القوم . وهو عند بعضهم لازم من لوازم الطريق . وليس بغاية . وعند آخرين عارض من عوارض الطريق . وليس بغاية . ولا هو لازم لكل سالك . وأهل القوة والعزم لا يعرض لهم . وحال البقاء أكمل منه . ولهذا كان البقاء حال نبينا صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء . وقد رأى ما رأى . وحال موسى الفناء ، ولهذا خرّ صَعِقًا عند تَجَلِّى الله للجبل ، وامرأة العزيز كانت أكمل حباً ليوسف من النسوة ، ولم يعرض لها ما عرض لهن عند رؤية يوسف لفنائهن وبقائها ، وسيأتى إن شاء الله تحقيق الكلام فيه .

فصل

فإذا استحكم قصده صار « عزما » جازما ، مستلزماً للشروع فى السفر ، مقروناً بالتوكل على الله . قال تعالى (٣ : ١٥٩ فإذا عزمت فتوكل على الله)

و « العزم » هو القصد الجازم المتصل بالفعل . ولذلك قيل : إنه أول الشروع في الحركة لطلب المقصود ، وأن التحقيق : أن الشروع في الحركة ناشيء عن العزم ، لا أنه هو نفسه ، ولكن لما اتصل به من غير فصل ظُنَّ أنه هو .

وحقيقته : هو استجماع قوى الإرادة على الفعل .

و « العزم » نوعان . أحدهما : عزم المريد على الدخول في الطريق . وهو من البدايات . والثاني : عزم في حال السير معه . وهو أخص من هذا . وهو من المقامات . وسنذكره في موضعه إن شاء الله .

وفي هذه المنزلة يحتاج السالك إلى تمييز ما لَهُ مما عليه ، ليستصحبَ ما له ويؤديَ ما عليه . وهو « المحاسبة » وهي قبل « التوبة » في المرتبة . فإنه إذا عرف ما له وما عليه أخذ في أداء ما عليه ، والخروج منه . وهو « التوبة » .

وصاحب المنازل قدم التوبة على المحاسبة . ووجه هذا : أنه رأى « التوبة » أول منازل السائر بعد يقظته ، ولا تتم التوبة إلا بالمحاسبة . فالمحاسبة تكميل مقام التوبة . فالمراد بالمحاسبة الاستمرار على حفظ التوبة ، حتى لا يخرج عنها . وكأنه وفاء بعقد التوبة .

* * *

واعلم أن ترتيب هذه المقامات ليس باعتبار أن السالك يقطع المقام ، ويفارقه وينتقل إلى الثاني . كمنازل السير الحسي . هذا محال . ألا ترى أن « اليقظة » معه في كل مقام لا تفارقه ، وكذلك « البصيرة » و « الإرادة » و « العزم » وكذلك « التوبة » فإنها كما أنها من أول المقامات فهي آخرها أيضاً . بل هي في كل مقام مُسْتَصحَبة . ولهذا جعلها الله تعالى آخر مقامات خاصته . فقال تعالى في غزوة تبوك . وهي آخر الغزوات التي قطعوا فيها الأودية والبدايات والأحوال والنهايات (٩ : ١١٧ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العُسْرَة من بعد ما كاد يَزِيغُ قلوبُ فريقٍ منهم . ثم تاب عليهم . إنه بهم

رؤف رحيم) فجعل التوبة أول أمرهم وآخره. وقال فى سورة أجَلِ رسول الله صلى الله عليه وسلم التى هى آخر سورة أنزلت (إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيتَ الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً).

وفى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما صلى صلاة بعد إذ أنزلت عليه هذه السورة، إلا قال فى ركوعه وسجوده: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، اللهم اغفرلى، يتأوّل القرآن» فالتوبة هى نهاية كل سالك وكل ولى لله. وهى الغاية التى يجرى إليها العارفون بالله وعبوديته. وما ينبغى له. قال تعالى (٣٣ : ٧٢، ٧٣ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال، فأَبَيْنَ أن يحملنَها وأشْفَقْنَ منها وحملها الإنسان. إنه كان ظَلوماً جَهولا * ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات، ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات. وكان الله غفوراً رحيما) فجعل سبحانه التوبة غاية كل مؤمن ومؤمنة.

وكذلك «الصبر» فإنه لاينفك عنه فى مقام من المقامات.

وإنما هذا الترتيب ترتيب المشروط المتوقف على شرطه المصاحب له.

ومثال ذلك: أن «الرضا» مترتب على «الصبر» لتوقف الرضا عليه. واستحالة ثبوته بدونه. فإذا قيل: إن مقام «الرضا» أو حاله ـ على الخلاف بينهم: هل هو مقام أو حال؟ ـ بعد مقام «الصبر» لايعنى به أنه يفارق الصبر وينتقل إلى الرضا وإنما يعنى أنه لا يحصل له مقام الرضا حتى يتقدم له قبله مقام الصبر. فافهم هذا الترتيب فى مقامات العبودية.

وإذا كان كذلك علمت أن «القصد» و«العزم» متقدم على سائر المنازل فلا وجه لتأخيره. وعلمت بذلك أن «المحاسبة» متقدمة على «التوبة» بالرتبة أيضاً. فإنه إذا حاسب العبد نفسه خرج مما عليه. وهى حقيقة التوبة. وأن منزلة «التوكل» قبل منزلة «الإنابة» لأنه يتوكل فى حصولها. فالتوكل وسيلة. والإنابة غاية. وأن مقام التوحيد أولى المقامات أن يبدأ به. كما أنه أول دعوة

الرسل كلهم. قال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل – حين بعثه إلى اليمن – « فليَكُن أول ماتدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلا الله » وفى رواية « إلى أن يعرفوا الله » ولأنه لا يصح مقام من المقامات ، ولا حال من الأحوال إلا به ، فلا وجه لجعله آخر المقامات . وهو مفتاح دعوة الرسل . وأول فرض فرضه الله على العباد. وما عدا هذا من الأقوال فخطأ . كقول من يقول : أول الفروض النظر ، أوالقصد إلى النظر ، أو المعرفة ، أو الشك الذى يوجب النظر .

وكل هذه الأقوال خطأ ، بل أول الواجبات : مفتاح دعوة المرسلين كلهم . وهو أول مادعا إليه فاتحهم نوح . فقال (٧ : ٥٩ ياقوم اعبدوا الله مالـكم من إله غيره) وهو أول ما دعا إليه خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم .

ولأرباب السلوك اختلاف كثير فى عدد المقامات وترتيبها ، كلٌّ يصف منازل سيره ، وحال سلوكه . ولهم اختلاف فى بعض منازل السير : هل هى من قسم الأحوال ؟ والفرق بينهما : أن المقامات كسبية . والأحوال وَهبية . ومنهم من يقول : الأحوال من نتائج المقامات . والمقامات نتائج الأعمال ، فكل من كان أصلح عملا كان أعلى مقاما ، وكل من كان أعلى مقاما كان أعظم حالا .

فمما اختلفوا فيه « الرضا » هل هو حال ، أو مقام ؟ فيه خـلاف بين الخراسانيين والعراقيين .

وحكم بينهم بعض الشيوخ ، فقال : إن حصل بكسب فهو مقام . وإلا فهو حال .

والصحيح فى هذا : أن الواردات والمنازلات لهـا أسماء باعتبار أحوالها ، فتكون لوامع وبوارق ولوائح عند أول ظهورها وبُدوّها ، كما يلمع البارق ويلوح عن بعد ، فإذا نازَلَتْه وباشرها فهى أحوال ، فإذا تمكنت منه وثبتت له من غير انتقال فهى مقامات . وهى لوامع ولوائح فى أولها ، وأحوال فى أوسطها ، ومقامات فى

نهاياتها . فالذى كان بارقا هو بعينه الحال . والذى كان حالاهو بعينه المقام . وهذه الأسماء له باعتبار تعلقه بالقلب ، وظهوره له ، وثباته فيه .

وقد ينسلخ السالك من مقامه كما ينسلخ من الثوب ، و ينزل إلى ما دونه . ثم قد يعود إليه ، وقد لا يعود .

ومن المقامات : مايكون جامعاً لمقامين .

ومنها مايكون جامعاً لأكثر من ذلك .

ومنها مايندرج فيه جميع المقامات . فلا يستحق صاحبه اسمه إلا عند استجماع جميع المقامات فيه .

فالتو بة جامعة لمقام المحاسبة ومقام الخوف ، لايتصور وجودها بدونهما .

و « التوكل » جامع لمقام التفويض والاستعانة والرضى . لايتصور وجوده بدونها .

و « الرجاء » جامع لمقام الخوف والإرادة .

و « الخوف » جامع لمقام الرجاء والإرادة .

و « الإنابة » جامعة لمقام المحبة والخشية . لايكون العبد منيباً إلاباجتماعهما .

و « الإخبات » له جامع لمقام المحبة والذل والخضوع . لايكمل أحدها بدون الآخر إخباتاً .

و « الزهد » جامع لمقام الرغبة والرهبة . لايكون زاهداً من لم يرغب فيما يرجو نفعه ، و يرهب مما يخاف ضرره .

ومقام « المحبة » جامع لمقام المعرفة والخوف والرجاء والإرادة . فالمحبة معنى يلتئم من هذه الأر بعة . و بها تحققها .

ومقام « الخشية » جامع لمقام المعرفة بالله ، والمعرفة بحق عبوديته . فمتى عرف الله وعرف حقه اشتدت خشيته له . كما قال تعالى (٣٥ : ٢٨ إنما يخشى الله من

عباده العلماء) فالعلماء به و بأمره هم أهل خشيته . قال النبي صلى الله عليه وسلم « أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية » .

ومقام « الهيبة » جامع لمقام المحبة والإجلال والتعظيم .

ومقام « الشكر » جامع لجميع مقامات الإيمان . ولذلك كان أرفعها وأعلاها . وهو فوق « الرضا » وهو يتضمن « الصبر » من غير عكس . و يتضمن «التوكل» و « الإنابة » و « الحب » و « الإخبات » و « الخشوع » و « الرجاء » فجميع المقامات مندرجة فيه . لا يستحق صاحبه اسمه على الإطلاق إلا باستجماع المقامات له . ولهذا كان الإيمان نصفين : نصف صبر ، ونصف شكر . والصبر داخل فى الشكر . فرجع الإيمان كله شكراً . والشاكرون هم أقل العباد ، كما قال تعالى (٣٤ : ١٣ وقليل من عبادى الشكور) .

ومقام « الحياء » جامع لمقام المعرفة والمراقبة .

ومقام « الأنس » جامع لمقام الحب مع القرب . فلو كان المحب بعيداً من محبو به لم يأنس به . ولو كان قريباً من رجل ولم يحبه لم يأنس به ، حتى يجتمع له حبه مع القرب منه .

ومقام «الصدق» جامع للإخلاص والعزم . فباجتماعهما يصح له مقام الصدق.

ومقام «المراقبة» جامع للمعرفة مع الخشية . فبحسبهما يصح مقام المراقبة .

ومقام «الطمأنينة» جامع للإنابة والتوكل ، والتفويض والرضى والتسليم . فهو معنى ملتئم من هذه الأمور . إذا اجتمعت صار صاحبها صاحب طمأنينة . ومانقص منها نقص من الطمأنينة .

وكذلك «الرغبة» و «الرهبة» كل منهما ملتئم من «الرجاء» و « الخوف » والرجاء على الرغبة أغلب ، والخوف على الرهبة أغلب .

وكل مقام من هذه المقامات فالسالكون بالنسبة إليه نوعان : أبرار ،

ومقربون . فالأبرار فى أذياله ، والمقربون فى ذروة سنامه . وهكذا مراتب الإيمان جميعها . وكل من النوعين لايُحصِى تفاوتهم ، وتفاضل درجاتهم إلا الله .

وتقسيمهم ثلاثة أقسام ـ عام ، وخاص ، وخاص خاص ـ إنما نشأ من جعل الفناء غاية الطريق ، وعلَمَ القوم الذى شَمَّروا إليه . وسنذكر مافى ذلك ، وأقسام الفناء ، محموده ومذمومه ، فاضله ومفضوله . فإن إشارة القوم إليه . إن شاء الله . ومدارهم عليه .

على أن الترتيب الذى يشير إليه كل مرتِّب للمنازل لايخلو عن تحكم ، ودعوى من غير مطابقة . فإن العبد إذا التزم عقد الإسلام ، ودخل فيه كله . فقد التزم لوازمه الظاهرة والباطنة ، ومقاماته وأحواله . وله فى كل عقد من عقوده وواجب من واجباته أحوال ومقامات . لايكون موفيا لذلك العقد والواجب إلا بها . وكلما وفّى واجبا أشرف على واجب آخر بعده . وكلما قطع منزلة استقبل أخرى .

وقد يعرض له أعلى المقامات والأحوال فى أول بداية سيره . فينفتح عليه من حال المحبة والرضا والأنس والطمأنينة ما لم يحصل بعد لسالك فى نهايته . و يحتاج هذا السالك فى نهايته إلى أمور ـ من البصيرة ، والتوبة ، والمحاسبة ـ أعظم من حاجة صاحب البداية إليها . فليس فى ذلك ترتيب كلى لازم للسلوك .

وقد ذكرنا أن التوبة ـ التى جعلوها من أول المقامات ـ هى غاية العارفين ، ونهاية أولياء الله المقربين . ولا ريب أن حاجتهم إلى المحاسبة فى نهايتهم ، فوق حاجتهم إليها فى بدايتهم .

فالأولى الكلام فى هذه المقامات على طريقة المتقدمين من أئمة القوم كلاماً مطلقا فى كل مقام مقام ، ببيان حقيقته وموجبه ، وآفته المانعة من حصوله ، والقاطع عنه ، وذكر عامه وخاصه .

فكلام أئمة الطريق هو على هذا المنهاج ، فمن تأمله ـ كسهل بن عبد الله التسترى ، وأبى طالب المكى ، والجنيد بن محمد ، وأبى عثمان النيسابورى ،

ويحيى بن معاذ الرازى ـ وأرفع من هؤلاء طبقة ، مثل أبى سليمان الدارانى ، وعون ابن عبد الله ـ الذى كان يقال له حكيم الأمة ـ وأضرابهما . فإنهم تكلموا على أعمال القلوب ، وعلى الأحوال كلاماً مُفصلا جامعاً مبيناً مطلقاً من غير ترتيب ، ولا حصر للمقامات بعدد معلوم . فإنهم كانوا أجل من هذا . وهممهم أعلى وأشرف ، إنما هم حائمون على اقتباس الحكمة والمعرفة ، وطهارة القلوب ، وزكاة النفوس ، وتصحيح المعاملة . ولهذا كلامهم قليل فيه البركة[١]. وكلام المتأخرين كثير طويل قليل البركة .

ولكن لابد من مخاطبة أهل الزمان باصطلاحهم . إذ لا قوة لهم للتشمير إلى تلقى السلوك عن السلف الأول وكلماتهم وهديهم . ولو برز لهم هديهم وحالهم لأنكروه ، ولعدوه سلوكاً عامياً ، وللخاصة سلوك آخر ، كما يقول ضلال المتكلمين وجهلتهم « إن القوم كانوا أسلم . وإن طريقنا أعلم » وكما يقول من لم يقدر قدرهم من المنتسبين إلى الفقه « إنهم لم يتفرغوا لاستنباطه . وضبط قواعده وأحكامه . اشتغالاً منهم بغيره . والمتأخرون تفرغوا لذلك . فهم أفقه » .

فكل هؤلاء محجوبون عن معرفة مقادير السلف ، وعن عمق علومهم ، وقلة تكلفهم ، وكمال بصائرهم . وتالله ماامتاز عنهم المتأخرون إلا بالتكلف والاشتغال بالأطراف التى كانت همة القوم مراعاة أصولها ، وضبط قواعدها ، وشد معاقدها ، وهممهم مشمرة إلى المطالب العالية فى كل شىء[٢] . فالمتأخرون فى شأن والقوم فى شأن ، و (قد جعل الله لكل شىء قدراً) .

---

(١) إنما البركة والهدى والنور حقاً فى كلام الله ورسوله ، وكلام أئمة السنة من الصحابة والتابعين والأئمة المهتدين . كمالك والشافعى وإخوانهما رضى الله عنهم .

(٢) إنما هذا للصحابة والتابعين من أئمة الهدى والحديث ، كمالك والشافعى والثورى والبخارى وأحمد وإخوانهم ، أما الصوفية فحاشاهم وبعداً . فسلفهم ورثة الهند ، والفرس كانوا يقللون القول ويضغطونه خوفا من قوة فقه المعاصرين من التابعين . ونفاذ بصيرتهم ، وقوة شوكة الدولة الإسلامية . فلما ضعف هذا وهذا ، صرح =

فالأولى بنا : أن نذكر منازل « العبودية » الواردة فى القرآن والسنة . ونشير إلى معرفة حدودها ومراتبها . إذ معرفة ذلك من تمام معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله . وقد وصف الله تعالى من لم يعرفها بالجهل والنفاق . فقال تعالى (٩ : ٩٧ الأعراب أشد كُفراً ونفاقاً وَأَجْدَرُ أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله) فبمعرفة حدودها دراية ، والقيام بها رعاية : يستكمل العبد الإيمان . ويكون من أهل « إياك نعبد و إياك نستعين » .

ونذكر لها ترتيباً غير مستحق ، بل مستحسن ، بحسب ترتيب السير الحسِّى ، ليكون ذلك أقرب إلى تنزيل المعقول منزلة المشهود بالحس . فيكون التصديق أتم . ومعرفته أكمل . وضبطه أسهل .

فهذه فائدة ضرب الأمثال ، وهى خاصة العقل ولُبُّه . ولهذا أكثر الله تعالى منها فى القرآن . ونفى عقلها عن غير العلماء . فقال تعالى (٢٩ : ٤٣ وتلك الأمثالُ نَضْرِبُهَا للناس . وَمَا يَعْقِلُهَا إلاَّ العالمون) .

* * *

فاعلم أن العبد قبل وصول الداعى إليه فى نوم الغفلة ، قلبُه نائمٌ وَطَرْفه يقظان . فصاحَ به الناصح . وأسمعه داعى النجاح . وأذن به مؤذن الرحمن : حَيَّ على الفلاح .

فأول مراتب هذا النائم : اليقظة والانتباه من النوم . وقد ذكرنا : أنها انزعاج القلب لروعة الانتباه .

وصاحب المنازل يقول « هى القومة لله المذكورة فى قوله (٣٤ : ٤٦ قُلْ : إِنَّمَا أَعظكم بواحدة . أن تقوموا لله مَثْنَى وفُرَادَى) » .

= المتأخرون وتبجحوا . والإسلام من أول مرسل به ـ وهو نوح ـ إلى خاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم ، فى طريق ؛ والصوفية فى طريق آخر ، وشتان بين أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ، مهما حاول المتأولون .

قال « القومة لله هى اليقظة من سِنَةِ الغفلة ، والنهوض عن ورطة الفترة . وهى أول مايستنير قلب العبد بالحياة لرؤية نور التنبيه . وهى على ثلاثة أشياء : لَحَظُ القلب إلى النعمة ، على اليأس من عَدِّها ، والوقوف على حدها ، والتفرغ إلى معرفة المنة بها ، والعلم بالتقصير فى حقها » .

وهذا الذى ذكره : هو موجب اليقظة وأثرها . فإنه إذا نهض من ورطة الغفلة لاستنارة قلبه برؤية نور التنبيه . أوجب له ملاحظة نعم الله الباطنة والظاهرة . وكلما حدّق قلبُه وطرفه فيها ، شاهد عظمتها وكثرتها . فيئس من عدها ، والوقوف على حدها . وفرّغ قلبه لمشاهدة مِنَّة الله عليه بها ، من غير استحقاق ، ولا استجلاب لها بثمن . فتيقن حينئذ تقصيره فى واجبها . وهو القيام بشكرها .

فأوجب له شهود تلك المنة والتقصير نوعين جليلين من العبودية : محبة المنعم . واللهج بذكره ، وتذكر الله وخضوعه له ، و إزراءه على نفسه . حيث عجز عن شكر نعمه . فصار متحققاً بـ « أبوء لك بنعمتك عَلَىّ . وأبوء بذنبى فاغفرلى إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » وعلم حينئذ أن هذا الاستغفار حقيق بأن يكون سيد الاستغفار . وعلم حينئذ أن الله لو عذب أهل سمواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ، ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم . وعلم أن العبد دائماً سائر إلى الله بين مطالعة المنة ، ومشاهدة التقصير .

قال « الثانى : مطالعة الجناية ، والوقوف على الخطر فيها ، والتشمير لتداركها ، والتخلص من رقها ، وطلب النجاة بتمحيصها » .

فينظر إلى ماسلف منه من الإساءة . و يعلم أنه على خطر عظيم فيها ، وأنه مشرف على الهلاك بمؤاخذة صاحب الحق بموجب حقه . وقد ذَمَّ الله تعالى فى كتابه مَنْ نسى مَاتَقَدَّمَ يداه . فقال (١٨ : ٥٧ ومن أظلم ممن ذُكِّرَ بآيات ربه فأعرض عنها وَنَسِيَ مَاقَدَّمت يداه) فإذا طالع جنايته شَمَّر لاستدراك الفارط بالعلم والعمل . وتخلصَ مِنْ رِقِّ الجناية بالاستغفار والندم . وطلب التمحيص . وهو

تخليص إيمانه ومعرفته من خَبَث الجناية ، كتمحيص الذهب والفضة ، وهو تخليصهما من خبثهما . ولا يمكن دخوله الجنة إلا بعد هذا التمحيص . فإنها طيبة لا يدخلها إلا طيب . ولهذا تقول لهم الملائكة (٣٩ : ٧٣ سلام عليكم طِبْتُمْ فادخلوها خالدين) وقال تعالى (٣٢:١٦ الذين تَتَوَفَّاهُمُ الملائكةُ طيبين يقولون : سلامٌ عليكم ادخلوا الجنة) فليس فى الجنة ذَرَّة خبث .

وهذا التمحيص يكون فى دار الدنيا بأربعة أشياء : بالتوبة ، والاستغفار ، وعمل الحسنات الماحية ، والمصائب المكفرة . فإن محصته هذه الأربعة وخلصته : كان من الذين تتوفاهم الملائكة طيبين . يبشرونهم بالجنة ، وكان من الذين (٤١ : ٣٠ ـ ٣٢ تتنزل عليهم الملائكة) عند الموت (أن لاتخافوا ولا تحزنوا . وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون . نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة . ولكم فيها ماتَشْتهى أنفسكم ولكم فيها ماتَدَّعُونَ . نُزُلاً من غفور رحيم) .

وإن لم تَفِ هذه الأربعة بتمحيصه وتخليصه ، فلم تكن التوبة نصوحاً ـ وهى العامة الشاملة الصادقة ـ ولم يكن الاستغفار كاملاً تاماً ـ وهو المصحوب بمفارقة الذنب ، والندم عليه ـ وهذا هو الاستغفار النافع ، لا استغفار من فى يده قدح السكر ، وهو يقول : أستغفر الله ، ثم يرفعه إلى فيه . ولم تكن الحسنات فى كميتها وكيفيتها وافية بالتكفير ، ولا المصائب . وهذا إما لعظم الجناية ، وإما لضعف الممحص ، وإما لهما ـ مُحِّص فى البرزخ بثلاثة أشياء .

أحدها : صلاة أهل الإيمان الجنازة عليه ، واستغفارهم له ، وشفاعتهم فيه .

الثانى : تمحيصه بفتنة القبر ، وروعة الفتان ، والعَصْرة والانتهار ، وتوابع ذلك .

الثالث : ما يُهدى إخوانه المسلمون إليه من هدايا الأعمال ، من الصدقة عنه ، والحج ، والصيام عنه ، وقراءة القرآن عنه[1] ، والصلاة . وجعل ثواب ذلك له .

---

(١) ليس فى قراءة القرآن للموتى إلا دعاوى ومنامات المقلدين ، الذين يلقون القول على عواهنه بدون تحقيق ولا تمحيص . والقرآن إنما أنزله الله ليدبره أولو =

وقد أجمع الناس على وصول الصدقة والدعاء . قال الإمام أحمد : لايختلفون فى ذلك . وما عداهما فيه اختلاف . والأكثرون يقولون بوصول الحج . وأبو حنيفة يقول : إنما يصل إليه ثواب الإنفاق ، وأحمد ومن وافقه : مذهبُهم فى ذلك أوسع المذاهب . يقولون : يصل إليه ثواب جميع القرب . بَدَنِيِّها وماليها ، والجامع للأمرين . واحتجوا بأن النبى صلى الله عليه وسلم قال لمن سأله « يارسول الله ، هل بقى من بر أبوى شىء أبرهما به بعد مماتهما ؟ قال : نعم . فذكر الحديث[1] » وقد قال صلى الله عليه وسلم « من مات وعليه صيام صام عنه وليه » .

فإن لم تف هذه بالتمحيص . مُحِّص بين يدى ربه فى الموقف بأربعة أشياء : أهوال القيامة . وشدة الموقف . وشفاعة الشفعاء . وعفو الله عز وجل .

فإن لم تف هذه الثلاثة بتمحيصه فلابد له من دخول الـكِيْرِ ، رحمة فى حقه ليتخلص ويتمحص ، ويتطهر فى النار . فتكون النار طُهرة له وتمحيصاً لخبثه . ويكون مكثه فيها على حسب كثرة الخبث وقلته ، وشدته وضعفه وتراكمه . فإذا خرج خبثه وصُفِّى ذهبه . وصار خالصاً طيباً ، أخرج من النار ، وأدخل الجنة .

قال « الثالث » يعنى من مراتب اليقظة « الانتبـاه لمعرفة الزيادة والنقصان من الأيام ، والتنصل من تضييعها ، والنظر إلى الظن بها لتدارك فائتها ، وتعمير باقيها » .

= الألباب من الأحياء (٣٦ : ٧٠ لينذر من كان حيا) وقال (٤ :٨٢ أفلا يتدبرون القرآن) وقال (١٤ : ٢ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته) وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم ، وشر الأمور محدثاتها .

(١) الأحاديث الواردة فى ذلك كلها فى نيابة الأولاد عن والديهم إلا حديث الصيام الذى ذكره المصنف . فقد جاء بلفظ «الولى» فإذا حمل الولى على الولد اتفقت الأحاديث مع حديث « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاثة . صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » رواه مسلم وغيره ووافقت كلها قوله تعالى (٥٣ : ٣٩ وأن ليس للانسان إلا ماسعى) وإلا احتيج إلى الجواب عن الآية والحديث . وأين هو ؟ .

يعنى أنه يعرف مامعه من الزيادة والنقصان . فيتدارك مافاته فى بقية عمره التى لاثمن لها، و يبخل بساعاته ـ بل بأنفاسه ـ عن ذهابها ضياعاً فى غير ما يُقرِّبه إلى الله . فهذا هو حقيقة الخسران المشترك بين الناس ، مع تفاوتهم فى قدره ، قلة وكثرة . فكل نَفَس يخرج فى غير مايقرب إلى الله فهو حسرة على العبد فى معاده ، ووقفة له فى طريق سيره ، أو نَكْسة إن استمر ، أو حجاب إن انقطع به.

قال « فأما معرفة النعمة : فإنها تصفو بثلاثة أشياء : بنور العقل ، وشَيْم بروق المِنَّة ، والاعتبار بأهل البلاء » .

يعنى أن حقيقة مشاهدة النعمة : يصفو بهذه الثلاثة . فهى النور الذى أوجب اليقظة ، فاستنار القلب به لرؤية التنبه . وعلى حسبه ـ قوة وضعفاً ـ تصفو له مشاهدة النعمة . فإن من لم ير نعمة الله عليه إلا فى مأكله وملبسه ، وعافية بدنه، وقيام وجهه بين الناس . فليس له نصيب من هذا النور ألبتة . فنعمة الله بالإسلام والإيمان ، وجذب عبده إلى الإقبال عليه ، والتنعم بذكره ، والتلذذ بطاعته : هو أعظم النعم . وهذا إنما يدرك بنور العقل ، وهداية التوفيق .

وكذلك شَيمُ بروق منن الله عليه . وهو النظر إليها ، ومطالعتها من خلال سُحُب الطبع ، وظلمات النفس . والنظر إلى أهل البلاء ـ وهم أهل الغفلة عن الله ، والابتداع فى دين الله ـ فهذان الصنفان هم أهل البلاء حقاً . فإذا رآهم ، وعلم ماهم عليه ، عظمت نعمة الله عليه فى قلبه ، وصفت له وعرف قدرها * فالضد يُظهِر حسنه الضد * و بضدها تتميز الأشياء *

حتى إن من تمام نعيم أهل الجنة : رؤية أهل النار وما هم فيه من العذاب .

قال « وأما مطالعة الجناية : فإنها تصح بثلاثة أشياء : بتعظيم الحق ، ومعرفة النفس ، وتصديق الوعيد » .

يعنى أن من كملت عظمة الحق تعالى فى قلبه عظمت عنده مخالفته . لأن مخالفة العظيم ليست كمخالفة من هو دونه . ومن عرف قدر نفسه وحقيقتها ، وفقرها

الذاتى إلى مولاها الحق فى كل لحظة ونَفَس ، وشدة حاجتها إليه ، عظمت عنده جناية المخالفة لمن هو شديد الضرورة إليه فى كل لحظة ونفس .

وأيضاً فإذا عرف حقارتها ــ مع عظم قدر من خالفه ــ عظمت الجناية عنده . فشمر فى التخلص منها . و بحسب تصديقه بالوعيد و يقينه به ، يكون تشميره فى التخلص من الجناية التى تلحق به .

ومدار السعادة ، وقطب رحاها : على التصديق بالوعيد . فإذا تعطل من قلبه التصديق بالوعيد خرب خرابا لايرجى معه فلاح ألبتة . والله تعالى أخبر أنه إنما تنفع الآيات والنُّذُر لمن صدق بالوعيد . وخاف عذاب الآخرة ، فهؤلاء هم المقصودون بالإنذار ، والمنتفعون بالآيات ، دون من عداهم . قال الله تعالى (١١ : ١٠٣ إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة) وقال (٧٩ : ٤٥ إنما أنت منذر من يخشاها) وقال (٥٠ : ٤٥ فذكِّر بالقرآن من يخاف وعيد) وأخبر تعالى أن أهل النجاة فى الدنيا والآخرة هم المصدقون بالوعيد ، الخائفون منه . فقال تعالى (١٣ : ١٤ ولَنُسْكِنَنَّكُم الأرضَ من بعدهم . ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد) .

قال « وأما معرفة الزيادة والنقصان من الأيام : فإنها تستقيم بثلاثة أشياء : سماع العلم ، و إجابة داعى الحرمة ، وصحبة الصالحين . وملاك ذلك كله : خلع العادات » .

يعنى أن السالك : على حسب علمه بمراتب الأعمال ، ونفائس الكسب . تكون معرفته بالزيادة والنقصان فى حاله و إيمانه . وكذلك تَفَقُّد إجابة داعى تعظيم حرمات الله من قلبه : هل هو سريع الإجابة لها ، أم هو بطىء عنها ؟ فبحسب إجابة الداعى ــ سرعة و إبطاء ــ تكون زيادته ونقصانه .

وكذلك صحبة أرباب العزائم ، المشمرين إلى اللحاق بالملأ الأعلى ، يعرف به مامعه من الزيادة والنقصان .

والذى يملك به ذلك كله خروجه عن العادات والمألوفات ، وتوطين النفس على مفارقتها ، والغربة بين أهل الغفلة والإعراض . وما على العبد أضر من ملك العادات له . وما عارض الكفارُ الرسل إلا بالعادات المستقرة ، الموروثة لهم عن الأسلاف الماضين . فمن لم يوطن نفسه على مفارقتها والخروج عنها ، والاستعداد للمطلوب منه . فهو مقطوع ، وعن فلاحه وفوزه ممنوع (٩ : ٤٦ ولو أرادوا الخروج لأعَدُّوا له عُدَّةً . ولكن كره الله انبعاثهم . فثَبَّطهم . وقيل : اقعدوا مع القاعدين)

فصل

فإذا استحكمت يقظته أوجبت له الفكرة . وهى ـ كما تقدم ـ تحديق القلب إلى جهة المطلوب التماساً له .

وصاحب المنازل جعلها بعد « البصيرة » وقال فى حدها « هى تلمس البصيرة لاستدراك البغية » أى التماس العقل المطلوب بالتفتيش عليه .

قال « وهى ثلاثة أنواع : فكرة فى عين التوحيد ، وفكرة فى لطائف الصنعة ، وفكرة فى معانى الأعمال والأحوال » .

قلت : الفكرة فكرتان : فكرة تتعلق بالعلم والمعرفة ، وفكرة تتعلق بالطلب والإرادة .

فالتى تتعلق بالعلم والمعرفة : فكرة التمييز بين الحق والباطل ، والثابت والمنفى . والتى تتعلق بالطلب والارادة : هى الفكرة التى تميز بين النافع والضار .

ثم يترتب عليها فكرة أخرى فى الطريق إلى حصول ما ينفع ، فيسلكها . والطريق إلى ما يضر فيتركها .

فهذه ستة أقسام . لاسابع لها ، هى مجال أفكار العقلاء .

فالفكرة فى التوحيد : استحضار أدلته ، وشواهد الدلالة على بطلان الشرك واستحالته ، وأن الإلهية يستحيل ثبوتها لاثنين ، كما يستحيل ثبوت الربوبية لاثنين . فكذلك من أبْطَلِ الباطل عبادة اثنين ، والتوكل على اثنين . بل لا تصح العبادة إلا للإله الحق ، والرب الحق . وهو الله الواحد القهار .

وقد خبط صاحب المنازل فى هذا الموضع . وجاء بما يرغب عنه الكُمَّل من سادات السالكين والواصلين إلى الله .

فقال « الفكرة فى عين التوحيد : اقتحام بحر الجحود » .

وهذا بناء على أصله الذى أصَّله ، وانتهى إليه كتابه فى أمر الفناء . فإنه لما رأى أن الفكرة فى عين التوحيد تُبعد العبد من التوحيد الصحيح عنده ، لأن التوحيد الصحيح عنده : لا يكون إلا بعد فناء الفكرة والتفكر . والفكرة تدل على بقاء رسم ، لاستلزامها مفكرا ، وفعلا قائماً به . والتوحيد التامّ عنده : لايكون مع بقاء رسم أصلا . كانت الفكرة عنده علامة الجحود ، واقتحاماً لبحره . وقد صرح بهذا فى أبياته فى آخر الكتاب :

ماوَحَّد الواحد من واحد ... إذ كل من وَحَّده جاحد

توحيد مَنْ ينطق عن نَعْته ... عارية ، أبطلها الواحد

توحيده إياه توحيده ... ونعت مَنْ يَنْعَتَهُ لاحِدٌ

ومعنى أبياته : ماوحد الله عز وجل أحد حق توحيده الخاص ، الذى تفنى فيه الرسوم . ويضمحل فيه كل حادث . ويتلاشى فيه كل مكوَّن . فإنه لايتصور منه التوحيد إلا ببقاء الرسم . وهو الموحد ، وتوحيده القائم به . فإذا وحده شهد فعله الحادث ورسمه الحادث . وذلك جحود لحقيقة التوحيد ، الذى تفنى فيه الرسوم ، وتتلاشى فيه الأكوان . فلذلك قال « إذ كل من وحده جاحد » هذا أحسن مايحمل عليه كلامه . وقد فسره أهل الوحدة بصريح كلامهم فى مذهبهم .

قالوا : معنى « كل من وحده جاحد » أى كل من وحده فقد وصف الموحَّد بصفة تتضمن جحد حقه الذى هو عدم انحصاره تحت الأوصاف . فمن وصفه فقد جحد إطلاقه عن قيود الصفات .

وقوله « توحيد من ينطق عن نعته » أى توحيد المحدَث له الناطقِ عن نعته ، عارية مستردة . فإنه الموحّد قبل توحيد هذا الناطق ، وبعد فنائه . فتوحيده له عارية أبطلها الواحد الحق بإفنائه كل ماسواه .

والاتحادىُّ يقول : معناه أن الموحد واحد من جميع الوجوه . فأبطل ببساطة ذاته تركيب نطق واصفه ، وأبطل بإطلاقه تقييد نعت موحده .

وقوله « توحيده إياه توحيده » يعنى أن توحيده الحقيقى هو توحيده لنفسه ، حيث لاهناك رسم ولا مكوّن . فما وحد الله حقيقة إلا الله .

والاتحادى يقول : ماثم غَيْرٌ يوحده ، بل هو الموحد لنفسه بنفسه ، إذ ليس ثَم سِوًى فى الحقيقة .

قوله « ونعت من ينعته لاحد» أى نعت الناعت له ميل وخروج عن التوحيد الحقيقى . والالحاد أصله الميـل . لأنه بنعته له قائم بالرسوم ، و بقاء الرسوم ينافى توحيده الحقيقى .

والاتحادى يقول : نعت الناعت له شرك . لأنه أسند إلى المطلق مالا يليق به إسناده من التقييد . وذلك شرك و إلحاد .

فرحمة الله على أبى اسماعيل . فتح للزنادقة باب الـكفر والإلحاد . فدخلوا منه وأقسمو بالله جهد أيمانهم : إنه لمنهم . وما هو منهم (١) وغَرَّه سراب الفناء . فظن أنه لُجة بحر المعرفة ، وغاية العارفين . و بالغ فى تحقيقه و إثباته . فقاده قَسْراً إلى ماترى .

و « الفناء » الذى يشير إليه القوم ، و يعملون عليه : أن تذهب المحدثات فى شهود العبد ، وتغيب فى أفق العدم ، كما كانت قبل أن توجد . و يبقى الحق تعالى كما لم يزل . ثم تغيب صورة المشاهِد ورسمه أيضاً . فلا يبقى له صورة ولا رسم . ثم يغيب شهوده أيضاً . فلا يبقى له شهود . و يصير الحق هو الذى يشاهد نفسه بنفسه، كما كان الأمر قبل إيجاد المـكوّنات . وحقيقته : أن يفنى من لم يكن . و يبقى من لم يزل .

قال صاحب المنازل « هو اضمحلال مادون الحق علما . ثم جحداً . ثم حقا ، وهو على ثلاث درجات .

(١) كلامه حجة لهم على أنه منهم . وتأو يل كلامه غير مقبول عندهم . ونرجو أن يكون قد تاب منه وأناب والله غفور رحيم .

الدرجة الأولى : فناء المعرفة فى المعروف . وهو الفناء علماً . وفناء العيان فى المعاين . وهو الفناء جحداً . وفناء الطلب فى الوجود . وهو الفناء حقا .

الدرجة الثانية : فناء شهود الطلب لإسقاطه ، وفناء شهود المعرفة لإسقاطها ، وفناء شهود العيان لإسقاطه .

الدرجة الثالثة : الفناء عن شهود الفناء . وهو الفناء حقاً ، شائماً برق العين ، راكباً بحر الجمع ، سالكا سبيل البقاء »

فنذكر مافى هذا الكلام من حق وباطل . ثم نتبعه ذكر أقسام الفناء . والفرق بين الفناء المحمود ، الذى هو فناء خاصة أولياء الله المقربين . والفناء المذموم الذى هو فناء أهل الإلحاد ، القائلين بوحدة الوجود ، وفناء المتوسطين الناقصين عن درجة الكمال ، بعون الله وحوله وتأييده .

فقوله « الفناء اضمحلال مادون الحق جحدا » لايريد به أنه يعدم من الوجود بالكلية . وإنما يريد اضمحلاله فى العلم . فيعلم أن مادونه باطل ، وأن وجوده بين عدمين ، وأنه ليس له من ذاته إلا العدم . فعدمه بالذات ، ووجوده بإيجاد الحق له. فيفنى فى علمه ، كما كان فانياً فى حال عدمه . فإذا فنى فى علمه ارتقى إلى درجة أخرى فوق ذلك . وهى جحد السِّوَى وإنكاره . وهذه أبلغ من الأولى . لأنها غيبته عن السوى . فقد يغيب عنه وهو غير جاحد له . وهذه الثانية جحده وإنكاره .

ومن هاهنا دخل الاتحادى . وقال: المراد جحد السِّوى بالكلية ، وأنه ما ثَمَّ غيرٌ بوجهٍ ما .

وحاشا شيخ الإسلام من إلحاد أهل الاتحاد ، وإن كانت عبارته موهمة ، بل مفهمة ذلك . وإنما أراد بالجحد : فى الشهود ، لافى الوجود ، أى يجحده أن يكون مشهوداً ، فيجحد وجوده الشهودى العلمى ، لاوجوده العينى الخارجى . فهو أولاً يغيب عن وجوده الشهودى العلمى . ثم ينكر ثانياً وجوده فى علمه . وهو اضمحلاله جحداً . ثم يرتقى من هذه الدرجة إلى درجة أخرى أبلغ منها . وهى

اضمحلاله فى الحقيقة ، وأنه لاوجود له ألبتة . و إنما وجوده قائم بوجود الحق . فلولا وجود الحق لم يكن هو موجوداً . فنى الحقيقة : الموجود إنما هو الحق وحده ، والكائنات من أثر وجوده . هذا معنى قولهم « إنها لاوجود لها ولا أثر لها . و إنها معدومة وفانية ومضمحلة » .

والاتحادى يقول : إن السالك فى أول سلوكه يرى أنه لافاعل فى الحقيقة إلا الله . فهذا توحيد العلم . ولا يقدر فى طوره الأول على أكثر من ذلك . ثم ينتقل عن هذا إلى الدرجة الثانية . وهى شهود عَوْدِ الأفعال إلى الصفات، والصفات إلى الذات . فعاد الأمر كله إلى الذات . فيجحد وجود السِّوى بالكلية . فهذا هو الاضمحلال جحداً . ثم يرتقى عن هذه الدرجة إلى ركوب البحر الذى تغرق فيه الأفعال والأسماء والصفات . ولا يبقى إلا أمر مطلق لايتقيدباسم ولا فعل ولاصفة، قد اضمحل فيه كل معنًى وقيدٍ وصفةٍ ورسمٍ . وهذا ــ عندهم ــ غاية السفر الأول . فحينئذ يأخذ فى السَّفر الثانى . وهو البقاء .

قوله « الدرجة الأولى : فناء المعرفة فى المعروف » .

يريد اضمحلال معرفته وتلاشيها فى معروفه . وأن يغيب بمعروفه عن معرفته ، كما يغيب بمشهوده عن شهوده ، و بمذكوره عن ذكره ، و بمحبوبه عن حبه ، و بمخوفه عن خوفه . وهذا لا ريب فى إمكانه ووقوعه . فإن القلب إذا امتلأ بشىء لم يبق فيه متسع لغيره . وأنت ترى الرجل يشاهد محبوبه الذى قد استغرق فى حبه ، بحيث تخلل حُبُّه جميع أجزاء قلبه . أو يشاهد المخوف الذى امتلأ قلبه بخوفه . فتراه دهشا عن شعوره بحبه أو خوفه ، لاستيلاء سلطان المحبوب أو المخوف على قلبه ، وعدم اتساعه لشهود غيره ألبتة . لكن هذا لنقصه لا لكماله . والكمال وراء ذلك . فلا أحد أعظم محبة لله عز وجل من الخليلين ــ عليهما الصلاة والسلام ــ وكانت حالهما أكمل من هذه الحال . وشهود العبودية أكمل وأتم وأبلغ من الغيبة عنها بشهود المعبود . فشهود العبودية والمعبود درجة الكُمَّل . والغيبة بأحدهما

عن الآخر للناقصين . فكما أن الغيبة بالعبادة عن المعبود نقص ، فكذلك الغيبة بالمعبود عن عبادته نقص . حتى إن من العارفين من لايعتد بهذه العبادة . ويرى وجودها عدما . ويقول : هى بمنزلة عبودية النائم وزائل العقل . لا يعتد بها . ولم يُبعد هذا القائل .

فالحق تعالى مراده من عبده : استحضار عبوديته ، لاالغيبة عنها . والعامل على الغيبة عنها عامل على مراده من الله ، وعلى حظه والتنعم بالفناء فى شهوده . لا على مراد الله منه ، و بينهما ما بينهما .

فكيف يكون قائماً بحقيقة العبودية من يقول « إياك نعبد » ولا شعور له بعبوديته ألبتة ؟ بل حقيقة « إياك نعبد » علماً ومعرفة وقصداً و إرادة وعملا . وهذا مستحيل فى وادى الفناء . ومن له ذوق يعرف هذا وهذا .

قوله « وفناء العيان فى المعاين . وهو الفناء جحداً » .

لما كان ماقبل هذا فناء العلم فى المعلوم ، والمعرفة فى المعروف . والعيانُ فوق العلم والمعرفة . إذ نسبته إلى العلم كنسبة المرئى إليه : كان الفناء فى هذه المرتبة فناء عيانه فى مُعايَنِه . ومحو أثره واضمحلال رسمه .

قوله « وفناء الطلب فى الموجود وهو الفناء حقا » .

يريد : أنه لا يبقى لصاحب هذا العيان طلب . لأنه قد ظفر بموجوده ومطلوبه . وطلب الموجود محال . لأنه إنما يُطلب المفقود عن العيان لا الموجود ، فإذا استقرت فى عيانه وشهوده فنى الطلب حقا .

قوله « الدرجة الثانية : فناء شهود الطلب لإسقاطه ، وفناء شهود المعرفة لإسقاطها . وفناء شهود العيان لإسقاطه » .

يريد أن الطلب يسقط . فيشهد العبد عدمه . فهاهنا أمور ثلاثة مترتبة أحدها : فناء الطلب وسقوطه ، ثم شهود سقوطه ، ثم سقوط شهوده .

فهذا هو فناء شهود الطلب لإسقاطه .

وأما فناء شهود المعرفة لإسقاطها ، فيريد به : أن المعرفة تسقطه فى شهود العيان . إذ هو فوقها . وهى تفنى فيه . فيشهد سقوطها فى العيان . ثم يسقط شهود سقوطها .

وصاحب المنازل يرى أن المعرفة قد يصحبها شىء من حجاب العلم ، ولا يرتفع ذلك الحجاب إلا بالعيان . فحينئذ تفنى فى حقه المعارف . فيشهد فناءها وسقوطها . ولكن عليه بعدُ بقية ، لا تزول عنه حتى يسقط شهود فنائها وسقوطها منه . فالعارف يخالطه بقية من العلم لا تزول إلا بالمعاينة . والمعاين قد يخالطه بقية من المعرفة لا تزول إلا بشهود سقوطها . ثم سقوط شهود هذا السقوط .

وأما « فناء شهود العيان لإسقاطه » فيعنى أن العيان أيضاً يسقط فيشهد العبد ساقطاً . فلا يبقى إلا المعايَن وحده .

قال الاتحادى « هـذا دليل على أن الشيخ يرى مذهب أهل الوحدة . لأن العيان إنما يسقط فى مبادى حضرة الجمع . لأنه يقتضى ثلاثة أمور : معايِن ، ومعايَن ، ومعاينة . وحضرة الجمع تنفى التعداد » .

وهذا كذب على شيخ الإسلام . و إنما مراده : فناء شهود العيان . فيفنى عن مشاهدة المعاينة . و يغيب بمعاينه عن معاينته . لأن مراده : انتفاء التعدد والتغاير بين المعايِن والمعايَن . و إنما مراده: انتفاء الحاجب عن درجة الشهود ، لا عن حقيقة الوجود . ولـكنه باب لإلحاد هؤلاء الملاحدة . منه يدخلون .

وفرق بين إسقاط الشىء عن درجة الوجود العلمى الشهودى ، و إسقاطه عن رتبة الوجود الخارجى العينى . فشيخ الإسـلام ـ بل مشايخ القوم المتكلمين بلسان الفناء ـ هذا مرادهم .

وأما أهل الوحدة ، فمرادهم : أن حضرة الجمع والوحدة تنفى التعدد والتقييد فى الشهود والوجود ، بحيث يبقى المعروف والمعرفة والعارف من عين واحدة ، لا بل ذلك هو نفس العين الواحدة . و إنما العلم والعقل والمعرفة حجب ، بعضها أغلظ من

بعض . ولا يصير السالك عندهم محققاً حتى يخرق حجاب العلم والمعرفة والعقل . فحينئذ يفضى إلى ما وراء الحجاب من شهود الوحدة المطلقة التى لا تتقيد بقيد ، ولا تختص بوصف .

قوله « الدرجة الثالثة : الفناء عن شهود الفناء » .

أى يشهد فناء كل ما سوى الحق تعالى فى وجود الحق . ثم يشهد الفناء قد فنى أيضاً . ثم يفنى عن شهود الفناء . فذلك هو الفناء حقاً .

وقوله « شائما برق العين » .

يعنى ناظراً إلى عين الجمع . فإذا شام بَرْقه من بُعدٍ انتقل من ذلك إلى ركوب لُجّة بحر الجمع ، وركو به إياها هو فناؤه فى جمعه .

و يعنى بالجمع : الحقيقة الكونية القدرية التى يجتمع فيها جميع المتفرقات ، وتشمير القوم إلى شهودها والاستغراق والفناء فيها : هو غاية السلوك والمعرفة عندهم .

وسنذكر إن شاء الله تعالى أن العبد لايدخل بهذا الفناء والشهود فى الإسلام ، فضلا أن يكون به من المؤمنين ، فضلا أن يكون به من خاصة أولياء الله المقربين فإن هذا شهود مشترك لأمر أقر به عباد الأصنام وسائر أهل الملل : أنه لا خالق إلا الله . قال الله تعالى (٣٩ : ٣٨ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ؟ ليقولن الله) (٤٣ : ٨٧ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله) فالاستغراق والفناء فى شهود هذا القدر : غاية التحقيق لتوحيد الربوبية الذى أقر به المشركون ، ولم يدخلوا به فى الإسلام . وإنما الشأن فى توحيد الإلٰهية الذى دعت إليه الرسل ، وأنزلت به الكتب . وتميز به أولياء الله من أعدائه . وهو أن لا يعبد إلا الله ، ولا يحب سواه ، ولا يتوكل على غيره .

والفناء فى هذا التوحيد : هو فناء خاصة المقربين . كما سيأتى إن شاء الله .

فصل

إذا عرفت مراد القوم بالفناء ، فنذكر أقسامه ومراتبه ، وممدوحه ومذمومه ومتوسطه .

فاعلم أن « الفناء » مَصْدَر فَنِيَ يَفْنَى فَنَاءً إِذَا اضْمَحَلَّ وَتَلَاشَى وَعُدِم . وقد يطلق على ماتلاشت قواه وأوصافه ، مع بقاء عينه ، كما قال الفقهاء : لا يقتل فى المعركة شيخ فانٍ . وقال تعالى (٥٥ : ٢٦ كُلُّ من عليها فان) أى هالك ذاهب. ولكن القوم اصطلحوا على وضع هذه اللفظة لتجريد شهود الحقيقة الكونية ، والغيبة عن شهود الكائنات .

وهذا الاسم يطلق على ثلاثة معان : الفناء عن وجود السِّوى ، والفناء عن شهود السوى ، والفناء عن إرادة السوى .

فأما الفناء عن وجود السِّوى : فهو فناء الملاحدة ، القائلين بوحدة الوجود ، وأنه ماثَمَّ غيرٌ ، وأن غاية العارفين والسالكين : الفناء فى الوحْدة المطلقة ، ونفى التكثر ، والتعدد عن الوجود بكل اعتبار . فلا يشهد غيراً أصلاً . بل يشهد وجود العبد عينَ وجود الرب . بل ليس عندهم فى الحقيقة رب وعبد .

وفناء هذه الطائفة فى شهود الوجود كله واحد . وهو الواجب بنفسه ، مَاثَمَّ وجودان : ممكن ، وواجب . ولا يفرقون بين كون وجود المخلوقات بالله ، و بين كون وجودها هو عين وجوده . وليس عندهم فرقان بين « العالمين » و « رب العالمين » و يجعلون الأمر والنهى للمحجو بين عن شهودهم وفنائهم . والأمر والنهى تلبيس عندهم . والمحجوب عندهم يشهد أفعاله طاعات أو معاصٍ ، مادام فى مقام الفرق . فإذا ارتفعت درجته شهد أفعاله كلها طاعات ، لا معصية فيها . لشهوده الحقيقة الكونية الشاملة لكل موجود . فإذا ارتفعت درجته عندهم فلا طاعة ولامعصية ، بل ارتفعت الطاعات والمعاصى . لأنها تستلزم اثنينية وتعدداً . وتستلزم مطيعاً ومطاعاً ، وعاصياً ومعصياً . وهذا عندهم محض الشرك ، والتوحيد المحض يأباه . فهذا فناء هذه الطائفة .

وأما الفناء عن شهود السوى : فهو الفناء الذى يشير إليه أكثر الصوفية

المتأخرين . و يعدونه غاية . وهو الذى بنى عليه أبو إسماعيل الأنصارى كتابه : وجعله الدرجة الثالثة فى كل باب من أبوابه .

وليس مرادهم فنـاء وجود ماسوى الله فى الخارج ، بل فناؤه عن شهودهم وحسهم . فحقيقته : غيبة أحدهم عن سوى مشهوده . بل غيبته أيضاً عن شهوده ونفسه . لأنه يغيب بمعبوده عن عبادته ، و بمذكوره عن ذكره ، و بموجوده عن وجوده ، و بمحبوبه عن حبه ، و بمشهوده عن شهوده .

وقد يسمى حال مثل هذا سُكراً ، واصطلاماً ، وَمَحْواً ، وَجَمْعاً . وقد يفرقون بين معانى هذه الأسماء . وقد يغلب شهود القلب بمحبوبه ومذكوره حتى يغيب به و يفنى به . فيظن أنه اتحد به وامتزج ، بل يظن أنه هو نفسه . كما يحكى أن رجلا ألقى محبوبُه نفسه فى المـاء . فألقى المحب نفسه وراءه . فقال له : ماالذى أوقعك فى الماء ؟ فقال : غبتُ بك عَنِّى فظننتُ أنك أنى .

وهذا إذا عاد إليه عقله يعلم أنه كان غالطاً فى ذلك . وأن الحقائق متميزة فى ذاتها . فالرب رب . والعبد عبد . والخالق بائن عن المخلوقات . ليس فى مخلوقاته شىء من ذاته ، ولا فى ذاته شىء من مخلوقاته . ولـكن فى حال السكر والمحو والاصطلام والفناء : قد يغيب عن هذا التميز . وفى هذه الحال قد يقول صاحبها ما يحكى عن أبى يزيد أنه قال « سبحانى » أو « مافى الجبة إلا الله » ونحو ذلك من الـكلمات التى لو صدرت عن قائلها وعقله معه لـكان كافراً . ولـكن مع سقوط التميز والشعور ، قد يرتفع عنه قلم المؤاخذة (١) .

وهذا الفناء يحمد منه شىء . و يذم منه شىء . و يعفى منه عن شىء .

فيحمد منه : فناؤه عن حب ماسوى الله ، وعن خوفه ، ورجائه ، والتوكل

---

(١) كيف يدعى ـ دفاعاً عن هذه الوثنية الوقحة ـ أن أولئك الزنادقة يعذرون لأنهم سقط تميزهم وشعورهم . فلئن كانوا حقيقة ساقطو التميز والشعور ، فهم مجانين ، فـكيف تدعى لهم الولاية والإمامة فى الدين ؟ .

عليه ، والاستعانة به ، والالتفات إليه ، بحيث يبقى دينُ العبد ظاهراً وباطناً كله لله .

وأما عدم الشعور والعلم ، بحيث لايفرق صاحبه بين نفسه وغيره ، ولا بين الرب والعبد ـ مع اعتقاده الفرق[1] ـ ولا بين شهوده ومشهوده ، بل لا يرى السوى ولا الغير : فهذا ليس بمحمود ، ولا هو وصف كمال ، ولا هو مما يُرغب فيه ويؤمر به . بل غاية صاحبه : أن يكون معذوراً لعجزه ، وضعف قلبه وعقله عن احتمال التمييز والفرقان ، وإنزال كل ذى منزلة منزلته ، موافقة لداعى العلم ، ومقتضى الحكمة ، وشهود الحقائق على ماهى عليه . والتمييز بين القديم والمحدث ، والعبادة والمعبود . فينزل العبادة منازلها . ويشهد مراتبها ، ويعطى كل مرتبة منها حقها من العبودية . ويشهد قيامه بها . فإن شهود العبد قيامه بالعبودية أكمل فى العبودية من غيبته عن ذلك . فإن أداء العبودية فى حال غيبة العبد عنها وعن نفسه بمنزلة أداء السكران والنائم . وأداؤها فى حال كمال يقظته وشعوره بتفاصيلها وقيامه بها ، أتم وأكمل وأقوى عبودية .

فتأمل حال عبدين فى خدمة سيدهما . أحدهما : يؤدى حقوق خدمته فى حال غيبته عن نفسه وعن خدمته ، لاستغراقه بمشاهدة سيده . والآخر يؤديها فى حال كمال حضوره ، وتمييزه ، وإشعار نفسه بخدمة السيد ، وابتهاجها بذلك ، فرحاً بخدمته ، وسروراً والتذاذاً منه ، واستحضاراً لتفاصيل الخدمة ومنازلها . وهو ـ مع ذلك ـ عامل على مراد سيده منه ، لا على مراده من سيده ، فأى العبدين أكمل ؟

فالفناء : حظ الفانى ومراده . والعلم ، والشعور ، والتمييز ، والفرق ، وتنزيل الأشياء منازلها ، وجعلها فى مراتبها : حق الرب ومراده . ولا يستوى صاحب هذه العبودية ، وصاحب تلك .

نعم ، هذا أكمل حالا من الذى لا حضور له ولا مشاهدة بالمرة ، بل هو غائب بطبعه ونفسه عن معبوده وعن عبادته . وصاحب التمييز والفرقان ـ وهو

(١) وهل يمكن أن يوجد مع هذا اعتقاد بفرقان ؟ .

صاحب الفناء الثالث ــ أكمل منهما . فزوال العقل والتمييز والغيبة عن شهود نفسه وأفعالها لا يحمد ، فضلا عن أن يكون فى أعلى مراتب الكمال ، بل يذم إذا تسبب إليه ، وباشر أسبابه ، وأعرض عن الأسباب التى توجب له التمييز والعقل . ويعذر إذا ورد عليه ذلك بلا استدعاء ، بأن كان مغلوباً عليه ، كما يعذر النائم والمغمَى عليه ، والمجنون ، والسكران الذى لايذم على سكره . كالموجَرِ ، والجاهل بكون الشراب مسكراً ، ونحوهما .

وليس أيضاً هذه الحال بلازمة لجميع السالكين ، بل هى عارضة لبعضهم ، منهم : من يُبْتَلَى بها ، كأبى يزيدوأمثاله . ومنهم : من لا يبتلى بها . وهم أكمل وأقوى . فإن الصحابة رضى الله عنهم ــ وهم سادات العارفين . وأئمة الواصلين المقربين ، وقدوة السالكين ــ لم يكن منهم من ابتلى بذلك ، مع قوة إرادتهم ، وكثرة منازلاتهم ، ومعاينة مالم يعاينه غيرهم ، ولا شم له رائحة ، ولم يخطر على قلبه (١) . فلو كان هذا الفناء كمالا لكانوا هم أحقَّ به وأهلَه . وكان لهم منه ما لم يكن لغيرهم .

ولا كان هذا أيضاً لنبينا صلى الله عليه وسلم ، ولا حالا من أحواله ، صلى الله عليه وسلم . ولهذا ــ فى ليلة المعراج لما أسرى به ، وعاين ماعاين مما أراه الله إياه من آياته الكبرى ــ لم تعرض له هذه الحال . بل كان كما وصفه الله عز وجل بقوله (٥٣ : ١٧ ، ١٨ ما زاغ البصرُ وما طَغَى * لقد رأى من آيات ربه الكبرى) وقال (١٧ : ٦٠ وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنةً للناس) وقال ابن عباس

---

(١) لأن قلوبهم كانت سليمة من أمراض الجهالة والأهواء ، والشكوك والشهوات ، وكانت دائمة التغذى بما أنزله الله هدى ورحمة وشفاء لما فى الصدور ، فكانت قلوباً مشرقة بنور الهدى ، قوية بصدق العلم بالله ، واللجأ إليه ، والتوكل والاعتماد عليه . وهيهات للصوفية هذا المنال ، وقلوبهم مريضة بالأهواء ، والريب والشكوك الجاهلية . فإنها إنما تتغذى من فلسفة الهند واليونان ، ومن حدثنى قلبى وقال لى شيخى .

« هى رؤيا عين . أُرِيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة أُسْرِيَ به » ومع هذا فأصبح بينهم لم يتغير عليه حاله ، ولم يعرض له صَعْق ولا غَشْى ، يخبرهم عن تفصيل مارأى ، غير فانٍ عن نفسه ، ولا عن شهوده . ولهذا كانت حاله أكمل من حال موسى ابن عمران صلى الله عليهما وسلم لما خرّ صعقا حين تجلَّى ربه للجبل وجعلَه دكًّا .

فصل

وهذا الفناء له سببان .

أحدهما : قوة الوارد وضعف المورود . وهذا لايذم صاحبه .

الثانى : نقصان العلم والتمييز . وهذا يذم صاحبه . لاسيما إذا أعرض عن العلم الذى يحول بينه و بين هذا الفناء ، وذمه وذم أهله . ورأى ذلك عائقا من عوائق الطريق . فهذا هو المذموم المخوف عليه .

ولهذا عظمت وصية القوم بالعلم ، وحذروا من السلوك بلا علم . وأمروا بهجر من هجر العلم وأعرض عنه ، وعدم القبول منه ، لمعرفتهم بمآلِ أمره ، وسوء عاقبته فى سيره [1] . وعامة من تزندق من السالكين فلإعراضه عن دواعى العلم ، وسيره على جادة الذوق والوجد ، ذاهبة به الطريقُ كل مذهب . فهذا فتنته والفتنة به شديدة . وبالله التوفيق .

فصل

وأصل هذا الفناء : الاستغراق فى توحيد الربوبية . وهو رؤية تفرد الله بخلق الأشياء ، وملكها واختراعها ، وأنه ليس فى الوجود قط إلا ماشاءه وكوّنه . فيشهد ما اشتركت فيه المخلوقات من خلق الله إياها ، ومشيئته لها ، وقدرته عليها ، وشمول قيوميته وربوبيته لها . ولا يشهد ما افترقت فيه من محبة الله لهذا وبغضه لهذا ، وأمره بما أمر به ، ونهيه عما نهى عنه ، وموالاته لقوم ومعاداته لآخرين .

---

(١) فإذا كان هذا حالهم فى الحرص على العلم ، فما لهم يدعون إلى وحدة الوجود ؟ اللهم إلا إذا كان علمهم غير ما قال الله وقال الرسول .

فلا يشهد التفرقة فى الجمع . وهى تفرقة الخلق والأمر فى جمع الربوبية . تفرقة موجب الإلهية فى جمع الربوبية ، تفرقة الإرادة الدينية فى جمع الإرادة الكونية ، تفرقة مايحبه ويرضاه فى جمع ماقدره وقضاه . ولا يشهد الكثرة فى الوجود . وهى كثرة معانى الأسماء الحسنى والصفات العلى ، واقتضاؤها لآثارها فى وحدة الذات الموصوفة بها .

فلا يشهد كثرة دلالات أسماء الرب تعالى وصفاته على وحدة ذاته .

فهو الله الذى لا إله إلا هو ، الرحمن الرحيم ، الملك القدوس ، السلام المؤمن ، المهيمن العزيز ، الجبار المتكبر . وكل اسم له صفة ، وللصفة حكم . فهو سبحانه واحد الذات ، كثير الأسماء والصفات . فهذه كثرة فى وحدة .

والفرق بين مأموره ومنهيه ، ومحبوبه ومبغوضه ، ووليه وعدوه : تفرقة فى جمع . فمن لم يتسع شهوده لهذه الأمور الأربعة فليس من خاصة أولياء الله العارفين . بل إن انصَرف شهوده عنها مع اعترافه بها فهو مؤمن ناقص . وإن جحدها ـ أو شيئاً منها ـ فكفر صريح أو بتأويل ، مثل أن يجحد تفرقة الأمر والنهى ، أو جمع القضاء والقدر ، أو كثرة معانى الأسماء والصفات ووحدة الذات

فليتدبر اللبيب السالك هذا الموضع حق التدبر ، وليعرف قدره . فانه مَجامع طرق العالمين . وأصل تفرقتهم . قد ضَبَطْتُ لك معاقده ، وأحكمت لك قواعده وبالله التوفيق .

وإنما يعرف قدر هذا من اجتاز القفار ، واقتحم البحار . وعرض له مايعرض لسالك القفر ، وراكب البحر . ومن لم يسافر ولم يخرج عن وطن طبعه ومرباه ، وما ألف عليه أصحابه وأهل زمانه ، فهو بمعزل عن هذا . فإن عرف قدره ، وكفى الناس شره ، فهذا يرجى له السلامة . وإن عدا طوره ، وأنكر ما لم يعرفه ، وكذب بما لم يحط به علما ، ثم تجاوز إلى تكفير من خالفه ، ولم يقلد شيوخه ، ويرضى بما رضى هو به لنفسه . فذلك الظالم الجاهل ، الذى ماضر إلا نفسه ، ولا أضاع إلا حظه .

فصــل

و يعرض للسالك على درب الفناء معاطِبُ ومهالك ، لاينجيه منها إلا بصيرة العلم ، التى إن صحبته فى سيره ، و إلا فبسبيل مَنْ هلك .

منها : أنه إذا اقتحم عقبة الفناء ظن أن صاحبها قد سقط عنه الأمر والنهى ، لتشويشه على الفناء ونقضه له . والفناء عنـده غاية العُارفين ، ونهاية التوحيد . فيرى ترك كل ما أبطله وأزاله ، من أمر ونهى أو غيرهما . و يصرح بعضهم بأنه إنما يسقط الأمر والنهى عمن شهد الإرادة . وأما من لم يشهدها فالأمر والنهى لازمان له . ولم يعلم هذا المغرور أن غاية ما معه : الفناء فى توحيد أهل الشرك الذى أقروا به ، ولم يكونوا به مسلمين ألبتة ، كما قال تعـالى (٣٩ : ٣٨ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن : الله) وقال (٢٣ : ٨٣ ـ ٨٩ قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمـون ؟ سيقولون : لله . قل : أفلا تذكرون ؟ قل من رب السموات السبع ورَبُّ العرش العظيم ؟ سيقولون : لله . قل : أفلا تتقون ؟ قل من بيده ملـكوت كل شىء ، وهو يجير ولا يجار عليه ، إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون : لله . قل : فأنَّى تسحرون ؟) وقال تعـالى (١٢ : ١٠٦ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) قال ابن عبـاس « تسألهم : من خلق السموات والأرض ؟ فيقولون : الله . وهم يعبدون غيره » .

ومن كان هذا التوحيد والفناء غاية توحيده : انسـلخ من دين الله ، ومن جميع رسـله وكتبه ، إذ لم يتميز عنده ما أمر الله به مما نهى عنه . ولم يفرق بين أولياء الله وأعدائه ، ولا بين محبوبه ومبغوضه ، ولا بين المعروف والمنكر . وسَوَّى بين المتقين والفجار ، والطاعة والمعصية . بل ليس عنده فى الحقيقة إلا طاعة . لاستواء الـكل فى الحقيقة التى هى المشيئة العامة الشاملة .

ثم صاحب هذا المقام : يظن أنه صـاحب الجمع والتوحيد . وأنه وصل إلى عين الحقيقة . و إنما وصل المسكين إلى الحقيقة الشاملة التى يدخل فيها إبليس وجنوده

أجمعون ، وكلُّ كافر ومشرك وفاجر . فإن هؤلاء كلهم تحت الحقيقة الكونية القدرية . فغاية صاحب هذا المشهد : وصوله إلى أن يشهد استواء هؤلاء والمؤمنين الأبرار ، وأولياء الله وخاصة عباده ، فى هذه الحقيقة . ومع هذا فلا بد له من الفرق ، والموالاة والمعاداة ضرورة . فينسلخ عن الفرق الشرعى ، و يعود إلى الفرق الطبعى النفسى بهواه وطبعه . إذ لابد أن يفرق بين ماينفعه فيميل إليه ، ومايضره فيهرب منه . فبينا هو منكر على أهل الفرْق الشرعى ، ناكباً عن طريقتهم إلى عين الجمع ، إذ انتُكِس وارتُكِس . وعاد إلى الفرق الطبعى النفسى . فيوالى و يعادى ، و يحب و يبغض ، بحسب هواه و إرادته .

فإن الفرق أمر ضرورى للإنسان ، فمن لم يكن فرقه قرآنياً محمدياً ، فلا بد له من قانون يفرق به : إما سياسة سائس فوقه ، أو ذوق منه أو من غيره ، أو رأيٍ منه أو من غيره ، أو يفرق فرقاً بهيمياً حيوانياً بحسب مجرد شهوته وغرضه أين توجهت به . فلا بد من التفريق بأحد هذه الوجوه .

فلينظر العبد مَن الحاكمُ عليه فى الفرق . وليَزِنْ به إيمانه قبل أن يوزن ، وليحاسب نفسه قبل أن يحاسَب ، وليستبدل الذهب بالخزف ، والدُّرَّ بالبَعْر ، والماء الزلال بالسراب الذى (٢٤ : ٣٩ يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً . ووجد الله عنده فوفاه حسابه . والله سريع الحساب) قبل أن يَسأل الرجعة إلى دار الصَّرْف ، فيقال : هيهات ! اليوم يوم الوفاء . وما مضى فقد فات . أُحْصِى المستخرجُ والمصروف ، وستعلم الآن مامعك من النقد الصحيح والزيوف .

وأصحاب هذه الحقيقة : أتباع كل ناعق . يميلون مع كل صائح . لم يستضيئوا بنور العلم . ولم يلجأوا إلى ركن وثيق . إذا تناهوا فى حقيقتهم أضافوا الجميع إلى الله إضافة المحبة والرضى ، وجعلوها عين المشيئة والخلق . ضاهوْا الذين قال الله تعالى فيهم (١٦ : ٣٥ وقال الذين أشركوا : لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمنا من دونه من شيء) وقولهم عن آلهتهم (٤٣ : ٢٠

لو شاء الرحمن ماعبدناهم) وقوله (٧ : ٢٨ و إذا فعلوا فاحشة قالوا : وجدنا عليها آباءنا . والله أمرنا بها) فاحتجوا بإقرار الله لهم قدراً و كوناً ، على رضاه ومحبته وأمره ، وأنه لو كره ذلك منهم لحال بينهم و بينه ، ولما أقرهم عليه . فجعلوا قضاءه وقدره عين محبته ورضاه . وورثهم من سَوّى بين المخلوقات . ولم يفرق بالفرق النبوى القرآنى .

وطائفة من المشركين ذكرت ذلك معارضين لأمر الله ونهيه ، وما بعث به رسله ، بقضائه وقدره . فعارضوا الحقيقة الدينية الشرعية بالحقيقة الكونية القدرية . وورثهم من يحتج بالقضاء والقدر فى مخالفة الأمر والنهى . وكلا الطائفتين أبطلت أمره ونهيه بقضائه وقدره .

وظنت طائفة ثالثة أن إثبات القضاء والقدر يبطل الشرائع والنبوات . وأن المشركين احتجوا على بطلانها بإثباته . فجعلت التكذيب به من أصول الإيمان ، بل أعظم أصوله . فردت قضاء الله وقدره الشامل العام بأمره ونهيه .

فانظر إلى اقتسام الطوائف هذا الموضع ، وافتراقهم فى مفرق هذا الطريق علماً وخبراً ، وسلوكاً وحقيقة . وتأمل أحوال الخلق فى هذا المقام ، تنكشف لك أسرار العالمين . وتعلم أين أنت وأين مقامك ؟ وتعرف ماجنى هذا الجمع ، وهذا الفناء على الإيمان . وما خرب من القواعد والأركان . وتتحقق حينئذ أن الدين كله فرقان فى القرآن ، فرق فى جمع ، وكثرة فى وحدة ، كما تقدم بيانه . وأن أولى الناس بالله وكتبه ورسله ودينه : أصحاب الفرق فى الجمع . فيقومون بالفرق بين مايحبه الله و يبغضه ، و يأمر به و ينهى عنه ، و يواليه و يعاديه ، علماً وشهوداً ، و إرادة وعملا ، مع شهودهم الجمع لذلك كله فى قضائه وقدره ، ومشيئته الشاملة العامة فيؤمنون بالحقيقة الدينية والكونية . و يعطون كل حقيقة حظها من العبادة .

فحظ الحقيقة الدينية : القيام بأمره ونهيه ، ومحبة مايحبه ، وكراهة مايكرهه ، وموالاة من والاه ، ومعاداة من عاداه . وأصل ذلك : الحب فيه والبغض فيه .

وحظ الحقيقة الكونية : إفراده بالافتقار إليه ، والاستعانة به ، والتوكل عليه

والالتجاء إليه ، و إفراده بالسؤال والطلب ، والتذلل والخضوع ، والتحقق بأنه ماشاء كان وما لم يشأ لم يكن . وأنه لا يملك أحد سواه لهم ضراً ولا نفعاً ، ولا موتاً ولا حياة ولا نشورا ، وأنه مقلب القلوب . فقلوبهم ونواصيهم بيده ، وأنه مامن قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابعه . إن شاء أن يقيمه أقامه ، و إن شاء أن يزيغه أزاغه .

فلهذه الحقيقة عبودية . ولهذه الحقيقة عبودية . ولا تبطل إحداهما الأخرى . بل لاتتم إلا بها . ولا تتم العبودية إلا بمجوعهما . وهـذا حقيقة قوله (إياك نعبد و إياك نستعين) بخلاف من أبطل حقيقة « إياك نعبد » بحقيقة « إياك نستعين » . وقال : إنها جمع « و إياك ، نعبد » فرق . وقد يغلو فى هذا المشهد فلا يستحسن حسنة ، ولا يستقبح قبيحة . و يصرح بذلك و يقول : العارف لايستحسن حسنة ، ولا يستقبح قبيحة . لاستبصاره بسر القدر .

ومنهم من يقول : حقيقة هذا المشهد : أن يشهد الوجود كله حسناً لاقبيح فيه ، وأفعالهم كلها طاعات لامعصية فيها . لأنهم ـ و إن عصوا الأمر ـ فهم مطيعون المشيئة . و يقولون :

أصبحتُ منفعلا لمـا تختاره مني . ففعلى كله طاعات

و يقول قائلهم « من شهد الحقيقة سقط عنه الأمر » و يحتجون بقوله تعـالى (١٥ : ٩٩ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) و يفسرون « اليقين » بشهود الحـكم الـكونى . وهى الحقيقة عندهم[1] .

---

(١) « الحقيقة » عندهم : أن ربهم هو النواة التى خرج منها الـكون كله ، وأن أسماءه وصفاته هى أجزاء هـذا الـكون ومظاهره ، من كل ناطق وصامت وساكن ومتحرك . ولذلك يقولون : إن كل عابد مهما عبد من إنسان وحيوان وحجر وشجر وكوكب : فما عبد إلا ربهم . وإنما كفره بالتخصيص . وسبحان ربنا وتعالى عن ذلك علواً كبيرا .

ولا ريب أن العامة خير من هؤلاء وأصح إيماناً . فإن هذا زندقة ونفاق ، وكذب منهم على أنفسهم ونبيهم وإلهم .

أما كذبهم على أنفسهم : فإنهم لابد أن يفرقوا قطعاً ، فرغبوا عن الفرق النبوى والقرآنى ، ووقعوا فى الفرق النفسى الطبعى . مثل حال إبليس ، تكبر عن السجود لآدم ، ورضى لنفسه بالقيادة لفساق ذريته[1] ومثل المشركين ، تكبروا عن عبادة الله الحى القيوم . ورضوا لأنفسهم بعبادة الأحجار والأشجار والموتى والأوثان . ومثل أهل البدع ، تكبروا عن تقليد النصوص ، وتلقى الهدى من مشكاتها . ورضوا لأنفسهم بتقليد أقوالٍ مخالفة للفطرة والعقل والشرع . وظنوها قواطع عقلية . وقدموها على نصوص الأنبياء . وهى فى الحقيقة شبهات مخالفة للسمع والعقل .

ومثل الجهمية ، نزهوا الرب عن عرشه . وجعلوه فى أجواف البيوت والحوانيت والحمامات ، وقالوا : هو فى كل مكان بذاته . ونزهوه عن صفات كماله ونعوت جلاله . حذراً — بزعمهم — من التشبيه . فشبهوه بالجامدات الناقصة الخسيسة التى لا تتكلم ، ولا سمع لها ولا بصر ، ولا علم ولا حياة ، بل شبهوه بالمعدومات الممتنع وجودها .

ومثل المعطلة الذين قالوا : ما فوق العرش إلا العدم . وليس فوق العرش رب يعبد . ولا إله يصلى له ويسجد . ولا ترتفع الأيدى إليه . ولا رفع المسيح إليه . ولا تعرج الملائكة والروح إليه . ولا أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم إليه . ولادنى منه حتى كان قاب قوسين أو أدنى . ولا ينزل من عنده شىء . ولا يصعد إليه شىء . ولا يراه أهل الجنة من فوقهم يوم القيامة . واستواؤه على

---

(١) بهامش الأصل : وما أحسن قول أبى نواس فيه :

عجبت من إبليس فى كبره ... وفى الذى أظهر من نخوته
تاه على آدم فى سجدة ... وصار قوداً لذريته

عرشـه لاحقيقة له . بل على المجاز الذى يصح نفيه . وعلوه فوق خلقه بالرتبة والشرف ، لا بالذات . وكذلك فوقيته فوقية قهر ، لافوقية ذات . فنزهوه عن كمال علوه وفوقيته . ووصفوه بمـا ساووا به بينه و بين العدم والمستحيل . فقالوا : لا هو داخل العلم ، ولا خارجه ، ولا متصل به ، ولا منفصل عنه ، ولا محايث له ، ولا مباين له ، ولا هو فينا ، ولا خارج عنا .

ومعلوم أنه لو قيل لأحدهم : صف لنا العدم . لوصفه بهذا بعينه .

وانطباق هذا السلب على العدم المحض أقرب إلى العقول والفِطر من انطباقه على رب العالمين ، الذى ليس فى مخلوقاته شىء من ذاته ، ولا فى ذاته شىء من مخلوقاته . بل هو بائن من خلقه ، مستوٍ على عرشه ، عالٍ على كل شىء . وفوق كل شىء .

والقصد : أن كل من أعرض عن شىء من الحق وجحده ، وقع فى باطل مقابل لما أعرض عنه من الحق وجحده . ولا بد ، حتى فى الأعمال . من رغب عن العمل لوجه الله وحده ابتلاه الله بالعمل لوجوه الخلق . فرغب عن العمل لمن ضَرُّه وَنفْعه وموته وحياته وسعادته بيده . فابْتُلِيَ بالعمل لمن لا يملك له شيئاً من ذلك .

وكذلك من رغب عن إنفاق ماله فى طاعة الله ابتُلِي بإنفاقه لغير الله وهوراغم

وكذلك من رغب عن التعب لله ابتلى بالتعب فى خدمه الخلق ولا بدّ .

وكذلك من رغب عن الهدى بالوحى ، ابتلى بكِناسة الآراء وزِبالة الأذهان ، ووسخ الأفكار .

فليتأمل من يريد نُصْحَ نفسه وسعادتها وفلاحها هذا الموضع فى نفسه وفى غيره .

ولا ريب أن العامة ـ مع غفلتهم وشهواتهم ـ أصح إيمانا من هؤلاء إذا لم يعطلوا الأمر والنهى . فإن إيمانا مع تفرقة وغفلة ، خير من شهود وجمعية يصحبها فساد الإيمان ، والانسلاخ منه .

وأما كذبهم على نبيهم : فاعتقادهم أنه إنما كان قيامه بالأوراد والعبادات

لأجل التشريع ، لالأنها فرض عليه . إذ قد سقط ذلك عنه بشهود الحقيقة ، وكال اليقين . فإن الله عزوجل أمره وأمر سائر رسله بعبادته إلى حين انقضاء آجالهم . فقال (١٥ : ٩٩ واعْبُدْ رَبَّكَ حتى يأتيكَ اليقين) وهو الموت بالإجماع كما قال فى الآية الأخرى عن الكفار (٧٤ : ٤٦ ، ٤٧ وكنا نكذب بيوم الدِّين . حتى أتانا اليقين) وقال صلى الله عليه وسلم « أما عثمان بن مظعون فقد جاءه اليقين من ربه » قاله لما مات عثمان . وقال المسيح (١٩ : ٣٩ ، ٣١ إنى عبد الله . آتانى الكتاب وجعلنى نبياً * وجعلنى مباركا أينما كنت وأصانى بالصلاة والزكاة مادمتُ حيا) فهذه وصية الله للمسيح ، وكذلك لجميع أنبيائه ورسله وأتباعهم . قال الحسن : لم يجعل الله لعبده المؤمن أجلا دون الموت .

وإذا جمع هؤلاء التَّجَهُّم فى الأسماء والصفات إلى شهود الحقيقة والوقوف عندها ، فأعاذك الله من تعطيل الرب وشَرْعه بالكلية . فلا رب يعبد . ولا شرع يتبع بالكلية .

ومن أراد الوقوف عل حقيقة ماذكرنا فليُسَيِّر طَرْفه بين تلك المعالم . وليقف على تلك المعاهد . وليسأل الأحوال والرسوم والشواهد ، فإن لم تجبه حُواراً(١) ، أجابته حالا واعتباراً . وإنما يُصدِّق بهذا من رافق السالكين ، وفارق القاعدين وتبوأ الإيمان . وفارق عوائد أهل الزمان . ولم يرض بقول القائل :

دع المعالى ، لاتَنْهَضْ لبُغْيَتِهَا   واقعد . فإنكَ أنْتَ الطاعم الكاسِى

فصل

الدرجة الثالثة من درجات الفناء :

فناء خواص الأولياء وأئمة المقربين(٢) وهو الفناء عن إرادة السوى ، شائما

---

(١) الحوار المحاورة والمراجعة فى الكلام .

(٢) هل ورد هذا وصفاً لهم فى كتاب الله ، أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم ، أو عرف الصحابة والتابعون لهم بإحسان هذا ؟ كلا ، بل وإنه من =

برق الفناء عن إرادة ماسواه ، سالكا سبيل الجمع على مايحبه ويرضاه . فانياً بمراد محبوبه منه عن مراده هو من محبوبه ، فضلا عن إرادة غيره ، قد اتحد مراده بمراد محبوبه — أعنى المراد الدينى الأمرى ، لا المراد الكونى القَدَرَى — فصار المرادان واحداً .

وليس فى العقل اتحاد صحيح إلا هـذا ، والاتحاد فى العلم والخبر . فيكون المرادان والمعلومان والمذكوران واحداً ، مع تباين الإرادتين والعلمين والخبرين . فغاية المحبه : اتحاد مراد المحب بمراد المحبوب . وفناء إرادة المحب فى مرادالمحبوب .

فهذا الاتحاد والفناء : هو اتحاد خواص المحبين وفناؤهم . فنوا بعبادة محبوبهم عن عبادة ماسواه ، وبحبه وخوفه ورجائه والتوكل عليه ، والاستعانة به ، والطلب منه ، عن حب ماسواه ، وخوفه ورجائه والتوكل عليه .

ومن تحقيق هذا الفناء : أن لايحب إلا فى الله ولا يبغض إلا فيه . ولايوالى إلا فيه . ولا يعادى إلا فيه . ولا يعطى إلا له . ولا يمنع إلا له . ولا يرجو إلا إياه ، ولا يستعين إلا به . فيكون دينه كله ظاهراً وباطناً لله . ويكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما . فلا يُوادُّ من حَادّ الله وسولَه . ولو كان أقرب الخلق إليه ، بل : يعادى الذى عادى من الناس كلهم جميعاً . ولوكان الحبيب المصافيا

وحقيقة ذلك : فناؤه عن هوى نفسه وحظوظها بمراضى ربه وحقوقه .

والجامع لهذا كله : تحقيق شهادة أن لاإله إلا الله علماً ومعرفة ، وعملاً وحالا وقصداً .

وحقيقة هذا النفى والإثبات الذى تضمنته هذه الشهادة : هو الفناء والبقاء ، فيفنى عن تأليه ماسواه علماً وإقراراً وتعبداً . ويبقى بتألهيه وحده .

= الاصطلاحات التى مهما حاول أمثال الشيخ ابن القيم — رحمه الله وغفر لنا وله — تأويلها فلن تحول عن وضعها التى وضعها عليه مصطلحوها . ولاتفهم إلا على مقصودهم وعرفهم لصراحتها .

فهذا الفناء وهذا البقاء هو حقيقة التوحد الذى عليه المرسلون ، وأنزلت به الكتب . وخلقت لأجله الخليقة ، وشرعت له الشرائع ، وقام عليه سوق الجنة . وأسس عليه الخلق والأمر .

وحقيقته أيضا : البراء والولاء ، البراء من عبادة غير الله ، والولاء لله ، كما قال تعالى (٦٠:٤ قد كانت لكم أُسْوَة حَسَنة فى إبراهيم والذين معه ، إذ قالوا لقومهم: إنا بُرآء منكم ومما تَعبُدون من دون الله كفرنا بكم . و بَدَا بيننا و بينكم العداوةُ والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده) وقال (٤٣ : ٢٦ ، ٢٧ و إذ قال إبراهيم لأبيه وقومِهِ : إننى بَراء مما تعبدون * إلا الذى فَطَرَنى ، فإنه سيهدين) وقال أيضاً (٦ : ٧٨ ، ٧٩ ياقوم إنى برىء مما تشركون * إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا مسلما) وقال الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم (قل يا أيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون) إلى آخرها . وهذه براءة منهم ومن معبودهم[1] وسماها براءة من الشرك .

وهى حقيقة المحوِ والإثبات . فيمحو محبة ماسوى الله عز وجل من قلبه ، علماً وقصداً وعبادة ، كما هى مَمْحوّة من الوجود . و يثبت فيه إلٰهيته سبحانه وحده.

وهى حقيقة الجمع والفرق . فيفرق بين الإلٰه الحق و بين من ادُّعِيَتْ له الإلٰهية بالباطل . و يجمع تأليهه وعبادته وحبه وخوفه ورجاءه وتوكله واستعانته على إلٰهه الحق الذى لا إلٰه سواه .

وهى حقيقة التجريد والتفريد . فيتجرد عن عبادة ماسواه ، و يفرده وحده بالعبادة . فالتجريد نفى ، والتفريد إثبات . ومجموعهما هو التوحيد .

فهذا الفناء والبقاء . والولاء والبراء . والمحو والإثبات ، والجمع والتجريد .

---

(١) وهى كذلك براءة من عبادتهم . لأنها عبادة مبتدعة بالهوى ، لا بما أحب الله وشرع وأذن .

والتفريد المتعلق بتوحيد الإلٰهية : هو النافع المثمر . المنجى . الذى به تنال السعادة والفلاح .

وأما تعلقه بتوحيد الربوبية ـ الذى أقرّ به المشركون عُبّاد الأصنام ـ فغايته فناء فى تحقيق توحيد مشترك بين المؤمنين والكفار . وأولياء الله وأعدائه . لا يصير به وحده الرجل مسلماً . فضلاً عن كونه عارفاً محققاً .

وهذا الموضع مما غلط فيه كثير من أكابر الشيوخ ، وأصحاب الإرادة ممن غَلُظ حجابه . والمعصوم من عصمه الله . وبالله المستعان . والتوفيق والعصمة .

فصــل

فلنرجع إلى ذكر منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » التى لا يكون العبد من أهلها حتى ينزل منازلها .

فذكرنا منها « اليقظة » و « البصيرة » و « الفكرة » و « العزم » .

وهذه المنازل الأربعة لسائر المنازل كالأساس للبنيان ، وعليها مدار منازل السفر إلى الله . ولا يتصور السفر إليه بدون نزولها ألبتة . وهى على ترتيب السير الحسى . فإن المقيم فى وطنه لايتأتي منه السفر حتى يستيقظ من غفلته عن السفر . ثم يتبصر فى أمر سفره وخَطَره ، وما فيه من المنفعة له والمصلحة . ثم يفكر فى أهبة السفر والتزود وإعداد عدته . ثم يعزم عليه . فإذا عزم عليه وأجمع قصده انتقل إلى منزلة « المحاسبة » وهى « التمييز » بين ماله وعليه . فيستصحب مالَهُ . ويؤدى ماعليه . لأنه مسافر سَفَرَ من لا يعود .

ومن منزلة « المحاسبة » يصح له نزول منزلة « التوبة » لأنه إذا حاسب نفسه ، عرف ماعليه من الحق ، فخرج منه ، وتنصل منه إلى صاحبه . وهى حقيقة « التوبة » فكان تقديم « المحاسبة » عليها لذلك أولى .

ولتأخيرها عنها وجه أيضاً . وهو أن « المحاسبة » لا تكون إلا بعد تصحيح التوبة .

والتحقيق : أن التوبة بين محاسبتين . محاسبة قبلها ، تقتضى وجوبها . ومحاسبة بعدها ، تقتضى حفظها . فالتوبة محفوفة بمحاسبتين . وقد دل على المحاسبة قوله تعالى (٥٩ : ١٨ يا أيها الذين آمنوا اتَّقُوا الله ، ولْتَنْظُرْ نفسٌ ماقَدَّمت لغدٍ) فأمر سبحانه العبد أن ينظر ماقدم لغد . وذلك يتضمن محاسبة نفسه على ذلك ، والنظر : هل يصلح ماقدمه أن يلقى الله به أو لا يصلح ؟ .

والمقصود من هذا النظر : مايوجبه ويقتضيه . من كمال الاستعداد ليوم المعاد . وتقديم ماينجيه من عذاب الله ، ويبيض وجهه عند الله . وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه « حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسَبوا . وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا ، وتزينوا للعرض الأكبر » (٦٩:١٨ يومئذ تعرضون لا تَخْفَى منكم خافية) أو قال « على من لاتخفى عليه أعمالكم » .

* * *

قال صاحب المنازل « المحاسبة لها ثلاثة أركان :

أحدها : أن تقايس بين نعمته وجنايتك » .

يعنى تقايس بين مامِنَ الله وما منك . فحينئذ يظهر لك التفاوت . وتعلم أنه ليس إلا عفوه ورحمته ، أو الهلاك والعطَب .

وبهذه المقايسة تعلم أن الرب رب والعبد عبد . ويتبين لك حقيقة النفس وصفاتها ، وعظمة جلال الربوبية ، وتفرد الرب بالكمال والإفضال . وأن كل نعمة منه فضل . وكل نقمة منه عدل . وأنت قبل هذه المقايسة جاهل بحقيقة نفسك ، وبربوبية فاطرها وخالقها . فإذا قايست ظهر لك أنها منبع كل شر ، وأساس كل نقص . وأن حَدَّها : الجاهلة الظالمة ، وأنه لولا فضل الله ورحمته بتزكيته لها مازَكَتْ أبدا . ولولا هداه ما اهتدت . ولولا إرشاده وتوفقه لما كان لها وصول إلى خير ألبتة . وأن حصول ذلك لها من بارئها وفاطرها . وتوقفه عليه كتوقف وجودها على إيجاده . فكما أنها ليس لها من ذاتها وجود . فكذلك ليس لها

من ذاتها كمال الوجود . فليس لها من ذاتها إلا العدم - عدم الذات ، وعدم الكمال - فهناك تقول حقا « أبُوء لك بنعمتك علىَّ وأبوء بذنبى » .

ثم تقايس بين الحسنات والسيئات . فتعلم بهذه المقايسة : أيهما أكثر وأرجح قدرًا وصفة .

وهذه المقايسة الثانية مقايسة بين أفعالك وما منك خاصة .

* * *

قال « وهذه المقايسة تشق على من ليس له ثلاثة أشياء : نور الحكمة ، وسوء الظن بالنفس ، وتمييز النعمة من الفتنة » .

يعنى أن هذه المقايسة والمحاسبة تتوقف على نور الحكمة . وهو النور الذى نَوَّر الله به قلوب أتباع الرسل . وهو نور الحكمة . فبقدره ترى التفاوت . وتتمكن من المحاسبة .

ونور الحكمة هُهنا : هو العلم الذى يميز به العبد بين الحق والباطل ، والهدى والضلال . والضار والنافع . والكامل والناقص . والخير والشر . و يبصر به مراتب الأعمال ، راجحها ومرجوحها ، ومقبولها ومردودها . وكلما كان حظه من هذا النور أقوى ، كان حظه من المحاسبة أكمل وأتم .

وأما سوء الظن بالنفس : فإنما احتاج إليه لأن حسن الظن بالنفس يمنع من كمال التفتيش . ويُلَبِّس عليه . فيرى المساوىء محاسن ، والعيوب كمالا . فإن المحب يرى مساوىء محبوبه وعيوبه كذلك .

فعين الرضى عن كل عيب كَليلة كما أن عين السُّخْط تُبدى المساويا

ولا يسيء الظن بنفسه إلا من عرفها . ومن أحسنَ ظنه بنفسه فهو من أجهل الناس بنفسه .

وأما تمييز النعمة من الفتنة : فليفرق بين النعمة التى يرى بها الإحسان واللطف ، ويعانَ بها على تحصيل سعادته الأبدية . و بين النعمة التى يرى بها الاستدراج ، فكم

من مُسْتَدْرَج بالنعم وهو لا يشعر ، مفتون بثناء الجهال عليه ، مغرور بقضاء الله حوائجه وستره عليه ! وأكثر الخلق عندهم : أن هذه الثلاثة علامة السعادة والنجاح . ذلك مبلغهم من العلم .

فإذا كملت هذه الثلاثة فيه عرف حينئذ أن ما كان من نعم الله عليه بجمعه على الله فهو نعمة حقيقة . وما فرقه عنه وأخذه منه فهو البلاء فى صورة النعمة ، والمحنة فى صورة المنحة . فليحذر فإنما هو مستدرج . و يميز بذلك أيضاً بين المنة والحجة . فكم تلتبس إحداهما عليه بالأخرى ! .

فإن العبد بين منة من الله عليه ، وحجة منه عليه . ولا ينفكُّ عنهما . فالحكم الدينى متضمن لمنته وحجته . قال الله تعالى (٣ : ١٦٤ لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم) وقال (٤٩ : ١٧ بل الله يَمُنُّ عليكم أن هداكم للإيمان) وقال (٦ : ١٤٩ فلله الحجة البالغة) .

والحكم الكونى أيضاً متضمن لمنته وحجته . فإذا حكم له كوناً حكماً مصحوباً باتصال الحكم الدينى به فهو مِنَّة عليه . و إن لم يصحبه الدينى فهو حجة منه عليه .

وكذلك حكمه الدينى إذا اتصل به حكمه الكونى . فتوفيقه للقيام به منة منه عليه . و إن تجرد عن حكمه الكونى صار حجة منه عليه . فالمنة : باقتران أحد الحكمين بصاحبه . والحجة : فى تجرد أحدهما عن الآخر . فكل علم صحبه عمل يرضى الله سبحانه فهو منة . و إلا فهو حجة .

وكل قوة ظاهرة و باطنة صحبها تنفيذ لمرضاته وأوامره فهى منة . و إلا فهى حجة
وكل حال صحبه تأثير فى نصرة دينه ، والدعوة إليه فهو منة منه . و إلا فهو حجة
وكل مال اقترن به إنفاق فى سبيل الله وطاعته ، لا لطلب الجزاء ولا الشكور ، فهو منة من الله عليه . و إلا فهو حجة .

وكل فراغ اقترن به اشتغال بما يريد الرب من عبده فهو منة عليه ، وإلا فهو حجة .

وكل قبول فى الناس ، وتعظيم ومحبة له ، اتصل به خضوع للرب ، وذل وانكسار ، ومعرفة بعيب النفس والعمل ، و بذل النصيحة للخلق فهو منة ، وإلا فهو حجة .

وكل بصيرة وموعظة ، وتذكير وتعريف من تعريفات الحق سبحانه إلى العبد ، اتصل به عبرة ومزيد فى العقل ، ومعرفة فى الإيمان فهى منة ، وإلا فهى حجة .

وكل حال مع الله تعالى ، أو مقام اتصل به السير إلى الله ، و إيثار مراده على مراد العبد . فهو منة من الله . و إن صحبه الوقوف عنده والرضى به ، و إيثار مقتضاه ، من لذة النفس به وطمأنينتها إليه ، وركونها إليه ، فهو حجة من الله عليه .

فليتأمل العبد هـذا الموضع العظيم الخطر . و يميز بين مواقع المنن والمحن . والحجج والنعم . فما أكثر مايلتبس ذلك على خواص الناس وأرباب السلوك . (٢ : ٢١٣ والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) .

فصل

الركن الثانى من أركان المحاسبة .

وهى أن تميز ماللحق عليك من وجوب العبودية ، والتزام الطاعة ، واجتناب المعصية . و بين ما لك وما عليك . فالذى لك : هو المباح الشرعى . فعليك حق . ولك حق . فأدِّ ماعليك يؤتك ما لك .

ولا بد من التمييز بين ما لك وما عليك . وإعطاء كل ذى حق حقه

وكثير من الناس يجعل كثيراً مما عليه من الحق من قسم ماله . فيتحير بين فعله وتركه ، و إن فعله رأى أنه فضل قام به لاحق أداه .

و بإزاء هؤلاء من يرى كثيراً مما له فعله وتركه من قسم ماعليه فعله أو تركه .

فيتعبد بترك ما له فعله ، كترك كثير من المباحات . و يظن ذلك حقاً عليه . أو يتعبد بفعل ما له تركه و يظن ذلك حقاً عليه .

مثال الأول : من يتعبد بترك النكاح ، أو ترك أكل اللحم ، أو الفاكهة مثلا ، أو الطيبات من المطاعم والملابس . ويرى — بجهله — أن ذلك مما عليه . فيوجب على نفسه تركه . أو يرى تركه من أفضل القرب ، وأجل الطاعات . وقد أنكر النبي صلى الله عليه وسلم على من زعم ذلك ، فى الصحيح « أن نفراً من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم سألوا عن عبادته فى السر ؟ فكأنهم تقالُّوها . فقال أحدهم : أما أنا فلا آكل اللحم . وقال الآخر : أما أنا فلا أتزوج النساء . وقال الآخر : أما أنا فلا أنام على فراش . فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم مقالتهم . فخطب ، وقال : مابال أقوام يقول أحدهم : أما أنا فلا آكل اللحم . و يقول الآخر : أما أنا فلا أتزوج ويقول الآخر : أما أنا فلا أنام على فراش ؟ لكني أتزوج النساء ، وآكل اللحم . وأنام وأقوم . وأصوم وأفطر . فمن رغب عن سنتي فليس مني » فتبرأ ممن رغب عن سنته ، وتعبد لله بترك ما أباحه لعباده من الطيبات ، رغبة عنه ، واعتقاداً أن الرغبة عنه وهجره عبادة . فهذا لم يميز بين ما عليه وما له .

ومثال الثانى : من يتعبد بالعبادات البدعية التى يظنها جالبة للحال ، والكشف والتصرف . ولهذه الأمور لوازم لاتحصل بدونها ألبتة . فيتعبد بالتزام تلك اللوازم فعلا وتركا . و يراها حقاً عليه . وهى حق له ، وله تركها . كفعل الرياضات ، والأوضاع التى رسمها كثير من السالكين بأذواقهم ومواجيدهم واصطلاحاتهم ، من غير تمييز بين مافيها من حظ العبد والحق الذى عليه . فهذا لون وهذا لون .

* * *

ومن أركان المحاسبة : ماذكره صاحب المنازل ، فقال :

« الثالث أن تعرف أن كل طاعة رضيتَها منك فهى عليك . وكل معصية عَيَّرت بها أخاك فهى إليك » .

رضاء العبد بطاعته دليل على حسن ظنه بنفسه . وجهله بحقوق العبودية . وعدم عمله بما يستحقه الرب جل جلاله و يليق أن يعامل به .

وحاصل ذلك : أن جهله بنفسه وصفاتها وآفاتها وعيوب عمله ، وجهله بربه وحقوقه وما ينبغى أن يعامل به ، يتولد منهما رضاه بطاعته ، و إحسان ظنه بها . و يتولد من ذلك : من العجب والكبر والآفات ماهو أكبر من الكبائر الظاهرة من الزنا ، وشرب الخمر ، والفرار من الزحف ونحوها .

فالرضا بالطاعة من رعونات النفس وحماقتها .

وأرباب العزائم والبصائر أشد مايكونون استغفاراً عقيب الطاعات ، لشهودهم تقصيرهم فيها ، وترك القيام لله بها كما يليق بجلاله وكبريائه. وأنه لولا الأمر لما أقدم أحدهم على مثل هذه العبودية ، ولا رضيها لسيده .

وقد أمر الله تعالى وفده وحجاج بيته بأن يستغفروه عقيب إفاضتهم من عرفات . وهو أجل المواقف وأفضلها . فقال (٢ : ١٩٨ ، ١٩٩ فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام . واذكروه كما هداكم . و إن كنتم من قبله لمن الضالين . ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس . واستغفروا الله ، إن الله غفور رحيم) وقال تعالى (٣ : ١٧ والمستغفرين بالأسحار) قال الحسن : مدوا الصلاة إلى السحر . ثم جلسوا يستغفرون الله عز وجل . وفى الصحيح « أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا سلم من الصلاة استغفر ثلاثاً . ثم قال : اللهم أنت السلام . ومنك السلام . تباركت ياذا الجلال والإكرام » وأمره الله تعالى بالاستغفار بعد أداء الرسالة ، والقيام بما عليه من أعبائها ، وقضاء فرض الحج ، واقتراب أجله . فقال فى آخر سورة أنزلت عليه (إذا جاء نصر الله والفتح . ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا * فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً) .

ومن هٰهنا فَهِم عُمر وابن عباس ـ رضى الله عنهم ـ أن هذا أجلُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه به ، فأمره أن يستغفره عقيب أداء ما كان عليه . فكأنه إعلام بأنك قد أديت ما عليك ، ولم يبق عليك شيء . فاجعل خاتمته الاستغفار ، كما كان خاتمة الصلاة والحج وقيام الليل . وخاتمة الوضوء أيضاً أن يقول بعد فراغه « سبحانك اللهم وبحمدك . أشهد أن لاإله إلا أنت . أستغفرك وأتوب إليك ، اللهم اجعلني من التوابين . واجعلني من المتطهرين » .

فهذا شأن من عرف ماينبغي لله ، ويليق بجلاله من حقوق العبودية وشرائطها . لاَجَهْلُ أصحاب الدعاوى وشطحاتهم .

وقال بعض العارفين : متى رضيتَ نفسك وعملك لله ، فاعلم أنه غير راض به . ومن عرف أن نفسه مأوى كل عيب وشر ، وعمله عُرضة لكل آفة ونقص ، كيف يرضى لله نفسه وعمله ؟ .

ولله در الشيخ أبى مدين حيث يقول : من تحقق بالعبودية نظر أفعاله بعين الرياء ، وأحواله بعين الدعوى ، وأقواله بعين الافتراء . وكلما عظم المطلوب فى قلبك ، صغرت نفسك عندك ، وتضاءلت القيمة التى تبذلها فى تحصيله . وكلما شهدت حقيقة الربوبية وحقيقة العبودية ، وعرفت الله ، وعرفت النفس ، وتبين لك أن مامعك من البضاعة لايصلح للملك الحق ، ولو جئت بعمل الثقلين خشيت عاقبته وإنما يقبله بكرمه وجوده وتفضله . ويثيبك عليه أيضاً بكرمه وجوده وتفضله

فصل

وقوله « وكل معصية عَيَّرت بها أخاك فهى إليك » .

يحتمل أن يريد به : أنها صائرة إليك ولابد أن تعملها . وهذا مأخوذ من الحديث الذى رواه الترمذى فى جامعه عن النبى صلى الله عليه وسلم « من عَيَّرَ أخاه بذنب لم يمتْ حتى يعمله » قال الإمام أحمد ، فى تفسير هذا الحديث : من ذنب قد تاب منه .

وأيضاً : فى التعيير ضرب خفى من الشماتة بالمعيَّر . وفى الترمذى أيضاً مرفوعاً « لا تُظْهِرِ الشماتةَ لأخيك ، فيرحمه الله و يبتليك » .

و يحتمل أن يريد : أن تعييرك لأخيك بذنبه أعظم إثماً من ذنبه . وأشد من معصيته . لما فيه من صَولة الطاعة ، وتزكية النفس ، وشكرها ، والمناداة عليها بالبراءة من الذنب . وأن أخاك باء به . ولعل كَسْرَته بذنبه . وما أحدث له من الذلَّة والخضوع ، والإزراء على نفسه ، والتخلص من مرض الدعوى ، والكبر والعجب ، ووقوفه بين يدى الله نا كسَ الرأس ، خاشع الطرف ، منكسر القلب : أنفعُ له ، وخير من صولة طاعتك ، وَتَكَثُّرِكَ بها والاعتداد بها ، والمنَّة على الله وخلقِه بها . فما أقرب هذا العاصى من رحمة الله ! وما أقرب هذا المُدِلّ من مَقْتِ الله . فذنبٌ تذل به لديه ، أحب إليه من طاعة تُدِل بها عليه . و إنك أن تبيت نائماً وتصبح نادماً ، خير من أن تبيت قائماً وتصبح معجباً ، فإن المعجب لا يصعد له عمل . و إنك أن تضحك وأنت معترف ، خير من أن تبكى وأنت مُدلّ . وأنين المذنبين ، أحب إلى الله من زَجَل المسبحين المدلّين ، ولعل الله أسقاه بهذا الذنب دواءً استخرج به داءً قاتلاً هو فيك ولا تشعر .

فلله فى أهل طاعته ومعصيته أسرار لايعلمها إلا هو . ولا يطالعها إلا أهل البصائر . فيعرفون منها بقدر ماتناله معارف البشر ، ووراء ذلك مالا يَطَّلع عليه الكرام الكاتبون . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « إذا زنت أمة أحدكم ، فَلْيُقِمْ عليها الحدَّ وَلاَ يُثَرِّبْ » أى لايعير ، من قول يوسف عليه السلام لإخوته (١٢ : ٩٢ لا تثريب عليكم اليوم) فإن الميزان بيد الله . والحكم لله . فالسوط الذى ضُرِبَ به هذا العاصى بيد مُقَلِّب القلوب . والقصد إقامة الحد لا التعيير والتثريب . ولا يأمن كَرَّات القدر وسطوته إلا أهل الجهل بالله . وقد قال الله تعالى لأعلم الخلق به ، وأقربهم إليه وسيلة (١٧ : ٧٤ ولولا أن ثَبَّتْنَاكَ لقد كِدْتَ تَرْكَنُ إليهم شيئاً قليلاً) وقال يوسف الصديق (١٢ : ٣٣ وَإِلاَّ تَصْرِفْ

عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِين) وكانت عامة يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاَ وَمُقَلِّبِ القلوب » وقال « مامن قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن عز وجل . إن شاء أن يقيمه أقامه ، وإن شاء أن يُزِيغه أزاغَه » ثم قال « اللهم مقلبَ القلوب ثَبِّتْ قلوبنَا عَلَى دينك ، اللهم مُصَرِّفَ القلوب صرف قلوبنا على طاعتك » .

فصل

فإذا صح هذا المقام ، ونزل العبد فى هذه المنزلة ، أشرف منها على مقام « التوبة » لأنه بالمحاسبة قد تميز عنده ماله مما عليه . فليجمع همته وعزمه على النزول فيه والتشمير إليه إلى الممات .

ومنزل « التوبة » أول المنازل ، وأوسطها ، وآخرها . فلا يفارقه العبد السالك ، ولايزال فيه إلى الممات . وإن ارتحل إلى منزل آخر ارتحل به . واستصحبه معه ونزل به . فالتوبة هى بداية العبد ونهايته . وحاجته إليها فى النهاية ضرورية . كما أن حاجته إليها فى البداية كذلك . وقد قال الله تعالى (٢٤ : ٣١ وتوبوا إلى الله جميعاً أَيُّهَا المؤمنون لعلكم تفلحون) وهذه الآية فى سورة مدنية ، خاطب الله بها أهل الإيمان وخيار خلقه أن يتوبوا إليه ، بعد إيمانهم وصبرهم ، وهجرتهم وجهادهم . ثم علق الفلاح بالتوبة تعليق المسبب بسببه . وأتى بأداة « لعلَّ » المشعرة بالترجى ، إيذاناً بأنكم إذا تُبْتُمْ كنتم على رجاء الفلاح . فلا يرجو الفلاح إلا التائبون . جعلنا الله منهم .

قال تعالى (٤٩ : ١١ ومن لم يتب فأُولئك هم الظالمون) قسم العباد إلى تائب وظالم ، وما ثَمَّ قِسم ثالث ألبتة . وأوقع اسم « الظالم » على من لم يَتُبْ . ولا أظلم منه ، لجهله بربه وبحقه ، وبعيب نفسه وآفات أعماله . وفى الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « ياأيها الناس، توبوا إلى الله ، فوالله إنى لأتوب إليه فى اليوم أكثر من سبعين مرة » وكان أصحابه يَعُدُّونَ له فى المجلس الواحد قبل أن يقوم « رب

اغفر لى وتب عَلَىَّ إنك أنت التواب الغفور ، مائة مرة » وماصلى صلاة قط بعد إذ أنزلت عايه (إذا جاء نصر الله والفتح) إلى آخرها . إلا قال فيها « سبحانك اللهم ربنا و بحمدك . اللهم اغفر لى » وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « لن يُنْجِيَ أحداً منكم عمله . قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل » .

فصلوات الله وسلامه على أعلم الخلق بالله وحقوقه ، وعظمته وما يستحقه جلاله من العبودية ، وأعرفهم بالعبودية وحقوقها وأقومهم بها .

فصل

ولما كانت « التو بة » هى رجوع العبد إلى الله ، ومفارقته لصراط المغضوب عليهم والضالين ، وذلك لايحصل إلا بهداية الله إلى الصراط المستقيم . ولا تحصل هدايته إلا بإعانته وتوحيده ، فقد انتظمتها سورة الفاتحة أحسن انتظام ، وتضمنتها أبلغ تضمن . فمن أعطى الفاتحة حقها ــ علماً وشهوداً وحالا معرفة ــ علم أنه لا تصح له قراءتها على العبودية إلا بالتو بة النَّصوح . فإن الهداية التامة إلى الصراط المستقيم لا تكون مع الجهل بالذنوب ، ولا مع الإصرار عليها . فإن الأول جهل ينافى معرفة الهدى ، والثانى غَيٌّ ينافى قصده و إرادته . فلذلك لا تصح التو بة إلا بعد معرفة الذنب ، والاعتراف به ، وطلب التخلص من سوء عواقبه أولا وآخرا .

* * *

قال فى المنازل « وهى أن تنظر فى الذنب إلى ثلاثة أشياء : إلى انخلاعك من العصمة حين إتيانه ، وفرحك عند الظفر به ، وقعودك على الإصرار عن تداركه ، مع تيقنك نظر الحق إليك » .

يحتمل أن يريد بالانخلاع عن العصمة : انخلاعه عن اعتصامه بالله . فإنه لو اعتصم بالله لما خرج عن هداية الطاعة . قال الله تعالى (٣ : ١٠١ ومن يعتصم بالله فقد هُدِيَ إلى صراط مستقيم) فلو كملت عصمته بالله لم يخذله أبداً . قال الله تعالى

(٢٢ : ٧٨ واعتصموا بالله هو مولاكم . فنعم المولى ونعم النصير) أى متى اعتصمتم به تولاكم . ونصركم على أنفسكم وعلى الشيطان . وهما العدوان اللذان لا يفارقان العبد . وعداوتهما أضر من عداوة العدو الخارج . فالنصر على هذا العدوّ أهم ، والعبد إليه أحوج . وكمال النصرة على العدو بحسب كمال الاعتصام بالله .

وسيأتى الكلام إن شاء الله تعالى بعد هذا فى حقيقة « الاعتصام » وأن الإيمان لا يقوم إلا به .

ويحتمل أن يريد الانخلاع من عصمة الله له . وأنك إنما ارتكبت الذنب بعد انخلاعك من توبة عصمته لك . فمتى عرف هـذا الانخلاع وعظم خَطَره عنده . واشتدت عليه مفارقته . وعلم أن الهُلْك كل الهلك بُعْده . وهو حقيقة الخذلان . فما خَلَّى الله بينك وبين الذنب إلا بعد أن خذلك ، وخلى بينك وبين نفسك . ولو عصمك ووفقك لما وجد الذنبُ إليك سبيلا .

فقد أجمع العارفون بالله على أن الخذلان : أن يَكِلَكَ الله إلى نفسك ، ويخلى بينك وبينها . والتوفيق : أن لا يكلك الله إلى نفسك . وله سبحانه فى هذه التخلية ـ بينك وبين الذنب وخُذلانك حتى واقعتَه ـ حِكَمٌ وأسرار . سنذكر بعضها .

وعلى الاحتمالين فترجع « التوبة » إلى اعتصامك به وعصمته لك .

قوله « وفرحك عند الظفر به » .

الفرح بالمعصية دليل على شدة الرغبة فيها ، والجهل بقدر من عصاه ، والجهل بسوء عاقبتها وعظم خطرها . ففرحه بها غطَّى عليه ذلك كله . وفرحه بها أشد ضرراً عليه من مواقعتها . والمؤمن لا تتم له لذة بمعصية أبدا . ولا يكمل بها فرحه . بل لا يباشرها إلا والحزن مخالط لقلبه ، ولكن سُكر الشهوة يَحجبه عن الشعور به . ومتى خَلِيَ قلبه من هذا الحزن . واشتدت غِبطته وسروره ، فليَتَّهِم إيمانَه . وليَبْكِ على موت قلبه ، فإنه لو كان حياً لأحزنه ارتكابه للذنب ، وغاظه وصعب عليه ، ولا يحس القلب بذلك ، فحيث لم يُحِسَّ به فما لُجرح بميت إيلام .

وهذه النكتة فى الذنب قل من يهتدى إليها أو ينتبه لها . وهى موضع مَخوف جدًّا ، مترامٍ إلى هلاك إن لم يُتدارك بثلاثة أشياء : خوف من الموافاة عليه قبل التوبة . وندم على مافاته من الله بمخالفة أمره ، وتشمير للجد فى استدراكه .

قوله « وقعودك على الإصرار عن تداركه » .

الإصرار : هو الاستقرار على المخالفة . والعزم على المعاودة . وذلك ذنب آخر ، لعله أعظم من الذنب الأول بكثير . وهـذا من عقوبة الذنب : أنه يوجب ذنباً أكبر منه . ثم الثانى كذلك . ثم الثالث كذلك ، حتى يستحكم الهلاك .

فالإصرار على المعصية معصية أخرى . والقعود عن تدارك الفارط من المعصية إصرار ورضا بها ، وطمأنينة إليها . وذلك علامة الهلاك . وأشد من هذا كله : المجاهرة بالذنب ، مع تيقن نظر الرب جل جلاله من فوق عرشه إليه . فإن آمن بنظره إليه وأقدم على المجاهرة فعظيم . وإن لم يؤمن بنظره إليه واطلاعه عليـه فـكفر ، وانسلاخ من الإسلام بالكلية . فهو دائر بين الأمرين : بين قلة الحياء ، ومجاهرة نظر الله إليه ، وبين الـكفر والانسلاخ من الدين . فلذلك يشـترط فى صحة التوبة تيقنه أن الله كان ناظرًا ــ ولا يزال ــ إليه مطلعاً عليه . يراه جَهْرة عند مواقعة الذنب . لأن التوبة لا تصح إلاَّ من مسلم ، إلا أن يكون كافرًا بنظر الله إليه جاحدًا له . فتوبته دخوله فى الإسلام ، وإقراره بصفات الرب جل جلاله[1] .

* * *

(١) حقيقة التوبة : الرجوع إلى الله . ولا يصح الرجوع ويتم إلا بمعرفة الرب بأسمائه وصفاته وآثارها فى نفسه وفى الآفاق . ومعرفة أنه كان فاراً من ربه ، أسيراً فى قبضة عدوه . وأنه ما وقع فى مخالب عدوه إلا بسبب جهله بربه ، وجرأته عليه . فلا بد أن يعرف كيف جهل ؟ ومتى جهل ؟ وكيف وقع أسيراً ، ومتى وقع ؟ ويؤمن أن التوبة إنما هى عملية شاقة بمجهود كبير ، ويقظة تامة للتخلص من العدو والرجوع والفرار إلى الله ربه الرحمن الرحيم ، والعود من طريق الهلاك الذى أخذه عدوه إليه ، ومعرفة مقدار الخطوات التى بعد بها عن ربه ، والمجهود والعقبات التى لا بد من الحرص على اقتحامها للعود إلى صراط الله المستقيم .

قال « وشرائط التوبة ثلاثة : الندم . والإقلاع . والاعتذار » .

فحقيقة التوبة : هى الندم على ما سلف منه فى الماضى . والإقلاع عنه فى الحال . والعزم على أن لا يعاوده فى المستقبل .

والثلاثة تجتمع فى الوقت الذى تقع فيه التوبة . فإنه فى ذلك الوقت يندم ، ويقلع ، ويعزم .

فحينئذ يرجع إلى العبودية التى خلق لها . وهذا الرجوع هو حقيقة التوبة .

ولما كان متوقفاً على تلك الثلاثة جعلت شرائط له .

فأما الندم : فإنه لا تتحقق التوبة إلا به ، إذ من لم يندم على القبيح فذلك دليل على رضاه به ، وإصراره عليه . وفى المسند « الندم توبة » .

وأما الإقلاع : فتستحيل التوبة مع مباشرة الذنب .

وأما الاعتذار : ففيه إشكال . فإن من الناس من يقول : من تمام التوبة ترك الاعتذار . فإن الاعتذار محاجة عن الجناية . وترك الاعتذار اعتراف بها ، ولا تصح التوبة إلا بعد الاعتراف . وفى ذلك يقول بعض الشعراء لرئيسه ، وقد عتب عليه فى شىء :

وما قابلتُ عَتْبك باعتذار ولكنى أقول كما تقول
وأطْرُق باب عفوك بانكسار ويحكم بيننا الْخُلُق الجميل

فلما سمع الرئيس مقالته قام وركب إليه من فوره . وأزال عَتْبه عليه . فتمام الاعتراف : ترك الاعتذار ، بأن يكون فى قلبه ولسانه : اللهم لا براءة لى من ذنب فأعتذر ، ولا قوة لى فأنتصر ، ولكنى مذنب مستغفر . اللهم لا عذر لى . وإنما هو محض حقك ، ومحض جنايتى . فإن عفوت وإلا فالحق لك .

والذى ظهر لى من كلام صاحب المنازل : أنه أراد بالاعتذار إظهار الضعف والمسكنة ، وغلبة العدو . وقوة سلطان النفس ، وأنه لم يكن منى ما كان عن استهانة بحقك ، ولا جهلاً به ، ولا إنكارًا لاطلاعك ، ولا استهانة بوعيدك . وإنما كان

من غلبة الهوى ، وضعف القوة عن مقاومة مرض الشهوة ، وطمعاً فى مغفرتك واتكالاً على عفوك ، وحسن ظنٍّ بك ، ورجاء لكرمك ، وطمعاً فى سَعة حلمك ورحمتك . وغَرَّنى بك الغَرور ، والنفسُ الأمّارة بالسوء ، وسترك المرخِىُّ علىّ ، وأعاننى جهلى ، ولا سبيل إلى الاعتصام لى إلا بك . ولا معونة على طاعتك إلا بتوفيقك . ونحو هذا من الكلام المتضمن للاستعطاف والتذلل والافتقار ، والاعتراف بالعجز ، والإقرار بالعبودية .

فهذا من تمام التوبة . وإنما يسلكه الأكياس المتملقون لربهم عز وجل ، والله يحب من عبده أن يتملق له .

وفى الحديث « تملقوا لله » وفى الصحيح « لا أحدٌ أحبَّ إليه العذر من الله» وإن كان معنى ذلك الإعذار . كما قال فى آخر الحديث « من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين » وقال تعالى (٧٧ : ٥ ، ٦ فالملقيات ذِكرا عُذرا أو نُذْرا) فإنه من تمام عدله وإحسانه : أن أعذر إلى عباده . وأن لا يؤاخذ ظالمهم إلا بعد كمال الإعذار وإقامة الحجة عليه . فهو أيضاً يحب من عبده أن يعتذر إليه . ويتنصل إليه من ذنبه . وفى الحديث « من اعتذر إلى الله قبل الله عذره » فهذا هو الاعتذار المحمود النافع .

وأما الاعتذار بالقدر : فهو مخاصمة لله ، واحتجاج من العبد على الرب ، وحمل لذنبه على الأقدار . وهذا فعل خصماء الله . كما قال بعض شيوخهم فى قوله تعالى (٣ : ١٤ زُيِّنَ للناس حبُّ الشهواتِ من النساء والبنين والقناطير المُقَنْطَرَة من الذهب والفضة) قال : أتدرون ما المراد بهذه الآية ؟ قالوا : ما المراد بها ؟ قال : إقامة أعذار الخليفة .

وكذب هذا الجاهل بالله وكلامه . وإنما المراد بها : التزهيد فى هذا الفانى الذاهب ، والترغيب فى الباقى الدائم ، والإزراء بمن آثر هذا المزيَّن واتبعه ، بمنزلة الصبى الذى يزين له مايلعب به . فيهش إليه ويتحرك له ، مع أنه لم يذكر فاعل

التزيين ، فلم يقل « زَيَّنَّا للناس » والله تعالى يضيف تزيين الدنيا والمعاصى إلى الشياطين ، كما قال تعالى (٦ : ٤٣ وَزَيَّنَ لهم الشيطانُ ما كانوا يعملون) وقال (٦ : ١٣٧ وكذلك زَيَّنَ لكثير من المشركين قتلَ أولادهم شركاؤهم) وفى الحديث « بعثت هادياً وداعياً ، وليس إلىَّ من الهداية شىء ، وبعث إبليس مُغْوياً ومزيناً . وليس إليه من الضلالة شىء » ولا يناقض هذا قوله تعالى (٦ : ١٠٨ كذلك زينا لكل أمة عملهم) فإن إضافة التزيين إليه قضاء وقدراً ، وإلى الشيطان تسبباً ، مع أن تزيينه تعالى عقوبة لهم على ركونهم إلى ما زَيَّنَه الشيطان لهم . فمن عقوبة السيئة : السيئة بعدها ، ومن ثواب الحسنة : الحسنة بعدها.

والمقصود : أن الاحتجاج بالقدر مناف للتوبة . وليس هو من الاعتذار فى شىء . وفى بعض الآثار « إن العبد إذا أذنب . فقال : يارب ، هذا قضاؤك . وأنت قدّرت علىّ . وأنت حكمت علىّ . وأنت كتبت علىّ . يقول الله عز وجل : وأنت عملت ، وأنت كسبت . وأنت أردت واجتهدت . وأنا أعاقبك عليه . وإذا قال : يارب ، أنا ظلمت . وأنا أخطأت . وأنا اعتديت . وأنا فعلت . يقول الله عز وجل : وأنا قدّرت عليك وقضيت وكتبت ، وأنا أغفر لك . وإذا عمل حسنة . فقال : يارب أنا عملتها . وأنا تصدّقت . وأنا صليت . وأنا أطعمت . يقول الله عز وجل : وأنا أعنتك . وأنا وفقتك . وإذا قال : يارب أنت أعنتنى ووفقتنى . وأنت مَنَنْتَ علىّ . يقول الله : وأنت عملتها . وأنت أردتها . وأنت كسبتها » .

فالاعتذار اعتذاران : اعتذار ينافى الاعتراف . فذلك مناف للتوبة . واعتذار يقرّر الاعتراف . فذلك من تمام التوبة .

* * *

قال صاحب المنازل « وحقائق التوبة ثلاثة أشياء : تعظيم الجناية ، واتهام التوبة ، وطلب أعذار الخليقة » .

يريد بالحقائق : ما يتحقق به الشىء ، وتتبين به صحته وثبوته ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم لحارثة « إن لكل حق حقيقة . فما حقيقة إيمانك ؟ » .

فأما تعظيم الجنـاية : فإنه إذا استهان بها لم يندم عليها . وعلى قدر تعظيمها يكون ندمه على ارتكابها . فإن من استهان بإضاعة فَلْس ـ مثلا ـ لم يندم على إضاعته . فإذا علم أنه دينار اشتد ندمه ، وعظمت إضاعته عنده .

وتعظيم الجناية يصدر عن ثلاثة أشياء : تعظيم الأمر ، وتعظيم الآمر . والتصديق بالجزاء .

وأما اتهام التوبة : فلأنها حق عليه . لا يتيقن أنه أدى هذا الحق على الوجه المطلوب منه ، الذى ينبغى له أن يؤديه عليه ، فيخاف أنه ما وفاها حقها ، وأنها لم تقبل منه ، وأنه لم يبذل جهده فى صحتها ، وأنها توبة عِلَّة وهو لا يشعر بها ، كتوبة أرباب الحوائج والإفلاس ، والمحافظين على حاجاتهم ومنازلهم بين الناس ، أو أنه تاب محافظة على حاله . فتاب للحال ، لا خوفا من ذى الجلال . أو أنه تاب طلباً للراحة من الكد فى تحصيل الذنب ، أو اتقاء ما يخافه على عرضه وماله ومنصبه ، أو لضعف داعى المعصية فى قلبه ، وخمود نار شهوته ، أو لمنافاة المعصية لما يطلبه من العلم والرزق ، ونحو ذلك من العلل التى تقدح فى كون التوبة خوفا من الله ، وتعظيما له ولحرماته ، وإجلالاً له ، وخشية من سقوط المنزلة عنـده ، وعن البعد والطرد عنه ، والحجاب عن رؤية وجهه فى الدار الآخرة . فهذه التوبة لون ، وتوبة أصحاب العلل لون .

ومن اتهام التوبة أيضاً : ضعف العزيمة ، والتفات القلب إلى الذنب الفَيْنة بعد الفَيْنة ، وتذكر حلاوة مواقعته . فربما تنفس . وربما هاج هائجه .

ومن اتهام التوبة : طمأنينته ووثوقه من نفسه بأنه قد تاب ، حتى كأنه قد أُعطِى منشوراً بالأمان . فهذا من علامات التهمة .

ومن علاماتها : جمود العين ، واستمرار الغفلة ، وأن لا يستحدث بعد التوبة أعمالا صالحة لم تكن له قبل الخطيئة .

فالتوبة المقبولة الصحيحة لها علامات .

منها : أن يكون بعد التوبة خيراً مما كان قبلها .

ومنها : أنه لايزال الخوف مصاحباً له لا يأمن مكر الله طرفة عين . فخوفه مستمر إلى أن يسمع قول الرسل لقبض روحه (٤١ : ٣٠ أن لا تخافوا ولا تحزنوا . وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون) فهناك يزول الخوف .

ومنها : انخلاع قلبه ، وتقطعه ندماً وخوفا . وهذا على قدر عظم الجناية وصغرها . وهذا تأويل ابن عيينة لقوله تعالى (٩ : ١١٠ لايزال بُنيانُهم الذى بنوا رِيبةً فى قلوبهم ، إلا أن تَقطَّعَ قلوبُهم) قال : تقطعها بالتوبة . ولا ريب أن الخوف الشديد من العقوبة العظيمة يوجب انصداع القلب وانخلاعه . وهذا هو تقطعه . وهذا حقيقة التوبة . لأنه يتقطع قلبه حسرة على مافرط منه ، وخوفا من سوء عاقبته ، فمن لم يتقطع قلبه فى الدنيا على ما فرّط حسرة وخوفا ، تقطع فى الآخرة إذا حَقَّت الحقائق . وعاين ثواب المطيعين ، وعقاب العاصين . فلا بد من تقطع القلب إما فى الدنيا و إما فى الآخرة .

ومن موجبات التوبة الصحيحة أيضاً : كسرة خاصة تحصل للقلب لايشبهها شىء . ولا تكون لغير المذنب . لا تحصل بجوع ، ولا رياضة ، ولا حب مجرد . و إنما هى أمرٌ وراء هذا كله . تكسر القلب بين يدى الرب كسرة تامة . قد أحاطت به من جميع جهاته ، وألقته بين يدى ربه طريحاً ذليلا خاشعاً ، كحال عبدٍ جانٍ آبقٍ من سيده . فأُخِذ فأحضر بين يديه . ولم يجد من ينجيه من سطوته ، ولم يجد منه بداً ولا عنه غناء . ولا منه مهربا . وعلم أن حياته وسعادته وفلاحه ونجاحه فى رضاه عنه . وقد علم إحاطة سيده بتفاصيل جناياته . هذا مع حبه لسيده ، وشدة حاجته إليه ، وعلمه بضعفه وعجزه وقوة سيده ، وذله وعز سيده .

فيجتمع من هذه الأحوال كسرة وذلة وخضوع . ما أنفعها للعبد . وما أجدى عائدتها عليه ! وما أعظم جَبْره بها . وما أقربه بها من سيده ! فليس شىء أحبّ إلى سيده من هذه الكسرة ، والخضوع والتذلل ، والإخبات ، والانطراح بين

يديه ، والاستسلام له . فلله ما أحلى قوله فى هذه الحال « أسألك بعزك وذلى إلا رحمتنى ، أسألك بقوتك وضعفى ، و بغناك عنى وفقرى إليك . هذه ناصيتى الكاذبة الخاطئة بين يديك ، عبيدك سواى كثير . وليس لى سيد سواك . لاملجأ ولا منجَى منك إلا إليك . أسألك مسألة المسكين . وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل . وأدعوك دعاء الخائف الضرير ، سؤال من خضعت لك رقبته ، ورَغِمَ لك أنفه ، وفاضت لك عيناه ، وذَلَّ لك قلبه » .

يامن ألُوذ به فيما أُؤَمِّله ومن أعوذ به مما أُحاذره
لايَجْبُرُ الناسُ عظماً أنت كاسره ولا يهيضون عظماً أنت جابره

فهذا وأمثاله من آثار التوبة المقبولة . فمن لم يجد ذلك فى قلبه فليتهم توبته وليرجع إلى تصحيحها ، فما أصعب التوبة الصحيحة بالحقيقة . وما أسهلها باللسان والدعوى ! وما عالج الصادق بشىء أشق عليه من التوبة الخالصة الصادقة . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وأكثر الناس من المتنزهين عن الكبائر الحسية والقاذورات : فى كبائر مثلها أو أعظم منها أو دونها . ولا يخطر بقلوبهم أنها ذنوب ليتوبوا منها . فعندهم ــ من الإزراء على أهل الكبائر واحتقارهم ، وصولة طاعاتهم : ومِنَّتهم على الخلق بلسان الحال ، واقتضاء بواطنهم لتعظيم الخلق لهم على طاعاتهم ، اقتضاء لا يخفى على أحد غيرهم ، وتوابع ذلك ــ ماهو أبغض إلى الله ، وأبعدُ لهم عن بابه من كبائر أولئك . فإن تدارك الله أحدهم بقاذورة أو كبيرة يوقعه فيها ، ليكسر بها نفسه ، ويُعرفه قدره ، ويُذله بها ، ويخرج بها صَوْلة الطاعة من قلبه . فهى رحمة فى حقه ، كما أنه إذا تدارك أصحاب الكبائر بتوبة نصوح ، وإقبال بقلوبهم إليه . فهو رحمة فى حقهم ، وإلا فكلاهما على خطر .

فصــل

وأما طلب أعذار الخليقة . فهذا له وجهان . وجه محمود . ووجه مذموم حرام .

فالمذموم : أن تطلب أعذارهم ، نظرا إلى الحـكم القدَرى ، وجريانه عليهم ، شاءوا أم أبوا ، فتعذرهم بالقدر .

وهذا القدر ينتهى إليه كثير من السالـكين ، الناظرين إلى القَدَر ، الفانين فى شهوده . وهو ـ كما تقدم ـ دَرْبٌ خطر جدا . قليل المنفعة . لاينجى وحده .

وأظن هذا مراد صاحب المنازل . لأنه قال بعد ذلك :

« مشاهدة العبد الحـكم لم يدع له استحسان حسنة . ولا استقباح سيئة ، لصعوده من جميع المعانى إلى معنى الحـكم » .

وهذا الشهود شهود ناقص مذموم . إن طرده صاحبه . فعذَرَ أعداء الله ، وأهل مخالفته ومخالفة رسله ، وطلب أعذارهم : كان مضادًّا لله فى أمره ، عاذرًا من لم يعذره الله ، طالبا عذر من لامَهُ الله وأمر بلومه . وليست هذه موافقة لله . بل موافقته لوم هذا . واعتقاد أنه لاعذر له عند الله ، ولا فى نفس الأمر . فالله عز وجل قد أعذر إليه . وأزال عذره بالـكلية . ولو كان معذوراً فى نفس الأمر عند الله لما عاقبه ألبتة . فإن الله عز وجل أرحم وأغنى وأعدل من أن يعاقب صاحب عذر . فلا أحد أحب إليه العذر من الله . ومن أجل ذلك أرسل الرسل وأنزل الـكتب ، إزالة لأعذار خلقه . لئلا يكون لهم عليه حجة .

ومعلوم أن طالب عذرهم ومصححه مقيم لحجة قد أبطلها الله من جميع الوجوه . فلله الحجة البالغة . ومن له عذر من خلقه ـ كالطفل الذى لايميز ، والمعتوه ، ومن لم تبلغه الدعوة ، والأصم الأعمى الذى لايبصر ولا يسمع ـ فإن الله لايعذب هؤلاء بلا ذنب ألبتة . وله فيهم حكم آخر فى المعاد . يمتحنهم بأن يرسل إليهم رسولاً يأمرهم وينهاهم . فمن أطاع الرسول منهم ، أدخله الجنة . ومن عصاه أدخله النار . حكى ذلك أبو الحسن الأشعرى عن أهل السنة والحديث فى مقالاته . وفيه عدة أحاديث

بعضها فى مسند أحمد ، كحديث الأسود بن سريع ، وحديث أبى هريرة .

ومن طعن فى هذه الأحاديث بأن الآخرة دار جزاء لادار تكليف : فهذه الأحاديث مخالفة للعقل . فهو جاهل . فإن التكاليف إنما ينقطع بدخول دار القرار ، الجنة أو النار . و إلا فالتكليف واقع فى البرزخ وفى العرصات . ولهذا يدعوهم إلى السجود له فى الموقف . فيسجد المؤمنون له طوعا واختيارا . و يحال بين الكفار والمنافقين و بين السجود .

والمقصود : أنه لاعذر لأحد ألبتة فى معصية الله ، ومخالفة أمره . مع علمه بذلك ، وتمكنه من الفعل والترك . ولو كان له عذر لما استحق العقوبة واللوم . لا فى الدنيا ولا فى العقبى .

فإن قيل : هذا كلام بلسان الحال بالشرع ، ولو نطقت بلسان الحقيقة ، لعذرت الخليقة . إذ هم صائرون إلى مشيئة الله فيهم ، وماقضاه وقدره عليهم ، ولا بد . فهم مَجارٍ لأقداره . وسهامها نافذة فيهم . وهم أغراض لسهام الأقدار لاتخطئهم ألبتة . ولكن من غلب عليه مشاهدة الحكم الشرعى لم يمكنه طلب العذر لهم . ومن غلب عليه مشاهدة الحكم الكونى عذرهم . فأنت معذور فى الإنكار علينا بحقيقة الشرع . ونحن معذورون فى طلب العذر بحقيقة الحكم . وكلانا مصيب .

فالجواب من وجوه .

أحدها : أن يقال : العذر إن لم يكن مقبولا لم يكن نافعاً . والاعتذار بالقدر غير مقبول . ولا يعذر أحد به ، ولو اعتذر . فهو كلام باطل . لايفيد شيئاً ألبتة . بل يزيد فى ذنب الجانى ، و يغضب الرب عليه ، وماهذا شأنه لايشتغل به عاقل .

الثانى : أن الاعتذار بالقدَر يتضمن تنزيه الجانى نفسه ، وتنزيه ساحته . وهو الظالم الجاهل . والجهل على القدَر نسبة الذنب إليه ، وتظليمه بلسان الحال

والقال ، بتحسين العبارة وتلطيفها . ور بما غلبه الحال . فصرح بالوجد ، كما قال بعض خصماء الله(١) .

ألقاه فى اليم مكتوفاً ، وقال له : إياك إياك أن تَبْتَلَّ بالماء

وقال خصم آخر :

وضعوا اللحم للبُزا ة على ذِروتَى عَدَنْ
ثم لاموا البُزاة أن خَلَعوا عنهم الرسَنْ
لو أرادوا صيانتى ستروا وجهك الحسَنْ

وقال خصم آخر :

أصبحت منفعلاً لما تختاره منى . ففعلى كله طاعات

وقال خصم آخر شاكياً متظلماً :

إذا كان المحب قليل حظ فما حسناته إلا ذنوب

وقال خصم آخر معتذراً عن إبليس : لما عصى من كان إبليسه ؟ .

ولخصماء الله هٰهنا تظلمات وشكايات . ولو فتشوا زوايا قلوبهم لوجدوا هناك خصماً متظلماً شاكياً عاتباً ، يقول : لا أقدر أن أقول شيئاً . و إنى مظلوم فى صورة ظالم . و يقول بحرقة ، و يتنفس الصعداء : مسكين ابن آدم ، لاقادر ولامعذور

وقال الآخر : ابن آدم كُرة تحت صولجانات الأقدار ، يضربها واحد ، و يردها الآخر . وهل تستطيع الكرة الانتصاف من الصولجان ؟ .

و يتمثل خصم آخر بقول الشاعر :

بأبى أنت وإن أسـ ـرفت فى هجرى وظلمى

فجعله هاجراً بلاذنب ، ظالماً . بل مسرفاً . قد تجاوز الحد فى ظلمه . و يقول آخر :

---

(١) قال فى هامش الأصل : هذا الخصم هو الحسين بن منصور الحلاج . وذكر ملخص ترجمته فى ابن خلكان .

أظلّت علينا منك يوماً سحابة أضاءت لنا برقا . وأبطا رشاشها
فلا غيمها يجلو ، فييئس طالب ولا غيثها يأتى . فيروى عطاشها

ويقول آخر :

يدنو إليك ونقص الحظ يبعده ويستقيم وداعى البين يلويه

ويقول خصم آخر :

واقف فى المـــاء ظمآ ن . ولكن ليس يُسقَى

ومن له أدنى فهم و بصيرة يعلم أن هذا كله تظلم وشكاية وعَتْب ، و يكاد أحدهم يقول : ياظالمى لولا . ولو فتش نفسه كما ينبغى لوجد ذلك فيها . وهذا مالا غاية بعده من الجهل والظلم . والإنسان كما قال الله تعالى (٣٣:٧٢ إنه كان ظلوماً جهولاً) (٣٥ : ١٥ والله هو الغنى الحميد) :

ولو علم هذا الظالم الجاهل أن بلاءه من نفسه ومصابه منها ، وأنها أولى بكل ذم وظلم ، وأنها مأوى كل سوء . و (١٠٠ : ٦ إن الإنســان لربه لـكَنود) . قال ابن عباس ومجاهد وقتادة « كفورٌ جحودٌ لنعم الله » وقال الحسن « هو الذى يَعُد المصائب . و ينسى النعم » وقال أبو عبيدة « هو قليل الخير » والأرض « الـكنود » التى لانبت بها . وقيل : التى لاتنبت شيئاً من المنافع . وقال الفضل ابن عباس « الـكنود : الذى أنسته الخصلة الواحدة من الإساءة الخصال الـكثيرة من الإحسان » .

ولو علم هذا الظالم الجاهل : أنه هو القاعد على طريق مصالحه يقطعها عن الوصول إليه ، فهو الحجر فى طريق المــاء الذى به حياته . وهو السَّكْر الذى قد سد مجرى الماء إلى بستان قلبه ، و يستغيث مع ذلك : العطش العطشَ ، وقد وقف فى طريق الماء . ومنع وصوله إليه . فهو حجاب قلبه عن سر غيبه . وهو الغيم المانع لإشراق شمس الهدى على القلب . فما عليــه أضر منه ، ولا له أعداء أبلغ فى نكايته وعداوته منه .

ما تبلغ الأعداء من جاهل　　ما يبلغ الجاهل من نفسه

فَتَبًّا له ظالما فى صورة مظلوم ، وشاكياً والجناية منه . قد جد فى الإعراض وهو ينادي : طردونى وأبعدونى . ولَّى ظهره البابَ ، بل أغلقه على نفسه وأضاع مفاتيحه وكسرها . ويقول :

دعانى ، وسد الباب دونى .فهل إلى　　دخولى سبيل . بينوا لى قصتى

يأخذ الشفيق بحُجْزته عن النـار . وهو يجاذبه ثوبه ويغلبه ويقتحمها ، ويستغيث : ما حيلتى ؟ وقد قدَّمونى إلى الُحفيرة وقذفونى فيها . واللهِ كم صاح به الناصح : الحذَر الحذر ، إياك إياك ، وكم أمسك بثوبه . وكم أراه مصارع المقتحمين وهو يأبى إلا الاقتحام :

وكم سُقْتُ فى آثاركم من نصيحة　　وقد يستفيـد الظِّنَّةَ المتنصح

ياويله ظهيراً للشيطان على ربه ، خصما لله مع نفسه ، جَبْرِيّ المعاصى ، قَدَرِيُّ الطاعات ، عاجز الرأى مضياع لفرصته ، قاعد عن مصالحه ، معاتب لأقدار ربه . يحتج على ربه بما لايقبله من عبده وامرأته وأمته ، إذا احتجوا به عليه فى التهاون فى بعض أمره . فلو أمر أحدهم بأمر ففرط فيه ، أو نهاه عن شيء فارتكبه ، وقال: القدر ساقنى إلى ذلك . لما قَبِلَ منه هذه الحجة ، ولبادَرَ إلى عقوبته .

فإن كان القدر حجة لك أيها الظالم الجاهل فى ترك حق ربك ، فهلا كان حجة لعبـدك وأمتك فى ترك بعض حقك ؟ بل إذا أساء إليك مسيء ، وجنى عليك جان ، واحتج بالقدر : لاشتدّ غضبك عليه . وتضاعف جُرمه عندك ، ورأيت حجته داحضة . ثم تحتج على ربك به . وتراه عذراً لنفسك ؟ ! فمن أولى بالظلم والجهل ممن هذه حاله ؟

هذا مع تواتر إحسان الله إليك على مَدَى الأنفاس : أزاح عللك ، ومَكَّنك من التزود إلى جَنَّته ، وبعث إليك الدليل ، وأعطاك مؤنة السفر ، وما تتزود به ، وما تحارب به قُطّاع الطريق عليك . فأعطاك السمع والبصر والفؤاد ، وعرّفك الخير

والشر ، والنافع والضار ، وأرسل إليك رسوله . وأنزل إليك كتابه ، ويَسَّرَه للذكر والفهم والعمل . وأعانك بمدد من جنده الكرام ، يثبتونك ويحرسونك. ويحاربون عدوك ويطردونه عنك . ويريدون منك أن لا تميل إليه ولا تصالحه، وهم يكفونك مؤنته . وأنت تأبى إلا مظاهرته عليهم ، وموالاته دونهم . بل تُظاهره وتواليه دون وَلِيِّك الحق الذى هو أولَى بك . قال الله تعالى (١٨ : ٥٠ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم . فسجدوا إلا إبليس ، كان من الجن . ففَسَقَ عن أمرِ رَبِّه ، أفتتخذونه وذُرِّيته أولياءَ من دونى ، وهم لكم عدوٌّ ؟ بئس للظالمين بدَلاً) طردَ إبليسَ عن سمائه ، وأخرجه من جنته ، وأبعده من قربه ، إذ لم يَسْجد لك ، وأنت فى صُلْب أبيك آدم ، لكرامتك عليه(١) . فعاداه وأبعده ، ثم واليت عدوه ، ومِلْت إليه وصالحته . وتتظلم مع ذلك ، وتشتكى الطرد والإبعاد ، وتقول :

عودونى الوصال ، والوصلُ عَذْب ورمونى بالصدِّ . والصد صعب

نعم . وكيف لا يَطْرُد من هذه معاملته ؟ وكيف لايبعد عنه من كان هذا وصفه ؟ وكيف يجعل من خاصته وأهل قُربه مَنْ حاله معه هكذا ؟ قد أفسد مابينه وبين الله وكَدّره .

أمره الله بشكره ، لا لحاجته إليه . ولكن لينال به المزيد من فضله . فجعل كفر نعمه ، والاستعانة بها على مساخطه : من أكبر أسباب صرفها عنه .

وأمره بذكره ليذكره بإحسانه ، فجعل نسيانه سبباً لنسيان الله له (٥٩ : ١٩ نسوا الله فأنساهم أنفسهم) (٩ : ٦٧ نسوا الله فنَسِيَهُم) أمره بسؤاله ليعطيه ، فلم يسأله . بل أعطاه أجلّ العطايا بلا سؤال ، فلم يقبل . يشكو مَنْ يرحمه إلى من لا يرحمه . ويتظلم ممن لايظلمه . ويَدَعُ من يعاديه ويظلمه . إن أنعم عليه بالصحة

---

(١) ولا تزال الملائكة ـ بفضل الله سبحانه وتسخيره ـ خاضعة مسخرة فى تدبير أمرك من السماء إلى الأرض ، تنزل برزقك وأسباب عافيتك وأحكامك . وتنزل بالوحى هدى ورحمة من عند ربك لخيرك وسعادتك فى أولاك وأخراك . كما أن إبليس لا يزال عدواً مستكبراً على بنى آدم يحاول أن يغويهم أجمعين .

والعافية والمال والجاه استعان بنعمه على معاصيه . و إن سَلَبه ذلك ظَلَّ متسخطاً على ربه وهو شاكيه . لايصلح له على عافية ، ولا على ابتلاء . العافية تُلقيه إلى مساخطه . والبلاء يدفعه إلى كفرانه وجحود نعمته ، وشكايته إلى خلقه .

دعاه إلى بابه فما وقف عليه ولا طَرَقه . ثم فتحه له فما عرّج عليه ولا وَلَجه . أرسل إليه رسوله يدعوه إلى دار كرامته . فعصى الرسول . وقال : لا أبيع ناجزاً بغائب ، ونَقْدا بنَسيئة . ولا أترك ما أراه لشىء سمعت به ، و يقول :

خُذْ مارأيتَ . ودَعْ شيئاً سمعتَ به في طَلْعة الشمس مايغنيك عن زُحَل

فإن وافق حَظُّه طاعةَ الرسول أطاعه لنيل حظه ، لا لرضى مرسِله . لم يزل يتمقت إليه بمعاصيه ، حتى أعرض عنه ، وأغلق الباب فى وجهه .

ومع هذا فلم يؤيسه من رحمته . بل قال : متى جئتنى قبلتك . إن أتيتنى ليلاً قبلتك . و إن أتيتنى نهاراً قبلتك . و إن تقربت منى شبراً تقربت منك ذراعاً . و إن تقربت منى ذراعاً تقربت منك باعاً . و إن مشيت إلىّ هرولتُ إليك . ولو لقيتنى بقُراب الأرض خطايا ، ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئاً ، أتيتك بقُرابها مغفرة ، ولو بلغتْ ذنوبُك عنان السماء ، ثم استغفرتنى غفرتُ لك . ومَنْ أعظم منى جوداً وكرماً ؟

عبادى يبارزوننى بالعظائم ، وأنا أكلؤُهم على فُرُشهم ، إنى والجن والإنس فى نبإٍ عظيم : أخلقُ ويُعبد غيرى ، وأرزُق ويُشكر سواى . خيرى إلى العباد نازل . وشرهم إلىَّ صاعد . أتحبب إليهم بنعمى ، وأنا الغنى عنهم . و يتبغضون إلىَّ بالمعاصى ، وهم أفقر شىء إلىَّ .

من أقبل إلىَّ تلقيته من بعيد . ومن أعرض عنى ناديته من قريب . ومن ترك لأجلى أعطيته فوق المزيد . ومن أراد رضاى أردت ما يريد . ومن تصرف بحولى وقوتى ألنت له الحديد .

أهلُ ذكرى أهل مجالستى . وأهل شكرى أهل زيادتى . وأهل طاعتى أهل

كرامتى . وأهل معصيتى لا أُقَنِّطهم من رحمتى . إن تابوا إلىّ فأنا حبيبهم . فإنى أحب التوابين وأحب المتطهرين ، وإن لم يتوبوا إلىّ فأنا طبيبهم . أبتليهم بالمصائب ، لأطهرهم من المعايب .

من آثرنى على سواى آثرته على سواه . الحسنة عندى بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، إلى أضعاف كثيرة . والسيئة عندى بواحدة . فإن ندم عليها واستغفرنى غفرتها له .

أشكر اليسير من العمل . وأغفر الكثير من الزلل . رحمتى سبقت غضبى . وحلمى سبق مؤاخذتى . وعفوى سبق عقوبتى . أنا أرحم بعبادى من الوالدة بولدها « لله أَشَدُّ فرحاً بتوبة عبده من رَجلٍ أَضَلَّ راحلته بأرضٍ مَهْلَكةٍ دَوِّية عليها طعامه وشرابه . فطلبها حتى إذا أيِس من حصولها . نام فى أصل شجرة ينتظر الموت . فاستيقظ فإذا هى على رأسه . قد تعلق خِطامها بالشجرة . فالله أفرح بتوبة عبده من هذا براحلته » .

وهذه فرحة إحسان وبر ولطف ، لافرحة محتاج إلى توبة عبده ، منتفع بها . وكذلك موالاته لعبده إحساناً إليه ، ومحبة له وبرًّا به . لا يتكثَّر به من قلة ، ولا يتعزز به من ذِلَّة ، ولا ينتصر به من غَلَبة . ولا يَعُدُّه لنائبة . ولا يستعين به فى أمر (١٧ : ١١١ وقل الحمدُ لله الذى لم يتخذ ولداً . ولم يكن له شريك فى الملك . ولم يكن له وَلِيّ من الذل . وكَبِّره تكبيراً) فنفى أن يكون له ولىّ من الذل . والله ولىّ الذين آمنوا . وهم أولياؤه .

فهذا شأن الرب وشأن العبد . وهم يقيمون أعذار أنفسهم . ويحملون ذنوبهم على أقداره .

استأثر الله بالمحامد والمجـ د ، وولَّى الملامة الرجلا

وما أحسن قول القائل :

تطوى المراحل عن حبيبك دائباً وتَظَلُّ تبكيه بدمع ساجم
كذبَتْكَ نفسُكَ ، لستَ من أحبابه تشكو البعاد . وأنت عين الظالم

فصـــل

فهذا أحد المعنيين فى قوله « إن من حقائق التوبة : طلب أعذار الخليقة » .

وقد ظهر لك بهذا : أن طلب أعذارهم فى الجناية عائد على التوبة بالنقض والإبطال .

المعنى الثانى : أن يكون مراده : إقامة أعذارهم فى إساءتهم إليك ، وجنايتهم عليك ، والنظر فى ذلك إلى الأقدار . وأن أفعالهم بمنزلة حركات الأشجار ، فتعذرهم بالقدر فى حقك ، لافى حق ربك . فهذا حق . وهو من شأن سادات العارفين ، وخواص أولياء الله الكمل ، يفنَى أحدُهم عن حقه . ويستوفى حق ربه . ينظر فى التفريط فى حقه ، وفى الجنـاية عليه إلى القدر ، وينظر فى حق الله إلى الأمر . فيطلب لهم العذر فى حقه . ويمحو عنهم العذر ويطلبه فى حق الله .

وهذه كانت حال نبينا صلى الله عليه وسلم ، كما قالت عائشة رضى الله عنهـا « ما انتقم رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفسه قط ، ولا نِيلَ منه شىء فانتقم لنفسه إلا أن تُنْتَهَكَ محارم الله . فإذا انتهكت محارم الله لم يَقُمْ لغضبه شىء ، حتى ينتقم لله »

وقالت عائشة رضى الله عنها أيضاً « ماضرب رسـول الله صلى الله عليه وسلم بيده خادما ، ولا دابة ، ولا شيئاً قط ، إلا أن يجاهد فى سبيل الله » .

وقال أنس رضى الله عنه « خدمت النبى صلى الله عليه وسلم عشر سنين ، فما قال لى لشىء صنعته : لم صنعته ؟ ولا لشىء لم أصنعه : لم لَم تصنعه ؟ وكان إذا عاتبنى بعضُ أهله يقول : دعوه . فلو قُضى شىء لكان » .

فانظر إلى نظره إلى القدر عند حقه ، وقيامه بالأمر . وقَطْع يد المرأة عند حق الله . ولم يقل هناك : القدرُ حكَمَ عليها .

وكذلك عزمه على تحريق المتخلفين عن الصلاة معه فى الجماعة ، ولم يقل : لو قضى لهم الصلاة لكانت .

وكذلك رَجْمه المرأة والرجل لما زنيا . ولم يحتجَّ فى ذلك لهما بالقدر .

وكذلك فعله فى العُرَنِيِّين الذين قتلوا راعيه ، واستاقوا الذَّود ، وكفروا بعد إسلامهم . ولم يقل : قدر عليهم ، بل أمر بهم فقُطعت أيديهم وأرجلهم من خِلاف . وسُمِرت أعينهم . وتُركوا فى الحَرَّة يَسْتَسْقون فلا يُسقون ، حتى ماتوا عطشاً . إلى غير ذلك مما يطول بسطه .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أعرف بالله و بحقه من أن يحتج بالقدر على ترك أمره . و يقبل الاحتجاج به من أحد . ومع هذا فعذر أنسا بالقدر فى حقه . وقال « لو قضى شىء لكان » فصلوات الله وسلامه عليه .

فهذا المعنى الثانى – و إن كان حقا – لكن ليس هو من شرائط التو بة . ولا من أركانها . ولا له تعلق بها . فإنه لو لم يُقِمْ أعذارهم فى إساءتهم إليه لما نقص ذلك شيئاً من تو بته . فما أراد إلا المعنى الأول . وقد عرفتَ مافيه .

ولا ريب أن صاحب المنازل إنما أراد أن يعذرهم بالقدر ، و يقيم عليهم حكم الأمر . فينظر بعين القدر و يعذرهم بها . و ينظر بعين الأمر و يحملهم عليها بموجبها . فلا يحجبه مطالعة الأمر عن القدر ، ولا ملاحظة القدر عن الأمر .

فهذا – و إن كان حقاً لابد منه – فلا وجه لعذرهم . وليس عذهم من التو بة فى شىء ألبتة . ولو كان صحيحاً – فضلا عن كونه باطلا – فلا هم معذورون ، ولا طلبُ عذرهم من حقائق التو بة . بل التحقيق : أن الغيرة لله ، والغضب له ، من حقائق التو بة . فتعطيل عذر الخليقة فى مخالفة الأمر والنهى ، وشدة الغضب : هو من علامات تعظيم الحرمة . وذلك بأن يكون من حقائق التو بة أولى من عذر مخالفة الأمر والنهى .

ولا سيما أنه يدخل فى هذا : عذر عباد الأصنام والأوثان ، وقتلة الأنبياء . وفرعون وهامان ، ونمروذ بن كنعان ، وأبو جهل وأصحابه ، و إبليس وجنوده ،

وكل كافر وظالم ، ومتعد حدود الله ، ومنتهك محارم الله . فإنهم كلهم تحت القدر . وهم من الخليقة . أفيكون عذر هؤلاء من حقيقة التوبة ؟

فهذا مما أوجبه السير فى طريق الفناء فى توحيد الربوبية . وجَعْلُه الغاية التى يشمر إليها السالكون .

ثم أيُّ موافقة للمحبوب فى عذر من لايعذره هو ؟ بل قد اشتد غضبه عليه ، وأبعده عن قربه ، وطرده عن بابه ، ومقته أشد المقت ؟ فإذا عذرته ، فهل يكون عذره إلا تعرضا لسخط المحبوب ، وسقوطاً من عينه ؟ .

ولا توجب هذه الزلة من شيخ الإسلام إهدار محاسنه ، وإساءة الظن به . فمحله من العلم والإمامة والمعرفة والتقدم فى طريق السلوك المحل الذى لايجهل . وكل أحد فمأخوذ من قوله ومتروك إلا المعصوم . صلوات الله وسلامه عليه . والكامل من عُدَّ خطؤه . ولا سيما فى مثل هذا المجال الضنك ، والمعترك الصعب ، الذى زَلَّت فيه أقدام . وضلت فيه أفهام . وافترقت بالسالكين فيه الطرقات . وأشرفوا — إلا أقلهم — على أودية الهلكات .

وكيف لا ؟ وهو البحر الذى تجرى سفينة راكبه فى موج كالجبال . والمعترك الذى تضاءلت لشهوده شجاعة الأبطال . وتحيرت فيه عقول أَلِبَّاء الرجال . ووصلت الخليقة إلى ساحله يبغون ركوبه .

فمنهم : من وقف مُطرِقا دَهِشاً . لايستطيع أن يملأُ منه عينه . ولا ينقل عن موقفه قدمه . قد امتلأُ قلبه بعظَمَة ماشاهد منه . فقال : الوقوف على الساحل أسلم . وليس بلبيب من خاطر بنفسه .

ومنهم : من رجع على عقبيه ، لما سمع هَديره ، وصوتَ أمواجه ، ولم يطق نظراً إليه .

ومنهم : من رمى بنفسه فى لججه ، تخفضه موجة ، وترفعه أخرى .

فهؤلاء الثلاثة على خطر . إذ الواقف على الساحل عرضة لوصول الماء

تحت قدميه . والهارب ـ ولو جدّ فى الهرب ـ فماله مصير إلا إليه . والخاطر ناظر إلى الغرق كلّ ساعة بعينيه . وما نجا من الخلق إلا الصنف الرابع . وهم الذين انتظروا موافاة سفينة الأمر . فلما قربت منهم ناداهم الرُّبَّان (١١ : ٤١ اركبوا فيها . بسم الله مَجْرِيها ومُرْساها) فهى سفينة نوح حقاً . وسفينة من بعده من الرسل . من ركبها نجا . ومن تخلف عنها غرقَ . فركبوا سفينة الأمر بالقدر . تجرى بهم فى تصاريف أمواجه على حُكم التسليم لمن بيده التصرف فى البحار . فلم يك إلا غَفْوة، حتى قيل لأرض الدنيا وسمائها : يأرض ابلعى ماءك ، وياسماء أقلعى ، وغيض الماء . وقضى الأمر . واستوت على جودى دار القرار .

والمتخلفون عن السفينة ـ كقوم نوح ـ أغرقوا . ثم أحرقوا . ونودى عليهم على رؤوس العالمين (١١ : ٤٤ وقيل : بعداً للقوم الظالمين) (١١ : ١٠٢ وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين) ثم نودى بلسان الشرع والقدر ، تحقيقاً لتوحيده . وإثباتاً لحجته . وهو أعدل العادلين (٦ : ١٤٩ قل فلله الحجةُ البالغة . فلو شاء لهداكم أجمعين) .

فصل

وراكب هذا البحر فى سفينة الأمر ، وظيفته : مصادمة أمواج القدر ، ومعارضتها بعضها ببعض ، وإلا هلك . فيرد القدر بالقدر . وهذا سير أرباب العزائم من العارفين . وهو معنى قول الشيخ العارف القدوة عبد القادر الكيلانى « الناس إذا وصلوا إلى القضاء والقدر أمسكوا ، إلا أنا . فانفتحت لى فيه رَوْزَنة فنازعت أقدار الحق بالحق للحق ، والرجل من يكون منازعاً للقدر ، لامن يكون مستسلماً مع القدر » ولا تتم مصالح العباد فى معاشهم إلا بدفع الأقدار بعضها ببعض فكيف فى معادهم ؟

والله تعالى أمر أن تُدفع السيئة ـ وهى من قدره ـ بالحسنة ـ وهى من قدره ـ وكذلك الجوع من قدره . وأمر بدفعه بالأكل الذى هو من قدره . ولو استسلم

العبد لقدر الجوع ، مع قدرته على دفعه بقدر الأكل ، حتى مات : مات عاصياً . وكذلك البرد والحر والعطش . كلهـا من أقداره . وأمر بدفعها بأقدار تضادها . والدافع والمدفوع و الدفعُ من قدره .

وقد أفصح النبى صلى الله عليه وسلم عن هذا المعنى كل الإفصاح ، إذ قالوا : « يارسول الله ، أرأيت أدويةً نتداوَى بها ، ورُقًى نسترقى بها ، وتُقًى نتقى بها . هل تَرُدُّ من قدر الله شيئاً ؟ قال : هى من قدر الله » .

وفى الحديث الآخر « إن الدعاء والبلاء لَيَعْتلجان بين السماء والأرض » .

و إذا طرق العدوُّ من الـكفار بلد الإسلام طرقوه بقدر الله . أفيحل للمسلمين الاستسلام للقدر ، وترك دفعه بقدر مثله . وهو الجهاد الذى يدفعون به قدر الله بقدره ؟

وكذلك المعصية إذا قُدِّرت عليك ، وفعلتها بالقدر . فادفع موجِبَها بالتو بة النصوح . وهى من القدر .

فصل

ودفع القدر بالقدر نوعان :

أحدهما : دفع القدر الذى قد انعقدت أسبابه ـ ولما يقع ـ بأسباب أخرى من القدر تقابله . فيمتنع وقوعه . كدفع العدو بقتاله . ودفع الحر والبرد ونحوه .

الثانى : دفع القدر الذى قد وقع واستقر بقدر آخر يرفعه و يزيله ، كدفع قَدَر المرض بقدر التداوى . ودفع قَدَر الذنب بقدر التو بة . ودفع قدر الإساءة بقدر الإحسان .

فهذا شأن العارفين وشأن الأقدار ، لا الاستسلام لها ، وترك الحركة والحيلة . فإنه عجز . والله تعالى يلوم على العجز . فإذا غُلب العبد ، وضاقت به الحيل . ولم يبق له مجال . فهنالك الاستسلام للقدر ، والانطراح كالميت بين يدى الغاسل يقلبه كيف يشاء . وهنا ينفع الفناء فى القدر ، علماً وحالاً وشهوداً . وأما فى حال

القدرة ، وحصول الأسباب ، فالفناء النافع : أن يفنى عن الخلق بحكم الله . وعن هواه بأمر الله . وعن إرادته ومحبته بإرادة الله ومحبته . وعن حَوْله وقوته بحول الله وقوته و إعانته . فهذا الذى قام بحقيقة « إياك نعبد و إياك نستعين » علماً وحالا . و بالله المستعان .

فصــل

قال صاحب المنازل « وسرائر حقيقة التو بة ثلاثة أشياء : تمييز التَّقِيَّة من العِزَّة ، ونسيان الجناية ، والتو بة من التو بة . لأن التائب داخل فى « الجميع » من قوله تعالى (٢٤ : ٣١ وتو بوا إلى الله جميعاً أيهــا المؤمنون لعلــكم تفلحون) فأمر التائب بالتو بة » .

تمييز التقية من العزة : أن يكون المقصود من التو بة تقوى الله . وهو خوفه وخشيته ، والقيام بأمره ، واجتناب نهيه . فيعمل بطاعة الله على نور من الله ، يرجو ثواب الله . و يترك معصية الله على نور من الله . يخاف عقاب الله . لا يريد بذلك عز الطاعة . فإن للطاعة وللتوبة عزاً ظاهراً و باطناً . فلا يكون مقصوده العزة ، و إن علم أنها تحصل له بالطاعة والتو بة . فمن تاب لأجل العزة فتو بته مدخولة . وفى بعض الآثار « أوحى الله تعالى إلى نبى من الأنبياء : قل لفلان الزاهد : أما زهدك فى الدنيا : فقد تَعَجَّلْتَ به الراحة . وأما انقطاعك إلى : فقد اكتسبت به العزة ، ولــكن ما عملت فيما لى عليك ؟ قال : يارب ، وما لك عليّ بعد هذا ؟ قال : هل واليتَ فيّ ولياً ، أو عاديت فيّ عدواً ؟ » .

يعنى أن الراحة والعز حظك ، وقد نلتهما بالزهد والعبادة . ولــكن أين القيام بحقى . وهو الموالاة فىّ والمعاداة فىّ ؟ .

فالشأن فى التفر يق فى الأوامر بين حظك وحق ر بك علماً وحالا .

وكثير من الصادقين قد يلتبس عليهم حال نفوسهم فى ذلك . ولا يميزه إلا أولو البصائر منهم . وهم فى الصادقين كالصادقين فى الناس .

وأما نسيان الجناية : فهذا موضع تفصيل . فقد اختلف فيه أرباب الطريق .

فمنهم : من رأى الاشتغال عن ذكر الذنب والإعراض عنه صفحاً . فصفاء الوقت مع الله تعالى أولى بالتائب وأنفع له . ولهذا قيل : ذكر الجفا فى وقت الصفا جفا .

ومنهم : من رأى أن الأولى أن لا ينسى ذنبه . بل لا يزال جاعلا له نُصب عينيه يلاحظه كل وقت . فيُحْدِث له ذلك انكساراً وذلا وخضوعا ، أنفع له من جمعيته وصفاء وقته .

قالوا : ولهذا نقشَ داودُ الخطيئة فى كَفِّه . وكان ينظر إليها و يبكى .

قالوا : ومتى تُهْتَ عن الطريق فارجع إلى ذنبك تجد الطريق .

ومعنى ذلك : أنك إذا رجعت إلى ذنبك انكسرت وذللت . وأطرقت بين يدى الله عز وجل ، خاشعاً ذليلًا خائفاً . وهذه طريق العبودية .

والصواب : التفصيل فى هذه المسألة . وهو أن يقال : إذا أحسَّ العبد من نفسه حال الصفاء غَيْماً من الدعوى ، ورقيقة من العجب ونسيان المنَّة ، وخَطَفَتْه نفسه عن حقيقة فقره ونقصه ، فذِكْرُ الذنب أنفع له . و إن كان فى حال مشاهدته مِنَّة الله عليه ، وكمال افتقاره إليه ، وفنائه به ، وعدم استغنائه عنه فى ذرة من ذراته ، وقد خالط قلبَه حال المحبة ، والفرح بالله . والأنْس به ، والشوق إلى لقائه ، وشهود سعة رحمته وحلمه وعفوه . وقد أشرقت على قلبه أنوار الأسماء والصفات . فنسيان الجناية والإعراض عن الذنب : أولى به وأنفع . فإنه متى رجع إلى ذكر الجناية توارى عنه ذلك . ونزل من علو إلى أسفل ، ومن حال إلى حال ، بينهما من التفاوت أبعد مما بين السماء والأرض . وهذا من حسد الشيطان له . أراد أن يحطه عن مقامه ، وسير قلبه فى ميادين المعرفة والمحبة ، والشوق : إلى وحشة الإساءة ، وحصر الجناية .

والأول يكون شهوده لجنايته مِنَّة من الله ، منّ بها عليه ، ليؤمنه بها من مقت

الدعوى . وحجاب الـكبر الخفى الذى لا يشعر به . فهذا لون وهذا لون .

وهذا المحل فيه أمر وراء العبارة ، و بالله التوفيق . وهو المستعان .

فصـل

وأما التو بة من التو بة : فهى من المجملات التى يراد بهـا حق و باطل . و يكون مراد المتكلم بها حقاً . فيطلقه من غير تمييز .

فإن التو بة من أعظم الحسنات . والتو بة من الحسنات من أعظم السيئات ، وأقبح الجنايات . بل هى كفر ، إن أخذت على ظاهرها . ولافرق بين التو بة من التو بة والتو بة من الإسلام والإيمان ، فهل يسوغ أن يقال بالتو بة من الإيمان ؟ .

ولـكن مرادهم : أن يتوب من رؤ ية التو بة . فإنها إنما حصلت له بمنة الله ومشيئته . ولو خُلِّي ونفسه لم تسمح بها ألبتة . فإذا رآها وشهد صدورها منه ووقوعها به . وغفل عن مِنَّة الله عليه : تاب من هذه الرؤ ية والغفلة . ولـكن هذه الرؤ ية والغفلة ليست هى التو بة ، ولا جزءًا منها ، ولا شرطاً لها . بل هى جناية أخرى عرضت له بعـد التو بة . فيتوب من هذه الجناية ، كما تاب من الجناية الأولى . فما تاب إلا من ذنب ، أولاً وأخراً . فـكيف يقال : يتوب من التو بة (١) ؟ .

هذا كلام غير معقول . ولا هو صحيح فى نفسه . بل قد يكون فى التو بة علة ونقص ، وآفة تمنع كما لها . وقد يشعر صاحبها بذلك . وقد لايشعر به . فيتوب من نقصان التو بة ، وعدم توفيتها حقها .

وهذا أيضـاً ليس من التو بة . و إنما هو تو بة من عدم التو بة . فإن القَدْر الموجود منها طاعة لايتاب منها . والقدر المفقود : هو الذى يحتاج أن يتوب منه .

---

(١) هذا يتمشى مع اعتقاد وحدة الوجود تمام التمشى . لأنه يتوب قبل أن يصل إلى العرفان . فإذا وصـل إلى أن يكون عارفاً بالحقيقة : انـكشف عنه الحجاب ــ بزعمهم ــ فرأى الرب عبداً والعبد رباً . فيتوب من التوبة التى كانت قبل العرفان .

فالتوبة من التوبة إنما تعقل على أحد هذين الوجهين .

نعم . هٰهنا وجه ثالث لطيف جداً . وهو أن من حصل له مقام أنسٍ بالله ، وصفا وقته مع الله . بحيث يكون إقباله على الله ، واشتغاله بذكر آلائه وأسمائه وصفاته أنفع شيء له . حتى نزل عن هذه الحالة ، واشتغل بالتوبة من جناية سالفة قد تاب منها . وطالع الجناية واشتغل بها عن الله . فهذا نقص ينبغي له أن يتوب إلى الله منه . وهو توبة من هذه التوبة . لأنه نزول من الصفاء إلى الجفاء . والله أعلم

فصـل

قال صاحب المنازل :

« ولطائف أسرار التوبة ثلاثة أشياء . أولهـا : أن ينظر الجناية والقضية . فيعرف مراد الله فيها . إذ خَلاَّكَ و إتيانها . فإن الله عز وجل إنما خَلَّى العبد والذنبَ لأجل معنيين .

أحدهما : أن يعرف عِزَّته فى قضائه ، و بِرَّه فى ستره ، وحلمه فى إمهال راكبه ، وكرمه فى قبول العذر منه ، وفضله فى مغفرته .

الثانى : أن يُقيم على عبده حجة عدله . فيعاقبه على ذنبه بحجته » .

اعلم أن صاحب البصيرة إذا صدرت منه الخطيئة فله نظر إلى خمسة أمور .

أحدها : أن ينظر إلى أمر الله ونهيـه . فيحدث له ذلك الاعترافَ بكونها خطيئة ، والاقرار على نفسه بالذنب .

الثانى : أن ينظر إلى الوعد والوعيد . فيحدث له ذلك خوفا وخشية ، تحمله على التوبة .

الثالث : أن ينظر إلى تمكين الله له منهـا ، وتخليته بينه و بينها ، وتقديرها عليه ، وأنه لو شاء لعصمه منهـا . فيحدث له ذلك أنواعاً من المعروفة بالله وأسمائه وصفاته ، وحكمته ، ورحمته ، ومغفرته وعفوه ، وحلمه وكرمه . وتوجب له هذه المعرفة عبودية بهذه الأسماء ، لا تحصل بدون لوازمهـا ألبتة . و يعلم ارتباط الخلق

والأمر ، والجزاء والوعد والوعيـد بأسمائه وصفاته ، وأن ذلك موجب الأسماء والصفات ، وأثرها فى الوجود ، وأن كل اسم وصفة مقتضٍ لأثره وموجبه ، متعلق به لابد منه .

وهذا المشهد يُطْلِعه على رياض مُونِقَة من المعارف والإيمان ، وأسرار القدر والحكمة ، يضيق عن التعبير عنها نطاق الكلم .

فمن بعضها : ماذكره الشيخ « أن يعرف العبد عزته فى قضائه » وهو أنه سبحانه العزيز الذى يقضى بما يشاء ، وأنه لكمال عزته حكَمَ على العبد وقضَى عليه ، بأن قَلَّب قلبه وصَرَّف إرادته على مايشاء . وحال بين العبد وقلبه . وجعله مريداً شائياً لما شاء منه العزيز الحكيم . وهذا من كمال العزة . إذ لايقدر على ذلك إلا الله . وغاية المخلوق : أن يتصرف فى بدنك وظاهرك . وأما جعلك مريداً شائياً لما يشاؤه منك ويريده : فلا يقدر عليه إلا ذو العزة الباهرة .

فإذا عرف العبد عز سيده ولاحظه بقلبه ، وتمكن شهوده منه ، كان الاشتغال به عن ذل المعصية أولى به وأنفع له ، لأنه يصير مع الله لامع نفسه .

ومن معرفة عزته فى قضائه : أن يعرف أنه مدبَّر مقهور ، ناصيته بيد غيره . لاعصمة له إلا بعصمته . ولا توفيق له إلا بمعونته . فهو ذليل حقير ، فى قبضة عزيز حميد .

ومن شهود عزته أيضاً فى قضائه : أن يشهد أن الكمال والحمد ، والغناء التام ، والعزة . كلها لله ، وأن العبد نفسَه أولى بالتقصير والذم ، والعيب والظلم والحاجة . وكلما ازداد شهوده لذله ونقصه وعيبه وفقره ، ازداد شهوده لعزة الله وكماله ، وحمده وغناه . وكذلك بالعكس . فنقص الذنب وذلته يطلعه على مشهد العزة

ومنها : أن العبد لايريد معصية مولاه من حيث هى معصية . فإذا شهد جريان الحُكم ، وجعله فاعلا لما هو غير مختار له ، مريد بارادته ومشيئته واختياره . فكأنه مختار غير مختار ، مريد غير مريد ، شاء غير شاء . فهذا يشهد عزة الله وعظمته ، وكمال قدرته .

ومنها : أن يعرف بِرّه سبحانه فى سَتره عليه حال ارتكاب المعصية ، مع كمال رؤيته له . ولو شاء لفضحه بين خلقه فحذروه . وهذا من كمال بره . ومن أسمائه « البَرُّ » وهذا البر من سيده كان عن به كمال غناه عنه ، وكمال فقر العبد إليه . فيشتغل بمطالعة هذه المنة ، ومشاهدة هذا البر والإحسان والكرم . فيذهل عن ذكر الخطيئة . فيبقى مع الله سبحانه . وذلك أنفع له من الاشتغال بجنايته . وشهود ذل معصيته . فإن الاشتغال بالله والغفلة عماسواه : هو المطلب الأعلى ، والمقصد الأسنى

ولا يوجب هذا نسيان الخطيئة مطلقاً ، بل فى هذه الحال . فإذا فقدها فليرجع إلى مطالعة الخطيئة ، وذكر الجناية . ولكل وقت ومقام عبودية تليق به .

ومنها : شهود حلم الله سبحانه وتعالى فى إمهال راكب الخطيئة . ولو شاء لعاجله بالعقوبة . ولكنه الحليم الذى لا يَعْجَل . فيحدث له ذلك معرفة ربه سبحانه باسمه « الحليم » ومشاهدة صفة « الحلم » والتعبد بهذا الاسم . والحكمة والمصلحة الحاصلة من ذلك بتوسط الذنب : أحب إلى الله ، وأصلح للعبد ، وأنفع من فوتها . ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع .

ومنها : معرفة العبد كرم ربه فى قبول العذر منه إذا اعتذر إليه بنحو ماتقدم من الاعتذار . لا بالقدر . فإنه مخاصمة ومحاجة ، كما تقدم . فيقبل عذره بكرمه وجوده . فيوجب له ذلك اشتغالا بذكره وشكره ، ومحبة أخرى لم تكن حاصلة له قبل ذلك . فإن محبتك لمن شكرك على إحسانك وجازاك به ، ثم غفر لك إساءتك ولم يؤاخذك بها : أضعاف محبتك على شكر الإحسان وحده والواقع شاهد بذلك . فعبودية التوبة بعد الذنب لون . وهذا لون آخر .

ومنها : أن يشهد فضله فى مغفرته ، فإن المغفرة فضل من الله . وإلا فلو أخذك بمحض حقه ، كان عادلاً محموداً . وإنما عفوه بفضله لا باستحقاقك . فيوجب لك ذلك أيضاً شكراً له ومحبة ، وإنابة إليه ، وفرحاً وابتهاجاً به ، ومعرفة له باسمه « الغفار » ومشاهدة لهذه الصفة ، وتعبداً بمقتضاها . وذلك أكمل فى العبودية ، والمحبة والمعرفة .

ومنها : أن يُكَمِّلَ لعبده مراتب الذل والخضوع والانكسار بين يديه ، والافتقار إليه . فإن النفس فيها مضاهات للربوبية . ولو قَدرت لقالت كقول فرعون . ولكنه قدَر فأظهر . وَغَيْرُه عجز فأضمر . وإنما يُخَلِّصها من هذه المضاهاة ذل العبودية . وهو أربع مراتب .

المرتبة الأولى : مشتركة بين الخلق . وهى ذل الحاجة والفقر إلى الله . فأهل السموات والأرض جميعاً محتاجون إليه ، فقراء إليه . وهو وحده الغنى عنهم . وكل أهل السموات والأرض يسألونه . وهو لا يسأل أحداً .

المرتبة الثانية : ذل الطاعة ، والعبودية . وهو ذل الاختيار . وهذا خاص بأهل طاعته . وهو سر العبودية .

المرتبة الثالثة : ذل المحبة . فإن المحب ذليل بالذات ، وعلى قدر محبته له يكون ذله ، فالمحبة أسست على الذلة للمحبوب ، كما قيل :

اخضَعْ وَذِلَّ لمن تحب . فليس فى ... حكم الهوى أنْف يُشَال ويعقد

وقال آخر :

مساكين أهل الحب ، حتى قبورهم ... عليها تراب الذل بين المقابر [1]

المرتبة الرابعة : ذل المعصية والجناية .

فإذا اجتمعت هذه المراتب الأربع : كان الذل لله والخضوع له أكمل وأتم . إذ يذل له خوفاً وخشية ، ومحبة وإنابة ، وطاعة ، وفقراً وفاقة .

وحقيقة ذلك : هو الفقر الذى يشير إليه القوم . وهذا المعنى أجل من أن يسمى بالفقر . بل هو لُبُّ العبودية وسرها . وحصوله أنفع شىء للعبد ، وأحب شىء إلى الله .

---

(١) فى هامش الأصل .

أذل لمن أهوى لأكسب عزة ... وكم عزة قد نالها المرء بالذل

إذا كان من تهوى عزيزاً . ولم تكن ... ذليلا له . فاقرى السلام على الوصل

فلابد من تقدير لوازمه : من أسباب الضعف ، والحاجة ، وأسباب العبودية والطاعة ، وأسباب المحبة والإنابة ، وأسباب المعصية والمخالفة ، إذ وجود الملزوم بدون لازمه ممتنع ، والغاية من تقدير عدم هذا الملزوم ولازمه ، مصلحة وجوده خير من مصلحة فوته . ومفسدة فوته أكبر من مفسدة وجوده . والحكمة مبناها على دفع أعظم المفسدتين باحتمال أدناهما . وتحصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما . وقد فتح لك الباب . فإن كنت من أهل المعرفة فادخل ، وإلا فردّ الباب وارجع بسلام .

ومنها : أن أسماءه الحسنى تقتضي آثارها اقتضاء الأسباب التامة لمسبباتها . فاسم « السميع ، البصير » يقتضى مسموعاً ومبصراً . واسم « الرزاق » يقتضى مرزوقاً . واسم « الرحيم » يقتضى مرحوماً . وكذلك أسماء « الغفور ، والعفو ، والتواب ، والحليم » يقتضى من يغفر له ، ويتوب عليه ، ويعفو عنه ، ويحلم . ويستحيل تعطيل هذه الأسماء والصفات ، إذ هى أسماء حسنى وصفات كمال ، ونعوت جلال ، وأفعال حكمة وإحسان وجود . فلابد من ظهور آثارها فى العالم . وقد أشار إلى هذا أعلم الخلق بالله . صلوات الله وسلامه عليه . حيث يقول « لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يذنبون ، ثم يستغفرون فيغفرلهم » .

وأنت إذا فرضت الحيوان بجملته معدوماً . فمن يرزق الرزاق سبحانه ؟ وإذا فرضت المعصية والخطيئة منتفية من العالم . فلمن يغفر ؟ وعمن يعفو ؟ وعلى من يتوب ويحلم ؟ وإذا فرضت الفاقات كلها قد سُدّت ، والعبيد أغنياء معافون . فأين السؤال والتضرع والابتهال ؟ والإجابة وشهود الفضل والمنة ، والتخصيص بالإنعام والإكرام ؟

فسبحان من تعرّف إلى خلقه بجميع أنواع التعرفات . وَدَلَّهُم عليه بأنواع الدلالات . وفتح لهم إليه جميع الطرقات . ثم نصب إليه الصراط المستقيم . وعرّفهم

به ودلهم عليه (٨ : ٤٢ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ ، وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ . و إن الله لسميع عليم) .

فصــل

ومنهـا : السر الأعظم ، الذى لا تقتحمه العبارة ، ولا تجسر عليه الإشارة ، ولا ينادى عليه منادى الإيمـان على رءوس الأشهاد ، بل شهدته قلوب خواص العباد . فازدادت به معرفة لربها ومحبة له . وطمأنينة به وشوقاً إليه ، ولهجاً بذكره . وشهوداً لِبرِّهِ ، ولطفه وكرمه و إحسانه ، ومطالعة لسر العبودية ، و إشرافاً على حقيقة الإلٰهية . وهو ماثبت فى الصحيحين من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه . قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « للهُ أفْرَحُ بتوبةِ عبده ـ حين يتوب إليه ـ من أحدكم ، كان على راحلة بأرض فلاة . فانفلتت منه ، وعليها طعامه وشرابه . فأيس منها . فأتى شجرةً فاضطجع فى ظلها . قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده . فأخذ بخطامها . ثم قال ـ من شدة الفرح ـ اللهم أنت عبدى وأنا ربك . أخطأ من شدة الفرح » هذا لفظ مسلم .

وفى الحديث من قواعد العلم : أن اللفظ الذى يجرى على لسان العبد خطأ من فرح شديد ، أو غيظ شديد ، ونحوه . لايؤاخذ به . ولهذا لم يكن هذا كافراً بقوله « أنت عبدى وأنا ربك » .

ومعلوم أن تأثير الغضب فى عدم القصد يصل إلى هذه الحال ، أو أعظم منها . فلا ينبغى مؤاخذة الغضبان بما صدر منه فى حال شدة غضبه من نحو هذا الـكلام . ولا يقع طلاقه بذلك . ولا رِدته . وقد نص الإمام أحمد على تفسير الإغلاق فى قوله صلى الله عليه وسلم « لاطلاق فى إغلاق » بأنه الغضب . وفسره به غير واحد من الأئمة . وفسروه بالإكراه والجنون .

قال شيخنا : وهو يعم هذا كله . وهو من الغَلْق . لانغلاق قصد المتكلم عليه . فكأنه لم ينفتح قلبه لمعنى ماقاله .

والقصد : أن هذا الفرح له شأن لا ينبغى للعبد إهماله والإعراض عنه . ولا يطلع عليه إلا من له معرفة خاصة بالله وأسمائه وصفاته ، وما يليق بعز جلاله .

وقد كان الأولى بنا طَيُّ الكلام فيه إلى ماهو اللائق بأفهام بنى الزمان وعلومهم . ونهاية أقدامهم من المعرفة . وضعف عقولهم عن احتماله .

غير أنا نعلم أن الله عز وجل سيسوق هذه البضاعة إلى تجارها . ومن هو عارف بقدرها . وإن وقعت فى الطريق بيد من ليس عارفاً بها ، فرب حامل فقه ليس بفقيه . ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه .

فاعلم أن الله سبحانه وتعالى اختص نوع الإنسان من بين خلقه بأن كرمه وفضله . وشرفه . وخلقه لنفسه ، وخلق كل شيء له . وخصه من معرفته ومحبته وقُربه وإكرامه بما لم يعطه غيره . وسَخَّر له ما فى سماواته وأرضه وما بينهما ، حتى ملائكته ـ الذين هم أهل قربه ـ استخدمهم له . وجعلهم حفظة له فى منامه ويقظته ، وظعنه وإقامته . وأنزل إليه وعليه كتبه . وأرسله وأرسل إليه . وخاطبه وكلمه منه إليه ، واتخذ منهم الخليل والكليم ، والأولياء والخواص والأحبار . وجعلهم معدن أسراره . ومحل حكمته . وموضع حبه . وخلق لهم الجنة والنار . فالخلق والأمر ، والثواب والعقاب ، مداره على النوع الإنسانى . فإنه خلاصة الخلق . وهو المقصود بالأمر والنهى . وعليه الثواب والعقاب .

فللإنسان شأن ليس لسائر المخلوقات . وقد خلق أباه بيده ، ونفخ فيه من روحه . وأسجد له ملائكته . وعلمه أسماء كل شيء . وأظهر فضله على الملائكة فمن دونهم من جميع المخلوقات . وطرد إبليس عن قربه . وأبعده عن بابه ، إذ لم يسجد له مع الساجدين . واتخذه عدواً له .

فالمؤمن من نوع الإنسان : خير البرية على الإطلاق . وخيرة الله من العالمين فإنه خلقه ليتم نعمته عليه . وليتواتر إحسانه إليه . وليخصه من كرامته وفضله بما لم تنله أمنيته . ولم يخطر على باله ولم يشعر به . ليسأله من المواهب والعطايا الباطنة

والظاهرة العاجلة والآجلة ، التى لاتنال إلا بمحبته . ولا تنال محبته إلا بطاعته ، و إيثاره على ما سواه . فاتخذه محبو باً له . وأعَدَّ له أفضل مايعده محب غنى قادر جواد لمحبو به إذا قدم عليه . وعهد إليه عهداً تقدم إليه فيه بأوامره ونواهيه . وأعلمه فى عهده مايقر به إليه ، ويزيده محبة له وكرامة عليه ، وما يبعده منه ويسخطه عليه ، و يسقطه من عينه .

والمحبوب عدو ، هو أبغض خلقه إليه . قد جاهره بالعداوة . وأمر عباده أن يكون دينهم وطاعتهم وعبادتهم له ، دون وليهم ومعبودهم الحق . واستقطع عباده ، واتخذ منهم حزباً ظاهروه ووالوه على ربهم . وكانوا أعداء له مع هذا العدو . يدعون إلى سخطه . و يطعنون فى ربوبيته و إلهيته ووحدانيته ، ويسبونه ويكذبونه . و يفتنون أولياءه ، ويؤذونهم بأنواع الأذى . و يجهدون على إعدامهم من الوجود و إقامة الدولة لهم . ومحو كل مايحبه الله و يرضاه ، وتبديله بكل مايسخطه و يكرهه . فعرَّفه بهذا العدو وطرائقهم وأعمالهم ومالهم . وحذره موالاتهم والدخول فى زمرتهم والسكون معهم .

وأخبره فى عهده : أنه أجود الأجودين ، وأكرم الأكرمين ، وأرحم الراحمين . وأنه سبقت رحمته غضبه ، وحلمه عقوبته ، وعفوه مؤاخذته . وأنه قد أفاض على خلقه النعمة . وكتب على نفسه الرحمة . وأنه يحب الإحسان والجود والعطاء والبر . وأن الفضل كله بيده ، والخير كله منه ، والجود كله له . وأحبُّ ماإليه : أن يجود على عباده و يُوسِعهم فضلا . و يغمرهم إحساناً وجوداً . و يتم عليهم نعمته . و يضاعف لديهم منته . و يتعرف إليهم بأوصافه وأسمائه . و يتحبب إليهم بنعمه وآلائه .

فهو الجواد لذاته . وجود كل جواد خلقه الله ، و يخلقه أبداً : أقل من ذرة بالقياس إلى جوده . فليس الجواد على الإطلاق إلا هو . وجود كل جواد فمن جوده . ومحبته للجود والإعطاء والإحسان ، والبر والإنعام والإفضال : فوق مايخطر

ببال الخلق ، أو يدور فى أوهامهم . وفرحه بعطائه وجوده و إفضاله أشد من فرح الآخذ بما يعطاه و يأخذه ، أحوج ماهو إليه أعظم ما كان قدراً . فإذا اجتمع شدة الحاجة وعظم قدر العطية والنفع بها ، فما الظن بفرح المعطى ؟ ففرح المعطى سبحانه بعطائه أشد وأعظم من فرح هذا بما يأخذه . ولله المثل الأعلى . إذ هذا شأن الجواد من الخلق . فإنه يحصل له من الفرح والسرور ، والابتهاج واللذة بعطائه وجوده ، فوق ما يحصل لمن يعطيه . ولكن الآخذ غائب بلذة أخذه ، عن لذة المعطى ، وابتهاجه وسروره . هذا مع كمال حاجته إلى مايعطيه وفقره إليه ، وعدم وثوقه باستخلاف مثله ، وخوف الحاجة إليه عند ذهابه ، والتعرض لذل الاستعانة بنظيره ومن هو دونه . ونفسه قد طبعت على الحرص والشح .

فما الظن بمن تقدس وتنزه عن ذلك كله ؟ ولو أن أهل سماواته وأرضه ، وأول خلقه وآخرهم ، و إنسهم وجنهم ، ورطبهم و يابسهم ، قاموا فى صعيد واحد فسألوه ، فأعطى كل واحد ما سأله : مانقص ذلك مما عنده مثقال ذرة .

وهو الجواد لذاته ، كما أنه الحى لذاته ، العليم لذاته ، السميع البصير لذاته . فجوده العالى من لوازم ذاته . والعفو أحب إليه من الانتقام . والرحمة أحب إليه من العقوبة . والفضل أحب إليه من العدل ، والعطاء أحب إليه من المنع .

فإذا تعرض عبده ومحبو به الذى خلقه لنفسه ، وأعد له أنواع كرامته ، وفضله على غيره ، وجعله محل معرفته ، وأنزل إليه كتابه . وأرسل إليه رسوله ، واعتنى بأمره ولم يهمله . ولم يتركه سدى . فتعرض لغضبه ، وارتكب مساخطه وما يكرهه وأبَق منه . ووالى عدوه وظاهَره عليه ، وتحيز إليه . وقطع طريق نعمه و إحسانه إليه التى هى أحب شىء إليه . وفتح طريق العقوبة والغضب والانتقام : فقد استدعى من الجواد الكريم خلاف ماهو موصوف به من الجود والاحسان والبر وتعرض لإغضابه وإسخاطه وانتقامه . وأن يصير غضبه وسخطه فى موضع رضاه . وانتقامه وعقوبته فى موضع كرمه و بره وعطائه . فاستدعى بمعصيته من أفعاله

ما سواه أحب إليه منه ، وخلاف ماهو من لوازم ذاته من الجود والإحسان .

فبينما هو حبيبه المقرَّب المخصوص بالكرامة ، إذ انقلب آبقاً شارداً ، راداً لكرامته ، مائلا عنه إلى عدوه ، مع شدة حاجته إليه ، وعدم استغنائه عنه طرفة عين .

فبينما ذلك الحبيب مع العدو فى طاعته وخدمته ، ناسياً لسيده ، منهمكا فى موافقة عدوه . قد استدعى من سيده خلاف ماهو أهله : إذ عرضت له فكرة فتذكر برَّ سيده وعطفه وجوده وكرمه . وعلم أنه لابد له منه ، وأن مصيره إليه ، وعرضه عليه ، وأنه إن لم يقدم عليه بنفسه قُدم به عليه على أسوأ الأحوال . ففر إلى سيده من بلد عدوه . وجَدَّ فى الهرب إليه حتى وصل إلى بابه . فوضع خده على عتبة بابه . وتوسد ثرى أعتابه . متذللا متضرعاً ، خاشعاً باكياً آسفاً . يتملق سيده ويسترحمه . ويستعطفه ويعتذر إليه . قد ألقى بيده إليه . واستسلم له وأعطاه قياده . وألقى إليه زمامه . فعلم سيده ما فى قلبه . فعاد مكان الغضب عليه رضا عنه . ومكان الشدة عليه رحمة به . وأبدله بالعقوبة عفواً ، وبالمنع عطاء ، وبالمؤاخذة حلماً . فاستدعى بالتوبة والرجوع من سيده ماهو أهله ، وما هو موجب أسمائه الحسنى ، وصفاته العليا . فكيف يكون فرح سيده به ؟ وقد عاد إليه حبيبه ووليه طوعاً واختياراً . وراجع مايحبه سيده منه برضاه . وفتح طريق البر والإحسان والجود ، التى هى أحب إلى سيده من طريق الغضب والانتقام والعقوبة ؟ .

وهذا موضع الحكاية المشهورة عن بعض العارفين : أنه حصل له شرود وإباق من سيده . فرأى فى بعض السكك باباً قد فتح . وخرج منه صبي يستغيث ويبكى . وأمه خلفه تطرده ، حتى خرج . فأغلقت الباب فى وجهه ودخلت . فذهب الصبى غير بعيد ، ثم وقف مفكراً . فلم يجد له مأوى غير البيت الذى أخرج منه ، ولا من يؤويه غير والدته . فرجع مكسور القلب حزيناً . فوجد الباب مُرْتجاً ، فتوسَّده ووضع خده على عتبة الباب ونام ، فخرجت أمه . فلما رأته على تلك الحال

لم تملك أن رمت نفسها عليه ، والتزمته تقبله وتبكى . وتقول : ياولدى ، أين تذهب عنى ؟ ومن يؤويك سواى ؟ ألم أقل لك : لا تخالفنى . ولا تحملنى بمعصيتك لى على خلاف ماجُبلت عليه من الرحمة بك ، والشفقة عليك ، و إرادتى الخير لك ؟ ثم أخذته ودخلت .

فتأمل قول الأم « لا تحملنى بمعصيتك لى على خلاف ما جبلت عليه من الرحمة والشفقه » .

وتأمل قوله صلى الله عليه وسلم « لَلّهُ أرحم بعباده من الوالدة بولدها » وأين تقع رحمة الوالدة من رحمة الله التى وسعت كل شىء ؟

فإذا أغضبه العبد بمعصيته فقد استدعى منه صرف تلك الرحمة عنه . فإذا تاب إليه فقد استدعى منه ماهو أهله وأولى به .

فهذه نبذة يسيرة تطلعك على سر فرح الله بتوبة عبده أعظم من فرح هـذا الواجد لراحلته فى الأرض المهلـكة ، بعد اليأس منها .

ووراء هذا ما تجفو عنه العبارة ، وتدق عن إدراكه الأذهان .

و إياك وطريقة التعطيل والتمثيل . فإن كلاًّ منهما منزل ذميم ، ومرتع على عِلاَّته وَخيم . ولا يحل لأحدهما أن يجد روائح هـذا الأمر و نَفَسه . لأن زكام التعطيل والتمثيل مفسد لحاسة الشم ، كما هو مفسد لحاسة الذوق . فلا يذوق طعم الإيمان ، ولا يجد ريحه . والمحروم كل المحروم من عرض عليه الغنى والخير فلم يقبله . فلا مانع لما أعطى الله . ولامعطى لما منع . والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء . والله ذو الفضل العظيم .

فصل

هذا إذا نظرت إلى تعلق الفرح الإلٰهى بالإحسان والجود والبر .

وأما إن لاحظت تعلقه بإلٰهيته وكونه معبوداً : فذاك مشهدٌ أجل من هذا وأعظم منه . و إنما يشهده خواص المحبين .

فإن الله سبحانه إنما خلق الخلق لعبادته ، الجامعة لمحبته والخضوع له وطاعته . وهذا هو الحق الذى خُلقت به السموات والأرض . وهوغاية الخلق والأمر . ونفيه — كما يقول أعداؤه — هو الباطلُ ، والعبث الذى نزه الله نفسه عنه ، وهو السُّدَى الذى نزَّه نفسه عنه : أن يترك الإنسان عليه . وهو سبحانه يحب أن يُعْبَد ويطاع ولا يعبأ بخلقه شيئاً لولا محبتهم له ، وطاعتهم له ، ودعاؤهم له .

وقد أنكر على من زعم أنه خلقهم لغير ذلك ، وأنهم لو خلقوا لغير عبادته وتوحيده وطاعته لكان خلقهم عبثاً وباطلا وسُدًى . وذلك مما يتعالى عنه أحكم الحاكمين . والإله الحق . فإذا خرج العبد عما خُلق له من الطاعة والعبودية . فقد خرج عن أحب الأشياء إليه ، وعن الغاية التى لأجلها خلقت الخليقة . وصار كأنه خُلق عبثاً لغير شىء ، إذ لم تُخرج أرضه البذر الذى وضع فيها . بل قلبته شوكا وَدَغَلا . فإذا راجع ما خلق له وأُوجد لأجله : فقد رجع إلى الغاية التى هى أحب الأشياء إلى خالقه وفاطره . ورجع إلى مقتضى الحكمة التى خلق لأجلها . وخرج عن معنى العبث والسدَى والباطل . فاشتدت محبة الرب له . فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين . فأوجبت هذه المحبة فرحاً كأعظم مايُقَدَّر من الفرح . ولو كان فى الفرح المشهود فى هذا العالم نوع أعظم من هذا الذى ذكره النبى صلى الله عليه وسلم لذكره ، ولكن لا فرحة أعظم من فرحة هذا الواجد الفاقد لمادة حياته وبلاغِهِ فى سفره ، بعد إياسه من أسباب الحياة بفقده . وهذا كشدة محبته لتوبة التائب المحب إذا اشتدت محبته للشىء وغاب عنه . ثم وجده وصار طوع يده . فلا فرحة أعظم من فرحته به .

فما الظن بمحبوب لك تحبه حباً شديداً ، أسَره عدوك ، وحال بينك وبينه . وأنت تعلم أن العدو سيسومه سوء العذاب ، وَيُعرِّضه لأنواع الهلاك . وأنت أولى به منه . وهو غرْسُك وتربيتك . ثم إنه انفلت من عدوه ، ووافاك على غير ميعاد . فلم يفجأك إلا وهو على بابك ، يتملقك ويترضاك ويستعينك ، ويُمرغ خَدّيه على

تراب أعتابك . فكيف يكون فرحك به ، وقد اختصصته لنفسك ، ورضيته لقُربك ، وآثرته على سواه ؟

هذا . ولستَ الذى أوجدته وخلقته . وأسبغت عليه نعمك ، والله عز وجل هو الذى أوجد عبده . وخلقه وكوّنه ، وأسبغ عليه نعمه . وهو يحب أن يتمها عليه ، فيصير مظهراً لنعمه ، قابلا لها ، شاكراً لها ، محباً لِوَليِّها ، مطيعاً له عابداً له ، معادياً لعدوه ، مبغضاً له عاصياً له . والله تعالى يحب من عبده معاداة عدوه ، ومعصيته ومخالفته ، كما يحب أن يوالىَ اللهَ مولاه سبحانه و يطيعه و يعبده . فتنضاف محبته لعبادته وطاعته والإنابة إليه ، إلى محبته لعداوة عدوه . ومعصيته ومخالفته . فتشتد المحبة منه سبحانه ، مع حصول محبو به . وهذا هو حقيقة الفرح .

وفى صفة النبى صلى الله عليه وسلم فى بعض الكتب المتقدمة « عبدى الذى سُرَّت به نفسى » وهذا لكمال محبته له . جعله مما تسر نفسه به سبحانه .

ومن هذا «ضحكه» سبحانه من عبده ، حين يأتى من عبوديته بأعظم مايحبه . فيضحك سبحانه فرحاً ورضا . كما يضحك من عبده إذا ثار عن وِطائه وفراشه ومضاجعة حبيبه إلى خدمته ، يتلو آياته و يتملقه .

و يضحك من رجل هرب أصحابه عن العدو . فأقبل إليهم . و باع نفسه لله ولَقَّاهم نَحْرَه ، حتى قُتل فى محبته ورضاه .

و يضحك إلى من أخفى الصدقة عن أصحابه لسائل اعترضهم فلم يعطوه ، فتخلف بأعقابهم وأعطاه سراً ، حيث لا يراه إلا الله الذى أعطاه . فهذا الضحك منه حباً له ، وفرحاً به . وكذلك الشهيد حين يلقاه يوم القيامة . فيضحك إليه فرحاً به و بقدومه عليه .

وليس فى إثبات هذه الصفات محذور ألبتة . فإنه « فرح » ليس كمثله شىء ، و «ضحك» ليس كمثله شىء . وحكمه حكم رضاه ومحبته ، و إرادته وسائر صفاته . فالباب باب واحد ، لا تمثيل ولا تعطيل .

وليس ما يُلزم به المعطلُ المثبتَ إلا ظلم محض ، وتناقض وتلاعب . فإن هذا لو كان لازماً للزم رحمته و إرادته ومشيئته وسمعه و بصره ، وعلمه وسائر صفاته . فكيف جاء هذا اللزوم لهذه الصفة دون الأخرى ؟ وهل يجد ذو عقل إلى الفرق سبيلا ؟ فما ثَمَّ إلا التعطيل المحض المطلق ، أو الإثبات المطلق لكل ماورد به النص ، والتناقض لا يرضاه المحصّلون .

فصل

قوله « الثانى : أن يقيم على عبده حجة عدله ، فيعاقبه على ذنبه بحجته » .

اعتراف العبد بقيام حجة الله عليه من لوازم الإيمان . أطاع أم عصى . فإن حجة الله قامت على العبد بإرسال الرسول ، وإنزال الكتاب ، و بلوغ ذلك إليه ، وتمكنه من العلم به . سواء علم أو جهل . فكل من تمكن من معرفة ما أمر الله به ونهى عنه . فقصر عنه ولم يعرفه . فقد قامت عليه الحجة . والله سبحانه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه . فإذا عاقبه على ذنبه عاقبه بحجته على ظلمه . قال الله تعالى (١٧ : ١٥ وما كنَّا معذِّبينَ حتَّى نبعثَ رسولاً) وقال (٦٧ : ٨ ، ٩ كلَّما أُلقِيَ فيها فَوْج سألهم خزنتها ألم يَأْتِكُمْ نَذِير ؟ قالوا : بلى قد جاءنا نذير . فَكَذَّبنا وَقلنا : مانَزَّلَ اللهُ من شيء) وقال (١١ : ١١٧ وما كان رَبُّكَ لِيُهلِكَ الْقُرَى بظلمٍ وأهلها مُصلِحون) .

وفى الآية قولان . أحدهما : ما كان ليهلكها بظلم منهم . الثانى : ما كان ليهلكها بظلم منه .

والمعنى على القول الأول : ما كان ليهلكها بظلمهم المتقدم . وهم مصلحون الآن . أى إنهم بعد أن أصلحوا . وتابوا : لم يكن ليهلكهم بما سلف منهم من الظلم .

وعلى القول الثانى : إنه لم يكن ظالماً لهم فى إهلاكهم ، فإنه لم يهلكهم وهم مصلحون ! و إنما أهلكهم وهم ظالمون . فهم الظالمون لمخالفتهم ، وهو العادل

فى إهلاكهم . والقولان فى آية الأنعام أيضاً (٦ : ١٣١ ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون) .

قيل : لم يكن مهلكهم بظلمهم ، وشركهم وهم غافلون . لم يُنذَروا ولم يأتهم رسول .

وقيل : لم يهلكهم قبل التذكير بإرسال الرسول . فيكون قد ظلمهم . فإنه سبحانه لا يأخذ أحداً ولا يعاقبه إلا بذنبه . وإنما يكون مذنباً إذا خالف أمره ونهيه . وذلك إنما يعلم بالرسل .

فإذا شاهد العبد القدر السابق بالذنب ، علم أن الله سبحانه قَدَّره سبباً مقتضياً لأثره من العقوبة ، كما قدر الطاعة سبباً مقتضياً للثواب . وكذلك تقدير سائر أسباب الخير والشر . فجعل السم سبباً للموت ، والنار سبباً للإحراق . والماء سبباً للإغراق .

فإذا أقدم العبد على سبب الهلاك — وقد عرف أنه سبب الهلاك — فهلك فالحجة مركبة عليه ، والمؤاخذة لازمة له ، كالحريق مثلا . والذنب ، كالنار ، وإتيانه له ، كتقديمه نفسه للنار ، وملاحظة الحكم فيما لا يجدى عليه شيئاً . فإنما الذى يشهده عند قيام الحجة عليه : ملاحظة الأمر ، لا ملاحظة القدر .

فجعلُ صاحب المنازل هذه اللطيفة من ملاحظة الجناية والقضية ليس بالبين . بل هو من ملاحظة الجناية والأمر . لكن مراده : أن سر التقدير : أنه قد علم أن هذا العبد لا يصلح إلا للوقود ، كالشوك الذى لا يصلح إلا للنار . والشجرة تشتمل على الثمر والشوك . فاقتضى عدله سبحانه أن يسوق هذا العبد إلى مالا يصلح إلا له ، وأن يقيم عليه حجة عدله . فإن قَدَّر عليه الذنب فواقعه . فاستحق ماخلق له . قال الله تعالى (٣٦ : ١٦٩ ، ١٧٠ وما علمناه الشعر وما ينبغى له . إن هو إلا ذكر وقرآن مبين . لينذر من كان حَيًّا ويحق القول على الكافرين) .

فأخبر سبحانه أن الناس قسمان : حى قابل للانتفاع . يقبل الإنذار

وينتفع به ، وميت لا يقبل الإنذار ولا ينتفع به . لأن أرضه غير زاكية ولا قابلة لخير ألبتة . فيحق عليه القول بالعذاب . وتكون عقوبته بعد قيام الحجة عليه . لا بمجرد كونه غير قابل للهدى والإيمان . بل لأنه غير قابل ولا فاعل . وإنما يتبين كونه غير قابل بعد قيام الحجة عليه بالرسول . إذ لو عذبه بكونه غير قابل لقال : لو جاءنى رسول منك لامتثلت أمرك . فأرسل إليه رسوله . فأمره ونهاه . فعصى الرسول بكونه غير قابل للهدى ، فعوقب بكونه غير فاعل . فحق عليه القول : أنه لا يؤمن ولو جاءه الرسول ، كما قال تعالى (١٠ : ٣٣ وكذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون) وحق عليه العذاب . كقوله تعالى (٤٠ : ٦ وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار) .

فالكلمة التى حقت كلمتان : كلمة الإضلال ، وكلمة العذاب . كما قال تعالى (٣٩ : ٧١ ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين) وكلمته سبحانه ، إنما حقت عليهم بالعذاب بسبب كفرهم . فحقت عليهم كلمة حجته ، وكلمة عدله بعقوبته .

وحاصل هذا كله : أن الله سبحانه ، أمر العباد أن يكونوا مع مراده الدينى منهم . لا مع مراد أنفسهم . فأهل طاعته آثروا الله ومراده على مرادهم . فاستحقوا كرامته . وأهل معصيته آثروا مرادهم على مراده . وعلم سبحانه منهم : أنهم لا يؤثرون مراده ألبتة . وإنما يؤثرون أهواءهم ومرادهم . فأمرهم ونهاهم . فظهر بأمره ونهيه من القدر الذى قدر عليهم من إيثارهم هوى أنفسهم ، ومرادهم على مرضاة ربهم ومراده . فقامت عليهم بالمعصية حجة عدله . فعاقبهم بظلمهم .

فصل

قد ذكرنا أن العبد فى الذنب له نظر إلى أربعة أمور : نظر إلى الأمر والنهى . ونظر إلى الحكم والقضاء . وذكرنا مايتعلق بهذين النظرين .

النظر الثالث : النظر إلى محل الجناية ومصدرها . وهو النفس الأمارة بالسوء ، ويفيده نظره إليها أموراً .

منها : أن يعرف أنهـا جاهلة ظالمة . وأن الجهل والظلم يصدز عنهما كل قول وعمل قبيح . وَمَنْ وَصفُه الجهلُ والظلم لامطمع فى استقامته واعتداله ألبتة . فيوجب له ذلك بذل الجهد فى العلم النافع الذى يخرجها به عن وصف الجهل . والعمل الصالح الذى يخرجها به عن وصف الظلم . ومع هذا فجهلها أكثر من علمها وظلمها أعظم من عدلها .

فحقيق بمن هذا شأنه أن يرغب إلى خالقها وفاطرها أن يقيها شرها . وأن يؤتيها تقواها ويزكيها ، فهو خـير من زكاها . فإنه ربُّها ومولاها ، وأن لا يَـكِلَه إليها طَرْفَةَ عين . فإنه إن وَكَله إليها هلك . فما هلك من هلك إلا حيث وُكِلَ إلى نفســه . وقال النبي صلى الله عليه وسلم لحصين بن المنذر « قل : اللهم ألهمنى رُشْدِى . وَقِنِى شَرَّ نفسى » وفى خطبة الحاجة « الحمـد لله . نحمده ونستعينه ، ونستهديه ، ونستغفره . ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا » وقد قال تعالى (٦٤ : ١٧ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نفسه فأولئك هم المفلحون) وقال (١٢ : ٥٣ إن النفس لأمارة بالسوء) .

فمن عرف حقيقة نفسه وماطُبِعت عليه : علم أنها مَنْبَع كل شر ، ومأوى كل سوء ، وأن كل خير فيها ففضلٌ من الله مَنَّ به عليها . لم يكن منها . كما قال تعالى (٢٤ : ٢١ ولولا فضل الله عليكم ورحمته مازَكَى منكم من أَحَدٍ أَبدًا) وقال تعالى (٤٩ : ٨ ولـكن الله حَبَّبَ إليكم الإيمان وَزَيَّنَـهُ فى قلوبكم . وَكَرَّهَ إليكم الـكفر والفسوق والعِصيانَ . أولئك هم الراشدون) فهذا الحب وهذه الـكراهة لم يكونا فى النفس ولا بها . ولـكن هو الله الذى مَنَّ بهما ، فجعل العبدَ بسببهما من الراشدين (فَضْلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم) « عليم » بمن يصلح لهذا الفضل ويزكو عليه وبه ، ويثمر عنده . «حكيم» فلا يضعه عند غير أهله فيضيعه بوضعه فى غير موضعه .

ومنها : ما ذكره صاحب المنازل فقال :

« اللطيفة الثانية : أن يعلم أن نظر البصير الصادق فى سيئته لم يُبقِ له حسنة بحال . لأنه يسير بين مشاهدة المِنَّة . وتَطَلبِ عيب النفس والعمل » .

يريد : أن من له بصيرة بنفسه ، و بصيرة بحقوق الله . وهو صادق فى طلبه : لم يُبقِ له نظره فى سيئاته حسنة ألبتة . فلا يلقى الله الا بالإفلاس المحض ، والفقر الصِّرف . لأنه إذا فتش عن عيوب نفسه وعيوب عمله علم أنها لاتصلح لله ، وأن تلك البضاعة لاتُشتَرى بها النجاة من عذاب الله . فضلا عن الفوز بعظيم ثواب الله . فإن خَلَص له عملٌ وحال مع الله . وصفًا له معه وقت شاهدَ مِنَّة الله عليه به ، ومجرد فضله ، وأنه ليس من نفسه ، ولا هى أهل لذاك . فهو دائماً مشاهد لمنة الله عليه ، ولعيوب نفسه وعمله . لأنه متى تطلبها رآها .

وهذا من أجلّ أنواع المعارف وأنفعها للعبد . ولذلك كان سيد الاستغفار « اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت . خلقتنى ، وأنا عبدك . وأنا على عهدك ووعدك ما استطعتُ . أعوذ بك من شر ماصنعتُ . أبوء لك بنعمتك علي . وأبوء بذنبى . فاغفر لى . إنه لايغفر الذنوب إلا أنت » .

فتضمن هذا الاستغفار : الاعتراف من العبد بربوبية الله ، وإلٰهيته وتوحيده . والاعتراف بأنه خالقه ، العالم به . إذ أنشأه نشأة تستلزم عجزه عن أداء حقه وتقصيره فيه ، والاعتراف بأنه عبده الذى ناصيته بيده وفى قبضته . لا مهرب له منه . ولا ولىَّ له سواه ، ثم التزام الدخول تحت عهده ـ وهو أمره ونهيه ـ الذى عَهده إليه على لسان رسوله ، وأن ذلك بحسب استطاعتى ، لابحسب أداء حقك . فإنه غير مقدور للبشر . وإنما هو جَهْد المقِلّ ، وقدر الطاقة . ومع ذلك فأنا مصدق بوعدك الذى وعدته لأهل طاعتك بالثواب ، ولأهل معصيتك بالعقاب . فأنا مقيم على عهدك ، مصدق بوعدك . ثم أفزع إلى الاستعاذة والاعتصام بك من شَرِّ مافَرَّطت فيه من أمرك ونهيك . فإنك إن لم تُعِذْنى من شره ، وإلا أحاطت بى الهلَكة . فإن إضاعة حقك سبب الهلاك ، وأنا أقِرُّ لك وألتزِم بنعمتك عليَّ .

وأقر وألتزم وأبْخَعُ بذَنْبى . فمنك النعمة والإحسان والفضل . ومنى الذنب والإساءة . فأسألك أن تغفر لى بمَحْوِ ذَنبى ، وأن تُعْفِينى من شَرِّه . إنه لايغفر الذنوب إلا أنت .

فلهذا كان هذا الدعاء سيدَ الاستغفار . وهو متضمن لمحض العبودية . فأى حَسَنة تبقى للبصير الصادق ، مع مشاهدته عيوب نفسه وعمله ، ومنة الله عليه ؟ فهذا الذى يعطيه نظره إلى نفسه ونقصه .

فصــل

النظر الرابع : نظره إلى الآمر له بالمعصية ، المزيِّن له فعلَها ، الحاضّ له عليها . وهو شيطانه الموكَّل به .

فيفيده النظر إليه ، وملاحظته : اتخاذَه عدواً ، وكمال الاحتراز منه ، والتحفظ واليقظة ، والانتباه لما يريد منه عدوه وهو لايشعر . فإنه يريد أن يظفر به فى عَقَبة من سبع عَقَبات ، بعضها أصعبُ من بعض . لاينزل منه من العقبة الشاقة إلى مادونها إلا إذا عجَز عن الظفَر به فيها .

العقبة الأولى : عقَبة الـكفر بالله و بدينه ولقائه ، و بصفات كماله ، و بما أخبرت به رســله عنه . فإنه إن ظفر به فى هذه العقبة بردَتْ نارُ عداوته واستراح . فإن اقتحم هذه العقبة ونجا منها ببصيرة الهداية ، وسلم معه نور الإيمان طلبه على :

العقبة الثانية : وهى عقبة البدعة . إما باعتقاد خلاف الحق الذى أرسلَ الله به رسوله ، وأنزل به كتابه . و إما بالتعبد بما لم يأذن به الله : من الأوضاع والرسوم المحدَثة فى الدين ، التى لايقبل الله منها شيئاً . والبدعتان فى الغالب متلازمتان . قلَّ أن تنفك إحداهما عن الأخرى . كما قال بعضهم : تزوجت بدعةُ الأقوال ببدعة الأعمال . فاشتغل الزوجان بالعرس . فلم يفجأهم إلا وأولاد الزنا يعيثون فى بلاد الإسلام . تضج منهم العباد والبلاد إلى الله تعالى[١] .

---

(١) يغلب على الظن : أن هذا من كلام الشيخ الإمام ابن القيم عليه رحمة الله .

وقال شيخنا : تزوجت الحقيقة الكافرة ، بالبدعة الفاجرة . فتولَّد بينهما خسران الدنيا والآخرة .

فإن قطع هذه العقَبة ، وخلَص منها بنور السنة ، واعتصم منها بحقيقة المتابعة ، وما مضى عليه السلف الأخيار ، من الصحابة والتابعين لهم بإحسان . وهيهات أن تسمح الأعصار المتأخرة بواحد من هذا الضرب ! فإن سمَحَتْ به نصَب له أهلُ البدع الحبائل ، و بغَوه الغوائل ، وقالوا : مبتدع محدث .

فإذا وفقه الله لقطع هذه العقبة طلبه على :

العقبة الثالثة : وهى عقبة الكبائر . فإن ظفر به فيها زيَّنها له ، وحسَّنها فى عينه . وسوّف به . وفتح له باب الإرجاء . وقال له : الإيمان هو نفس التصديق . فلا تقدح فيه الأعمال[1] ، وربما أجرى على لسانه وأذنه كلمة طالما أهلك بها الخلق ، وهى قوله « لايضُرُّ مع التوحيد ذنب ، كما لا ينفع مع الشرك حسنة » والظفر به فى عقبة البدعة أحب إليه . لمناقضتها الدين ، ودفعها لما بعث الله به رسوله . وصاحبها لايتوب منها . ولايرجع عنها ، بل يدعو الخلق إليها ، ولتضمنها القول على الله بلا علم . ومعاداة صريح السنة . ومعاداة أهلها ، والاجتهاد على إطفاء نور السنة . وتولية مَنْ عزَله الله ورسوله ، وعزْل من ولّاه الله ورسوله . واعتبار مارده الله ورسوله ، ورد ما اعتبره . وموالاة من عاداه ، ومعاداة من والاه . و إثبات مانفاه . ونفى ماأثبته . وتكذيب الصادق . وتصديق الكاذب . ومعارضة الحق بالباطل . وقلب الحقائق ، بجعل الحق باطلاً ، والباطل حقاً . والإلحاد فى دين الله ، وتعمية الحق على القلوب . وطلب العِوَج لصراط الله المستقيم . وفتح باب تبديل الدين جملة[2] .

---

(١) يعنى أعمال الفسوق والعصيان . والمعنى المراد : أن الشيطان يقول له ــ عند فتح باب الارجاء ــ إن الإيمان هو نفس التصديق فلا تقدح فيه الأعمال السيئة والمعاصى . وهذا وما بعده هو معنى الارجاء الذى هومن شر البدع التى أفسدت الدين

(٢) وشر البدع وأنكاها : هو التقليد الأعمى ، والعمل فى العقائد والعبادات =

فإن البدع تستدرج بصغيرها إلى كبيرها ، حتى ينسلخ صاحبها من الدين . كما تنسل الشعرة من العجين . فمفاسد البدع لايقف عليها إلا أرباب البصائر ، والعميان ضالون فى ظلمة العمى (٢٤ : ٤٠ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور)

فإن قطع هذه العقبة بعصمة من الله ، أو بتوبة نصوح تنجيه منها ، طلبه على :

العقبة الرابعة : وهى عقبة الصغائر . فكال له منها بالقُفْزان ، وقال : ماعليك إذا اجتنبت الكبائر ماغشيت من اللَّمَم ، أوَ ماعلمت بأنها تكفَّر باجتناب الكبائر وبالحسنات . ولا يزال يهون عليه أمرها حتى يُصِر عليها . فيكون مرتكب الكبيرة الخائف الوجل النادم أحسن حالا منه . فالإصرار على الذنب أقبح منه. ولا كبيرة مع التوبة والاستغفار . ولا صغيرة مع الإصرار . وقد قال صلى الله عليه وسلم « إياكم ومحقرات الذنوب ـ ثم ضرب لذلك مثلا بقوم نزلوا بفلاة من الأرض . فأعوزهم الحطب . فجعل هذا يجىء بعود ، وهذا بعود . حتى جمعوا حطباً كثيراً . فأوقدوا ناراً . وأنضجوا خبزتهم . فكذلك فإن محقرات الذنوب تجتمع على العبد وهو يستهين بشأنها حتى تهلكه » .

فإن نجا من هذه العقبة بالتحرز والتحفظ ، ودوام التوبة والاستغفار . وأتبع السيئة الحسنة . طلبه على :

العقبة الخامسة . وهى عقبة المباحات التى لاحرج على فاعلها . فشغله بها عن الاستكثار من الطاعات . وعن الاجتهاد فى التزود لمعاده. ثم طمع فيه أن يستدرجه منها إلى ترك السنن . ثم من ترك السنن إلى ترك الواجبات . وأقل ماينال منه : تفويته الأرباح ، والمكاسب العظيمة . والمنازل العالية . ولو عرف السعر لما فوت على نفسه شيئاً من القربات . ولكنه جاهل بالسعر .

= والأحكام والشرائع والاذكار والأوراد بما وجد عليه الآباء والشيوخ على غير هدى ولا بصيرة ، يستمد نورها من الفقه فى كلام الله وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم . فما وقع الناس قديماً ولا حديثاً فى شىء من الشرك فى العبادة والشرك فى الاتباع والتشريع إلا من بدعة هذا التقليد .

فإن نجا من هذه العقبة ببصيرة تامة ونور هاد ، ومعرفة بقدر الطاعات والاستكثار منها ، وقلة المقام على الميناء ، وخطر التجارة ، وكرم المشترى ، وقدر مايعوض به التجار ، فبخل بأوقاته . وضن بأنفاسه أن تذهب فى غير ربح . طلبه العدو على :

العقبة السادسة . وهى عقبة الأعمال المرجوحة المفضولة من الطاعات . فأمره بها . وحسنها فى عينه . وزينها له . وأراه مافيها من الفضل والربح ، ليشغله بها عما هو أفضل منها ، وأعظم كسباً وربحاً . لأنه لما عجز عن تخسيره أصل الثواب ، طمع فى تخسيره كماله وفضله ، ودرجاته العالية . فشغله بالمفضول عن الفاضل ، وبالمرجوح عن الراجح ، وبالمحبوب لله عن الأحب إليه ، وبالمرضى عن الأرضى له .

ولكن أين أصحاب هذه العقبة ؟ فهم الأفراد فى العالم ، والأكثرون قد ظفر بهم فى العقبات الأول .

فإن نجا منها بفقه فى الأعمال ومراتبها عند الله ، ومنازلها فى الفضل ، ومعرفة مقاديرها ، والتمييز بين عاليها وسافلها ، ومفضولها وفاضلها ، ورئيسها ومرؤسها ، وسيدها ومسودها . فإن فى الأعمال والأقوال سيداً ومسوداً ، ورئيساً ومرؤساً ، وذروة وما دونها ، كما فى الحديث الصحيح « سيد الاستغفار : أن يقول العبد : اللهم أنت ربى . لا إله إلا أنت ـ الحديث » وفى الحديث الآخر « الجهاد ذروة سنام الأمر » وفى الأثر الآخر « إن الأعمال تفاخرت . فذكر كل عمل منها مرتبته وفضله . وكان للصدقة مزية فى الفخر عليهن » ولا يقطع هذه العقبة إلا أهل البصائر والصدق من أولى العلم ، السائرين على جادة التوفيق ، قد أنزلوا الأعمال منازلها ، وأعطوا كل ذى حق حقه .

فإذا نجا منها لم يبق هناك عقبة يطلبه العدو عليها سوى واحدة لابد منها . ولو نجا منها أحد لنجا منها رسل الله وأنبياؤه ، وأكرم الخلق عليه . وهى عقبة

تسليط جنده عليه بأنواع الأذى ،باليد واللسان والقلب، على حسب مرتبته فى الخير . فكلما عَلَتْ مرتبته أجلب عليه العدو بخيله ورجله . وظاهَر عليه بجنده . وسلط عليه حز به وأهله بأنواع التسليط . وهذه العقبة لاحيلة له فى التخلص منها . فإنه كلما جد فى الاستقامة والدعوة إلى الله ، والقيام له بأمره ، جد العدو فى إغراء السفهاء به . فهو فى هذه العقبة قد لبس لأمة الحرب . وأخذ فى محاربة العدو لله و بالله . فعبوديته فيها عبودية خواص العارفين . وهى تسمى عبودية المراغمة ، ولا ينتبه لها إلا أولو البصائر التامة . ولا شيء أحب إلى الله من مراغمة وليه لعدوه ، و إغاظته له . وقد أشار سبحانه إلى هذه العبودية فى مواضع من كتابه .

أحدها : قوله (٤ : ١٠٠ ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مُراغماً كثيراً وسعة) سمى المهاجر الذى يهاجر إلى عبادة الله مراغماً يراغم به عدو الله وعدوه . والله يحب من وليه مراغمة عدوه ، و إغاظته . كما قال تعالى (٩ : ١٢٠ ذلك بأنهم لايصيبهم ظمأ ولا نَصَب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يَطَئُون مَوْطِئاً يغيظ الكفار . ولا ينالون من عدو نَيلا إلا كُتب لهم به عمل صالح . إن الله لايضيع أجر المحسنين) وقال تعالى فى مَثل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتباعه (٤٨ : ٢٩ ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شَطْأه فآزره . فاستغلظ . فاستوى عل سوقه . يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار) فمغايظة الكفار غاية محبو بة للرب مطلو بة له . فموافقته فيها من كمال العبودية . وشرع النبى صلى الله عليه وسلم للمصلى إذا سها فى صلاته سجدتين ، وقال « إن كانت صلاته تامة كانتا ترغمان أنف الشيطان » وفى رواية « ترغيما للشيطان » وسماهما « المرغمتين » .

فمن تعبد الله بمراغمة عدوه ، فقد أخذ من الصديقية بسهم وافر . وعلى قدر محبة العبد لر به ، وموالاته ومعاداته لعدوه ، يكون نصيبه من هذه المراغمة . ولأجل هذه المراغمة حمد التبختر بين الصفين ، والخيلاء والتبختر عند صدقة السر ،

حيث لا يراه إلا الله . لما فى ذلك من إرغام العدو . و بذل محبو به من نفسه وماله لله عز وجل .

وهذا باب من العبودية لا يعرفه إلا القليل من الناس . ومن ذاق طعمه ولذته بكى على أيامه الأول .

و بالله المستعان . وعليه التكلان . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وصاحب هذا المقام إذا نظر إلى الشيطان ، ولاحظه فى الذنب ، راغمه بالتوبة النصوح . فأحدثت له هذه المراغمة عبودية أخرى .

فهذه نبذة من بعض لطائف أسرار « التوبة » لا تستهزىء بها . فلعلك لا تظفر بها فى مصنف آخر ألبتة . ولله الحمد والمنة . و به التوفيق .

فصل

قال صاحب المنازل « اللطيفة الثالثة : أن مشاهدة العبد الحكم لم تدع له استحسان حسنة ، ولا استقباح سيئة . لصعوده من جميع المعانى إلى معنى الحكم »

هذا الكلام ـ إن أخذ على ظاهره ـ فهو من أبطل الباطل ، الذى لولا إحسان الظن بصاحبه وقائله ، ومعرفة قدره من الإمامة والعلم والدين ، لنُسِب إلى لازم هذا الكلام . ولكن من عدا المعصوم ـ صلى الله عليه وسلم ـ فمأخوذ من قوله ومتروك . ومن ذا الذى لم تَزِلَّ به القدم . ولم يكب به الجواد ؟ .

ومعنى هذا : أن العبد مادام فى مقام التفرقة ، فإنه يستحسن بعض الأفعال . و يستقبح بعضها ، نظراً إلى ذواتها وما افترقت فيه . فإذا تجاوزها نظر إلى مصدرها الأول ، وصدورها عن عين الحكم ، واجتماعها كلها فى تلك العين ، وانسحاب ذيل المشيئة عليها ، ووحدة المصدر . وهو المشيئة الشاملة العامة الموجبة . فهى بالنسبة إلى مصدر الحكم ، وعين المشيئة : لا توصف بحسن ولا قبح . إذ الحسن والقبح إنما عرضا لها عند قيامها بالكون ، وجريانها عليه . فهى بمنزلة نور الشمس واحد فى نفسه غير متلون . ولا يوصف بحمرة ولا صفرة ولا خضرة . فإذا اتصل

بالمحالّ المتلونة وصف حينئذ بحسب تلك المحال . لإضافته إليها ، واتصاله بهـا . فيُرَى أحمر وأصفر وأخضر . وهو برىء من ذلك كله ، إذا صعد من تلك المحال إلى مصدره الأول ، المجرد عن القوابل . فهذا أحسن مايحمل عليه كلامه .

على أن له محملا آخر مبنياً على أصول فاسدة . وهى أن إرادة الرب تعالى هى عين محبته ورضاه . فكل ماشاءه فقد أحبه ورضيه . وكل مالم يشأه فهو مسخوط له مبغوض ، فالمبغوض المسخوط هو مالم يشأه . والمحبوب المرضى هو ما شاءه .

هذا أصل عقيدة القدرية الجبرية ، المنكرين للحكَم والتعليل والأسباب ، وتحسين العقل وتقبيحه ، وأن الأفعال كلها سواء ، لايختص بعضها بما صار حسناً لأجله ، و بعضها بما صار قبيحاً لأجله . و يجوز فى العقل أن يأمر بما نهى عنه ، و ينهى عما أمر به ، ولا يكون ذلك مناقضاً للحكمة .

إذ الحكمة ترجع عندهم إلى مطابقة العلم الأزلى لمعلومه ، والإرادة الأزلية لمرادها . والقدرة لمقدورها . فإذا الأفعالُ بالنسبة إلى المشيئة والإرادة مستوية . لاتوصف بحسن ولا قبح . فإذا تعلق بها الأمر والنهى صارت حينئذ حسنة وقبيحة وليس حسنها وقبحها أمراً زائداً على كونها مأموراً بها ومنهياً عنها . فعلى هذا إذا صعد العبد من تفرقة الأمر والنهى إلى جمع المشيئة والحكم ، لم يستحسن حسنة . ولم يستقبح قبيحة . فإذا نزل فَرْقَ الأمر : صح له الاستحسان والاستقباح . فهذا محمل ثانٍ لكلامه .

وله محمل ثالث ـ هو أبعد الناس منه ، ولكن قد حُمل عليه ـ وهو أن السالك مادام محجوباً عن شهود الحقيقة بشهود الطاعة والمعصية . رأى الأفعال بعين الحسن والقبح . فرأى منها الطاعة والمعصية . فإذا ترقَّى إلى شهود الحقيقة الأولى . وهى الحقيقة الكونية . ورأى شمول الحكم الكونى للكائنات و إحاطته بها ، وعدم خروج ذرة منها عنه ، زال عنه استقباح شىء من الأفعال ، وشهدها

كلها طاعات للأقدار والمشيئة[١] . وفى مثل هذا الحال يقول : إن كنت عصيتُ الأمر . فقد أطعت الإرادة . ويقول :

أصبحت منفعلاً لما تختاره مِنِّى ، ففعلى كله طاعات

فإذا ترقَّى مرتبة أخرى ، وزال عنه الفرق بين الرب والعبد ـ كما زال عنه فى المرتبة الثانية : الفرق بين المحبوب والمسخوط ، والمأمور والمحظور ـ قال : ما ثَمَّ طاعة ، ولا معصية . إذ الطاعة والمعصية إنما يكونان بين اثنين ضرورة ، والمطيع عين المطاع . فما هٰهنا غير . فالوحدة المطلقة تنفى الطاعة والمعصية . فالصعود من وحدة الفعل إلى وحدة الوجود ، يزيل عنه ـ بزعمه ـ توهم الانقسام إلى طاعة ومعصية ، كما كان الصعود من تفرقة الأمر إلى وحدة الحكم ، يزيل عنه ثبوت المعصية .

وهذا عند القوم من الأسرار التى لا يستجيزون كشفها إلا لخواصهم . وأهل الوصول منهم[٢] .

لكن صاحب المنازل برىء من هؤلاء وطريقتهم . وهو مكفر لهم ، بل مخرج لهم من جملة الأديان . ولكن ذكرنا ذلك ، لأنهم يحملون كلامه عليه . ويظنونه منهم .

(١) أو هو على الأصل عندهم : أن الحكم الطبعى فى أن وجود كل شىء هو وجود ربهم . فليس ثم قبيح ولا حسن . لأن كل تطور وصفة فهى طبيعية ، ليست بفعل فاعل مختار .

(٢) وجدنا فى هامش الأصل هنا مانصه : بئست الأسرار هذه . فهى عين الكفر والإلحاد ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيرا . بل نشهد أن الله عز وجل بائن من خلقه ، مستو على عرشه ، ليس فى خلقه شىء من ذاته ، ولا فى ذاته شىء من خلقه ، وأنه يحب الطاعة وأهلها ويثيبهم عليها . ويكره المعاصى ويبغض أهلها ويعاقبهم عليها ، أو يغفرها إن شاء . ويتوب على من تاب . فاحذر هذه الطريقة ، فإنها طريقة الاتحادية القائلين بوحدة الوجود . وأنه ما ثم رب وعبد . تعالى الله عن إفكهم علواً كبيرا .

فاعلم أن هذا مقام عظيم . زلت فيه أقدام طائفتين من النـاس : طائفة من أهل الـكلام والنظر ، وطائفة من أهل السلوك والإرادة .

فنفى لأجله كثير من النظار التحسين والتقبيح العقليين . وجعلوا الأفعال كلها سواء فى نفس الأمر ، وأنها غير منقسمة فى ذواتها إلى حسن وقبيح . ولا يميز القبيح بصفة اقتضت قبحه ، بحيث يكون منشأ القبح . وكذلك الحسن . فليس للفعل عندهم منشأ حسن ولا قبح . ولا مصلحة ولا مفسدة ، ولا فرق بين السجود للشيطان ، والسجود للرحمن فى نفس الأمر . ولا بين الصدق والـكذب ، ولا بين السفاح والنكاح . إلا أن الشارع حرم هذا وأوجب هذا . فمعنى حسنه : كونه مأموراً به ، لا أنه منشأ مصلحة . ومعنى قبحه : كونه منهياً عنه . لا أنه منشأ مفسدة ، ولا فيه صفة اقتضت قبحه . ومعنى حسنه : أن الشارع أمر به . لا أنه منشأ مصلحة ، ولا فيه صفة اقتضت حسنه .

وقد بينا بطلان هـذا المذهب من ستين وجهاً فى كتابنا المسمى « تحفة النازلين بجوار رب العالمين » وأشبعنا الكلام فى هذه المسألة هناك . وذكرنا جميع ما احتج به أرباب هذا المذهب . و بينا بطلانه .

فإن هذا المذهب ـ بعد تصوره ، وتصور لوازمه ـ يجزم العقل ببطلانه . وقد دل القرآن على فساده فى غير موضع ، والفطرة أيضاً وصريح العقل .

فإن الله سبحانه فَطَرَ عباده على استحسان الصدق والعدل ، والعفة والإحسان ، ومقابلة النعم بالشـكر . وفَطَرَهم على استقباح أضدادها . ونسبة هذا إلى فطرهم وعقولهم كنسبة الحلو والحامض إلى أذواقهم ، وكنسبة رائحة المسك ورائحة النَّتْن إلى مشامِّهم ، وكنسبة الصوت اللذيذ وضده إلى أسماعهم . وكذلك كل مايدركونه بمشاعرهم الظاهرة والباطنة . فيفرقون بين طيبه وخبيثه ، ونافعه وضاره .

وقد زعم بعض نفاة التحسين والتقبيح : أن هذا متفق عليه . وهو راجع إلى

الملائمة والمنافرة ، بحسب اقتضاء الطباع ، وقبولها للشيء ، وانتفاعها به ، ونفرتها من ضده .

قالوا : وهذا ليس الكلام فيه . و إنما الكلام فى كون الفعل مُتَعَلّقاً للذم والمدح عاجلاً ، والثواب والعقاب آجلا . فهذا الذى نفيناه ، وقلنا : إنه لايعلم إلا بالشرع . وقال خصومنا : إنه معلوم بالعقل . والعقل مقتضٍ له .

فيقال : هذا فرار من الزحف . إذ هٰهنا أمران متغايران لا تلازم بينهما .

أحدهما : هل الفعل نفسه مشتمل على صفة اقتضت حسنه وقبحه ، بحيث ينشأ الحسن والقبح منه . فيكون منشأ لهما أم لا ؟

والثانى : أن الثواب المرتب على حسن الفعل ، والعقاب المرتب على قبحه ، ثابت ــ بل واقع ــ بالعقل ، أم لا يقع إلا بالشرع ؟

ولما ذهب المعتزلة ومن وافقهم إلى تلازم الأصلين استطلتم عليهم . وتمكنتم من إبداء تناقضهم وفضائحهم . ولما نفيتم أنتم الأصلين جميعاً استطالوا عليكم . وأبدوا من فضائحكم وخلافكم لصريح العقل والفطرة ما أبدوه . وهم غلطوا فى تلازم الأصلين . وأنتم غلطتم فى نفى الأصلين .

والحق الذى لايجد التناقض إليه السبيل : أنه لاتلازم بينهما ، وأن الأفعال فى نفسها حسنة وقبيحة ، كما أنها نافعة وضارة . والفرق بينهما كالفرق بين المطعومات والمشمومات والمرئيات . ولكن لا يترتب عليهما ثواب ولا عقاب إلا بالأمر والنهى . وقبل ورود الأمر والنهى لا يكون قبيحاً موجباً للعقاب مع قبحه فى نفسه . بل هو فى غاية القبح . والله لايعاقب عليه إلا بعد إرسال الرسل . فالسجود للشيطان والأوثان ، والكذب والزنا ، والظلم والفواحش . كلها قبيحة فى ذاتها . والعقاب عليها مشروط بالشرع .

فالنفاة يقولون : ليست فى ذاتها قبيحة . وقبحها والعقاب عليها إنما ينشأ بالشرع والمعتزلة تقول :قبحها والعقاب عليها ثابتان بالعقل .

وكثير من الفقهاء من الطوائف الأربع يقولون : قبحها ثابت بالعقل . والعقاب متوقف على ورود الشرع . وهو الذى ذكره سعد بن علي الزنجانى من الشافعية ، وأبو الخطاب من الحنابلة . وذكره الحنفية وحكوه عن أبى حنيفة نصا . لكن المعتزلة منهم يصرحون بأن العقاب ثابت بالعقل .

وقد دل القرآن أنه لاتلازم بين الأمرين . وأنه لايعاقب إلا بإرسال الرسل . وأن الفعل نفسه حسن وقبيح . ونحن نبين دلالته على الأمرين .

أما الأول : ففى قوله تعالى (١٧ : ١٥ وما كنا مُعذِّبين حتى نبعث رسولا) وفى قوله (٤ : ١٦٥ رسُلا مُبشِّرين ومُنذِرين ، لئلاّ يكونَ للناس عل الله حجة بعد الرسل) وفى قوله (٦٧ : ٨ ، ٩ كلما أُلقِيَ فيها فَوْجٌ سألهم خزنتها : ألم يأتكم نذير ؟ قالوا : بلى . قد جاءنا نذير . فكذَّبنا . وقلنا : مانزّل الله من شيء) فلم يسألوهم عن مخالفتهم للعقل ، بل للنذُر . وبذلك دخلوا النار . وقال تعالى (٦ : ١٣٠ يامعشر الجنِّ والإنس ، ألم يأتِكم رسُلٌ منكم يَقُصُّون عليكم آياتى ، وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا : شهدنا على أنفسنا . وغرَّتهم الحياة الدنيا . وشهدوا على أنفسهم : أنهم كانوا كافرين) وفى الزُّمَر (٣٩ : ٧١ ألم يأتكم رسلٌ منكم يَتْلُون عليكم آيات ربكم . وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟) ثم قال فى الأنعام بعدها (٦ : ١٣١ ذلك أنْ لم يكنْ ربُّك مُهلِكَ القُرَى بظلم وأهلها غافلون) وعلى أحد القولين — وهو أن يكون المعنى : لم يهلكهم بظلمهم قبل إرسال الرسل — فتكون الآية دالة على الأصلين: أن أفعالهم وشِرْكهم ظلم قبيح قبل البعثة . وأنه لا يعاقبهم عليه إلا بعد الإرسال . وتكون هذه الآية فى دلالتها على الأمرين نظير الآية التى فى القصص (٢٨ : ٤٧ ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدَّمت أيديهم ، فيقولوا : ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا ؟ فنتَّبع آياتك ونكون من المؤمنين) فهذا يدل على أن ماقدَّمت أيديهم سببٌ لنزول المصيبة بهم . ولولا قبحه لم يكن سببا . لكن امتنع إصابة المصيبة لانتفاء شرطها . وهو عدم مجيء الرسول إليهم . فمذ جاء الرسول

انعقد السبب ، ووجد الشرط . فأصابهم سيئات ماعملوا . وعوقبوا بالأول والآخر .

فصل

وأما الأصل الثانى ـ وهو دلالته على أن الفعل فى نفسه حسن وقبيح ـ فكثير جدا . كقوله تعالى (٧: ٢٨ ، ٢٩ وإذا فعلوا فاحشةً قالوا : وجدنا عليها آباءنا . والله أمرنا بها قل : إن الله لايأمر بالفحشاء . أتقولون على الله مالا تعلمون ؟ * قل أمر ربِّى بالقِسْط . وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد ، وادعوه مخلصين له الدين ، كما بدأكم تعودون . فريقاً هدى . وفريقاً حقَّ عليهم الضلالةُ . إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله . ويحسبون أنهم مهتدون * يابنى آدم ، خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ، ولا تُسرفوا . إنه لايحب المسرفين . قل : من حَرَّم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل : هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة . كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون . قل : إنما حَرَّم ربى الفواحشَ ماظهر منها وما بطن ، والإثمَ والبَغْى بغير الحقِّ ، وأن تشركوا بالله مالم يُنَزِّل به سلطانا . وأن تقولوا على الله مالاتعلمون) فأخبر سبحانه أن فعلهم فاحشةٌ قبل نهيه عنه . وأمر باجتنابه بأخذِ الزينة . و «الفاحشة» هٰهنا هى طوافهم بالبيت عُراة ـ الرجال والنساء ـ غير قريش[1] ثم قال تعالى

(١) كانت قريش هى التى تقوم بتطويف الحجاج والمعتمرين ، وقيادتهم فى كل مناسك الحج وشعائره . ويأخذون منهم مايعيشون به ، استجابة لدعوة أبيهم إبراهيم (١٤ : ٣٧ ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة . فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم . وارزقهم من الثمرات . لعلهم يشكرون) فرزقهم الله مما أهوت إليهم أفئدتهم ، ولكن أكثرهم لم يقم الصلاة كما أحب الله ، ولا شكر لله . بل كفروا ، واتخذوا الآلهة والأنداد من الموتى ، فكانت صلتهم بأوليائهم أقوى من صلتهم بالله رب العالمين . وكان الشيطان مولاهم من دون الله . فقلل فى أعينهم من نعمة الله فيما يسوق إليهم من الأرزاق . وأوحى إليهم أن يشرعوا للناس بدعة فاحشة : أن لايطوف أحد بالبيت إلا فى ثياب من عند قريش=

« إن الله لايأمر بالفحشاء » أى لايأمر بما هو فاحشة فى العقول والفطر . ولو كان إنما علم كونه فاحشة بالنهى ، وأنه لامعنى لكونه فاحشة إلا تعلق النهى به ، لصار معنى الكلام : إن الله لايأمر بما ينهى عنه . وهذا يصان عن التكلم به آحاد العقلاء ، فضلا عن كلام العزيز الحكيم . وأى فائدة فى قوله « إن الله لايأمر بما ينهى عنه » ؟ فإنه ليس لمعنى كونه « فاحشة » عندهم إلا أنه منهىٌّ عنه . لا أن العقول تستفحشه .

ثم قال تعالى « قل أمر ربى بالقسط » والقسط عندهم : هو المأمور به . لا أنه قِسْط فى نفسه . فحقيقة الكلام : قل أمر ربى بما أمر به .

ثم قال « قل مَنْ حرم زينة الله التى أخرج لعباده . والطيبات من الرزق ؟» دل على أنه طيب قبل التحريم ، وأن وصف الطيب فيه مانع من تحريمه مناف للحكمة .

ثم قال « قل إنما حرم ربى الفواحش ماظهر منها ومابطن » ولو كان كونها فواحش إنما هو لتعلق التحريم بها ، وليست فواحش قبل ذلك ، لكان حاصل الكلام : قل إنما حرم ربى ماحَرَّم . وكذلك تحريم الإثم والبغى ، فكون ذلك فاحشة و إثما و بغيا بمنزلة كون الشرك شركا . فهو شرك فى نفسه قبل النهى و بعده.

فمن قال : إن الفاحشة والقبائح والآثام إنما صارت كذلك بعد النهى . فهو بمنزلة من يقول : الشرك إنما صار شركا بعد النهى . وليس شركا قبل ذلك .

ومعلوم أن هذا وهذا مكابرة صريحة للعقل والفطرة . فالظلم ظلم فى نفسه قبل النهى و بعده . والقبيح قبيح فى نفسه قبل النهى و بعده . والفاحشة كذلك ، وكذلك الشرك . لا أن هذه الحقائق صارت بالشرع كذلك .

= الحمس . وأن يخلعوا ثيابهم ويجعلوها لقى تحت أقدام الطائفين حول الكعبة . فانقاد الناس لهم بالتقليد وأصبح مورداً لقريش يتحكمون به فى الناس كما يشاءون . ثم أوحى إليهم أن يزيدوا فى الأثمان كلما رأوا إقبال الناس . حتى عجز أكثر الناس . وطلبوا من السادة المستكبرين الرخصة عن الثمن . فقالوا : لابد من ذلك ، وإلا فطوفوا عراة ، فطافوا عراة .

نعم الشارع كساها بنهيه عنها قبحاً إلى قبحها . فكان قبحها من ذاتها ، وازدادت قبحا عند العقل بنهى الرب تعالى عنها ، وذَمّه لها ، و إخباره ببغضها و بغض فاعلها . كما أن العدل والصدق والتوحيد ، ومقابلةَ نِعمَ المنعم بالثناء والشكر : حسن فى نفسه ، وازداد حسنا إلى حسنه بأمر الرب به ، وثنائه على فاعله . و إخباره بمحبته ذلك ومحبة فاعله .

بل من أعلام نبوة محمد صلى الله عليه وسلم : أنه يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، و يُحِلُّ لهم الطيبات . و يُحرِّم عليهم الخبائث .

فلو كان كونه معروفا ومنكراً وخبيثا وطيباً إنما هو لتعلق الأمر والنهى والحل والتحريم به ، لكأن بمنزلة أن يقال : يأمرهم بما يأمرهم به . و ينهاهم عما ينهاهم عنه . ويحل لهم مايحل لهم . ويحرم عليهم مايحرم عليهم ! وأى فائدة فى هذا ؟ وأى عَلَم يبقى فيه لنبوته ؟ وكلام الله يصان عن ذلك ، وأن يُظَن به ذلك . و إنما المدح والثناء والعَلَمَ الدال على نبوته : أن مايأمر به تشهد العقول الصحيحة حسنهُ وكونه معروفا . وما ينهى عنه تشهد قبحه وكونه منكراً . وما يحله تشهد كونه طيبا . وما يحرمه تشهد كونه خبيثا . وهذه دعوة جميع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم . وهى بخلاف دعوة المتغلبين المبطلين . والكذابين والسحرة . فإنهم يدعون إلى مايوافق أهواءهم وأغراضهم من كل قبيح ومنكر و بغى و إثم وظلم .

ولهذا قيل لبعض الأعراب ـ وقد أسلم ، لما عرف دعوته صلى الله عليه وسلم ـ عن أى شىء أسلمت ؟ وما رأيت منه مما دلك على أنه رسول الله ؟ قال « ما أمر بشىء ، فقال العقل : ليته نهى عنه . ولا نهى عن شىء ، فقال العقل : ليته أمر به . ولا أحلَّ شيئاً . فقال العقل : ليته حرمه . ولا حرَّم شيئاً ، فقال العقل : ليته أباحه » فانظر إلى هذا الأعرابى ، وصحة عقله وفطرته ، وقوة إيمانه ، واستدلاله على صحة دعوته بمطابقة أمره لكل ما حسن فى العقل . وكذلك مطابقة تحليله وتحريمه ولو كان جهة الحسن والقبح والطيب والخبث : مجرد تعلق الأمر والنهى والإباحة

والتحريم به : لم يحسن منه هذا الجواب ، ولكان بمنزلة أن يقول : وجدته يأمر وينهى ، ويبيح ويحرم . وأى دليل فى هذا ؟ .

كذلك قوله تعالى (١٦ : ٩٠ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ، وإيتاء ذى القربى . وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى) .

وهؤلاء يزعمون : أن الظلم فى حق عباده هو المحرم والمنهى عنه ، لا أن هناك فى نفس الأمر ظلماً نهى عنه . وكذلك الظلم الذى نزه نفسه عنه هو الممتنع المستحيل . لا أن هناك أمراً ممكناً مقدوراً لو فعله لكان ظلماً . فليس فى نفس الأمر عندهم ظلم منهى عنه ولا منزه عنه . إنما هو المحرم فى حقه . والمستحيل فى حقه ، فالظلم المنزه عنه عندهم : هو الجمع بين النقيضين ، وجعل الجسم الواحد فى مكانين فى آن واحد ، ونحو ذلك .

والقرآن صريح فى إبطال هذا المذهب أيضاً . قال الله تعالى (٥٠ : ٢٧-٢٩ قال قَرِينه : ربنا ما أطْغَيْتُه . ولكن كان فى ضلال بعيد * قال : لا تختصموا لَدَىّ وقد قَدَّمت إليكم بالوعيد * مايُبَدَّلُ القولُ لَدَىّ . وما أنا بظلام للعبيد) أى لا أؤاخذ عبداً بغير ذنب ، ولا أمنعه من أجر ماعمله من صالح . ولهذا قال قبله (وقد قدمت إليكم بالوعيد) المتضمن لإقامة الحجة ، وبلوغ الأمر والنهى . وإذا آخذتكم بعد التقدم فلست بظالم ، بخلاف من يؤاخذ العبد قبل التقدم إليه بأمره ونهيه . فذلك الظلم الذى تنزه الله سبحانه وتعالى عنه .

وقال تعالى (٢٠ : ١١٢ ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن فلا يخاف ظلماً ولا هَضْماً) يعنى لا يُحمل عليه من سيئات مالم يعمله ، ولاينقص من حسنات ماعمل . ولو كان الظلم هو المستحيل الذى لا يمكن وجوده : لم يكن لعدم الخوف منه معنى ، ولا للأمن من وقوعه فائدة .

وقال تعالى (٤١ : ٤٦ من عمل صالحاً فلنفسه . ومن أساء فعليها . وما ربك بظلام للعبيد) أى لا يحمل المسىء عقاب مالم يعمله . ولا يمنع المحسن من ثواب عمله

وقال تعالى (١١ : ١٦٧ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون) فدل على أنه لو أهلكهم مع إصلاحهم لكان ظالماً . وعندهم يجوز ذلك . وليس بظلم لو فعل . ويؤولون الآية على أنه سبحانه أخبر أنه لا يهلكهم مع إصلاحهم ، وعلم أنه لايفعل ذلك . وخلاف خبره ومعلومه مستحيل . وذلك حقيقة الظلم . ومعلوم أن الآية لم يقصد بها هذا قطعا . ولا أريد بها . ولا تحتمله بوجه ، إذ يؤول معناها إلى أنه ما كان ليهلك القرى بظلم بسبب اجتماع النقيضين وهم مصلحون . وكلامه تعالى يتنزه عن هذا و يتعالى عنه .

وكذلك عند هؤلاء أيضاً : العبث والسُّدَى والباطل ، كلها هى المستحيلات الممتنعة التى لاتدخل تحت المقدور . والله سبحانه قد نَزَّه نفسه عنها . إذ نسبه إليها أعداؤه المكذبون بوعده ووعيده . المنكرون لأمره ونهيه . فأخبر أن ذلك يستلزم كون الخلق عبثاً و باطلاً . وحكمته وعزته تأبى ذلك . قال تعالى (٢٣:١١٥ أفحسبتم أنَّما خلقناكم عَبَثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ؟) أى لغير شىء ، لا تؤمرون ولا تنهون . ولاتثابون ولاتعاقبون . والعبث قبيح . فدل على أن قبح هذا مستقر فى الفطر والعقول . ولذلك أنكره عليهم إنكار مُنَبِّه لهم على الرجوع إلى عقولهم وفطرهم . وأنهم لو فكروا وأبصروا لعلموا أنه لايليق به ، ولا يحسن منه أن يخلق خلقه عبثاً ، لا لأمر ولا لنهى ، ولا لثواب ولا لعقاب . وهذا يدل على أن حسن الأمر والنهى والجزاء مستقر فى العقول والفطر . وأن من جَوَّز على الله الإخلال به فقد نسبه إلى مالا يليق به ، و إلى ماتأباه أسماؤه الحسنى وصفاته العليا .

وكذلك قوله تعالى (٧٥ : ٣٦ أيحسب الإنسان أن يترك سُدًى ؟) قال الشافعى : مهملا لايؤمر ولاينهى . وقال غيره : لايثاب ولايعاقب . وهما متلازمان . فأنكر على من يحسب ذلك ، فدل على أنه قبيح تأباه حكمته وعزته ، وأنه لا يليق به . ولهذا استدل على أنه لايتركه سدًى بقوله (٧٥ : ٣٧ ، ٣٨ ألم يك نُطفة من مَنِىٍّ يُمْنَى ؟ ثم كان عَلَقَة فخلق فسَوّى) إلى آخر السورة . ولو كان قبحه

إنما علم بالسمع لـكان يستدل عليه بأنه خلاف السمع ، وخلاف ما أعلمناه وأخبرنا به . ولم يكن إنكاره لـكونه قبيحاً فى نفسه . بل لـكونه خلاف ما أخبر به . ومعلوم أن هذا ليس وجه الـكلام .

وكذلك قوله (٣٨ : ٢٧ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما باطلا . ذلك ظن الذين كفروا) والباطل الذى ظنوه : ليس هو الجمع بين النقيضين . بل الذى ظنوه : أنه لاشرع ولا جزاء ، ولا أمر ولا نهى ، ولا ثواب ولا عقاب . فأخبر أن خلقها لغير ذلك هو الباطل الذى تنزه عنه . وذلك هو الحق الذى خلقت به . وهو التوحيد . وحَقُّه وجزاؤه وجزاء من جحده وأشرك به .

وقال تعـالى (٤٥ : ٢١ أم حسب الذين اجترحوا السيئاتِ أن نَجْعلَهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء . محياهم ومماتُهم ؟ ساء مايحكمون) فأنـكر سبحانه هذا الحسبان إنكار منبه للعقل على قبحه ، وأنه حُـكم سَيِّء . والحاكم به مسىء ظالم . ولو كان قبحه لـكونه خلاف ما أخبر به لم يكن الإنكار لما اشتمل عليه من القبح اللازم من التسـوية بين المحسن والمسىء ، المستقر قبحه فى فطر العالمين كلهم . ولا كان هنا حكم سىء فى نفسه ينـكر على من حكم به .

وكذلك قوله (٣٨ : ٢٨ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض ؟ أم نجعل المتقين كالفجار ؟) وهذا استفهام إنـكار . فدل على أن هذا قبيح فى نفسه ، منكر تنكره العقول والفطر . أفتظنون أن ذلك يليق بنا أو يحسن منا فعله ؟ فأنكره سبحانه إنكار منبه للعقل والفطرة على قبحه . وأنه لايليق بالله نسبته إليه .

وكذلك إنكاره سبحانه قبح الشرك به فى إلٰهيته ، وعبادة غيره معه بما ضرب به لهم من الأمثال ، وأقام على بطلانه من الأدلة العقلية ، ولو كان إنما قبح بالشرع لم يكن لتلك الأدلة والأمثال معنى .

وعند نفاة التحسين والتقبيح : يجوز فى العقل أن يأمر بالإشراك به و بعبادة غيره ! و إنما عُلم قبحه بمجرد النهى عنه !

فياعجباً ! أى فائدة تبقى فى تلك الأمثـال والحجج ، والبراهين الدالة على قبحه فى صريح العقول والفطر ؟ وأنه أقبح القبيح وأظلم الظلم ؟ وأى شىء يصح فى العقل إذا لم يكن فيه علم بقبح الشرك الذاتى ، وأن العلم بقبحه بديهى معلوم بضرورة العقل ، وأن الرسل نبهوا الأمم على مافى عقولهم وفطرهم من قبحه ، وأن أصحابه ليست لهم عقول ولا ألباب ولا أفئدة . بل نفى عنهم السمع والبصر . والمراد : سمع القلب و بصره . فأخبر أنهم صم بكم عمى . وذلك وصف قلوبهم أنها لاتسمع ولا تبصر ولا تنطق . وشبههم بالأنعام التى لاعقول لها تميز بها بين الحسن والقبيح ، والحق والباطل . ولذلك اعترفوا فى النار بأنهم لم يكونوا من أهل السمع والعقل (١) . وأنهم لو رجعوا إلى أسماعهم وعقولهم لعلموا حسن ماجاءت به الرسل وقبح مخالفتهم .

قال الله تعالى حاكياً عنهم (٦٧ : ١١٠ وقالوا : لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير) وكم يقول لهم فى كتابه (أفلا تعقلون ؟) (لعلـكم تعقلون) . فينبههم على مافى عقولهم وفطرهم من الحسن والقبيح . و يحتج عليهم بها ، و يخبر

---

(١) يقول الله عنهم (٣٢ : ١٢ ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عنـد ربهم ، ر بنا أبصرنا وسمعنا . فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون) ويقول (٧:١٧٩ لهم قلوب لايفقهون بها . ولهم أعين لايبصرون بها . ولهم آذان لايسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل . أولئك هم الغافلون) إذ عطلوا نعم الله عليهم فى السمع والبصر والفؤاد بالتقليد الأعمى للآباء والشيوخ . فـكانوا غافلين عن سنن الله وآياته فيهم ورسالاته العلمية لهم ، زاعمين أن الله حرم عليهم النظر والتفكر والفهم لرسالاته . لأنه ظلمهم بحرمهم من أسباب الفهم . وأغلق دونهم بابه . فلما تبين لهم يومئذ ضلالهم قالوا للذين استكبروا : إنا كنا لـكم تبعاً . فهل أنتم مغنون عنا نصيبنا من النار ؟ قال الذين استكبروا : إنا كل فيها . إن الله قد حكم بين العباد .

أنه أعطاهموها لينتفعوا بها ، و يميزوا بها بين الحسن والقبيح والحق والباطل .

وكم فى القرآن من مَثَلٍ عقلىٍّ وحسّى ينبه به العقول على حسن ما أمر به ، وقبح مانهى عنه . فلولم يكن فى نفسه كذلك لم يكن لضرب الأمثال للعقول معنى، ولـكان إثبات ذلك بمجرد الأمر والنهى ، دون ضرب الأمثال ، وتبيين جهة القبح المشهودة بالحسن والعقل .

والقرآن مملوء بهذا لمن تدبره . كقوله تعالى (٣٠ : ٢٨ ضرب لـكم مثلا من أنفسكم : هل لـكم مما ملـكت أيمانـكم من شركاء فيما رزقناكم . فأنتم فيه سواء ، تخافونهم كخيفتكم أنفسكم ؟ كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون) يحتج سبحانه عليهم بما فى عقولهم من قبح كون مملوك أحدهم شريكا له . فإذا كان أحدكم يستقبح أن يكون مملوكه شريكه ، ولا يرضى بذلك . فـكيف تجعلون لى من عبيدى شركاء تعبدونهم كعبادتى ؟ وهـذا يبين أن قبح عبادة غير الله تعالى مستقر فى العقول والفطر . والسمع نَبَّه العقول وأرشدها إلى معرفة ما أودع فيها من قبح ذلك .

وكذلك قوله تعالى (٣٩ : ٢٩ ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سَلَماً لرجل ، هل يستويان مثلا ؟ الحمد لله بل أكثرهم لايعلمون) احتج سبحانه على قبح الشرك بما تعرفه العقول من الفرق بين حال مملوك يملـكه أرباب متعاسرون سيئو المَلَـكة ، وحال عبد يملـكه سيد واحد قد سَلِمَ كله له . فهل يصح فى العقول استواء حال العبدين ؟ فـكذلك حال المشرك والموحد الذى قد سلمت عبوديته لإلٰهه الحق ؟ لايستويان .

وكذلك قوله تعالى (٢ : ٢٦٤) ممثلا لقبح الرياء المبطل للعمل ، والمنِّ والأذى المبطل للصدقات : « صفوان » وهو الحجَر الأملس « عليه تراب » غبار قد لصق به « فأصابه مطر » شديد فأزال ماعليه من التراب « فتركه صَلْدا » أملس لاشىء عليه . وهذا المثل فى غاية المطابقة لمن فهمه . فـ« الصفوان » وهو الحجَر . كقلب

المرائى والمانّ والمؤذى . و « التراب » الذى لصق به ما تعلق به من أثر عمله وصدقته . و «الوابل» المطر الذى به حياة الأرض . فإذا صادفها ليِّنة قابلة : نَبَتَ فيها الـكلأ و إذا صادف الصخور والحجارة الصُّم : لم ينبت فيها شيئاً . فجاء هذا الوابل إلى التراب الذى على الحجر ، فصادفه رقيقاً ، فأزاله . فأفضى إلى حجر غير قابل للنبات .

وهذا يدل على أن قبح « المنّ ، والأذى ، والرياء » مستقر فى العقول . فلذلك نبهها على شَبهه ومثاله .

وعكس ذلك قوله تعالى (٢ : ٢٦٥ ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم ، كمثل جَنة برَبْوة أصابها وابل . فآتت أُ كُلها ضِعفين . فإن لم يصبها وابل فطلٌّ . والله بما تعملون بصير) فإن كانت هذه الجنة ـ التى بموضع عال ، حيث لا تُحجَب عنها الشمس والرياح ، وقد أصابها مطر شديد . فأخرجت ثمرتها ضِعفَى مايخرج غيرها ـ إن كانت مستحسنة فى العقل والحس . فكذلك نفقة من أنفق ماله لوجه الله ، لا لجزاء من الخلق ، ولا لشكور ، بل بثباتٍ من نفسه ، وقوة على الإنفاق ، لايخرج النفقة وقلبُه يَرْجُف على خروجها ، و يداه ترتعشان ، و يضعف قلبه ، و يخور عند الانفاق . بخلاف نفقة صاحب التثبيت والقوة .

ولما كان الناس فى الإنفاق على هذين القسمين : كان مثل نفقة صاحب الإخلاص والقوة والتثبيت : كمثل الوابل . ومثل نفقة الآخر كمثل الطل ، وهو المطر الضعيف . فهذا بحسب كثرة الإنفاق وقلته . وكمال الإخلاص والقوة واليقين فيه وضعفه . أفلا تراه سبحانه نبَّـه العقول على مافيها من استحسان هذا ، واستقباح فعل الأول ؟

وكذلك قوله (٢ : ٢٦٦ أيَوَدُّ أحدُ كم أن تـكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار ، له فيها من كل الثمرات . وأصابه الـكِبَر ، وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار ، فاحترقت ؟ كذلك يبين الله لـكم الآيات لعلكم تتفكرون)

فنبه سبحانه العقول على مافيها من قبح الأعمال السيئة التى تحبط ثواب الحسنات . وشَبَّهها بحال شيخ كبير له ذرية ضعفاء ، بحيث يخشى عليهم الضَّيْعة وعلى نفسه . وله بستان هو مادّةُ عيشه وعيش ذريته . فيه النخيل والأعناب ومن كل الثمرات . فأرجَى وأفقر ماهو له وأسَرُّ ما كان به إذ أصابه نار شديده فأحرقته . فنبه العقول على أن قبح المعاصى التى تغرق الطاعات كقُبح هذه الحال . و بهذا فسرها عمر ، وابن عباس رضى الله عنهم « لرجل غنى عمل بطاعة الله زمانا . فبعث الله له الشيطان . فعمل بالمعاصى حتى أغرق أعماله » ذكره البخارى فى صحيحه .

أفلا تراه نبه العقول على قبح المعصية بعد الطاعة ، وضرب لقبحها هذا المثل ؟

ونقاة التعليل والأسباب والحِكَم ، وحسنِ الأفعال وقبحها يقولون : ماثم إلا مَحْضُ المشيئة ، لا أن بعض الأعمال يبطل بعضا . وليس فيها ماهو قبيح لعينه . حتى يشبه بقبيح آخر . وليس فيها ماهو منشأ لمفسدة أو مصلحة تكون سبباً لها . ولا لها علل غائية هى مفضية إليها . و إنما هى متعلَّق المشيئة ، والإرادة والأمر والنهى فقط .

والفقهاء لايمكنهم البناء على هذه الطريقة ألبتة . فكلهم مجمعون — إذا تكلموا بلسان الفقه — على بطلانها . إذ يتكلمون فى العلل والمناسبات الداعية لشرع الحكم . و يفرقون بين المصالح الخالصة والراجحة والمرجوحة . والمفاسد التى هى كذلك . و يقدمون أرجح المصلحتين على مرجوحهما . و يدفعون أقوى المفسدتين باحتمال أدناهما . ولا يتم لهم ذلك إلا باستخراج الحِكَم والعلل ، ومعرفة المصالح والمفاسد الناشئة من الأفعال ، ومعرفة ربها .

وكذلك الأطباء لايصلح لهم علم الطب وعمله إلا بمعرفة قُوَى الأدوية والأمزجة ، والأغذية وطبائعها . ونسبة بعضها إلى بعض . ومقدار تأثير بعضها فى بعض . وانفعال بعضها عن بعض ، والموازنة بين قوة الدواء وقوة المرض وقوة المريض ، ودفع الضد بضده . وحفظ مايريدون حفظه بمثله ومناسبه . فصناعة الطب

وعمله مبنى على معرفة الأسباب والعلل ، والقوى والطبائع والخواص . فلو نفوا ذلك وأبطلوه ، وأحالوا على محض المشيئة وصِرْف الإرادة المجردة عن الأسباب والعلل . وجعلوا حقيقة النار مساوية لحقيقة الماء ، وحقيقة الدواء مساوية لحقيقة الغذاء ليس فى أحدهما خاصية ولا قوة يتميز بها عن الآخر : لفسد علم الطب . ولبطلت حكمة الله فيه . بل العالم مربوط بالأسباب والقوى ، والعلل الفاعلية والغائية .

وعلى هذا قام الوجود بتقدير العزيز العليم ، والكل مربوط بقضائه وقدره ومشيئته . ماشاء كان وما لم يشأ لم يكن . فإذا شاء سلب قوة الجسم الفاعل منه ومنع تأثيرها . وإذا شاء جعل فى الجسم المنفعل قوة تدفعها وتمنع موجبها مع بقائها . وهذا لكمال قدرته ونفوذ مشيئته .

والناس فى الأسباب والقوى والطبائع ثلاثة أقسام :

منهم : من بالغ فى نفيها وإنكارها . فأضحك العقلاء على عقله . وزعم أنه بذلك ينصر الشرع . فجنى على العقل والشرع . وسلط خصمه عليه .

ومنهم : من ربط العالم العلوى والسفلى بها بدون ارتباطها بمشيئة فاعل مختار . ومدبر لها يصرفها كيف أراد . فيسلب قوة هذا ويقيم لقوة هذا قوة تعارضه . ويكف قوة هذا عن التأثير مع بقائها ، ويتصرف فيها كما يشاء ويختار .

وهذان طرفان جائران عن الصواب .

ومنهم : من أثبتها خلقاً وأمراً ، قدراً وشرعاً . وأنزلها بالمحل الذى أنزلها الله به ، من كونها تحت تدبيره ومشيئته . وهى طوع المشيئة والإرادة ، ومحل جريان حكمها عليها . فيقوِّى سبحانه بعضها ببعض . ويبطل –إن شاء– بعضها ببعض . ويسلب بعضها قوته وسببيته ، ويُعرِيها منها . ويمنعه من موجبها مع بقائها عليه ، ليعلم خلقه أنه الفعال لما يريد . وأنه لامستقل بالفعل والتأثير غير مشيئته ، وأن التعلق بالسبب دونه كالتعلق ببيت العنكبوت ، مع كونه سبباً .

وهذا باب عظيم نافع فى التوحيد ، وإثبات الحِكَم . يوجب للعبد – إذا

تبصر فيه ـ الصعود من الأسباب إلى مسببها . والتعلق به دونها ، وأنها لا تضر ولا تنفع إلا بإذنه ، وأنه إذا شاء جعل نافعها ضاراً وضارها نافعاً ، ودواءها داء وداءها دواء . فالالتفات إليها بالكلية شرك مناف للتوحيد . و إنكار أن تكون أسبابا بالكلية قدح فى الشرع والحكمة . والإعراض عنها ـ مع العلم بكونها أسباباً ـ نقصان فى العقل . وتنزيلها منازلها ، ومدافعة بعضها ببعض ، وتسليط بعضها على بعض ، وشهود الجمع فى تفرقها ، والقيام بها : هو محض العبودية والمعرفة ، و إثبات التوحيد والشرع والقدر والحكمة . والله أعلم .

فصل

وأما غلط من غلط من أرباب السلوك والإرادة فى هذا الباب : فحيث ظنوا أن شهود الحقيقة الكونية ، والفناء فى توحيد الربوبية ، من مقامات العارفين . بل أَجَلُّ مقاماتهم . فساروا شائمين لبرق هذا الشهود . سالكين لأودية الفناء فيه . وحَثَّهم على هذا السير ، وَرغَّبهم فيه : ماشهدوه من حال أرباب الفَرْق الطبعى فأنفوا من صحبتهم فى الطريق . ورأوا مفارقتهم فرض عين لا بد منه . فلما عرض لهم الفرق الشرعى فى طريقهم . ورَدَ عليهم منه أعظم وارد فَرَّق جمعيتهم . وقَسَّم وحدة عزيمتهم . وحال بينهم و بين عين الجمع ، الذى هو نهاية منازل سيرهم . فافترقت طرقهم فى هذا الوارد العظيم .

فمنهم من اقتحمه ولم يلتفت إليه . وقال : الاشتغال بالأوراد عن عين المورود انقطاع عن الغاية . والقصد من الأوراد : الجمعية على الآمر . فما الاشتغال عن المقصود بالوسيلة بعد الوصول إليه ، والرجوع من حضرته إلى منازل السفر إليه ؟ وربما أنشد بعضهم :

يطالَب بالأوراد من كان غافلا ... فكيف بقلب كل أوقاته وِرْد ؟

فإذا اضطر أحدهم إلى التفرقة بوارد الأمر . قال : ينبغى أن يكون الفرق على اللسان موجوداً ، والجمع فى القلب مشهوداً .

ثم من هؤلاء: من يسقط الأوامر والنواهي جملة . ويرى القيام بها من باب ضبط ناموس الشرع ، ومصلحة العموم ، ومبادىء السير . فهي التي تحث أهل الغفلة على التشمير للسير . فإذا جَدَّ في المسير استغنى بقربه وجمعيته عنها .

ومنهم : من لا يرى سقوطها إلا عمن شهد الحقيقة الكونية . ووصل إلى مقام الفناء فيها . فمن كان هذا مشهده : سقط عنه الأمر والنهي عندهم .

وقد يقولون : شهود الإرادة يسقط الأمر . وفي هذا المشهد يقولون : العارف لا يستقبح قبيحة . ولا يستحسن حسنة .

ويقول قائلهم : العارف لاينكر منكراً . لاستبصاره بسر الله في القدر .

ويقولون : القيام بالعبادة مقام التلبيس . ويحتجون بقوله تعالى (٦ : ٩ ولَلَبسنا عليهم مايلبسون) .

وهذا من أقبح الجهل[1] . فإن هذا داخل في جواب « لو » التي ينتفي بها الملزوم ـ وهو المقدم ـ لانتفاء اللازم . وهو الجواب . وهو التالي . فانتفاء جعل الرسول ملَكا ـ كما اقترحوه ـ لانتفاء التلبيس من الله عليهم . والكفار كانوا قد قالوا (٦ : ٨ لولا أنزل عليه ملك؟) أي نعاينه ونراه . وإلا فالملك لم يزل يأتيه من عند الله بأمره ونهيه . فهم اقترحوا نزول ملك يعاينونه . فأخبر سبحانه عن الحكمة التي لأجلها لم يجعل رسوله إليهم من الملائكة . ولا أنزل ملكا يرونه . فقال (٦ : ٨ ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر ثم لا يُنْظَرون) أي لوجب العذاب وفُرغ من الأمر . ثم لا يمهلون إن أقاموا على التكذيب .

وهذا نظير قوله في سورة الحجر (١٥ : ٦ ـ ٨ وقالوا : ياأيها الذي نُزِّلَ عليه الذكر إنك لمجنون . لو ماتأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين) قال الله عز وجل (ماننزل الملائكة إلا بالحق . وما كانوا إذاً مُنْظَرِينَ) و « الحق » هٰهنا العذاب . ثم قال (٦ : ٩ ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلاً) أي لو أنزلنا عليهم

(١) بل من أشنع الكفر .

ملكا لجعلناه فى صورة آدمى ، إذ لا يستطيعون التلقى عن الملك فى صورته التى هو عليها . وحينئذ فيقع اللبس منا عليهم . لأنهم لايدرون : أرجل هو ، أم ملك ؟ ولو جعلناه رجلاً لخلطنا عليهم ، وشبهنا عليهم الذى طلبوه بغيره .

وقوله « مايلبسون » فيه قولان .

أحدهما : أنه جزاء لهم على لَبْسهم على ضعفائهم . والمعنى : أنهم شبهوا على ضعفائهم ، ولَبَّسُوا عليهم الحق بالباطل، فَشُبِّه عليهم . وتلبس عليهم المَلَك بالرجل .

والثانى : أنا نَلْبس عليهم ما لَبَسوا على أنفسهم . وأنهم خلطوا على أنفسهم . ولم يؤمنوا بالرسول منهم ، بعد معرفتهم صدقه . وطلبوا رسولا ملكياً يعاينونه . وهذا تلبيس منهم على أنفسهم . فلو أجبناهم إلى مااقترحوه لم يؤمنوا عنده . وللبسنا عليهم لَبْسهم على أنفسهم .

وأى تعلق لهذا بالتلبيس الذى ذكرتْه هذه الطائفة من تعليق الكائنات والمثوبات والعقوبات بالأسباب ، وتعليق المعارف بالوسائط ، والقضايا بالحجج ، والأحكام والعلل ، والانتقام بالجنايات ، والمثوبات بالطاعات ، مما هو محض الحكمة وموجبها .

وأثر اسمه « الحكيم » فى الخلق والأمر : إنما قام بالأسباب ، وكذلك الدنيا والآخرة . وكذلك الثواب والعقاب . فجعل الأسباب منصوبة للتلبيس من أعظم الباطل شرعاً وقدراً .

وإن الذى أوقع هؤلاء فى هذا الغلو : هو نفرتهم من أرباب الفَرْق الأول ، ومشاهدتهم قبح ما هم عليه .

وهم — لعمر الله — خير منهم ، مع ماهم عليه . فإنهم مقرون بالجمع والفرق ، وأن الله رب كل شىء ، ومليكه وخالقه ، وما شاء كان ومالم يشأ لم يكن ، وأنه فرّق بين المأمور والمحظور ، والمحبوب والمكروه . وإن كانوا كثيراً مايفرقون بأهوائهم ونفوسهم . فهم فى فَرْقهم النفسى : خير من أهل هذا الجمع . إذهم

مقرون أن الله يأمر بالحسنات ويحبها . وينهى عن السيئات ويبغضها . وإذا فرقوا بحسب أهوائهم ، وفرقوا بنفوسهم لم يجعلوا هذا الفرق دينـا يسقط عنهم أمر الله ونهيه . بل يعترفون أنه ذنب قبيح ، وأنهم مقصرون . بل مفرطون فى الفرق الشرعى . ونهاية مامعهم : صحة إيمان مع غفلة وفرق نفسانى . وأولئك معهم جمع ، وشهود يصحبه فساد إيمان ، وخروج عن الدين .

ومن العجب : أنهم فروا من فرق أولئك النفسى إلى جمع أسقط التفرقة الشرعية . ثم آل أمرهم إلى أن صار فَرْقهم كله نفسياً . فهم فى الحقيقة راجعون إلى فرقهم ، ولابد . فإن الفرق أمر ضرورى للإنسان ولابد . فمن لم يفرق بالشرع فرق بالنفس والهوى . فهم أعظم الناس اتباعاً لأهوائهم . يميلون مع الهوى حيث مال بهم ويزعمون أنه الحقيقة .

وبالجملة : فلهذا السـلوك لوازم عظيمة البطلان . منافية للإيمان . جالبة للخسران (٥٠ : ٦٠ أولئك شَرٌّ مكاناً وأضل عن سواء السبيل) .

وآخر أمر صاحبه : الفناء فى شهود الحقيقة العامة المشتركة بين الأبرار والفجار وبين الملائـكة والشياطين ، وبين الرسل وأعدائهم . وهى الحقيقة الـكونية القدرية . ومن وقف معها ولم يصعد إلى الفرق الثانى ـ وهو الحقيقة الدينية النبوية ـ فهو زنديق كافر .

فصـــــل

ومنهم : من لم ير إسقاط الفرق الثانى جملة . بل إنما يسقطه عن الواصل إلى عين الجمع ، الشـاهد للحقيقة . وما دام سالـكا ، أو محجوباً عن شهود الحقيقة : فالفرق لازم له .

وهؤلاء أيضاً من جنس الفريق الأول ، بل هم خواصهم . فإذا وصل واصلهم إلى شهود حقيقة الجمع : لم يجب عليه القيام بتفرقة الأوامر . وإن قام بها فلحفظ

المرتبة ، وضبط الناموس ، وحفظ السالكين عن الذهاب مع الفرق الطبيعى ، قبل شهودهم الحقيقة . و يسمون هذه الحال « تلبيساً » وقد تقدم ذكره .

وسيأتى إن شاء الله تعالى كشف هذا «التلبيس» الذى يشيرون إليه كشفاً بيناً .

وقد تقدم أنهم يحتجون على سقوط الفرق عمن شهد الحقيقة بقوله تعالى (١٥ : ٩٩ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) .

و يقولون : إن الرسول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ كان فى هذا المقام . و إنما كان فى قيامه بالأعمال تشريعاً . وقد ذكرنا أن « اليقين » الموت . وأنه من المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام : أن الأوامر والنواهى لا تسقط عن العبد مادام فى دار التكليف ، إلا إذا زال عقله وصار مجنوناً .

فصـــل

ومنهم : من يرى القيام بالأوامر والنواهى واجباً إذا لم تفرق جمعيته . فإذا فرقت جمعيته رأى الجمعية أوجب منها . فيزعم أنه يترك واجباً لما هو أوجب منه . وهذا أيضاً جهل وضلال .

فإن رأى أن الأمر لم يتوجه إليه فى حال الجمعية فهو كافر . و إن علم توجهه إليه ، وأقدم على تركه . فله حكم أمثاله من العصاة والفساق .

فصـل

ومنهم : من يرى الأمر لايسقط عنه . ولكن إذا ورد عليه وارد الفناء والجمع غَيَّب عقلَه واصطلمه . فلم يشعر بوقت الواجب ولا حضوره ، حتى يفوته فيقضيه . فهذا متى استدعى ذلك الفناء وطلبه ، فليس بمعذور فى اصطلامه . بل هو عاص لله فى استدعائه ما يعرضه لإضاعة حقه . وهو مفرط ، أمرُه إلى الله . ومتى هجم عليه بغير استدعاء ، وغلب عليه ـ مع مدافعته له ـ خشية إضاعة الحق . فهذا معذور . وليس بكامل فى حاله . بل الكمال وراء ذلك . وهو الانتقال عن وادى الجمع

والفناء ، والخروج عنه إلى أودية الفرق الثانى والبقاء . فالشأن كل الشأن فيه . وهو الذى كان ينادى عليه شيخ الطائفة على الاطلاق الجنيد بن محمد رحمه الله . ووقع بينه و بين أصحاب هذا الجمع والفناء ما وقع لأجله . فهجرهم وحَذَّر منهم . وقال : عليكم بالفرق الثانى . فإن الفرق فرقان . الفرق الأول : وهو النفسى الطبيعى المذموم . وليس الشأن فى الخروج منه إلى الجمع والفناء فى توحيد الربوبية والحقيقة الكونية . بل الشأن فى شهود هذا الجمع واستصحابه فى الفرق الثانى . وهو الحقيقة الدينية . ومن لم يتسع قلبه لذلك فليترك جمعه وفناءه تحت قدمه ، ولينبذه وراء ظهره ، مشتغلاً بالفرق الثانى . والكمال أيضاً وراء ذلك . وهو شهود الجمع فى الفرق ، والكثرة فى الوحدة ، وتحكيم الحقيقة الدينية على الحقيقة الكونية . فهذا حال العارفين الكمل :

يُسْقَى ويَشرب ، لاتُلهيه سَكْرته عن النديم . ولايلهو عن الكاس

« إنى لاسمع بكاء الصبى ، وأنا فى الصلاة . فأتجوز فيها ، كراهة أن أشق على أمه » وكان صلى الله عليه وسلم فى صلاته واشتغاله بالله و إقباله عليه يشعر بعائشة إذا استفتحت الباب . فيمشى خطوات يفتح لها ثم يرجع إلى مصلاه . و« ذكر فى صلاته تِبْرًا كان عنده ، فصلى . ثم قام مسرعاً فقسمه . وعاد إلى مجلسه » فلم تشغله جمعيته العظمى ـ التى لايدرك لها مَنْ بعدَه رائحة ـ عن هذه الجزئيات . صلوات الله وسلامه عليه .

فصل

ومنهم : من يتمكن الإيمان والعلم من قلبه . فإذا جاء الأمر قام إليه ، و بادر بجمعيته . فإن صحبته و إلا طرحها ، و بادر إلى الأمر . وعلم أنه لايسعه غير ذلك ، وأن الجمعية فضل ، والأمرَ فرض . ومن ضيع الفروض للفضول ، حيل بينه و بين الوصول . لكن إذا جاءت المندوبات ، التى هى محل الأرباح والمكاسب

العظيمة ، والمصالح الراجحة ـ من عيادة المريض ، واتباع الجنازة ، والجهاد المستحب ، وطلب العلم النافع ، والخلطة التى ينتفع بها و ينفع غيره . ولم يؤثرها على جمعيته . إذا رأى جمعيته خيراً له وأنفع منها ـ فهذا غير آثم ولا مفرط إلا إذا تركها رغبة عنها بالكلية ، واستبدالاً بالجمعية . فهذا ناقص .

أما إذا قام بها أحياناً وتركها أحياناً لاشتغاله بجمعيته ، فهذا غير مذموم . بل هذا حقيقة الاعتكاف المشروع . وهو جمعية العبد على ربه وخلوته به . وكان النبى صلى الله عليه وسلم «يحتَجِر بحصير فى المسجد فى اعتكافه ، يخلو به مع ربه عز وجل» ولم يكن يشتغل بتعليم الصحابة وتذكيرهم فى تلك الحال . ولهذا كان المشهور من مذهب أحمد وغيره : أنه لايستحب للمعتكف إقراء القرآن والعلم . وخلوته للذكر والعبادة أفضل له . واحتجوا بفعل النبى صلى الله عليه وسلم .

فصل

وأكمل من هؤلاء : من إذا جاءه تفرقة الأمر ، ورآها أرجح من مصلحة الجمعية ، ولم يمكنه الجمع فى التفرقة : اشترى الفاضل بالمفضول ، والراجح بالمرجوح . فإذا كان المندوب مفضولاً مرجوحاً ، والجمع خيراً منه : اشتغل بالجمع عنه . فهذا أعلى الأقسام . والرجل كل الرجل من يَرُدُّ من تفرقته على جمعه ، ومن جمعه على تفرقته . فيقوِّى كل واحد منهما بالآخر . ولا يلغى الحرب بينهما . فإذا جاءت تفرقة الأمر جَدَّ فيها وقام بها لجمعيته ، مقوياً لها بالأمر . فإذا جاءت حالة الجمعية تقوى بها على تفرقة الأمر والبقاء به . فيرد من هذا على هذا ، ومن هذا على هذا . فإذا جاءت تفرقة الأمر قال : أتفرق لله ليجمعنى عليه . وإذا جاءت الجمعية قال : أجتمع لأتقوى على أمر الله ورضاه ، لا لمجرد حظى ولذتى من هذه الجمعية . فما أكثر من يغيب بحظه منها ، ولذتها ونعيمها وطيبها ، عن مراد الله منه .

فتدبر هذا الفصل ، وأحط به علماً . فإنه من قواعد السلوك والمعرفة . وكم قد

زَلّت فيه من أقدام ، وضلت فيه من أفهام . ومن عرف ماعند الناس ، ونهض من مدينة طبعه إلى السير إلى الله ، عرف مقداره . فمن عرفه عرف مجامع الطرق ، ومفترق الطرق ، التى تفرقت بالسالكين ، وأهل العلم والنظر . والله سبحانه الموفق للصواب .

فصل

أصل ذلك كله : هو الفرق بين محبة الله ورضاه ، ومشيئته و إرادته الكونية ، ومنشأ الضلال فى هذا الباب : من التسوية بينهما ، أو اعتقاد تلازمهما . فسوى بينهما الجبرية والقدرية ، وقالوا : المشيئة والمحبة سواء ، أو متلازمان .

ثم اختلفوا . فقالت الجبرية : الكون كله ـ قضاؤه وقدره ، طاعته ومعاصيه ، خيره وشره ـ فهو محبو به .

ثم من تعبد منهم ، وسلك على هذا الاعتقاد : رأى أن الأفعال جميعها محبو بة للرب . إذ هى صادرة عن مشيئته . وهى عين محبته ورضاه . وفنى فى هذا الشهود الذي كان اعتقاداً . ثم صار مشهداً . فلزم من ذلك ماتقدم ، من أنه لايستقبح سيئة ، ولا يستنكر منكراً . وتلك اللوازم الباطلة المنافية للشرائع جملة .

ولما ورد على هؤلاء قوله تعالى (٢ : ٢٠٥ والله لايحب الفساد) (٣٩ : ٧ ولا يرضى لعباده الكفر) وقوله (١٧ : ٣٨ كل ذلك كان سيئهُ عند ر بك مكروهاً) واعتاص عليهم كيف يكون مكروهاً له . وقد أراد كونه ؟ وكيف لايحبه ، وقد أراد وجوده ؟ أوّلوا هذه الآيات ونحوها بأنه لايحبها ديناً . ولا يرضاه شرعاً . و يكرهها كذلك ، بمعنى أنه لايشرعها ، مع كونه يحب وجودها و يريده .

فشهدوا فى مقام الفناء كونها محبو بة الوجود . ورأوا أن المحبة تقتضى موافقة المحبوب فيما يحبه . والكون كله محبو به . فأحبوا ـ بزعمهم ـ جميع مافى الكون ، وكذبوا وتناقضوا . فإنما أحبوا ماتهواه نفوسهم و إراداتهم . فإذا كان فى الكون

مالا يلائم أحدهم و يكرهه طبعه : أبغضه ، ونفر منه وكرهه ، مع كونه مراداً للمحبوب . فأين الموافقة ؟ و إنما وافقوا أهواءهم و إراداتهم .

ثم بنوا على ذلك أنهم مأمورون بالرضاء بالقضاء . وهذه قضاء من قضائه . فنحن نرضى بهـا . فمالنا ولإنكارها ومعاداة فاعلها ، ونحن مأمورون بالرضا بالقضاء ؟ فتركب من اعتقادهم : كونها محبوبة للرب ، وكونهم مأمورين بالرضا بها ، والتسوية بين الأفعال ، وعدم استقباح شيء منها أو إنكاره .

وانضاف إلى ذلك اعتقادهم جبر العبد عليها ، وأنها ليست فعله .

فلزم من ذلك : رفع الأمر والنهى ، وطَيُّ بساط الشرع ، والاستسلام للقدر ، والذهاب معه حيث كان . وصارت لهم هذه العقائد مشاهد . وكل أحد إذا ارتاض وصفَا باطنه : تجلى له فيه صورة معتقده . فهو يشاهدها بقلبه فيظنها حقاً . فهذا حال هذه الطائفة .

* * *

وقالت القدرية النفاة : ليست المعاصى محبوبة لله ولا مرضيـة له . فليست مقدرة له ولا مقضية . فهى خارجة عن مشيئته وخلقه .

قالوا : ونحن مأمورون بالرضا بالقضاء ، ومأمورون بسخط هذه الأفعال و بغضها وكراهتها . فليست إذاً بقضاء الله . إذ الرضا والقضاء متلازمان ، كما أن محبته ومشيئته متلازمان ، أو متحدان .

وهؤلاء لا يجىء من سالكيهم وعُبَّادهم ما جاء من سالكى الجبرية وعبادهم ألبتة ، لمنافاة عقائدهم لمشاهد أولئك وعقائدهم . بل غايتهم : التعبد والورع . وهم فى تعظيم الذنوب والمعاصى خير من أولئك . وأولئك قد يكونون أقوى حالا وتأثيراً منهم .

فمنشأ الغلط : التسوية بين المشيئة والمحبة ، واعتقادهم وجوب الرضا بالقضاء . ونحن نبين مافى الفصلين إن شاء الله تعالى . فإن القوة لله جميعاً .

فصل

فأما المشيئة ، والمحبة : فقد دل على الفرق بينهما القرآن والسنة ، والعقل ، والفطرة ، و إجماع المسلمين .

قال الله تعالى (٤ : ١٠٧ يستخفون من الناس ، ولا يستخفون من الله وهو معهم . إذ يبيتون مالا يرضى من القول) فقد أخبر أنه لا يرضى بما يبيتونه من القول ، المتضمن البَهْتَ ، ورمى البرىء ، وشهادة الزور ، و براءة الجانى . فإن الآية نزلت فى قصةٍ هذا شأنها ، مع أن ذلك كله بمشيئته . إذ أجمع المسلمون على أنه ماشاء الله كان وما لم يشأ يكن . ولم يخالف فى ذلك إلا القدرية المجوسية ، الذين يقولون : يشاء مالا يكون . و يكون مالا يشاء .

وتأويل من تأول الآية على أنه لا يرضاه ديناً ، مع محبته لوقوعه : ممـا ينبغى أن يصان كلام الله عنه . إذ المعنى عندهم : أنه محبوب له . ولـكن لا يثاب فاعله عليه . فهو محبوب بالمشيئة ، غير مثاب عليه شرعاً .

ومذهب سلف الأمة وأئمتها : أنه مسخوط للرب ، مكروه له قدراً وشرعاً ، مع أنه وجد بمشيئته وقضائه . فانه يخلق ما يحب وما يكره . وهذا كما أن الأعيان كلها خلقه . وفيها ما يبغضه و يكرهه ــ كإبليس وجنوده ، وسائر الأعيان الخبيثة ــ وفيها مايحبه و يرضاه ــ كأنبيائه ورسله ، وملائكته وأوليائه ــ وهكذا الأفعال كلها خَلْقُه . ومنها ماهو محبوب له وماهو مكروه له . خَلَقه لحـكمة له فى خلق ما يكره و يبغض كالأعيان . وقال تعالى (٢ : ٢٠٧ والله لا يحب الفساد) مع أنه بمشيئته وقضائه وقدره . وقال تعالى (٣٩ : ٧ إن تـكفروا فإن الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الـكفر . و إن تشـكروا يَرْضَهُ لـكم) فالـكفر والشـكر واقعان بمشيئته وقدره . وأحدهما محبوب له مرضى . والآخر مبغوض له مسخوط .

وكذلك قوله ــ عقيب ما نهى عنه من الشرك والظلم والفواحش والـكبر ــ

(١٧ : ٣٨ كلّ ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً) فهو مكروه له ، مع وقوعه بمشيئته وقضائه وقدره .

وفى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن الله كَرِه لكم ثلاثاً : قيل وقال . وكثرة السؤال . و إضاعة المال » فهذه كراهة لموجود تعلقت به المشيئة

وفى المسند « إن الله يحب أن يؤخذ برخصه ، كما يكره أن تؤتى معصيته » فهذه محبة وكراهة لأمرين موجودين . اجتمعا فى المشيئة ، وافترقا فى المحبة والكراهة . وهذا فى الكتاب والسنة أكثر من أن يذكر جميعه .

وقد فطر الله عباده على قولهم : هذا الفعل يحبه الله . وهذا يكرهه الله و يبغضه وفلان يفعل مالا يحبه الله . والقرآن مملوء بذكر سخطه وغضبه على أعدائه . وذلك صفة قائمة به ، يترتب عليها العذاب واللعنة . لا أن السخط هو نفس العذاب واللعنة بل هما أثر السخط والغضب وموجبهما . ولهذا يفرق بينهما كما قال تعالى (٤:٩٢ ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها . وغضب الله عليه ولعنه . وأعدّ له عذاباً عظيما) ففرق بين عذابه وغضبه ولعنته . وجعل كل واحد غير الآخر .

وكان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم «اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك. وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك » .

فتأمل ذكر استعاذته صلى الله عليه وسلم بصفة « الرضا » من صفة «السخط» و بفعل « المعافاة » من فعل «العقوبة» فالأول : للصفة ، والثانى : لأثرها المترتب عليها . ثم ربط ذلك كله بذاته سبحانه ، وأن ذلك كله راجع إليه وحده . لا إلى غيره . فماأعوذ منه : واقع بمشيئتك و إرادتك . وماأعوذ به : من رضاك ومعافاتك هو بمشيئتك وإرادتك ، إن شئت أن ترضى عن عبدك وتعافيه ، و إن شئت أن تغضب عليه وتعاقبه . فإعاذتى مما أكره وأحذر ، ومنعه أن يحل بى : هو بمشيئتك أيضاً . فالمحبوب والمكروه كله بقضائك ومشيئتك . فعياذى بك منك : عياذى بحولك وقوتك ، وقدرتك ورحمتك و إحسانك ، مما يكون بحولك وقوتك

وقدرتك وعدلك وحكمتك . فلا أستعيذ بغيرك من غيرك . ولا أستعيذ إلا بك من شيء هو صادر عن مشيئتك وخلقك . بل هو منك . ولا أستعيذ بغيرك من شيء هو صادر عن مشيئتك وقضائك ، بل أنت الذى تعيذنى بمشيئتك مما هو كائن بمشيئتك . فأعوذ بك منك .

ولا يعلم مافى هذه الكلمات ـ من التوحيد والمعارف والعبودية ـ إلا الراسخون فى العلم بالله ومعرفته ، ومعرفة عبوديته .

وأشرنا إلى شيء يسير من معناها . ولو استقصينا شرحها لقام منه سِفْر ضخم . ولكن قد فتح لك الباب . فإن دخلت رأيت مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت . ولا خطر على قلب بشر .

والمقصود : أن انقسام الكون فى أعيانه وصفاته وأفعاله إلى محبوب للرب مرضى له ، ومسخوط مبغوض له ، مكروه له : أمر معلوم بجميع أنواع الأدلة ، من العقل والنقل ، والفطرة والاعتبار . فمن سوّى بين ذلك كله فقد خالف فطرة الله التى فطر عليها عباده . وخالف المعقول والمنقول . وخرج عما جاءت به الرسل .

ولأى شيء نوّع الله سبحانه العقوبات البليغة فى الدنيا والآخرة . وأشهد عباده منها ما أشهدهم ؟ لولا شدة غضبه وسخطه على الفاعلين لما اشتدت كراهته و بغضه له . فأوجبت تلك الكراهة والبغض منه : وقوع أنواع المكاره بهم ، كما أن محبته لما يحبه من الأفعال و يرضاه : أوجبت وقوع أنواع المحاب لمن فعلها . وشهود مافى العالم من إكرام أوليائه ، و إتمام نعمه عليهم ، ونصرهم وإعزازهم ، و إهانة أعدائه وعقوبتهم ، و إيقاع المكاره بهم : من أدل الدليل على حبه و بغضه وكراهته ، بل نفس موالاته لمن والاه ، ومعاداته لمن عاداه : هى عين محبته و بغضه. فإن الموالاة : أصلها الحب . والمعاداة : أصلها البغض . فإنكار صفة « المحبة ، والكراهة » إنكار لحقيقة « الموالاة ، والمعاداة » .

و بالجملة : فشهود القلوب لمحبته وكراهته ، كشهود العيان لكرامته و إهانته .

فصـــل

وأما حديث « الرضا بالقضاء » فيقال :

أولاً : بأى كتاب ، أم بأى سنة ، أم بأى معقول : علمتم وجوب الرضا بكل ما يقضيه ويقدره ؟ بل بجواز ذلك ، فضلا عن وجوبه ؟ هـذا كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأدلة العقول ليس فى شىء منها الأمر بذلك ، ولا إباحته

بل من المقضىّ ما يرضى به ، ومنه ما يسخطه ويمقته . فلا نرضى بكل قضاء كما لا يرضى به القاضى لأقضيته سبحانه . بل من القضاء ما يسخطه ، كما أن من الأعيان المقضية : ما يغضب عليه ، ويمقت عليه ، ويلعن ويذمّ .

ويقال ثانياً : ها هنا أمران « قضاء » وهو فعل قائم بذات الرب تعـالى ، و « مقضيٌّ » وهو المفعول المنفصل عنه . فالقضاء خير كله . وعدل وحكمة . فيرضى به كله ، والمقضىّ قسمان . منه ما يرضى به . ومنه مالا يرضى به .

وهذا جواب من يقول : الفعل غير المفعول . والقضاء غير المقضى .

وأما من يقول : إن الفعل هو عين المفعول . والقضاء هو عين المقضى ، فلا يمكنه أن يجيب بهذا الجواب .

ويقال ثالثاً : القضاء له وجهان .

أحدهما : تعلقه بالرب تعالى ، ونسبته إليه . فمن هذا الوجه : يرضى به كله .

الوجه الثانى : تعلقه بالعبد ، ونسبته إليه . فمن هذا الوجه : ينقسم إلى مايرضى به ، وإلى مالا يرضى به .

مثال ذلك : قتل النفس ــ مثلا ــ له اعتباران . فمن حيث إنه قدره الله وقضاه وكتبه وشاءه ، وجعله أجلا للمقتول ، ونهاية لعمره : يرضى به . ومن حيث إنه صدر من القاتل ، وباشره وكسبه ، وأقدم عليه باختياره ، وعصى الله بفعله : يسخطه ولا يرضى به .

فهذه نهاية أقدام العالم ، المقرين بالنبوات فى هذه المسألة ، ومفترق طرقهم .

قد حصرتُ لك أقوالَهم ومآخذهم ، وأصول تلك الأقوال ، بحيث لا يشذ منها شىء . وبالله التوفيق .

ولا تنكر الإطالة فى هذا الموضع . فإنه مَزَلة أقدام الخلق . وما نجا من معاطبه إلا أهل البصائر والمعرفة بالله وصفاته وأمره وشرائعه .

فصل

ثم قال صاحب المنازل :

« فتوبة العامة : الاستكثار من الطاعة . وهو يدعو إلى جحود نعمة الستر والإمهال ، ورؤية الحق على الله . والاستغناء ـ الذى هو عين الجبروت ـ والتوثب على الله » .

« العامة » عندهم : مَنْ عدا باب الجمع والفناء . وإن كانوا أهل سلوك وإرادة وعلم . هذا مرادهم بالعامة . ويسمونهم «أهل الفرق» ويسميهم غلاتهم «المحجوبين»

ومراده : أن توبتهم مدخولة عند الخواص منقوصة . فإن توبتهم من استكثارهم لما يأتون به من الحسنات والطاعات . أى رؤيتهم كثرتها . وذلك يتضمن ثلاث مفاسد عند الخاصة .

إحداها : أن حسناتهم التى يأتون بها : سيئات بالنسبة إلى مقام الخاصة . فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين. فهم محتاجون إلى التوبة من هذه الحسنات فلغفلتهم ـ باستكثارها ـ عن عيوبها ورؤيتها وملاحظتها : هم جاحدون نعمة الله فى سترها عليهم وإمهالهم ، كستره على أهل الذنوب الظاهرة تحت ستره وإمهاله . لكن أهل الذنوب مقرون بستره وإمهاله . وهؤلاء جاحدون لذلك . لأنهم قد توفرت هممهم على استكثارهم من الحسنات . دون مطالعة عيب النفس والعمل ، والتفتيش على دسائسهما . وأن الحامل لهم على استكثارها رؤيتها والإعجاب بها ؛ ولو تفرغوا لتفتيشها ، ومحاسبة النفس عليها ، والتمييز بين ما فيها من الحظ والحق . لَشَغلَهم ذلك عن استكثارها . ولأجل هذا كان مَنْ عَدِم الحضور والمراقبة والجمعية

فى العمل ، خَفَّ عليه واستكثر منه . فكثر فى عينه ، وصار بمنزلة العادة . فإذا أخذ نفسه بتخليصها من الشوائب ، وتنقيتها من الكدر . وما فى ذلك من شوك الرياء وشبرق الإعجاب ، وجمعية القلب والهم على الله بكليته : وجد له ثقلا كالجبال . وقلَّ فى عينه . ولكن إذا وجد حلاوته سهل عليه حمل أثقاله ، والقيام بأعبائه ، والتلذذ والتنعم به مع ثقله .

وإذا أردت فهم هذا القدر كما ينبغى ، فانظر وقت أخذك فى القراءة إذا أعرضت عن واجبها وتدبرها وتعقلها . وفهم ما أريد بكل آية ، وحظك من الخطاب بها ، وتنزيلها على أدواء قلبك والتقيد بها ، كيف تدرك الختمة ـ أو أكثرها ، أو ما قرأت منها ـ بسهولة وخفة . مستكثراً من القراءة . فإذا ألزمت نفسك التدبر ومعرفة المراد ، والنظر إلى مايخصك منه والتعبد به ، وتنزيل دوائه على أدواء قلبك ، والاستشفاء به . لم تكد تجوز السورة أو الآية إلى غيرها . وكذلك إذا جمعت قلبك كله على ركعتين . أعطيتهما ما تقدر عليه من الحضور ، والخشوع والمراقبة : لم تكد أن تصلى غيرهما إلا بجهد . فإذا خلا القلب من ذلك عددتَ الركعات بلا حساب . فالاستكثار من الطاعات دون مراعاة آفاتها وعيوبها ليتوب منها هى توبة العامة .

المفسدة الثانية : رؤية فاعلها أن له حقاً على الله فى مجازاته على تلك الحسنات بالجنات والنعيم والرضوان . ولهذا كثرت فى عينه مع غفلته عن أعماله . ولو كانت أعمال الثقلين لاتستقل بدخول الجنة ولا بالنجاة من النار . وأنه لن ينجو أحد ألبتة من النار بعمله ، إلا بعفو الله ورحمته .

الثالثة : استشعارهم الاستغناء عن مغفرة الله وعفوه ، بما يشهدون من استحقاق المغفرة ، والثواب بحسناتهم وطاعاتهم . فإن ظنهم أن حصول النجاة والثواب بطاعاتهم ، واستكثارهم منها لذلك ، وكثرتها فى عيونهم إظهار للاستغناء عن مغفرة الله وعفوه . وذلك عين الجبروت والتوثب على الله .

ولا ريب أن مجرد القيام بأعمال الجوارح ، من غير حضور ولا مراقبة ، ولا إقبال على الله ، قد يتضمن تلك المفاسد الثلاث وغيرها ، مع أنه قليل المنفعة دنيا وأخرى ، كثير المؤنة . فهو كالعمل على غير متابعة الأمر والإخلاص للمعبود . فإنه ـ وإن كثر ـ متعب غير مفيد . فهكذا العمل الخارجى القشورى بمنزلة النخالة الكثيرة المنظر القليلة الفائدة . فإن الله لا يكتب للعبد من صلاته إلا ماعقل منها .

وهكذا ينبغى أن يكون سائر الأعمال التى يؤمر بالحضور فيها والخشوع ، كالطواف ، وأعمال المناسك ونحوها .

فإن انضاف إلى ذلك إحسان ظنه بها ، واستكثارها ، وعدم التفاته إلى عيوبها ونقائصها ، والتوبة إلى الله ، واستغفاره منها : جاءت تلك المفاسد التى ذكرها وما هو أكثر منها .

وقد ظن بعض الشارحين لكلامه : أن مراده : الإزراء بالاستكثار من الطاعات ، وأن مجرد الفناء والشهود والاستغراق فى حضرة المراقبة خير منها وأنفع وهذا باطل وكذب عليه وعلى الطريقة والحقيقة[1] .

ولا ريب أن هذه طريقة المنحرفين من السالكين . وهو تعبد بمراد العبد وحظه من الله . وتقديم له على مراد الله ومحابه من العبد .

فإن للعبد حظاً . وعليه حقاً . فحق الله عليه : تنفيذ أوامره والقيام بها ، والاستكثار من طاعاته بحسب الإمكان . والاشتغال بمحاربة أعدائه ومجادلتهم ، ولو فرق ذلك جمعيته وشتت حضوره . فهذا هو العبودية التى هى مراد الله[2] .

---

(١) أما كذب عليه فربما . وأما كذب على الطريقة والحقيقة الصوفية فلا .

(٢) وهل يصح عند ذوى الألباب أن تفرق العبادة الخالصة العبد عن ربه ؟ إن صدقت العبادة ، وكانت حسنة كما يحب الله : كانت أقوى جامع للعبد مع ربه . وكانت حائلة بينه وبين الشيطان عدوه وحصناً حصيناً له منه .

وأما الجمعية والمراقبة والاستغراق فى الفناء، وتعطيل الحواس والجوارح عن إرسالها فى الطاعات، والاستكثار منها : فهذا مجرد حظ العبد ومراده، وهو ـ بلا شك ـ أنعم وألذ وأطيب من تفرقة الاستكثار من الطاعات، لا سيما إذا شهدوا تفرقة المستكثرين منها، وقلة نصيبهم من الجمعية . فإنهم تشتد نفرتهم منهم . ويعيبون عليهم، ويزْرُون بهم . وقد يسمون من رأوه كثير الصلاة « ثقاقيل الحصر » ومن رأوه كثير الطواف « حُمُر المدار »[1] ونحو ذلك .

وقد أخبرنى من رأى ابن سبعين[2] قاعداً فى طرف المسجد الحرام . وهو يسخر من الطائفين ويذمهم . ويقول : كأنهم الحمر حول المدار . ونحو هذا . وكان يقول : إقبالهم على الجمعية أفضل لهم .

ولا ريب أن هؤلاء مؤثرون لحظوظهم على حقوق ربهم، واقفون مع أذواقهم ومواجيدهم . فانين بها عن حق الله ومراده .

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يحكى عن بعض العارفين أنه قال : العامة يعبدون الله، وهؤلاء يعبدون نفوسهم .

وصدق ـ رحمه الله ـ فإن هؤلاء المستكثرين من الطاعات الذائقين لروح العبادة، الراجين ثوابها، قد رفع لهم علم الثواب، وأنه مسبب عن الأعمال . فشمروا إليه، راجين أن تقبل منهم أعمالهم ـ على عيبها ونقصها ـ بفضل الله، خائفين أن ترد عليهم . إذ لا تصلح لله ولا تليق به . فيردها بعدله وحقه . فهم مستكثرون بجهدهم

---

(١) « ثقاقيل الحصر » الذين يثقلون على حصر المساجد، ويلزمونها، لكثرة صلاتهم، و « حمر المدار » الحمير التى تدور بالرحى ونحوها .

(٢) هو عبد الحق المرسى الأندلسى . كان فقيهاً . ثم انتحل التصوف على حقيقته الفلسفية . وبلغ إلى لبه من وحدة الوجود . وهتف بها . فكان من أصرح الدعاة إليها . واشتهر عنه أنه كان يقول : لقد تحجر ابن آمنة واسعاً بقوله « لا نبى بعدى » فتجرأ على التصريح بما لم يتجرأ عليه أمثاله من الصوفية الذين يدينون بهذا المذهب . فإنهم يكنون ويعمون . ولد سنة ٦١٤ ومات سنة ٦٦٩ .

من طاعاته بين خوفه ورجائه ، والإزراء على أنفسهم ، والحرص على استعمال جوارحهم فى كل وجه من وجوه الطاعات . رجاء مغفرته ورحمته ، وطمعاً فى النجاة . فهم يقاتلون بكل سلاح لعلهم ينجون .

قالوا : وأما ما أنتم فيه من الفناء . ومشاهدة الحقيقة والقيومية ، والاستغراق فى ذلك : فنحن فى شغل عنه بتنفيذ أوامر صاحب الحقيقة والقيومية ، والاستكثار من طاعاته ، وتصريف الجوارح فى مرضاته ، كما أنكم ـ بفنائكم واستغراقكم فى شهود الحقيقة وحضرة الربوبية ـ فى شغل عما نحن فيه . فكيف كنتم أولى بالله منا ، ونحن فى حقوقه ومراده منا ، وأنتم فى حظوظكم ومرادكم منه ؟

قالوا : وقد ضرب لنا ولكم مثل مطابق لمن تأمله : بملكٍ ادعى محبته مملوكان من مماليكه ، فاستحضرهما وسألهما عن ذلك ؟ فقالا : أنت أحب شيء إلينا ، ولا نؤثر عليك غيرك . فقال : إن كنتما صادقين فاذهبا إلى سائر مماليكى وَعَرِّفَاهم بحقوقى عليهم ، وأخبراهم بما يرضينى عنهم ، ويسخطنى عليهم ، وابذلا قُواكما فى تخليصهم من مساخطى . ونَفِّذا فيهم أوامرى . واصبرا على أذاهم . وعودا مريضهم . وشَيِّعا ميتهم . وأعينا ضعيفهم بقواكما ، وأموالكما وجاهكما . ثم اذهبا إلى بلاد أعدائى بهذه الملطِّفات وخالطوهم ، وادعوهم إلى موالاتى ، واشتغلا بهم ، ولا تخافوهم . فعندهم من جندى وأوليائى من يكفيكما شرهم .

فأما أحد المملوكين : فقام مبادراً إلى امتثال أمره . و بعد عن حضرته فى طلب مرضاته .

وأما الآخر ، فقال له : لقد غلب على قلبى من محبتك ، والاستغراق فى مشاهدة حضرتك وجمالك : مالا أقدر معه على مفارقة حضرتك ومشاهدتك .

فقال له : إن رضائى فى أن تذهب مع صاحبك ، فتفعل كما فعل ، وإن بعدت عن مشاهدتى .

فقال : لا أوثر على مشاهدتك والاستغراق فيك شيئاً .

فأىّ المملوكين أحب إلى هذا الملك ، وأحظى عنده ، وأخص به ، وأقرب إليه ؟ أهذا الذى آثر حظه ومراده وما فيه لذته على مراد الملك وأمره ورضاه ؟ أم ذلك الذى ذهب فى تنفيذ أوامره ، وفرغ لها قواه وجوارحه ، وتفرق فيها فى كل وجه ؟ فما أولاه أن يجمعه أستاذه عليه بعد قضاء أوامره وفراغه منها ، و يجعله من خاصته وأهل قر به ! وما أولى صاحبه بأن يبعده عن قر به ، و يحجبه عن مشاهدته ، و يفرقه عن جمعيته عليه ، و يبدله بالتفرقة التى هرب منها ـ فى تفرقة أمره ـ تفرقة فى هواه ومراده بطبعه و بنفسه .

فليتأمل اللبيب هذا حق التأمل ، وليفتح عين بصيرته ، و يسير بقلبه . فينظر فى مقامات العبيد وأحوالهم وهممهم ، ومن هو أولى بالعبودية . ومن هو البعيد منها .

ولا ريب أن من أظهر الاستغناء عن الله وطاعاته ، وتوثب عليه ، وأورثته الطاعات جبروتاً وحجباً عن رؤيته عيوب نفسه وعمله ، وكَثُرت حسناته فى عينه ، فهو أبغض الخلق إلى الله تعالى ، وأبعدهم عن العبودية ، وأقربهم إلى الهلاك . لا من استكثر من الباقيات الصالحات ، ومن مثل ما وصى به النبى صلى الله عليه وسلم مَنْ سأله مرافقته فى الجنة . فقال « أعنِّى عَلَى نفسك بكثرة السجود » ومن قوله تعالى (٥١ : ١٧ ، ١٨ كانوا قليلاً من الليل مايهجعون . و بالأسحار هم يستغفرون) قال الحسن : مدوا الصلاة إلى السحر . ثم جلسوا يستغفرون . وقال النبى صلى الله عليه « تابعوا بين الحج والعمرة . فإنهما ينفيان الفقْر والذنوب ، كما ينفِى الكِيرُ خَبَث الحديد » وقال لمن سأله أن يوصيه بشىء يتشبث به « لا يزال لسانُكَ رَطْباً من ذكر الله » .

والدين كله استكثار من الطاعات ، وأحب خلق الله إليه : أعظمهم استكثاراً منها .

وفى الحديث الصحيح الإلهى « ماتَقَرَّبَ إلَىَّ عبدى بمثل أداء ماافترضتُ عليه . ولا يزال عبدى يتقرب إلَىَّ بالنوافل حتى أُحِبَّه . فإذا أحببته كنتُ سمعه

الذى يسمع به ، و بصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها . فبى يسمع . و بى يبصر . و بى يبطش . و بى يمشى . ولئن سألنى لأُعْطِيَنَّهُ ولئن استعاذنى لأعيذنه » .

فهذا جزاؤه وكرامته للمستكثرين من طاعته . لا لأهل الفناء المستغرقين فى شهود الربوبية .

وقال صلى الله عليه وسلم لآخر « عليك بكثرة السجود . فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك الله بها درجة . وحَطَّ عنك بها خطيئة » .

فصـــل

وهذه الطريقة فى الإرادة والطلب : نظير طريقة التَّجَهُّم فى العلم والمعرفة ، تلك تعطيل للصفات والتوحيد . وهذه تعطيل للأمر والعبودية . وانظر إلى هذا النسَب والإخاء الذى بينهما . كيف شَرَّكَ بينهما فى اللفظ ، كما شرك بينهما فى المعنى ؟ فتلك طريقة النفى . وهذه طريقة الفناء ، تلك نفى لصفات المعبود . وهذه فناء عن عبوديته (١) .

وأما نفى خواص العبيد وفناؤهم : فأمر وراء نفى أولئك وفنائهم . لأن نفيهم لصفات النقائص ، وما يضادُّ أوصاف الكمال . وفناءهم عن إرادة غيره ومحبته ، وخوفه ورجائه . ففناؤهم عن كل مايخالف أمره ومحابه . ونفيهم لكل مايضاد كماله وجلاله . ومن له فرقان فهو يعرف هذا وهذا . وغيره لا اعتبار به .

وصاحب المنازل ـ رحمه الله ـ كان شديد الإثبات للأسماء والصفات ، مضاداً للجهمية من كل وجه . وله كتاب « الفاروق » استوعب فيه أحاديث الصفات وآثارها . ولم يسبق إلى مثله ، وكتاب « ذم الكلام وأهله » طريقته فيه أحسن طريقة . وكتاب لطيف فى أصول الدين ، يسلك فيه طريقة أهل

---

(١) فالكفر ملة واحدة ، فإنه يصدر عن منبع واحد هو إبليس

الإثبات ويقررها . وله مع الجهمية المقامات المشهودة . وسعوا بقتله إلى السلطان مراراً عديدة . والله يعصمه منهم . ورموه بالتشبيه والتجسيم ، على عادة بَهْت الجهمية والمعتزلة لأهل السنة والحديث ، الذين لم يتحيزوا إلى مقالة غير مادل عليه الكتاب والسنة .

ولكنه ـ رحمه الله ـ كانت طريقته فى السلوك مضادة لطريقته فى الأسماء والصفات . فإنه لايقدم على الفناء شيئاً . ويراه الغاية التى يُشَمِّر إليها السالكون ، والعَلَمَ الذى يؤمه السائرون . واستولى عليه ذوق الفناء وشهود الجمع ، وعظم موقعه عنده . واتسعت إشاراته إليه . وتنوعت به الطرق الموصلة إليه ، علماً وحالا وذوقاً . فتضمن ذلك تعطيلا من العبودية ، بادياً على صفحات كلامه . وزان تعطيل الجهمية لما اقتضته أصولهم من نفى الصفات[1] .

ولما اجتمع التعطيلان لمن اجتمعا له ـ من السالكين ـ تولد منهما القول بوحدة الوجود ، المتضمن لإنكار الصانع وصفاته ، وعبوديته . وعصم الله أبا إسماعيل باعتصامه بطريقة السلف فى إثبات الصفات . فأشرف من عقبة الفناء على وادى الاتحاد بأرض الحلول . فلم يسلك فيها . ولوقوفه على عقبته ، وإشرافه على تلك الربوع الخراب ، ودعوة الخلق إلى الوقوف على تلك العقبة ، أقسمت الاتحادية بالله جهد أيمانهم : إنه لمعهم ، ومنهم . وحاشاه .

وتولى شرح كتابه أشدهم فى الاتحاد طريقة ، وأعظمهم فيه مبالغة وعناداً لأهل الفرق : العفيف التلمسانى[2] ونَزَّل الجمع الذى يشير إليه صاحب المنازل

---

(١) فإذا كان العمل فى طريق غير طريق العقيدة : هل يكون هذا استقامة على ما أحب الله وشرع ؟ والله عليم بذات الصدور .

(٢) هو سليمان بن على من كبار شيوخ الصوفية وأصحاب المقامات الرفيعة فيهم . نقل عنه أن الحلال والحرام خاص بالمحجوبين . ولا فرق عنده بين الأجنبية والأم والبنت فى النكاح ، وأن القرآن كله شرك ، وكلامهم هو التوحيد ، كقوله :

وفى كل شىء له آية تدل على أنه عينه

على جمع الوجود . وهو لم يرد به ـ حيث ذكره ـ إلا جمع الشهود . ولكن الألفاظ مجملة ، وصادفت قلباً مشحوناً بالاتحاد ، ولساناً فصيحاً متمكناً من التعبير عن المراد (ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) .

فصل

قال « وتوبة الأوساط : من استقلال العبد المعصية . وهو عين الجرأة والمبارزة ، ومحض التزين بالحمية ، والاسترسال للقطيعة » .

يريد : أن استقلال المعصية ذنب ، كما أن استكثار الطاعة ذنب . والعارف من صغرت حسناته فى عينه . وعظمت ذنوبه عنده . وكلما صغرت الحسنات فى عينك كبرت عند الله . وكلما كبرت وعظمت فى قلبك قلت وصغرت عند الله . وسيئاتك بالعكس . ومن عرف الله وحقه وماينبغى لعظمته من العبودية : تلاشت حسناته عنده . وصغرت جداً فى عينه . وعلم أنها ليست مما ينجو بها من عذابه . وأن الذى يليق بعزته ، ويصلح له من العبودية : أمر آخر . وكلما استكثر منها استقلها واستصغرها . لأنه كلما استكثر منها فتحت له أبواب المعرفة بالله والقرب منه . فشاهد قلبه من عظمته سبحانه وجلاله مايستصغر معه جميع أعماله . ولو كانت أعمال الثقلين . وإذا كثرت فى عينه وعظمت دل على أنه محجوب عن الله ، غير عارف به وبما ينبغى له . وبحسب هذه المعرفة ومعرفته بنفسه يستكثر ذنوبه . وتعظم فى عينه . لمشاهدته الحق ومستحقه . وتقصيره فى القيام به . وإيقاعه على الوجه اللائق الموافق لما يحبه الرب ويرضاه من كل وجه .

إذا عرف هذا ، فاستقلال العبد المعصية عين الجرأة على الله . وجهل بقدر من عصاه وبقدر حقه . وإنما كان مبارزة لأنه إذا استصغر المعصية واستقلها هان عليه أمرها . وخفت على قلبه . وذلك نوع مبارزة .

وأما قوله « ومحض التزين بالحمية » أى بالمحاماة عن النفس ، وإظهار براءة ساحتها . لاسيما إن انضاف إلى ذلك مشاهدة الحقيقة ، والاحتجاج بالقدر . وقوله :

وأى ذنب لى ، والمحرك لى غيرى . والفاعل فىّ سواى ؟ وإنما أنا كالميت بين يدى الغاسل ؟ وما حيلة من ليس له حيلة . وماقدرة من ليس له قدرة ؟ ونحو هذا مما يتضمن الجرأة على الله ومبارزته ، والمحاماة عن النفس ، واستصغار ذنوبه ومعاصيه إذا أضافها إلى الحكم . فيسترسل إذاً للقطيعة . وهى المقاطعة لربه . والانقطاع عنه . فيصير خصما لله مع نفسه وشيطانه . وهذا حال المحتجين بالقدر على الذنوب . فإنهم خصماء الله عز وجل . وهم مع الشياطين والنفوس على الله . وهذا غاية البعد والطرد والانقطاع عن الله ؟ .

فإن قلت : فكيف كانت توبة العامة من استكثار الطاعات ؟ وتوبة من هم أخص منهم . وأعلى درجة من استقلال المعصية ؟ وهلا كان الأمر بالضد ؟ .

قلت : الأوساط لما كانوا أشد طلباً لعيوب النفس والعمل ، وأكثر تفتيشاً عليها : انكشف لهم من ذنوبهم ومعاصيهم مالم ينكشف للعامة . إذ حرص العامة على الاستكثار من الطاعات . ولذلك كثرت فى أعينهم . وحرص هؤلاء على تنقية أنفسهم من الآفات ، والتفتيش على عيوب الأعمال . فاستقلال السيئات آفة هؤلاء ، وقاطع طريقهم . واستكثار الحسنات وعظمها فى قلوب أولئك آفتهم . وقاطع طريقهم . فذكر ماهو الأخص الأغلب على كل واحدة من الطائفتين .

فصل

قال « وتوبة الخواص : من تضييع الوقت . فإنه يفضى إلى درك النقيصة . ويطفىء نور المراقبة . ويكدر عين الصحبة » .

ليس مراده بتضييع الوقت : إضاعته فى الاشتغال بمعصية أو لغو ، أو الإعراض عن واجبه وفرضه . فإنهم لو أضاعوه بهذا المعنى لم يكونوا من الخواص . بل هذه توبة العامة بعينها . و « الوقت » عند القوم : أخص منه فى لغة العرب . حتى إن منهم من يقول « الوقت : هو الحق » ومنهم من يقول « استغراق رسم العبد فى وجود الحق » يشيرون إلى الفناء فى حضرة الجمع . والغالب على اصطلاحهم : أنه

من الإقبال على الله بالمراقبة ، والحضور والفناء فى الوحدانية . ويقولون : هو صاحب وقت مع الله . فخصوا « الوقت » بهذا الاسم تخصيصاً للفظ العام ببعض أفراده . وإلا فكل من هو مشغول بأمر يعنى به فانٍ فى شهوده وطلبه . فله وقت معه . بل أوقاته مستغرقة فيه .

فتوبة هؤلاء من إضاعة هذا الوقت الخاص الذى هو وقت وَجْد صادق ، وحال صحيحة مع الله لا يكدرها الأغيار .

وربما يمر بك إشباع القول فى « الوقت » والفرق بين الصحيح منه والفاسد فيما بعد إن شاء الله .

والقصد : أن إضاعة الوقت الصحيح يدعو إلى درك النقيصة ، إذ صاحب حفظه مترق على درجات الكمال . فإذا أضاعه لم يقف موضعه ، بل ينزل إلى درجات من النقص . فإن لم يكن فى تقدم فهو متأخر ولا بد . فالعبد سائر لا واقف . فإما إلى فوق . وإما إلى أسفل . إما إلى أمام وإما إلى وراء . وليس فى الطبيعة ، ولا فى الشريعة وقوف ألبتة . ماهو إلا مراحل تطوى أسرع طَيٍّ إلى الجنة أو إلى النار ، فمسرع ومبطىء . ومتقدم ومتأخر . وليس فى الطريق واقف ألبتة . وإنما يتخالفون فى جهة المسير . وفى السرعة والبطء (٧٤ : ٣٥ ـ ٣٧ إنها لإحدى الكُبَر . نذيراً للبشر . لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر) ولم يذكر واقفاً . إذ لا منزل بين الجنة والنار . ولا طريق لسالك إلى غير الدارين ألبتة . فمن لم يتقدم إلى هذه بالأعمال الصالحة فهو متأخر إلى تلك بالأعمال السيئة .

فإن قلت : كل مجد فى طلب شىء لابد أن يعرض له وقفة وفتور . ثم ينهض إلى طلبه .

قلت : لابد من ذلك . ولكن صاحب الوقفة له حالان : إما أن يقف ليجِمَّ نفسه ، ويعدها للسير . فهذا وقفته سير . ولا تضره الوقفة . فإن « لكل عمل شِرَّة ، ولكل شرة فترة » .

و إما أن يقف لداع دعاه من ورائه ، وجاذب جذبه من خلفه . فإن أجابه أخّره ولا بد . فإن تداركه الله برحمته ، وأطلعه على سبق الركب له وعلى تأخره ، نهض نهضة الغضبان الآسف على الانقطاع . ووثب وجمز واشتد سعياً ليلحق الركب . و إن استمر مع داعى التأخر ، وأصغى إليه لم يرض برده إلى حالته الأولى من الغفلة ، و إجابة داعى الهوى ، حتى يرده إلى أسوأ منها وأنزل دَرَكاً . وهو بمنزلة النكسة الشديدة عقيب الإبلال من المرض . فإنها أخطر منه وأصعب .

و بالجملة : فإن تدارك الله سبحانه وتعالى هذا العبد بجذبة منه من يد عدوه ، وتخليصه . و إلا فهو فى تأخر إلى الممات . راجع القهقرى ، ناكص على عقيبه ، أو مول ظهره . ولا قوة إلا بالله . والمعصوم من عصمه الله .

وقوله « ويطفىء نور المراقبة » .

يعنى أن المراقبة تعطى نوراً كاشفاً لحقائق المعرفة والعبودية . و إضاعة الوقت تغطى ذلك النور . وتكدر عين الصحبة مع الله . فإن صاحب الوقت مع صحبة الله . وله مع الله معية خاصة ، بحسب حفظه وقته مع الله . فإن كان مع الله كان الله معه . فإذا أضاع وقته كدَّر عين هذه المعية الخاصة . وتعرض لقطع هذه الصحبة . فلا شىء أضر على العارف بالله من إضاعة وقته مع الله . ويخشى عليه إن لم يتداركه بالرجوع : أن تستمر الإضاعة إلى يوم القيامة . فتكون حسرته وندامته أعظم من حسرة غيره وندامته . وحجابه عن الله أشد من حجاب من سواه . ويكون حاله شبيهاً بحال قوم يؤمر بهم إلى الجنة ، حتى إذا عاينوها وشاهدوا مافيها ، صُرفت وجوههم عنها إلى النار . فإذن توبة الخواص تكون من تضييع أوقاتهم مع الله التى تدعو إلى هذه الأمور .

فصل

وفوق هذا مقام آخر من التوبة ، أرفع منه وأخص . لايعرفه إلا الخواصّ المحبون ، الذين يستقلون فى حق محبوبهم جميع أعمالهم وأحوالهم وأقوالهم . فلا

يرونها قط إلا بعين النقص والإزراء عليها . و يرون شأن محبو بهم أعظم ، وقدره أعلى من أن يرضوا نفوسهم وأعمالهم له . فهم أشد شيء احتقاراً لها ، و إزراء عليها . و إذا غفلوا عن مراد محبو بهم منهم ، ولم يوفوه حقه ، تابوا إليه من ذلك تو بة أر باب الكبائر منها . فالتو بة لاتفارقهم أبدًا .. وتو بتهم لون وتو بة غيرهم لون (١٢ : ٧٦ وفوق كل ذى علم عليم) وكلما ازدادوا حباً له ازدادوا معرفة بحقه ، وشهوداً لتقصيرهم . فعظمت لذلك تو بتهم . ولذلك كان خوفهم أشد . و إزراؤهم على أنفسهم أعظم . ومايتوب منه هؤلاء قد يكون من كبار حسنات غيرهم .

و بالجملة : فتو بة المحبين الصادقين العارفين بر بهم و بحقه : هى التو بة . وسواهم محجوب عنها . وفوق هذه تو بة أخرى . الأولى بنا الاضراب عنها صفحا .

فصل

قال صاحب المنازل .

« ولا يتم مقام التو بة إلا بالانتهاء إلى التو بة ممـا دون الحق . ثم رؤ ية علة التو بة . ثم التو بة من رؤ ية تلك العلة » .

التو بة ممـا دون الله : أن يخرج العبد بقلبه عن إرادة ما سوى الله تعالى . فيعبده وحده لاشريك له بأمره و باستعانته . فيكون كله له و به .

وهذا أمر لايصح إلا لمن استولى عليه سلطان المحبة . فامتلأ قلبه من الله محبة له و إجلالاً وتعظيماً ، وذلاً وخضوعاً وانكسارًا بين يديه ، وافتقارًا إليه .

فإذا صح له ذلك بقيت عليه عندهم بقية أخرى ، هى علة فى تو بته . وهى شعوره بها ، ورؤ يته لها ، وعدم فنائه عنها . وذلك بالنسبة إلى مقامه وحاله ذنب . فيتوب من هذه الرؤ ية .

فههنا ثلاثة أمور : تو بته ممـا سوى الله . ورؤ يته هذه التو بة ، وهى علتها . وتو بته من رؤ ية تلك الرؤ ية . وهذا عند القوم الغاية التى لاشيء بعدها . والنهاية

التى لا تكون إلا لخاصة الخاصة . ولعمر الله إن رؤية العبد فعله ، واحتجابه به عن ربه ، ومشاهدته له : علة فى طريقه موجبة للتوبة .

وأما رؤيته له واقعا بمنة الله وفضله ، وحوله وقوته وإعانته : فهذا أكمل من غيبته عنه . وهو أكمل من المقام الذى يشيرون إليه ، وأتم عبودية ، وأدعى للمحبة وشهود المنة . إذ يستحيل شهود المنة على شىء لاشعور للشاهد به ألبتة .

والذى ساقهم إلى ذلك : سلوك وادى الفناء فى الشهود . فلا يشهد مع الحق سبباً ، ولا وسيلة ولا رسماً ألبتة .

ونحن لا ننكر ذوق هذا المقام ، وأن السالك ينتهى إليه ، ويجد له حلاوة ووجدًا ولذة لايجدها لغيره ألبتة . وإنما يطالب أربابه والمشمرون إليه بأمر وراءه . وهو أن هذا هو الكمال . وهو أكمل من حال من شهد أفعاله ورآها ، ورأى تفاصيلها مشاهدًا لها ، صادرة عنه بمشيئة الله وإرادته ومعونته . فشهد عبوديته مع شهود معبوده . ولم يغب فى شهود العبودية عن المعبود . ولا بشهود المعبود عن العبودية ، فكلاهما نقص . والكمال : أن تشهد العبودية حاصلة بمنة المعبود وفضله ومشيئته . فيجتمع لك الشهودان . فإن غِبتَ بأحدهما عن الآخر فالمقام مقام توبة . وهل فى الغيبة عن العبودية إلا هضم لها ؟ .

والواجب : أن يقع التحاكم فى ذلك إلى الله ورسوله ، وإلى حقائق الإيمان دون الذوق . فإننا لاننكر ذوق هذه الحال . وإنما ننكر كونها أكمل من غيرها . فأين الإشارة فى القرآن ، أوفى السنة ، أوفى كلام سادات العارفين من الصحابة ومن تبعهم إلى هذا الفناء ، وأنه هو الكمال . وأن رؤية العبد لفعله بالله وحوله وفضله وشهوده له كذلك : علة تجب التوبة منها ؟ .

وهذا القدر مما يصعب إنكاره على القوم جدا . ويرمون منكره بأنه محجوب من أهل الفَرْق . وأنه لم يصل إلى هذا المقام . ولو وصل إليه لما أنكره . وليس فى

شيء من ذلك حجة لتصحيح قولهم ، ولاجواب المطالبة . فقد سألك هذا المحجوب عن مسألة شرعية . وما ذكرتموه ليس بجواب لها .

ولعمر الله إنه يراكم محجوبين عن حال أعظم من هذه الحال ، ومقام أرفع منه . وليس فى مجرد الفناء والاستغراق فى شهود القيومية ، وإسقاط الأسباب والعلل والحكَم والوسائط كثير علم ، ولا معرفة ولا عبودية . وهل المعرفة كل المعرفة ، والعبودية : إلا شهود الأشياء على ما هى عليـه ؟ والقرآن كله مملوء من دعاء العباد إلى التفكر فى الآيات . والنظر فى أحوال المخلوقات . ونظر الإنسان فى نفسه وتفاصيل أحواله . وأخص من ذلك : نظره فيما قدَّم لغده . ومطالعته لنعم الله عليه بالإيمان والتوفيق والهداية . وتذكر ذلك والتفكر فيه ، وحمد الله وشكره عليه . وهذا لا يحصل مع الفناء حتى عن رؤية الرؤية . وشهود الشهود .

ثم إن هذا غير ممكن ألبتة . فإنكم إذا جعلتم رؤيته لتوبته علة يتوب منها . فإن رؤيته لتلك الرؤية أيضاً علة توجب عليه توبة . وهلم جرا . فلا ينتهى الأمر إلا بسقوط التميز جملة . والسكر والطمس المنافى للعبودية . فضلاً عن أن يكون غاية للعبودية .

فتأمل الآن تفاصيل عبودية الصلاة . كيف لاتتم إلا بشهود فعلك الذى متى غبت عنه كان ذلك نقصاً فى العبودية .

فإذا قال المصلى « وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً » فعبودية هذا القول : أن يشهد وجهه . وهو قصده و إرادته . وأن يشهد حقيقته . وهى إقباله على الله .

ثم إذا قال « إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين » فعبودية هذا القول : أن يشهد الصلاة والنسُك المضافين إليه لله ، ولو غاب عنهما كان قد أضاف إلى الله بلسانه ما هو غائب عن استحضاره بقلبه . فكيف يكون هذا أكمل وأعلى من حال من استحضر فعله وعبوديته ، وأضافهما إلى الله ، وشهد مع

ذلك كونهما به ؟ فأين هـذا من حال المستغرق الفانى المصطلم . الذى قد غاب بمعبوده عن حقه . وقد أُخذ منه وغيب عنه ؟ .

نعم غاية هـذا : أن يكون معذوراً . أما أن يكون مقامه أعلى مقام وأجله : فـكلا .

وكذلك إذا قال فى قراءته « إياك نعبد و إياك نستعين » فعبودية هذا القول : فهم معنى العبادة والاستعانة . واستحضارهما ، وتخصيصهما بالله ، ونفيهما عن غيره . فهذا أكمل من قول ذلك بمجرد اللسان .

وكذلك إذا قال فى ركوعه « اللهم لك ركعت . و بك آمنت . ولك أسلمت . خشع لك سمعى و بصرى ومُخِّى وعظمى ، وما استقلَّت به قَدَمى » فـكيف يؤدى عبودية هذه الـكلمات غائب عن فعله ، مستغرق فى فنائه ؟ وهل يبقى غير أصوات جارية على لسانه ؟ ولولا العذر لم تـكن هذه عبودية .

نعم . رؤية هذه الأفعال والوقوف عندها ، والاحتجاب بها عن المنعم بها الموفق لها ، المانّ بها : من أعظم العلل القواطع . قال تعالى (٤٩ : ١٧ يَمنُّون عليك أن أسلموا ، قل لا تمنوا عليّ إسلامكم . بل الله يمنُّ عليكم : أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين) فالعارف غائب بمنة الله عليه فى طاعته ، مع شهودها ورؤيتها . والجاهل غائب بها عن رؤية منة الله . والفانى غائب باستغراقه فى الفناء وشهود القيومية عن شهودها . وهو ناقص . وقد جعل الله لـكل شىء قدرا .

فصـــل

ونذكر نبذاً تتعلق بأحكام التوبة ، تشتد الحاجة إليها . ولا يليق بالعبد جهلها

منها : أن المبادرة إلى التوبة من الذنب فرض على الفور . ولايجوز تأخيرها . فمتى أخرها عصى بالتأخير . فإذا تاب من الذنب بقى عليه توبة أخرى . وهى توبته من تأخير التوبة . وقلَّ أن تخطر هذه ببال التائب ، بل عنده : أنه إذا تاب من الذنب لم يبق عليه شىء آخر . وقد بقى عليه التوبة من تأخير التوبة .

ولا ينجى من هذا إلا توبة عامة ، مما يعلم من ذنوبه ومما لايعلم . فإن مالا يعلمه العبد من ذنوبه أكثر مما يعلمه . ولا ينفعه فى عدم المؤاخذة بها جهله إذا كان متمكناً من العلم . فإنه عاص بترك العلم والعمل . فالمعصية فى حقه أشد . وفى صحيح ابن حبان : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « الشرك فى هذه الأمة أخفى من دبيب النمل . فقال أبو بكر : فكيف الخلاص منه يارسول الله ؟ قال : أن تقول : اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم . وأستغفرك لما لا أعلم »

فهذا طلب الاستغفار مما يعلمه الله أنه ذنب ، ولا يعلمه العبد .

وفى الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم « أنه كان يدعو فى صلاته : اللهم اغفرلى خطيئتى وجهلى ، وإسرافى فى أمرى ، وما أنت أعلم به منى . اللهم اغفر لى جِدِّى وهَزْلى ، وخطأى وعمدى . وكلُّ ذلك عندى . اللهم اغفرلى ماقدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أنت أعلم به منى . أنت إلٰهى لا إله إلا أنت »

وفى الحديث الآخر « اللهم اغفرلى ذنبى كله ، دِقَّهُ وَجِلَّه . خطأه وعمده . سره وعلانيته ، أولَه وآخره » .

فهذا التعميم وهذا الشمول لتأتىَ التوبة على ماعلمه العبد من ذنوبه ومالم يعلمه .

فصل

وهل تصح التوبة من ذنب ، مع الإصرار على غيره(١) ؟

فيه قولان لأهل العلم . وهما روايتان عن الإمام أحمد . ولم يطلع على الخلاف من حكى الإجماع على صحتها . كالنووى وغيره .

والمسألة مشكلة . ولها غَوْر . ويحتاج الجزم بأحد القولين إلى دليل يحصل به الجزم . والذين صححوها احتجوا بأنه لما صح الإسلام ــ وهو توبة من الكفر ــ

(١) صحة التوبة : متوقفة على صدق العزم على الفرار إلى الله ، والرجوع إليه ، والتخلص من العدو . وهو أمر بين العبد وبين ربه (٤٢ : ٢٥ وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ماتفعلون) .

مع البقاء على معصية لم يتب منها . فهكذا تصح التوبة من ذنب ، مع بقائه على آخر .

وأجاب الآخرون عن هذا بأن الإسلام له شأن ليس لغيره . لقوته ونفاذه ، وحصوله ـ تبعاً باسلام الأبوين أو أحدهما ـ للطفل . وكذلك بانقطاع نسب الطفل من أبيه ، أو بموت أحد أبويه فى أحد القولين . وكذلك يكون بكون سابيه ومالكه مسلما ، فى أحد القولين أيضاً . وذلك لقوته ، وتشوف الشرع إليه . حتى حصل بغير القصد بل بالتبعية [1] .

واحتج الآخرون بأن التوبة : هى الرجوع إلى الله من مخالفته إلى طاعته . وأى رجوع لمن تاب من ذنب واحد ، وأصر على ألف ذنب ؟ .

قالوا : والله سبحانه إنما لم يؤاخذ التائب ، لأنه قد رجع إلى طاعته وعبوديته ، وتاب توبة نصوحا . والمصرّ على مثل ماتاب منه ـ أو أعظم ـ لم يراجع الطاعة . ولم يتب توبة نصوحا .

قالوا : ولأن التائب إذا تاب إلى الله ، فقد زال عنه اسم « العاصى » كالكافر إذا أسلم زال عنه اسم « الكافر » وأما إذا أصر على غير الذنب الذى تاب منه فاسم «المعصية » لايفارقه . فلا تصح توبته .

وسر المسألة ، أن التوبة : هل تتبعض ، كالمعصية . فيكون تائبا من وجه دون وجه ، كالإيمان والإسلام ؟

والراجح : تبعضها . فإنها كما تتفاضل فى كيفيتها كذلك تفاضل فى كميتها . ولو أتى العبد بفرض وترك فرضاً آخر ، لاستحق العقوبة على ماتركه دون مافعله . فهكذا إذا تاب من ذنب وأصر على آخر . لأن التوبة فرض من الذنبين . فقد

---

(١) هذا فى الاسلام الظاهر للمعاملات بين الناس ـ من الأنكحة ونحوها ـ أما الإسلام الحق . وهو إسلام الوجه لله : فشىء آخر لا يكون إلا بالعقيدة الصحيحة والعمل الصالح ، بالعلم الصحيح ، وتحرى اتباع ماشرع الله ، والاقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم .

أدى أحدَ الفرضين وترك الآخر . فلا يكون ماترك موجبا لبطلان مافعل . كمن ترك الحج وأتى بالصلاة والصيام والزكاة .

والآخرون يجيبون عن هذا بأن التوبة فعل واحد . معناه الإقلاع عما يكرهه الله ، والندم عليه ، والرجوع إلى طاعته . فإذا لم توجد بكمالها لم تكن صحيحة . إذ هي عبادة واحدة . فالإتيان ببعضها وترك بعض واجباتها كالاتيان ببعض العبادة الواجبة وترك بعضها . فإن ارتباط أجزاء العبادة الواحدة بعضها ببعض أشد من ارتباط العبادات المتنوعات بعضها ببعض .

وأصحاب القول الآخر يقولون : كل ذنب له توبة تخصه . وهي فرض منه . لاتتعلق بالتوبة من الآخر ، كما لايتعلق أحد الذنبين بالآخر .

والذى عندى فى هذه المسألة : أن التوبة لاتصح من ذنب ، مع الإصرار على آخر من نوعه . وأما التوبة من ذنب ، مع مباشرة آخر لاتعلق له به ، ولا هو من نوعه : فتصح . كما إذا تاب من الربا ، ولم يتب من شرب الخمر مثلا . فإن توبته من الربا صحيحة . وأما إذا تاب من ربا الفَضْل ، ولم يتب من ربا النسيئة وأصر عليه ، أو بالعكس ، أو تاب من تناول الحشيشة وأصر على شرب الخمر ، أو بالعكس : فهذا لاتصح توبته . وهو كمن يتوب عن الزنا بامرأة ، وهو مصر على الزنا بغيرها غير تائب منها . أو تاب من شرب عصير العنب المسكر . وهو مصر على شرب غيره من الأشربة المسكرة . فهذا فى الحقيقة لم يتب من الذنب . وإنما عدل عن نوع منه إلى نوع آخر . بخلاف من عدل عن معصية إلى معصية أخرى غيرها فى الجنس . إما لأن وزرها أخف ، وإما لغلبة دواعى الطبع إليها . وقهر سلطان شهوتها له . وإما لأن أسبابها حاضرة لديه عتيدة . لايحتاج إلى استدعائها ، بخلاف معصية يحتاج إلى استدعاء أسبابها . وإما لاستحواذ قرنائه وخلطائه عليه . فلا يدعونه يتوب منها . وله بينهم حظوة بها وجاه . فلا تطاوعه نفسه على إفساد جاهه بالتوبة ، كما قال أبو نواس لأبى العتاهية . وقد لامه على تهتكه فى المعاصى :

أترانى ياعتَــــاهى تاركا تلك الملاهى ؟
أترانى مفسدا بالنـ ـسك عند القوم جاهى ؟

فمثل هذا إذا تاب من قتل النفس ، وسرقة أموال المعصومين ، وأكل أموال اليتامى . ولم يتب من شرب الخمر والفاحشة : صحت توبته مما تاب منه . ولم يؤاخذ به . و بقى مؤخذا بما هو مصر عليه . والله أعلم .

فصل

ومن أحكام « التوبة » أنه : هل يشترط فى صحتها أن لايعود إلى الذنب أبدا ، أم ليس ذلك بشرط ؟

فشرط بعض الناس : عدم معاودة الذنب . وقال : متى عاد إليه تبينَّا أن التوبة كانت باطلة غير صحيحة .

والأكثرون على أن ذلك ليس بشرط . و إنما صحة التوبة تتوقف على الإقلاع عن الذنب ، والندم عليه ، والعزم الجازم على ترك معاودته .

فإن كانت فى حق آدمى : فهل يشترط تحلله ؟ فيه تفصيل ـ سنذكره إن شاء الله ـ فإذا عاوده ، مع عزمه حال التوبة على أن لايعاوده . صار كمن ابتدأ المعصية ، ولم تبطل توبته المتقدمة .

والمسألة مبنية على أصل . وهو : أن العبد إذا تاب من الذنب ثم عاوده ، فهل يعود إليه إثم الذنب الذى قد تاب منه ثم عاوده ، بحيث يستحق العقوبة على الأول والآخر ، إن مات مصرا ؟ أو إن ذلك قد بطل بالكلية . فلا يعود إليه إثمه . و إنما يعاقب على هذا الأخير ؟

وفى هذا الأصل قولان .

فقالت طائفة : يعود إليه إثم الذنب الأول . لفساد التوبة ، و بطلانها بالمعاودة

قالوا : لأن التوبة من الذنب بمنزلة الإسلام من الكفر . والكافر إذا أسلم هدم إسلامُه ماقبله من إثم الكفر وتوابعه . فإذا ارتد عاد إليه الإثم الأول مع

إثم الردة . كما ثبت فى الصحيح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « من أحسن فى الإسلام لم يؤاخذ بما عمل فى الجاهلية . ومن أساء فى الإسلام أُخِذ بالأول والآخر » فهذا حال من أسلم وأساء فى إسلامه . ومعلوم أن الردة من أعظم الإساءة فى الإسلام . فإذا أُخذ بعدها بما كان منه فى حال كفره . ولم يسقطه الإسلام المتخلل بينهما . فهكذا التوبة المتخللة بين الذنبين لاتسقط الإثم السابق ، كما لا تمنع الإثم اللاحق .

قالوا : ولأن صحة التوبة مشروطة باستمرارها ، والموافاة عليها ، والمعلق على الشرط يعدم عند عدم الشرط . كما أن صحة الإسلام مشروطة باستمراره والموافاة عليه

قالوا : والتوبة واجبة وجوباً مضيقاً مدى العمر . فوقتها مدة العمر . إذ يجب عليه استصحاب حكمها فى مدة عمره . فهى بالنسبة إلى العمر كالإمساك عن المفطرات فى صوم اليوم . فإذا أمسك معظم النهار ، ثم نقض إمساكه بالمفطرات : بطل ماتقدم من صيامه . ولم يعتدّ به . وكان بمنزلة من لم يمسك شيئاً من يومه .

قالوا : ويدل على هذا : الحديث الصحيح . وهو قوله صلى الله عليه وسلم « إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة ، حتى مايكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها » وهذا أعم من أن يكون هذا العمل الثانى كفراً موجباً للخلود ، أو معصية موجبة للدخول . فإنه لم يقل « فيرتد فيفارق الإسلام » وإنما أخبر : أنه يعمل بعمل يوجب له النار . وفى بعض السنن « إن العبد ليعمل بطاعة الله ستين سنة . فإذا كان عند الموت جار فى وصيته فدخل النار » فالخاتمة السيئة أعم من أن تكون خاتمة بكفر أو بمعصية . والأعمال بالخواتيم .

فإن قيل : فهذا يلزم منه إحباط الحسنات بالسيئات . وهذا قول المعتزلة . والقرآن والسنة قد دلا على أن الحسنات هى التى تحبط السيئات لا العكس . كما قال (١١ : ١١٤ إن الحسنَات يُذْهِبْنَ السيئات) وقال النبى صلى الله عليه وسلم

لمعاذ « اتق الله حيثما كنتَ ، وَأَتْبِـع السيئةَ الحسنةَ تَمْحُهَا ، وخالق الناس بِخُلُقٍ حسن » .

قيل : والقرآن والسنة ، قد دلا على الموازنة . و إحباط الحسنات بالسيئات فلا يضرب كتاب الله بعضه ببعض . ولا يرد القرآن بمجرد كون المعتزلة قالوه ـ فعلَ أهل الهوى والتعصب ـ بل نقبل الحق ممن قاله . ونرد الباطل على من قاله .

فأما الموازنة : فمذكورة فى سورة الأعراف (٧ : ٨ ، ٩) والأنبياء (٢١ : ٤٧) والمؤمنين (٢٣ : ١٠١ ـ ١١١) والقارعة ، والحاقَّة (٦٩ : ١٩ ـ ٣٧) .

وأما الإحباط : فقد قال الله تعالى (٤٧ : ٣٣ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالـكم) وتفسـير الإبطال هاهنا بالردة . لأنها أعظم المبطلات ، لا لأن المبطل ينحصر فيها . وقال تعالى (٢ : ٢٦٤ ياأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتـكم بالمنِّ والأذى) فهذان سببان عَرضاَ بعدُ للصدقة فأبطلاها . شبه سبحانه بطلانها ـ بالمنِّ والأذى ـ بحال المتصدق رياءً فى بطلان صدقة كل واحد منهما . وقال تعالى (٤٩ : ٢ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتـكم فوق صوت النبي . ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض : أن تحبط أعمالـكم وأنتم لا تشعرون) وفى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله » وقالت عائشة رضى الله عنها ، لأم ولد زيد بن أرقم ـ وقد باع بيع العِينة ـ « أخبرى زيداً : أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ إلا أن يتوب » وقد نص أحمد على هذا فى رواية ، فقال : ينبغى للعبد أن يتزوج إذا خاف على نفسه . فيستدين و يتزوج ، لا يقع فى محظور فيحبط عمله .

فإذا استقرت قاعدة الشريعة ـ أن من السيئات مايحبط الحسنات بالإجماع ومنها مايحبطها بالنص ـ جاز أن تحبِط سيئة المعاودة حسنة التوبة . فتصير التوبة كأنها لم تـكن . فيلتقى العملان ولا حاجز بينهما . فيكون التأثير لهما جميعاً .

قالوا : وقد دل القرآن ، والسنة ، و إجماع السلف على الموازنة . وفائدتها :

اعتبار الراجح . فيكون التأثير والعمل له دون المرجوح . قال ابن مسعود « يُحَاسَبُ الناس يوم القيامة . فمن كانت سيئاته أكثر من حسناته بواحدة دخل النار . ومن كانت حسناته أكثر من سيئاته بواحدة دخل الجنة . ثم قرأ (٧ : ٨ ، ٩ فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خَفَّت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم) ثم قال « إن الميزان يخف بمثقال حبة أو يرجح » قال « ومن استوت حسناته وسيئاته ، كان من أصحاب الأعراف [1] » .

وعلى هذا : فهل يُحبط الراجحُ المرجوحَ ، حتى يجعله كأن لم يكن ، أو يحبط ماقابله بالموازنة . ويبقى التأثير للقدر الزائد ؟ فيه قولان للقائلين بالموازنة .

ينبنى عليهما : أنه إذا كانت الحسنات أرجح من السيئات بواحدة مثلاً ، فهل يدفع الراجح المرجوح جملة ؟ فيثاب على الحسنات كلها ، أو يسقط من الحسنات ماقابل السيئات . فلا يثاب عليه ، ولا يعاقب على تلك السيئات . فيبقى القدر الزائد لامقابل له . فيثاب عليه وحده ؟ .

وهذا الأصل فيه قولان لأصحاب الموازنة .

وكذلك إذا رجحت السيئات بواحدة ، هل يدخل النار بتلك الواحدة التى سلمت عن مقابل ، أو بكل السيئات التى رجحت ؟ على القولين [2] . هذا كله على أصل أصحاب التعليل والحكم .

---

(١) « الاعراف » من التعرف . وهم الشهداء الذين يستشهدهم الله على خلقه (٧ : ٤٦ ـ ٤٨ وعلى الاعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ـ ونادى أصحاب الاعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم ، قالوا : ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون) .

(٢) متى سلم الانسان من الشرك الذى لايغفره الله تعالى لايضيع له عمل ولاينقص من أجره شىء . والموازنة بين حسناته وسيئاته تكون على قدر تأثيرها فى تزكية نفسه وتدسيتها (ولكل درجات مما عملوا) ولا يعلم درجة رجحان التزكية التى يسلم بها المؤمن من العذاب ألبتة إلا الله تعالى . وبهذا يجمع بين الآيات الكثيرة فى الجزاء والعمل والوزن . ولكن لبطلان العمل علامات يعرفها الذى يحاسب نفسه .

وأما على أصول الجبرية ، نفاة التعليل والحكَم والأسباب ، واقتضائها للثواب والعقاب : فالأمر مردود عندهم إلى محض المشيئة ، من غير اعتبار شيء من ذلك ، ولايدرى عندهم مايفعل الله . بل يجوز عندهم أن يعاقب صاحب الحسنات الراجحة ، و يثيب صاحب السيئات الراجحة ، وأن يدخل الرجلين النار مع استوائهما فى العمل . وأحدهما فى الدرك تحت الآخر . و يغفر لزيد و يعاقب عمراً ، مع استوائهما من جميع الوجوه . وَيُنَعِّمَ من لم يطعه قط . و يعذب من لم يعصه قط . فليس عندهم سبب ولا حكمة ، ولا علة ، ولا موازنة ، ولا إحباط ، ولا تدافع بين الحسنات والسيئات . والخوف على المحسن والمسيء واحد . إذ من الجائز تعذيبهما . وكل مقدور له فجائز عليه ، لا يعلم امتناعه إلا بإخبار الرسول : أنه لا يكون . فيمتنع وقوعه لمطابقة خبره لعلم الله عز وجل بعد وقوعه .

فصل

واحتج الفريق الآخر ـ وهم القائلون بأنه لايعود إليه إثم الذنب الذى تاب منه بنقض التوبة ـ بأن ذلك الإثم قد ارتفع بالتوبة . وصار بمنزلة ما لم يعمله . وكأنه لم يكن . فلا يعود إليه بعد ذلك ، و إنما العائد إثم المستأنَف لا الماضى .

قالوا : ولا يشترط فى صحة التوبة العصمة إلى الممات ، بل إذا ندم وأقلع وعزم على الترك : مُحى عنه إثم الذنب بمجرد ذلك . فإذا استأنفه استأنف إثمه .

قالوا : فليس هذا كالكفر الذى يحبط الأعمال . فإن الكفر له شأن آخر . ولهذا يحبط جميع الحسنات . ومعاودة الذنب لا تحبط ما تقدمه من الحسنات .

قالوا : والتوبة من أكبر الحسنات . فلو أبطلتها معاودة الذنب : لأبطلت غيرها من الحسنات . وهذا باطل قطعاً . وهو يشبه مذهب الخوارج المكفرين بالذنب . والمعتزلة المخلِّدين فى النار بالكبيرة ، التى تقدمها الألوف من الحسنات . فإن الفريقين متفقان على خلود أرباب الكبائر فى النار . ولكن الخوارج كفروهم ، والمعتزلة فسقوهم . وكلا المذهبين باطل فى دين الإسلام . مخالف للمنقول

والمعقول وموجب العدل (٤ : ٤٠ إن الله لايظلم مثقال ذَرَّة . و إن تَكُ حسنةً يضاعفها . و يؤتِ من لَدُنْه أجراً عظيماً) .

قالوا : وقد ذكر الإمام أحمد فى مسنده مرفوعاً إلى النبى صلى الله عليه وسلم « إن الله يحب العبد المفتَن التواب » .

قلت : وهو الذى كلما فتن بالذنب تاب منه . فلو كانت معاودته تبطل تو بته لما كان محبو باً للرب ، ولـكان ذلك أدعى إلى مقته .

قالوا : وقد علق الله سبحانه قبول التو بة بالاستغفار ، وعدم الإصرار ، دون المعاودة . فقال تعالى (٣ : ١٣٥ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم . ومن يغفر الذنوب إلا الله ؟ ولم يُصِرُّوا على ما فعلوا وهم يعلمون) والإصرار : عَقْد القلب على ارتـكاب الذنب متى ظفر به . فهذا الذى يمنع مغفرته .

قالوا : وأما استمرار التو بة : فشرط فى صحة كمالها ونفعها . لا شرط فى صحة مامضى منها . وليس كذلك العبادات ، كصيام اليوم ، وعدد ركعات الصلاة . فإن تلك عبادة واحدة . لا تـكون مقبولة إلا بالإتيان بجميع أركانها وأجزائها . وأما التو بة : فهى عبادات متعددة بتعدد الذنوب . فـكل ذنب له تو بة تخصه . فإذا أتى بعبادة وترك أخرى ، لم يكن ماترك موجباً لبطلان مافعل . كما تقدم تقريره .

بل نظير هـذا : أن يصوم من رمضان و يفطر منه بلا عذر . فهل يكون ما أفطره منه مبطلا لأجر ما صامه منه ؟ .

بل نظير من صلى ولم يصم . أو زكى ولم يحج .

ونـكتة المسألة : أن التو بة المتقدمة حسنة ، ومعاودة الذنب سيئة . فلا تبطل معاودته هذه الحسنة ، كما لا تبطل ما قارنها من الحسنات .

قالوا : وهذا على أصول أهل السنة أظهر . فإنهم متفقون على أن الشخص الواحد يكون فيه ولاية لله وعداوة من وجهين مختلفين . ويكون محبو باً لله مبغوضاً

له من وجهين أيضاً . بل يكون فيه إيمان ونفاق ، وإيمان وكفر . ويكون إلى أحدهما أقرب منه إلى الآخر . فيكون من أهله . كما قال تعالى (٣ : ١٦٧ هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان) وقال (١٢ : ١٠٦ وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) أثبت لهم الإيمان به ، مع مقارنة الشرك . فإن كان مع هذا الشرك تكذيب لرسله لم ينفعهم مامعهم من الإيمان بالله . و إن كان معه تصديق لرسله ، وهم مرتكبون لأنواع من الشرك لاتخرجهم عن الإيمان بالرسل و باليوم الآخر . فهؤلاء مستحقون للوعيد أعظم من استحقاق أرباب الكبائر .

وشركهم قسمان : شرك خفى . وشرك جلى . فالخفى قد يغفر . وأما الجلى فلا يغفره الله إلا بالتوبة منه . فإن الله لا يغفر أن يشرك به .

وبهذا الأصل أثبت أهل السنة دخول أهل الكبائر النار . ثم خروجهم منها ودخولهم الجنة . لما قام بهم من السببين .

فإذا ثبت هذا ، فمعاود الذنب : مبغوض لله من جهة معاودة الذنب ، محبوب له من جهة توبته وحسناته السابقة . فيرتب الله سبحانه على كل سبب أثره ومسببه بالعدل والحكمة . ولا يظلم مثقال ذرة (٤١ : ٤٦ وما ربك بظلام للعبيد) .

فصل

وإذا استغرقت سيئاته الحديثات حسناته القديمات وأبطلتها . ثم تاب منها توبة نصوحاً خالصة : عادت إليه حسناته . ولم يكن حكمه حكم المستأنف لها . بل يقال له : تبت على ما أسلفت من خير . فالحسنات التى فعلتها فى الإسلام أعظم من الحسنات التى يفعلها الكافر فى كفره : من عتاقة ، وصدقة ، وصلة . وقد قال حكيم بن حزام « يا رسول الله ، أرأيتَ عتاقة أعتقتها فى الجاهلية ، وصدقة تصدقت بها ، وصلة وصلت بها رحمى . فهل لى فيها من أجر ؟ فقال : أسلمت على ما أسلفت من خير » وذلك لأن الاساءة المتخللة بين الطاعتين قد ارتفعت بالتوبة . وصارت كأنها لم تكن . فتلاقت الطاعتان واجتمعتا . والله أعلم .

فصل

ومن أحكامها : أن العاصى إذا حيل بينه و بين أسـباب المعصية ، وعجز عنها . بحيث يتعذر وقوعها منه ، هل تصح تو بته ؟ وهذا كالـكاذب والقاذف ، وشاهد الزور إذا قُطع لسانه ، والزانى إذا جُبّ ، والسارق إذا أُتى على أطرافه الأر بعة ، والمزور إذا قُطعت يده . ومن وصل إلى حَدٍّ بطلت معه دواعيه إلى معصية كان يرتـكبها .

فنى هذا قولان للناس .

فقالت طائفة : لا تصح تو بته . لأن التو بة إنمـا تـكون ممن يمكنه الفعل والترك . فالتو بة من الممكن ، لا من المستحيل . ولهذا لا تتصور التو بة من نقل الجبال عن أماكنها ، وتنشيف البحار ، والطيران إلى السماء ، ونحوه .

قالوا : ولأن التو بة مخالفة داعى النفس ، و إجابة داعى الحق . ولا داعى للنفس هنا . إذ يعلم استحالة الفعل منها .

قالوا : ولأن هذا كالمـكره على الترك ، المحمول عليه قهرا . ومثل هذا لاتصح تو بته .

قالوا : ومن المستقر فى فطر الناس وعقولهم : أن تو بة المفاليس وأصحاب الجوائح : تو بة غير معتبرة . ولا يحمدون عليها . بل يسمونها تو بة إفلاس ، وتو بة جائحة . قال الشاعر :

ورحت عن تو بة سـائلا وجدتهـا تو بة إفلاس

قالوا : و يدل على هذا أيضاً : أن النصوص المتضافرة المتظاهرة قد دلت على أن التو بة عند المعاينة لاتنفع . لأنها تو بة ضرورة لااختيار . قال تعالى (٤ : ١٧ ، ١٨ إنما التو بة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ، ثم يتو بون من قريب . فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله عليما حكيما : وليست التو بة للذين يعملون السيئات . حتى إذا حضر أحدهم الموت قال : إنى تبت الآن . ولا الذين يموتون وهم كفار ،

أولئك اعتدنا لهم عذاباً أليما) و « الجهالة » هٰهنا : جهالة العمل . و إن كان عالماً بالتحريم . قال قتادة « أجمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن كل ماعُصى الله به فهو جهالة ، عمداً كان أو لم يكن . وكل من عصى الله فهو جاهل »

وأما التوبة من قريب : فجمهور المفسرين : على أنها التوبة قبل المعاينة . قال عكرمة : قبل الموت . وقال الضحاك : قبل معاينة ملك الموت . وقال السدى والكلبي: أن يتوب فى صحته قبل مرض موته . وفى المسند وغيره عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يُغَرْغر » وفى نسخة دراج ـ أبى الهيثم ـ عن أبى سعيد مرفوعاً « إن الشيطان قال : وعزتك يارب لا أبرح أغوى عبادك مادامت أرواحهم فى أجسادهم . فقال الرب عز وجل: وعزتى وجلالى وارتفاع مكانى لا أزال أغفر لهم ما استغفرونى[1] » .

---

(١) قال السيد رشيد : اغتر الناس بظواهر هذه الأقوال فى تفسير الآية . وهذه الأحاديث . فصاروا يسوفون فى التوبة ، ويصرون على المعاصى . فترسخ فى قلوبهم . وتأنس بها أنفسهم . وتصير ملكات وعادات يتعذر عليهم ـ أو يتعسر ـ على غير الموفق النادر الاقلاع عنها حتى يجيئهم الأجل الموعود . وليس معنى الآية : أن التوبة المقبولة المرضية التى أوجب الله على نفسه قبولها : هى ما كانت عن معاصى يصر المرء عليها إلى ماقبل غرغرة الموت ، ولو بساعات أو دقائق ، بل المراد القرب من وقت الذنب المانع من الاصرار ، كما فى الآية الأخرى . ولعل مراد عكرمة والضحاك وأمثالهما موافقة معنى الحديث ، من أن الله يقبل توبة العاصى مالم يغرغر ، أى أنه فرض أنه تاب فى أى وقت من الأوقات ، قبل الغرغرة والمعاينة ، تقبل توبته ، ولا يكون ذلك منافيا للآية ، فإن الانسان قد يتوب قبل الغرغرة من ذنب عمله من عهد قريب ، ولكن قلما يتوب من الاصرار الذى رسخ فى الزمن البعيد . فإن تاب فقلما يتمكن من إصلاح ما أفسده الاصرار من نفسه ليصدق عليه قوله تعالى (وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى) .

وجملة القول : أن المراد أن الاصرار والتسويف خطر . وإن كانت التوبة تقبل فى كل حال اختيار . إذ الغالب أن المرء يموت على ماعاش عليه . فليحذر المغرورون .

فهذا شأن التائب من قريب . وأما إذا وقع فى السياق فقال : إنى تبت الآن ، لم تقبل توبته . وذلك لأنها توبة اضطرار لا اختيار . فهى كالتوبة بعد طلوع الشمس من مغربها ، ويوم القيامة ، وعند معاينة بأس الله .

قالوا : ولأن حقيقة التوبة : هى كف النفس عن الفعل الذى هو متعلق النهى . والكف إنما يكون عن أمر مقدور . وأما المحال : فلا يعقل كف النفس عنه . ولأن التوبة هى الإقلاع عن الذنب . وهذا لا يتصور منه الإيقاع حتى يتأتى منه الإقلاع .

قالوا : ولأن الذنب عزم جازم على فعل المحرم ، يقترن به فعله المقدور . والتوبة منه : عزم جازم على ترك المقدور ، يقترن به الترك . والعزم على غير المقدور محال . والترك فى حق هذا ضرورى ، لا عزم غير مقدور . بل هو بمنزلة ترك الطيران إلى السماء ، ونقل الجبال وغير ذلك .

والقول الثانى ـ وهو الصواب ـ أن توبته صحيحة ممكنة . بل واقعة . فإن أركان التوبة مجتمعة فيه . والمقدور له منها الندم . وفى المسند مرفوعاً « الندم توبة » فإذا تحقق ندمه على الذنب ولومه نفسه عليه . فهذه توبة . وكيف يصح أن تسلب التوبة عنه ، مع شدة ندمه على الذنب ، ولومه نفسه عليه ؟ ولا سيما ما يتبع ذلك من بكائه وحزنه وخوفه ، وعزمه الجازم ، ونيته أنه لو كان صحيحاً والفعل مقدوراً له لما فعله .

وإذا كان الشارع قد نَزَّل العاجز عن الطاعة منزلة الفاعل لها ، إذا صحت نيته . كقوله فى الحديث الصحيح « إذا مرض العبد أو سافر كتب له ما كان يعمل صحيحاً مقيما » وفى الصحيح أيضاً عنه « إن بالمدينة أقواماً ماسرتم مسيراً ، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم . قالوا : وهم بالمدينة ؟ قال : وهم بالمدينة . حبسهم العذر » وله نظائر فى الحديث . فتنزيل العاجز عن المعصية ، التارك لها قهراً ـ مع نيته تركها اختياراً لو أمكنه ـ منزلة التارك المختار أولى .

يوضحه : أن مفسدة الذنب التى يترتب عليها الوعيد تنشأ من العزم عليه تارة ومن فعله تارة . ومنشأ المفسدة معدوم فى حق هذا العاجز فعلا وعزما . والعقوبة تابعة للمفسدة .

وأيضاً فإن هذا تعذر منه الفعل ما تتعذر منه التمنى والوداد . فإذا كان يتمنى ويود لو واقع الذنب ، ومن نيته : أنه لو كان سليما لباشره . فتوبته بالإقلاع عن هذا الوداد والتمنى ، والحزن على فوته . فإن الإصرار متصور فى حقه قطعاً . فيتصور فى حقه ضده . وهو التوبة . بل هى أولى بالإمكان والتصور من الإصرار ، وهذا واضح .

والفرق بين هـذا و بين المعاين ، ومن ورد القيامة : أن التكليف قد انقطع بالمعاينة وورود القيامة . والتوبة إنما تكون فى زمن التكليف . وهذا العاجز لم ينقطع عنه التكليف . فالأوامر والنواهى لازمة له . والكف متصور منه عن التمنى والوداد ، والأسف على فوته ، وتبديل ذلك بالندم والحزن على فعله . والله أعلم .

فصل

ومن أحكامها : أن من توغل فى ذنب ، وعزم على التوبة منه ، ولا يمكنه التوبة منه إلا بارتكاب بعضه ، كمن أولج فى فرج حرام . ثم عزم على التوبة قبل النزع الذى هو جزء الوطء . وكمن توسط أرضاً مغصوبة ، ثم عزم على التوبة . ولا يمكنه إلا بالخروج ، الذى هو مشى فيها وتصرف . فكيف يتوب من الحرام بحرام مثله ؟ وهل تعقل التوبة من الحرام بحرام ؟ .

فهذا مما أشكل على بعض الناس . حتى دعاه ذلك إلى أن قال بسقوط التكليف عنه فى هذا الفعل الذى يتخلص به من الحرام .

قال : لأنه لايمكن أن يكون مأمورا به وهو حرام. وقد تعين فى حقه طريقاً للخلاص من الحرام ، لايمكنه التخلص بدونه . فلا حكم فى هذا الفعل ألبتة . وهو بمنزلة العفو الذى لايدخل تحت التكليف .

وقالت طائفة : بل هو حرام واجب . فهو ذو وجهين . مأمور به من أحدهما . منهى عنه من الآخر . فيؤمر به من حيث تعينه طريقاً للخلاص من الحرام . وهو من هذا الوجه واجب . وينهى عنه من جهة كونه مباشرة للحرام . وهو من هذا الوجه محرم ، فيستحق عليه الثواب والعقاب .

قالوا : ولا يمتنع كون الفعل فى الشرع ذا وجهين مختلفين ، كالاشتغال عن الحرام بمباح . فإن المباح إذا نظرنا إلى ذاته ـ مع قطع النظر عن ترك الحرام ـ قضينا بإباحته . وإذا اعتبرناه من جهة كونه تاركاً للحرام كان واجباً .

نعم ، غايته : أنه لا يتعين مباح دون مباح . فيكون واجباً مخيرا .

قالوا : وكذلك الصلاة فى الدار المغصوبة ، هى حرام . وهى واجبة . وستر العورة بثوب الحرير كذلك : حرام واجب ، من وجهين مختلفين .

والصواب : أن هذا النزع والخروج من الأرض : توبة ليس بحرام . إذ هو مأمور به . ومحال أن يؤمر بالحرام . وإنما كان النزع ـ الذى هو جزء الوطء ـ حراماً بقصد التلذذ به . وتكميل الوطء . وأما النزع الذى يقصد به مفارقة الحرام، وقطع لذة المعصية . فلا دليل على تحريمه ، لا من نص ولا إجماع ، ولا قياس صحيح يستوى فيه الأصل والفرع فى علة الحكم .

ومحال خلو هذه الحادثة عن حكم الله فيها . وحكمه فيها : الأمر بالنزع قطعاً . وإلا كانت الاستدامة مباحة . وذلك عين المحال . وكذلك الخروج من الأرض المغصوبة : مأمور به . وإنما تكون الحركة والتصرف فى ملك الغير حراماً إذا كان على وجه الانتفاع بها ، المتضمن لإضرار مالكها . أما إذا كان القصد ترك الانتفاع ، وإزالة الضرر عن المالك . فلم يحرم الله ولا رسوله ذلك . ولا دل على تحريمه نظر صحيح ، ولا قياس صحيح .

وقياسه على مشى مستديم الغصب . وقياس نزع التائب على نزع المستديم : من أفسد القياس وأبينه بطلاناً . ونحن لا ننكر كون الفعل الواحد يكون له

وجهان . ولـكن إذا تحقق النهى عنه والأمر به : أمكن اعتبار وجهيه . فإن الشارع أمر بستر العورة . ونهى عن لبس الحرير . فهذا الساتر لهـا بالحرير قد ارتـكب الأمرين ، فصار فعله ذا وجهين .

وأما محل النزاع : فلم يتحقق فيه النهى عن النزع ، والخروج عن الأرض المغصوبة من الشارع ألبتة ، لا بقوله ولا بمعقول قوله ، إلا باعتبار هذا الفرد بفرد آخر . بينهما أشد تباين ، وأعظم فرق فى الحس والعقل والفطرة والشرع .

وأما إلحـاق هذا الفرد بالعفو : فإن أريد به أنه : معفوله عن المؤاخذة به فصحيح . وإن أريد أنه لاحكم لله فيه ، بل هو بمنزلة فعل البهيمة والنائم ، والناسى والمجنون : فباطل . إذ هؤلاء غير مخاطبين . وهذا مخاطب بالنزع والخروج . فظهر الفرق . والله الموفق للصواب .

فإن قيل : هذا يتأتى لـكم فيما إذا لم يكن فى المفارقة بنزع أو خروج مفسدة . فما تصنعون فيما إذا تضمن مفسدة ؟ مثل مفسدة الإقامة ، كمن توسط جماعة جرحى لسلبهم . فطرح نفسه على واحد . إن أقام عليه قتله بثقله . وإن انتقل عنه لم يجد بداً من انتقاله إلى مثله يقتله بثقله . وقد عزم على التوبة . فـكيف تـكون توبته ؟ .

قيل : توبة مثل هذا : بالتزام أخف المفسدتين ، من الإقامة على الذنب المعين أو الانتقال عنه . فإن تساوت مفسدة الإقامة على الذنب ومفسدة الانتقال عنه من كل وجه . فهذا يؤمر من التوبة بالمقدور له منها . وهو الندم ، والعزم الجازم على ترك المعاودة . وأما الإقلاع : فقد تعذر فى حقه إلا بالتزام مفسدة أخرى مثل مفسدته .

فقيل : إنه لاحكم لله فى هذه الحادثة ، لاستحالة ثبوت شىء من الأحكام الخمسة فيها . إذ إقامته على الجريح تتضمن مفسدة قتله . فلا يؤمر بها . ولاهو مأذون له فيها . وانتقاله عنه يتضمن مفسدة قتل الآخر . فلا يؤمر بالانتقال ، ولا يؤذن له فيه . فيتعذر الحـكم فى هذه الحادثة على هذا . فتتعذر التوبة منها .

والصواب : أن التوبة غير متعذرة . فإنه لا واقعة إلا ولله فيها حكم . علمه من علمه وجهله من جهله .

فيقال : حكم الله فى هذه الواقعة : كحكمه فى المُلجَأ . فإنه قد أُلجِىء قدراً إلى إتلاف أحد النفسين ولا بد . والملجأ ليس له فعل يضاف إليه ، بل هو آلة . فإذا صار هذا كالملجأ ، فحكمه : أن لا يكون منه حركة ولا فعل ولا اختيار . فلا يعدل من واحد إلى واحد ، بل يتخلى عن الحركة والاختيار ، ويستسلم استسلام من هو عليه من الجرحى . إذ لا قدرة له على حركة مأذونٌ له فيها ألبتة . فحكمه الفناء عن الحركة والاختيار ، وشهود نفسه كالحجر الملقى على هذا الجريح . ولا سيما إن كان قد أُلقى عليه بغير اختياره . فليس له أن يلقىِ نفسه على جاره لينجيه بقتله . والقدر ألقاه على الأول . فهو معذور به . فإذا انتقل إلى الثانى انتقل بالاختيار والإرادة . فهكذا إذا ألقى نفسه عليه باختياره ثم تاب وندم . لا نأمره بإلقاء نفسه على جاره ، ليتخلص من الذنب بذنب مثله سواء .

وتوبة مثل هذا إنما تتصور بالندم والعزم فقط ، لا بالإقلاع . والإقلاع فى حقه مستحيل . فهو كمن أولج فى فرج حرام ، ثم شُدَّ وربط فى حال إيلاجه بحيث لا يمكنه النزع ألبتة . فتوبته بالندم والعزم والتجافى بقلبه عن السكون إلى الاستدامة . وكذلك توبة الأول بذلك، وبالتجافى عن الإرادة والاختيار .والله أعلم

فصل

ومن أحكامها : أنها إذا كانت متضمنة لحق آدمى : أن يخرج التائب إليه منه ، إما بأدائه وإما باستحلاله منه بعد إعلامه به . وإن كان حقاً مالياً أو جناية على بدنه أو بدن موروثه . كما ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « من كان لأخيه عنده مظلمة من مال أو عرض ، فليتحلله اليوم ، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إلا الحسنات والسيئات » .

وإن كانت المظلمة بقدح فيه، بغيبة أو قذف: فهل يشترط فى توبته منها إعلامه بذلك بعينه والتحلل منه؟ أو إعلامه بأنه قد نال من عرضه، ولا يشترط تعيينه، أو لا يشترط لا هذا ولا هذا، بل يكفى فى توبته أن يتوب بينه وبين الله من غير إعلام مَنْ قذفه وإعتابه؟

على ثلاثة أقوال. وعن أحمد روايتان منصوصتان فى حد القذف، هل يشترط فى توبة القاذف: إعلام المقذوف، والتحلل منه أم لا؟ ويخرّج عليهما توبة المغتاب والشاتم.

والمعروف فى مذهب الشافعى، وأبى حنيفة، ومالك: اشتراط الإعلام والتحلل. هكذا ذكره أصحابهم فى كتبهم.

والذين اشترطوا ذلك احتجوا بأن الذنب حق آدمى: فلا يسقط إلا بإحلاله منه وإبرائه.

ثم من لم يصحح البراءة من الحق المجهول شرط إعلامه بعينه. لاسيما إذا كان مَنْ عليه الحق عارفا بقدره. فلا بد من إعلام مستحقه به. لأنه قد لا تسمح نفسه بالإبراء منه إذا عرف قدره.

واحتجوا بالحديث المذكور. وهو قوله صلى الله عليه وسلم «من كان لأخيه عنده مظلمة ـ من مال أو عرض ـ فليتحلَّله اليوم».

قالوا: ولأن فى هذه الجناية حقين: حقا لله، وحقا للآدمى. فالتوبة منها بتحلل الآدمى لأجل حقه، والندم فيما بينه وبين الله لأجل حقه.

قالوا: ولهذا كانت توبة القاتل لا تتم إلا بتمكين ولى الدم من نفسه، إن شاء اقتص وإن شاء عفا. وكذلك توبة قاطع الطريق.

والقول الآخر: أنه لا يشترط الإعلام بما نال من عرضه وقذفه واغتيابه، بل يكفى توبته بينه وبين الله. وأن يذكر المغتاب والمقذوف فى مواضع غيبته وقذفه

بضد ماذكره به من الغيبة . فيبدِّل غيبته بمدحه والثناء عليه ، وذكر محاسنه ، وقذفه بذكر عِفَّته وإحصانه . ويستغفر له بقدر ما اغتابه .

وهذا اختيار شيخنا أبى العباس ابن تيمية . قدس الله روحه .

واحتج أصحاب هذه المقالة بأن إعلامه مفسدة محضة ، لاتتضمن مصلحة . فإنه لايزيده إلا أذَى وحَنقا وغماً ، وقد كان مستريحاً قبل سماعه . فإذا سمعه ربما لم يصبر على حمله ، وأورثته ضررا فى نفسه أو بدنه ، كما قال الشاعر :

فإن الذى يؤذيك منه سماعه وإن الذى قالوا وراءك لم يُقَل

وما كان هكذا فإن الشارع لايبيحه . فضلا عن أن يوجبه ويأمر به .

قالوا : وربما كان إعلامه به سبباً للعداوة والحرب بينه وبين القائل . فلا يصفو له أبداً . ويورثه علمه به عداوة وبغضاء مولِّدة لشر أكبر من شر الغيبة والقذف . وهذا ضد مقصود الشارع من تأليف القلوب ، والتراحم والتعاطف والتحابب .

قالوا : والفرق بين ذلك وبين الحقوق المالية وجنايات الأبدان من وجهين .

أحدهما : أنه قد ينتفع بها إذا رجعت إليه . فلا يجوز إخفاؤها عنه . فإنه محض حَقِّه . فيجب عليه أداؤه إليه . بخلاف الغيبة والقذف . فإنه ليس هناك شىء ينفعه يؤديه إليه إلا إضراره وتهييجه فقط . فقياس أحدهما على الآخر من أفسد القياس

والثانى : أنه إذا أعلمه بها لم تؤذه ، ولم تُهِج منه غضباً ولا عداوة . بل ربما سره ذلك وفرح به . بخلاف إعلامه بما مَزَّق به عرضه طول عمره ليلاً ونهاراً ، من أنواع القذف والغيبة والهجو . فاعتبار أحدهما بالآخر اعتبار فاسد . وهذا هو الصحيح فى القولين كما رأيت . والله أعلم .

فصل

ومن أحكامها : أن العبد إذا تاب من الذنب : فهل يرجع إلى ما كان عليه قبل الذنب من الدرجة التى حَطَّه عنها الذنب ، أو لايرجع إليها ؟ اختلف فى ذلك .

فقالت طائفة : يرجع إلى درجته . لأن التوبة تَجُبّ الذنب بالكلية ، وتُصَيّره كأن لم يكن . والمقتضى لدرجته : مامعه من الإيمان والعمل الصالح . فعاد إليها بالتوبة .

قالوا : لأن التوبة حسنة عظيمة وعمل صالح . فإذا كان ذنبه قد حطه عن درجته ، فحسنته بالتوبة رَقَّته إليها . وهذا كمن سقط فى بئر . وله صاحب شفيق ، أدْلَى إليه حبلاً تمسك به حتى رقى منه إلى موضعه . فهكذا التوبة والعمل الصالح مثل هذا القرين الصالح ، والأخ الشفيق .

وقالت طائفة : لايعود إلى درجته وحاله . لأنه لم يكن فى وقوف . وإنما كان فى صعود . فبالذنب صار فى نزول وهبوط . فإذا تاب نقص عليه ذلك القدر الذى كان مستعدا به للترقى .

قالوا : ومثَل هذا مثل رجلين سائرين على طريق سيراً واحداً . ثم عرض لأحدهما مارده على عقبه أو أوقفه ، وصاحبه سائر . فإذا استقال هذا رجوعَه ووقفته ، وسار بإثر صاحبه : لم يلحقه أبدا . لأنه كلما سار مرحلة تقدم ذاك أخرى .

قالوا : والأول يسير بقوة أعماله وإيمانه . وكلما ازداد سيراً ازدادت قوته . وذلك الواقف الذى رجع قد ضعفت قوة سيره وإيمانه بالوقوف والرجوع .

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ يحكى هذا الخلاف . ثم قال : والصحيح : أن من التائبين من لايعود إلى درجته . ومنهم من يعود إليها . ومنهم من يعود إلى أعلى منها ، فيصير خيراً مما كان قبل الذنب . وكان داود بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة .

قال : وهذا بحسب حال التائب بعد توبته ، وجِدِّه وعزمه . وحذره وتشميره فإن كان ذلك أعظم مما كان له قبل الذنب عاد خيراً مما كان وأعلى درجة . وإن كان مثله عاد إلى مثل حاله . وإن كان دونه لم يعد إلى درجته . وكان منحطا عنها . وهذا الذى ذكره هو فصل النزاع فى هذه المسألة .

و يتبين هذا بمثلين مضرو بين .

أحدهما : رجل مسافر سائر على الطريق بطمأنينة وأمن . فهو يعدو مرة ويمشى أخرى ، و يستريح تارة و ينام أخرى . فبينا هو كذلك إذ عرض له فى سيره ظل ظليل ، وماء بارد ومَقيل ، وروضة مزهرة . فدعته نفسه إلى النزول على تلك الأماكن ، فنزل عليها . فوثب عليه منها عدو ، فأخذه وقيده وكَتَّفه ومنعه عن السير . فعاين الهلاك . وظن أنه منقطَع به ، وأنه رِزقُ الوحوش والسباع . وأنه قد حيل بينه و بين مقصده الذى يؤمه . فبينا هو على ذلك تتقاذفه الظنون ، إذ وقف على رأسه والده الشفيق القادر . فحلَّ كتافه وقيوده . وقال له : اركب الطريق واحذر هذا العدو . فإنه على منازل الطريق لك بالمرصاد . واعلم أنك مادمت حاذراً منه ، متيقظاً له لايقدر عليك . فإذا غفلت وثَبَ عليك . وأنا متقدمك إلى المنزل ، وفرط لك فاتبعنى على الأثر .

فإن كان هـذا السائر كَيِّساً فطناً لبيباً ، حاضر الذهن والعقل ، استقبل سيره استقبالا آخر ، أقوى من الأول وأتم . واشتد حذره . وتأهب لهذا العدو . وأعد له عدته . فـكان سيره الثانى أقوى من الأول ، وخيراً منه . ووصوله إلى المنزل أسرع . وإن غفل عن عدوه وعاد إلى مثل حاله الأول ، من غير زيادة ولا نقصان ولا قوة حذر ولا استعداد ، عاد كما كان . وهو مُعَرَّض لما عرض له أولا .

و إن أورثه ذلك توانيا فى سيره وفتوراً ، وتذكراً لطيب مقيله ، وحسن ذلك الروض وعذوبة مائه ، وتفيؤ ظلاله ، وسكونا بقلبه إليه : لم يعد إلى مثل سيره ونقص عما كان .

المثل الثانى : عبد فى صحة وعافية جسم ، عرض له مرض أوجب له حِمْية وشُرْبَ دواء وتحفظاً من التخليط . ونقص بذلك مادة ردية كانت منقصة لـكمال قوته وصحته . فعاد بعد المرض أقوى مما كان قبله ، كما قيل :

لعل عتبك محمود عواقبه ورب ما صحت الأجسام بالعلل

و إن أوجب له ذلك المرض ضعفا فى القوة ، وتداركه بمثل ما نقص من قوته . عاد إلى مثل ما كان .

و إن تداركه بدون مانقص من قوته ، عاد إلى دون ما كان عليه من القوة .

وفى هذين المثلين كفاية لمن تدبرهما .

وقد ضرب لذلك مثل آخر برجل خرج من بيته يريد الصلاة فى الصف الأول . لايلوى على شىء فى طريقه . فعرض له رجل من خلفه جَبَذ ثوبه وأوقفه قليلاً . يريد تعويقه عن الصلاة . فله معه حالان .

أحدهما : أن يشتغل به حتى تفوته الصلاة . فهذه حال غير التائب .

الثانى : أن يجاذبه على نفسه ، و يتفلت منه ، لئلا تفوته الصلاة .

ثم له بعد هذا التفلت ثلاثة أحوال .

أحدها : أن يكون سيره جَمْزاً ووثباً ، ليستدرك ما فاته بتلك الوقفة . فربما استدركه وزاد عليه .

الثانى : أن يعود إلى مثل سيره .

الثالث : أن تورثه تلك الوقفة فتوراً وتهاوناً . فيفوته فضيلة الصف الأول ، أو فضيلة الجماعة وأول الوقت . فهكذا حال التائبين السائرين سواء .

فصل

و يتبين هذا بمسألة شريفة . وهى أنه : هل المطيع الذى لم يَعْصَ خير من العاصى الذى تاب إلى الله توبة نصوحاً ، أو هذا التائب أفضل منه ؟

اختلف فى ذلك .

فطائفة رجحت مَنْ لم يعص على من عصى وتاب توبة نصوحاً . واحتجوا بوجوه

أحدها : أن أكمل الخلق وأفضلهم : أطوعهم لله . وهذا الذى لم يعص أطوع . فيكون أفضل .

الثانى : أن فى زمن اشتغال العاصى بمعصيته يسبقه المطيع عدة مراحل إلى

فوق . فتكون درجته أعلى من درجته . وغايته : أنه إذا تاب استقبل سيره ليلحقه . وذاك فى سير آخر . فأنَّى له بلحاقه ؟ فهما بمنزلة رجلين مشتركين فى الكسب ، كلما كسب أحدهما شيئاً كسب الآخر مثله . فعمد أحدهما إلى كسبه فأضاعه ، وأمسك عن الكسب المستأنف . والآخَر مُجِدٌّ فى الكسب . فإذا أدركته حَمية المنافسة ، وعاد إلى الكسب : وجد صاحبه قد كسب فى تلك المدة شيئاً كثيراً . فلا يكسب شيئاً إلا كسب صاحبه نظيره . فأنَّى له بمساواته ؟ .

الثالث : أن غاية التوبة : أن تمحو عن هذا سيئاته ، ويصير بمنزلة من لم يعملها . فيكون سعيه فى مدة المعصية لا له ولا عليه . فأين هذا السعى من سعى من هو كاسب رابح ؟ .

الرابع : أن الله يمقت على معاصيه ومخالفة أوامره . ففى مدة اشتغال هذا بالذنوب : كان حظه المقت ، وحظ المطيع الرضا . فالله لم يزل عنه راضياً . ولا ريب أن هذا خير ممن كان الله راضياً عنه ثم مقته ، ثم رضى عنه ، فإن الرضا المستمر خير من الذى تخلله المقت .

الخامس : أن الذنب بمنزلة شرب السم . والتوبة ترياقه ودواؤه ، والطاعة هى الصحة والعافية ، وصحة وعافية مستمرة ، خير من صحة تخللها مرض وشرب سم أفاق منه . وربما أدَّيا به إلى التلف أو المرض أبداً .

السادس : أن العاصى على خطر شديد . فإنه دائر بين ثلاثة أشياء . أحدها : العطب والهلاك بشرب السم . الثانى : النقصان من القوة وضعفها ، إن سلم من الهلاك . والثالث : عود قوته إليه كما كانت أو خيراً منها بعيدٌ .

والأكثر إنما هو القسمان الأولان . ولعل الثالث نادر جداً . فهو على يقين من ضرر السم ، وعلى رجاء من من حصول العافية ، بخلاف من لم يتناول ذلك .

السابع : أن المطيع قد أحاط على بستان طاعته حائطاً حصيناً . لا يجد الأعداء إليه سبيلاً . فثمرته وزهرته وخضرته وبهجته فى زيادة ونمو أبداً . والعاصى

قد فتح فيه ثغراً ، وثَلَمَ فيه ثَلْمَةً . ومكَّن منه السراق والأعداء . فدخلوا فعاثوا فيه يميناً وشمالاً : أفسدوا أغصانه ، وخربوا حيطانه . وقطعوا ثمراته ، وأحرقوا فى نواحيه . وقطعوا ماءه . ونقصوا سَقيه . فمتى يرجع هذا إلى حاله الأول؟ فإذا تداركه قَيِّمه ولَمّ شَعَثه ، وأصلح ما فسد منه ، وفتح طرق مائه ، وعمر ماخرب منه ، فإنه إما أن يعود كما كان ، أو أنقص ، أو خيراً . ولكن لايلحق بستان صاحبه الذى لم يزل على نضارته وحسنه . بل فى زيادة ونمو ، وتضاعف ثمرة ، وكثرة غرس

والثامن : أن طمع العدو فى هذا العاصى إنما كان لضعف علمه وضعف عزيمته . ولذلك يسمى جاهلاً . قال قتادة : أجمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن كل ماعُصى الله به فهو جهالة . وكذلك قال الله تعالى فى حق آدم (٢٠ : ١١٥ ولم نجد له عزما) وقال فى حق غيره (٤٦ : ٣٥ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل) وأما من قويت عزيمته ، وكمل علمه ، وقوى إيمانه : لم يطمع فيه عدوه . وكان أفضل .

التاسع : أن المعصية لابد أن تؤثر أثراً سيئاً ولا بد : إما هلاكاً كلياً . وإما خسراناً وعقاباً ، يعقبه : إما عفو ودخول الجنة ، وإما نقص درجة ، وإما خمود مصباح الإيمان . وعمل التائب فى رفع هذه الآثار والتكفير . وعمل المطيع فى الزيادة ، ورفع الدرجات .

ولهذا كان قيام الليل نافلة للنبى صلى الله عليه وسلم خاصة . فإنه يعمل فى زيادة الدرجات ، وغيره يعمل فى تكفير السيئات . وأين هذا من هذا ؟ .

العاشر : أن المقبل على الله المطيع له يسير بجملة أعماله . وكلما زادت طاعاته وأعماله ازداد كسبه بها وعظم . وهو بمنزلة من سافر فكسب عشرة أضعاف رأس ماله . فسافر ثانياً برأس ماله الأول وكسبه . فكسب عشرة أضعافه أيضاً . فسافر ثالثاً أيضاً بهذا المال كله . وكان ربحه كذلك ، وهلم جرا . فإذا فَتَر عن السفر فى آخر أمره ، مرة واحدة ، فاته من الربح بقدر جميع ماربح أو أكثر منه . وهذا معنى

قول الجنيد رحمه الله « لو أقبل صادق على الله ألف عام ثم أعرض عنه لحظة واحدة كان مافاته أكثر مما ناله » وهو صحيح بهذا المعنى . فإنه قد فاته فى مدة الاعراض ربح تلك الأعمال كلها . وهو أزيد من الربح المتقدم . فإذا كان هذا حال من أعرض ، فكيف من عصى وأذنب ؟ وفى هذا الوجه كفاية .

فصل

وطائفة رجحت التائب ، وإن لم تنكر كون الأول أكثر حسنات منه .

واحتجت بوجوه .

أحدها : أن عبودية التوبة من أحب العبوديات إلى الله ، وأكرمها عليه . فإنه سبحانه يحب التوابين . ولو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه ، لما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عليه . فلمحبته لتوبة عبده ابتلاه بالذنب الذى يوجب وقوع محبوبه من التوبة ، وزيادة محبته لعبده ، فإن للتائبين عنده محبة خاصة . يوضح ذلك :

الوجه الثانى : أن للتوبة عنده سبحانه منزلة ليست لغيرها من الطاعات . ولهذا يفرح سبحانه بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرح يقدّر ، كما مَثَّله النبى صلى الله عليه وسلم بفرح الواجد لراحلته التى عليها طعامه وشرابه فى الأرض الدَّوِيّة المهلكة ، بعد ما فقدها ، وأيس من أسباب الحياة . ولم يجىء هذا الفرح فى شىء من الطاعات سوى التوبة . ومعلوم أن لهذا الفرح تأثيراً عظيما فى حال التائب وقلبه ، ومزيده لا يعبر عنه . وهو من أسرار تقدير الذنوب على العباد . فإن العبد ينال بالتوبة درجة المحبوبية . فيصير حبيباً لله . فإن الله يحب التوابين ويحب العبد المفتَّن التواب . ويوضحه :

الوجه الثالث : أن عبودية التوبة فيها من الذل والانكسار ، والخضوع ، والتملق لله ، والتذلل له ، ماهو أحب إليه من كثير من الأعمال الظاهرة . وإن

زادت فى القدر والـكمية على عبودية التوبة . فإن الذل والانكسار روح العبودية ، وَمُخها ولُبُّهَا . يوضحه :

الوجه الرابع : أن حصول مراتب الذل والانـكسار للتائب أكمل منها لغيره . فإنه قد شارك من لم يذنب فى ذُل الفقر ، والعبودية ، والمحبة . وامتاز عنه بانـكسـار قلبه بالمعصية . والله سبحانه أقرب ما يكون إلى عبده عند ذُله ، وانـكسار قلبه . كما فى الأثر الإسرائيلى « يارب أين أجدك ؟ قال : عند المنكسرة قلوبهم من أجلى » ولأجل هذا كان « أقرب مايكون العبد من ربه وهو ساجد » لأنه مقام ذل وانـكسار بين يدى ربه .

وتأمل قول النبى صلى الله عليه وسلم . فيما يروى عن ربه عز وجل « أنه يقول يوم القيامة : ياابن آدم ، استطعمتك فلم تطعمنى . قال: يارب ،كيف أطعمك وأنت رب العـالمين ؟ قال : استطعمك عبدى فلان فلم تطعمه ، أمَا لو أطعمته لوجدت ذلك عندى . ابنَ آدم ، استسقيتك فلم تسقنى . قال : يارب ، كيف أسقيك ، وأنت رب العالمين ؟ قال : استسقاك عبدى فلان فلم تسقه . أمَا لوسقيته لوجدت ذلك عندى . ابنَ آدم ، مرضتُ فلم تعُدنى . قال : يارب ، كيف أعودك ، وأنت رب العالمين ؟ قال : أمَا إن عبدى فلاناً مرض فلم تعده ، أمَا لو عُدْتَه لوجدتنى عنده » فقال فى عيادة المريض « لوجدتنى عنده » وقال فى الإطعام ، والإسقاء « لوجدت ذلك عندى » ففرق بينهما . فإن المريض مكسور القلب ، ولو كان من كان ، فلابد أن يكسره المرض فإذا كان مؤمناً قد انـكسر قلبه بالمرض كان الله عنده .

وهذا ـ والله أعلم ـ هو السر فى استجابة دعوة الثلاثة : المظلوم ، والمسافر ، والصـائم ، للـكسرة التى فى قلب كل واحد منهم . فإن غربة المسافر وكَسْرته مما يجده العبد فى نفسـه . وكذلك الصوم ، فإنه يكسر سورة النفس السبعية الحيوانية ، ويذلها .

والقصد : أن شمعة الجبر والفضل والعطايا ، إنما تنزل فى شمعدان الانـكسار . وللعاصى التائب من ذلك أوفر نصيب : يوضحه .

الوجه الخامس : أن الذنب قد يكون أنفع للعبد إذا اقترنت به التوبة ، من كثير من الطاعات . وهـذا معنى قول بعض السلف « قد يعمل العبد الذنب فيدخل به الجنة . و يعمل الطاعة فيدخل بها النار ، قالوا : وكيف ذلك ؟ قال : يعمل الذنب فلا يزال نُصْبَ عينيه ، إن قام ، و إن قعد ، و إن مشى : ذكر ذنبه . فيحدث له انـكساراً ، وتوبة ، واستغفاراً ، وندماً ، فيكون ذلك سبب نجاته ، و يعمل الحسنة . فلا تزال نصب عينيه . إن قام و إن قعد و إن مشى ، كلما ذكرها أورثته عجباً وكبراً وَمِنَّةً . فتـكون سبب هلاكه . فيكون الذنب موجباً لترتب طاعات وحسنات ، ومعاملات قلبية ، من خوف الله والحياء منه ، والإطراق بين يديه منكساً رأسه خجلاً ، باكياً نادماً ، مستقيلا ربه . وكل واحد من هذه الآثار أنفع للعبد من طاعة توجب له صَوْلة ، وكبراً ، وازدراء بالناس ، ورؤيتهم بعين الاحتقار . ولا ريب أن هذا الذنب خير عند الله ، وأقرب إلى النجاة والفوز من هذا المعجب بطاعته ، الصائل بها ، المانّ بها ، و بحاله على الله عز وجل وعباده . وإن قال بلسانه خلاف ذلك . فالله شهيد على مافى قلبه . و يكاد يعادى الخلق إذا لم يعظموه و يرفعوه . و يخضعوا له . و يجد فى قلبه بُغضة لمن لم يفعل به ذلك . ولو فتش نفسه حق التفتيش لرأى فيها ذلك كامناً . ولهذا تراه عاتباً على من لم يعظمه و يعرف له حقه . متطلباً لعيبه فى قالب حمية لله ، وغضب له ، و إذا قام بمن يعظمه و يحترمه ، ويخضع له من الذنوب أضعاف ماقام بهذا ، فتح له باب المعاذير والرجاء . وأغمض عنه عينه وسمعه . وكَفَّ لسانه وقلبه ، وقال : باب العصمة عن غير الأنبياء مسدود . وربما ظن أن ذنوب من يعظمه تـكفر بإجلاله وتعظيمه وإكرامه إياه .

فإذا أراد الله بهذا العبد خيراً ألقاه فى ذنب يكسره به . و يعرفه قدره . و يكفى

به عباده شره . وينكس به رأسه ، ويستخرج به منه داء العجب والكبر والمنة عليه وعلى عباده . فيكون هذا الذنب أنفع لهذا من طاعات كثيرة . ويكون بمنزلة شرب الدواء ليستخرج به الداء العضال . كما قيل بلسان الحال فى قصة آدم وخروجه من الجنة بذنبه :

يا آدم ، لا تجزع من كأس زلل كانت سبب كَيَسِك . فقد استُخْرِج بها منك داء لا يصلح أن تجاورنا به . وأُلبست بها حلة العبودية .

لعل عتبك محمود عواقبه ... وربما صحت الأجسام بالعلل

يا آدم ، إنما ابتليتك بالذنب لأنى أحب أن أظهر فضلى ، وجودى وكرمى ، على من عصانى « لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يذنبون فيستغفرون فيغفر لهم » .

يا آدم ، كنت تدخل عَلَيّ دخول الملوك على الملوك . واليوم تدخل عليّ دخول العبيد على الملوك .

يا آدم ، إذا عصمتك وعصمت بنيك من الذنوب ، فعلى من أجود بحلمى ؟ وعلى من أجود بعفوى ومغفرتى ، وتوبتى ، وأنا التواب الرحيم ؟ .

يا آدم ، لا تجزع من قولى لك (اخرج منها) فلك خلقتها ، ولكن اهبط إلى دار المجاهدة . وابذر بذر التقوى . وأمطر عليه سحائب الجفون . فإذا اشتد الحَبُّ واستغلظ ، واستوى على سُوقه ، فتعال فاحصده .

يا آدم ، ما أهبطتك من الجنة إلا لتتوسل إليّ فى الصعود ، وما أخرجتك منها نفياً لك عنها ، ما أخرجتك منها إلا لتعود .

إن جرى بيننا وبينك عَتْب ... وتناءت منا ومنك الديار

فالوداد الذى عهدتَ مقيم ... والعثار الذى أصبتَ جُبار

يا آدم ، ذنب تذل به لدينا ، أحب إلينا من طاعة تُدِلُّ بها علينا .

يا آدم ، أنين المذنبين ، أحب إلينا من تسبيح المدلّين .

« ياابن آدم ، إنك مادعوتنى ورجوتنى ، غفرت لك على ما كان منك ولا أبالى ، ياابن آدم ، لو بلغت ذنوبك عنان السماء ، ثم استغفرتنى غفرت لك . ياابن آدم ، لو لقيتَنى بقُراب الأرض خطايا ، ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئاً . أتيتك بقرابها مغفرة » .

يذكر عن بعض العباد : أنه كان يسأل ربه فى طوافه بالبيت ، أن يعصمه ثم غلبته عيناه ، فنام . فسمع قائلا يقول : أنت تسألنى العصمة ، وكل عبادى يسألوننى العصمة . فإذا عصمتهم فعلى من أتفضل وأجود بمغفرتى وعفوى ؟ وعلى من أتوب ؟ وأين كرمى وعفوى ومغفرتى وفضلى ؟ ونحو هذا من الكلام .

يا ابن آدم ، إذا آمنت بى ولم تشرك بى شيئاً ، أقمت حملة عرشى ومَنْ حوله يسبحون بحمدى و يستغفرون لك وأنت على فراشك . وفى الحديث العظيم الإلهى حديث أبى ذر «ياعبادى ، إنكم تخطئون بالليل والنهار ، وأنا أغفر الذنوب جميعاً . فمن علم أنى ذو قدرة على المغفرة غفرت له ولا أبالى » (٣٩ : ٥٣ قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً . أنه هو الغفور الرحيم) .

« ياعبدى ! لاتعجز . فمنك الدعاء وعلىَّ الإجابة . ومنك الاستغفار وعلىَّ المغفرة . ومنك التوبة وعلىَّ تبديل سيئاتك حسنات » يوضحه :

الوجه السادس : وهو قوله تعالى (٢٥ : ٧٠ إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً فأولئك يبدل الله سيآتهم حسنات . وكان الله غفوراً رحيما) وهذا من أعظم البشارة للتائبين إذا اقترن بتوبتهم إيمان وعمل صالح . وهو حقيقة التوبة . قال ابن عباس رضى الله عنهما « مارأيت النبى صلى الله عليه وسلم فرح بشىء قط فرحه بهذه الآية لما أنزلت . وفرحه بنزول (٤٨ : ١ إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر) » .

واختلفوا فى صفة هذا التبديل ، وهل هو فى الدنيا ، أو فى الآخرة ؟ على قولين .

فقال ابن عباس وأصحابه : هو تبديلهم بقبائح أعمالهم محاسنها . فبدلهم بالشرك إيماناً . و بالزنا عِفَّة و إحصاناً ، و بالكذب صدقاً ، و بالخيانة أمانة .

فعلى هذا معنى الآية : أن صفاتهم القبيحة ، وأعمالهم السيئة ، بدلوا عوضها صفات جميلة ، وأعمالا صالحة ، كما يبدل المريض بالمرض صحة ، والمبتلى ببلائه عافية .

وقال سعيد بن المسيب ، وغيره من التابعين : هو تبديل الله سيئاتهم التى عملوها بحسنات يوم القيامة . فيعطيهم مكان كل سيئة حسنة .

واحتج أصحاب هذا القول بما روى الترمذى فى جامعه : حدثنا الحسين بن حريث قال : حدثنا وكيع قال : حدثنا الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبى ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنى لأعلم آخر رجل يخرج من النار : يؤتى بالرجل يوم القيامة ، فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه . ويخبأ عنه كبارها ، فيقال : عملت يوم كذا كذا وكذا . وهو مقر لاينكر ، وهو مشفق من كبارها . فيقال: أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة . فيقول : إن لى ذنوباً ما أراها ههنا . قال أبو ذر : فلقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضحك حتى بدت نواجذه»

فهذا حديث صحيح . ولكن فى الاستدلال به على صحة هذا القول نظر . فإن هذا قد عذب بسيئاته ودخل بها النار . ثم بعد ذلك أخرج منها ، وأعطى مكان كل سيئة حسنة ، صدقة تصدق الله بها عليه ابتداء بعدد ذنوبه . وليس فى هذا تبديل تلك الذنوب بحسنات . إذ لو كان كذلك لما عوقب عليها كما لم يعاقب التائب . والكلام إنما هو فى تائب أثبت له مكان كل سيئة حسنة ، فزادت حسناته . فأين فى هذا الحديث مايدل على ذلك ؟

والناس استقبلوا هذا الحديث مستدلين به فى تفسير هذه الآية على هذا القول ، وقد علمت مافيه . لكن للسلف غور ودقة فهم لايدركها كثير من المتأخرين .

فالاستدلال به صحيح ، بعد تمهيد قاعدة ، إذا عرفت عرف لطف الاستدلال به ودقته . وهى أن الذنب لابد له من أثر ، وأثره يرتفع بالتوبة تارة ، و بالحسنات

الماحية تارة ، و بالمصائب المكفرة تارة ، و بدخول النار ليتخلص من أثره تارة . وكذلك إذا اشتد أثره، ولم تقو تلك الأمور على محوه . فلا بد إذاً من دخول النار لأن الجنة لايكون فيها ذرة من الخبيث . ولا يدخلها إلا من طاب من كل وجه. فإذا بقى عليه شيء من خبث الذنوب أدخل كِيْرَ الامتحان ، ليخلص ذهب إيمانه من خبثه . فيصلح حينئذ لدار الملك .

إذا علم هذا فزوال موجب الذنب وأثره تارة يكون بالتوبة النصوح . وهى أقوى الأسباب . وتارة يكون باستيفاء الحق منه وتطهيره فى النار . فإذا تطهر بالنار ، وزال أثر الوسخ والخبث عنه ، أعطى مكان كل سيئة حسنة . فإذا تطهر بالتوبة النصوح ، وزال عنه بها أثر وسخ الذنوب وخبثها ، كان أولى بأن يعطى مكان كل سيئة حسنة . لأن إزالة التوبة لهذا الوسخ والخبث أعظم من إزالة النار ، وأحب إلى الله . و إزالة النار بدل منها . وهى الأصل . فهى أولى بالتبديل مما بعد الدخول . يوضحه :

الوجه التاسع : وهو أن التائب قد بَدَّل كل سيئة بندمه عليها حسنة . إذ هو توبة تلك السيئة ، والندم توبة . والتوبة من كل ذنب حسنة . فصار كل ذنب عمله زائلا بالتوبة التى حلت محله وهى حسنة . فصار له مكان كل سيئة حسنة بهذا الاعتبار . فتأمله فإنه من ألطف الوجوه .

وعلى هذا فقد تكون هذه الحسنة مساوية فى القدر لتلك السيئة . وقد تكون دونها . وقد تكون فوقها . وهذا بحسب نصح هذه التوبة ، وصدق التائب فيها ، وما يقترن بها من عمل القلب الذى تزيد مصلحته ونفعه على مفسدة تلك السيئة . وهذا من أسرار مسائل التوبة ولطائفها . يوضحه :

الوجه العاشر : أن ذنب العارف بالله و بأمره قد يترتب عليه حسنات أكبر منه وأكثر ، وأعظم نفعاً ، وأحب إلى الله من عصمته من ذلك الذنب : من ذل وانكسار وخشية ، و إنابة وندم ، وتدارك بمراغمة العدو بحسنة أو حسنات أعظم

منه ، حتى يقول الشيطان : ياليتنى لم أوقعه فيما أوقعته فيه ، ويندم الشيطان على إيقاعه فى الذنب ، كندامة فاعله على ارتكابه . لكن شتان مابين الندمين . والله تعالى يحب من عبده مراغمة عدوه وغيظه . كما تقدم أن هذا من العبودية من أسرار التوبة . فيحصل من العبد مراغمة العدو بالتوبة والتدارك ، وحصول محبوب الله من التوبة ، وما يتبعها من زيادة الأعمال هنا ، مايوجب جعل مكان السيئة حسنة بل حسنات .

وتأمل قوله (يبدل الله سيئاتهم حسنات) ولم يقل مكان كل واحدة واحدة فهذا يجوز أن يبدل السيئة الواحدة بعدة حسنات بحسب حال المبدل .

وأما فى الحديث : فإن الذى عُذّب على ذنوبه لم يبدلها فى الدنيا بحسنات ، من التوبة النصوح وتوابعها . فلم يكن له مايجعل مكان السيئة حسنات . فأعطى مكان كل سيئة حسنة واحدة . وسكت النبي صلى الله عليه وسلم عن كبار ذنوبه . ولما انتهى إليها ضحك . ولم يبين مايفعل الله بها . وأخبر أن الله يبدل مكان كل صغيرة حسنة . ولكن فى الحديث إشارة لطيفة إلى أن هذا التبديل يعم كبارها وصغارها من وجهين .

أحدهما : قوله « اخبئوا عنه كبارها » فهذا إشعار بأنه إذا رأى تبديل الصغائر ذكرها ، وطمع فى تبديلها . فيكون تبديلها أعظم موقعاً عنده من تبديل الصغائر . وهو به أشد فرحاً واغتباطاً .

والثانى : ضحك النبي صلى الله عليه وسلم عند ذكر ذلك . وهذا الضحك مشعر بالتعجب مما يفعل به من الإحسان ، وما يُقِرُّ به على نفسه من الذنوب ، من غير أن يُقَرَّر عليها ولا يسأل عنها . وإنما عرضت عليه الصغائر .

فتبارك الله رب العالمين ، وأجود الأجودين ، وأكرم الأكرمين ، البر اللطيف ، المتودد إلى عباده بأنواع الإحسان ، وإيصاله إليهم من كل طريق بكل نوع . لا إله إلا هو الرحمن الرحيم .

فصـــل

وكثير من الناس إنما يفسر التوبة بالعزم على أن لايعاود الذنب ، وبالاقلاع عنه فى الحال ، وبالندم عليه فى الماضى . وإن كان فى حق آدمى : فلا بد من أمر رابع . وهو التحلل منه .

وهذا الذى ذكروه بعض مسمى « التوبة » بل شرطها ، وإلا فالتوبة فى كلام الله ورسوله ـ كما تتضمن ذلك ـ تتضمن العزم على فعل المأمور والتزامه[1] فلا يكون بمجرد الإقلاع والعزم والندم تائباً ، حتى يوجد منه العزم الجازم على فعل المأمور ، والإتيان به . هذا حقيقة التوبة . وهى اسم لمجموع الأمرين . لكنها إذا قرنت بفعل المأمور كانت عبارة عما ذكروه ، فإذا أفردت تضمنت الأمرين . وهى كلفظة «التقوى»[2] التى تقتضى عند إفرادها فعل ما أمر الله به ، وترك مانهى الله عنه . وتقتضى عند اقترانها بفعل المأمور الانتهاء عن المحظور .

فإن حقيقة « التوبة » الرجوع إلى الله بالتزام فعل ما يحب ، وترك ما يكره . فهى رجوع من مكروه إلى محبوب . فالرجوع إلى المحبوب جزء مسماها . والرجوع عن المكروه الجزء الآخر . ولهذا علق سبحانه الفلاح المطلق على فعل المأمور وترك المحظور بها ، فقال (٢٤ : ٣١ وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون . لعلكم

---

(١) بل وتتضمن مقت من يتركه ومقاطعته . والتزام الأمر به والنهى عن تركه . فإن العمل الصالح ـ المشروط للتوبة ، فى آية الفرقان ـ هو ضد ما كان يأتيه من السوء

(٢) التقوى هى اتخاذ كل ما أعطى الله العبد ـ من عافية ، ومال وولد ، وليل ونهار ، وغير ذلك ـ وقاية يتقى بها مايكره ويخاف . فى سيره إلى ربه والدار الآخرة فإن الطريق كله عقبات ، وأعداء : من النفس الأمارة والهوى والشيطان تتناوشه ، وتجذبه ، محاولة صده وإرجاعه وإهلاكه ، وقد ابتلاه الله بكل ذلك . وآتاه ما يمكنه من السلامة والعافية والنجاح . وذلك بحسن وضع النعمة من كل ذلك موضعه ، فإن الهلاك إنما يكون بوضع هذه النعم على غير وضعها ، بالجاهلية واتباع الهوى ، وتغليب الشهوة البهيمية ، والإنسلاخ من آيات الله ، واتخاذ الشيطان ولياً من دون الله .

تفلحون) فكل تائب مفلح . ولا يكون مفلحا إلا من فعل ما أمر به وترك مانهى عنه . وقال تعالى (٤٩ : ١١ ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون) وتارك المأمور ظالم ، كما أن فاعل المحظور ظالم . وزوال اسم « الظلم » عنه إنما يكون بالتوبة الجامعة للأمرين . فالناس قسمان : تائب وظالم . ليس إلا . فالتائبون هم (٩ : ١١٢ العابدون الحامدون السائحون ، الراكعون الساجدون ، الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ، والحافظون لحدود الله) فحفظ حدود الله : جزء التوبة . والتوبة هى مجموع هذه الأمور . وإنما سمى تائباً : لرجوعه إلى أمر الله من نهيه ، وإلى طاعته من معصيته[1] ، كما تقدم .

فإذاً « التوبة » هى حقيقة دين الإسلام ، والدين كله داخل فى مسمى « التوبة » وبهذا استحق التائب أن يكون حبيب الله . فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين . وإنما يحب الله من فعل ما أمر به . وترك مانهى عنه .

فإذاً « التوبة » هى الرجوع مما يكرهه الله ظاهراً وباطناً إلى ما يحبه ظاهراً وباطناً . ويدخل فى مسماها الإسلام ، والإيمان ، والإحسان . وتتناول جميع المقامات . ولهذا كانت غاية كل مؤمن ، وبداية الأمر وخاتمته . كما تقدم . وهى الغاية التى وُجد لأجلها الخلق . والأمر والتوحيد جزء منها . بل هو جزؤها الأعظم الذى عليه بناؤها .

وأكثر الناس لايعرفون قدر « التوبة » ولا حقيقتها ، فضلاً عن القيام بها علماً وعملاً وحالاً . ولم يجعل الله تعالى محبته للتوابين إلا وهم خواص الخلق لديه .

---

(١) بل لرجوعه إلى الله مولاه وحبيبه . وتخليصه نفسه من عدوه . فإن عدوه يريده لشقائه . فيجذبه إليه بحبل الحيوانية وسفهها وجهلها وشهواتها . والله مولاه يريده لسعادته ، وهو يتودد إليه بجميع مايعطيه فى نفسه وما سخرله ، ويجذبه إليه بأسباب نعمه التى لا تحصى . ومن أقواها : آياته فى الأنفس والآفاق ، وسننه التى لاتتبدل . وما يوحى الله إلى رسله من الهدى والبصائر (٦ : ١٠٤ قد جاءكم بصائر من ربكم . فمن أبصر فلنفسه . ومن عمى فعليها . وما أنا عليكم بحفيظ)

ولولا أن « التوبة » اسم جامع لشرائع الإسلام ، وحقائق الإيمان لم يكن الرب تعالى يفرح بتوبة عبده ذلك الفرح العظيم . فجميع مايتكلم فيه الناس من المقامات والأحوال هو تفاصيل « التوبة » وآثارها .

فصل

وأما « الاستغفار » فهو نوعان . مفرد ومقرون بالتوبة . فالمفرد : كقول نوح عليه السلام لقومه (٧١ : ١٠ ، ١١ استغفروا ربكم إنه كان غفاراً * يرسل السماء عليكم مدرارا) وكقول صالح لقومه (٢٧ : ٤٦ لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون) وكقوله تعالى (٢ : ١٩٩ واستغفروا الله إن الله غفور رحيم) وقوله (٨ : ٣٣ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم . وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) والمقرون كقوله تعالى (١١ : ٣ استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يُمتّعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤتِ كلَّ ذى فضل فضله) وقول هود لقومه (١١ : ٥٢ استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا) وقول صالح لقومه (١١ : ٦١ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها . فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربى قريب مجيب) وقول شعيب (١١ : ٩٠ واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود) فالاستغفار المفرد كالتوبة . بل هو التوبة بعينها . مع تضمنه طلب المغفرة من الله . وهو محو الذنب ، وإزالة أثره ، ووقاية شره ، لا كما ظنه بعض الناس : أنها الستر[1] . فإن الله يستر على من يغفر له ومن لا يغفر له . ولكن

(١) الاستغفار : طلب الغفر . وهو الستر ، ستر العيوب والنقائص المهلكة الضارة وأكبر عيب الإنسان ونقصه : هو جهله وظلمه . فبخطام الجهل والظلم يجره العدو إلى ما يهلكه ويرديه ، وسترهما إنما يكون باليقظة والحرص على الانتفاع بما يؤتيه الله ربه من العلم والعدل والإحسان . وكلما غفل العبد عن كرامته الإنسانية ، التى نفخها الله فيه من روحه ، كلما أخلد إلى أرض البهيمية ، فاشتد جهله وظلمه ، وفضح نفسه . وكلما عنى بإنسانيته وغذاها بالتفكر فى آيات الله وسننه الكونية فى نفسه وفى الآفاق ، وتدبر آياته العلمية المرسل بها رسله . كلما غفر الله له وستر من عيوبه =

الستر لازم مسماها أو جزؤه . فدلالتها عليه إما بالتضمن و إما باللزوم .

وحقيقتها : وقاية شر الذنب . ومنه المغفر ، لما يقى الرأس من الأذى . والستر لازم لهذا المعنى . و إلا فالعمامة لا تسمى مِغفراً ، ولا القَبع ونحوه مع ستره . فلا بد فى لفظ « المغفر » من الوقاية . وهذا الاستغفار هو الذى يمنع العذاب فى قوله (٨ : ٣٣ وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) فإن الله لايعذب مستغفراً . وأما من أصر على الذنب ، وطلب من الله مغفرته . فهذا ليس باستغفار مطلق . ولهذا لا يمنع العذاب . فالاستغفار يتضمن التوبة ، والتوبة تتضمن الاستغفار . وكل منهما يدخل فى مسمى الآخر عند الإطلاق .

وأما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى . فالاستغفار : طلب وقاية شر مامضى . والتوبة : الرجوع وطلب وقاية شر مايخافه فى المستقبل من سيئات أعماله .

فها هنا ذنبان : ذنب قد مضى . فالاستغفار منه : طلب وقاية شره . وذنب يخاف وقوعه ، فالتوبة : العزم على أن لايفعله . والرجوع إلى الله يتناول النوعين : رجوع إليه ليقيه شرمامضى ، ورجوع إليه ليقيه شرمايستقبل من شر نفسه وسيئات أعماله

وأيضاً فإن المذنب بمنزلة من ركب طريقاً تؤديه إلى هلاكه . ولا توصله إلى المقصود . فهو مأمور أن يوليها ظهره . ويرجع إلى الطريق التى فيها نجاته . والتى توصله إلى مقصوده . وفيها فلاحه .

فهنا أمران لابد منهما : مفارقة شىء . والرجوع إلى غيره . فخصت «التوبة» بالرجوع ، و « الاستغفار » بالمفارقة . وعند إفراد أحدهما يتناول الأمرين . ولهذا

= ونقصانه . وبهذا يفهم قول الله لرسوله صلى الله عليه وسلم (٤٨ : ١ ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وماتأخر ويتم نعمته عليك) فإنه صلى الله عليه وسلم لم يأت منكراً قط ، ولا عصى ربه قط ولا فسق عن أمره . وإنما هو ستر عيوب البشرية وجبلاتها بما أوتى من العلم والهدى الذى مكن له ربه به . من التحكم فى هذه الطبائع البشرية ، والإحسان بها وفيها . حتى كان الحكيم الرشيد عليه الصلاة والسلام .

جاء ـ والله أعلم ـ الأمر بهما مرتباً بقوله (استغفروا ربكم ثم توبوا إليه) فإنه الرجوع إلى طريق الحق بعد مفارقة الباطل .

وأيضاً فالاستغفار من باب إزلة الضرر . والتوبة طلب جلب المنفعة . فالمغفرة أن يقيه شر الذنب . والتوبة : أن يحصل له بعد هذه الوقاية مايحبه . وكل منهما يستلزم الآخر عند إفراده . والله أعلم .

فصل

وهذا يتبين بذكر التوبة النصوح وحقيقتها . قال الله تعالى (٦٦ : ٨ يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نَصوحا . عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار) فجعل وقاية شر السيئات ـ وهو تكفيرها ـ بزوال مايكره العبد . ودخول الجنات ـ وهو حصول مايحب العبد ـ منوطاً بحصول التوبة النصوح . و« النصوح » على وزن فعول المعدول به عن فاعل قصداً للمبالغة . كالشَّكور والصبور . وأصل مادة (ن ص ح) لخلاص الشيء من الغش والشوائب الغريبة . وهو ملاق فى الاشتقاق الأكبر لنَصَح إذا خلص . فالنصح فى التوبة والعبادة والمشورة : تخليصها من كل غش ونقص وفساد . وإيقاعها على أكمل الوجوه . والنصح ضد الغش .

وقد اختلفت عبارات السلف عنها . ومرجعها إلى شيء واحد . فقال عمر بن الخطاب ، وأبى بن كعب رضى الله عنهما « التوبة النصوح : أن يتوب من الذنب ثم لايعود إليه ، كما لايعود اللبن إلى الضَّرْع » وقال الحسن البصرى « هى أن يكون العبد نادماً على مامضى ، مجمعاً على أن لايعود فيه » وقال الكلبى « أن يستغفر باللسان ، ويندم بالقلب ، ويمسك بالبدن » وقال سعيد بن المسيب « توبة نصوحا . تنصحون بها أنفسكم » جعلها بمعنى ناصحة للتائب ، كضروب المعدول عن ضارب .

وأصحاب القول الأول يجعلونها بمعنى المفعول ، أى قد نصح فيها التائب ولم

يَشُبْهَا بغش . فهى إما بمعنى منصوح فيها ، كركوبة وحَلوبة ، بمعنى مركوبة ومحلوبة ، أو بمعنى الفاعل . أى ناصحة كخالصة وصادقة .

وقال محمد بن كعب القرظى : يجمعها أربعة أشياء : الاستغفار باللسان ، والإقلاع بالأبدان ، و إضمار ترك العود بالجنان ، ومهاجرة سيء الإخوان .

قلت : النصح فى التوبة يتضمن ثلاثة أشياء .

الأول : تعميم جميع الذنوب واستغراقها بها بحيث لا تدع ذنباً إلا تناولته .

والثانى : إجماع العزم والصدق بكليته عليها . بحيث لايبقى عنده تردد ، ولا تلوُّم ولا انتظار . بل يجمع عليها كل إرادته وعزيمته مبادراً بها .

الثالث : تخليصها من الشوائب والعلل القادحة فى إخلاصها ، ووقوعها لمحض الخوف من الله وخشيته ، والرغبة فيما لديه ، والرهبة مما عنده . لا كمن يتوب لحفظ جاهه وحرمته ، ومنصبه ورياسته ، ولحفظ حاله ، أو لحفظ قوته وماله ، أو استدعاء حمد الناس ، أو الهرب من ذمهم ، أو لئلا يتسلط عليه السفهاء ، أو لقضاء نهمته من الدنيا ، أو لإفلاسه وعجزه ، ونحو ذلك من العلل التى تقدح فى صحتها وخلوصها لله عز وجل .

فالأول : يتعلق بما يتوب منه ، والثالث : يتعلق بمن يتوب إليه . والأوسط : يتعلق بذات التائب ونفسه . فنصح التوبة الصدق فيها ، والإخلاص ، وتعميم الذنوب بها . ولا ريب أن هذه التوبة تستلزم الاستغفار وتتضمنه ، وتمحو جميع الذنوب . وهى أكمل ما يكون من التوبة . والله المستعان . وعليه التكلان . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

فصل

فى الفرق بين تكفير السيئات ومغفرة الذنوب . وقد جاء فى كتاب الله تعالى ذكرهما مقترنين ، وذكر كلا منهما منفرداً عن الآخر . فالمقترنان كقوله تعالى حاكياً عن عباده المؤمنين (٣ : ١٩٣ ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا

مع الأبرار) والمنفرد كقوله (٤٧ : ٢ والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد – وهو الحق من ربهم – كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم) وقوله فى المغفرة (٤٧ : ١٥ ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم) وكقوله (٣:١٤٧ ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا فى أمرنا) ونظائره .

فههنا أربعة أمور : ذنوب ، وسيئات ، ومغفرة ، وتكفير .

فالذنوب : المراد بها الكبائر . والمراد بالسيئات : الصغائر . وهى ما تعمل فيه الكفارة ، من الخطأ وما جرى مجراه . ولهذا جعل لها التكفير . ومنه أخذت الكفارة . ولهذا لم يكن لها سلطان ولا عمل فى الكبائر فى أصح القولين . فلا تعمل فى قتل العمد . ولا فى اليمين الغموس فى ظاهر مذهب أحمد وأبى حنيفة .

والدليل على أن السيئات هى الصغائر ، والتكفير لها : قوله تعالى (٤ : ٣١ إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم ونُدْخِلكم مُدْخَلا كريماً) وفى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان : مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر » .

ولفظ « المغفرة » أكمل من لفظ « التكفير » ولهذا كان مع الكبائر ، والتكفير مع الصغائر . [1] فإن لفظ « المغفرة » يتضمن الوقاية والحفظ . ولفظ

(١) قال السيد رشيد : لم يبسط المصنف هذا البحث حق البسط كعادته . أما «التكفير» فهو مستعمل فى السيئات . وكذلك العفو . والمغفرة فى الذنوب كما قال . وأما تخصيص الذنوب بالكبائر ، والسيئات بالصغائر ، وجعل التكفير للصغائر فقط . والمغفرة للكبائر فهو محل نظر . فالذنب مشتق من ذنب الدابة . وهو كل ماله عاقبة وتبعة تلحقه لاتتفق مع مصلحة فاعله ، ومنفعته ومراده ، وربما لا يكون معصية ألبتة . بل اجتهاداً لم يوافق المقصد ، ولذلك أضيف الذنب إلى النبى صلى الله عليه وسلم دون السيئة . ومثاله اجتهاده فى الإذن لمن استأذنه فى التخلف عن غزوة تبوك . وقال الله فى قوم لوط (١١ : ٧٨ ومن قبل كانوا يعملون السيئات) وكانت من الكبائر . وكما =

« التكفير » يتضمن الستر والإزالة ، وعند الإفراد : يدخل كل منهما فى الآخر . كما تقدم . فقوله تعالى (كفر عنهم سيآتهم) يتناول صغائرها وكبائرها ، ومحوها ووقاية شرها . بل التكفير المفرد يتناول أسوأ الأعمال . كما قال تعالى (٣٥ : ٣٠ ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا) .

وإذا فهم هذا فهم السر فى الوعد على المصائب والهموم والغموم والنصب والوصب بالتكفير دون المغفرة . كقوله فى الحديث الصحيح « مايصيب المؤمن من همّ ولا غم ولا أذى — حتى الشوكه يشاكها — إلا كفر الله بها من خطاياه » فإن المصائب لاتستقل بمغفرة الذنوب . ولا تغفر الذنوب جميعها إلا بالتوبة ، أو بحسنات تتضاءل وتتلاشى فيها الذنوب . فهى كالبحر لايتغير بالجيف . وإذا بلغ الماء قلتين لم يحمل الخبث .

فلأهل الذنوب ثلاثة أنهار عظام يتطهرون بها فى الدنيا . فإن لم تفِ بطهرهم طهروا فى نهر الجحيم يوم القيامة : نهر التوبة النصوح ، ونهر الحسنات المستغرقة للأوزار المحيطة بها ، ونهر المصائب العظيمة المكفرة . فإذا أراد الله بعبده خيراً أدخله أحد هذه الأنهار الثلاثة . فورد القيامة طيباً طاهراً ، فلم يحتج إلى التطهير الرابع .

فصل

وتوبة العبد إلى الله محفوفة بتوبة من الله عليه قبلها . وتوبة منه بعدها . فتوبته بين توبتين من ربه ، سابقة ولاحقة . فإنه تاب عليه أولا إذناً وتوفيقاً

= قال الله تعالى (٤:٣١ إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم) . وقال أيضاً (٥٣ : ٣٢ الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم . إن ربك واسع المغفرة) فاستعمل «المغفرة» فى اللمم . وهى الصغائر قطعاً . كما استعمل التكفير فى السيئات . وفى كون المراد بها الصغائر فى آية آل عمران وآية النساء هذه : نظر . والسيئة مشتقة من السوء . وهو مايسوء فاعله فى دنياه وآخرته أو فيهما جميعاً .

و إلهاماً ، فتاب العبد . فتاب الله عليه ثانياً ، قبولا و إثابة . قال الله سبحانه وتعالى (٩ : ١١٧، ١١٨ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم . ثم تاب عليهم إنه بهم رؤف رحيم . وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا . حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رَحُبت . وضاقت عليهم أنفسهم . وظنوا أن لامَلْجَأ من الله إلا إليه ، ثم تاب عليهم ليتوبوا . إن الله هو التواب الرحيم) فأخبر سبحانه أن توبته عليهم سبقت توبتهم ، وأنها هى التى جعلتهم تائبين . فكانت سبباً مقتضياً لتوبتهم . فدل على أنهم ماتابوا حتى تاب الله تعالى عليهم . والحكم ينتفى لانتفاء علته .

ونظير هذا : هدايته لعبده قبل الاهتداء(١) . فيهتدى بهدايته . فتوجب له تلك الهداية هداية أخرى يثيبه الله بها هداية على هدايته . فإن من ثواب الهدى : الهدى بعده ، كما أن من عقوبة الضلالة : الضلالة بعدها . قال الله تعالى (٤٧:١٧ والذين اهتدوا زادهم هدًى) فهداهم أولا فاهتدوا ، فزادهم هدى ثانياً . وعكسه فى أهل الزيغ كقوله تعالى (٦١ : ٥ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) فهذه الإزاغة الثانية عقوبة لهم على زيغهم .

وهذا القدر من سر اسميه « الأول ، والآخر » فهو المعدّ . وهو الممدّ . ومنه السبب والمسبب . وهو الذى يعيذ من نفسه بنفسه ، كما قال أعرف الخلق به « وأعوذ بك منك » والله تواب . والعبد تواب . فتوبة العبد : رجوعه إلى سيده بعد الإباق ، وتوبة الله نوعان : إذن وتوفيق ، وقبول و إمداد .

---

(١) فقد أعطاه ربه هداية الفطرة (٧٦ : ٢ ، ٣ إنا خلقنا الأنسان من نطفة أمشاج نبتليه . فجعلناه سميعاً بصيرا . إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفورا) فإن أحسن الاهتداء بهداية الفطرة فى سمعه وبصره وفؤاده ، وشكر ربه عليها باستعمالها فى إيصال المعلومات إلى فؤاده على حقيقتها التى خلقها الله ، فعقلها وأحسن ترتيبها والاستفادة منها . زاده الله هدى وزاده من نعمة التفكر والتأمل صفاء ونوراً ، اهتدى به إلى الفقه فى كلامه وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم (ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور) .

فصل

و « التوبة » لهـا مبدأ ومنتهى . فمبدؤها : الرجوع إلى الله بسلوك صراطه المستقيم ، الذى نصبه لعباده ، موصلاً إلى رضوانه . وأمرهم بسلوكه بقوله تعالى : (٦:١٥٣ وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولاتتبعوا السبل) و بقوله (٤٢:٥٢،٥٣ و إنك لتهدى إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذى له مافى السموات ومافى الأرض) و بقوله (٢٢ : ٢٤ وَهُدوا إلى الطيب من القول . وهُدوا إلى صراط الحميد) .

ونهايتها : الرجوع إليه فى المعاد . وسلوك صراطه الذى نصبه موصلاً إلى جنته . فمن رجع إلى الله فى هذه الدار بالتوبة : رجع إليه فى المعاد بالثواب . وهذا هو أحد التأويلات فى قوله تعالى (٢٥ : ٧١ ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى متابا) قال البغوى وغيره « يتوب إلى الله متابا : يعود إليه بعد الموت ، متابا حسنا يفضل على غيره » فالتوبة الأولى ـ وهى قوله « ومن تاب » ـ رجوع عن الشرك . والثانية : رجوع إلى الله للجزاء والمـكافأة .

والتأويل الثانى : أن الجزاء متضمن معنى الأوامر . والمعنى : ومن عزم على التوبة وأرادها ، فليجعل توبته إلى الله وحده ، ولوجهه خالصاً ، لا لغيره .

التأويل الثالث : أن المراد لازم هذا المعنى ، وهو إشعـار التائب وإعلامه بمن تاب إليه . ورجع إليه . والمعنى : فليعلم توبته إلى من ؟ ورجوعه إلى من ؟ فإنها إلى الله لا إلى غيره .

ونظير هذا ـ على أحد التأويلين ـ قوله تعالى (٥ : ٦٧ يا أيها الرسول بلِّغْ ما أُنزل إليك من ربك . و إن لم تفعل فما بلّغت رسالته) أى اعلم ما يترتب على من عصى أوامره ولم يبلغ رسالته .

والتأويل الرابع : أن التوبة تـكون أولا بالقصد والعزم على فعلها . ثم إذا قوى العزم وصار جازماً : وُجد به فعل التوبة . فالتوبة الأولى : بالعزم والقصد

لفعلها . والثانية : بنفس إيقاع التوبة وإيجادها . والمعنى : فمن تاب إلى الله قصداً ونية وعزماً ، فتوبته إلى الله عملا وفعلا . وهذا نظير قوله صلى الله عليه وسلم « فمنْ كانت هجرته إلى الله ورسوله ، فهجرته إلى الله ورسوله . ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو امرأة يتزوجها ، فهجرته إلى ماهاجر إليه » .

فصل

و « الذنوب » تنقسم إلى صغائر وكبائر . بنص القرآن والسنة ، وإجماع السلف وبالاعتبار . قال الله تعالى (٤ : ٣١ إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم) وقال تعالى (٥٣ : ٣٢ والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم) وفى الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان ـ مكفرات لما بينهن ، إذا اجتنبت الكبائر » .

وأما مايحكى عن أبى إسحاق الاسفرائينى أنه قال : الذنوب كلها كبائر ، وليس فيها صغائر . فليس مراده : أنها مستوية فى الإثم ، بحيث يكون إثم النظر المحرم ، كإثم الوطء فى الحرام . وإنما المراد : أنها بالنسبة إلى عظمة من عُصِيَ بها كلها كبائر . ومع هذا فبعضها أكبر من بعض . ومع هذا فالأمر فى ذلك لفظي لا يرجع إلى معنى .

والذى جاء فى لفظ الشارع ، تسمية ذلك « لَمَماً » و « مُحَقَّرات » كما فى الحديث « إياكم ومُحقَّرات الذنوب » وقد قيل : إن « اللمم » المذكور فى الآية من الكبائر . حكاه البغوى وغيره .

قالوا : ومعنى الاستثناء : أن يُلِمَّ بالكبيرة مرة . ثم يتوب منها . ويقع فيها ثم ينتهى عنها ، لايتخذها دأبه . وعلى هذا يكون استثناء « اللمم » منَ الاجتناب إذ معناه : لا يصدر منهم ، ولا تقع منهم الكبائر إلا لمماً .

والجمهور على أنه استثناء من الكبائر ، وهو منقطع . أى لكن يقع منهم اللمم .

وحسَّنَ وقوع الانقطاع بعد الإيجاب ـ والغالب خلافه ـ أنه إنما يقع حيث يقع التفريغ . إذ فى الإيجاب هنا معنى النفى صريحاً . فالمعنى : لا يأتون ولا يفعلون كبائر الإثم والفواحش . فحسن استثناء اللمم .

ولعل هذا الذى شجع أبا إسحاق على أن قال « الذنوب كلها كبائر » إذ الأصل فى الاستثناء الاتصال . ولا سيما وهو من موجب .

ولكن النصوص و إجماع السلف على انقسام الذنوب إلى صغائر وكبائر .

ثم اختلفوا فى فصلين . أحدهما : فى « اللمم » ماهو ؟ والثانى : فى « الكبائر » وهل لها عدد يحصرها ، أو حَدٌّ يحدها ؟ فلنذكر شيئاً يتعلق بالفصلين .

فصل

فأما « اللمم » فقد روى عن جماعة من السلف : أنه الإلمام بالذنب مرة ، ثم لا يعود إليه . وإن كان كبيراً [1] . قال البغوى : هذا قول أبى هريرة ، ومجاهد ، والحسن ، ورواية عطاء عن ابن عباس . قال : وقال عبد الله بن عمرو بن العاص « اللمم مادون الشرك » قال السدى : قال أبو صالح : سُئِلْتُ عن قول الله عز وجل « إلا اللمم ؟ » فقلت : « هو الرجل يُلِمُّ بالذنب ثم لا يعاوده » فذكرت ذلك لابن عباس فقال « لقد أعانك عليها ملك كريم » .

والجمهور: على أن « اللمم » مادون الكبائر . وهو أصح الروايتين عن ابن عباس ، كما فى صحيح البخارى من حديث طاووس عنه قال « مارأيت أشبه

---

(١) معرفة لغة العرب . وضم الآيات والنصوص إلى بعضها ، مثل قول الله تعالى (٧ : ٢٠١ إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا . فإذا هم مبصرون) واخواتها يدل على أن « اللمم » هو الذنب مهما كان يسارع المؤمن إلى التخلص منه وانتزاع نفسه منه ، كرهاً له ، ورغبة فى الانابة والرجعة الى الله ربه . والاظهر : أن الاستثناء متصل .

باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم : إن الله كتب على ابن آدم حَظَّه من الزنا . أدرك ذلك لا محالة . فزنا العين : النظر . وزنا اللسان : النطق . والنفس تَمَنَّى وتشتهى . والفرجُ يصدّق ذلك أو يكذّبه » رواه مسلم من حديث سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة . وفيه « والعينان زناهما : النظر . والأذنان : زناهما الاستماع . واللسان : زناه الكلام . واليد : زناها البطش . والرِّجْلُ : زناها الْخُطَى » .

وقال الكلبى « اللمم » على وجهين . كل ذنب لم يذكر الله عليه حدًّا فى الدنيا . ولا عذاباً فى الآخرة . فذلك الذى تكفره الصلوات الخمس ، ما لم يبلغ الكبائر والفواحش . والوجه الآخر : هو الذنب العظيم ، يُلِمُّ به المسلم المرة بعد المرة . فيتوب منه .

قال سعيد بن المسيب : هو ماألمَّ بالقلب . أى ماخطر عليه .

قال الحسين بن الفضل : « اللمم » النظر من غير تعمد . فهو مغفور . فإن أعاد النظر . فليس بلمم ، وهو ذنب . وقد روى عطاء عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن تغفر اللهم تغفر جَمًّا * وأى عبد لك لا ألما »

وذهبت طائفة ثالثة إلى أن « اللمم » مافعلوه فى الجاهلية قبل إسلامهم . فالله لا يؤاخذهم به . وذلك أن المشركين قالوا للمسلمين « أنتم بالأمس كنتم تعملون معنا . فأنزل الله هذه الآية » وهذا قول زيد بن ثابت ، وزيد بن أسلم .

والصحيح : قول الجمهور : أن اللمم صغائر الذنوب ، كالنظرة ، والغمزة ، والقبلة ، ونحو ذلك . هذا قول جمهور الصحابة ومن بعدهم . وهو قول أبى هريرة وعبد الله بن مسعود . وابن عباس ، ومسروق ، والشعبى . ولا ينافى هذا قول أبى هريرة ، وابن عباس فى الرواية الأخرى « إنه يلم بالكبيرة ثم لا يعود إليها » فإن « اللمم » إما أنه يتناول هذا وهذا ، ويكون على وجهين . كما قال الكلبى ،

أو أن أبا هريرة ، وابن عباس ألحقا من ارتكب الكبيرة مرة واحدة - ولم يصر عليها ، بل حصلت منه فلتة فى عمره - باللمم . ورأيا أنها إنما تتغلظ وتكبر وتعظم فى حق من تكررت منه مراراً عديدة . وهذا من فقه الصحابة رضى الله عنهم وغور علومهم . ولا ريب أن الله يسامح عبده المرة والمرتين والثلاث . وإنما يخاف الْعَنَتَ عل من اتخذ الذنب عادته ، وتكرر منه مراراً كثيرة . وفى ذلك آثار سلفية ، والاعتبار بالواقع يدل على هذا . ويذكر عن عليٍ رضى الله عنه : أنه « دُفع إليه سارق . فأمر بقطع يده ، فقال : ياأمير المؤمنين ، والله ماسرقت غير هذه المرة . فقال : كذبت . فلما قطعت يده قال : اصدقنى ، كم لك بهذه المرة ؟ فقال : كذا وكذا مرة ؟ فقال : صدقت ، إن الله لا يؤاخذ بأول ذنب » أو كما قال . فأول ذنب إن لم يكن هو اللمم . فهو من جنسه ونظيره . فالقولان عن أبى هريرة ، وابن عباس ، متفقان غير مختلفين . والله أعلم .

وهذه اللفظة فيها معنى المقاربة والإعتاب بالفعل حيناً بعد حين . فإنه يقال : ألمّ بكذا . إذا قاربه ولم يغشه ، ومن هذا سميت القُبْلة والغَمْزة لَمَماً ، لأنها تُلِمُّ بما بعدها . ويقال : فلان لايزورنا إلا لماماً . أى حيناً بعد حين . فمعنى اللفظة ثابت فى الوجهين اللذين فسر الصحابة بهما الآية . وليس معنى الآية « والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم ، فإنهم لايجتنبونه » فإن هذا يكون ثناء عليهم بترك اجتناب اللمم ، وهذا محال . وإنما هذا استثناء من مضمون الكلام ومعناه . فإن سياق الكلام فى تقسيم الناس إلى محسن ومسىء ، وأن الله يجزى هذا بإساءته وهذا بإحسانه . ثم ذكر المحسنين ووصفَهم بأنهم يجتنبون كبائر الإثم والفواحش . ومضمون هذا : أنه لا يكون محسناً مجزياً بإحسانه ، ناجياً من عذاب الله ، إلا من اجتنب كبائر الإثم والفواحش . فحسُن حينئذ استثناء اللمم . وإن لم يدخل فى الكبائر . فإنه داخل فى جنس الإثم والفواحش .

وضابط الانقطاع : أن يكون له دخول فى جنس المستثنى منه ، وإن لم يدخل

فى نفسه . ولم يتناوله لفظه . كقوله تعـالى (١٩ : ٦٢ لايسمعون فيها لَغْوًا إلا سلاما) فإن «السلام» داخل فى الكلام الذى هو جنس اللغو والسلام . وكذلك قوله (٧٨: ٢٤ لايذوقون فيها برداً ولا شرابا إلا حميما وغساقا) فإن الحميم والغساق داخل فى جنس الذوق المنقسم . فـكأنه قيل فى الأول : لايسمعون فيها شيئاً إلا سلاما . وفى الثانى : لايذوقون فيها شيئاً إلا حميما وغساقا . ونص على فرد من أفراد الجنس تصريحاً ، ليكون نفيه بطريق التصريح والتنصيص ، لا بطريق العموم الذى يتطرق إليه تخصيص هذا الفرد . وكذلك قوله تعالى (٤ : ١٥٦ مالهم به من علم إلا اتباع الظن) فإن الظن داخل فى الشعور الذى هو جنس العلم والظن .

وأدق من هذا : دخول الانقطاع فيما يفهمه الكلام بلازمه ، كقوله تعـالى (٤ : ٢٢ ولا تنكحوا مانكح آباؤكم من النساء إلا ماقد سَلَف) إذ مفهوم هذا : أن نكاح منكوحات الآباء سبب للعقوبة إلا ما قد سلف منه قبل التحريم ، فإنه عفو . وكذلك (٤ : ٢٣ وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف) وإن كان المراد به : ما كان فى شرع من تقدم فهو استثناء من القبح المفهوم من ذلك التحريم والذم لمن فعله ، فحسن أن يقال « إلا ماقد سلف » .

فتأمل هذا فإنه من فقه العربية .

وأما قوله (٤٤ : ٥٦ لايذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى) فهذا الاستثناء هو لتحقيق دوام الحياة وعدم ذوق الموت . وهو يجعل النفى الأول العـام بمنزلة النص الذى لايتطرق إليه استثناء ألبتة . إذ لو تطرق إليه استثناء فرد من أفراده لكان أولى بذكره من العدول عنه إلى الاستثناء المنقطع . فجرى هـذا الاستثناء مجرى التأكيد ، والتنصيص على حفظ العموم . وهذا جارٍ فى كل منقطع . فتأمله فإنه من أسرار العربية .

فقوله « وما بالربع من أجد الأوارى » يفهم منه لو وجدت فيها أحـداً لاستثنيته ولم أعدل إلى الأوارى التى ليست بأحد .

وقريب من هذا لفظة « أو » فى قوله تعالى (٢ : ٧٤ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك . فهى كالحجارة أو أشد قسوة) وقوله (٣٧ :١٤٧ وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون) هو كالتنصيص على أن المراد بالأول الحقيقة لا المبالغة . فإنها إن لم تزد قسوتها على الحجارة فهى كالحجارة فى القسوة لا دونها . وأنه إن لم يزد عددهم على مائة ألف لم ينقص عنها . فذكر « أو » هٰهنا كالتنصيص على حفظ المائة الألف ، وأنها ليست مما أريد بها المبالغة . والله أعلم .

فصل

وأما الكبائر : فاختلف السلف فيها اختلافا لا يرجع إلى تباين وتضاد ، وأقوالهم متقاربة .

وفى الصحيحين من حديث الشعبى عن عبد الله بن عمرو عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « الكبائر : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس ، واليمين الغَموس » .

وفيهما عن عبد الرحمن بن أبى بكَرة عن أبيه عن النبى صلى الله عليه وسلم « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ ــ ثلاثا ــ قالوا : بلى ، يارسول الله . قال : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ــ وجلس وكان متكئاً ــ فقال : ألا وقول الزور ، فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت » .

وفى الصحيح من حديث أبى وائل عن عمرو بن شُرحبيل عن عبد الله بن مسعود قال : قلت « يا رسول الله ، أى الذنب أعظم ؟ قال : أن تجعل لله نِدًّا وهو خلقك . قال قلت : ثم أىّ ؟ قال : أن تقتل ولدك مخافة أن يَطْعَم معك . قال قلت : ثم أى ؟ قال : أن تُزانى بحليلة جارك . فأنزل الله تعالى تصديق قول النبى صلى الله عليه وسلم (٢٥ : ٦٨ والذين لا يدعون مع الله إلٰهاً آخر . ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون) » .

وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « اجتنبوا السبع الموبقات . قالوا : يا رسول الله ، وما هن ؟ قال : الشرك بالله . والسحرُ . وقتلُ النفس التى حرم الله إلا بالحق . وأكل الربا . وأكل مال اليتيم ، والتولِّى يوم الزحف . وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات » .

وروى شعبة عن سعد بن إبراهيم : سمعت حميد بن عبد الرحمن يحدث عن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « من أكبر الكبائر : أن يسب الرجل والديه . قالوا : وكيف يسب الرجل والديه ؟ قال : يسب أبا الرجل ، فيسب أباه . ويَسُبُّ أمه ، فيسب أمه » .

وفى حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن من أكبر الكبائر استطالةَ الرجل فى عِرض أخيه المسلم بغير حق » .

وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه « أكبر الكبائر : الشرك بالله . والأمنُ من مكر الله . والقنوط من رحمة الله . واليأس من روح الله » .

قال سعيد بن جبير : سأل رجل ابن عباس عن الكبائر « أسبع هن ؟ قال : هن إلى السبعمائة أقرب ، إلا أنه لا كبيرة مع الاستغفار ، ولا صغيرة مع الإصرار » وقال « كل شىء عُصِى الله به فهو كبيرة . من عمل شيئاً منها فليستغفر الله . فإن الله لايخلد فى النار من الأمة إلامن كان راجعاً عن الإسلام ، أو جاحداً فريضة ، أو مكذباً بالقدر » .

وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه « ما نهى الله عنه فى سورة النساء من أولها إلى قوله (٤ : ٣١ إن تجتنبوا كبائر ماتُنهونَ عنه نكفر عنكم سيئاتكم) فهو كبيرة » وقال علي بن أبى طلحة : هى كل ذنب ختمه الله بنار ، أو غضب أو لعنة ، أو عذاب .

وقال الضحاك : هى ما أوعد الله عليه حداً فى الدنيا ، أو عذاباً فى الآخرة .

وقال الحسين بن الفضل : ما سماه الله فى القرآن كبيراً ، أو عظيماً . نحو قوله

(٤ : ٣ إنه كان حُو با كبيراً) (١٧ : ٣١ إن قتلهم كان خِطْئًا كبيراً) (٣١ : ١٣ إن الشرك لظلم عظيم) (١٢ : ٢٨ إن كيدكن عظيم) (٢٤ : ١٦ سبحانك ! هذا بهتان عظيم) (٣٣ : ٥٣ إن ذلكم كان عند الله عظيماً) .

قال سفيان الثورى : الكبائر ما كان فيه من المظالم بينك و بين العباد . والصغائر : ما كان بينك و بين الله . لأن الله كريم يعفو . واحتج بحديث يزيد بن هرون عن حميد الطويل عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ينادى منادٍ من قبل بُطنان العرش يوم القيامة : يا أمة محمد ، إن الله عز وجل قد عفا عنكم جميعكم ، المؤمنين والمؤمنات . فتواهبوا المظالم بينكم . وادخلوا الجنة برحمتى »

قلت : مراد سفيان : أن الذنوب التى بين العبد و بين الله أسهل أمراً من مظالم العباد . فانها تزول بالاستغفار ، والعفو والشفاعة وغيرها . وأما مظالم العباد : فلا بد من استيفائها . وفى المعجم للطبرانى « الظلم عند الله يوم القيامة ثلاثة دواوين : ديوان لايغفر الله منه شيئاً . وهو الشرك بالله ، ثم قرأ (٤ : ٤٨ إن الله لايغفر أن يشرك به) وديوان لايترك الله منه شيئاً . وهو مظالم العباد بعضهم بعضاً . وديوان لايعبأ الله به شيئاً . وهو ظلم العبد نفسه بينه و بين الله » .

ومعلوم أن هذا الديوان مشتمل على الكبائر والصغائر . لكن مستحقه أكرم الأكرمين . وما يعفو عنه من حقه ويَهَبه أضعافُ أضعاف ما يستوفيه ، فأمره أسهل من الديوان الذى لايترك منه شيئاً لعدله . و إيصال كل حق إلى صاحبه

وقال مالك بن مِغْول : الكبائر ذنوب أهل البدع ، والسيئات ذنوب أهل السنة

قلت : يريد أن البدعة من الكبائر ، وأنها أكبر من كبائر أهل السنة . فكبائر أهل السنة صغائر بالنسبة إلى البدع . وهذا معنى قول بعض السلف : البدعة أحب إلى إبليس من المعصية . لأن البدعة لايتاب منها . والمعصية يتاب منها

وقيل: الكبائر ذنوب العمد . والسيئات: الخطأ والنسيان . وما أُكْره عليه ، وحديث النفس ، المرفوعة عن هذه الأمة .

قلت : هذا من أضعف الأقوال طرداً وعكساً . فإن الخطأ والنسيان والإكراه لايدخل تحت جنس المعاصى ، حتى يكون أحدَ قسميها .

والعمد نوعان : نوع كبائر ، ونوع صغائر . ولعل صاحب هذا القول يرى : أن الذنوب كلها كبائر ، وأن الصغائر ماعفا الله لهذه الأمة عنه . ولم يدخل تحت التكليف . وهذا غير صحيح . فإن الكبائر والصغائر نوعان تحت جنس المعصية . و يستحيل وجود النوع بدون جنسه .

وقيل : الكبائر ذنوب المستحلِّين ، مثل ذنب إبليس . والصغائر : ذنوب المستغفرين . مثل ذنب آدم .

قلت : أما المستحل : فذنبه دائر بين الكفر والتأويل . فإنه إن كان عالماً بالتحريم فكافر . و إن لم يكن عالماً به فمتأول أو مقلد . وأما المستغفر : فإن استغفاره الكامل يمحو كبائره وصغائره . فلا كبيرة مع الاستغفار .

فهذا الفرق ضعيف أيضاً . إلا أن يكون مراد صاحبه : أن مايفعله المستحل من الذنب أعظم عقوبة مما يفعله المعترف بالتحريم ، النادم على الذنب ، المستغفر منه . وهذا صحيح .

وقال السدى : الكبائر مانهى الله عنه من الذنوب الكبار . والسيئات مقدماتها . وتوابعها مما يجتمع فيه الصالح والفاسق ، مثل النظرة واللمسة والقبلة وأشباهها . واحتج بقول النبى صلى الله عليه وسلم « العينان تزنيان . والرجلان تزنيان . ويصدق ذلك كله الفرج أو يكذبه » .

وقيل : الكبائر مايستصغره العباد . والصغائر : مايستعظمونه ، فيخافون مواقعته . واحتج أرباب هذه المقالة بما روى البخارى فى صحيحه عن أنس رضى الله عنه قال « إنكم لتعملون أعمالاً ، هى أدقُّ فى أعينكم من الشعر . كنا

نَعُدُّها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الموبقات » .

قلت : أما قول السدى « الكبائر مانهى الله عنه من الذنوب الكبار » فبيان للشىء بنفسه . فإن الذنوب الكبار : هى الكبائر . و إنما مراده : أن المنهى عنه قسمان . أحدهما : ماهو مشتمل على المفسدة بنفسه . ونفس فعله منشأ المفسدة . فهذا كبيرة ، كقتل النفس والسرقة ، والقذف والزنا .
الثانى : ما كان من مقدمات ذلك ومباديه ، كالنظر واللمس ، والحديث والقبلة ، الذى هو مقدمة الزنا ، فهو من الصغائر . فالصغائر : من جنس المقدمات . والكبائر : من جنس المقاصد والغايات .

وأما من قال « مايستصغره العباد فهو كبائر . ومايستكبرونه فهو صغائر » فإن أراد : أن الفرق راجع إلى استكبارهم واستصغارهم . فهو باطل . فإن العبد يستصغر النظرة . و يستكبر الفاحشة .

و إن أراد : أن استصغارهم للذنب يكبره عند الله ، واستعظامهم له يصغره عند الله . فهذا صحيح . فإن العبد كلما صغرت ذنوبه عنده كبرت عند الله . وكلما كبرت عنده صغرت عند الله . والحديث إنما يدل على هذا المعنى . فإن الصحابة ــ لعلو مرتبتهم عند الله وكمالهم ــ كانوا يعدون تلك الأعمال موبقات . ومن بعدهم ــ لنقصان مرتبتهم عنهم . وتفاوت ما بينهم ــ صارت تلك الأعمال فى أعينهم أدق من الشعر .

و إذا أردت فهم هذا فانظر : هل كان فى الصحابة من إذا سمع نص رسول الله صلى الله عليه وسلم عارضه بقياسه ، أو ذوقه ، أو وجده ، أو عقله ، أو سياسته ؟ وهل كان قط أحد منهم يقدم على نص رسول الله صلى الله عليه وسلم عقلاً أو قياساً ، أو ذوقاً ، أو سياسة ، أو تقليد مقلِّد ؟ فلقد أكرم الله أعينهم وصانها أن تنظر إلى وجه مَنْ هـذا حاله ، أو يكون فى زمانهم . ولقد حكم عمر بن الخطاب رضى الله عنه على من قدَّم حكمه على نص الرسول بالسيف . وقال « هذا حكمى

فيه » فيالله ! كيف لو رأى ما رأينا ، وشاهد مابُلينا به من تقديم رأى كل فلان وفلان على قول المعصوم ، صلى الله عليه وسلم . ومعاداة من اطَّرح آراءهم . وقدم عليها قول المعصوم ؟ فالله المستعان . وهو الموعد . و إليه المرجع .

وقيل : الـكبائر : الشرك وما يؤدى إليـه . والصغائر : ماعدا الشرك من ذنوب أهل التوحيد .

واحتج أر باب هذه المقالة بقوله تعالى (٤ : ٤٨ إن الله لايغفر أن يشرك به و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء) .

واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم ـ فيما يروى عن ر به تبارك وتعالى ـ « ابنَ آدم ، لو أتيتنى بقراب الأرض خطايا ، ثم لقيتنى لا تشرك بى شيئـاً : أتيتك بقرابها مغفرة » .

واحتجوا أيضاً بالحديث الذى روى مرفوعاً وموقوفاً « الظلم ثلاث دواو ين ، ديوان لايغفر الله منه شيئاً . وهو الشرك ، وديوان لا يترك الله منه شيئاً . وهو ظلم العباد بعضهم بعضاً . وديوان لايعبأ به الله شيئاً . وهو ظلم العبد نفسه بينه و بين ر به »

فهذا جملة ما احتج به أر باب هذه المقالة . ولا حجة لهم فى شىء منه .

أما الآية : فإن غايتها التفريق بين الشرك وغيره . لأن الشرك لايغفر إلا بالتو بة منه . وأما مادون الشرك : فهو موكول إلى مشيئة الله . وهذا يدل على أن المعاصى دون الشرك . وهذا حق . فإن أراد أر باب هذا القول هذا : فلا نزاع فيه . و إن أرادوا أن كل مادون الشرك : فهو صغيرة فى نفسه . فباطل .

فإن قيل : فإذا كان الشرك وغيره مما تأتى عليه التو بة . فما وجه الفرق بين الشرك وما دونه ؟ وهل هما فى حق التائب ، أم غير التائب ؟ أم أحدهما فى حق التائب والآخر فى حق غير ؟ وما الفرق بين هذه الآية و بين قوله (٣٩ : ٥٣ قل ياعباديَ الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله . إن الله يغفر الذنوب جميعا . إنه هو الغفور الرحيم) ؟

فالجواب : أن كل واحدة من الآيتين لطائفة ، فآية النساء (٤ : ٤٨ إن الله لايغفر أن يشرك به و يغفر مادون ذلك لمن يشاء) هى لغير التائبين فى القسمين .

والدليل عليه : أنه فرق بين الشرك وغيره فى المغفرة . ومن المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام : أن الشرك يغفر بالتوبة ، و إلا لم يصح إسلام كافر أبداً .

وأيضاً فإنه خصص مغفرة مادون الشرك بمن يشاء . ومغفرة الذنوب للتائبين عامة لا تخصيص فيها . فخصص وقيد . وهذا يدل على أنه حكم غير التائب .

وأما آية الزمر (٣٩: ٥٨ إن الله يغفر الذنوب جميعا) فهى فى حق التائب . لأنه أطلق وعم . فلم يخصها بأحد . ولم يقيدها بذنب . ومن المعلوم بالضرورة : أن الكفر لايغفره . وكثير من الذنوب لايغفرها . فعلم أن هذا الإطلاق والتعميم فى حق التائب . فكل من تاب من أى ذنب كان : غفر له[1] .

وأما الحديث الآخر « لو لقيتنى بقراب الأرض خطايا ، ثم لقيتنى لاتشرك بى شيئاً ، أتيتك بقرابها مغفرة » فلا يدل على أن ماعدا الشرك كله صغائر ، بل يدل على أن من لم يشرك بالله شيئاً فذنوبه مغفورة كائنة ما كانت . ولكن ينبغى أن يعلم ارتباط إيمان القلوب بأعمال الجوارح ، وتعلقها بها . و إلا لم يفهم مراد الرسول صلى الله عليه وسلم ، و يقع الخلط والتخبيط .

فاعلم أن هذا النفى العامّ للشرك ـ أن لا يشرك بالله شيئاً ألبتة ـ لايصدر من مصرّ على معصية أبداً ، ولايمكن مُدمنُ الكبيرة والمصِرُّ على الصغيرة أن يصفو له التوحيد ، حتى لايشرك بالله شيئاً . هذا من أعظم المحال . ولا يلتفت إلى جَدَلىّ لا حَظَّ له من أعمال القلوب . بل قلبه كالحجر أو أقسى ، يقول : وما المانع ؟ وماوجه الإحالة ؟ ولو فرض ذلك واقعاً لم يلزم منه محال لذاته !

فدع هذا القلب المفتون بجدله وجهله . واعلم أن الإصرار على المعصية يوجب

---

(١) وهى مشروطة بالآيات بعدها (٣٩ : ٥٣ ـ ٥٩ وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له ـ إلى قوله ـ بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت . وكنت من الكافرين)

من خوف القلب من غير الله ، ورجائه لغير الله ، وحبه لغير الله ، وذله لغير الله ، وتوكله على غير الله : مايصير به منغمساً فى بحار الشرك . والحاكم فى هذا مايعلمه الإنسان من نفسه ، إن كان له عقل . فإن ذُلَّ المعصية لابد أن يقوم بالقلب فيورثه خوفا من غير الله . وذلك شرك . ويورثه محبة لغير الله ، واستعانة بغيره فى الأسباب التى توصله إلى غرضه . فيكون عمله لا بالله ولا لله ، وهذا حقيقة الشرك .

نعم قد يكون معه توحيد أبى جهل ، وعباد الأصنام . وهو توحيد الربوبية . وهو الاعتراف بأنه لا خالق إلا الله . ولو أنجى هذا التوحيد وحده ، لأنجى عباد الأصنام . والشأنُ فى توحيد الإلهية ، الذى هو الفارق بين المشركين والموحدين(١)

والمقصود : أن من لم يشرك بالله شيئاً يستحيل أن يلقى الله بقراب الأرض خطايا ، مصرًّا عليها ، غير تائب منها ، مع كمال توحيده الذى هو غاية الحب والخضوع ، والذل والخوف والرجاء للرب تعالى .

وأما حديث الدواوين : فإنما فيه أن حق الرب تعالى لايؤوده أن يهبه ويسقطه . ولا يحتفل به ويعتنى به كحقوق عباده . وليس معناه : أنه لايؤاخذ به ألبتة ، أو أنه كله صغائر . وإنما معناه : أنه يقع فيه من المسامحة والمساهلة والإسقاط والهبة ، مالا يقع مثله فى حقوق الآدميين .

فظهر أنه لا حجة لهم فى شىء مما احتجوا به . والله أعلم .

وقالت فرقة : الصغائر مادون الحدين ، والكبائر : ماتعلق بها أحد الحدين . ومرادهم بالحدين : عقوبة الدنيا والآخرة . فكل ذنب عليه عقوبة مشروعة محدودة فى الدنيا ، كالزنا وشرب الخمر . والسرقة والقذف . أو عليه وعيد فى الآخرة ، كأكل مال اليتيم ، والشرب فى آنية الفضة والذهب ، وقتل الإنسان نفسه ، وخيانته أمانته ، ونحو ذلك . فهو من الكبائر . وصدق ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله « هى إلى السبعمائة أقرب منها إلى السبع » .

---

(١) لله در الإمام ابن القيم من محقق ، خبير بطب القلوب وأدوائها ، ومن فقيه بصير بحقيقة دين الله ، وما شرع لخير الإنسانية .

فصــل

وههنا أمر ينبغى التفطن له ، وهو أن « الـكبيرة » قد يقترن بها ــ من الحياء والخوف ، والاستعظام لها ــ مايلحقها بالصغائر . وقد يقترن بالصغيرة ــ من قلة الحياء ، وعدم المبالاة ، وترك الخوف ، والاستهانة بها ــ مايلحقها بالـكبائر . بل يجعلها فى أعلى رتبها .

وهـذا أمر مرجعه إلى ما يقوم بالقلب . وهو قدر زائد على مجرد الفعل . والإنسان يعرف ذلك من نفسه ومن غيره .

وأيضاً فإنه يُعْفَى للمحب ، ولصاحب الإحسان العظيم ، مالا يعفى لغيره ، ويسامَح بما لا يسامح به غيره .

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ــ قدس الله روحه ــ يقول: انظر إلى موسى ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ رمى الألواح التى فيهـا كلام الله الذى كتبه بيده فـكسرها ، وجَرَّ بلحية نبيٍّ مثله ، وهو هٰرون ، ولطم عين ملك الموت ففقأها ، وعاتب ربه ليلة الإسراء فى محمد صلى الله عليه وسلم ورَفْعِهِ عليه ، وربُّه تعـالى يحتمل له ذلك كله ، ويحبه ويكرمه ويُدَلّلهُ[1] . لأنه قام لله تلك المقامات العظيمة فى مقابلة أعدى عدو له ، وصدع بأمره ، وعالج أُمَّتَى القِبْط وبنى إسرائيل أشد المعالجة . فـكانت هذه الأمور كالشعرة فى البحر .

وانظر إلى يونس بن مَتَّى حَيث لم يكن له هذه المقامات التى لموسى ، غاضبَ ربه مرة . فأخذه وسَجَنه فى بطن الحوت . ولم يحتمل له ما احتمل لموسى . وفرقٌ بين مَنْ إذا أتى بذنب واحد ، ولم يكن له من الإحسان والمحاسن مايشفع له ، وبين من إذا أتى بذنب جاءت محاسنه بكل شفيع . كما قيل :

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد جاءت محـاسنه بألف شفيع

---

(١) هذه كلمة سبق بها اللسان والقلم ، ولـكل جواد كبوة . وكان الأولى «يتجاوز» أو نحوها . وهذا عجيب ممن لقى أشد ألوان الأذى فى الدفاع عن أسماء الله

فالأعمال تشفع لصاحبها عند الله . وتذكِّر به إذا وقع فى الشدائد . قال تعالى عن ذى النون (٣٨ : ١٤٣ ، ١٤٤ فلولا أنه كان من المسبحين . لَلَبِثَ فى بطنه إلى يوم يبعثون) . وفرعون لما لم تكن له سابقة خير تشفع له وقال (١٠ : ٩٠ آمَنْتُ أنه لا إلٰه إلا الذى آمنت به بنوا إسرائيل) قال له جبريل (آلآن وقد عصَيْتَ قبلُ ، وكنت من المفسدين ؟) .

وفى المسند عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن ماتذكرون من جلال الله ــ من التسبيح ، والتكبير ، والتحميد ــ يتعاطفن حول العرش ، لهن دويّ كدويّ النحل . يذكِّرن بصاحبهن . أفلا يحب أحدكم أن يكون له من يذكر به ؟ » ولهذا من رجحت حسناته على سيئاته أفلح ولم يعذب ، ووهبت له سيئاته لأجل حسناته . ولأجل هذا يغفر لصاحب التوحيد مالايغفر لصاحب الإشراك . لأنه قد قام به مما يحبه الله ما اقتضى أن يغفر له . ويسامحه مالا يسامح به المشرك . وكما كان توحيد العبد أعظم . كانت مغفرة الله له أتم . فمن لقيه لا يشرك به شيئاً ألبتة غفر له ذنوبه كلها ، كائنة ما كانت . ولم يعذب بها .

ولسنا نقول : إنه لايدخل النار أحد من أهل التوحيد . بل كثير منهم يدخل بذنوبه . ويعذب على مقدار جرمه . ثم يخرج منها . ولاتنافى بين الأمرين لمن أحاط علماً بما قدمناه .

ونزيد ههنا إيضاحاً لعظم هذا المقام من شدة الحاجة إليه .

اعلم أن أشعة « لا إله إلا الله » تبدد من ضباب الذنوب وغيومها بقدر قوة ذلك الشعاع وضعفه . فلها نور . وتفاوتُ أهلها فى ذلك النور ــ قوةً ، وضعفاً ــ لا يحصيه إلا الله تعالى .

فمن الناس : من نور هذه الكلمة فى قلبه كالشمس .

ومنهم : من نورها فى قلبه كالكوكب الدرى .

ومنهم : من نورها فى قلبه كالمشعل العظيم .

وآخر : كالسراج المضيء . وآخر كالسراج الضعيف .

ولهذا تظهر الأنوار يوم القيامة بأيمانهم ، و بين أيديهم ، على هذا المقدار ، بحسب مافى قلوبهم من نور هذه الكلمة ، علماً وعملاً ، ومعرفة وحالا .

وكلما عظم نور هذه الكلمة واشتد : أحرق من الشبهات والشهوات بحسب قوته وشدته . حتى إنه ربما وصل إلى حال لايصادف معها شبهة ولا شهوة ، ولا ذنباً ، إلا أحرقه . وهذا حال الصادق فى توحيده . الذى لم يشرك بالله شيئاً . فأى ذنب أو شهوة أو شبهة دنت من هذا النور أحرقها . فسماء إيمانه قد حُرست بالنجوم من كل سارق لحسناته . فلا ينال منها السارق إلا على غِرَّة وغفلة لابد منها للبشر . فإذا استيقظ وعلم ماسُرق منه استنقذه من سارقه . أو حَصَّل أضعافه بكسبه . فهو هكذا أبداً مع لصوص الجن والإنس . ليس كمن فتح لهم خزانته ، وَوَلَّى الباب ظَهره .

وليس التوحيد مجرد إقرار العبد بأنه لاخالق إلا الله ، وأن الله رب كل شيء ومليكه . كما كان عُبّاد الأصنام مقرين بذلك وهم مشركون . بل التوحيد يتضمن — من محبة الله ، والخضوع له ، والذل له ، وكمال الانقياد لطاعته ، و إخلاص العبادة له ، و إرادة وجهه الأعلى بجميع الأقوال والأعمال ، والمنع ، والعطاء ، والحب ، والبغض — : مايحول بين صاحبه و بين الأسباب الداعية إلى المعاصى ، والإصرار عليها . ومن عرف هذا عرف قول النبي صلى الله عليه وسلم « إن الله حرم على النار من قال : لاإله إلا الله ، يبتغى بذلك وجه الله » وقوله « لايدخل النار من قال : لا إله إلا الله » وما جاء من هذا الضرب من الأحاديث التى أشكلت على كثير من الناس ، حتى ظنها بعضهم منسوخة . وظنها بعضهم قيلت قبل ورود الأوامر والنواهى ، واستقرار الشرع . وحملها بعضهم على نار المشركين والكفار . وأول بعضهم الدخول بالخلود . وقال : المعنى لا يدخلها خالداً . ونحو ذلك من التأويلات المستكرهة .

والشارع — صلوات الله وسلامه عليه — لم يجعل ذلك حاصلا بمجرد قول اللسان فقط . فإن هذا خلاف المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام . فإن المنافقين يقولونها بألسنتهم . وهم تحت الجاحدين لها فى الدرك الأسفل من النار . فلابد من قول القلب ، وقول اللسان . وقول القلب : يتضمن من معرفتها ، والتصديق بها ، ومعرفة حقيقة ماتضمنته — من النفى والإثبات ، ومعرفة حقيقة الإلهية المنفية عن غير الله ، المختصة به ، التى يستحيل ثبوتها لغيره ، وقيام هذا المعنى بالقلب : علماً ومعرفة ويقيناً ، وحالا[1] — : مايوجب تحريم قائلها على النار . وكل قول رَتَّبَ الشارع مارتب عليه من الثواب ، فإنما هو القول التام . كقوله صلى الله عليه وسلم « من قال فى يوم : سبحان الله وبحمده مائة مرة ، حُطَّتْ عنه خطاياه — أو غفرت ذنوبه — ولو كانت مثل زَبَدِ البحر » وليس هذا مرتباً على مجرد قول اللسان .

نعم من قالها بلسانه ، غافلا عن معناها ، معرضاً عن تدبرها ، ولم يواطىء قلبه لسانه . ولا عرف قدرها وحقيقتها . راجياً مع ذلك ثوابها . حَطَّتْ من خطاياه بحسب مافى قلبه[2] . فإن الأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها . وإنما تتفاضل بتفاضل مافى القلوب . فتكون صورة العملين واحدة . وبينهما فى التفاضل كما بين السماء والأرض . والرجلان يكون مقامهما فى الصف واحداً ، وبين صلاتيهما كما بين السماء والأرض .

---

(١) ومعرفة مايناقضها ويهدمها ، من تعظيم ما اتخذه المشركون من خرافات ووثنيات ، والاعتذار لهم عن ذلك وعما اتخذوا من آلهة ومعبودات ومقدسات ، وطاعة أحبار ورهبان فى معصية الله . فإن عمر رضى الله عنه قال « إنما تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ فى الإسلام من لا يعرف الجاهلية » فإنما وقع من وقع فى مناقضة التوحيد وهدمه بالأقوال والأعمال : من التقليد الأعمى . وأنه يسير فى دينه على غير هدى ولا بصيرة .

(٢) وهل جاء الشرك والكفر إلا من هذه الغفلة ، والإعراض عن تدبرها ، وعدم الحذر من كل ماينافضها ويهدمها . وهل كان ويكون دين الجاهلية الباطل إلا من هذه الغفلة والإعراض ، ثم يزداد غفلة بالغرور والأمانى الكاذبة برجاء الثواب .

وتأمل حديث البطاقة التى توضع فى كِفة، ويقابلها تسعة وتسعون سجلا، كل سجل منها مَدُّ البصر، فتثقل البطاقة وتطيش السجلات، فلا يعذب.

ومعلوم أن كل موحد له مثل هذه البطاقة. وكثير منهم يدخل النار بذنوبه.

ولكن السر الذى ثَقَّلَ بطاقة ذلك الرجل، وطاشت لأجله السجلات: لما لم يحصل لغيره من أرباب البطاقات، انفردت بطاقته بالثقل والرزانة.

وإذا اردت زيادة الإيضاح لهذا المعنى. فانظر إلى ذكر من قلبه ملآن بمحبتك، وذكر من هو معرض عنك غافل ساه، مشغول بغيرك، قد انجذبت دواعى قلبه إلى محبة غيرك، وإيثاره عليك. هل يكون ذكرهما واحداً؟ أم هل يكون ولداك اللذان هما بهذه المثابة، أو عبداك، أو زوجتاك، عندك سواء؟.

وتأمل ماقام بقلب قاتل المائة من حقائق الإيمان التى لم تشغله عند السياق عن السير إلى القرية. وحملته — وهو فى تلك الحال — على أن جعل ينوء بصدره. ويعالج سكرات الموت. فهذا أمر آخر، وإيمان آخر. ولا جرم أن أُلحق بالقرية الصالحة. وجُعل من أهلها.

وقريب من هذا: ماقام بقلب البَغيّ التى رأت ذلك الكلب — وقد اشتد به العطش يأكل الثرى — فقام بقلبها ذلك الوقت — مع عدم الآلة، وعدم المعين وعدم من ترائيه بعملها — ماحملها على أن غَررت بنفسها فى نزول البئر، وملء الماء فى خُفها، ولم تعبأ بتعرضها للتلف. وحَمْلِها خفها بفيها. وهو ملآن، حتى أمكنها الرُّقِيُّ من البئر، ثم تواضعها لهذا المخلوق الذى جرت عادة الناس بضربه، فأمسكت له الخف بيدها حتى شرب. من غير أن ترجو منه جزاءاً ولا شكوراً. فأحرقت أنوارُ هذا القدر من التوحيد ماتقدم منها من البغاء، فغفر لها.

فهكذا الأعمال والعمال عند الله. والغافل فى غفلة من هذا الإكسير الكيماوى، الذى إذا وضع منه مثقال ذرة على قناطير من نحاس الأعمال قلبها ذهباً. والله المستعان.

فصـل

فإن قيل : قد ذكرتم : أن المحب يسامح بما لا يسامح به غيره . ويعفى للولى عما لا يعفى لسواه . وكذلك العالم أيضاً ، يغفر له مالا يغفر للجاهل . كما روى الطبرانى بإسناد جيد ـ مرفوعاً إلى النبى صلى الله عليه وسلم ـ « إن الله ـ سبحانه ـ إذا جمع الناس يوم القيامة فى صعيد واحد ، قال للعلماء : إنى كنت أُعبد بفتواكم . وقد علمت أنكم كنتم تخلطون كما يخلط الناس ، وإنى لم أضع علمى فيكم وأنا أريد أن أعذبكم . اذهبوا فقد غفرت لكم » هذا معنى الحديث . وقد روى مسنداً ومرسلا .

فهذا الذى ذكرتم صحيح . وهو مقتضى الحكمة والجود والإحسان ، ولكن ماذا تصنعون بالعقوبة المضاعفة التى ورد التهديد بها فى حق أولئك إن وقع منهم ما يكره ؟ كقوله تعالى (٣٣ : ٣٠ يانساء النبى ، من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين) وقوله تعالى (١٧ : ٧٣ ، ٧٤ ولولا أن ثبتناك لقد كِدْت تركن إليهم شيئاً قليلا * إذاً لأذقناك ضِعْف الحياة وضعف الممات . ثم لا تجد لك علينا نصيراً) أى لولا تثبيتنا لك لقد كدت تركن إليهم بعض الشىء . ولو فعلت لأذقناك ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات . أى ضاعفنا لك العذاب فى الدنيا والآخرة . وقال تعالى (٦٩ : ٤٤ ـ ٤٦ ولو تَقَوَّل علينا بعض الأقاويل . لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين) أى لو أتى بشىء من عند نفسه لأخذنا منه بيمينه . وقطعنا نياط قلبه وأهلكناه . وقد أعاذه الله من الركون إلى أعدائه بذرة من قلبه . ومن التقول عليه سبحانه . وكم من راكن إلى أعدائه ومتقول عليه من قبل نفسه قد أمهله ولم يعبأ به . كأرباب البدع كلهم ، المتقولين على أسمائه وصفاته ودينه .

وما ذكرتم فى قصة يونس : هو من هـذا الباب . فإنه لم يسامح بغضبة . وسجن لأجلها فى بطن الحوت . ويكفى حال أبى البشر حيث لم يسامح بلقمة . وكانت سبب إخراجه من الجنة .

فالجواب : أن هذا أيضاً حق . ولا تنافى بين الأمرين . فإن من كملت عليه نعمة الله . واختصه منها بمـا لم يختص به غيره : فى إعطائه منها ماحرمه غيره . فحُبِيَ بالإنعام ، وخص بالإكرام . وخص بمزيد التقريب . وجعل فى منزلة الولى الحبيب ، اقتضت حاله من حفظ مرتبة الولاية والقرب والاختصاص : بأن يراعى مرتبته من أدنى مشوش وقاطع . فلشدة الاعتناء به ، ومزيد تقريبه ، واتخاذه لنفسه ، واصطفائه على غيره . تـكون حقوق وليه وسيده عليه أتم . ونعمه عليه أكمل . والمطلوب منه فوق المطلوب من غيره . فهو إذا غَفَل وأخَلَّ بمقتضى مرتبته نُبِّهَ بمـا لم ينبه عليه البعيد البرانى ، مع كونه يسامح بما لم يسامح به ذلك أيضاً . فيجتمع فى حقه الأمران .

وإذا أردت معرفة اجتماعهما . وعدم تناقضهما ، فالواقع شاهد به . فإن الملك يسامح خاصته وأولياءه بما لم يسامح به من ليس فى منزلتهم ، ويأخذهم ويؤدبهم بما لم يأخذ به غيرهم(١) . وقد ذكرنا شواهد هذا وهذا . ولا تناقض بين الأمرين .

وأنت إذا كان لك عبدان ، أو ولدان ، أو زوجتان . أحدهما : أحب إليك من الآخر ، وأقرب إلى قلبك ، وأعز عليك : عاملته بهذين الأمرين . واجتمع فى حقه المعاملتان بحسب قربه منك ، وحبك له ، وعزته عليك . فإذا نظرت إلى كمال إحسانك إليه ، وإتمام نعمتك عليه : اقتضت معاملته بما لا تعامل به من دونه ، من التنبيه وعدم الإهمال . وإذا نظرت إلى إحسانه ومحبته لك ، وطاعته وخدمته ، وكمال عبوديته ونصحه : وهبت له وسامحته . وعفوت عنه ، بما لاتفعله مع غيره . فالمعاملتان بحسب مامنك وما منه .

وقد ظهر اعتبار هذا المعنى فى الشرع ، حيث جعل حَدَّ من أنعم عليه بالتزوج إذا تعداه إلى الزنا : الرجم ، وحد من لم يعطه هذه النعمة الجلد . وكذلك ضاعف

---

(١) أين ملوك الخلق وأهواؤهم وجهالتهم من الله رب الخلق العليم الحكيم الرحمن الرحيم ؟ سبحانه وتعالى .

الحد على الحر الذى قد مَلَّكه نفسه . وأتم عليه نعمته . ولم يجعله مملوكاً لغيره . وجعل حد العبد المنقوص بالرق ، الذى لم يحصل له هذه النعمة : نصف ذلك .

فسبحان من بهرت حكمته فى خلقه وأمره وجزائه عقول العالمين ، وشهدت بأنه أحكم الحاكمين .

لله سر تحت كل لطيفة   فأخو البصائر غائص يتملق

فصل

فى أجناس مايتاب منه

ولا يستحق العبد اسم « التائب » حتى يتخلص منها .

وهى اثنا عشر جنساً مذكورة فى كتاب الله عز وجل . هى أجناس المحرمات : الكفر ، والشرك ، والنفاق ، والفسوق ، والعصيان ، والإثم ، والعدوان ، والفحشاء ، والمنكر ، والبغى ، والقول على الله بلا علم ، واتباع غير سبيل المؤمنين .

فهذه الإثنا عشر جنساً عليها مدار كل ماحرم الله . و إليها انتهاء العالم بأسرهم إلا أتباع الرسل . صلوات الله وسلامه عليهم . وقد يكون فى الرجل أكثرها وأقلها ، أو واحدة منها . وقد يعلم ذلك . وقد لايعلم .

فالتوبة النصوح : هى بالتخلص منها ، والتحصن والتحرز من مواقعتها . و إنما يمكن التخلص منها لمن عرفها .

ونحن نذكرها ، ونذكر ما اجتمعت فيه وما افترقت . لتتبين حدودها وحقائقها . والله الموفق لما وراء ذلك ، كما وفق له . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وهذا الفصل من أنفع فصول الكتاب . والعبد أحوج شىء إليه .

* * *

فأما « الكفر » فنوعان : كفر أكبر ، وكفر أصغر .

فالكفر الأكبر : هو الموجب للخلود فى النار .

والأصغر : موجب لاستحقاق الوعيد دون الخلود . كما فى قوله تعالى — وكان

مما يتلى فنسخ لفظه ـ « لاترغبوا عن آبائكم . فإنه كفر بكم » وقوله صلى الله عليه وسلم فى الحديث « اثنتان فى أمتى ، هما بهم كفر : الطعن فى النسب ، والنياحة » وقوله فى السنن « من أتى امرأة فى دبرها فقد كفر بما أنزل على محمد » وفى الحديث الآخر « من أتى كاهناً أو عَرَّافاً ، فصدقه بما يقول . فقد كفر بما أنزل الله على محمد » وقوله « لاترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » وهذا تأويل ابن عباس وعامة الصحابة فى قوله تعالى (٥ : ٤٤ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) قال ابن عباس « ليس بكفر ينقل عن الملة . بل إذا فعله فهو به كفر . وليس كمن كفر بالله واليوم الآخر » وكذلك قال طاووس . وقال عطاء « هو كفر دون كفر ، وظلم دون ظلم ، وفسق دون فسق » .

ومنهم : من تأول الآية على ترك الحكم بما أنزل الله جاحداً له . وهو قول عكرمة . وهو تأويل مرجوح . فإن نفس جحوده كفر ، سواء حكم أو لم يحكم .

ومنهم : من تأولها على ترك الحكم بجميع ماأنزل الله . قال : ويدخل فى ذلك الحكم بالتوحيد والإسلام . وهذا تأويل عبد العزيز الكنانى . وهو أيضاً بعيد . إذ الوعيد على نفى الحكم بالمنزل . وهو يتناول تعطيل الحكم بجميعه وببعضه .

ومنهم : من تأولها على الحكم بمخالفة النص ، تعمداً من غير جهل به ولا خطإ فى التأويل . حكاه البغوى عن العلماء عموماً .

ومنهم : من تأولها على أهل الكتاب . وهو قول قتادة والضحاك وغيرهما . وهو بعيد ، وهو خلاف ظاهر اللفظ . فلا يصار إليه .

ومنهم : من جعله كفراً ينقل عن الملة .

والصحيح : أن الحكم بغير ماأنزل الله يتناول الكفرين ، الأصغر والأكبر بحسب حال الحاكم . فإنه إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله فى هذه الواقعة ، وعدل عنه عصياناً ، مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة . فهذا كفر أصغر . وإن

اعتقد أنه غير واجب ، وأنه مخير فيه . مع تيقنه أنه حكم الله . فهذا كفر أكبر . وإن جهله وأخطأه : فهذا مخطىء ، له حكم المخطئين .

والقصد : أن المعاصى كلها من نوع الكفر الأصغر . فإنها ضد الشكر ، الذى هو العمل بالطاعة . فالسعى : إما شكر ، وإما كفر ، وإما ثالث . لا من هذا ولا من هذا . والله أعلم .

فصــل

وأما الكفر الأكبر ، فخمسة أنواع : كفر تكذيب ، وكفر استكبار وإباء مع التصديق . وكفر إعراض . وكفر شك . وكفر نفاق .

فأما كفر التكذيب : فهو اعتقاد كذب الرسل . وهذا القسم قليل فى الكفار . فإن الله تعالى أيد رسله ، وأعطاهم من البراهين والآيات على صدقهم ما أقام به الحجة . وأزال به المعذرة . قال الله تعالى عن فرعون وقومه (٢٧ : ١٤ وجحدوا بهـا واستيقنتها أنفسُهم ظلماً وعُلُوًّا) وقال لرسوله صلى الله عليه وسلم (٦ : ٣٣ فإنهم لا يكذبونك . ولـكن الظالمين بآيات الله يجحدون) .

وإن سُمى هذا كفر تكذيب أيضاً فصحيح . إذ هو تكذيب باللسان .

وأما كفر الإباء والاستكبار : فنحو كفر إبليس . فإنه لم يجحد أمر الله ولا قابله بالإنكار . وإنما تلقاه بالإباء والاستكبار . ومن هذا كفر من عرف صدق الرسول . وأنه جاء بالحق من عند الله ، ولم يَنْقَدْ له إباءً واستكباراً . وهو الغالب على كفر أعداء الرسل ، كما حكى الله تعالى عن فرعون وقومه (٢٣ : ٤٧ أنؤمن لبشرين مثلنا ، وقومهما لنا عابدون ؟) وقول الأمم لرسلهم (١٤ : ١٠ إن أنتم إلا بشر مثلنا) وقوله (٩١ : ١١ كذبت ثمود بطغواها) وهو كفر اليهود كما قال تعالى (٢ : ٨٩ فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به) وقال (٢ : ١٤٦ يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) وهو كفر أبى طالب أيضا . فإنه صدقه ولم يشك فى صدقه . ولـكن أخذته الحمية ، وتعظيم آبائه أن يرغب عن ملتهم ، ويشهد عليهم بالكفر

وأما كفر الإعراض : فأن يعرض بسمعه وقلبه عن الرسول ، لا يصدقه ولا يكذبه . ولا يواليه ولا يعاديه . ولا يصغى إلى ماجاء به ألبتة ، كما قال أحد بنى عبد ياليل للنبى صلى الله عليه وسلم « والله أقول لك كلمة . إن كنت صادقا ، فأنت أجلّ فى عينى من أن أرد عليك . وإن كنت كاذبا ، فأنت أحقر من أن أكلمك[1] » .

وأما كفر الشك : فإنه لايجزم بصدقه ولايكذبه ، بل يشك فى أمره . وهذا لايستمر شَكُّه إلا إذا ألزم نفسه الإعراض عن النظر فى آيات صدق الرسول صلى الله عليه وسلم جملة . فلا يسمعها ولا يلتفت إليها . وأما مع التفاته إليها ، ونظره فيها : فإنه لايبقى معه شك . لأنها مستلزمة للصدق . ولا سيما بمجموعها . فإن دلالتها على الصدق كدلالة الشمس على النهار .

وأما كفر النفاق : فهو أن يظهر بلسانه الإيمان، وينطوى بقلبه على التكذيب . فهذا هو النفاق الأكبر . وسيأتى بيان أقسامه إن شاء الله تعالى .

فصل

وكفر الجحود نوعان : كفر مطلق عام ، وكفر مقيد خاص .

فالمطلق : أن يجحد جملةً ماأنزله الله ، وإرساله الرسول .

والخاص المقيد : أن يجحد فرضا من فروض الإسلام ، أو تحريم محرم من محرماته ، أو صفةً وصف الله بها نفسه ، أو خبراً أخبر الله به . عمداً ، أو تقديماً لقول من خالفه عليه لغرض من الأغراض .

وأما جحد ذلك جهلا ، أو تأويلا يُعذر فيه صاحبه : فلا يكفر صاحبه به ، كحديث الذى جحد قدرة الله عليه . وأمر أهله أن يحرقوه ويذروه فى الريح . ومع

---

(١) وهو كفر الملحدين اليوم من المتسمين بأسماء إسلامية ، المقلدين للافرنج من اليهود والنصارى المنحلين عن كل خلق وفضيلة ، زاعمين بجاهليتهم وسفههم : أن هذا هو سبيل الرقى والمدنية .

هذا فقد غفر الله له ، ورحمه لجهله . إذ كان ذلك الذى فعله مبلغ علمه . ولم يجحد قدرة الله على إعادته عنادا أو تـكذيبا .

فصل

وأما الشرك ، فهو نوعان : أكبر وأصغر . فالأكبر : لايغفره الله إلا بالتوبة منه . وهو أن يتخذ من دون الله نداً ، يحبه كما يحب الله . وهو الشرك الذى تضمن تسوية آلهة المشركين برب العالمين . ولهذا قالوا لآلهتهم فى النار (٢٦ : ٩٧ ، ٩٨ تالله إن كنا لفى ضلال مبين * إذ نسويكم برب العالمين) مع إقرارهم بأن الله وحده خالق كل شىء ، وربه ومليكه ، وأن آلهتهم لاتخلق ولا ترزق ، ولاتحيي ولاتميت . وإنما كانت هذه التسوية فى المحبة والتعظيم والعبادة[1] كما هو حال أكثر مشركى العالم ، بل كلهم . يحبون معبوداتهم ويعظمونها ويوالونها من دون الله ؛ وكثير منهم ـ بل أكثرهم ـ يحبون آلهتهم أعظم من محبة الله . ويستبشرون بذكرهم أعظم من استبشارهم إذا ذكر الله وحده . ويغضبون لمنتقص معبوديهم وآلهتهم ـ من المشايخ ـ أعظم مما يغضبون إذا انتقص أحد رب العالمين . وإذا انتهكت حرمة من حرمات آلهتهم ومعبوداتهم غضبوا غضب الليث . إذا حَرِد . وإذا انتهكت حرمات الله لم يغضبوا لها ، بل إذا قام المنتهك لها بإطعامهم شيئاً رضوا عنه . ولم تتنـكر له قلوبهم . وقد شاهدنا هذا نحن وغيرنا منهم جَهرة . وترى أحدهم قد اتخذ ذكر إلهه ومعبوده من دون الله على لسانه دَيْدَناً له إن قام وإن قعد . وإن عثر وإن مرض وإن استوحش . فذكر إلهه ومعبوده من دون الله هو الغالب على قلبه ولسانه . وهو لاينـكر ذلك . ويزعم أنه باب حاجته إلى الله ، وشفيعه عنده . ووسيلته إليه .

---

(١) وكذلك اتخذوهم أربابا يشرعون لهم من الأعيـاد ، ومناسك القبور ، وتقديس الموتى وعبادة الطواغيت . فأحبوهم من جنس حب المؤمن لله . وعظموا آراءهم أعظم من شرائع الله رب العالمين .

وهكذا كان عباد الأصنام سواء . وهذا القدر هو الذى قام بقلوبهم ، وتوارثه المشركون بحسب اختلاف آلهتهم . فأولئك كانت آلهتهم من الحجر[1] وغيرهم اتخذوها من البشر . قال الله تعالى ، حاكيا عن أسلاف هؤلاء المشركين (٣٩ : ٣ والذين اتخذا من دونه أولياء : مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى . إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون) ثم شهد عليهم بالكفر والكذب . وأخبر : أنه لايهديهم فقال (إن الله لايهدى من هو كاذب كفار) .

فهذه حال من اتخذ من دون الله وليا ، يزعم أنه يقربه إلى الله . وما أعز من يخلص من هذا ؟ بل ماأعز من لايعادى من أنكره ! .

والذى فى قلوب هؤلاء المشركين وسلفهم : أن آلهتهم تشفع لهم عند الله . وهذا عين الشرك . وقد أنكر الله عليهم ذلك فى كتابه وأبطله . وأخبر أن الشفاعة كلها له ، وأنه لايشفع عنده أحد إلا لمن أذن الله أن يشفع فيه . ورضى قوله وعمله . وهم أهل التوحيد ، الذين لم يتخذوا من دون الله شفعاء . فإنه سبحانه يأذن لمن شاء فى الشفاعة لهم ، حيث لم يتخذهم شفعاء من دونه . فيكون أسعد الناس بشفاعة من يأذن الله له : صاحب التوحيد الذى لم يتخذ شفيعاً من دون الله ربه ومولاه .

و « الشفاعة » التى أثبتها الله ورسوله : هى الشفاعة الصادرة عن إذنه لمن وَحَّده . والتى نفاها الله : هى الشفاعة الشركية ، التى فى قلوب المشركين ، المتخذين من دون الله شفعاء . فيعامَلون بنقيض قصدهم من شفعائهم . ويفوز بها الموحدون .

---

(١) هذا عجيب من الشيخ ابن القيم رحمه الله . فإنه قرر فى كتابه « إغاثة اللهفان » وغيره من كتبه : أن آلهتهم لم تكن إلا عباداً أمثالهم ، صالحين ، فاتخذوهم أولياء من دون الله . ونصبوا الأنصاب والقباب باسمهم ، وعلى قبورهم وفى الأماكن التى زعموها آثاراً لهم . كما جاء ذلك صريحاً فى كتاب الله (٧ : ١٧٤ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم) ومالا يحصى من الآيات . وجاء عن ابن عباس فى صحيح البخارى فى آلهة قوم نوح .

وتأمل قول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي هريرة ـ وقد سأله « من أسعد الناس بشفاعتك يارسول الله ؟ » ـ قال « أسعد الناس بشفاعتى : من قال لا إله إلا الله ، خالصاً من قلبه » كيف جعل أعظم الأسباب التى تنال بها شفاعته : تجريد التوحيد ، عكس ماعند المشركين : أن الشفاعة تنال باتخاذهم أولياءهم شفعاء ، وعبادتهم وموالاتهم من دون الله . فقلَب النبي صلى الله عليه وسلم ما فى زعمهم الكاذب ، وأخبر أن سبب الشفاعة : هو تجريد التوحيد . فحينئذ يأذن الله للشافع أن يشفع .

ومن جَهْل المشرك : اعتقاده أن من اتخذه ولياً أو شفيعاً : أنه يشفع له ، وينفعه عند الله . كما يكون خواص الملوك والولاة تنفع شفاعتهم من والاهم . ولم يعلموا أن الله لايشفع عنده أحد إلا بإذنه ، ولا يأذن فى الشفاعة إلا لمن رضى قوله وعمله . كما قال تعالى فى الفصل الأول (٢ : ٢٥٥ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه ؟) وفى الفصل الثانى (٢١ : ٢٨ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) وبقى فصل ثالث ، وهو أنه لايرضى من القول والعمل إلا التوحيد ، واتباع الرسول . وعن هاتين الكلمتين يسأل الأولين والآخرين . كما قال أبو العالية « كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون : ماذا كنتم تعبدون ؟ وماذا أجبتم المرسلين ؟ » .

فهذه ثلاثة أصول . تقطع شجرة الشرك من قلب من وعاها وعقلها : لاشفاعة إلا بإذنه . ولا يأذن إلا لمن رضى قوله وعمله . ولايرضى من القول والعمل إلا توحيده ، واتباع رسوله . فالله تعالى : لايغفر شرك العادلين به غيره ، كما قال تعالى (٦ : ١ ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) وأصح القولين : أنهم يعدلون به غيره فى العبادة والموالاة والمحبة ، كما فى الآية الأخرى (٢٦ : ٩٧ ، ٩٨ تالله إن كنا لفى ضلال مبين * إذ نسويكم برب العالمين) وكما فى آية البقرة (٢ : ١٦٥ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله) .

وترى المشرك يكذب حالُه وعملُه قولَه ، فإنه يقول : لا نحبهم كحب الله ،

ولا نسوّيهم بالله . ثم يغضب لهم ولحرماتهم ـ إذا انتهكت ـ أعظم مما يغضب لله ، ويستبشر بذكرهم ، ويتبشبش به . سيما إذا ذكر عنهم ماليس فيهم : من إغاثة اللهفات ، وكشف الكربات ، وقضاء الحاجات ، وأنهم الباب بين الله وبين عباده . فإنك ترى المشرك يفرح ويُسَرُّ وَيَحِنُّ قلبه ، وتهيج منه لواعج التعظيم والخضوع لهم والموالاة ، وإذا ذكرت له الله وحده ، وَجَرَّدْت توحيده لحقتْه وَحْشَة ، وضيق ، وحرج[1] ورماك بنقص الإلٰهية التي له . وربما عاداك .

رأينا والله منهم هذا عياناً ، ورمونا بعداوتهم . وبغوا لنا الغوائل . والله مخزيهم فى الدنيا والآخرة . ولم تكن حجتهم إلا أن قالوا ، كما قال إخوانهم : عاب آلهتنا ، فقال هؤلاء : تنقصتم مشايخنا ، وأبواب حوائجنا إلى الله . وهكذا قال النصارى للنبى صلى الله عليه وسلم ، لما قال لهم « إن المسيح عبد الله » قالوا : تنقصت المسيح وَعِبْته . وهكذا قال أشباه المشركين لمن منع اتخاذ القبور أوثاناً تعبد ، ومساجد تقصد ، وأمر بزيارتها على الوجه الذى أذن الله فيه ورسوله ، قالوا : تنقصت أصحابها .

---

(١) قال الله تعالى (٣٩ : ٤٥ وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لايؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون) والشرك الجديد هو بعينه القديم . ومنشؤ هذا جميعه : التكذيب بيوم الدين ، وأنه ليس على ماوصف الله العليم الحكيم ، من الجزاء العادل ، ووزن الأعمال بالقسط . وإنما هو ـ كما زعموا ـ بالأغراض والشفاعات التى لايقدر الله ـ بزعمهم ـ على دفعها . وليست هذه هى الآخرة التى وصفها الله ، وحذر عباده مواقفها . والمشركون ـ قديماً وحديثا ـ يعتقدون أن أولياءهم فيهم شيء من خصائص الرب . ولذلك فهم ينادونهم ،وقد ماتوا ودفنوهم . ويزعمون أنهم أحياء ليست حياة قبور وسؤال فيها . ولكن من جنس حياة الرب ـ سبحانه ـ يقدرون بها وفيها على ما لا يقدر عليه البشر الأحياء ، فضلا عن الموتى . فلما جاءت الرسل يقولون لهم : إنهم بشر ماتوا . قالوا لهم : أنتم تسبون آلهتنا و تنتقصونها . وأذكر : أنى يوماً كنت فى مجلس فيه طاغوت من طواغيت عبادة القبور . فهتف : ياسيدى فلان . فهتفت : لاإله إلا الله وحده لا شريك له . فانتفض كأن حية لدغته . وقام فاراً يؤزه الشيطان أزاً عنيفا .

فانظر إلى هذا التشـابه بين قلوبهم ، حتى كأنهم قد تواصوا به (١٨ : ١٧ ومن يهدى الله فهو المهتدى . ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً) .

وقد قطع الله تعالى كل الأسباب التى تعلَّقَ بها المشركون جميعاً ، قطعاً يعلم من تأمله وعرفه : أن من اتخذ من دون الله ولياً ، أو شفيعاً . فهو (٢٩ : ٤١ كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً . وَإِنَّ أَوْهَنَ البيوتِ لبيتُ العنكبوتِ) فقال تعـالى (٣٤ : ٢٢ ، ٢٣ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله . لايملـكون مثقال ذَرَّةٍ فى السموات ولا فى الأرض ، ومالهم فيهما من شِركٍ ، وماله منهم من ظَهِير . ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) .

فالمشرك إنما يتخذ معبوده لمـا يعتقد أنه يحصل له به من النفع . والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع : إما مالك لما يريده عابده منه . فإن لم يكن مالـكا كان شريكا للمالك . فإن لم يكن شريكا له كان معيناً له وظَهيراً ، فإن لم يكن معيناً ولا ظهيراً كان شفيعاً عنده .

فنفى سبحانه المراتب الأربع نفياً مترتباً ، متنقلاً من الأعلى إلى مادونه ، فنفَى الْمِلْكَ ، والشركة ، والمظاهرة ، والشفاعة ، التى يظنها المشرك . وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك ، وهى الشفاعة بإذنه .

فـكفى بهذه الآية نوراً ، و برهاناً ونجاة ، وتجريداً للتوحيد ، وقطعاً لأصول الشرك وموَادِّهِ لمن عَقَلَهَا . والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها . ولـكن أكثر الناس لايشعرون بدخول الواقع تحته ، وتضمنه له . و يظنونه فى نوع وفى قوم قد خلوا من قبل ولم يُعْقِبوا وارثاً . وهذا هو الذى يحول بين القلب و بين فهم القرآن .

ولعمر الله إن كان أولئك قد خلوا ، فقد ورثهم من هو مثلهم ،أو شر منهم ، أو دونهم . وتناولُ القرآن لهم كتناوله لأولئك . ولـكن الأمر كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه « إنما تنقض عُرَى الإسلام عروة عروة ، إذا نشأ فى الإسلام من لايعرف الجاهلية » .

وهذا لأنه إذا لم يعرف الجاهلية والشرك ، وما عابه القرآن وذمه : وقع فيه وأقره ، ودعا إليه وصَوَّبه وحسنه . وهو لا يعرف : أنه هو الذى كان عليه أهل الجاهلية ، أو نظيره . أو شر منه ، أو دونه . فينقض بذلك عرى الإسلام عن قلبه . ويعود المعروف منكراً ، والمنكر معروفاً ، والبدعة سنة ، والسنة بدعة . ويكَفَّر الرجل بمحض الإيمان وتجريد التوحيد . ويُبَدَّع بتجريد متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم ومفارقة الأهواء والبدع . ومن له بصيرة وقلب حَىّ يرى ذلك عياناً ، والله المستعان .

فصل

وأما الشرك الأصغر : فكيسير الرياء ، والتصنع للخلق ، والحَلِف بغير الله ، كما ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « من حلف بغير الله فقد أشرك[1] » وقول الرجل للرجل « ماشاء الله وشئت » و « هذا من الله ومنك » و « أنا بالله وبك » و « مالى إلا الله وأنت » و « أنا متوكل على الله وعليك » و « لولا أنت لم يكن كذا وكذا » وقد يكون هذا شركا أكبر ، بحسب قائله ومقصده . وصح عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال لرجل قال له «ماشاء الله وشئت» : «أجعلتنى لله نداً ؟ قل : ماشاء الله وحده » وهذا اللفظ أخف من غيره من الألفاظ .

ومن أنواع الشرك : سجود المريد للشيخ . فإنه شرك من الساجد والمسجود له . والعجب : أنهم يقولون : ليس هذا سجود ، وإنما هو وضع الرأس قدام الشيخ احتراماً وتواضعاً . فيقال لهؤلاء : ولو سميتموه ماسميتموه . فحقيقة السجود :

---

(١) إنما كان الحلف بغير الله شركا عظيما . لأن حقيقة اليمين ومقتضاه : أن الحالف يؤكد صدق خبره بأنه لو كان كاذباً ينتقم منه المحلوف به انتقاماً لايقدر هو — ولا أحد من البشر — أن يدفعه . لأن المحلوف به يقدر أن يوصل انتقامه وبطشه من طريق فوق قدرة البشر وطاقتهم . وهذا لا يكون إلا الله القوى المتين ذو البطش الشديد ، الفعال لما يريد

وضع الرأس لمن يسجد له . وكذلك السجود للصنم ، وللشمس ، وللنجم ، وللحجر ، كله وضع الرأس قدامه (١)

ومن أنواعه : ركوع المتعممين بعضهم لبعض عند الملاقاة . وهذا سجود فى اللغة . وبه فسر قوله تعالى (٢ : ٥٨ ادخلوا الباب سجداً) أى مُنْحَنين ، وإلا فلا يمكن الدخول بالجبهة على الأرض . ومنه قول العرب : سجدت الأشجار ، إذا أمالتها الريح .

ومن أنواعه : حلق الرأس للشيخ . فإنه تعَبُّدٌ لغير الله ، ولا يُتَعَبَّدُ بحلق الرأس إلا فى النسك لله خاصة .

ومن أنواعه : التوبة للشيخ . فإنها شرك عظيم . فإن التوبة لاتكون إلا لله . كالصلاة ، والصيام ، والحج ، والنسك . فهى خالص حق الله .

وفى المسند : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أُتى بأسير . فقال : اللهم إنى أتوب إليك . ولا أتوب إلى محمد . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : عرف الحق لأهله » .

فالتوبة عبادة لا تنبغى إلا لله . كالسجود والصيام .

ومن أنواعه : النذر لغير الله . فإنه شرك . وهو أعظم من الحلف بغير الله . فإذا كان « من حلف بغير الله فقد أشرك » فكيف بمن نذر لغير الله ؟ مع أن فى السنن من حديث عقبة بن عامر عنه صلى الله عليه وسلم « النذر حِلْفة » .

ومن أنواعه : الخوف من غير الله ، والتوكل على غير الله ، والعمل لغير الله ، والإنابة والخضوع ، والذل لغير الله . وابتغاء الرزق من عند غيره ، وحمد غيره على ما أعطى . والغُنْية بذلك عن حمده سبحانه ، والذم والسخط على مالم يقسمه ، ولم

(١) وليس هذا السجود وحده شركا أكبر . بل لعل أعظم منه : سجود القلب بالخضوع والذل والانقياد والاستسلام لما يبتدعه السادة المستكبرون الطواغيت للمستضعفين التابعين من عبادات وتقاليد جاهلية ، فلعل المستضعف يعيش طول حياته ساجداً لشيخه وطاغوته ، مع أنه لم يره مرة واحدة فى طول عمره .

يَجْرِ به القدر ، و إضافة نعمه إلى غيره ، واعتقاد أن يكون فى الـكون مالا يشاؤه .

ومن أنواعه : طلب الحوائج من الموتى ، والاستعانة بهم ، والتوجه إليهم .

وهذا أصل شرك العالم . فإن الميت قد انقطع عمله . وهو لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ، فضلاً عمن استغاث به ، وسأله قضاء حاجته ، أو سأله أن يشفع له إلى الله فيها . وهذا من جهله بالشافع والمشفوع له عنده ، كما تقدم . فإنه لا يقدر أن يشفع له عند الله إلا بإذنه . والله لم يجعل استغاثته وسؤاله سبباً لإذنه . و إنما السبب لإذنه : كمال التوحيد . فجاء هذا المشرك بسبب يمنع الإذن . وهو بمنزلة من استعان فى حاجة بما يمنع حصولها . وهذه حالة كل مشرك . والميت محتاج إلى من يدعو له ، و يترحَّم عليه ، و يستغفر له ، كما أوصانا النبي صلى الله عليه وسلم ، إذا زرنا قبور المسلمين « أن نترحم عليهم . ونسأل لهم العافية والمغفرة » فعكس المشركون هذا . وزاروهم زيارة العبادة . واستقضاء الحوائج ، والاستغاثة بهم . وجعلوا قبورهم أوثاناً تُعبد . وسموا قصدها حجًّا . واتخذوا عندها الوقْفَة وحلق الرأس . فجمعوا بين الشرك بالمعبود الحق ، وتغيير دينه ، ومعاداة أهل التوحيد ، ونسبة أهله إلى التنقص للأموات . وهم قد تنقصوا الخالق بالشرك ، وأولياءه ـ الموحدين له ، الذين لم يشركوا به شيئاً ـ بذمهم وعيبهم ومعاداتهم . وتنقصوا من أشركوا به غاية التنقص . إذ ظنوا أنهم راضون منهم بهذا . وأنهم أمروهم به . وأنهم يوالونهم عليه . وهؤلاء هم أعداء الرسل والتوحيد فى كل زمان ومكان . وما أكثر المستجيبين لهم ! ولله خليله ابراهيم عليه السلام حيث يقول (١٤ : ٣٥ ، ٣٦ واجْنُبْنِي وَبَنِيّ أن نعبدَ الأصنام * رب إنهن أضللنَ كثيراً من الناس)

وما نجا من شَرَك هذا الشرك الأكبر إلا من جرد توحيده لله . وعادى المشركين فى الله . وتقرب بمقتهم إلى الله . واتخذ الله وحده وليه و إلٰهه ومعبوده . فجرد حبه لله ، وخوفه لله ، ورجاءه لله ، وذله لله ، وتوكله على الله ، واستعانته بالله ، والتجاءه إلى الله ، واستغاثته بالله . وأخلص قصده لله ، متبعاً لأمره ، متطلباً

لمرضاته . إذا سأل سأل الله . و إذا استعان استعان بالله ، و إذا عمل عمل لله . فهو لله . وبالله . ومع الله .

والشرك أنواع كثيرة . لا يحصيها إلا الله .

ولو ذهبنا نذكر أنواعه لاتّسع الكلام أعظم اتساع ، ولعل الله أن يساعد بوضع كتاب فيه ، وفى أقسامه ، وأسبابه ومباديه ، ومضرته ، وما يندفع به .

فإن العبد إذا نجا منه ومن التعطيل — وهما الداءان اللذان هلكت بهما الأمم — فما بعدهما أيسر منهما . و إن هلك بهما فبسبيل من هلك . ولا آسى على الهالكين

فصل

وأما النفاق : فالداء العضال الباطن ، الذى يكون الرجل ممتلئاً منه ، وهو لا يشعر . فأنه أمر خفى على الناس . وكثيراً ما يخفى على من تلبس به . فيزعم أنه مصلح وهو مفسد .

وهو نوعان : أكبر ، وأصغر .

فالأكبر : يوجب الخلود فى النار فى دركها الأسفل . وهو أن يُظهر للمسلمين إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . وهو فى الباطن منسلخ من ذلك كله مكذب به . لا يؤمن بأن الله تكلم بكلام أنزله على بشر جعله رسولاً للناس ، يهديهم بإذنه . و ينذرهم بأسه ، و يخوفهم عقابه .

وقد هتك الله سبحانه أستار المنافقين . وكشف أسرارهم فى القرآن . وجلّى لعباده أمورهم . ليكونوا منها ومن أهلها على حذر . وذكر طوائف العالم الثلاثة فى أول سورة البقرة : المؤمنين ، والكفار ، والمنافقين . فذكر فى المؤمنين أربع آيات . وفى الكفار آيتين . وفى المنافقين ثلاث عشرة آية . لكثرتهم وعموم الابتلاء بهم . وشدة فتنتهم على الإسلام وأهله . فإن بلية الإسلام بهم شديدة جداً . لأنهم منسوبون إليه ، و إلى نصرته وموالاته ، وهم أعداؤه فى الحقيقة .

يخرجون عداوته فى كل قالب يظن الجاهل أنه عِلْم و إصلاح . وهو غاية الجهل والإفساد .

فلله كم من معقل للإسلام قد هدموه ؟ ! وكم من حِصْن له قد قلعوا أساسه وخربوه ؟ ! وكم من عَلَمٍ له قد طمسوه ؟ ! وكم من لواء له مرفوع قد وضعوه ؟ ! وكم ضربوا بمعاول الشُّبَه فى أصول غراسه ليقلعوها ؟ ! وكم عَمُّوا عيون موارده بآرائهم ليدفنوها و يقطعوها ؟ ! .

فلا يزال الإسلام وأهله منهم فى محنة و بلية . ولا يزال يطرقه من شُبَهِهم سَرِيَّةٌ بعد سرية . ويزعمون أنهم بذلك مصلحون (٢ : ١٢ ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون) * (٦١ : ٨ يريدون لِيُطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون) .

اتفقوا على مفارقة الوحى . فهم على ترك الاهتداء به مجتمعون (٢٣ : ٥٣ وتقطعوا أمرهم بينهم زُبُرًا . كل حزب بما لديهم فرحون) * (٦ : ١١٢ يُوحِى بعضهم إلى بعض زُخْرُفَ القول غروراً) ولأجل ذلك (٢٥ : ٣٠ اتخذوا هذا القرآن مهجوراً) .

دَرَسَت معالم الإيمان فى قلوبهم فليسوا يعرفونها . ودَثَرت معاهده عندهم فليسوا يعمرونها ، وأفَلَت كواكبه النيرة من قلوبهم فليسوا يحيونها . وكَسَفت شمسه عند اجتماع ظلم آرائهم وأفكارهم فليسوا يبصرونها . لم يقبلوا هدى الله الذى أرسل به رسوله . ولم يرفعوا به رأساً . ولم يروا بالإعراض عنه إلى آرائهم وأفكارهم بأسا . خلعوا نصوص الوحى عن سلطنة الحقيقة . وعزلوها عن ولاية اليقين . وشَنُّوا عليها غارات التأويلات الباطلة . فلا يزال يخرج عليها منهم كَمِين بعد كمين . نزلت عليهم نزول الضيف على أقوام لِئام . فقابلوها بغير ماينبغى لها من القبول والإكرام . وتلقوها من بعيد ، ولكن بالدفع فى الصدور منها والأعجاز . وقالوا : مالكِ عندنا من عبور — و إن كان لابد — فعلى سبيل الاجتياز . أعدُّوا

لدفعها أصناف العدد وضروب القوانين ، وقالوا ـ لما حلّت بساحتهم ـ : مالنا ولظواهر لفظية لا تفيدنا شيئاً من اليقين . وعوامّهم قالوا : حسبنا ماوجدنا عليه خلفنا من المتأخرين . فإنهم أعلم بها من السلف الماضين ، وأقوم بطرائق الحجج والبراهين . وأولئك غلبت عليهم السذاجة وسلامة الصدور . ولم يتفرغوا لتمهيد قواعد النظر ، ولكن صرفوا هِمَمهم إلى فعل المأمور وترك المحظور . فطريقة المتأخرين : أعلم وأحكم . وطريقة السلف الماضين : أجهل ، لكنها أسلم .

أنزلوا نصوص السنة والقرآن ، منزلة الخليفة فى هذا الزمان ، اسمه على السّكة وفى الخطبة فوق المنابر مرفوع . والحكم النافذ لغيره . فحكمه غير مقبول ولا مسموع .

(لبسوا ثياب أهل الإيمان ، على قلوب أهل الزيغ والخسران ، والغل والكفران . فالظواهر ظواهر الأنصار . والبواطن قد تحيّزت إلى الكفار . فألسنتهم ألسنة المسالمين . وقلوبهم قلوب المحاربين . ويقولون (٢:٨ آمنا بالله و باليوم الآخر وما هم بمؤمنين) .

(رأس مالهم الخديعةُ والمكر . و بضاعتهم الكذب والخَتْر . وعندهم العقل المعيشى : أن الفريقين عنهم راضون . وهم بينهم آمنون (٢:٩ يخادعون الله والذين آمنوا . وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون) .

قد نَهِكَت أمراض الشبهات والشهوات قلوبهم فأهلكتها . وغلبت القصود السيئة على إراداتهم ونيّاتهم فأفسدتها . ففسادهم قد ترامى إلى الهلاك ، فعجز عنه الأطباء العارفون (٢ : ١٠ فى قلوبهم مرض . فزادهم الله مرضاً ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون) .

من عَلَقت مخالب شكوكهم بأديم إيمانه مزّقته كل تمزيق . ومن تعلّق شَرَرُ فتنتهم بقلبه ألقاه فى عذاب الحريق . ومن دخلت شبهات تلبيسهم فى مسامعه حال بين قلبه و بين التصديق . ففسادهم فى الأرض كثير . وأكثر الناس عنه

غافلون (٢:١١،١٢ و إذا قيل لهم لاتفسدوا فى الأرض قالوا : إنما نحن مُصلحون * ألا إنهم هم المفسدون ولـكن لا يشعرون) .

المتمسك عندهم بالـكتاب والسنة صاحب ظواهر ، مبخوس حظه من المعقول والدائر مع النصوص عندهم كحمار يحمل أسفاراً . فهَمُّه فى حمل المنقول . و بضاعة تاجر الوحى لديهم كاسدة ، وما هو عندهم بمقبول . وأهل الاتباع عندهم سفهاء فهم فى خلواتهم ومجالسهم بهم يتطيرون (٢ : ١٣ و إذا قيل لهم : آمنوا كما آمن الناس . قالوا : أنؤمن كما آمن السفهاء ؟ ألا إنهم هم السفهاء ولـكن لا يعلمون)

لـكل منهم وجهان . وجه يلقى به المؤمنين ، ووجه ينقلب به إلى إخوانه من الملحدين . وله لسانان : أحدهما يقبله بظاهره المسلمون ، والآخر يترجم به عن سره المـكنون (٢ : ١٤ و إذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا . و إذا خلوا إلى شياطينهم قالوا : إنا معكم ، إنما نحن مستهزئون)

قد أعرضوا عن الـكتاب والسنة استهزاءً بأهلهما واستحقاراً . وأبوا أن ينقادوا لحـكم الوحيين فرحاً بما عندهم من العلم الذى لاينفع الاستكثار منه أشَراً واستكبارا . فتراهم أبداً بالمتمسكين بصريح الوحى يستهزئون (٢ : ١٥ الله يستهزىء بهم ويَمُدُّهم فى طغيانهم يعمهون)

خرجوا فى طلب التجارة البائرة فى بحار الظلمات . فركبوا مراكب الشُّبَه والشكوك تجرى بهم فى موج الخيالات . فلعبت بسُفنهم الريح العاصف . فألقتها بين سُفن الهالـكين (٢ : ١٦ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى . فما ربحت تجارتهم ، وما كانوا مهتدين)

أضاءت لهم نار الإيمان فأبصروا فى ضوئها مواقع الهدى والضلال . ثم طُفىء ذلك النور ، و بقيت ناراً تأَجَّجُ ذاتَ لهب واشتعال . فهم بتلك النار معذبون . وفى تلك الظلمات يعمهون (٢ : ١٧ مَثَلُهم كمثل الذى استوقد نارًا . فلما أضاءت ماحوله : ذهب الله بنورهم ، وتركهم فى ظلمات لايبصرون)

أسماع قلوبهم قد أثقلها الوقْر . فهى لاتسمع منادى الإيمان . وعيون بصائرهم عليها غشاوة العمى . فهى لاتبصر حقائق القرآن . وألسنتهم بها خَرَس عن الحق فهم به لاينطقون (٢ : ١٨ صمٌ بكمٌ عمى فهم لايرجعون))

صابَ عليهم صَيِّب الوحى ، وفيه حياة القلوب والأرواح . فلم يسمعوا منه إلا رَعْد التهديد والوعيد والتكاليف التى وُظِّفت عليهم فى المساء والصباح . فجعلوا أصابعهم فى آذانهم ، واستغشوا ثيابهم . وجدوا فى الهرب . والطلبُ فى آثارهم والصياح . فنودى عليهم على رءوس الأشهاد . وكُشفت حالهم للمستبصرين ، وضُرِبَ لهم مثلان بحسب حال الطائفتين منهم : المناظرين ، والمقلدين . فقيل (٢ : ١٩ أو كَصَيِّب من السماء فيه ظلمات ورعد و برق . يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حَذَر الموت . والله محيط بالكافرين)

ضعفت أبصار بصائرهم عن احتمال مافى الصيب من بروق أنواره وضياء معانيه . وعجزت أسماعهم عن تلقى رُعود وعوده وأوامره ونواهيه . فقاموا عند ذلك حيارَى فى أودية التيه . لاينتفع بسمعه السامع . ولا يهتدى ببصره البصير . (٢ : ٢٠ كلما أضاء لهم مشوا فيه . و إذا أظلم عليهم قاموا . ولو شاء الله لذهب بسمعهم و أبصارهم . إن الله على كل شىء قدير)

لهم علامات يُعرفون بها مبينة فى السنة والقرآن . بادية لمن تدبرها من أهل بصائر الإيمان . قام بهم — والله — الرياء . وهو أقبح مقام قامه الإنسان وقعد بهم الكسل عما أمروا به من أوامر الرحمن . فأصبح الإخلاص عليهم لذلك ثقيلا (٤ : ١٤٣ و إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كُسَالَى . يراءون الناس . ولا يذكرون الله إلا قليلا) .

أحدهم كالشاة العائرة بين الغَنَمين ، تَيْعَر إلى هذه مرة و إلى هذه مرة . ولا تستقر مع إحدى الفئتين . فهم واقفون بين الجمعين . ينظرون أيُّهم أقوى وأعز

قبيلا (٤ : ١٤٣ مُذَبذبين بين ذلك . لا إلى هؤلاء ، ولا إلى هؤلاء . ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا) .

يتربصون الدوائر بأهل السنة والقرآن . فإن كان لهم فتح من الله ، قالوا : ألم نكن معكم ؟ وأقسموا على ذلك بالله جهد أيمانهم . وإن كان لأعداء الكتاب والسنة من النصرة نصيب ، قالوا : ألم تعلموا أن عقد الإخاء بيننا محكم . وأن النسب بيننا قريب ؟ فيا من يريد معرفتهم ، خذ صفاتهم من كلام رب العالمين . فلا تحتاج بعده دليلاً (٤ :١٤١ الذين يتربصون بكم . فإن كان لكم فتح من الله ، قالوا : ألم نكن معكم ؟ وإن كان للكافرين نصيب ، قالوا : ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين ؟ فالله يحكم بينكم يوم القيامة . ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا) .

يعجب السامعَ قولُ أحدهم لحلاوته ولينه . ويُشْهِد الله على مافى قلبه من كذبه ومَيْنه . فتراه عند الحق نائماً . وفى الباطل على الأقدام . فخذ وصفهم من قول القدوس السلام (٢ : ٢٠٤ ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على مافى قلبه . وهو ألَدُّ الخصام) .

أوامرهم التى يأمرون بها أتباعهم متضمنة لفساد البلاد والعباد . ونواهيهم عما فيه صلاحهم فى المعاش والمعاد . وأحدهم تلقاه بين جماعة أهل الإيمان فى الصلاة والذكر والزهد والاجتهاد (٢ : ٢٠٥ وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل . والله لايحب الفساد) .

فهم جنس بعضه يشبه بعضاً . يأمرون بالمنكر بعد أن يفعلوه . وينهون عن المعروف بعد أن يتركوه . ويبخلون بالمال فى سبيل الله ومرضاته أن ينفقوه . كم ذكَّرهم الله بنعمه فأعرضوا عن ذكره ونسوه ؟ وكم كشف حالهم لعباده المؤمنين ليجتنبوه ؟ فاسمعوا أيها المؤمنون (٩ : ٦٧ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض

يأمرون بالمنكر . وينهون عن المعروف . ويقبضون أيديهم ، نسوا الله فنسيهم . إن المنافقين هم الفاسقون) .

إن حاكمتهم إلى صريح الوحي وجدتهم عنه نافرين . وإن دعوتهم إلى حكم كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم رأيتهم عنه معرضين . فلو شهدت حقائقهم لرأيت بينها وبين الهدى أمداً بعيداً . ورأيتها معرضة عن الوحي إعراضاً شديداً (٤ : ٦١ وإذا قيل لهم : تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ، رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً) .

فكيف لهم بالفلاح والهدى ! بعد ما أصيبوا فى عقولهم وأديانهم ؟ وأنى لهم التخلص من الضلال والردى ! وقد اشتروا الكفر بإيمانهم ؟ فما أخسر تجارتهم البائرة ! وقد استبدلوا بالرحيق المختوم حريقاً (٤:٦٢ فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم . ثم جاءوك يحلفون بالله : إن أردنا لا إحساناً وتوفيقاً) .

نَشَبَ زَقوم الشبه والشكوك فى قلوبهم ، فلا يجدون له مسيغاً (٤:٦٣ أولئك الذين يعلم الله مافى قلوبهم . فأعرض عنهم وعظهم ، وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغاً)

تبًّا لهم ، ما أبعدهم عن حقيقة الإيمان ! وما أكذب دعواهم للتحقيق والعرفان . فالقوم فى شأن وأتباع الرسول فى شأن . لقد أقسم الله جل جلاله فى كتابه بنفسه المقدسة قسما عظيما ، يعرف مضمونه أولو البصائر . فقلوبهم منه على حذر إجلالا له وتعظيما . فقال تعالى تحذيراً لأوليائه وتنبيهاً على حال هؤلاء وتفهيما (٤:٦٥ فلا . وربك ، لايؤمنون حتى يحكموك فيما شَجَر بينهم . ثم لايجدوا فى أنفسهم حَرَجاً مما قضيت . ويسلموا تسليما) .

تسبق يمين أحدهم كلامه من غير أن يُعترض عليه . لعلمه أن قلوب أهل الإيمان لاتطمئن إليه . فيتبرأ بيمينه من سوء الظن به وكشف مالديه . وكذلك أهل الريبة يكذبون . ويحلفون ليحسب السامع أنهم صادقون ، قد (٦٣ : ٢ اتخذوا أيمانهم جُنة . فصدوا عن سبيل الله . إنهم ساء ما كانوا يعملون) .

تبًّا لهم ! برزوا إلى البيداء مع ركب الإيمان . فلما رأوا طول الطريق و بُعْد الشقة نكصوا على أعقابهم ورجعوا ، وظنوا أنهم يتمتعون بطيب العيش ولذة المنام فى ديارهم . فما مُتِّعوا به ولا بتلك الهجعة انتفعوا . فما هو إلا أن صاح بهم الصائح فقاموا عن موائد أطعمتهم والقوم جياع ماشبعوا . فكيف حالهم عند اللقاء ؟ وقد عرفوا ثم أنكروا . وعموا بعد ماعاينوا الحق وأبصروا (٦٣ : ٣ ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا . فطُبع على قلوبهم . فهم لايفقهون) .

أحسن الناس أجساماً ، وأخْلَبهم لساناً . وألطفهم بياناً . وأخبثهم قلوباً . وأضعفهم جَناناً . فهم كالخشُب المسندة التى لا ثمر لها . قد قُلعت من مغارسها فتساندت إلى حائط يقيمها ، لئلا يطأها السالكون (٦٣:٤ و إذا رأيتهم تعجبك أجسامهم . و إن يقولوا تسمع لقولهم . كأنهم خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ . يحسبون كل صيحة عليهم . هم العدو . فاحذرهم ! قاتلهم الله . أنَّى يؤفكون ؟) .

يؤخرون الصلاة عن وقتها الأول إلى شَرَق الموتى[1] فالصبح عند طلوع الشمس والعصر عند الغروب . و ينقرونها نقْر الغراب . إذ هى صلاة الأبدان ، لاصلاة القلوب . و يلتفتون فيها التفات الثعلب ، إذ يتيقن أنه مطرود مطلوب . ولا يشهدون الجماعة ، بل إن صلى أحدهم ففى البيت أو الدكان . و إذا خاصم فجر . و إذا عاهد غدر . و إذا حدث كذب . و إذا وعد أخلف . و إذا ائتمن خان . هذه معاملتهم للخلق . وتلك معاملتهم للخالق . فخذ وصفهم من أول المطففين ، وآخر (والسماء والطارق) فلا ينبئك عن أوصافهم مثل خبير (٧٣:٩ يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم . ومأواهم جهنم و بئس المصير) فما أكثرهم ! وهم

(١) قال فى القاموس : شرقت الشمس : ضعف ضوءها ، أو دنت للغروب . وأضافه صلى الله عليه وسلم إلى الموتى فقال « يؤخرون الصلاة إلى شرق الموتى » لأن ضوءها عند ذلك الوقت ساقط على المقابر ، أو أراد : أنهم يصلونها ولم يبق من النهار إلا بقدر مايبقى من نفس المحتضر إذا شرق بريقه اهـ .

الأقلون . وما أجبرهم ! وهم الأذلون . وماأجهلهم ! وهم المتعالمون . وماأغرهم بالله ! إذ هم بعظمته جاهلون (٩ : ٥٦ و يحلفون بالله إنهم لمنكم . وما هم منكم . ولـكنهم قوم يَفْرَقون) .

إن أصاب أهل الـكتاب والسنة عافية ونصر وظهور ساءهم ذلك وغَمَّهم . و إن أصابهم ابتلاء من الله وامتحان يمحص به ذنوبهم ، و يكفر به عنهم سيئاتهم أفرحهم ذلك وسرهم . وهذا يحقق إرثهم و إرث من عداهم ، ولا يستوى من موروثه الرسول ومن موروثهم المنافقون (٩ : ٥٠، ٥١ إن تصبك حسنة تسؤهم . وإن تصبك مصيبة يقولوا : قد أخذنا أمرنا من قبل . و يتولوا وهم فرحون * قل : لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا . هو مولانا . وعلى الله فليتوكل المؤمنون) وقال تعالى فى شأن السَّلَفين المختلفين ، والحق لايندفع بمكابرة أهل الزيغ والتخليط ، (٣ : ١٢٠ إن تمسسكم حسنة تسؤهم . و إن تصبكم سيئة يفرحوا بها . و إن تصبروا وتتقوا لايضركم كيدهم شيئاً ، إن الله بما يعملون محيط) .

كره الله طاعاتهم ، لخبث قلوبهم وفساد نياتهم . فثَبَّطَهم عنهـا وأقعدهم . وأبغض قُرْبهم منه وجواره ، لميلهم إلى أعدائه . فطردهم عنه وأبعدهم . وأعرضوا عن وحيه فأعرض عنهم . وأشقاهم وما أسعدهم . وحكم عليهم بحكم عدل لامطمع لهم فى الفلاح بعده ، إلا أن يكونوا من التائبين . فقال تعالى (٩ : ٤٦ ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عُدَّة . ولـكن كره الله انبعاثهم . فثبطهم . وقيل : اقعدوا مع القاعدين) ثم ذكر حكمته فى تثبيطهم و إقعادهم ، وطردهم عن بابه و إبعادهم ، وأن ذلك من لطفه بأوليائه و إسعادهم . فقال ، وهو أحكم الحاكمين (٩ : ٤٧ لو خرجوا فيـكم ما زادوكم إلا خَبَالا . ولأوضعوا خِلالـكم . يَبغونـكم الفتنةَ . وفيكم سَمَّاعون لهم . والله عليم بالظالمين) .

ثقلت عليهم النصوص فـكرهوها . وأعياهم حملها فألقوها عن أكتافهم ووضعوها . وتفلتت منهم السنن أن يحفظوها فأهملوها . وصالت عليهم نصوص

الـكتاب والسنة فوضعوا لها قوانين ردوها بها ودفعوها . ولقد هتك الله أستارهم . وكشف أسرارهم ، وضرب لعباده أمثالهم . وأعلم أنه كلما انقرض منهم طوائف خلفهم أمثالهم . فذكر أوصافهم . لأوليائه ليكونوا منها على حذر . و بينها لهم . فقال (٤٧ : ٩ ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم) .

هذا شأن من ثقلت عليه النصوص ، فرآها حائلة بينه و بين بدعته وهواه . فهى فى وجهه كالبنيان المرصوص . فباعها بمحصَّل من الـكلام الباطل . واستبدل منها بالفصوص[1] فأعقبهم ذلك أن أفسد عليهم إعلانهم و إسرارهم (٤٧ : ٢٠٦-٢٨ ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا مانزل الله : سنطيعكم فى بعض الأمر . والله يعلم إسرارهم . فـكيف إذا توفَّتهم الملائـكة يضر بون وجوههم وأدبارهم ؟ * ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله ، وكرهوا رضوانه . فأحبط أعمالهم) .

أسرّوا سرائر النفاق . فأظهرها الله على صفحات الوجوه منهم ، وفلتات اللسان . ووسَمهم لأجلها بسيماء لايخفون بها على أهل البصائر والإيمان . وظنوا أنهم إذ كتموا كفرهم وأظهروا إيمانهم راجوا على الصيارف والنقاد . كيف ؟ والناقد البصير قد كشفها لـكم (٤٧ : ٢٩ ، ٣٠ أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم ؟ ولو نشاء لأريناكهم . فلعرفتهم بسيماهم * ولتعرفنهم فى لَحْن القول . والله يعلم أعمالـكم) .

فـكيف إذا جُمعوا ليوم التلاق ، وتجلَّى الله ـ جلّ جلاله ـ للعباد وقد كُشف عن ساق ؟ ودُعوا إلى السجود فلا يستطيعون (٦٨ : ٤٣ خاشعة أبصارهم تَرهَقهم ذِلةٌ . وقد كانوا يدعون إلى السجود وهم سالمون) .

---

(١) هو كتاب « الفصوص » لابن عربى الاتحادى الذى قرر فيه أن الأنبياء كلهم ضلال جاهلون ، وأن فرعون كان أعرف بالحق وأهدى إليه من موسى ، وعلل حب الرسول صلى الله عليه وسلم للنساء بما تقشعر منه الأبدان ، ولا يستطيع المسلم أن يحكيه لتناهيه فى الشناعة والوقاحة فى الـكفر . فهو مع حبيبه فرعون . قد برىء من الأنبياء والمرسلين . والعجب ممن يعتذر له عن مقالاته الشنيعة .

أم كيف بهم إذا حُشروا إلى جسر جهنم ؟ وهو أدق من الشعرة ، وأَحَدُّ من الحسام . وهو دَحَض مزَلَّة ، مُظلم لايقطعه أحد إلا بنور يبصر به مواطىء الأقدام . فقُسِّمت بين الناس الأنوارُ . وهم على قدر تفاوتها فى المرور والذهاب . وأُعْطوا نوراً ظاهراً مع أهل الإسلام . كما كانوا بينهم فى هذه الدار يأتون بالصلاة والزكاة والحج والصيام . فلما توسطوا الجسر عَصَفت على أنوارهم أهوية النفاق . فاطفأت ما بأيديهم من المصابيح . فوقفوا حيارَى لا يستطيعون المرور . فضُرب بينهم و بين أهل الإيمـان بسور له باب . ولـكن قد حيل بين القوم و بين المفاتيح ، باطنه ـ الذى يلى المؤمنين ـ فيـه الرحمة ، ومايليهم من قِبَلهم العذاب والنقمة . ينادون من تقدمهم من وفد الإيمـان ، ومشاعلُ الركب تلوح على بعد كالنجوم . تبدو لناظر الإنسان (٥٧ : ١٣ انظرونا نَقْتَبِس من نوركم) لنتمكن فى هذا المضيق من العبور . فقد طفئت أنوارنا . ولا جواز اليوم إلا بمصباح من النور (قيـل : ارجعوا وراءكم . فالتمسوا نوراً) حيث قسمت الأنوار . فهيهات الوقوف لأحد فى مثل هذا المضمار ! كيف نلتمس الوقوف فى هذا المضيق ؟ فهل يلوى اليومَ أحد على أحد فى هذا الطريق ؟ وهل يلتفت اليوم رفيق إلى رفيق ؟ فذكَّروهم باجتماعهم معهم وصحبتهم لهم فى هذه الدار . كما يذكِّر الغريب صاحبَ الوطن بصحبته له فى الأسفار (ألم نـكن معكم ؟) نصوم كما تصومون ، ونصلى كما تصلون . ونقرأ كما تقرؤن . ونتصدق كما تصدقون . ونحج كما تحجون ؟ فما الذى فرق بيننا اليوم ، حتى انفردتم دوننا بالمرور ؟ (قالوا : بلى) ولـكنكم كانت ظواهركم معنا و بواطنكم مع كل ملحد ، وكل ظلوم كفور (٥٧ : ١٤، ١٥ ولـكنكم فتنتم أنفسكم وتربَّصْتُم وارتبتم، وغَرَّتكم الأمانىّ. حتى جاء أمرُ الله وغَرَّكم بالله الغَرور * فاليوم لايؤخذ منكم فِدْية ولا من الذين كفروا . مأواكم النار هى مولاكم . و بئس المصير) .

لاتستطل أوصاف القوم . فالمتروك ــ والله ــ أكثر من المذكور . كاد القرآن أن يكون كله فى شأنهم ، لكثرتهم على ظهر الأرض وفى أجواف القبور . فلا خَلَت بقاع الأرض منهم لئلا يستوحش المؤمنون فى الطرقات . وتتعطل بهم أسباب المعايش ، وتخطفهم الوحوش والسباع فى الفلوات . سمع حذيفة رضى الله عنه رجلا يقول : اللهم أهلك المنافقين . فقال « يا ابن أخى ، لو هلك المنافقون لاستوحشتم فى طرقاتكم من قلة السالك » .

تالله لقد قَطَّع خوف النفاق قلوب السابقين الأولين . لعلمهم بدقِّه وجله وتفاصيله وجمله . ساءت ظنونهم بنفوسهم حتى خشوا أن يكونوا من جملة المنافقين . قال عمر بن الخطاب لحذيفة رضى الله عنهما « ياحذيفة ، نشدتك بالله ، هل سَمَّانى لك رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم ؟ قال : لا . ولا أزكى بعدك أحداً » وقال ابن أبى مُليكة « أدركت ثلاثين من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه ، ما منهم أحد يقول : إن إيمانه كإيمان جبريل وميكائيل » ذكره البخارى . وذكر عن الحسن البصرى « ما أمنه إلا منافق . وما خافه إلا مؤمن » ولقد ذكر عن بعض الصحابة : أنه كان يقول فى دعائه « اللهم إنى أعوذ بك من خشوع النفاق . قيل : وما خشوع النفاق ؟ قال : أن يُرى البدنُ خاشعاً والقلب ليس بخاشع » .

تالله لقد مُلئت قلوب القوم إيماناً ويقيناً ، وخوفُهم من النفاق شديد . وهَمُّهم لذلك ثقيل ، وسواهم كثير منهم لايجاوز إيمانهم حناجرهم . وهم يدّعون أن إيمانهم كإيمان جبريل وميكائيل .

زَرْع النفاق ينبت على ساقيتين : ساقية الكذب ، وساقية الرياء . ومخرجهما من عينين : عين ضعف البصيرة ، وعين ضعف العزيمة . فإذا تمت هذه الأركان الأربع : استحكم نبات النفاق وبنيانه . ولكنه بمدارج السيول على شفا جُرُف هار . فإذا شاهدوا سيل الحقائق يوم تُبلَى السرائر ، وكُشف المستور ، وبعثر

ما فى القبور ، وحُصِّل مافى الصدور . تبين حينئذ لمن كانت بضاعته النفاق : أن حواصله التى حَصَّلها كانت كالسراب (٢٤ : ٣٩ يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً . ووجد الله عنده فوفَّاه حسابه ، والله سريع الحساب)

قلوبهم عن الخيرات لاهية . وأجسادهم إليها ساعية . والفاحشة فى فجاجهم فاشية . و إذا سمعوا الحق كانت قلوبهم عن سماعه قاسية . و إذا حضروا الباطل وشهدوا الزور انفتحت أبصار قلوبهم ، وكانت آذانهم واعية .»

فهذه ــ والله ــ أمارات النفاق . فاحذرها أيها الرجل قبل أن تنزل بك القاضية . إذا عاهدوا لم يفوا . و إن وعدوا أخلفوا . و إن قالوا لم ينصفوا . و إن دُعوا إلى الطاعة وقفوا . و إذا قيل لهم : تعالوا إلى ما أنزل الله و إلى الرسول صَدَفوا . و إذا دعتهم أهواؤهم إلى أغراضهم أسرعوا إليها وانصرفوا . فذرهم وما اختاروا لأنفسهم من الهوان . والخزى والخسران . فلا تثق بعهودهم . ولاتطمئن إلى وعودهم . فإنهم فيها كاذبون . وهم لما سواها مخالفون (٩ : ٧٥ــ٧٧ ومنهم من عاهد الله : لئن آتانا من فضله ، لَنَصَّدَّقن ولنكوننَّ من الصالحين . فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون . فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه و بما كانوا يكذبون)

فصــل

وأما الفسوق : فهو فى كتاب الله نوعان : مفرد مطلق . ومقرون بالعصيان . والمفرد نوعان أيضاً : فسوق كفر ، يخرج عن الإسلام . وفسوق لايخرج عن الإسلام . فالمقرون كقوله تعالى (٤٩ : ٧ ولـكنَّ الله حَبَّبَ إليكم الإيمانَ ، وزيّنه فى قلو بكم . وكرّه إليكم الـكفر والفسوق والعصيان ، أولئك هم الراشدون) .

والمفرد ــ الذى هو فسوق كفر ــ كقوله تعالى (٢ : ٢٦ ، ٢٧ يضل به كثيراً و يهدى به كثيراً . وما يضل به إلا الفاسقين . الذين ينقضون عهد الله ــ الآية) وقوله عز وجل (٢ : ٩٩ ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا

الفاسقون) وقوله (٣٢ : ٢٠ وأما الذين فسقوا فمأواهم النار . كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها ـ الآية) فهذا كله فسوق كفر .

وأما الفسوق ، الذى لايخرج عن الإسلام : فكقوله تعالى (٢:٨٢ وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم ـ الآية) وقوله (٤٩ : ٦ ياأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإٍ ـ الآية) فإن هذه الآية نزلت فى الوليد بن عقبة بن أبى مُعَيط لما بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بنى المصطلق بعد الوقعة مصدّقا. وكان بينه و بينهم عداوة فى الجاهلية . فلما سمع القومُ بمقدمه تَلَقَّوه ، تعظيماً لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . فحدَّثه الشيطان : أنهم يريدون قتله . فهابهم فرجع من الطريق إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : إن بنى المصطلق منعوا صدقاتهم . وأرادوا قتلى . فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهَمَّ أن يغزوهم . فبلغ القوم رجوعه فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقالوا : يارسول الله، سمعنا برسولك ، فخرجنا نتلقاه ونكرمه . ونؤدى إليه ما قِبَلنا من حق الله ، فبدا له فى الرجوع . فخشينا أنه إنما رَدَّه من الطريق كتاب جاء منك لغضب غضبته علينا . و إنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله . فاتهمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . و بعث خالد بن الوليد خِفية فى عسكر . وأمره أن يخفى عليهم قدومه . وقال له : انظر . فإن رأيت منهم مايدل على إيمانهم فخذ منهم زكاة أموالهم ، و إن لم تر ذلك فاستعمل فيهم ماتستعمل فى الكفار . ففعل ذلك خالد . ووافاهم . فسمع منهم أذان صلاتى المغرب والعشاء ، فأخذ منهم صدقاتهم . ولم يرَ منهم إلا الطاعة والخير . فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخبره الخبر . فنزل (ياأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإٍ فَتَبَيَّنُوا ـ الآية) .

و « النبأ » هو الخبر الغائب عن المخبَر إذا كان له شأن . و « التبين » طلب بيان حقيقته والإحاطة بها علما .

وههنا فائدة لطيفة . وهى أنه سبحانه لم يأمر برد خبر الفاسق وتكذيبه

ورد شهادته جملة . و إنما أمر بالتبين . فإن قامت قرائن وأدلة من خارج تدل على صدقه عمل بدليل الصدق . ولو أخبر به من أخبر . فهكذا ينبغى الاعتماد فى رواية الفاسق وشهادته وكثير من الفاسقين يصدقون فى أخبارهم ورواياتهم وشهاداتهم، بل كثير منهم يتحرى الصدق غاية التحرى : وفسقه من جهات أخر . فمثل هذا لا يرد خبره ولا شهادته . ولو ردت شهادة مثل هذا وروايته لتعطلت أكثر الحقوق . وبطل كثير من الأخبار الصحيحة . ولا سيما مَنْ فسقه من جهة الاعتقاد والرأى . وهو مُتَحَرٍّ للصدق . فهذا لا يرد خبره ولا شهادته .

وأما من فسقه من جهة الكذب : فإن كثر منه وتكرر ، بحيث يغلب كذبه على صدقه ، فهذا لا يقبل خبره ولا شهادته . و إن ندر منه مرة ومرتين . ففى رد شهادته وخبره بذلك قولان للعلماء . وهما روايتان عن الإمام أحمد رحمه الله .

والمقصود : ذكر الفسوق الذى لا يخرج إلى الكفر .

والفسوق الذى تجب التوبة منه أعم من الفسوق الذى ترد به الرواية والشهادة .

وكلامنا الآن فيما تجب التوبة منه . وهو قسمان : فسق من جهة العمل. وفسق من جهة الاعتقاد .

ففسق العمل نوعان : مقرون بالعصيان ومفرد .

فالمقرون بالعصيان : هو ارتكاب ما نهى الله عنه . والعصيان : هو عصيان أمره . كما قال الله تعالى (٦٦ : ٦ لا يعصون الله ما أمرهم) وقال موسى لأخيه هٰرون عليهما السلام (٢٠ : ٩٢ ، ٩٣ ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعنى ؟ أفعصيت أمرى ؟) وقال الشاعر :

أمرتُك أمراً جازماً . فعصيتنى فأصبحت مسلوب الإمارة نادماً

فالفسق أخص بارتكاب النهى ، ولهذا يطلق عليه كثيرا . كقوله تعالى (٢ : ٢٨٢ و إن تفعلوا فإنه فسوق بكم) والمعصية أخص بمخالفة الأمر كما تقدم . و يطلق كل منهما على صاحبه . كقوله تعالى (١٨ : ٥٠ إلا إبليس كان من الجن

ففسق عن أمر ربه) فسمى مخالفته للأمر فسقاً . وقال (٢٠ : ١٢١ وعصى آدم ربه فغوى) فسمى ارتكابه للنهي معصية . فهذا عند الإفراد . فإذا اقترنا كان أحدهما لمخالفة الأمر ، والآخر لمخالفة النهى .

و « التقوى »[1] اتقاء مجموع الأمرين . و بتحقيقها تصح التوبة من الفسوق والعصيان ، بأن يعمل العبد بطاعة الله على نور من الله ، يرجو ثواب الله . و يترك معصية الله ، على نور من الله . يخاف عقاب الله .

وفسق الاعتقاد : كفسق أهل البدع الذين يؤمنون بالله ورسوله واليوم الآخر ويحرمون ماحرم الله . و يوجبون ماأوجب الله . ولكن ينفون كثيراً مما أثبت الله ورسوله ، جهلا وتأويلا ، وتقليداً للشيوخ . ويثبتون مالم يثبته الله ورسوله كذلك .

وهؤلاء كالخوارج المارقة ، وكثير من الروافض ، والقدرية ، والمعتزلة ، و كثير من الجهمية الذين ليسوا غلاة فى التجهم .

وأما غالية الجهمية : فكغلاة الرافضة . ليس للطائفتين فى الإسلام نصيب .

---

(١) من تأمل كلمة « التقوى » فى كلام الله سبحانه وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم وكلام العرب ، وقد سلم من التقليد وترديد الكلام بلا تدبر — علم أن «التقوى» هى أن يأخذ العبد من كل ما أعطاه الله ربه وقاية له من كل ما يكره ويخاف من الخيبة والخسران فى الأولى والأخرى ، ويتحرى بكل يقظة وهدى وبصيرة أن يجعل منه سبباً لفلاحه فى الأولى والأخرى ، مؤمناً بأن كل ما آتاه ربه فى نفسه وماله وولده وما سخر له : صالح أن يكون سبباً للفلاح وسبباً للخسران ، بل القرآن نفسه كذلك (١٧ : ٨٢ وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين . ولا يزيد الظالمين إلا خسارا) فضلا عن غيره . ولذلك أوصانا الله ربنا أن نعوذ به ونلجأ إليه حال تلاوتنا لكل كلمة من القرآن من الشيطان الرجيم ، حتى لايضلنا فى فهمها على وضعها الذى أراد الله لنا منها فنكون من الخاسرين . فأولى أن نستعيذ به ونلجأ إليه سبحانه عند مخالطتنا لأولادنا وأموالنا وأهلنا . وفى كل حركة وشأن من حركاتنا وشئوننا .

ولذلك أخرجهم جماعة من السلف من الثنتين والسبعين فرقة ، وقالوا : هم مباينون للملة .

وليس مقصودنا الكلام فى أحكام هؤلاء . وإنما المقصود : تحقيق «التوبة» من هذه الأجناس العشرة .

فالتوبة من هذا الفسوق : بإثبات ما أثبته الله لنفسه ورسوله ، من غير تشبيه ولا تمثيل ، وتنزيهه عما نزه نفسه عنه ونزهه عنه رسوله ، من غير تحريف ولا تعطيل . وتلقى النفى والإثبات من مشكاة الواحى . لامن آراء الرجال ونتائج أفكارهم التى هى منشأ البدعة والضلالة .

فتوبة هؤلاء الفساق من جهة الاعتقادات الفاسدة : بمحض اتباع السنة . ولا يكتفى منهم بذلك أيضا حتى يبينوا فساد ما كانوا عليه من البدعة . إذ التوبة من ذنب هى بفعل ضده . ولهذا شرط الله تعالى فى توبة الكاتمين ما أنزل الله من البينات والهدى : البيان . لأن ذنبهم لما كان بالكتمان ، كانت توبتهم منه بالبيان . قال الله تعالى (٢ : ١٥٩ ، ١٦٠ إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد مابيناه للناس فى الكتاب ، أولئك يلعنهم الله . ويلعنهم اللاعنون ، إلاالذين تابوا وأصلحوا وبينوا . فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم) وذنب المبتدع فوق ذنب الكاتم . لأن ذاك كتم الحق . وهذا كتمه ودعا إلى خلافه . فكل مبتدع كاتم ولا ينعكس .

وشرط فى توبة المنافق : الإخلاص . لأن ذنبه بالرياء . فقال تعالى (٤ : ١٤٥ ، ١٤٦ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ـ ثم قال ـ إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله . فأولئك مع المؤمنين ، وسوف يؤتى الله المؤمنين أجراً عظيما) ولذلك كان الصحيح من القولين : أن توبة القاذف : إكذابه نفسه . لأنه ضدالذنب الذى ارتكبه ، وهتك به عرض المسلم المحصن .

فلا تحصل التوبة منه إلا بإكذابه نفسه، لينتفي عن المقذوف العار الذى ألحقه به بالقذف. وهو مقصود التوبة.

وأما من قال: إن توبته أن يقول «أستغفر الله» من القذف. ويعترف بتحريمه. فقول ضعيف[1] لأن هذا لامصلحة فيه للمقذوف. ولا يحصل له به براءة عرضه مما قذفه به. فلا يحصل به مقصود التوبة من هذا الذنب. فإن فيه حقين: حقا لله، وهو تحريم القذف. فتوبته منه: باستغفاره، واعترافه بتحريم القذف، وندمه عليه، وعزمه على أن لايعود. وحقاً للعبد. وهو إلحاق العار به، فتوبته منه: بتكذيبه نفسه. فالتوبة من هذا الذنب بمجموع الأمرين.

فإن قيل: إذا كان صادقاً قد عاين الزنا، فأخبر به، فكيف يسوغ له تكذيب نفسه وقذفها بالكذب. ويكون ذلك من تمام توبته؟.

قيل: هذا هو الإشكال الذى قال صاحب هذا القول لأجله ماقال: إن توبته الاعتراف بتحريم القذف والاستغفار منه. وهو موضع يُحتاج فيه إلى بيان الكذب الذى حكم الله به على القاذف. وأخبر أنه كاذب عنده. ولو كان خبره مطابقا للواقع. فنقول:

الكذب يراد به أمران. أحدهما: الخبر غير المطابق لمخبره. وهو نوعان: كذب عمد، وكذب خطأ. فكذب العمد معروف. وكذب الخطأ ككذب أبى السنابل بن بَعكَكَ فى فتواه للمتوفَّى عنها إذا وضعت حملها «أنها لاتحل حتى تتم لها أربعة أشهر وعشرا» فقال النبى صلى الله عليه وسلم «كذب أبو السنابل» ومنه قوله صلى الله عليه وسلم «كذب من قالها» لمن قال «حبط عمل عامر. حيث قتل نفسه خطأ» ومنه قول عبادة بن الصامت «كذب أبو محمد» حيث قال «الوتر واجب» فهذا كله من كذب الخطإ. ومعناه «أخطأ» قائل ذلك.

والثانى من أقسام الكذب: الخبر الذى لايجوز الإخبار به. وإن كان

---

(١) بل باطل.

خبره مطابقا لمخبره . كخبر القاذف المنفرد برؤية الزنا . والإخبار به . فإنه كاذب فى حكم الله . وإن كان خبره مطابقاً لمخبره . ولهذا قال تعالى (٢٤ : ١٣ فإذ لم يأتوا بالشهداء . فأولئك عند الله هم الكاذبون) فحكم الله فى مثل هذا : أن يعاقب عقوبة المفترى الكاذب ، وإن كان خبره مطابقاً . وعلى هذا فلا تتحقق توبته حتى يعترف بأنه كاذب عند الله ، كما أخبر الله تعالى به عنه . فإذا لم يعترف بأنه كاذب وجعله الله كاذبا ، فأىّ توبة له ؟ وهل هذا إلا محض الإصرار والمجاهرة بمخالفة حكم الله الذى حكم به عليه ؟

فصل

واختلف فى توبة السارق إذا قُطعت يده ، هل من شرطها : ضمان العين المسروقة لربها ؟

وأجمعوا على أن من شرط صحة توبته : أداؤها إليه ، إذا كانت موجودة بعينها . وإنما اختلفوا إذا كانت تالفة . فقال الشافعى وأحمد : من تمام توبته : ضمانها لمالكها . ويلزمه ذلك ، موسراً كان أو معسراً . وقال أبو حنيفة : إذا قطعت يده — وقد استُهلكت العين — لم يلزمه ضمانها . ولا تتوقف صحة توبته على الضمان . لأن قطع اليد هو مجموع الجزاء . والتضمين عقوبة زائدة عليه لا تشرع .

قال : وهذا بخلاف ما إذا كانت العين قائمة . فإن صاحبها قد وجد عين ماله فلم يكن أخذها عقوبة ثانية ، بخلاف التضمين . فإنه غرامة ، وقد قُطع طرفه . فلا نجمع عليه غرامة الطَّرَف وغرامة المال .

قالوا : ولهذا لم يذكر الله فى عقوبة السارق والمحارب غير إقامة الحد عليهما . ولو كان الضمان لما أتلفوه واجباً لذكره مع الحد . ولما جعل مجموع جزاء المحاربين ماذكره من العقوبة بأداة « إنما » التى هى عندكم للحصر . فقال (٥ : ٣٣ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً — الآية) ومدلول هذا الكلام — عند من يجعل أداة « إنما » للحصر — أنه لا جزاء لهم غير ذلك .

قالوا : وقد روى النسائى فى سننه عن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم « أنه قضى فى السارق إذا أقيم عليه الحد : أنه لا غرم عليه »

قالوا : وهذا هو المستقر فى فِطَر الناس ، وعليه عملهم : أنهم يقطعون السراق ، ولا يغرمونهم ما أتلفوه من أموال الناس . وما رآه المؤمنون حسناً فهو عند الله حسن .

قالوا : ولأنها لو ثبتت فى ذمته ـ بعد القطع ـ لكان قد ملكها ، إذ لا يجتمع لربها البدل والمبدل . وثبوت بدلها فى ذمته يستلزم تقدير ملكها . وهو شبهة فى إسقاط القطع .

وأصحاب القول الأول يقولون : هذه العين تعلق بها حقان ، حق لله ، وحق لمالكها . وهما حقان متغايران لمستحقين متباينين . فلا يبطل أحدهما الآخر بل يستوفيان معاً . لأن القطع حق لله . والضمان حق للمالك . ولهذا لا يسقط القطع بإسقاطه بعد الرفع إلى الإمام . ولو أُسقط الضمان سقط .

وهذا كما إذا أكره أمة غيره على الزنا لزمه الحدُّ لحق الله ، والمهر لحق السيد . وكذلك إذا أكره الحرة على الزنا أيضاً . بل لو زنا بأمة ثم قتلها . لزمه حد الزنا وقيمتها لمالكها . وهو نظير ما إذا سرقها ، ثم قتلها ، قطعت يده لسرقتها وضمنها لمالكها .

قالوا : وكذلك إذا قتل فى الإحرام صيداً مملوكا لمالكه . فعليه الجزاء لحق الله وقيمة الصيد لمالكه . وكذلك إذا غصب خمر ذمى وشربها لزمه الحد حقاً لله . ولزمه عندكم ضمانها للذمى . ولم يلزمه ضمان عند الجمهور . لأنها ليست بمال . فلا تضمن بالإتلاف كالميتة .

قالوا : وأما قولكم : إن قَطْع اليد مجموع الجزاء . إن أردتم : أنه مجموع العقوبة فصحيح . فإنه لم يبق عليه عقوبة ثانية . ولكن الضمان ليس بعقوبة للسرقة . ولهذا يجب فى حق غير الجانى . كمن أتلف مال غيره خطأ أو إكراهاً ،

أو فى حال نومه . أو أتلفه إتلافاً مأذوناً له فيه ، كالمضطر إلى أكله ، أو المضطر إلى إلقائه فى البحر لإنجاء السفينة ، ونحو ذلك . فليس الضمان من العقوبة فى شىء .

وأما قولكم : « إن الله لم يذكر فى القرآن تضمين السارق والمحارب » فهو لم ينفه أيضاً ، وإنما سكت عنه . فحكمه مأخوذ من قواعد الشرع ونصوصه كقوله (٢ : ١٩٤ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل مااعتدى عليكم) وهذا قد اعتدى بالإتلاف . فيعتدى عليه بالتضمين . ولهذا أوجبنا رد العين إذا كانت قائمة ، ولم يذكر فى القرآن . وليس هذا من باب الزيادة على النص . بل من باب إعمال النصوص كلها . لايعطل بعضها ويعمل ببعضها ، وكذلك الجواب عن قوله تعالى فى المحاربين (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله) أى عقوبتهم .

قالوا : وأما حديث عبد الرحمن بن عوف : فمنقطع لا يثبت . يرويه سعد ابن إبراهيم عن منصور . وقد طعن فى الحديث ابن المنذر . فقال : سعد بن إبراهيم مجهول ، وقال ابن عبد البر : الحديث ليس بالقوى .

وأما استقرار ذلك فى فطر الناس : فمن قال : إنه مستقر فى فطرهم : أن الغنى الواجد إذا سرق مال فقير محتاج ، أو يتيم وأتلفه . وقطعت يده : أنه لايضمن مال هذا الفقير واليتيم ، مع تمكنه من الضمان ، وقدرته عليه ، وضرورة صاحبه وضعفه ؟ وهل المستقر فى فطر الناس إلا عكس هذا ؟ .

وأما قولكم « لو ثبت فى ذمته بعد القطع ، لكان قد ملكها » فضعيف جداً . لأنها بالإتلاف قد استقرت فى ذمته . ولهذا له المطالبة ببذلها اتفاقاً . وهذا الاستقرار فى ذمته لا يمنع القطع . فإنه يقطع بعد إتلافها ، واستقرارها فى ذمته ، فكيف يزيل القطع ماثبت فى ذمته . ويكون مبرئاً له منه ؟ .

وتوسط فقهاء المدينة — مالك ، وغيره — بين القولين . فقالوا : إن كان له مال ضمنها بعد القطع ، وإن لم يكن له مال فلا ضمان عليه .

وهذا استحسان حسن جداً . وما أقر به من محاسن الشرع . وأولاه بالقبول . والله سبحانه وتعالى أعلم .

فصـــل

وأما « الإثم والعدوان » فهما قرينان . قال الله تعالى (٥ : ٢ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان) وكل منهما إذا أفرد تضمن الآخر . فـكل إثم عدوان . إذ هو فعل مانهى الله عنه ، أو ترك ماأمر الله به . فهوعدوان على أمره ونهيه ، وكل عدوان إثم . فإنه يأثم به صاحبه . ولـكن عند اقترانهما فهما شيئان بحسب متعلقهما ووصفهما .

فـ « الإثم » ما كان محرم الجنس كالـكذب ، والزنا ، وشرب الخمر ، ونحو ذلك . و « العدوان » ما كان محرم القدر والزيادة .

فالعدوان : تعدى ما أبيح منه إلى القدر المحرم والزيادة ، كالاعتداء فى أخذ الحق ممن هو عليه ، إما بأن يتعدى على ماله ، أو بَدنه أو عرضه . فإذا غصبه خشبة لم يرض عوضها إلا داره . وإذا أتلف عليه شيئاً أتلف عليه أضعافه . وإذا قال فيه كلمة قال فيه أضعافها . فهذا كله عدوانٍ وتعدٍّ للعدل .

وهذا العدوان نوعان : عدوان فى حق الله ، وعدوان فى حق العبد . فالعدوان فى حق الله : كما إذا تعدى ما أباح الله له من الوطء الحلال فى الأزواج والمملوكات إلى ما حرم عليه من سواها . كما قال تعـالى (٢٣ : ٥ ـ ٧ والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملـكت أيمانهم . فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون) وكذلك تعـدى ما أبيح له من زوجته وأمته إلى ما حرم عليه منها ، كوطئها فى حيضهـا أو نفاسها ، أو فى غير موضع الحرث ، أو فى إحرام أحدهما ، أو صيامه الواجب . ونحو ذلك .

وكذلك كل من أبيح له منه قدر معين ، فتعداه إلى أكثر منه . فهو من العدوان ، كمن أبيح له إساغة الغصة بجرعة من خمر . فتناول الـكأس كلها .

أو أبيح له نَظْرة الخِطْبة ، والسَّوم ، والشهادة ، والمعاملة ، والمداواة ، فأطلق عنان طرفه فى ميادين محاسن المنظور . وأسام طرف ناظره فى تلك الرياض والزهور . فتعدى المباح إلى القدرالمحظور . وحام حول الحِمَى المحوط المحجور . فصار ذا بصَر حائر ، وقلب عن مكانه طائر . أرسل طرفه رائداً يأتيه بالخبر لخامر عليه . وأقام فى تلك الخيام . فبعث القلب فى آثاره . فلم يشعر إلا وهو أسير يحجل فى قيوده بين تلك الخيام . فما أقلعت لحظات ناظره حتى تَشَحَّطَ بينهن قتيلاً . وما برحت تنوشه سيوف تلك الجفون حتى جندلته تجديلاً . هذا خطر العدوان . وما أمامه أعظم وأخطر . وهذا فوت الحرمان . وما حرمه من فوات ثواب من غَضَّ طرفه لله عز وجل أجل وأكبر . سافر الطرف فى مفاوز محاسن المنظور إليه . فلم يربح إلا أذى السفر . وغَرّر بنفسه فى ركوب تلك البيداء . وما عرف أن راكبها على أعظم الخطر ؟ ! يالها من سَفْرَة لم يبلغ المسافر منها مانواه . ولم يضع فيها عن عاتقه عصاه ، حتى قُطع عليه فيها الطريق . وقعد له فيها الرصَد على كل نقب ومضيق . لا يستطيع الرجوع إلى وطنه والإياب ، ولا له سبيل إلى المرور والذهاب ، يرى هَجير الهاجرة من بعيد ، فيظنه برد الشراب (٢٤ : ٣٩ حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفَّاه حسابَه . والله سريع الحساب) وتيقن أنه كان مغروراً بلامع السراب . تالله مااستوت هذه الذلة وتلك اللذة فى القيمة فيشتريها بها العارف الخبير . ولا تقاربا فى المنفعة ، فيتحير بينهما البصير . ولكن على العيون غشاوة فلا تفرق بين مواطن السلامة ومواضع العثور . والقلوب تحت أغطية الغفلات ، راقدة فوق فرش الغرور (٢٢ : ٤٦ فإنها لا تعمى الأبصار . ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) .

ومن أمثلة العدوان : تجاوز ما أبيح من الميتة للضرورة إلى ما لم يبح منها . إما بأن يشبع . وإنما أبيح له سد الرمق ، على أحد القولين فى مذهب أحمد ، والشافعى ، وأبى حنيفة .

وأباح مالك له الشبع والتزود إذا احتاج إليه . فإذا استغنى عنها وأكلها واقياً لماله ، و بُخلا عن شراء المذكى ونحوه ، كان تناولها عدوانا . قال تعالى (٢ : ١٧٣ فمن اضطر غير باغ ولاعادٍ فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم) قال قتـادة والحسن : لا يأكلها من غير اضطرار ، ولا يَعْدُو شِبعه . وقيل « غير باغ » غير طالبها . وهو يجد غيرها « ولا عاد » أى لايتعدى ماحد له منها . فيأكل حتى يشبع . ولـكن سَدّ الرمق . وقال مقاتل : غير مستحل لها ، ولا متزود منها .

وقيل : لايبغى بتجاوز الحد الذى حد له منها . ولا يتعدى بتقصيره عن تناوله حتى يهلك . فيكون قد تعدى حد الله بمجاوزته أو التقصير عنه . فهذا آثم . وهذا آثم . وقال مسروق : من اضطر إلى الميتة والدم ولحم الخنزير فلم يأكل ولم يشرب حتى مات دخل النار . وهذا أصح القولين فى الآية . وقال ابن عباس وأصحابه والشافعى « غير باغ » على السلطان « ولا عاد » فى سفره . فلا يكون سفر معصية . و بنوا على ذلك أن العاصى بسفره لايترخص .

والقول الأول : أصح لعشرة أوجه . ليس هذا موضع ذكرها . إذ الآية لا تعرّض فيها للسفر بنفى ولا إثبات ، ولا للخروج على الإمام . ولا هى مختصة بذلك ولا سيقت له . وهى عامة فى حق المقيم والمسـافر . والبغى والعدوان فيها يرجعان إلى الأكل المقصود بالنهى ، لا إلى أمر خارج عنه لاتعلق له بالأكل ، ولأن نظير هـذا قوله تعالى فى الآية الأخرى (٥ : ٢ فمن اضطر فى مَخْمَصَة غير مُتجانف لإثم) فهذا هو الباغى العادى . والمتجانف للإثم : المائل إلى القدر الحرام من أكلها . وهذا هو الشرط الذى لايباح له بدونه . ولأنها إنما أبيحت للضرورة . فتقدرت الإباحة بقدرها . وأعلمهم أن الزيادة عليها بغى وعدوان و إثم . فلاتـكون الإباحة للضرورة سبباً لحله . والله أعلم .

و « الإثم » و « العدوان » هما الإثم والبغى المذكوران فى سورة الأعراف (٧ : ٣٣) مع أن « البغى » غالب استعماله فى حقوق العباد والاستطالة عليهم .

وعلى هـذا فإذا قرن البغى بالعدوان كان « البغى » ظلمهم بمحرم الجنس ، كالسرقة والـكذب ، والبَهْت والابتداء بالأذى . و « العدوان » تعدى الحق فى استيفائه إلى أكبر منه . فيكون البغى والعدوان فى حقهم كالإثم والعدوان فى حدود الله .

فههنا أربعة أمور : حق لله وله حد ، وحق لعباده وله حد . فالبغى والعدوان والظلم تجاوز الحدين إلى ما وراءهما ، أو التقصير عنهما . فلا يصل إليهما .

فصـل

وأما « الفحشاء والمنكر » فالفحشاء صفة لموصوف قد حذف تجريداً لقصد الصفة . وهى الفعلة الفحشاء ، والخصلة الفحشاء . وهى ماظهر قبحها لـكل أحد . واستفحشه كل ذى عقل سليم . ولهذا فسرت بالزنا واللواط ، وسماها الله «فاحشة» لتناهى قبحهما . وكذلك القبيح من القول يسمى فحشا . وهو ماظهر قبحه جداً من السَّبِّ القبيح ، والقذف ونحوه .

وأما «المنكر» فصفة لموصوف محذوف أيضاً . أى الفعل المنكر . وهو الذى تستنكره العقول والفطر . ونسبته إليها كنسبة الرائحة القبيحة إلى حاسة الشم . والمنظر القبيح إلى العين . والطعم المستـكره إلى الذوق . والصوت المستنكر إلى الأذن . فما اشتد إنكار العقول والفطر له فهو فاحشة . كما فَحُش إنكار الحواس له من هذه المدركات .

فالمنـكر لها : ما لم تعرفه ولم تألفه . والقبيح المستكره لها : الذى تشتد نفرتها عنه هو الفاحشة . ولذلك قال ابن عباس « الفاحشة الزنا ، والمنـكر ما لم يعرف فى شريعة ولا سنة » .

فتأمل تفريقه بين ما لم يعرف حُسْنه ولم يؤلف ، وبين ما استقر قبحه فى الفطر والعقول .

فصل

وأما « القول على الله بلا علم » فهو أشد هذه المحرمات تحريماً . وأعظمها إثماً . ولهذا ذكر فى المرتبة الرابعة من المحرمات التى اتفقت عليها الشرائع والأديان . ولا تباح بحال . بل لا تكون إلا محرمة . وليست كالميتة والدم ولحم الخنزير ، الذى يباح فى حال دون حال .

فإن المحرمات نوعان : محرم لذاته لايباح بحال ، ومحرم تحريما عارضا فى وقت دون وقت . قال الله تعالى فى المحرم لذاته (٧ : ٣٣ قل : إنما حرّم ربى الفواحشَ ماظهر منها وما بطن) ثم انتقل منه إلى ماهو أعظم منه فقال (والإثم والبغىَ بغير الحق) ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه . فقال (وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً) ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه . فقال (وأن تقولوا على الله مالاتعلمون) فهذا أعظم المحرمات عند الله وأشدها إثماً . فإنه يتضمن الكذب على الله ، ونسبته إلى مالا يليق به ، وتغيير دينه وتبديله ، ونفى ما أثبته و إثبات مانفاه ، وتحقيق ما أبطله و إبطال ماحققه ، وعداوة من والاه وموالاة من عاداه ، وحب ما أبغضه و بغض ما أحبه ، ووصفه بما لايليق به فى ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله .

فليس فى أجناس المحرمات أعظم عند الله منه ، ولا أشد إثماً . وهو أصل الشرك والكفر . وعليه أسست البدع والضلالات . فكل بدعة مضلة فى الدين أساسها القول على الله بلا علم .

ولهذا اشتد نكير السلف والأئمة لها . وصاحوا بأهلها من أقطار الأرض . وحذّروا فتنتَهم أشد التحذير . و بالغوا فى ذلك مالم يبالغوا مثله فى إنكار الفواحش ، والظلم والعدوان . إذ مَضَرّة البدع وهدمها للدين ومنافاتها له أشد . وقد أنكر تعالى على من نسب إلى دينه تحليل شىء أو تحريمه من عنده . بلا برهان من الله . فقال (١٦ : ١١٦ ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذبَ : هذا حلال وهذا حرام . لتفْتَروا على الله الكذب ـ الآية) .

فكيف بمن نسب إلى أوصافه سبحانه وتعالى ما لم يصف به نفسه ؟ أونفى عنه منها ما وصف به نفسه ؟ .

قال بعض السلف : ليَحْذَرْ أحُدكم أن يقول : أحل الله كذا . وحرم الله كذا . فيقولَ الله : كذبتَ . لم أُحِلّ هذا ، ولم أُحَرِّم هذا .

يعنى التحليل والتحريم بالرأى المجرد ، بلا برهان من الله ورسوله .

وأصل الشرك والكفر : هو القول على الله بلا علم . فإن المشرك يزعم أن من اتخذه معبودا من دون الله ، يقرّبه إلى الله . ويشفع له عنده . ويقضى حاجته بواسطته ، كما تكون الوسائط عند الملوك . فكل مشرك قائل على الله بلا علم . دون العكس . إذ القول على الله بلا علم قد يتضمن التعطيل والابتداع فى دين الله . فهو أعم من الشرك . والشرك فرد من أفراده (١) .

ولهذا كان الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم موجباً لدخول النار ،

---

(١) إن أول خطوة إلى الشرك : هى القول على الله بلا علم . وذلك بزعم أن الله سبحانه ــ قد سد باب الفقه فى كلامه ورسالة رسله على العامة . وفتحه لطائفة خاصة أو لقلة من الناس . زعموهم رجال الدين المحتكرين له صناعة . وأن فرضا على العامة تقليد هؤلاء بلا علم ولا بصيرة فى الدين . فلما زين الشيطان لهم هذا ، وقبلوه ، أثمر اتخاذ أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، فشرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله . وسووهم برب العالمين فى حق التشريع لما يصلح الناس ويهديهم فى معاشهم ومعادهم إلى التى هى أقوم . وما زالوا يقولون فى الله وعلى الله بلا علم ، حتى اعتقدوا لبعض البشر القداسة الذاتية . وأن فيهم شيئاً من خواص الرب وصفاته . سبحانه . سماه الشيطان لهم نوراً . فأثمر ذلك اتخاذ موتاهم أولياء من دون الله ، يقيمون على قبورهم وآثارهم القباب والأصنام والأوثان ، يعبدونهم من دون الله بجميع أنواع العبادات التى شرعها لهم أربابهم من الأحبار والرهبان . فهما متلازمان ، والطريق تبدأ من التقليد الأعمى للآباء والشيوخ ، واستحسان الرأى والهوى ، وتمشى حتى تروج البدع ، ثم القول فى الله وعلى الله بغير علم . ثم اتخاذ الموتى آلهة من دونه ، وأبناءه لأنهم نور انبثق منه ، فتعطيهم من القلوب والأعمال مالا يليق إلا بالقوى العزيز .

واتخاذ منزلة منها مُبَوّءًا ، وهو المنزل اللازم الذى لايفارقه صاحبه . لأنه متضمن للقول على الله بلا علم . كصريح الكذب عليه . لأن ما انضاف إلى الرسول فهو مضاف إلى المرسل . والقول على الله بلا علم صريح افتراء الكذب عليه (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا ؟) .

فذنوب أهل البدع كلها داخلة تحت هذا الجنس فلا تتحقق التوبة منه إلا بالتوبة من البدع .

وأنى بالتوبة منها لمن لم يعلم أنها بدعة ، أو يظنها سنة ، فهو يدعو إليها ، ويحض عليها ؟ فلا تنكشف لهذا ذنوبه التى تجب عليه التوبة منها إلا بتضلعه من السنة . وكثرة اطلاعه عليها ، ودوام البحث عنها والتفتيش عليها . ولا ترى صاحب بدعة كذلك أبداً .

فإن السنة ـ بالذات ـ تمحق البدعة . ولا تقوم لها . وإذا طلعت شمسها فى قلب العبد قطعت من قلبه ضباب كل بدعة ، وأزالت ظلمة كل ضلالة . إذ لا سلطان للظلمة مع سلطان الشمس . ولا يرى العبد الفرق بين السنة والبدعة ، ويعينه على الخروج من ظلمتها إلى نور السنة ، إلا المتابعة ، والهجرة بقلبه كل وقت إلى الله ، بالاستعانة والإخلاص ، وصدق اللجإ إلى الله . والهجرة إلى رسوله ، بالحرص على الوصول إلى أقواله وأعماله وهديه وسنته « فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله » ومن هاجر إلى غير ذلك فهو حظه ونصيبه فى الدنيا والآخرة . والله المستعان .

فصل

ومن أحكام التوبة

أن من تَعذَّر عليه أداء الحق الذى فرَّط فيه ، ولم يمكنه تداركه ثم تاب . فكيف حكم توبته ؟ وهذا يتصور فى حق الله سبحانه وحقوق عباده .

فأما فى حق الله : فكمن ترك الصلاة عمداً من غير عذر ، مع علمه بوجوبها وفرضها . ثم تاب وندم . فاختلف السلف فى هذه المسألة .

فقالت طائفة : توبته بالندم ، والاشتغال بأداء الفرائض المستأنفة . وقضاء الفرائض المتروكة . وهذا قول الأئمة الأربعة وغيرهم .

وقالت طائفة : توبته باستئناف العمل فى المستقبل . ولا ينفعه تدارك مامضى بالقضاء . ولا يقبل منه . فلا يجب عليه[1] . وهذا قول أهل الظاهر . وهو مروى عن جماعة من السلف .

وحجة الموجبين للقضاء قول النبى صلى الله عليه وسلم « من نام عن صلاة أو نسيها فلْيُصَلِّها إذا ذكرها » .

قالوا : فإذا وجب القضاء على النائم والناسى ، مع عدم تفريطهما . فوجوبه على العامد والمفرط أولى .

قالوا : ولأنه كان يجب عليه أمران : الصلاة . و إيقاعها فى وقتها . فإذا ترك أحد الأمرين بقى الآخر .

قالوا : ولأن القضاء ، إن قلنا يجب عليه بالأمر الأول . فظاهر . وإن قلنا يجب عليه بأمر جديد ، فأمر النائم والناسى به : تنبيه على العامد كما تقدم .

قالوا : ولأن مصلحة الفعل إن لم يمكن العبد تداركها تدارك منها ما أمكن . وقد فاتت مصلحة الفعل فى الوقت . فيتدارك ما أمكن منها . وهو الفعل فى خارج الوقت .

قالوا : وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ما استطعتم » وهذا قد استطاع الإتيان بالمأمور خارج الوقت . وقد تعذر عليه الإتيان به فى وقته . فيجب عليه الإتيان بالمستطاع .

---

(١) بل هو لايقدر عليه ، ولا يمكنه تداركه بالفعل . لأن شرطه الذى هو الوقت المكتوب قد ضاع عليه وفاته فوتاً خرج به إلى الكفر . فلا يمكنه تداركه إلا بالرجعة الصادقة إلى الإسلام .

قالوا : وكيف يظن بالشرع أنه يخفف عن هـذا المتعمد المفرط العاصى لله ورسوله بترك الوجوب ؟ ويوجبه على المعذور بالنوم أو النسيان ؟

قالوا : ولأن الصلاة خارج الوقت بدل عن الصلاة فى الوقت . والعبادة إذا كان لها بدل ، وتعذر المبدَل : انتقل المكلف إلى البدل . كالتيمم مع الوضوء ، وصلاة القاعد عند تعذر القيام ، والمضطجع عند تعذر القعود ، وإطعام العاجز عن الصيام ـ لكبر أو مرض غير مرجو البُرْء ـ عن كل يوم مسكيناً . ونظائر ذلك كثيرة فى الشرع .

قالوا : ولأن الصلاة حق مؤقت . فتأخيره عن وقته لا يسقط إلا بمبادرته خارج الوقت ، كديون الآدميين المؤجلة .

قالوا : ولأن غايته : أنه أثم بالتأخير . وهـذا لا يسقط القضاء . كمن أخر الزكاة عن وقت وجوبها تأخيراً أثم به . أو أخر الحج تأخيراً أثم به .

قالوا : ولو ترك الجمعة حتى صلاها الإمام عمداً ، عصى بتأخيرها . ولزمه أن يصلى الظهر . ونسبة الظهر إلى الجمعة كنسبة صلاة الصبح بعد طلوع الشمس إلى صلاتها قبل الطلوع .

قالوا : وقد أخر النبى صلى الله عليه وسلم صلاة العصر يوم الأحزاب إلى أن صلاها بعد غروب الشمس . فدل على أن فعلها ممكن خارج الوقت فى العمد . سواء كان معذوراً به كهذا التأخير ، وكتأخير من أخرها من الصحابة يوم بنى قُريظة إلى بعد غروب الشمس ، أو لم يكن معذوراً به ، كتأخير المفرط . فتأخيرها إنما تختلف فى الإثم وعدمه . لافى وجوب التدارك بعد الترك .

قالوا : ولو كانت الصلاة خارج الوقت لاتصح ولا تجب ، لما أمر النبى صلى الله عليه وسلم الصحابة يوم بنى قريظة بتأخير صلاة العصر إلى أن يصلوها فيهم . فأخرها بعضهم حتى صلاها فيهم بالليل . فلم يعنفهم . ولم يعنف من صلاها فى الطريق لاجتهاد الفريقين .

قالوا : ولأن كل تائب له طريق إلى التوبة . فكيف تُسَدُّ عن هذا طريق التوبة ، ويجعل إثم التضييع لازماً له ، وطائراً فى عنقه ؟ فهذا لا يليق بقواعد الشرع وحكمته ورحمته ، ومراعاته لمصالح العباد ، فى المعاش والمعاد .

فهذا أقصى ما يحتج به لهذه المقالة .

قال أصحاب القول الآخر : العبادة إذا أمر بها على صفة معينة ، أو فى وقت بعينه . لم يكن المأمور ممتثلاً للأمر إلا إذا أوقعها على الوجه المأمور به : من وصفها ووقتها ، وشرطها . فلا يتناولها الأمر بدونه .

قالوا : وإخراجها عن وقتها كإخراجها عن استقبال القبلة مثلاً . وكالسجود على الخدِّ بدَل الجبهة ، والبروك على الركبة بدل الركوع ونحوه .

قالوا : والعبادات التى جعل لها ظرف من الزمان لا تصح إلا فيه كالعبادات التى جعل لها ظرف من المكان . فلو أراد نقلها إلى أمكنة أخرى غيرها : لم تصح إلا فى أمكنتها . ولا يقوم مكان مقام مكان آخر . كأمكنة المناسك ـ من عرفة ومزدلفة والجمار ، والسعى بين الصفا والمروة ، والطواف بالبيت ـ فنقل العبادة إلى أزمنة غير أزمنتها التى جعلت أوقاتاً لها شرعاً إلى غيرها ، كنقلها عن أمكنتها التى جعلت لها شرعاً إلى غيرها . لا فرق بينهما فى الاعتداد وعدمه . كما لا فرق بينهما فى الإثم .

قالوا : فنقل الصلاة المحدودة الوقت أولا وآخرا عن زمنها إلى زمن آخر ، كنقل الوقوف بعرفة عن زمنه إلى مزدلفة ، ونقل أشهر الحج عن زمنها إلى زمن آخر .

قالوا : فأى فرق بين من نقل صوم رمضان إلى شوال ، أو صلى العصر نصف الليل ، وبين من حج فى المحرم ووقف فيه ؟ فكيف تصح صلاة هذا وصيامه دون حج هذا . وكلاهما مخالف لأمر الله تعالى ، عاص آثم ؟

قالوا : فحقوق الله المؤقتة لا يقبلها الله فى غير أوقاتها . فكما لا تقبل قبل

دخول أوقاتها لا تقبل بعد خروج أوقاتها . فلو قال : أنا أصوم شوال عن رمضان ، كان كما لو قال : أنا أصوم شعبان الذى قبله عنه .

قالوا : فإن الحق الليلى لا يقبل بالنهار ، والنهارى لايقبل بالليل . ولهذا جاء فى وصية الصديق لعمر — رضى الله عنهما — التى تلقاها بالقبول هو وسائر الصحابة « واعلم أن لله حقاً بالليل لا يقبله بالنهار . وحقاً بالنهار لا يقبله بالليل » .

قالوا : ولأنها إذا فات وقتها المحدود لها شرعاً لم تبق تلك العبادة بعينها . ولكن شىء آخر غيرها . فإذا فُعلت العصر بعد غروب الشمس لم تكن عصراً فإن العصر صلاة هذا الوقت المحدود . وهذه ليست عصراً . فلم يفعل مصليها العصر ألبتة . و إنما أتى بأربع ركعات صورتها صورة صلاة العصر ، لا أنها هى .

قالوا : وقد ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « من ترك صلاة العصر حبط عمله » وفى لفظ «الذى تفوته صلاة العصر ،فكأنما وُتر أهلَه ومالَه» فلو كان له سبيل إلى التدارك وفعلها صحيحة : لم يحبط عمله . ولم يوتر أهله وماله ، مع صحتها منه وقبولها . لأن معصية التأخير عندكم لا تحقق الترك والفوات ، لاستدراكه بالفعل فى الوقت الثانى .

قالوا : وهذه الصلاة مردودة بنص الشارع . فلا يسوغ أن يقال بقبولها وصحتها ، مع تصريحه بردها و إلغائها . كما ثبت فى الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » وفى لفظ « كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد » وهذا عمل على خلاف أمره . فيكون رداً . و « الرد » بمعنى المردود ، كالخلق بمعنى المخلوق ، والضرب بمعنى المضروب .

و إذا ثبت أن هذه الصلاة مردودة . فليست بصحيحة ولا مقبولة .

قالوا :ولأن الوقت شرط فى سقوط الإثم ، وامتثال الأمر . فكان شرطاً فى براءة

الذمة والصحة ، كسائر شروطها ــ من الطهارة ، والاستقبال ، وستر العورة ــ[1] فالأمر تناول الشروط تناولا واحدا . فكيف ساغ التفريق بينها مع استوائها فى الوجوب والأمر والشرطية ؟

قالوا : وليس مع المصححين لها بعد الوقت لا نص ولا إجماع ، ولا قياس صحيح . وسنبطل جميع أقيستهم التى قاسوا عليها . ونبين فسادها .

قالوا : وفى مسند الإمام أحمد وغيره من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من أفطر يوماً من رمضان ، لغير عذر . لم يقضه عنه صيام الدهر » فكيف يقال : يقضيه عنه يوم مثله ؟ .

قالوا : ولأن صحة العبادة : إن فسرت بموافقة الأمر . فلا ريب أن هذه العبادة غير موافقة له . فلا تكون صحيحة . وإن فسرت بسقوط القضاء . فإنما يسقط القضاء ماوقع على الوجه المأمور به . وهذا لم يقع كذلك . ولا سبيل إلى وقوعه على الوجه المأمور به . فلا سبيل إلى صحته . وإن فسرت بما أبرأ الذمة . فهذه لم تبرىء الذمة من الإثم قطعاً . ولم يثبت بدليل يجب المصير إليه إبراؤها للذمة من توجه المطالبة بالمأمور .

قالوا : ولأن الصحيح من العبادات : ما اعتبره الشارع ورضيه وقبله . وهذا لايعلم إلا بإخباره عن صحتها ، أو بموافقتها أمره . وكلاهما منتف عن هذه العبادة . فكيف يحكم لها بالصحة ؟ .

قالوا : فالصحة والفساد حكمان شرعيان ، مرجعهما إلى الشارع . فالصحيح: ماشهد له بالصحة . أو علم أنه وافق أمره ، أو كان مماثلا لما شهد له بالصحة . فيكون حكم المثل مثله . وهذه العبادة قد انتفى عنها كل واحد من هذه الأمور .

ومن أفسد الاعتبار : اعتبارها بالتأخير المعذور به . أو المأذون فيه . وهو اعتبار

(١) بل الوقت أهم . فقد عفا الله للمعذور وتجاوز له عن الطهارة المائية ، وعن استقبال القبلة وستر العورة . ولم يعف عن الوقت مطلقا .

الشيء بضده، وقياسه على مخالفه فى الحقيقة والشرع . وهو من أفسد القياس، كما سيأتى .

قالوا : وأما استدلالكم بقول النبي صلى الله عليه وسلم « من نام عن صلاة، أو نسيها . فليصلها إذا ذكرها » فأوجب القضاء على المعذور . فالمفرط أولى . فهذه الحجة إلى أن تكون عليكم ، أقرب منها أن تكون لكم . فإن صاحب الشرع شرط فى فعلها بعد الوقت : أن يكون الترك عن نوم أو نسيان . والمعلق على الشرط يعدم عند عدمه . فلم يبق معكم إلا مجرد قياس المفرط العاصى المستحق للعقوبة على من عذره الله ، ولم ينسب إلى تفريط ولا معصية . كما ثبت عنه فى الصحيح « ليس فى النوم تفريط . إنما التفريط فى اليقظة : أن يؤخر صلاة حتى يدخل وقت التى بعدها » وأى قياس فى الدنيا أفسد من هذا القياس وأبطل ؟ .

قالوا : وأيضاً فهذا لم يؤخر الصلاة عن وقتها . بل وقتها المأمور به لمثله : حين استيقظ وذكر . كما قال النبي صلى الله عليه وسلم « من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها . فإن ذلك وقتها . فإن الله يقول (٢٠ : ١٤ أقم الصلاة لذكرى) » وهذه اللام عند كثير من النحاة اللام الوقتية ، أى عند ذكرى ، أو فى وقت ذكرى .

قالوا : والنبى صلى الله عليه وسلم ماصلى الصبح يوم الوادى بعد طلوع الشمس إلا فى وقتها حقيقة .

قالوا : والأوقات ثلاثة أنواع : وقت للقادر المستيقظ الذاكر غير المعذور . فهى خمسة . ووقت للذاكر المستيقظ المعذور وهى ثلاثة . فإن فى حقه : وقت الظهر والعصر واحد . ووقت المغرب والعشاء واحد . ووقت الفجر واحد . فالأوقات فى حق هذا ثلاثة . وإذا أخر الظهر إلى أن فعلها فى وقت العصر فإنما صلاها فى وقتها .

ووقت فى حق غير المكلف بنوم أو نسيان . فهو غير محدود ألبتة . بل الوقت فى حقه : عند يقظته وذكره . لاوقت له إلا ذلك .

هذا الذى دلت عليه نصوص الشرع وقواعده . وهذا المفرط المضيع خارج عن هذه الأقسام . وهو قسم رابع . فبأيها تلحقونه ؟ .

قالوا : وقد شرع الله سبحانه قضاء رمضان لمن أفطره لعذر ، من حيض أو سفر أو مرض . ولم يشرعه قط لمن أفطره متعمداً من غير عذر ، لا بنص ولا بإيماء ولا تنبيه . ولا تقتضيه قواعده . وإنما غاية مامعكم : قياسه على المعذور مع اطراد قواعد الشرع على التفريق بينهما . بل قد أخبر الشارع : أن صيام الدهر لايقضيه عن يوم يفطره بلا عذر . فضلا عن يوم مثله .

قالوا : وأما قولكم « إنه كان يجب عليه أمران : العبادة ، وإيقاعها فى وقتها . فإذا ترك أحدهما بقى عليه الآخر » فهذا إنما ينفع فيما إذا لم يكن أحد الأمرين مرتبطاً بالآخر ارتباط الشرطية ، كمن أمر بالحج والزكاة . فترك أحدهما : لم يسقط عنه الآخر . أما إذا كان أحدهما شرطاً فى الآخر ، وقد تعذر الإتيان بالشرط الذى لم يؤمر بالمشروط إلا به . فكيف يقال : إنه يؤمر بالآخر بدونه ، ويصح منه بدون وصفه وشرطه ؟ فأين أمره الله بذلك ؟ وهل الكلام إلا فيه ؟ .

قالوا : وإن قلنا : إنما يجب القضاء بأمر جديد . فلا أمر معكم بالقضاء فى محل النزاع . وقياسه على مواقع الإجماع : ممتنع كما بيناه . وإن قلنا : يجب بالأمر الأول . فهذا فيما إذا كان القضاء نافعاً ، ومصلحته كمصلحة الأداء ، كقضاء المريض والمسافر والحائض للصوم ، وقضاء المغمى عليه والنائم والناسى . أما إذا كان القضاء غير مبرىء للذمة ، ولا هو معذور بتأخير الواجب عن وقته . فهذا لم يتناوله الأمر الأول ولا أمر ثان . وإنما هو القياس الذى علم افتراق الأصل والفرع فيه فى وصف ظاهر التأثير مانع للإلحاق .

قالوا : وأما قولكم « إنه إذا لم يمكن تدارك مصلحة الفعل تدارك منها

ما أمكن » فهذا إنما يفيد إذا لم يمكن حصول المصلحة على شرط تزول المصلحة بزواله ، والتدارك بعد فوات شرطه وخروجه عن الوجه المأمور به ممتنع ، إلا بأمر آخر : من التوبة ، وتكثير النوافل والحسنات . وأما تدارك غير هذا الفعل فكلاّ ولما .

قالوا : وأما قوله صلى الله عليه وسلم «إذا أمرتكم بأمر فائتوا منه ماستطعتم» فقد أبعد النجعة من احتج به . فإن هذا إنما يدل على أن المكلف إذا عجز عن جملة المأمور به أتى بما يقدر عليه منه ـ كمن عجز عن القيام فى الصلاة ، أو عن إكمال غسل أعضاء الوضوء ، أو عن إكمال الفاتحة ، أو عن تمام الكفاية فى الإنفاق الواجب ونحو ذلك ـ أتى بما يقدر عليه ، ويسقط عنه ما عجز عنه . أما من ترك المأمور به حتى خرج وقته عمداً وتفريطاً بلا عذر . فلا يتناوله الحديث . ولو كان الحديث متناولا له لما توعده بإحباط عمله ، وتشبيهه بمن سلب أهله وماله . وبقى بلا أهل ولا مال .

قالوا : وأما قولكم « إنه لايظن بالشرع تخفيفه عن هذا العامد المفرط بعدم إيجاب القضاء عليه ، وتكليف المعذور به » فكلام بعيد عن التحقيق . بين البطلان . فإن هذا المعذور : إنما فعل ما أمر به فى وقته كما تقدم ، فهو فى فعل ما أمر به كغير المعذور الذى صلى فى وقته . ونحن لم نسقط القضاء عن العامد المفرط تخفيفاً عنه . بل لأنه غير نافع له . ولا مقبول منه ، ولامأمور به . فلا سبيل له إلى تحصيل مصلحة ما تركه ، فأين التخفيف عنه[1] ؟ .

قالوا : وأما قولكم « إن الصلاة خارج الوقت بدل عن الصلاة فى الوقت ، وإذا تعذر المبدل انتقل إلى بدله » فهل هذا إلا مجرد دعوى ؟ وهل وقع النزاع

---

(١) فإنه حرمان وعقوبة له . لايتخلص منها إلا بتوبة يعود بها إلى الإسلام صادقا مخلصاً ، حريصاً على اغتنام الفرص التى يهيؤها له ربه الرحمن الرحيم للاتصال به ، والتشرف بمناجاته ، وسؤاله حوائجه ليكون من المفلحين .

إلا فى هذا ؟ فما الدليل على أن صلاة هذا المفرط العامد بدل ؟ ونحن نطالبكم بالأمر بها أولا ، و بكونها مقبولة نافعة ثانياً ، و بكونها بدلا ثالثاً ، ولا سبيل لـكم إلى إثبات شىء من ذلك ألبتة .

و إنما يعلم كون الشىء بدلا بجعل الشارع له كذلك ، كشرعه التيمم عند العجز عن استعمال الماء . والإطعام عند العجز عن الصيام . و بالعكس . كما فى كفارة اليمين . فأين جعل الشرع قضاء هذا المفرّط المضيع بدلا عن فعله العبادة فى الوقت؟ وهل ذلك إلا القياس الذى قد تبين فساده ؟ .

قالوا : وأما قياسكم فعلها خارج الوقت على صحة أداء ديون الآدميين بعد وقتها. فمن هذا النمط . لأن وقت الوجوب فى حقه ليس محدود الطرفين كوقت الصلاة ، فالوجوب فى حقه ليس مؤقتاً محـدوداً ، بل هو على الفور ، كالزكاة والحج ، عند من يراه على الفور . فلا يتصور فيه إخراج عن وقت محدود هو شرط لفعله .

نعم أولى الأوقات به : الوقت الأول على الفور . وتأخيره عنـه لايوجب كونه قضاء .

فإن قيل : فما تصنعون بقضاء رمضان . فإنه محدود على جهة التوسعة بما بين رمضانين . ولا يجوز تأخيره مع القدرة إلى رمضان آخر ؟ ومع هذا لو أخره لزمه فعله ، و إطعام كل يوم مسكيناً . كما أفتى به الصحابة رضى الله عنهم . وهذا دليل على أن العبادة المؤقتة لايتعذر فعلها بعد خروج وقتها المحدود لها شرعا ؟

قيل : قد فرق الشارع بين أيام رمضان و بين أيام القضاء . فجعل أيام رمضان محدودة الطرفين ، لايجوز تقدمها ولا تأخرها . وأطلق أيام قضائه . فقال سبحانه (٢ : ١٨٣ ، ١٨٤ كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون . أياماً معدودات . فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخَر) فأطلق العدة ولم يوقتها . وهذا يدل على أنها تجزىء فى أى أيام كانت ، ولم يجىء نص عن الله ولا عن رسوله ولا إجماع على تقييدها بأيام لا تجزىء فى غـيرها .

وليس فى الباب إلا حديث عائشة رضى الله عنها « كان يكون علىّ الصوم من رمضان . فلا أقضيه إلا فى شعبان ، من الشغل برسول الله صلى الله عليه وسلم » ومعلوم أن هذا ليس صريحاً فى التوقيت بما بين الرمضانين . كتوقيت أيام رمضان بما بين الهلالين . فاعتبار أحدهما بالآخر ممتنع . وجمع بين مافرق الله بينهما . فإنه جعل أيام رمضان محدودة بحد لاتتقدم عنه ولاتتأخر . وأطلق أيام القضاء ، وأكد إطلاقها بقوله « أُخَر » وأفتى من أفتى من الصحابة بالإطعام لمن أخرها إلى رمضانٍ آخر ، جبرًا لزيادة التأخير عن المدة التى بين الرمضانين . ولا تخرج بذلك عن كونها قضاء ، بل هى قضاء . وإن فُعلت بعد رمضان آخر . فحكمها فى القضاء قبل رمضان وبعده واحد ، بخلاف أيام رمضان .

يوضح هذا : أنه لو أفطر يوماً من أيام رمضان عمداً بغير عذر لم يتمكن أن يقيم مقامه يوماً آخر مثله ألبتة . ولو أفطر يوماً من أيام القضاء قام اليوم الذى بعده مقامه .

وسرّ الفرق : أن المعذور لم يتعين فى حقه أيام القضاء . بل هو مخير فيها . وأى يوم صامه قام مقام الآخر . وأما غير المعذور : فأيام الوجوب متعينة فى حقه لايقوم غيرها مقامها (١) .

قالوا : وأما من ترك الجمعة عمداً : فإنما أوجبنا عليه الظهر . لأن الواجب فى هذا الوقت أحد الصلاتين ولا بد ، إما الجمعة وإما الظهر . فإذا ترك الجمعة فوقت الظهر قائم . وهو مخاطب بوظيفة الوقت .

---

(١) والله سبحانه ذكر قضاء رمضان فى أيام أخر للمرض والسفر . ولكنه لم يجعل للصلاة عذراً فى التأخير إلا النوم والنسيان . ولم يأمر الحائض بقضاء صلاة أيام حيضها . وذكر أن تضييع الصلاة شرك بقوله (٣٠ : ٣١ وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين) وأنه من المكذبين بالقرآن واليوم الآخر (٦ : ٩٢ والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به . وهم على صلاتهم يحافظون) وأن له الويل لأنه مكذب بيوم الدين (٧٧ : ٤٨ ، ٤٩ ويل للمكذبين . وإذا قيل لهم : اركعوا لايركعون) وفى الحديث الصحيح « من ترك الصلاة فقد أشرك »

قالوا : ولا سيما عند من يجعل الجمعة بدلا من الظهر . فإنه إذا فاته البدل رجع إلى الأصل . وهذا إن كان القضاء ثابتاً بالإجماع أو بالنص . و إن كان فيه خلاف ، أجبنا بالجواب المركب .

فنقول : إن كان ترك الجمعة مساوياً لترك الصلاة حتى يخرج وقتها . فالحكم فى الصورتين واحد . ولا فرق حينئذ ، عملا بما ذكرنا من الدليل . و إن كان بينهما فرق مؤثر بطل الإلحاق . فامتنع القياس . فعلى التقديرين بطل القياس .

قالوا : وأما تأخير النبي صلى الله عليه وسلم صلاة العصر يوم الأحزاب إلى غروب الشمس : فللناس فى هذا التأخير ـ هل هو منسوخ أم لا ؟ ـ قولان .

فقال الجمهور ـ كأحمد والشافعى ومالك ـ : هذا كان قبل نزول صلاة الخوف ثم نسخ بصلاة الخوف ، وكان ذلك التأخير كتأخير صلاة الجمع بين الصلاتين ، فلا يجوز اعتبار الترك المحرم به . و يكون الفرق بينهما كالفرق بين تأخير النائم والناسى ، وتأخير المفرط ، بل أولى . فإن هذا التأخير حينئذ مأمور به . فهو كتأخير المغرب ليلة جمع إلى مزدلفة .

القول الثانى : أنه ليس بمنسوخ ، بل هو باق . وللمقاتل تأخير الصلاة حال القتال . واشتغاله بالحرب والمسايفة ، وفعلها عند تمكنه منها . وهذا قول أبى حنيفة و يذكر رواية عن أحمد .

وعلى التقديرين : فلا يصح إلحاق تأخير العامد المفرط به . وكذلك تأخير الصحابة العصر يوم بنى قريظة . فإنه كان تأخيراً مأموراً به عند طائفة من أهل العلم ، كأهل الظاهر ، أو تأخيراً سائغاً للتأويل عند بعضهم . ولهذا لم يعنف النبى صلى الله عليه وسلم من صلاها فى الطريق فى وقتها . ولا من أخرها إلى الليل حتى صلاها فى بنى قريظة ، لأن هؤلاء تمسكوا بظاهر الأمر ، وأولئك نظروا إلى المعنى والمرادِ منهم . وهو سرعة السير .

واختلف علماء الإسلام فى تصويب أى الطائفتين

فقالت طائفة : لو كنا مع القوم لصلينا فى الطريق مع الذين فهموا المراد . وعقلوا مقصود الأمر . فجمعوا بين إيقاع الصلاة فى وقتها و بين المبادرة إلى العدو . ولم يَفُتْهم مشهدهم . إذ المقدار الذى سبقهم به أولئك لحقوهم به ، لما اشتغلوا بالصلاة وقت النزول فى بنى قريظة .

قالوا : فهؤلاء أفقه الطائفتين ، جمعوا بين الامتثال والاجتهاد . والمبادرة إلى الجهاد ، مع فقه النفس .

وقالت طائفة : لو كنا معهم لأخرنا الصلاة مع الذين أخروها إلى بنى قريظة . فهم الذين أصابوا حكم الله قطعاً . وكان هذا التأخير واجباً ، لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم به . فهو الطاعة لله ذلك اليوم خاصة ، والله يأمر بما يشاء . فأمره بالتأخير فى وجوب الطاعة : كأمره بالتقديم . فهؤلاء كانوا أسعد بالنص . وهم الذين فازوا بالأجرين . و إنما لم يعنف الآخرين لأجل التأويل والاجتهاد . فإنهم إنما قصدوا طاعة الله ورسوله . وهم أهل الأجر الواحد . وهم كالحاكم الذى يجتهد فيخطىء الحق

والمقصود : أن إلحاق المفرط العاصى بالتأخير بهؤلاء فى غاية الفساد .

قالوا : وأما قولكم « هذا تائب نادم . فكيف تسد عليه طريق التوبة ويُجعل إثم التضييع لازماً له وطائراً فى عنقه ؟ » فمعاذ الله أن نسد عليه بابا فتحه الله لعباده المذنبين كلهم ، ولم يغلقه عن أحد إلى حين موته ، أو إلى وقت طلوع الشمس من مغربها . و إنما الشأن فى طريق توبته وتحقيقها . هل يتعين لها القضاء أم يستأنف العمل ، و يصير مامضى لا له ولا عليه . و يكون حكمه حكم الكافر إذا أسلم فى استئناف العمل وقبول التوبة ؟ فإن ترك فريضة من فرائض الإسلام ، لايزيد على ترك الإسلام بجملته وفرائضه . فإذا كانت توبة تارك الإسلام مقبولة صحيحة . لايشترط فى صحتها إعادة مافاته فى حال إسلامه ــ أصلياً كان أو مرتداً ــ كما أجمع عليه الصحابة فى ترك أمر المرتدين ــ لما رجعوا إلى الإسلام بالقضاء ــ فقبول توبة تارك الصلاة وعدم توقفها على القضاء أولى . والله أعلم .

فصل

وأما فى حقوق العباد : فيتصور فى مسائل .

إحداها : من غصب أموالا . ثم تاب وتعذر عليه ردها إلى أصحابها ، أو إلى ورثتهم ، لجهله بهم ، أو لانقراضهم ، أو لغير ذلك ، فاختلف فى توبة مثل هذا .

فقالت طائفة : لا توبة له إلا بأداء هذه المظالم إلى أربابها . فإذا كان ذلك قد تعذر عليه ، فقد تعذرت عليه التوبة ، والقصاص أمامه يوم القيامة بالحسنات والسيئات ليس إلا .

قالوا : فإن هـذا حق لآدمى لم يصل إليه . والله سبحانه لايترك من حقوق عباده شيئاً . بل يستوفيها لبعضهم من بعض ، ولا يجاوزه ظلم ظالم . فلا بد أن يأخذ المظلوم حقه من ظالمه ، ولو لَطْمة ، ولو كلمة ، ولو رَمْية بحجرٍ .

قالوا : وأقرب ما لهذا فى تدارك الفارط منه : أن يكثر من الحسنات ، ليتمكن من الوفاء منها يوم لا يكون الوفاء بدينار ولا بدرهم ، فيتجر تجارة يمكنه الوفاء منها . ومن أنفع ما لَهُ : الصبر على ظلم غيره له وأذاه ، وغيبته وقذفه . فلا يستوفى حقه فى الدنيا . ولا يقابله ليحيل خصمه عليه إذا أفلس من حسناته . فإنه كما يؤخذ منه ما عليه يستوفى أيضاً ماله . وقد يتساويان . وقد يزيد أحدهما عن الآخر .

ثم اختلف هؤلاء فى حكم ما بيده من الأموال .

فقالت طائفة : يوقف أمرها . ولا يتصرف فيها ألبتة .

وقالت طائفة : يدفعها إلى الإمام أو نائبه . لأنه وكيل أربابها . فيحفظها لهم . ويكون حكمها حكم الأموال الضائعة .

وقالت طائفة أخرى : بل باب التوبة مفتوح لهذا . ولم يغلقه الله عنه ، ولا عن مذنب . وتوبته : أن يتصدق بتلك الأموال عن أربابها . فإذا كان يوم استيفاء الحقوق ، كان لهم الخيار ، بين أن يجيزوا ما فعل ، وتكون أجورها لهم ، و بين أن لا يجيزوا ، ويأخذوا من حسناته بقدر أموالهم . ويكون ثواب تلك الصدقة

له . إذ لا يبطل الله سبحانه ثوابها ، ولا يجمع لأربابها بين العوض والمعوض . فيغرمه إياها . و يجعل أجرها لهم ، وقد غرم من حسناته بقدرها .

وهذا مذهب جماعة من الصحابة ، كما هو مروى عن ابن مسعود ، ومعاوية وحجاج بن الشاعر . فقد روى أن ابن مسعود «اشترى من رجل جارية ، ودخل يَزِنُ له الثمن . فذهب رب الجارية ، فانتظره حتى يئس من عوده . فتصدق بالثمن . وقال : اللهم هـذا عن رب الجارية . فإن رضى فالأجر له ، و إن أبى فالأجر لى . وله من حسناتى بقدره » و « غَلَّ رجل من الغنيمة . ثم تاب . فجاء بما غَلَّه إلى أمير الجيش . فأبى أن يقبله منه ، وقال : كيف لى بإيصاله إلى الجيش ، وقد تفرقوا ؟ فأتى حجاجَ بن الشاعر . فقال: ياهذا ، إن الله يعلم الجيش وأسماءهم وأنسابهم ، فادفع خُمسه إلى صاحب الخمس . وتصدق بالباقى عنهم . فإن الله يوصل ذلك إليهم ــ أو كما قال ــ ففعل . فلما أخبر معاوية قال : لأن أكون أفتيتك بذلك أحب إلىّ من نصف ملكى » .

قالوا : وكذلك اللقطة إذا لم يجد ربَّها ، بعد تعريفها ، ولم يُرِدْ أن يتملكها ، تصدق بها عنه ، فإن ظهر مالكها خَيَّره بين الأجر والضمان .

قالوا : وهذا لأن المجهول فى الشرع كالمعدوم . فإذا جهل المالك صار بمنزلة المعدوم . وهذا مال لم يعلم له مالك معين . ولا سبيل إلى تعطيل الانتفاع به ، لما فيه من المفسدة والضرر بمالكه وبالفقراء . وبمنْ هو فى يده . أما المالك : فلعدم وصول نفعه إليه . وكذلك الفقراء . وأما من هو فى يده : فلعدم تمكنه من الخلاص من إثمه . فيغرمه يوم القيامة من غير انتفاع به . ومثل هذا لاتبيحه شريعة . فضلا عن أن تأمر به وتوجبه . فإن الشرائع مبناها على المصالح بحسب الإمكان وتكميلها . وتعطيل المفاسد بحسب الإمكان وتقليها . وتعطيل هذا المال ووقفه ومنعه عن الانتفاع به : مفسدة محضة . لامصلحة فيها . فلا يصار إليه .

قالوا : وقد استقرت قواعد الشرع على أن الإذن العرفى كاللفظى . فمن رأى

رأى بمال غيره موتا ـ وهو مما يمكن استدراكه بذبحه ـ فذبحه إحساناً إلى مالكه ونُصحاً له . فهو مأذون له فيه عرفا . و إن كان المالك سفيها . فإذا ذبحه لمصلحة مالكه لم يضمنه ، لأنه محسن و (٩ : ٩١ ما على المحسنين من سبيل) وكذلك إذا غصبه ظالم . أو خاف عليه منه . فصالحه عليه ببعضه ، ليَسْلَمَ الباقي لمالكه ، وهو غائب عنه ، أو رآه آيلا إلى تلفٍ محض . فباعه وحفظ ثمنه له ، ونحو ذلك . فإن هذا كله مأذون فيه عرفا من المالك . وقد باع عروة بن الجعد البارقي ـ وكيلُ النبي صلى الله عليه وسلم ـ مِلْكَ النبي صلى الله عليه وسلم بغير إذنه لفظاً ، واشترى له ببعض ثمنه مثل ما وكّله فى شرائه بذلك الثمن كله . ثم جاءه بالثمن و بالمشترى . فقبله النبي صلى الله عليه وسلم . ودعا له .

وأشكل هذا على بعض الفقهاء . و بناه على تصرف الفضولى . فأورد عليه أن الفضولى لا يقبض ولا يُقبِض ، وهذا قبض وأقبض .

و بناه آخرون على أنه كان وكيلا مطلقا فى كل شيء . وهذا أفسد من الأول . فإنه لا يُعرف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه وَكَّل أحداً وكالة مطلقة ألبتة . ولا نقل ذلك عنه مسلم .

والصواب : أنه مبنى على هذه القاعدة أن « الإذن العرفى كالإذن اللفظى » ومن رضى بالمشترى وخرج ثمنه عن ملكه . فهو بأن يرضى به و يُحَصِّل له الثمن أشد رضى .

ونظير هذا : مريض عجز أصحابه ـ فى السفر أو الحضر ـ عن استئذانه فى إخراج شيء من ماله فى علاجه ، وخيف عليه . فإنهم يخرجون من ماله ما هو مضطر إليه بدون استئذانه . بناء على العرف فى ذلك . ونظائر ذلك مما مصلحته وحسنه مستقر فى فِطَر الخلق . ولا تأتى شريعة بتحريمه كثير .

و إذا ثبت ذلك ، فمن المعلوم : أن صاحب هذا المال الذى قد حيل بينه و بينه أشد شيء رضى بوصول نفعه الأخروى إليه . وهو أكره شيء لتعطيله أو إبقائه

مقطوعاً عن الانتفاع به دنيا وأخرى . وإذا وصل إليه ثواب ماله سَرَّه ذلك أعظم من سروره بوصوله إليه فى الدنيا . فكيف يقال : مصلحة تعطيل هذا المال ـ عن انتفاع الميت والمساكين به ومن هو بيده ـ أرجح من مصلحة إنفاقه شرعا ؟ بل أى مصلحة دينية أو دنيوية فى هذا التعطيل ؟ وهل هو إلا محض المفسدة ؟

ولقد سئل شيخنا أبو العباس ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ سأله شيخ . فقال هَرَبت من أستاذى[1] وأنا صغير إلى الآن . لم أطَّلِع له على خبر ، وأنا مملوك . وقد خفت من الله عز وجل ، وأريد براءة ذمتى من حق أستاذى من رقبتى ، وقد سألتُ جماعة من المفتين . فقالوا لى : اذهب فاقعد فى المستودع . فضحك شيخنا وقال : تصدق بقيمتك ـ أعلى ما كانت ـ عن سيدك . ولا حاجة لك بالمستودع تقعد فيه عبثاً فى غير مصلحة ، وإضراراً بك . وتعطيلا عن مصالحك . ولامصلحة لأستاذك فى هذا . ولا لك ولا للمسلمين . أو نحو هذا من الكلام . والله أعلم .

فصل

المسألة الثانية : إذا عاوض غيره معاوضة محرمة ، وقبض العوض ـ كالزانية ، والمغنِّى ، وبائع الخمر ، وشاهد الزور ونحوهم ـ ثم تاب والعوض بيده .

فقالت طائفة : يرده إلى مالكه . إذ هو عين ماله . ولم يقبضه بإذن الشارع . ولا حصل لربه فى مقابلته نفع مباح .

وقالت طائفة : بل توبته بالتصدق به . ولا يدفعه إلى من أخذه منه . وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية . وهو أصوب القولين . فإن قابضه إنما قبضه ببذل مالكه له ، ورضاه ببذله . وقد استوفى عوضه المحرم . فكيف يجمع له بين العوض والمعوض ؟ وكيف يرد عليه مالاً قد استعان به على معاصى الله ، ورضى

(١) يطلق الأستاذ ـ فى ذلك الوقت ـ على التاجر الكبير . ويطلق على الحاذق فى الصنعة ، وعلى المترئس فيها ، وعلى رئيس الخدم .

بإخراجه فيما يستعين به عليها ثانياً وثالثاً ؟ وهل هذا إلا محض إعانته على الإثم والعدوان ؟ وهل يناسب هذا محاسن الشرع : أن يُقْضَى للزانى بكل مادفعه إلى من زنى بها . و يؤخذ منها ذلك طوعاً أو كرهاً . فيعطاه وقد نال عوضه ؟

وهَبْ أن هذا المال لم يملكه الآخذ ، فملكُ صاحبه قد زال عنه بإعطائه لمن أخذه . وقد سَلَّم له مافى قبالته من النفع ، فكيف يقال : مِلْكُه باق عليه ، ويجب رده إليه ؟ وهذا بخلاف أمره بالصدقة به . فإنه قد أخذه من وجه خبيث برضى صاحبه و بذله له بذلك ، وصاحبه قد رضى بإخراجه عن ملكه بذلك ، وأن لايعود إليه . فكان أحق الوجوه به : صرفه فى المصلحة التى ينتفع بها من قبضه ويخفف عنه الإثم . ولا يُقَوَّى الفاجر به ويُعان ، ويجمع له بين الأمرين .

وهكذا توبة من اختلط ماله الحلال بالحرام ، وتعذر عليه تمييزه : أن يتصدق بقدر الحرام . ويطيِّب باقى ماله . والله أعلم .

فصل

إذا غصب مالا ومات ربه ، وتعذر رده عليه . تعين عليه رده إلى وارثه . فإن مات الوارث رده إلى وارثه . وهلم جرا . فإن لم يرده إلى ربه . ولا إلى أحد ورثته فهل تكون المطالبة به فى الآخرة للموروث ، إذ هو ربه الأصلى ، وقد غصبه عليه ، أو للوارث الأخير . إذ الحق قد انتقل إليه ؟ .

فيه قولان للفقهاء . وهما وجهان فى مذهب الشافعى .

ويحتمل أن يقال : المطالبة للموروث ، ولكل واحد من الورثة . إذ كل منهم قد كان يستحقه . ويجب عليه الدفع إليه . فقد ظلمه بترك إعطائه ماوجب عليه دفعه إليه . فيتوجه عليه المطالبة فى الآخرة له .

فإن قيل : فكيف يتخلص بالتوبة من حقوق هؤلاء ؟

قيل : طريق التوبة : أن يتصدق عنهم بمال تجرى منافع ثوابه عليهم بقدر

مافات كل واحد منهم من منفعة ذلك المال لو صار إليه ، متحرياً للممكن من ذلك . وهكذا لو تطاولت على المال سِنون ، وقدكان يمكن ربه أن ينميه بالربح . فتوبته بأن يخرج المال ومقدارَ مافوته من ربح ماله .

فإن كان قد ربح فيه بنفسه . فقيل : الربح كله للمالك . وهو قول الشافعى وظاهر مذهب أحمد رحمهما الله .

وقيل : كله للغاصب . وهو مذهب أبى حنيفة ومالك رحمهما الله .

وكذلك لو أودعه مالا فاتجر به وربح . فربحه له دون مالكه عندهما ، وضمانه عليه .

وفيها قول ثالث : أنهما شريكان فى الربح . وهو رواية عن أحمد رحمه الله . واختيار شيخنا رحمه الله . وهو أصح الأقوال . فتضم حصة المالك من الربح إلى أصل المال . ويتصدق بذلك .

وهكذا لو غصب ناقة أو شاة ، فنتجت أولاداً . فقيل : أولادها كلها للمالك . فإن ماتت ـ أو شيء من النتاج ـ رد أولادها وقيمة الأم وما مات من النتاج . هذا مذهب الشافعى وأحمد في المشهور عند أصحابه .

وقال مالك : إذا ماتت فربُّها بالخيار بين أخذ قيمتها يوم ماتت وترك نتاجها للغاصب ، وبين أخذ نتاجها وترك قيمتها . وعلى القول الثالث الراجح : يكون عليه قيمتها . وله نصف النتاج . والله أعلم .

فصل

اختلف الناس : هل من الذنوب ذنب لا تقبل توبته أم لا ؟ .

فقال الجمهور : التوبة تأتى على كل ذنب . فكل ذنب يمكن التوبة منه وتقبل .

وقالت طائفة : لا توبة للقاتل . وهذا مذهب ابن عباس المعروف عنه ،

وإحدى الروايتين عن أحمد . وقد ناظر ابن عباس فى ذلك أصحابه ، فقالوا « أليس قد قال الله تعالى فى سورة الفرقان (٢٥ : ٦٨ ـ ٧٠ ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ـ إلى أن قال ـ إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدّل الله سيئاتهم حسنات . وكان الله غفوراً رحيما) ؟ فقال : كانت هذه الآية فى الجاهلية . وذلك أن ناساً من أهل الشرك كانوا قد قتلوا وزنوا . فأتوا رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : إن الذى تدعو إليه لحسن لو تُخبرنا أن لما عملناه كفارة فنزل (٢٥ : ٦٨ والذين لا يدعون مع الله إلٰها آخر) الآية . فهذه فى أولئك . وأما التى فى سورة النساء وهى قوله تعالى (٤ : ٩٣ ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها . وغضب الله عليه ولعنه . وأعد له عذاباً عظيما) فالرجل إذا عرف الإسلام وشرائعه . ثم قَتل . فجزاؤه جهنم » وقال زيد بن ثابت « لما نزلت التى فى الفرقان (والذين لا يدعون مع الله إلٰها آخر) عجبنا من لينها . فلبثنا سبعة أشهر . ثم نزلت الغليظة بعد اللينة فنسخت اللينة » وأراد بالغليظة : هذه الآية التى فى سورة النساء ، وباللينة : آية الفرقان . قال ابن عباس « آية الفرقان مكية . وآية النساء مدنية . نزلت ولم ينسخها شىء » .

قال هؤلاء : ولأن التوبة من قتل المؤمن عمداً متعذرة . إذ لا سبيل إليها إلا باستحلاله ، أو إعادة نفسه ـ التى فوّتها عليه ـ إلى جسده . إذ التوبة من حق الآدمى : لا تصح إلا بأحدهما . وكلاهما متعذر على القاتل . فكيف تصح توبته من حق آدمى لم يصل إليه . ولم يستحله منه ؟

ولا يرد عليهم هذا فى المال إذا مات ربه ولم يُوَفِّه إياه . لأنه يتمكن من إيصال نظيره إليه بالصدقة .

قالوا : ولا يرد علينا أن الشرك أعظم من القتل . وتصح التوبة منه . فإن ذلك محض حق الله . فالتوبة منه ممكنة . وأما حق الآدمى : فالتوبة موقوفة على أدائه إليه واستحلاله . وقد تعذر .

واحتج الجمهور بقوله تعالى (٣٩ : ٥٣ قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله . إن الله يغفر الذنوب جميعاً . إنه هو الغفور الرحيم) فهذه فى حق التائب . و بقوله (٤ : ٤٨ إن الله لا يغفر أن يشرك به . و يغفر مادون ذلك لمن يشاء) فهذه فى حق غير التائب . لأنه فرق بين الشرك وما دونه . وعلق المغفرة بالمشيئة . فخصص وعلق ، وفى التى قبلها عَمَّم وأطلق .

واحتجوا بقوله تعالى (٢٠ : ٨٢ و إنى لغَفَّار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى) فإذا تاب هذا القاتل وآمن وعمل صالحاً . فإن الله عز وجل غَفَّار له .

قالوا : وقد صح عن النبى صلى الله عليه وسلم حديث الذى قتل المائة ثم تاب فنفعته تو بته . وأُلحق بالقر ية الصالحة التى خرج إليها . وصح عنه صلى الله عليه وسلم ـ من حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ـ وحوله عصابة من أصحابه ـ « بايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئاً . ولا تسرقوا . ولا تزْنُوا ، ولاتقتلوا أولادكم . ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم . ولا تعصونى فى معروف . فمن وَفَّى منكم فأجره على الله . ومن أصاب من ذلك شيئاً ، فعوقب به فى الدنيا . فهو كفارة له . ومن أصاب من ذلك شيئاً . فستَره الله عليه فهو إلى الله . إن شاء عفا عنه . و إن شاء عاقبه . فبايعناه على ذلك »

قالوا : وقد قال صلى الله عليه وسلم ـ فيما يروى عن ربه تبارك وتعالى ـ « ابن آدم ، لو لقيتنى بقُراب الأرض خطايا . ثم لقيتنى لاتشرك بى شيئاً . لقيتك بقرابها مغفرة » وقال صلى الله عليه وسلم « من مات لايشرك بالله شيئاً دخل الجنة » وقال « من كان آخر كلامه : لا إله إلا الله . دخل الجنة » وقال « إن الله حرم على النار من قال : لا إله إلا الله . يبتغى بذلك وجه الله » وفى حديث الشفاعة « أخرجوا من النار من فى قلبه مثقال حبة من خَرْدل من إيمان » وفيه يقول الله تعالى « وعزتى وجلالى ، لأخرجَنَّ من النار من قال لا إله إلا الله » وأضعاف هذه النصوص كثير . تدل على أنه لا يخلد فى النار أحد من أهل التوحيد .

قالوا : وأما هذه الآية التى فى النساء : فهى نظائر أمثالها من نصوص الوعيد كقوله تعالى (٤ : ١٤ ومن يعص الله ورسوله وَيَتَعَدَّ حدوده يدخله ناراً خالداً فيها . وله عذاب مهين) وقوله (٧٢:٢٣ ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالداً فيها) وقوله (٤ : ١٠ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً . وسيصلون سعيراً) وقوله صلى الله عليه وسلم « من قتل نفسه بحديدة فحديدته يتَوَجَّأُ بها خالداً مخلداً فى نار جهنم » ونظائره كثيرة .

وقد اختلف الناس فى هذه النصوص على طرق .

أحدها : القول بظاهرها ، وتخليد أرباب هذه الجرائم فى النار . وهو قول الخوارج والمعتزلة . ثم اختلفوا .

فقالت الخوارج : هم كفار . لأنه لا يخلد فى النار إلا كافر . وقالت المعتزلة : ليسوا بكفار . بل فُساق ، مخلدون فى النار . هذا كله إذا لم يتوبوا .

وقالت فرقة : بل هذا الوعيد فى حق المستحِلِّ لها . لأنه كافر . وأما من فعلها معتقداً تحريمها : فلا يلحقه هذا الوعيد ـ وعيد الخلود ـ وإن لحقه وعيد الدخول .

وقد أنكر الإمام أحمد هذا القول . وقال : لو استحلَّ ذلك ولم يفعله كان كافراً . والنبى صلى الله عليه وسلم إنما قال : من فعل كذا وكذا .

وقالت فرقة ثالثة : الاستدلال بهذه النصوص مبنى على ثبوت العموم . وليس فى اللغة ألفاظ عامة . ومن هٰهنا أنكر العموم من أنكره . وقَصْدُهم تعطيل هذه الأدلة عن استدلال المعتزلة والخوارج بها ، لكن ذلك يستلزم تعطيل الشرع جملة . بل تعطيل عامة الأخبار . فهؤلاء ردوا باطلا بأبطل منه ، وبدعة بأقبح منها . وكانوا كمن رام أن يبنى قصراً فهدم مصراً .

وقالت فرقة رابعة : فى الكلام إضمار .

قالوا : والإضمار فى كلامهم كثير معروف .

ثم اختلفوا فى هذا المضمر . فقالت طائفة : بإضمار الشرط . والتقديرُ : فجزاؤه كذا ، إن جازاه ، أو إن شاء .

وقالت فرقة خامسة : بإضمار الاستثناء . والتقدير : فجزاؤه كذا إلا أن يعفو . وهذه دعوى لا دليل فى الكلام عليها ألبتة . ولكن إثباتها بأمر خارج عن اللفظ

وقالت فرقة سادسة : هذا وعيد . و إخلاف الوعيد لا يذم . بل يمدح ، والله تعالى يجوز عليه إخلاف الوعيد . ولا يجوز عليه خُلْف الوعد . والفرق بينهما . أن الوعيد حقه . فإخلافه عفو وهبة و إسقاط ، وذلك موجب كرمه وجوده و إحسانه ، والوعد حق عليه ، أوجبه على نفسه ، والله لا يخلف الميعاد .

قالوا : ولهذا مدح به كعبُ بن زهير رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، حيث يقول :

نُبِّئتُ أن رسول الله أوعدنى والعفوُ عند رسول الله مأمول

وتناظر فى هذه المسألة أبو عمرو بن العلاء ، وعمرو بن عبيد ، فقال عمرو بن عبيد : ياأبا عمرو ، لايخلف الله وعده . وقد قال (٤:٩٣ ومن يقتل مؤمنا متعمداً ــ الآية) فقال له أبو عمرو : ويحك ياعمرو ، من العُجْمة أتيت . إن العرب لا تَعُدّ إخلاف الوعيد ذما . بل جوداً وكرماً . أما سمعت قول الشاعر :

ولا يرهب ابنُ العم ماعِشْتُ صَوْلتى ولا يختشى من سطوة المتهدد
وإنى إن أوعدته ، أو وعدته لمخلف إيعادى . ومنجز موعدى

وقالت فرقة سابعة : هذه النصوص وأمثالها مما ذكر فيه المقتضى للعقوبة . ولا يلزم من وجود مقتضى الحكم وجوده . فإن الحكم إنما يتم بوجود مقتضيه وانتفاء مانعه . وغاية هذه النصوص : الإعلام بأن كذا سبب للعقوبة ومقتضٍ لها وقد قام الدليل على ذكر الموانع . فبعضها بالإجماع . و بعضها بالنص . فالتوبة مانع بالإجماع . والتوحيد مانع بالنصوص المتواترة التى لا مدفع لها . والحسنات العظيمة الماحية مانعة . والمصائب الكبار المكفرة مانعة . و إقامة الحدود فى

الدنيا مانع بالنص . ولا سبيل إلى تعطيل هـذه النصوص . فلا بد من إعمال النصوص من الجانبين .

ومن هٰهنا قامت الموازنة بين الحسنات والسيئات ، اعتباراً بمقتضى العقاب ومانعه ، و إعمالا لأرجحها .

قالوا : وعلى هذا بناء مصالح الدارين ومفاسدها . وعلى هذا بناء الأحكام الشرعية ، والأحكام القدرية . وهو مقتضى الحكمة السارية فى الوجود . و به ارتباط الأسباب ومسبباتها خلقاً وأمراً . وقد جعل الله سبحانه لكل ضد ضداً يدافعه و يقاومه . و يكون الحكم للأغلب منهما . فالقوة مقتضية للصحة والعافية، وفساد الأخلاط و بغيها[1] مانع من عمل الطبيعة وفعل القوة . والحكم للغالب منهما . وكذلك قوى الأدوية والأمراض . والعبد يكون فيه مقتض للصحة ومقتض للعطب . وأحدهما يمنع كمال تأثير الآخر و يقاومه . فإذا ترجح عليه وقهره كان التأثير له .

ومن هٰهنا يعلم انقسام الخلق إلى من يدخل الجنة ، ولايدخل النار وعكسه . ومن يدخل النار ، ثم يخرج منها . و يكون مكثه فيها بحسب مافيه من مقتضى المكث فى سرعة الخروج و بطئه .

ومن له بصيرة منورة يرى بها كل ما أخبر الله به فى كتابه من أمر المعاد وتفاصيله ، حتى كأنه يشاهده رأى عين . و يعلم أن هذا هو مقتضى إلٰهيته سبحانه ور بو بيته وعزته وحكمته . وأنه يستحيل عليه خلاف ذلك . ونسبة خلاف ذلك إليه نسبة مالا يليق به إليه.فيكون نسبة ذلك إلى بصيرته كنسبة الشمس والنجوم إلى بصره . وهذا يقين الإيمان . وهو الذى يحرق السيئات كما تحرق النار الحطب . وصاحب هذا المقام من الإيمان : يستحيل إصراره على السيئات ، و إن وقعت

---

(١) أى غلبة الأخلاط الفاسدة

منه وكثرت . فإن مامعه من نور الإيمان يأمره بتجديد التوبة كل وقت بالرجوع إلى الله بعدد أنفاسه . وهذا من أحب الخلق إلى الله .

فهذه مجامع طرق الناس فى نصوص الوعيد .

فصـل

واختلفوا فيما إذا تاب القاتل وسلَّم نفسه . فقتل قصاصاً ، هل يبقى عليه يوم القيامة للمقتول حق ؟ .

فقالت طائفة : لايبقى عليه شيء . لأن القصاص حده . والحدود كفارة لأهلها وقد استوفى ورثة المقتول حق موروثهم . وهم قائمون مقامه فى ذلك . فكأنه قد استوفاه بنفسه . إذ لافرق بين استيفاء الرجل حقه بنفسه أو بنائبه ووكيله .

يوضح هذا : أنه أحد الجنايتين ، فإذا استوفيت منه لم يبق عليه شيء ، كما لو جنى على طَرَفه فاستقاد منه . فإنه لايبقى له عليه شيء .

وقالت طائفة : المقتول قد ظلم . وفاتت عليه نفسه . ولم يستدرك ظلامته . والوارث إنما أدرك ثأر نفسه ، وشفاء غيظه . وأى منفعة حصلت للمقتول بذلك ؟ وأى ظلامة استوفاها من القاتل ؟ .

قالوا : فالحقوق فى القتل ثلاثة : حق لله . وحق للمقتول . وحق للوارث . فحق الله : لايزول إلا بالتوبة . وحق الوارث : قد استوفاه بالقتل . وهو مخير بين ثلاثة أشياء : بين القصاص ، والعفو مجاناً ، أو إلى مال . فلو أحله ، أو أخذ منه مالا لم يسقط حق المقتول بذلك . فكذلك إذا اقتص منه . لأنه أحد الطرق الثلاثة فى استيفاء حقه . فكيف يسقط حق المقتول بواحد منها دون الآخرين ؟ .

قالوا : ولو قال القتيل : لاتقتلوه لأطالبه بحقى يوم القيامة . فقتلوه ، أكان يسقط حقه ولم يسقطه ؟ فإن قلتم : يسقط . فباطل . لأنه لم يرض بإسقاطه . وإن قلتم : لايسقط . فكيف تسقطونه إذا اقتص منه ، مع عدم العلم برضا المقتول بإسقاط حقه ؟ .

وهذه حجج كما ترى فى القوة ، لاتندفع إلا بأقوى منها أو بأمثالها .

فالصواب ــ والله أعلم ــ أن يقال : إذا تاب القاتل من حق الله . وسلم نفسه طوعاً إلى الوارث ، ليستوفى منه حق موروثه : سقط عنه الحقان . وبقى حق الموروث لايضيعه الله . ويجعل من تمام مغفرته للقاتل : تعويض المقتول . لأن مصيبته لم تنجبِرْ بقتل قاتله . والتوبة النصوح تهدم ماقبلها . فيعوض هذا عن مظلمته . ولا يعاقب هذا لكمال توبته . وصار هذا كالكافر المحارب لله ولرسوله إذا قتل مسلماً فى الصف . ثم أسلم وحسن إسلامه . فإن الله سبحانه يعوض هذا الشهيد المقتول . ويغفر للكافر بإسلامه . ولا يؤاخذه بقتل المسلم ظلماً . فإن هدم التوبة لما قبلها كهدم الإسلام لما قبله .

وعلى هذا إذا سلم نفسه وانقاد ، فعفا عنه الولى ، وتاب القاتل توبة نصوحاً . فالله تعالى يقبل توبته . ويعوض المقتول .

فهذا الذى يمكن أن يصل إليه نظر العالم واجتهاده . والحكم بعد ذلك لله (٢٧:٧٨ إن ربك يقضى بينهم بحكمه . وهو العزيز العليم) .

فصل

فى مشاهد الخلق فى المعصية

وهى ثلاثة عشر مشهداً .

مشهد الحيوانية ، وقضاء الشهوة . ومشهد اقتضاء رسوم الطبيعة ولوازم الخلقة . ومشهد الجبر . ومشهد القدر . ومشهد الحكمة . ومشهد التوفيق والخذلان . ومشهد التوحيد . ومشهد الأسماء والصفات . ومشهد الإيمان وتعدد شواهده . ومشهد الرحمة . ومشهد العجز والضعف . ومشهد الذل والافتقار . ومشهد المحبة والعبودية .

فالأربعة الأول للمنحرفين . والثمانية البواقى لأهل الاستقامة . وأعلاها : المشهد العاشر .

وهذا الفصل من أجلّ فصول الكتاب . وأنفعها لكل أحد . وهو حقيق بأن تُثْنَى عليه الخناصر ، ولعلك لاتظفر به فى كتاب سواه . إلا ما ذكرناه فى كتابنا المسمى « سفر الهجرتين فى طريق السعادتين » .

فصل

فأما مشهد الحيوانية ، وقضاء الشهوة : فمشهد الجهال ، الذين لافرق بينهم و بين سائر الحيوان ، إلا فى اعتدال القامة ونطق اللسان . ليس همهم إلا مجرد نيل الشهوة بأى طريق أفضت إليها . فهؤلاء نفوسهم نفوس حيوانية ، لم تترق عنها إلى درجة الإنسانية ، فضلا عن درجة الملائكة . فهؤلاء حالهم أخس من أن تذكر . وهم فى أحوالهم متفاوتون بحسب تفاوت الحيوانات التى هم على أخلاقها وطباعها .

فمنهم : من نفسه كلبية . لو صادف جيفة تشبع ألف كلب لوقع عليها ، وحماها من سائر الكلاب . ونبح كل كلب يدنو منها . فلا تقربها الكلاب إلا على كره منه وغلبة . ولا يسمح لكلب بشىء منها . وهمه شبع بطنه من أى طعام اتفق : ميتة أو مذكى ، خبيث أو طيب . ولايستحى من قبيح . إن تَحْمِلْ عليه يَلْهَثْ أو تتركه يلهث . إن أطعمته بصبص بذنبه ودار حولك . و إن منعته هَرَّكَ ونبحك .

ومنهم : من نفسه حمارية . لم تخلق إلا للكد والعلف . كلما زيد فى علفه زيد فى كده ، أبكم الحيوان ، وأقله بصيرة . ولهذا مَثَّل الله سبحانه وتعالى به من حَمَّلَهُ كتابه . فلم يحمله معرفة ولا فقها ولا عملا . ومثل بالكلب عالم السوء الذى آتاه الله آياته فانسلخ منها ، وأخلد إلى الأرض واتبع هواه[1] . وفى هذين المثلين أسرار عظيمة . ليس هذا موضع ذكرها .

---

(١) الذى يظهر من سياق الآيات (٧ : ١٧٩-١٨٢ وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم -إلى قوله- أولئك هم الغافلون) أنها فى كل من عمى بالغفلة التقليدية =

ومنهم : من نفسه سبعية غضبية . همته العدوان على الناس، وقهرهم بما وصلت إليه قدرته ، طبيعته تتقاضى ذلك كتقاضى طبيعة السبع لما يصدر منه .

ومنهم : من نفسه فأرية ، فاسق بطبعه ، مفسد لما جاوره ، تسبيحه بلسان الحال : سبحان من خلقه للفساد .

ومنهم : من نفسه على نفوس ذوات السموم والحُمَات ، كالحية والعقرب وغيرهما . وهذا الضرب هو الذى يؤذى بعينه . فيُدخل الرجل القبر والجمل القِدْر . والعين وحدها لم تفعل شيئاً . و إنما النفس الخبيثة السُّمِّية تكيفت بكيفية غضبية ، مع شدة حَسَدٍ و إعجاب ، وقابلت المَعِين على غِرَّة منه وغفلة . وهو أعزل من سلاحه . فلدَغَتْه كالحية التى تنظر إلى موضع مكشوف من بدن الإنسان فتنهشه . فإما عطب و إما أذى . ولهذا لا يتوقف أذى العائن على الرؤية والمشاهدة . بل إذا وُصف له الشىء الغائب عنه وصل إليه أذاه . والذنب لجهل المعين وغفلته وغِرَّته عن حمل سلاحه كل وقت . فالعائن لا يؤثر فى شاكى السلاح ، كالحية إذا قابلت دِرْعا سابغاً على جميع البدن ليس فيه موضع مكشوف . فحق على من أراد حفظ نفسه وحمايتها : أن لا يزال متدرعاً متحصناً لابساً أداة الحرب ، مواظباً على أوراد التعوذات ، والتحصينات النبوية ، التى فى القرآن ، والتى فى السنة .

و إذا عُرف الرجل بالأذى بالعين : ساغ — بل وجب — حبسه و إفراده عن الناس و يُطْعَم و يسقى حتى يموت . ذكر ذلك غير واحد من الفقهاء . ولا ينبغى أن يكون فى ذلك خلاف . لأن هذا من نصيحة المسلمين ، ودفع الأذى عنهم . ولو قيل فيه غير ذلك لم يكن بعيداً من أصول الشرع .

= عن هداية الفطرة الإنسانية السميعة البصيرة العاقلة المميزة ، التى آتاها الله إياه بالآيات فى نفسه وفى الآفاق ، فإن الله جعل لكل إنسان هذه الآيات درعاً يقيه الله به كيد الشيطان . فلما عمى عنها وانسلخ منها أخلد إلى أرض الشهوات . فاتبع هواه وكان من الغاوين .

فإن قيل : فهل تُقِيدون منه إذا قتل بعينه ؟ .

قيل : إن كان ذلك بغير اختياره ، بل غلب على نفسه لم يقتص منه . وعليه الدية . و إن تعمد وقَدَر على رده ، وعلم أنه يقتل به : ساغ للولى أن يقتله بمثل ما قتل به . فيَعينه إن شاء ، كما عان هو المقتول . وأما قتله بالسيف قصاصاً : فلا . لأن هذا ليس مما يقتل غالباً ، ولا هو مماثل لجنايته .

وسألت شيخنا أبا العباس ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ عن القتل بالحال ، هل يوجب القصاص ؟ .

فقال : للولى أن يقتله بالحال[1] . كما قتل به .

فإن قيل : فما الفرق بين القتل بهذا و بين القتل بالسحر ، حيث توجبون القصاص به بالسيف ؟ .

قلنا : الفرق من وجهين .

أحدهما : أن السحر الذى يقتل به : هو السحر الذى يقتل مثله غالباً . ولاريب أن هذا كثير فى السحر . وفيه مقالات وأبواب معروفة للقتل عند أر بابه .

الثانى : أنه لا يمكن أن يقتص منه بمثل ما فعل . لكونه محرما لحق الله . فهو كما لو قتله باللواط وتجريع الخمر . فإنه يقتص منه بالسيف .

وليس هذا موضع ذكر هذه المسائل ، وإنما ذكرت لما ذكرنا أن من النفوس البشرية ما هى على نفوس الحيوانات العادية وغيرها . وهذا هو تأويل سفيان بن عيينة فى قوله تعالى (٦ : ٣٨ وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ، ما فرطنا فى الكتاب من شىء) .

وعلى هذا الشَّبَه اعتماد أهل التعبير للرؤيا فى رؤية هذه الحيوانات فى المنام عند الإنسان وفى داره ، أو أنها تحار به . وهو كما اعتمدوه . وقد وقع لنا ولغيرنا من ذلك فى المنام وقائع كثيرة . فكان تأويلها مطابقا لأقوام على طباع تلك

(١) هذا غريب ، إلا أن يكون فى الكلام تحريف

الحيوانات . وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم فى قصة أحد « بقراً تُنْحر » فكان من أصيب من المؤمنين بنحر الكفار . فإن البقر أنفع الحيوانات للأرض . وبها صلاحها وفلاحها مع ما فيها من السكينة والمنافع والذل ـ بكسر الذال ـ فإنها ذلول مذللة ، منقادة غير أبية . والجواميس كبارهم ورؤساؤهم[1] . ورأى عمر ابن الخطاب كأن دِيكًا نَقره ثلاث نَقْرات ، فكان طعنُ أبى لؤلؤة له . والديك رجل أعجمى شرير .

ومن الناس : من طبعه طبع خنزير ، يمر بالطيبات فلا يلوى عليها . فإذا قام الإنسان عن رجيعه قمَّه . وهكذا كثير من النـاس . يسمع منك ويرى من المحاسن أضعاف أضعاف المساوىء ، فلا يحفظها ولا ينقلها ولا تناسبه . فإذا رأى سَقْطة أو كلمة عوراء وجد بغيته وما يناسبها . فجعلها فاكهته ونُقْله .

ومنهم : من هو على طبيعة الطاوس ليس له إلا التَّطَوس والتزين بالريش . وليس وراء ذلك من شىء .

ومنهم من هو على طبيعة الجمل أحقد الحيوان ، وأغلظه كبدا .

ومنهم من هو على طبيعة الدُّبِّ أبكم خبيث ، وعلى طبيعة القرد .

وأحمد طبائع الحيوانات : طبائع الخيل التى هى أشرف الحيوانات نفوسا ، وأكرمها طبعا . وكذلك الغنم . وكل من ألِفَ ضَرْبا من ضروب هذه الحيوانات اكتسب من طبعه وخلقه . فإن تغذى بلحمه كان الشَّبه أقوى . فإن الغاذى شبيه بالمغتذى .

ولهذا حرم الله أكل لحوم السباع وجوارح الطير ، لما تورث آكلها من شبه نفوسها بها . والله أعلم .

والمقصود : أن أصحاب هذا المشهد ليس لهم شهود سوى ميل نفوسهم وشهواتهم . لا يعرفون ما وراء ذلك ألبتة .

---

(١) كبار الناس فى تعبير رؤيا الجواميس

فصل

المشهد الثانى

مشهد رسوم الطبيعة ولوازم الخلقة . كمشهد زنادقة الفلاسفة والأطباء ، الذين يشهدون أن ذلك من لوازم الخلقة الانسانية ، وأن تركيب الإنسان من الطبائع الأربع وامتزاجها واختلاطها ، كما يقتضى بَغْى بعضها على بعض ، وخروجه عن الاعتدال ـ بحسب اختلاف هذه الاخلاط ـ فـكذلك تركيبه من البدن والنفس والطبيعة والأخلاط الحيوانية ، تتقاضاه آثار هذه الخلقة ورسوم تلك الطبيعة . ولا تنقهر إلا بقاهر . إما من نفسه ، وإما من خارج عنه . وأكثر النوع الإنسانى ليس له قاهر من نفسه ، فاحتياجه إلى قاهر فوقه يدخله تحت سياسة وإيالة ينتظم بها أمره ضرورة ، كحاجته إلى مصالحه من الطعام والشراب واللباس .

وعند هؤلاء : أن العاقل متى كان له وازع من نفسه قاهر ، لم يحتج إلى أمر غيره ونهيه وضبطه .

فشهد هؤلاء : من حركات النفس الاختيارية ، الموجبة للجنايات ، كمشهدهم من حركات الطبيعة الاضطرارية ، الموجبة للتغيرات . وليس لهم مشهد وراء ذلك

فصل

المشهد الثالث

مشهد أصحاب الجبر . وهم الذين يشهدون أنهم مجبورون على أفعالهم ، وأنها واقعة بغير قدرتهم ، بل لا يشهدون أنها أفعالهم ألبتة .

يقولون : إن أحدهم غير فاعل فى الحقيقة ولا قادر ، وأن الفاعل فيه غيره والمحرك له سواه . وأنه آلة محضة ، وحركاته بمنزلة هبوب الرياح ، وحركات الاشجار .

وهؤلاء إذا أنكرتَ عليهم أفعالهم احتجوا بالقدر . وحملوا ذنوبهم عليه .

وقد يَغلون فى ذلك ، حتى يروا أفعالهم كلها طاعات . خيرها وشرها ، لموافقتها المشيئة والقدر .

ويقولون : كما أن موافقة الأمر طاعة ، فموافقة المشيئة طاعة . كما حكى الله تعالى عن المشركين إخوانِهم : أنهم جعلوا مشيئة الله تعالى لأفعالهم دليلاً على أمره بها ورضاه . وهؤلاء شرٌّ من القدرية النفاة ، وأشد منهم عداوة لله ، ومناقضة لكتبه ورسله ودينه . حتى إن من هؤلاء من يعتذر عن إبليس ، ويتوجع له ، ويقيم عذره بجهده . وينسب ربه تعالى إلى ظلمه بلسان الحال والمقال ، ويقول : ما ذنبه ، وقد صان وجهه عن السجود لغير خالقه ؟ وقد وافق حكمه ومشيئته فيه وإرادته منه ؟ ثم كيف يمكنه السجود ، وهو الذى منعه منه وحال بينه وبينه ؟ وهل كان فى ترك السجود لغير الله إلا محسناً ؟ ولكن .

إذا كان المحب قليل حظ　　فما حسناته إلا ذنوب

وهؤلاء أعداء الله حقاً ، وأولياء إبليس ، وأحباؤه وإخوانه . وإذا ناح منهم نائح على إبليس ، رأيت من البكاء والحنين أمراً عجباً . ورأيت من ظلمهم الأقدارَ ، واتهامهم الجبار مايبدو على فلتات ألسنتهم ، وصفحات وجوههم ، وتسمع من أحدهم من التظلم والتوجع ماتسمعه من الخصم المغلوب العاجز عن خصمه ، فهؤلاء هم الذين قال فيهم شيخ الإسلام ابن تيمية فى تائيته :

ويدعى خصوم الله يوم معادهم　　إلى النار طراً فرقة القدرية

فصل

المشهد الرابع

مشهد القدرية النفاة . يشهدون أن هذه الجنايات والذنوب ، هم الذين أحدثوها ، وأنها واقعة بمشيئتهم ، دون مشيئة الله تعالى ، وأن الله لم يُقَدِّر ذلك عليهم ولم يكتبه ، ولا شاء ، ولا خلق أفعالهم ، وأنه لا يقدر أن يهدى أحداً

ولا يضله إلا بمجرد البيان . لا أنه يلهمه الهدى والضلال ، والفجور والتقوى ، فيجعل ذلك فى قلبه .

ويشهدون أنه يكون فى ملك الله مالا يشاؤه ، وأنه يشاء مالا يكون ، وأن العباد خالقون لأفعالهم بدون مشيئة الله .

فالمعاصى والذنوب خَلْقهم ، وموجب مشيئتهم ، لا أنها خلق الله . ولا تتعلق بمشيئته . وهم لذلك مبخوسو الحظ جداً من الاستعانة بالله والتوكل عليه ، والاعتصام به ، وسؤاله أن يهديهم ، وأن يُثَبِّتَ قلوبهم ، وأن لا يزيغها ، وأن يوفقهم لمرضاته ، ويجنبهم معصيته . إذ هذا كله واقع بهم ، وعين أفعالهم . لايدخل تحت مشيئة الرب شيء منها .

والشيطان قد رضى منهم بهذا القدر . فلاَ يَؤُزُّهم إلى المعاصى ذلك الأزّ ، ولا يزعجهم إليها ذلك الإزعاج . وله فى ذلك غرضان مهمان .

أحدهما : أن يقر فى قلوبهم صحة هذا المشهد وهذه العقيدة . وأنكم تاركون الذنوب والكبائر التى يقع فيها أهل السنة . فدل على أن الأمر مفوض إليكم ، واقع بكم ، وأنكم العاصمون لأنفسكم ، المانعون لها من المعصية .

الغرض الثانى : أنه يصطاد على أيديهم الجهال . فإذا رأوهم أهل عبادة ، وزهادة ، وتورع عن المعاصى ، وتعظيم لها . قالوا : هؤلاء أهل الحق ـ والبدعة آثر عنده وأحب إليه من المعصية ـ فإذا ظفر بها منهم ، واصطاد الجهال على أيديهم ، كيف يأمرهم بالمعصية ؟ بل ينهاهم عنها ويقبحها فى أعينهم وقلوبهم . ولا يكشف هذه الحقائق إلا أرباب البصائر .

فصل

المشهد الخامس

وهو أحد مشاهد أهل الاستقامة : مشهد « الحكمة » وهو مشهد حكمة الله فى تقديره على عبده ما يبغضه سبحانه ويكرهه ، ويلوم ويعاقب عليه . وأنه

لو شاء لعصمه منه ، ولحال بينه و بينه . وأنه سبحانه لايُعْصَى قَسْرًا . وأنه لا يكون فى العالم شىء إلا بمشيئته (٥٧:٧ ألا له الخلق والأمر . تبارك الله رب العالمين) .

وهؤلاء يشهدون أن الله سبحانه لم يخلق شيئاً عبثاً ولا سُدًى ، وأن له الحكمة البالغة فى كل ماقدره وقضاه من خير وشر ، وطاعة ومعصية ، وحكمة باهرة تعجز العقول عن الإحاطة بكنهها . وتَكِلُّ الألسن عن التعبير عنها .

فمصدر قضائه وقدره ، لما يبغضه و يسخطه : اسمه « الحكيم » الذى بهرت حكمته الألباب ، وقد قال تعالى للملائكته ـ لما قالوا (٢ : ٣٠ أتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء ؟ ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) فأجابهم سبحانه بقوله (إنى أعلم مالا تعلمون) فلله سبحانه فى ظهور المعاصى والذنوب والجرائم ، وترتب آثارها من الآيات والحكم . وأنواع التعرفات إلى خلقه ، وتنويع آياته ، ودلائل ربو بيته ووحدانيته ، و إلٰهيته ، وحكمته ، وعزته ، وتمام ملكه ، وكمال قدرته . و إحاطة علمه ـ : مايشهده أولو البصائر عياناً ببصائر قلوبهم ، فيقولون (٣ : ١٩١ ربنا ماخلقت هذا باطلاً . سبحانك !) إن هى إلا حكمتك الباهرة ، وآياتك الظاهرة .

ولله فى كل تحريكة   وتسكينة أبداً شاهد
وفى كل شىء له آية   تدل على أنه واحد

فكم من آية فى الأرض بينة ، دالة على الله ، وعلى صدق رسله ، وعلى أن لقاءه حق . كان سببها معاصى بنى آدم وذنوبهم ، كآيته فى إغراق قوم نوح ، وعلو الماء على رءوس الجبال ، حتى أغرق جميع أهل الأرض ، ونجى أولياءه ، وأهل معرفته وتوحيده . فكم فى ذلك من آية وعبرة ، ودلالة باقية على ممر الدهور ؟ ! وكذلك إهلاك قوم عاد وثمود .

وكم له من آية فى فرعون وقومه من حين بعث موسى عليه السلام إليهم ـ بل قبل مبعثه ـ إلى حين إغراقهم ، لولا معاصيهم وكفرهم لم تظهر تلك الآيات

والعجائب . وفى التوراة : أن الله تعالى قال لموسى : اذهب إلى فرعون فإنى سَأُقَسِّى قلبه ، وأمنعه عن الإيمان لأظهر آياتى وعجائبى بمصر . وكذلك فعل سبحانه . فأظهر من آياته وعجائبه بسبب ذنوب فرعون وقومه ما أظهر .

وكذلك إظهاره سبحانه ما أظهر من جعل النار برداً وسلاماً على إبراهيم ، بسبب ذنوب قومه ومعاصيهم . و إلقائهم له فى النار ، حتى صارت تلك آية ، وحتى نال إبراهيم بها ما نال من كمال الخلة .

وكذلك ما حصل للرسل من الكرامة والمنزلة والزُّلْفَى عند الله ، والوجاهة عنده ، بسبب صبرهم على أذى قومهم . وعلى محاربتهم لهم ومعاداتهم .

وكذلك اتخاذ الله تعالى الشهداء والأولياء والأصفياء من بنى آدم ، بسبب صبرهم على أذى بنى آدم من أهل المعاصى والظلم ، ومجاهدتهم فى الله ، وتحملهم لأجله من أعدائه ما هو بعينه وعلمه ، واستحقاقهم بذلك رفعة الدرجات .

إلى غير ذلك من المصالح والحكم التى وُجِدت بسبب ظهور المعاصى والجرائم . وكان من سببها : تقدير ما يبغضه الله و يسخطه . وكان ذلك محض الحكمة ، لما يترتب عليه مما هو أحب إليه وآثر عنده من فوته بتقدير عدم المعصية .

فحصول هذا المحبوب العظيم : أحب إليه من فوات ذلك المبغوض المسخوط ، فإن فواته وعدمه — و إن كان محبوباً له — لكن حصول هذا المحبوب الذى لم يكن يحصل بدون وجود ذلك المبغوض أحب إليه . وفوات هذا المحبوب : أكره إليه من فوات ذلك المكروه المسخوط . وكمال حكمته تقتضى حصول أحب الأمرين إليه بفوات أدنى المحبوبين ، وأن لا يعطل هذا الأحب بتعطيل ذلك المكروه . وفرض الذهن وجود هذا بدون هذا : كفرضه وجود المسببات بدون أسبابها ، والملزومات بدون لوازمها ، مما تمنعه حكمة الله ، وكمال قدرته وربوبيته .

ويكفى من هذا مثال واحد . وهو أنه لولا المعصية من أبى البشر — بأكله من الشجرة — لما ترتب على ذلك ما ترتب من وجود هذه المحبوبات العظام للرب تعالى ،

من امتحان خلقه وتكليفهم ، وإرسال رسله . وإنزال كتبه ، وإظهار آياته وعجائبه وتنويعها وتصريفها ، وإكرام أوليائه ، وإهانة أعدائه ، وظهور عدله وفضله ، وعزته وانتقامه ، وعفوه ومغفرته ، وصفحه وحلمه ، وظهور من يعبده ويحبه ، ويقوم بمراضيه بين أعدائه فى دار الابتلاء والامتحان .

فلو قدّر أن آدم لم يأكل من الشجرة ، ولم يخرج من الجنة هو وأولاده : لم يكن شىء من تلك ، ولا ظهر من القوة إلى الفعل ما كان كامناً فى قلب إبليس يعلمه الله ولا تعلمه الملائكة . ولم يتميز خبيث الخلق من طيبهم ، ولم تتم المملكة ، حيث لم يكن هناك إكرام وثواب ، وعقوبة وإهانة ، ودار سعادة وفضل ، ودار شقاوة وعدل .

وكم فى تسليط أوليائه على أعدائه ، وتسليط أعدائه على أوليائه ، والجمع بينهما فى دار واحدة ، وابتلاء بعضهم ببعض : من حكمة بالغة ، ونعمة سابغة ؟

وكم فيها من حصول محبوب للرب ، وحمد له من أهل سمواته وأرضه ، وخضوع له وتذلل ، وتعبد وخشية وافتقار إليه ، وانكسار بين يديه : أن لا يجعلهم من أعدائه . إذ هم يشاهدونهم ويشاهدون خذلان الله لهم ، وإعراضه عنهم ، ومَقْته لهم ، وما أعد لهم من العذاب . وكل ذلك بمشيئته وإرادته ، وتصرفه فى مملكته . فأولياؤه من خشية خذلانه خاضعون مشفقون ، على أشد وَجَل ، وأعظم مخافة ، وأتم انكسار .

فإذا رأت الملائكة إبليس وماجرى له ، وهاروت وماروت : وضعت رؤوسها بين يدى الرب خضوعاً لعظمته ، واستكانة لعزته ، وخشية من إبعاده وطرده ، وتذللاً لهيبته ، وافتقاراً إلى عصمته ورحمته ، وعلمت بذلك منته عليهم ، وإحسانه إليهم ، وتخصيصه لهم بفضله وكرامته .

وكذلك أولياؤه المتقون ، إذا شاهدوا أحوال أعدائه ومقته لهم ، وغضبه عليهم ، وخذلانه لهم : ازدادوا خضوعاً وذلاً ، وافتقاراً وانكساراً ، وبه استعانة

وإليه إنابة ، وعليه توكلا ، وفيه رغبة ، ومنه رهبة . وعلموا أنهم لا ملجأ لهم منه إلا إليه ، وأنهم لايعيذهم من بأسه إلا هو ، ولا ينجيهم من سخطم إلا مرضاته ، فالفضل بيده أولا وآخراً .

وهذه قطرة من بحر حكمته المحيطة بخلقه . والبصير يطالع ببصيرته ما وراءه . فيطلعه على عجائب من حكمته ، لا تبلغها العبارة ، ولا تنالها الصفة .

وأما حظ العبد فى نفسه ، وما يخصه من شهود هـذه الحـكمة : فبحسب استعداده وقوة بصيرته ، وكمال علمه ومعرفته بالله وأسمائه وصفاته ، ومعرفته بحقوق العبودية والربوبية ، وكل مؤمن له من ذلك شِرْب معـلوم ، ومقام لايتعداه ولا يتخطاه . والله الموفق والمعين .

فصل

المشهد السادس : مشهد التوحيد

وهو أن يشهد انفراد الرب تبارك وتعالى بالخلق والحـكم ، وأنه ماشاء كان ومالم يشأ لم يكن ، وأنه لاتتحرك ذرة إلا بإذنه . وأن الخلق مقهورون تحت قبضته ، وأنه ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابعه . إن شاء أن يقيمه أقامه ، وإن شاء أن يزيغه أزاغه . فالقلوب بيده . وهو مقلبها ومصرفها كيف شاء وكيف أراد ، وأنه هو الذى آتى نفوس المؤمنين تقواها ، وهو الذى هداها وزكاها وألهم نفوس الفجار فجورها وأشقاها (٧ : ١٨٥ من يهد الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له) يهدى من يشاء بفضله ورحمتـه ، ويضل من يشاء بعدله وحكمته . هـذا فضله وعطاؤه . وما فضل الـكريم بممنون . وهذا عدله وقضاؤه (٢١ : ٢٣ لايسأل عما يفعل وهم يسألون) .

قال ابن عباس رضى الله عنهما « الإيمان بالقدر نظام التوحيد ، فمن كذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده ، ومن آمن بالقدر صدق إيمانه توحيده » .

وفى هذا المشهد : يتحقق للعبد مقام (إياك نعبد و إياك نستعين) علماً وحالا ، فيثبت قدم العبد فى توحيـد الربوبية ، ثم يرقى منه صاعداً إلى توحيد الإلهية .

فإنه إذا تيقن أن الضر والنفع ، والعطاء والمنع ، والهدى والضـلال ، والسعادة والشقاء : كل ذلك بيد الله لا بيد غيره ، وأنه الذى يقلب القلوب ، و يصرفهـا كيف يشاء . وأنه لا موفَّق إلا من وفقه وأعانه ، ولا مخذول إلا من خذله وأهانه وتخلى عنه . وأن أصح القلوب وأسلمها وأقومها ، وأرقها وأصفاها ، وأشـدها وألينها : من اتخذه وحده إلهاً ومعبوداً . فـكان أحب إليه من كل ما سواه ، وأخوف عنده من كل ماسواه ، وأرجى له من كل ماسواه . فتتقدم محبته فى قلبه جميع المحاب ، فتنساق المحابُّ تبعاً لهـا كما ينساق الجيش تبعاً للسلطان . و يتقدم خوفه فى قلبه جميع المخوفات ، فتنساق المخاوف كلها تبعاً لخوفه . و يتقدم رجاؤه فى قلبه جميع الرجاء ، فينساق كل رجاء تبعاً لرجائه .

فهذا علامة توحيد الإلٰهيه فى هذا القلب ، والباب الذى دخل إليه منه توحيد الربوبية ، أى بابُ توحيد الإلٰهية : هو توحيد الربوبية .

فإن أول مايتعلق القلب يتعلق بتوحيد الربوبية . ثم يرتقى إلى توحيد الإلٰهية ، كما يدعو الله سبحانه عباده فى كتابه بهذا النوع من التوحيد إلى النوع الآخر . و يحتج عليهم به ، و يقررهم به . ثم يخبر أنهم ينقضونه بشركهم به فى الإلٰهية .

وفى هذا المشهد يتحقق له مقام (إياك نعبد) قال الله تعالى (٤٤ : ٨٧ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولنّ : الله . فأنى يؤفـكون ؟) أى فأين يصرفون عن شهادة أن لا إلٰه إلا الله ، وعن عبادته وحده ، وهم يشهدون : أنه لارب غيره، ولا خالق سواه . وكذلك قوله تعالى (٢٣ : ٨٤ ـ ٨٩ قل لمن الأرض ومن فيها . إن كنتم تعلمون ؟ سيقولون : لله . قل : أفلا تذكرون ؟) فتعلمون أنه إذا كان هو وحده مالك الأرض ومن فيها ، وخالقهم وربهم ومليـكهم ، فهو وحده إلٰههم ومعبودهم . فـكما لارب لهم غيره ، فهكذا لا إلٰه لهم سواه (قل من رب السموات السبع ورب

العرش العظيم ؟ سيقولون : الله . قل : أفلا تتقون ؟ قل : من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ـ الآيات) وهكذا قوله في سورة النمل (٢٧ : ٥٩ ـ ٦٥ قل الحمد الله . وسلام على عباده الذين اصطفى ، آلله خير ، أم مايشركون ؟ أمّن خلق السموات والأرض ، وأنزل لكم من السماء ماء . فأنبتنا به حدائق ذات بَهْجة ، ما كان لكم أن تنبتوا شجرها ، أإله مع الله ؟ بل هم قوم يعدلون ـ إلى آخر الآيات) .

يحتج عليهم بأن مَنْ فعل لهم هذا وحده ، فهو الإله لهم وحده . فإن كان معه رب فعل هذا فينبغي أن تعبدوه . و إن لم يكن معه رب فعل هذا . فكيف تجعلون معه إلٰها آخر ؟

ولهذا كان الصحيح من القولين في تقدير الآية « أإله مع الله فعل هذا ؟ » حتى يتم الدليل . فلا بد من الجواب بِلا . فإذا لم يكن معه إله فعل كفعله . فكيف تعبدون آلهة أخرى سواه ؟ فعلم أن إلٰهية ماسواه باطلة ، كما أن ربوبية ماسواه باطلة بإقراركم وشهادتكم .

ومن قال : المعنى « هل مع الله إله آخر ؟ » من غير أن يكون المعنى « فعل هذا » فقوله ضعيف لوجهين .

أحدهما : أنهم كانوا يقولون : مع الله آلهة أخرى . ولا ينكرون ذلك .

الثاني : أنه لايتم الدليل ، ولا يحصل إفحامهم و إقامة الحجة عليهم إلا بهذا التقدير أي فإذا كنتم تقولون : إنه ليس معه إله آخر فعل مثل فعله ، فكيف تجعلون معه إلٰها آخر لايخلق شيئاً وهو عاجز ؟ وهذا كقوله (١٣ : ١٦ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟ قل : الله خالق كل شيء . وهو الواحد القهار) وقوله (٣١ : ١١ هذا خلق الله . فأروني : ماذا خلق الذين من دونه ؟) وقوله (١٦ : ١٧ أفمن يخلق كمن لا يخلق ؟) وقوله (١٦ : ٢٠ والذين يَدعون من دون الله لايخلقون شيئاً وهم يخلقون) وقوله (٢٥ : ٣ واتخذوا من دونه آلهة

لايخلقون شيئاً وهم يخلقون) وهو كثير فى القرآن . و به تتم الحجة كما تبين .

والمقصود : أن العبد يحصل له هذا فى المشهد من مطالعة الجنايات والذنوب ، وجريانها عليه وعلى الخليقة بتقدير العزيز الحكيم . وأنه لاعاصم من غضبه وأسباب سخطه إلا هو . ولا سبيل إلى طاعته إلا بمعونته . ولا وصول إلى مرضاته إلا بتوفيقه . فموارد الأمور كلها منه . ومصادرها إليه . وأزمة التوفيق جميعها بيديه فلا مستعان للعباد إلا به ، ولا مُتَّكَلَ إلا عليه . كما قال شعيب خطيب الأنبياء . (١١ : ٨٨ وماتوفيقى إلا بالله عليه توكلت و إليه أنيب) .

فصل

المشهد السابع : مشهد التوفيق والخذلان

وهو من تمام هذا المشهد وفروعه . ولكن أفرد بالذكر لحاجة العبد إلى شهوده وانتفاعه به . وقد أجمع العارفون بالله : أن « التوفيق » هو أن لا يكلك الله إلى نفسك ، وأن « الخذلان » هو أن يخلى بينك و بين نفسك . فالعبيد متقلبون بين توفيقه وخذلانه . بل العبد فى الساعة الواحدة ينال نصيبه من هذا وهذا . فيطيعه و يرضيه ، و يذكره و يشكره بتوفيقه له . ثم يعصيه و يخالفه و يسخطه و يغفل عنه بخذلانه له . فهو دائر بين توفيقه وخذلانه . فإن وفقه فبفضله ورحمته . و إن خذله فبعدله وحكمته . وهو المحمود على هذا وهذا . له أتم حمد وأكمله . ولم يمنع العبدَ شيئاً هو له . و إنما منعه ماهو مجرد فضله وعطائه . وهو أعلم حيث يضعه وأين يجعله ؟

فمتى شهد العبد هذا المشهد وأعطاه حقه ، علم شدة ضرورته وحاجته إلى التوفيق فى كلِّ نَفَسٍ وكل لحظة وطرفة عين . وأن إيمانه وتوحيده بيده تعالى . لو تخلى عنه طرفة عين لَثُلَّ عرش توحيده ، ولخرّت سماء إيمانه على الأرض . وأن الممسك له : هو من يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه . فهِجِّيرَى قلبه[1] ودأب

(١) هجيرى الإنسان ـ بكسر الهاء وتشديد الجيم المكسورة بالقصر ـ دأبه الذى يلازمه ولايتركه . ويسميها الناس فى بعض البلاد فى هذا العصر «لازمة» فالذى يكثر فى كلامه من كلمة «مثلا» ، أو «مفهوم» يقولون : لازمته « مثلا » أو «مفهوم؟»

لسانه « يامقلب القلوب ثَبِّت قلبي على دينك ، يامصرّف القلوب صرّف قلبي إلى طاعتك » ودعواه « ياحي ياقيوم ، يابديع السموات والأرض ، ياذا الجلال والإكرام . لاإله إلا أنت . برحمتك أستغيث . أصلح لى شأني كله . ولا تكلني إلى نفسي طَرْفة عين . ولا إلى أحد من خلقك » .

فى هذا المشهد يشهد توفيق الله وخذلانه ، كما يشهد ربوبيته وخلقه . فيسأله توفيقه مسألة المضطر . ويعوذ به من خذلانه عياذ الملهوف . ويلقى نفسه بين يديه ، طريحاً ببابه مستسلما له ، ناكس الرأس بين يديه ، خاضعاً ذليلا مستكينا ، لايملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ونشورا .

و « التوفيق » إرادة الله من نفسه أن يفعل بعبده مايصلح به العبد ، بأن يجعله قادراً على فعل مايرضيه ، مريداً له ، محباً له ، مؤثراً له على غيره . ويُبَغِّض إليه مايسخطه ، ويُكَرِّهه إليه . وهذا مجرد فعله . والعبد محل له . قال تعالى (٤٩ : ٧ ، ٨ ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزَيَّنه فى قلوبكم . وكَرّه إليكم الكفر والفسوق والعصيان . أولئك هم الراشدون * فضلا من الله ونعمة ، والله عليم حكيم) فهو سبحانه عليم بمن يصلح لهذا الفضل ومن لايصلح له . حكيم يضعه فى مواضعه وعند أهله . لايمنعه أهلَه ، ولا يضعه عند غير أهله . وذكر هذا عقيب قوله (٤٩ : ٧ واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنِتُّم) ثم جاء به بحرف الاستدراك فقال (ولكن الله حَبَّب إليكم الإيمان)

يقول سبحانه : لم تكن محبتكم للإيمان وإرادتكم له ، وتزيينه فى قلوبكم : منكم ، ولكن الله هو الذى جعله فى قلوبكم كذلك . فآثرتموه ورضيتموه ، فلذلك لاتُقَدِّموا بين يدى رسولى ، ولا تقولوا حتى يقول . ولا تفعلوا حتى يأمر . فالذى حبب إليكم الإيمان أعلم بمصالح عباده منكم ، وأنتم فلولا توفيقه لكم لما أذعنت نفوسكم للإيمان . فلم يكن الإيمان بمشورتكم وتوفيق أنفسكم . ولا تقدمتم به إليها . فنفوسكم تقصر وتعجز عن ذلك ولا تبلغه . فلو أطاعكم رسولى فى كثير مما

تريدون : لشق عليكم ذلك . ولهلكتم وفسدت مصالحكم وأنتم لاتشعرون . ولا تظنوا أن نفوسكم تريد لكم الرشد والصلاح ، كما أردتم الإيمان . فلولا أنى حببته إليكم وزينته فى قلوبكم ، وكرهت إليكم ضده لما وقع منكم . ولا سمحت به أنفسكم .

وقد ضُرب للتوفيق والخذلان مثل : ملك أرسل إلى أهل بلد من بلاده رسولا . وكتب معه إليهم كتاباً يعلمهم أن العدو مُصَبِّحهم عن قريب ومجتاحهم ، ومُخَرِّب البلد ، ومهلك من فيها . وأرسل إليهم أموالا ومراكب وزاداً وعُدة وأدلة ، وقال : ارتحلوا مع هؤلاء الأدلة . وقد أرسلت إليكم جميع ماتحتاجون إليه ثم قال لجماعة من مماليكه : اذهبوا إلى فلان ، فخذوا بيده واحملوه ولاتذروه يقعد . واذهبوا إلى فلان كذلك وإلى فلان ، وذروا من عداهم . فإنهم لايصلحون أن يساكنونى فى بلدى . فذهب خواص مماليكه إلى من أمروا بحملهم . فلم يتركوهم يقرون . بل حملوهم حملا . وساقوهم سوقا إلى الملك . فاجتاح العدوّ من بقى فى المدينة وقتلهم ، وأسر من أسر .

فهل يعد الملك ظالماً لهؤلاء ، أم عادلا فيهم ؟ نعم خص أولئك باحسانه وعنايته وحرمها من عداهم ، إذ لايجب عليه التسوية بينهم فى فضله وإكرامه ، بل ذلك فضله يؤتيه من يشاء[١]

وقد فسرت القدرية الجبرية « التوفيق » بأنه خاق الطاعة ، و« الخذلان » بأنه خلق المعصية .

ولكن بنوا ذلك على أصولهم الفاسدة من إنكار الأسباب والحكم ، وردوا الأمر إلى محض المشيئة من غير سبب ولا حكمة .

وقابلهم القدرية النفاة ، ففسروا « التوفيق » بالبيان العام ، والهدى العام ،

---

(١) سبحان الله أن تضرب له الأمثال . فإن الله يعلم وهم لايعلمون . وهو رب العالمين الرحمن الرحيم ، يربيهم جميعاً بنعمه وإحسانه .

والتمكن من الطاعة والإقبال عليها . وتهيئة أسبابها . وهذا حاصل لكل كافر ومشرك بلغته الحجة . وتمكن من الإيمان .

فالتوفيق عندهم : أمر مشترك بين الكفار والمؤمنين ، إذ الإقدار والتمكين والدلالة والبيان قد عم به الفريقين . ولم يفرد المؤمنين عندهم بتوفيق وقع به الإيمان منهم . والكفارَ بخذلان امتنع به الإيمان منهم . ولو فعل ذلك لكان عندهم محاباة وظلماً .

والتزموا لهذا الأصل لوازم . قامت بها عليهم سوق الشناعة بين العقلاء . ولم يجدوا بدا من التزامها . فظهر فساد مذهبهم ، وتناقض قولهم ، لمن أحاط به علماً . وتصوره حق تصوره . وعُلِم أنه من أبطل مذهب فى العالم وأردأه .

وهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . فلم يرضوا بطريق هؤلاء ، ولا بطريق هؤلاء . وشهدوا انحراف الطريقين عن الصراط المستقيم . فأثبتوا القضاء والقدر ، وعموم مشيئة الله للكائنات . وأثبتوا الأسباب والحكم . والغايات والمصالح . ونزهوا الله عز وجل أن يكون فى ملكه مالا يشاء ، أو أن يقدر خلقه على ما لا يدخل تحت قدرته ولا مشيئته ، أو أن يكون شىء من افعالهم واقعا بغير اختياره وبدون مشيئته . ومن قال ذلك فلم يعرف ربه ، ولم يثبت له كمال الربوبية .

ونزهوه — مع ذلك — عن العبث وفعل القبيح ، وأن يخلق شيئاً سُدًى ، وأن تخلو أفعاله عن حِكَم بالغة ، لأجلها أوجدها ، وأسباب بها سببها ، وغايات جعلت طرقا ووسائل إليها . وأن له فى كل ماخلقه وقضاه حكمة بالغة . وتلك الحكمة صفة له قائمة به . ليست مخلوقة كما تقول القدرية النفاة للقدر والحكمة فى الحقيقة .

فأهل الصراط المستقيم : بريئون من الطائفتين ، إلا من حق تتضمنه مقالاتهم . فإنهم يوافقونهم عليه . ويجمعون حق كل منهما إلى حق الأخرى . ولا يبطلون

ما معهم من الحق لما قالوه من الباطل . فهم شهداء الله على الطوائف ، وأمناؤه عليهم ، حكام بينهم ، حاكمون عليهم . ولا يحكم عليهم أحد منهم . يكشفون أحوال الطوائف ، ولا يكشفهم إلا من كشف له عن معرفة ماجاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وعرف الفرق بينه وبين غيره . ولم يلتبس عليه . وهؤلاء أفراد العالم ونخبته وخلاصته ، ليسوا من الذين فرقوا دينهم وكانوا شِيَعا ، ولا من الذين تقطعوا أمرهم بينهم زُبرا ، بل ممن هم على بينة من ربه و بصيرة فى إيمانه ، ومعرفة بما عند الناس . والله الموفق .

فصل

المشهد الثامن : مشهد الأسماء والصفات

وهو من أجل المشاهد . وهو أعلى مما قبله وأوسع .

والمطلَع على هذا المشهد : معرفة تعلق الوجود خلقاً وأمراً بالأسماء الحسنى ، والصفات العلى ، وارتباطه بها . وإن كان العالم ـ بما فيه ـ من بعض آثارها ومقتضياتها .

وهذا من أجل المعارف وأشرفها ، وكل اسم من أسمائه سبحانه له صفة خاصة . فإن أسماءه أوصاف مدح وكمال . وكل صفة لها مقتض وفعل : إما لازم . وإما متعد . ولذلك الفعل تعلق بمفعول هو من لوازمه . وهذا فى خلقه وأمره ، وثوابه وعقابه . كل ذلك آثار الأسماء الحسنى وموجباتها .

ومن المحال تعطيل أسمائه عن أوصافها ومعانيها ، وتعطيل الأوصاف عما تقتضيه وتستدعيه من الأفعال ، وتعطيل الأفعال عن المفعولات ، كما أنه يستحيل تعطيل مفعوله عن أفعاله وأفعاله عن صفاته ، وصفاته عن أسمائه . وتعيطل أسمائه وأوصافه عن ذاته .

وإذا كانت أوصافه صفات كمال ، وأفعاله حكما ومصالح ، وأسماؤه حسنى : ففرض تعطيلها عن موجباتها مستحيل فى حقه . ولهذا ينكر سبحانه على من عطله

عن أمره ونهيه ، وثوابه وعقابه ، وأنه بذلك نسبه إلى مالا يليق به و إلى ما يتنزه عنه وأن ذلك حكم سيء ممن حكم به عليه ، وأن من نسبه إلى ذلك فما قدره حق قدره ، ولا عظمه حق تعظميه ، كما قال تعالى فى حق منكرى النبوة و إرسال الرسل ، و إنزال الكتب (٦ : ٩١ وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء) وقال تعالى فى حق منكرى المعاد والثواب والعقاب (٣٩ : ٦٧ وما قدروا الله حق قدره والأرضُ جميعاً قبضته يوم القيامة ، والسموات مطويات بيمينه) وقال فى حق من جوز عليه التسوية بين المختلفين ، كالأبرار والفجار ، والمؤمنين والكفار (٤٥ : ٢١ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواءً محياهم ومماتهم ؟ ساء مايحكمون) فأخبر أن هذا حكم سيء لا يليق به ، تأباه أسماؤه وصفاته . وقال سبحانه (٢٣ : ١١٥ ، ١١٦ أفحسبتم أنما خلقناكم عَبَثاً وأنكم إلينا لاتُرجعون ؟ * فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم) عن هذا الظن والحسبان ، الذى تأباه أسماؤه وصفاته .

ونظائر هذا فى القرآن كثيرة . ينفى فيها عن نفسه خلاف موجب أسمائه وصفاته . إذ ذلك مستلزم تعطيلها عن كمالها ومقتضياتها .

فاسمه « الحميد ، المجيد » يمنع تركَ الإنسان سُدًى مهملاً معطلاً ، لا يُؤمَر ولا ينهى . ولا يثاب ولا يعاقب . وكذلك اسمه « الحكيم » يأبى ذلك . وكذلك اسمه « الملك » واسمه « الحيّ » يمنع أن يكون معطلاً من الفعل . بل حقيقة « الحياة » الفعل . فكل حى فعّال . وكونه سبحانه « خالقاً قيوماً » من موجبات حياته ومقتضياتها . واسمه «السميع البصير» يوجب مسموعاً ومرئياً . واسمه «الخالق» يقتضى مخلوقاً . وكذلك « الرزاق » واسمه «الملك» يقتضى مملكة وتصرفاً وتدبيراً ، وإعطاءً ومنعاً ، وإحساناً وعدلاً ، وثواباً وعقاباً . واسم « البر المحسن ، المعطى ، المنان » ونحوها تقتضى آثارها وموجباتها .

إذا عرف هذا . فمن أسمائه سبحانه « الغفار ، التواب ، العفوّ » فلا بد لهذه الأسماء من متعلقات . ولا بد من جناية تغفر ، وتوبة تقبل ، وجرائم يعفى عنها . ولابد لاسمه « الحكيم » من متعلق يظهر فيه حكمه . إذ اقتضاء هذه الأسماء لآثارها كاقتضاء اسم « الخالق ، الرازق ، المعطى ، المانع » للمخلوق والمرزوق والمعطَى والممنوع . وهذه الأسماء كلها حسنى .

والرب تعالى يحب ذاته وأوصافه وأسماءه . فهو عَفُوٌّ يحبّ العفو ، ويحب المغفرة . ويحب التوبة . ويفرح بتوبة عبده حين يتوب إليه أعظم فرح يخطر بالبال

وكان تقدير مايغفره ويعفو عن فاعله ، ويحلم عنه ، ويتوب عليه ويسامحه : من موجب أسمائه وصفاته . وحصول مايحبه ويرضاه من ذلك . وما يحمدُ به نفسه ويحمده به أهل سمواته وأهل أرضه : ما هو من موجبات كماله ومقتضى حمده .

وهو سبحانه الحميد المجيد ، وحمده ومجده يقتضيان آثارهما .

ومن آثارهما : مغفرة الزلات ، وإقالة العثرات ، والعفو عن السيئات ، والمسامحة على الجنايات . مع كمال القدرة على استيفاء الحق . والعلم منه سبحانه بالجناية ومقدار عقوبتها . فحلمه بعد علمه ، وعفوه بعد قدرته ، ومغفرته عن كمال عزته وحكمته ، كما قال المسيح صلى الله عليه وسلم (٥ : ١١٨ إن تعذبهم فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم) أى فمغفرتك عن كمال قدرتك وحكمتك . لست كمن يغفر عجزاً . ويسامح جهلا بقدر الحق ، بل أنت عليم بحقك . قادر على استيفائه ، حكيم فى الأخذ به .

فمن تأمل سريان آثار الأسماء والصفات فى العالم ، وفى الأمر ، تبين له أن مصدر قضاء هذه الجنايات من العبيد ، وتقديرها : هو من كمال الأسماء والصفات والأفعال . وغاياتها أيضاً : مقتضى حمده ومجده ، كما هو مقتضى ربوبيته وإلهيته .

فله فى كل ماقضاه وقدره الحكمة البالغة ، والآيات الباهرة ، والتعرفات إلى عباده بأسمائه وصفاته ، واستدعاء محبتهم له ، وذكرهم له ، وشكرهم له ، وتعبدهم له

بأسمائه الحسنى . إذ كل اسم فله تعبد مختص به ، علماً ومعرفة وحالاً / وأكمل الناس عبودية : المتعبد بجميع الأسماء والصفات التى يطلع عليها البشر . فلا تحجبه عبودية اسم عن عبودية اسم آخر ، كمن يحجبه التعبد باسمه « القدير » عن التعبد باسمه « الحليم الرحيم » أو يحجبه عبودية اسمه «المعطى» عن عبودية اسمه « المانع » أو عبودية اسمه « الرحيم والعفوّ والغفور » عن اسمه « المنتقم » أو التعبد بأسماء « التودد ، والبر ، واللطف ، والإحسان » عن أسماء « العدل ، والجبروت ، والعظمة ، والكبرياء » ونحو ذلك .

وهذه طريقة الكُمَّل من السائرين إلى الله ، وهى طريقة مشتقة من قلب القرآن . قال الله تعالى (٧ : ١٨٠ ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) والدعاء بها يتناول دعاء المسألة ، ودعاء الثناء ، ودعاء التعبد . وهو سبحانه يدعو عباده إلى أن يعرفوه بأسمائه وصفاته ، ويثنوا عليه بها ، ويأخذوا بحظهم من عبوديتها .

وهو سبحانه يحب موجب أسمائه وصفاته .

فهو « عليم » يحب كل عليم « جَوَادٌ » يُحب كل جواد « وتر » يحب الوتر « جميل » يحب الجمال « عفو » يحب العفو وأهله « حَيِي » يحب الحياء وأهله « بَرٌّ » يحب الأبرار « شكور » يحب الشاكرين « صبور » يحب الصابرين « حليم » يحب أهل الحلم . فلمحبته سبحانه للتوبة والمغفرة ، والعفو والصفح : خلقَ من يغفر له ، ويتوب عليه ويعفو عنه . وقدر عليه مايقتضى وقوع المكروه والمبغوض له . ليترتب عليه المحبوب له المرضى له . فتوسطه كتوسط الأسباب المكروهة المفضية إلى المحبوب .

فربما كان مكروه العباد إلى   محبوبها سبب مامثله سبب

والأسباب – مع مسبباتها – أربعة أنواع : محبوب يفضى إلى محبوب . ومكروه يفضى إلى محبوب . وهذان النوعان عليهما مدار أقضيته وأقداره سبحانه بالنسبة إلى مايحبه وما يكرهه .

والثالث : مكروه يفضى إلى مكروه . والرابع : محبوب يفضى إلى مكروه . وهذان النوعان ممتنعان فى حقه سبحانه ، إذ الغايات المطلوبة من قضائه وقدره ـ الذى ما خلق ماخلق ، ولاقضى ماقضى إلا لأجل حصولها ـ لا تكون إلا محبوبة للرب مرضية له . والأسباب الموصلة إليها منقسمة إلى محبوب له ومكروه له .

فالطاعات والتوحيد : أسباب محبوبة له ، موصلة إلى الإحسان ، والثواب المحبوب له أيضاً . والشرك والمعاصى : أسباب مسخوطة له ، موصلة إلى العدل المحبوب له . و إن كان الفضل أحب إليه من العدل . فاجتماع العدل والفضل أحب إليه من انفراد أحدهما عن الآخر ، لما فيهما من كمال الملك والحمد ، وتنوع الثناء ، وكمال القدرة .

فإن قيل : كان يمكن حصول هذا المحبوب من غير توسط المكروه .

قيل : هذا سؤال باطل ، لأن وجود الملزوم بدون لازمه ممتنع . والذى يقدّر فى الذهن وجوده شىء آخر غير هذا المطلوب المحبوب للرب . وحكم الذهن عليه بأنه محبوب للرب حكم بلا علم . بل قد يكون مبغوضاً للرب تعالى لمنافاته حكمته . فإذا حكم الذهن عليه بأنه محبوب له . كان نسبة له إلى مالا يليق به . و يتعالى عنه.

فليعط اللبيب هذا الموضع حقه من التأمل . فإنه مزلة أقدام ، ومضلة أفهام . ولو أمسك عن الكلام من لا يعلم لقل الخلاف .

وهذا المشهد أجل من أن يحيط به كتاب ، أو يستوعبه خطاب ، و إنما أشرنا إليه أدنى إشارة تطلع على ماوراءها . والله الموفق والمعين .

فصل

المشهد التاسع : مشهد زيادة الإيمان وتعدد شواهده

وهذا من ألطف المشاهد ، وأخصها بأهل المعرفة . ولعل سامعه يبادر إلى إنكاره ، ويقول : كيف يشهد زيادة الإيمان من الذنوب والمعاصى ؟ ولا سيما ذنوب العبد ومعاصيه . وهل ذلك إلا منقص للإيمان ، فإنه بإجماع السلف : يزيد بالطاعة ، و ينقص بالمعصية .

فاعلم أن هذا حاصل من التفات العارف إلى الذنوب والمعاصى منه ومن غيره و إلى ترتب آثارها عليها . وترتبُ هذه الآثار عليها عَلَم من أعلام النبوة . و برهان من براهين صدق الرسل ، وصحة ماجاءوا به . فإن الرسل ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ أمروا العباد بما فيه صلاح ظواهرهم و بواطنهم ، فى معاشهم ومعادهم . ونهوهم عما فيه فساد ظواهرهم و بواطنهم فى المعاش والمعاد . وأخبروهم عن الله عز وجل : أنه يحب كذا وكذا ، ويثيب عليه بكذا وكذا ، وأنه يبغض كيت وكيت ، ويعاقب عليه بكيت وكيت . وأنه إذا أطيع بما أمر به : شكر عليه بالإمداد والزيادة ، والنعم ، فى القلوب والأبدان والأموال . وَوَجَدَ العبدُ زيادته وقوته فى حاله كلها ، وأنه إذا خولف أمره ونهيه ، ترتب عليه من النقص ، والفساد ، والضعف ، والذل والمهانة ، والحقارة ، وضيق العيش وتنكد الحياة ماترتب ، كما قال تعالى (١٦ : ٩٧ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى ـ وهو مؤمن ـ فلنحيينه حياة طيبة ، ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) وقال (٣٩ : ١٠ قل: ياعِبادِيَ الذين آمنوا اتقوا ربكم . للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة ، ولدار الآخرة خير) وقال تعالى (١١ : ٣ واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى . وَيُؤْتِ كلَّ ذِى فَضْلٍ فضلَهُ) وقال تعالى (٢٠ : ١٢٤ ، ١٢٥ ومن أعرض عن ذِكْرِى فإن له معيشة ضَنْكاً . ونحشرهُ يومَ القيامةِ أَعمَى) وفسرت المعيشة الضَّنْك : بعذاب القبر . والصحيح : أنها فى الدنيا ، وفى البرزخ . فإن من أعرض عن ذكره الذى أنزله[1] ، فله من ضيق الصدر ، وَنَكَدِ الْعيش ، وكثرة

(١) « ذكرى » مايذكر بالله سبحانه . وهو أولا المشار إليه بقوله (٥١ : ٢١ وفى أنفسكم . أفلا تبصرون) وبقوله (٦٧ : ٢٣ هو الذى أنشأكم . وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ماتشكرون) وهذا كثير جداً فى القرآن . فإن الغفلة عن آيات الله وعن آثار أسمائه وصفاته فى الأنفس والآفاق والإنسلاخ منها : هو الذى أركس الإنسان فى ظلمات الجاهلية . ومكن لولاية الشيطان منه فاتبع وحيه الجاهلى الوثنى واتخذ القرآن مهجورا . فلم يحاول أن يتدبر آياته ، ولا أن يتلوه حق تلاوته =

الخوف ، وشدة الحرص والتعب على الدنيا ، والتحسر على فواتها قبل حصولها و بعد حصولها ، والآلام التى فى خلال ذلك ـ مالا يشعر به القلب ، لسكرته ، وانغماسه فى السكر . فهو لا يصحو ساعة إلا أحس وشعر بهذا الألم . فبادر إلى إزالته بسكر ثان . فهو هكذا مدة حياته . وأى عيشة أضيق من هذه لو كان للقلب شعور ؟

فقلوب أهل البدع ، والمعرضين عن القرآن ، وأهل الغفلة عن الله ، وأهل المعاصى : فى جحيم قبل الجحيم الأكبر . وقلوب الأبرار فى نعيم قبل النعيم الأكبر (٨٢ : ١٣ ، ١٤ إن الأبرار لفى نعيم . و إن الفجار لفى جحيم) هـذا فى دورهم الثلاث . ليس مختصاً بالدار الآخرة . و إن كان تمامه وكماله وظهوره : إنما هو فى الدار الآخرة ، وفى البرزخ دون ذلك ، كما قال تعالى (٥٢ : ٤٧ و إن للذين ظلموا عذاباً دون ذلك) وقال تعالى (٢٧ : ٧١ ، ٧٢ و يقولون : متى هـذا الوعد ، إن كنتم صادقين ؟ * قل : عسى أن يكون رَدِفَ لـكم بعض الذى تستعجلون)

وفى هذه الدار دون مافى البرزخ ، ولـكن يمنع من الإحساس به : الاستغراق فى سكرة الشهوات ، وطرح ذلك عن القلب ، وعدم التفكر فيه .

والعبد قد يصيبه ألم حِسِّى فيطرحه عن قلبه : ويقطع التفاته عنه . و يجعل إقباله على غيره . لئلا يشعر به جملة . فلو زال عنه ذلك الالتفات ، لصاح من شدة الألم . فما الظن بعذاب القلوب وآلامها ؟ !

وقد جعل الله سبحانه للحسنات والطاعات آثاراً محبو بة لذيذة طيبة . لذتها فوق لذة المعصية بأضعاف مضاعفة . لا نسبة لها إليها . وجعل للسيئات والمعاصى آلاماً وآثاراً مكروهة ، وحزازات تُرْبِي على لذة تناولها بأضعاف مضاعفة . قال

= لأنه زعم له أنه ليس بحاجة إليه لافى عقيدة ولاعمل ولاخلق ولاحال . فقد جمع له كل ذلك فيما زخرف له من القول غرورا . وزاده غروراً ومخادعة بإيهامه أن تكرار ألفاظ القرآن للموتى وللتبرك ، واتخاذ الصحف تميمة يخرجه عن المعرضين عن ذكر الله .

ابن عباس « إن للحسنة نوراً فى القلب ، وضياء فى الوجه ، وقوة فى البدن . وزيادة فى الرزق ، ومحبة فى قلوب الخلق . وإن للسيئة سواداً فى الوجه . وظلمة فى القلب ووهَنا فى البدن . ونقصاً فى الرزق . وبغضة فى قلوب الخلق » وهذا يعرفه صاحب البصيرة . ويشهده من نفسه ومن غيره .

فما حصل للعبد حال مكروهة قط إلا بذنب . وما يعفو الله عنه أكثر . قال الله تعالى (٤٢ : ٣٠ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم . ويعفو عن كثير) وقال لخيار خلقه وأصحاب نبيه (٣ : ١٦٥ أوَلَمّا أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم : أنى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم) وقال (٤ : ٧٩ ما أصابكَ من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك) .

والمراد بالحسنة والسيئة هنا : النعم والمصائب التى تصيب العبد من الله . ولهذا قال « ما أصابك » ولم يقل : ما أُصبت .

فكل نقص وبلاء وشر فى الدنيا والآخرة . فسببه الذنوب ، ومخالفة أوامر الرب ، فليس فى العالم شر قط إلا الذنوب وموجباتها[1] .

وآثار الحسنات والسيئات فى القلوب والأبدان والأموال : أمر مشهود فى العالم . لا ينكره ذو عقل سليم . بل يعرفه المؤمن والكافر ، والبر والفاجر .

وشهود العبد هذا فى نفسه وفى غيره ، وتأمله ومطالعته : مما يقوى إيمانه بما جاءت به الرسل . وبالثواب والعقاب . فإن هذا عدل مشهود محسوس فى هذا العالم . ومثوبات وعقوبات عاجلة ، دالة على ماهو أعظم منها لمن كانت له بصيرة . كما قال بعض الناس : إذا صدر منى ذنب ولم أبادره . ولم أتداركه بالتوبة : انتظرت أثره السيء . فإذا أصابنى — أو فوقه أو دونه — كما حسبت . يكون هِجِّيراى : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله . ويكون ذلك من شواهد الإيمان

(١) وأهم مايولدها : هو التقليد الأعمى والجاهلية الغافلة عن آثار أسماء الرب وصفاته .

وأدلته . فإن الصادق متى أخبرك أنك إذا فعلت كذا وكذا ترتب عليه من المكروه كذا وكذا . فجعلت كلما فعلت شيئاً من ذلك حصل لك ما قال من المكروه ، لم تزدد إلا علماً بصدقه و بصيرة فيه . وليس هذا لكل أحد . بل أكثر الناس ترِين الذنوب على قلبه . فلا يشهد شيئاً من ذلك ولا يشعر به ألبتة .

و إنما يكون هذا لقلب فيه نور الإيمان ، وأهوية الذنوب والمعاصى تعصف فيه . فهو يشاهد هذا وهذا . ويرى حال مصباح إيمانه مع قوة تلك الأهوية والرياح . فيرى نفسه كراكب البحر عند هيجان الرياح ، وتقلب السفينة وَتَكَفُّئِها ولا سيما إذا انكسرت به وبقى على لوح تلعب به الرياح . فهكذا المؤمن يشاهد نفسه عند ارتكاب الذنوب ، إذا أريد به الخير ، و إن أريد به غير ذلك فقلبه فى واد آخر .

ومتى انفتح هذا الباب للعبد : انتفع بمطالعة تاريخ العالم ، وأحوال الأمم . وماجريات الخلق . بل انتفع بماجريات أهل زمانه وما يشاهده من أحوال الناس وفهم حينئذ معنى قوله تعالى (١٣ : ٣٣ أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت) وقوله (٣ : ١٨ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط . لا إله إلا هو العزيز الحكيم) فكلُّ ما تراه فى الوجود — من شر وألم وعقوبة وجدب ، ونقص فى نفسك وفى غيرك — فهو من قيام الرب تعالى بالقسط . وهو عدل الله وقسطه ، وإن أجراه على يد ظالم . فالمسلط له أعدل العادلين ، كما قال تعالى لمن أفسد فى الأرض (١٧ : ٥ بعثنا عليكم عباداً لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار — الآية) .

فالذنوب مثل السموم مضرة بالذات . فإن تداركها من سَقى بالأدوية المقاومة لها ، و إلا قهرت القوة الإيمانية ، وكان الهلاك . كما قال بعض السلف « المعاصى بريد الكفر ، كما أن الحمى بريد الموت » .

فشهود العبد نقص حاله إذا عصى ربه ، وتغير القلوب عليه ، وجفوها منه ،

وانسداد الأبواب فى وجهه ، وتوعر المسالك عليه ، وهوانه على أهل بيته وأولاده وزوجته وإخوانه ، وتطلبه ذلك حتى يعلم من أين أُتى ؟ ووقوعه على السبب الموجب لذلك : مما يقوى إيمانه . فإن أقلع و باشر الأسباب التى تفضى به إلى ضد هـذه الحال ، رأى العز بعد الذل ، والغنى بعد الفقر ، والسرور بعد الحزن ، والأمن بعد الخوف ، والقوة فى قلبه بعد ضعفه ووهنه ـ ازداد إيماناً مع إيمانه . فتقوى شواهد الإيمان فى قلبه و براهينه وأدلته فى حال معصيته وطاعته . فهذا من الذين قال الله فيهم (٣٩ : ٣٥ ليكفر الله عنهم أسوأ الذى عملوا و يجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون) .

وصاحب هذا المشهد متى تبصر فيه ، وأعطاه حقه : صار من أطباء القلوب العالمين بدائها ودوائها . فنفعه الله فى نفسه . ونفع به من شاء من خلقه . والله أعلم .

فصـــل

المشهد العاشر : مشهد الرحمة

فإن العبد إذا وقع فى الذنب خرج من قلبه تلك الغلظه والقسوة ، والـكيفية الغضبية التى كانت عنده لمن صدر منه ذنب ، حتى لو قدر عليه لأهلـكه ، ور بما دعا الله عليه أن يهلـكه و يأخذه ، غضباً منه لله ، وحرصاً على أن لا يعصى . فلا يجد فى قلبه رحمة للمذنبين الخاطئين . ولا يراهم إلا بعين الاحتقار والازدراء . ولا يذكرهم إلا بلسان الطعن فيهم ، والعيب لهم والذم . فإذا جرت عليه المقادير وخُلى ونفسه استغاث الله والتجأ إليه . وتململ بين يديه تململ السليم . ودعاه دعاء المضطر . فتبدلت تلك الغلظة على المذنبين رقة . وتلك القساوة على الخاطئين رحمة ولينا ، مع قيامه بحدود الله . وتَبَدَّلَ دعاؤه عليهم دعاء لهم . وجعل لهم وظيفة من عمره . يسأل الله أن يغفر لهم .

فما أنفعه له من مشهد ! وما أعظم جدواه عليه . والله أعلم .

فصل

فيورثه ذلك : المشهد الحادى عشر

وهو مشهد العجز والضعف ، وأنه أعجز شيء عن حفظ نفسه وأضْعَفُه ، وأنه لاقوة له ولا قدرة ولا حول إلا بربه . فيشهد قلبه كريشة مُلْقاة بأرضٍ فلاةٍ تُقلِّبها الرياح يميناً وشمالاً . ويشهد نفسه كراكب سفينة فى البحر تَهيج بها الرياح وتتلاعب بها الأمواج ، ترفعها تارة . وتخفضها تارة أخرى . تجرى عليه أحكام القدر . وهو كالآلة طريحاً بين يدى وَليه ، مُلقًى ببابه ، واضعا خَدَّه على ثرَى أعتابه . لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ، ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً . ليس له من نفسه إلا الجهلُ والظلم وآثارهما ومقتضياتهما . فالهلاك أدنى إليه من شِراك نعله كشاة ملقاة بين الذئاب والسباع . لا يردها عنها إلا الراعى . فلو تخلَّى عنها طَرْفة عين لتقاسموها أعضاءً .

وهكذا حال العبد ملقى بين الله و بين أعدائه ، من شياطين الإس والجن فإن حماه منهم وكَفَّهم عنه لم يجدوا إليه سبيلا . و إن تخلى عنه ووَكَله إلى نفسه طرفة عين لم ينقسم عليهم ، بل هو نصيب من ظَفَر به منهم .

وفى هذا المشهد يعرف نفسه حقاً ، و يعرف ربه . وهـذا أحد التأويلات للكلام المشهور « من عرف نفسه عرف ربه » وليس هذا حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . إنما هو أثر إسرائيلى بغير هذا اللفظ أيضاً « يا إنسان اعرف نفسك تعرف ربك » وفيه ثلاث تأويلات :

أحدها : أن من عرف نفسه بالضعف عرف ربه بالقوة . ومن عرفها بالعجز عرف ربه بالقدرة . ومن عرفها بالذل . عرف ربه بالعز . ومن عرفها بالجهل . عرف ربه بالعلم . فإن الله سبحانه استأثر بالكمال المطلق ، والحمد والثناء ، والمجد والغنى . والعبد فقير ناقص محتاج . وكلما ازدادت معرفة العبد بنقصه وعيبه وفقره وذله وضعفه : ازدادت معرفته لربه بأوصاف كماله .

التأويل الثانى : أن من نظر إلى نفسه وما فيها من الصفات الممدوحة من القوة والإرادة والكلام والمشيئة والحياة ، عرف أن من أعطاه ذلك وخلقه فيه أولى به . فمعطى الكمال أحق بالكمال . فكيف يكون العبد حياً متكلماً سميعاً بصيراً مريداً عالما ، يفعل باختياره ، ومَنْ خَلَقه وأوجده لا يكون أولى بذلك منه ؟ فهذا من أعظم المحال . بل مَنْ جعل العبد متكلما أولى أن يكون هو متكلما ومن جعله حياً عليما سميعاً بصيراً فاعلاً قادراً ، أولى أن يكون كذلك .

فالتأويل الأول من باب الضد . وهذا من باب الأولوية .

والتأويل الثالث : أن هـذا من باب النفى . أى كما أنك لا تعرف نفسك التى هى أقرب الأشياء إليك . فلا تعرف حقيقتها ، ولا ماهيتها ولا كيفيتها . فكيف تعرف ربك وكيفية صفاته ؟ .

والمقصود : أن هذا المشهد يُعَرِّفُ العبد أنه عاجز ضعيف . فتزول عنه رعونات الدعاوى ، والإضافات إلى نفسه ، ويعلم أنه ليس له من الأمر شىء ، إن هو إلا محض القهر والعجز والضعف .

فصـل

فحينئذ يطلع منه على : المشهد الثانى عشر

وهو مشهد الذل ، والانـكسار ، والخضوع ، والافتقار للرب جل جلاله . فيشهد فى كل ذَرَّةٍ من ذرَّاته الباطنة والظاهرة : ضرورة تامة ، وافتقاراً تاماً إلى ربه ووليه ، ومن بيده صلاحه وفلاحه، وهداه وسعادته . وهذه الحال التى تحصل لقلبه لاتنال العبارةُ حقيقتها . وإنما تدرك بالحصول . فيحصل لقلبه كَسْرَة خاصة لايشبهها شىء . بحيث يرى نفسه كالإناء المرضوض تحت الأرجل ، الذى لاشىء فيه ، ولا به ولا منه ، ولا فيه منفعة ، ولا يُرغَب فى مثـله . وأنه لا يصلح للانتفاع إلا بجبر جديد من صانعه وقيّمه . فحينئذ يستكثر فى هذا المشهد ما من ربه إليه من الخير . ويرى أنه لا يستحق قليلاً منه ولا كثيراً . فأيّ خيرنا له من

الله استكثره على نفسه . وعلم أن قَدْره دونه ، وأن رحمة ربه هى التى اقتضت ذكره به ، وسياقته إليه . واستقلَّ مامن نفسه من الطاعات لربه ، ورآها — ولو ساوت طاعات الثقلين — من أقل ماينبغى لربه عليه . واستكثر قليل معاصيه وذنوبه . فإن الكَسْرة التى حصلت لقلبه أوجبت له هذا كله .

فما أقرب الجبر من هذا القلب المكسور ! وما أدنى النصر والرحمة والرزق منه ! وما أنفع هذا المشهد له وأجداه عليه ! وذرة من هذا ونَفَس منه أحب إلى الله من طاعات أمثال الجبال من المدِلِّين المعجبين بأعمالهم وعلومهم وأحوالهم . وأحب القلوب إلى الله سبحانه : قلب قد تمكنت منه هذه الكسرة . وملكته هذه الذلة . فهو ناكس الرأس بين يدى ربه . لايرفع رأسه إليه حياء وخجلا من الله .

قيل لبعض العارفين : أيسجد القلب ؟ قال : نعم يسجد سجدة لايرفع رأسه منها إلى يوم اللقاء . فهذا سجود القلب .

فقلب لاتباشره هذه الكسرة فهو غير ساجد السجود المراد منه . وإذا سجد القلب لله — هذه السجدة العظمى — سجدت معه جميع الجوارح . وعنا الوجهُ حينئذ للحى القيوم . وخشع الصوت والجوارح كلها . وذل العبد وخضع واستكان ، ووضع خده على عتبة العبودية ، ناظراً بقلبه إلى ربه ووليه نظر الذليل إلى العزيز الرحيم . فلا يُرَى إلا متملقا لربه ، خاضعا له ، ذليلا مستعطفاً له . يسأله عطفه ورحمته . فهو يترضى ربه كما يترضى المحب الكامل المحبة محبوبه المالك له . الذى لاغنى له عنه . ولا بد له منه . فليس له هَمٌّ غير استرضائه واستعطافه . لأنه لاحياة له ولا فلاح إلا فى قربه ورضاه عنه ، ومحبته له ، يقول : كيف أُغضِب مَنْ حياتى فى رضاه ؟ وكيف أعدل عمن سعادتى وفلاحى وفوزى فى قربه وحبه وذكره ؟

وصاحب هذا المشهد : يشهد نفسه كرجل كان فى كَنَف أبيه يغذوه بأطيب الطعام والشراب واللباس ، ويربيه أحسن التربية ، ويرقيه على درجات الكمال أتم ترقية . وهو القيِّم بمصالحه كلها . فبعثه أبوه فى حاجة له . فخرج عليه فى طريقه

عدو . فأسره وكَتَّفه وشَدَّه وَثاقا . ثم ذهب به إلى بلاد الأعداء فسامه سوء العذاب . وعامله بضد ما كان أبوه يعامله به . فهو يتذكر تربية والده وإحسانه إليه الفَيْنَة بعد الفينة . فتهيج من قلبه لواعج الحسرات كلما رأى حاله . ويتذكر ما كان عليه وكل ما كان فيه . فبينا هو فى أسر عدوه يَسومه سوء العذاب ، ويريد نَحْره فى آخر الأمر . إذ حانت منه التفاتة إلى نحو ديار أبيه . فرأى أباه منه قريبا . فسعى إليه . وألقى نفسه عليه ، وانطرح بين يديه . يستغيث : ياأبتاه ، ياأبتاه ، يا أبتاه ! انظر إلى ولدك وماهو فيه . ودموعه تستبق على خديه ، قد اعتنقه والتزمه ، وعدوه فى طلبه ، حتى وقف على رأسه . وهو ملتزم لوالده ممسك به . فهل تقول : إن والده يسلمه مع هذه الحال إلى عدوه ، ويخلى بينه وبينه ؟ فما الظن بمن هو أرحم بعبده من الوالد بولده ، ومن الوالدة بولدها ؟ إذا فَرَّ عبد إليه ، وهرب من عدوه إليه ، وألقى بنفسه طريحاً ببابه . يُمَرِّغ خَدَّه فى ثَرى أعتابه باكيا بين يديه ، يقول : يارب ، يارب ، ارحم من لاراحم له سواك ، ولا ناصر له سواك ، ولا مؤوى له سواك ، ولا مغيث له سواك . مسكينك وفقيرك ، وسائلك ومؤملك ومرجيك . لاملجأ له ولا منجا له منك إلا إليك . أنت معاذه وبك ملاذه .

يامن ألوذ به فيما أؤمله ومن أعوذ به مما أحاذره
لا يَجْبُرُ الناس عظما أنت كاسره ولا يهيضون عظما أنت جابره

فصل

فإذا استبصر فى هذا المشهد ، وتمكن من قلبه . وباشره وذاق طعمه وحلاوته ترقَّى منه إلى :

المشهد الثالث عشر

وهو الغاية التى شَمَّرَ إليها السالكون . وأَمَّها القاصدون . ولحظ إليها العاملون.

وهو مشهد العبودية والمحبة ، والشوق إلى لقائه ، والابتهاج به ، والفرح والسرور به . فتقَرُّ به عينه ، ويسكن إليه قلبه . وتطمئن إليه جوارحه ويستولى

ذكره على لسان محبه وقلبه . فتصير خطرات المحبة مكان خطرات المعصية . وإرادات التقرب إليه وإلى مرضاته ، مكان إرادة معاصيه ومساخطه ، وحركات اللسان والجوارح بالطاعات ، مكان حركاتها بالمعاصى . قد امتلأ قلبه من محبته . ولهج لسانه بذكره . وانقادت الجوارح لطاعته . فإن هذه الكسرة الخاصة لها تأثير عجيب فى المحبة لا يعبر عنه .

ويحكى عن بعض العارفين ، أنه قال : دخلت على الله من أبواب الطاعات كلها . فما دخلت من باب إلا رأيت عليه الزحام . فلم أتمكن من الدخول ، حتى جئت باب الذل والافتقار . فإذا هو أقرب باب إليه وأوسعه . ولا مزاحم فيه ولا معوق . فما هو إلا أن وضعت قدمى فى عتبته . فإذا هو ــ سبحانه ــ قد أخذ بيدى وأدخلنى عليه .

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رضى الله عنه يقول : من أراد السعادة الأبدية، فليلزم عتبة العبودية .

وقال بعض العارفين : لاطريق أقرب إلى الله من العبودية . ولا حجاب أغلظ من الدعوى . ولا ينفع مع الإعجاب والكبر عمل واجتهاد . ولا يضر مع الذل والافتقار بطالة . يعنى بعد فعل الفرائض(١) .

والقصد : أن هذه الذلة والكسرة الخاصة تدخله على الله ، وترميه على طريق المحبة . فيفتح له منها باب لايفتح له من غير هذه الطريق . وإن كانت طرق سائر الأعمال والطاعات تفتح للعبد أبواباً من المحبة . لكن الذى يفتح منها من طريق الذل والانكسار والافتقار وازدراء النفس ، ورؤيتها بعين الضعف والعجز

---

(١) وأساس الذل والانكسار والعبودية : هو أداء ماافترض الله على العبد . وقد بين ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم فى قوله فيما روى البخارى عن ربه عز وجل « ماتقرب إلى عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه ــ الحديث » ومن زعم أن هناك ذلا وانكساراً مع إضاعة الفرائض ، وإهمال الحقوق والواجبات فهو أضل من البهائم .

والعيب والنقص والذم ، بحيث يشاهدها ضيعة وعجزا ، وتفريطا وذنبا وخطيئة : نوع آخر وفتح آخر . والسالك بهذه الطريق غريب فى الناس . وهم فى وادٍ وهو فى واد . وهى تسمى طريق الطير ، يسبق النائم فيها على فراشه السعاة . فيصبح وقد قطع الطريق . وسبق الركب . بينا هو يحدثك . إذا به قد سبق الطرف وفات السعاة . فالله المستعان . وهو خير الغافرين .

وهذا الذى حصل له من آثار محبة الله له ، وفرحه بتوبة عبده . فإنه سبحانه يحب التوابين ، ويفرح بتوبتهم أعظم فرح وأكمله .

فكلما طالع العبد منن ربه سبحانه عليه قَبْلَ الذنب ، وفى حال مواقعته ، وبعده ، وبِرَّه به وحلمه عنه ، وإحسانه إليه : هاجت من قلبه لواعج محبته والشوق إلى لقائه . فإن القلوب مجبولة على حب من أحسن إليها . وأى إحسان أعظم من إحسان من يبارزه العبد بالمعاصى ، وهو يُمِدُّه بنعمه ، ويعامله بألطافه ، ويُسْبِل عليه سَتره . ويحفظه من خطفات أعدائه المترقبين له أدنى عثرة ينالون منه بها بغيتهم . ويردهم عنه . ويحول بينهم وبينه ؟ وهو فى ذلك كله بعينه . يراه ويطلع عليه . فالسماء تستأذن ربها أن تَحْصِبه . والأرض تستأذنه أن تَخْسِف به . والبحر يستأذنه أن يُغرقه . كما فى مسند الإمام أحمد عن النبى صلى الله عليه وسلم « ما من يوم إلا والبحر يستأذن ربه : أن يغرق ابن آدم . والملائكة تستأذنه : أن تعاجله وتهلكه . والرب تعالى يقول : دعوا عبدى . فأنا أعلم به ، إذ أنشأته من الأرض . إن كان عبدكم فشأنكم به . وإن كان عبدى فمِنِّى وإلَىَّ . عبدى ، وعزتى وجلالى إن أتانى ليلا قبلته . وإن أتانى نهاراً قبلته . وإن تقرب منى شبراً تقربت منه ذراعا . وإن تقرب منى ذراعا تقربت منه باعا . وإن مشى إلَىَّ هرولت إليه ، وإن استغفرنى غفرت له . وإن استقالنى أقلته . وإن تاب إلَىَّ تبت عليه . مَنْ أعظم منى جودا وكرما . وأنا الجواد الكريم ؟ عبيدى يبيتون يبارزوننى بالعظائم ، وأنا أكلؤهم فى مضاجعهم . وأحرسهم على فُرُشهم . من

أقبل إليَّ تلقيته من بعيد . ومن ترك لأجلى أعطيته فوق المزيد . ومن تصرف بحولى وقوتى ألنتُ له الحديد . ومن أراد مرادى أردت مايريد . أهلُ ذكرى أهل مجالستى . وأهل شكرى أهل زيادتى . وأهل طاعتى أهل كرامتى . وأهل معصيتى لا أُقنِّطهم من رحمتى . إن تابوا إلىَّ فأنا حبيبهم . وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم . أبتليهم بالمصائب . لأطَهِّرهم من المعايب » .

ولنقتصر على هذا القدر من ذكر « التوبة » وأحكامها وثمراتها . فإنه ما أطيل الكلام فيها إلا لفرط الحاجة والضرورة إلى معرفتها ، ومعرفة أحكامها ، وتفاصيلها ومسائلها . والله الموفق لمراعاة ذلك . والقيام به عملا وحالا . كما وفق له علماً ومعرفة . فما خاب من توكل عليه . ولاذَ به ولجأ إليه . ولا حول ولا قوة إلا بالله

فصـــل

قد علمت أن من نزل فى منزل « التوبة » وقام فى مقامها نزل فى جميع منازل الإسلام . فإن « التوبة » الكاملة متضمنة لها . وهى مندرجة فيها . ولـكن لابد من إفرادها بالذكر والتفصيل . تبييناً لحقائقها وخواصها وشروطها .

فإذا استقرت قدمه فى منزل « التوبة » نزل بعده منزل « الإنابة » وقد أمر الله تعالى بها فى كتابه . وأثنى على خليله بها ، فقال (٣٩: ٥٤ وأنيبوا إلى ربكم) وقال (١١ : ٧٥ إن إبراهيم لحليم أوّاه منيب) وأخبر أن آياته إنما يتبصر بها ويتذكر أهل الإنابة . فقال (٥٠ : ٦ ـ ٨ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ؟ ـ إلى أن قال ـ تبصرةً وذِكرى لـكلّ عبد منيب) وقال تعالى (٤٠ : ١٣ هو الذى يُريكم آياته ويُنزّل لـكم من السماء رزقا ، وما يتذكر إلا من ينيب) وقال تعالى (٣٠ : ٣١ منيبين إليه واتقوه . وأقيموا الصلاة ـ الآية)

« فمنيبين » منصوب على الحال من الضمير المستكن فى قوله « فأقم وجهك » لأن هذا الخطاب له ولأمته . أى أقم وجهك أنت وأمتك منيبين إليه . نظيره قوله (٦٥ : ١ يا أيها النبى إذا طلقتم النساء) ويجوز أن يكون حالاً من المفعول فى

قوله « فطَرَ الناسَ عليها » أى فطرهم منيبين إليه . فلو خُلُّوا وفِطرَهم لما عَدَلَت عن الإنابة إليه . ولـكنها تحوَّل وتتغير عما فُطرت عليه . كما قال صلى الله عليه وسـلم « ما من مولود إلا يولد على الفطرة ـ وفى رواية : على الملة ـ حتى يعرب عنه لسانه » وقال عن نبيه داود (٣٨ : ٢٤ فاستغفر ربه وخَرّ راكعاً وأناب) وأخبر أن ثوابه وجنته لأهل الخشية والإنابة . فقال (٥٠ :٣١ـ٣٤ وأُزْلفتِ الجنة للمتقين غير بعيـد * هذا ما توعدون لـكل أوّاب حفيظ * من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب * ادخلوها بسلام) وأخبر سبحانه أن البشرى منه إنما هى لأهل الإنابة . فقال (٣٩ : ١٧ والذين اجتنبوا الطاغوت أن يَعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى) .

و « الإنابة » إنابتان : إنابة لربوبيته . وهى إنابة المخلوقات كلها . يشترك فيها المؤمن والـكافر ، والبر والفاجر . قال الله تعالى (٣٠ : ٣٣ و إذا مس الناسَ ضُرٌّ دعوا ربهم منيبين إليه) فهذا عامّ فى حق كل داع أصابه ضر . كما هو الواقع . وهذه « الإنابة » لا تستلزم الإسـلام ، بل تجامع الشرك والـكفر . كما قال تعالى فى حق هؤلاء (٣٠ : ٣٣ ، ٣٤ ثم إذا أذاقهم منه رحمةً إذا فريق منهم بربهم يشركون * ليـكفروا بما آتيناهم) فهذا حالهم بعد إنابتهم .

و « الإنابة » الثانية إنابة أوليائه . وهى إنابة لإلٰهيته ، إنابة عبودية ومحبة .

وهى تتضمن أربعة أمور : محبته ، والخضوع له ، والإقبال عليه ، والإعراض عما سواه . فلا يستحق اسم « المنيب » إلا من اجتمعت فيه هذه الأربع . وتفسير السلف لهذه اللفظة يدور على ذلك .

وفى اللفظة معنى الإسراع والرجوع والتقدم . و « المنيب » إلى الله : المسرع إلى مرضاته ، الراجع إليه كل وقت ، المتقدم إلى محابه .

قال صاحب المنازل :

« الإنابة فى اللغة : الرجوع . وهى هٰهنا الرجوع إلى الحق .

وهى ثلاثة أشياء : الرجوع إلى الحق إصلاحا ، كما رجع إليه اعتذارا . والرجوع إليه وفاء ، كما رجع إليه عهدا . والرجوع إليه حالا ، كما رجعت إليه إجابة» .

لما كان التائب قد رجع إلى الله بالاعتذار والإقلاع عن معصيته ، كان من تتمة ذلك : رجوعه إليه بالاجتهاد ، والنصح فى طاعته . كما قال (٢٥ : ٧٠ إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحًا) وقال (٢ : ١٦٠ إلا الذين تابوا وأصلحوا) فلا تنفع توبة و بطالة . فلا بد من توبة وعمل صالحٍ : تركٍ لما يكره ، وفعل لما يحب ، تخلٍّ عن معصيته . وتحلٍّ بطاعته .

وكذلك الرجوع إليه بالوفاء بعهده ، كما رجعت إليه عند أخذ العهد عليك . فرجعت إليه بالدخول تحت عهده أولا . فعليك بالرجوع بالوفاء بما عاهدته عليه ثانياً . والدين كله : عهد ووفاء . فإن الله أخذ عهده على جميع المكلفين بطاعته . فأخذ عهده على أنبيائه ورسله على لسان ملائكته ، أو منه إلى الرسول بلا واسطة كما كلَّم موسى . وأخذ عهده على الأمم بواسطة الرسل . وأخذ عهده على الجهال بواسطة العلماء . فأخذ عهده على هؤلاء بالتعليم ، وعلى هؤلاء بالتعلم . ومدح الموفين بعهده . وأخبر بما لهم عنده من الأجر ، فقال (٤٨ : ١٠ ومن أوفى بما عاهد عليهُ اللهَ فسؤتيه أجراً عظيما) وقال (١٧ : ٣٤ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا) وقال (١٦ : ٩١ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم) وقال (٢ : ١٧٧ والموفون بعهدهم إذا عاهدوا) .

وهذا يتناول عهودهم مع الله بالوفاء له بالإخلاص والإيمان والطاعة . وعهودهم مع الخلق .

وأخبر النبى صلى الله عليه وسلم : أن من علامات النفاق « الغدر بعد العهد » . فما أناب إلى الله من خان عهده وغدر به . كما أنه لم يُنِبْ إليه من لم يدخل تحت عهده . فالإنابة لا تتحقق إلا بالتزام العهد والوفاء به .

وقوله « والرجوع إليه حالا . كما رجعت إليه إجابة » .

أى هو سبحانه قد دعاك فأجبته بلبيك وسعديك قولا . فلا بد من الإجابة حالا تُصَدِّق به المقـال . فإن الأحوال تصدق الأقوال أو تكذبها . وكل قول فلصدقه وكذبه شاهد من حال قائله . فكما رجعت إلى الله إجابة بالمقال . فارجع إليه إجابة بالحال . قال الحسن : ابنَ آدم ؟ لك قول وعمل . وعملك أولى بك من قولك . ولك سريرة وعلانية . وسريرتك أمْلَكُ بك من علانيتك .

فصـل

قال « وإنما يستقيم الرجوع إليه إصلاحاً بثلاثة أشياء : بالخروج من التبعات . والتوجُّع للعثرات . واستدراك الفائتات » .

والخروج من التبعات : هو بالتوبة من الذنوب التى بين العبد وبين الله . وأداء الحقوق التى عليه للخلق . والتوجع للعثرات يحتمل شيئين .

أحدهما : أن يتوجع لعثرته إذا عثر ، فيتوجع قلبه وينصدع . وهـذا دليل على إنابته إلى الله . بخلاف من لا يتألم قلبه ، ولا ينصدع من عثرته . فإنه دليل على فساد قلبه وموته .

الثانى : أن يتوجع لعثرة أخيه المؤمن إذا عثر ، حتى كأنه هو الذى عثر بها ولا يشمت به . فهو دليل على رِقَّة قلبه وإنابته .

واستدراك الفائتات : هو استدراك مافاته من طاعة وقربة بأمثالها ، أو خير منها ولا سيما فى بقية عمره ، عند قرب رحيله إلى الله . فبقية عمر المؤمن لا قيمة لها . يستدرك بها ما فات . ويُحيى بها ما أمات .

فصل

قال « وإنمـا يستقيم الرجوع إليه عهداً : بثلاثة أشياء . بالخلاص من لذة الذنب . وبترك الاستهانة بأهل الغفلة ، تخوفاً عليهم ، مع الرجاء لنفسك . وبالاستقصاء فى رؤية علة الخدمة » .

إذا صَفَتْ له الإنابة إلى ربه تخلص من الفكرة فى لذة الذنب . وعاد مكانها ألمًا وتوجعاً لذكره ، والفكرة فيه . فما دامت لذة الفكرة فيه موجودة فى قلبه ، فإنابته غير صافية .

فإن قيل : أى الحالين أعلى ؟ حال من يجد لذة الذنب فى قلبه ، فهو يجاهدها لله ، ويتركها من خوفه ومحبته وإجلاله أو حال من ماتت لذة الذنب فى قلبه وصار مكانها ألمًا وتوجعاً وطمأنينة إلى ربه ، وسكوناً إليه ، والتذاذاً بحبه ، وتنعماً بذكره ؟.

قيل : حال هذا أكمل وأرفع . وغاية صاحب المجاهدة : أن يجاهد نفسه حتى يصل إلى مقام هذا ومنزلته ، ولكنه يتلوه فى المنزلة والقرب ومنوط به .

فإن قيل : فأين أجر مجاهدة صاحب اللذة ، وتركه محابَّه لله ، وإيثاره رضى الله على هواه ؟ وبهذا كان النوع الإنسانى أفضل من النوع الملكى عند أهل السنة وكانوا خير البرية . والمطمئن قد استراح من ألم هذه المجاهدة وعوفى منها . فبينهما من التفاوت ما بين درجة المعافَى والمبتلى .

قيل : النفس لها ثلاثة أحوال : الأمر بالذنب ، ثم اللوم عليه والندم منه ، ثم الطمأنينة إلى ربها والإقبال بكليتها عليه . وهذه الحال أعلى أحوالها . وأرفعها وهى التى يشمر إليها المجاهد ، وما يحصل له من ثواب مجاهدته وصبره فهو لتشميره إلى درجة الطمأنينة إلى الله . فهو بمنزلة راكب القفار ، والمهامه والأهوال ، ليصل إلى البيت فيطمئن قلبه برؤيته والطواف به . والآخر بمنزلة من هو مشغول به طائفاً وقائماً ، وراكعاً وساجداً . ليس له التفات إلى غيره . فهذا مشغول بالغاية ، وذاك بالوسيلة . وكل له أجر . ولكن بين أجر الغايات وأجر الوسائل بَوْن .

وما يحصل للمطمئن من الأحوال والعبودية والإيمان فوق ما يحصل لهذا المجاهد نفسه فى ذات الله ، وإن كان أكثر عملا ، فقدر عمل المطمئن المنيب بجملته وكيفيته أعظم ، وإن كان هذا المجاهد أكثر عملا . وذلك فضل الله يؤتيه من

يشاء . فما سبق الصديق الصحابة بكثرة عمل . وقد كان فيهم من هو أكثر صياماً وحجاً وقراءة وصلاة منه . ولكن بأمر آخر قام بقلبه ، حتى إن أفضل الصحابة كان يسابقه ولا يراه إلا أمامه .

ولكن عبودية مجاهد نفسه على لذة الذنب والشهوة قد تكون أشق . ولا يلزم من مشقتها تفضيلها فى الدرجة . فأفضل الأعمال الإيمان بالله . والجهاد أشق منه وهو تاليه فى الدرجة . ودرجة الصديقين أعلى من درجة المجاهدين والشهداء . وفى مسند الإمام أحمد من حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم ذكر الشهداء فقال « إن أكثر شهداء أمتى لأصحاب الفُرُش . ورب قتيل بين الصفين الله أعلم بنيته »

فصل

ومن علامات الإنابة : ترك الاستهانة بأهل الغفلة والخوف عليهم ، مع فتحك باب الرجاء لنفسك . فترجو لنفسك الرحمة ، وتخشى على أهل الغفلة النقمة ، ولكن أرجُ لهم الرحمة . وأخشَ على نفسك النقمة . فإن كنت لابد مستهيناً بهم ماقتاً لهم ، لانكشاف أحوالهم لك ، ورؤية ماهم عليه . فكن لنفسك أشد مقتاً منك لهم ، وكن أرجى لهم لرحمة الله منك لنفسك .

قال بعض السلف : لن تفقه كل الفقه حتى تمقت الناس فى ذات الله ، ثم ترجع إلى نفسك فتكون لها أشد مقتاً .

وهذا الكلام لايفقه معناه إلا الفقيه فى دين الله . فإن من شهد حقيقة الخلق ، وعجزهم وضعفهم وتقصيرهم ، بل تفريطهم ، و إضاعتهم لحق الله ، و إقبالهم على غيره ، و بيعهم حظهم من الله بأبخس الثمن من هذا العاجل الفانى ـ لم يجد بداً من مقتهم . ولا يمكنه غير ذلك ألبتة . ولكن إذا رجع إلى نفسه وحاله وتقصيره ، وكان على بصيرة من ذلك : كان لنفسه أشد مقتاً واستهانة . فهذا هو الفقيه .

وأما الاستقصاء فى رؤية علل الخدمة : فهو التفتيش عما يشوبها من حظوظ النفس ، وتمييز حق الرب منها من حظ النفس . ولعل أكثرها ـ أو كلها ـ أن تكون حظاً لنفسك وأنت لاتشعر .

فلا إله إلا الله . كم فى النفوس من علل وأغراض وحظوظ تمنع الأعمال : أن تكون لله خالصة ، وأن تصل إليه ؟ و إن العبد ليعمل العمل حيث لايراه بشر ألبتة ، وهو غير خالص لله . و يعمل العمل والعيون قد استدارت عليه نطاقا ، وهو خالص لوجه الله . ولا يميز هذا إلا أهل البصائر وأطباء القلوب العالمون بأدوائها وعللها .

فبين العمل و بين القلب مسافة . وفى تلك المسافة قُطَّاع تمنع وصول العمل إلى القلب . فيكون الرجل كثير العمل وما وصل منه إلى قلبه محبة ولا خوف ولا رجاء ، ولا زهد فى الدنيا ولا رغبة فى الآخرة . ولا نور يفرق به بين أولياء الله وأعدائه ، و بين الحق والباطل ، ولا قوة فى أمره . فلو وصل أثر الأعمال إلى قلبه لاستنار وأشرق . ورأى الحق والباطل . وميز بين أولياء الله وأعدائه . وأوجب له ذلك المزيد من الأحوال .

ثم بين القلب و بين الرب مسافة . وعليها قطاع تمنع وصول العمل إليه ، من كبر و إعجاب و إدلال ، ورؤية العمل ، ونسيان المنة . وعلل خفية لو استقصى فى طلبها لرأى العجب . ومن رحمة الله تعالى : سترها على أكثر العمال ، إذ لو رأوها وعاينوها لوقعوا فيما هو أشد منها ، من اليأس والقنوط والاستحسار ، وترك العمل ، وخمود العزم ، وفتور الهمة . ولهذا لما ظهرت « رعاية » أبى عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى واشتغل بها العباد عطلت منهم مساجد كانوا يعمرونها بالعبادة . والطبيب الحاذق يعلم كيف يطب النفوس . فلا يعمر قصراً و يهدم مصراً .

فصل

قال « و إنما يستقيم الرجوع إليه حالا بثلاثة أشياء : بالإياس من عملك . و بمعاينة اضطرارك . وشَيْم برق لطفه بك » .

الإياس من العمل يفسر بشيئين .

أحدهما : أنه إذا نظر بعين الحقيقة إلى الفاعل الحق ، والمحرك الأول ، وأنه لولا مشيئته لما كان منك فعل . فمشيئته أوجبت فعلك لامشيئتك ـ بقي بلا فعل . فهٰهنا تنفع مشاهدة القدر ، والفناء عن رؤية الأعمال .

والثاني : أن تيأس من النجاة بعملك . وترى النجاة إنما هي برحمته تعالى وعمله وفضله ، كما في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « لن ينجي أحداً منكم عمله . قالوا : ولا أنت يارسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل » فالمعنى الأول يتعلق ببداية الفعل ، والثاني بغايته ومآله .

وأما معاينة الاضطرار : فإنه إذا أيس من عمله بداية ، وأيس من النجاة به نهاية ، شهد به في كل ذرة منه ضرورة تامة إليه . وليست ضرورته من هذه الجهة وحدها . بل من جميع الجهات . وجهات ضرورته لاتنحصر بعدد . ولا لها سبب . بل هو مضطر إليه بالذات ، كما أن الله عز وجل غني بالذات . فإن الغنى وصف ذاتي للرب . والفقر والحاجة والضرورة وصف ذاتي للعبد .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه :

والفقر لي وصف ذات لازم أبداً كما الغنى أبداً وصف له ذاتي

وأما شَيم برق لطفه بك : فإنه إذا تحقق له قوة ضرورية . وأيس من عمله والنجاة به ، نظر إلى ألطاف الله وشام برقها . وعلم أن كل ماهو فيه وما يرجوه وما تقدم له : لطف من الله به ، ومنة مَنَّ بها عليه ، وصدقة تصدق بها عليه بلا سبب منه . اذ هو المحسن بالسبب والمسبب . والأمر له من قبل ومن بعد . وهو الأول والآخر . لاإله غيره . ولا رب سواه .

فصل

ثم ينزل القلب منزل « التذكر » وهو قرين الإنابة . قال الله تعالى (٤٠ : ١٣ وما يتذكر الا من ينيب) وقال (٥٠ : ٨ تبصرة وذكرى لكل عبد

منيب) وهو من خواص أولى الألباب . كما قال تعالى (١٣ : ٢١ إنما يتذكر أولو الألباب) وقال تعالى (٢ : ٢٦٩ وما يَذَّكر إلا أولو الألباب) .

و «التذكر» و « التفكر » منزلان يثمران أنواع المعارف ، وحقائق الإيمان والإحسان . والعارف لايزال يعود بتفكره على تذكره ، و بتذكره على تفكره ، حتى يفتح قفل قلبه بإذن الفتاح العليم . قال الحسن البصرى : مازال أهل العلم يعودون بالتذكر على التفكر ، وبالتفكر على التذكر ، ويناطقون القلوب حتى نطقت .

* * *

قال صاحب المنازل .

« التذكر فوق التفكر . لأن التفكر طلب ، والتذكر وجود » .

يريد أن التفكر التماس الغايات من مباديها . كما قال « التفكر تلمس البصيرة لاستدراك البغية » .

وأما قوله « التذكر وجود » فلأنه يكون فيما قد حصل بالتفكر . ثم غاب عنه بالنسيان . فإذا تذكره وجده فظفر به .

و « التذكر » تفعل من الذكر . وهو ضد النسيان . وهو حضور صورة المذكور العلمية فى القلب . واختير له بناء التفعل ، لحصوله بعد مهلة وتدرج . كالتبصر والتفهم والتعلم .

فمنزلة « التذكر » من « التفكر » منزلة حصول الشيء المطلوب بعد التفتيش عليه . ولهذا كانت آيات الله المتلوة والمشهودة ذِكْرَى . كما قال فى المتلوة (٤٠ : ٥٤ ولقد آتينا موسى الهدى وأورثنا بنى إسرائيل الكتاب . هُدًى وذكرى لأولى الألباب) وقال عن القرآن (٦٩ : ٤٨ و إنه لتذكرة للمتقين) وقال فى آياته المشهودة (٥٠ : ٥ ـ ٨ أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج .

والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى . وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) .

ف« التبصرة » آلة البصر ، و« التذكرة » آلة الذكر . وقرن بينهما وجعلهما لأهل الإنابة . لأن العبد إذا أناب إلى الله أبصر مواقع الآيات والعبر . فاستدل بها على ماهى آيات له . فزال عنه الإعراض بالإنابة ، والعمى بالتبصرة ، والغفلة بالتذكرة . لأن التبصرة توجب له حصول صورة المدلول فى القلب بعد غفلته عنها . فترتيب المنازل الثلاثة أحسن ترتيب ، ثم إن كلا منها يمد صاحبه ويقويه ويثمره

وقال تعالى فى آياته المشهودة (٥٠ : ٣٦ ، ٣٧ وكم أهلكنا قبلهم من قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ منهم بطشاً . فنقبوا فى البلاد ، هل من محيص ؟ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) .

والناس ثلاثة : رجل قلبه ميت . فذلك الذى لا قلب له . فهذا ليست هذه الآية ذكرى فى حقه .

الثانى : رجل له قلب حَىٌّ مستعد ، لكنه غير مستمع للآيات المتلوة ، التى يخبر بها الله عن الآيات المشهودة : إما لعدم ورودها ، أو لوصولها إليه ، ولكن قلبه مشغول عنها بغيرها . فهو غائب القلب ، ليس حاضراً . فهذا أيضاً لاتحصل له الذكرى ، مع استعداده ووجود قلبه .

والثالث : رجل حى القلب مستعد . تليت عليه الآيات . فأصغى بسمعه ، وألقى السمع وأحضر قلبه . ولم يشغله بغير فهم مايسمعه . فهو شاهد القلب . ملقٍ السمع . فهذا القسم هو الذى ينتفع بالآيات المتلوة والمشهودة .

فالأول : بمنزلة الأعمى الذى لا يبصر .

والثانى : بمنزلة البصير الطامح ببصره إلى غير جهة المنظور إليه ، فكلاهما لا يراه .

والثالث : بمنزلة البصير الذى قد حَدّق إلى جهة المنظور ، وأتبعه بصره . وقابله على توسط من البعد والقرب . فهذا هو الذى يراه .

فسبحان من جعل كلامه شفاء لما فى الصدور .

فإن قيل : فما موقع « أو » من هذا النظم على ماقررت ؟

قيل : فيها سر لطيف ، ولسنا نقول : إنها بمعنى الواو . كما يقوله ظاهرية النحاة .

فاعلم أن الرجل قد يكون له قلب وَقّاد ، مليء باستخراج العبر . واستنباط الحكم . فهذا قلبه يوقعه على التذكر والاعتبار . فإذا سمع الآيات كانت له نوراً على نور . وهؤلاء أكمل خلق الله . وأعظمهم إيماناً و بصيرة . حتى كأن الذى أخبرهم به الرسول مشاهد لهم ، لكن لم يشعروا بتفاصيله وأنواعه . حتى قيل : إن مثل حال الصديق مع النبى صلى الله عليه وسلم ، كمثل رجلين دخلا داراً . فرأى أحدهما تفاصيل مافيها وجزئياته . والآخر : وقعت يده على مافى الدار ولم ير تفاصيله ولا جزئياته . لكن علم أن فيها أموراً عظيمة ، لم يدرك بصره تفاصيلها . ثم خرجا . فسأله عما رأى فى الدار ؟ فجعل كلما أخبره بشىء صدقه ، لما عنده من شواهده . وهذه أعلى درجات الصديقية . ولا تستبعد أن يمنّ الله المنان على عبد بمثل هذا الإيمان . فإن فضل الله لا يدخل تحت حصر ولا حسبان .

فصاحب هذا القلب إذا سمع ، الآيات وفى قلبه نور من البصيرة : ازداد بها نوراً إلى نوره . فإن لم يكن للعبد مثل هذا القلب فألقى السمعَ وشهد قلبه ولم يغب حصل له التذكر أيضاً (٢ : ٢٦٥ فإن لم يصبها وَابلٌ فَطَلٌّ) والوابل والطل فى جميع الأعمال وآثارها ، وموجباتها . وأهل الجنة سابقون مقربون ، وأصحاب يمين ، وبينهما فى درجات التفضيل مابينهما . حتى إن شراب أحد النوعين الصّرف يطيب به شراب النوع الآخر ويمزج به مزجا . قال الله تعالى (٣٤ : ٦ ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك الحقَّ . ويهدى إلى صراط العزيز

الحميد) فكل مؤمن يرى هذا . ولكن رؤية أهل العلم له لون ، ورؤية غيرهم له لون آخر .

* * *

قال صاحب المنازل :

« أبنية التذكر ثلاثة : الانتفاع بالعظة . والاستبصار بالعبرة . والظفر بثمرة الفكرة » .

الانتفاع بالعظة : هو أن يقدح فى القلب قادح الخوف والرجاء . فيتحرك للعمل ، طلباً للخلاص من الخوف ، ورغبة فى حصول المرجوّ .

و « العظة » هى الأمر والنهى ، المعروف بالترغيب والترهيب .

و « العظة » نوعان : عظة بالمسموع ، وعظة بالمشهود . فالعظة بالمسموع : الانتفاع بما يسمعه من الهدى والرشد ، والنصائح التى جاءت على لسان الرسل وما أوحى إليهم . وكذلك الانتفاع بالعظة من كل ناصح ومرشد فى مصالح الدين والدنيا .

و « العظة » بالمشهود : الانتفاع بما يراه و يشهده فى العالم من مواقع العبر ، وأحكام القدر ، ومجاريه . وما يشاهده من آيات الله الدالة على صدق رسله .

وأما استبصار العبرة : فهو زيادة البصيرة عما كانت عليه فى منزل التفكر بقوة الاستحضار . لأن التذكر يعتقل المعانى التى حصلت بالتفكر فى مواقع الآيات والعبر . فهو يظفر بها بالتفكر . وتنصقل له وتنجلى بالتذكر . فيقوى العزم على السير بحسب قوة الاستبصار . لأنه يوجب تحديد النظر فيما يحرك المطلب إذ الطلب فرع الشعور . فكلما قوى الشعور بالمحبوب اشتد سفَرَ القلب إليه . وكلما اشتغل الفكر به ازداد الشعور به والبصيرة فيه . والتذكر له .

وأما الظفر بثمرة الفكرة : فهذا موضع لطيف .

وللفكرة ثمرتان : حصول المطلوب تاماً بحسب الإمكان ، والعمل بموجبه رعاية لحقه . فإن القلب حال التفكر كان قد كَلَّ بأعماله فى تحصيل المطلوب .

فلما حصلت له المعانى وتخمرت فى القلب ، واستراح العقل : عاد فتذكر ما كان حَصَّله وطالعه . فابتهج به وفرح به . وصحح فى هذا المنزل ما كان فاته فى منزل التفكر . لأنه قد أشرف عليه فى مقام التذكر ، الذى هو أعلى منه . فأخذ حينئذ فى الثمرة المقصودة . وهى العمل بموجبه مراعاة لحقه . فإن العمل الصالح : هو ثمرة العلم النافع ، الذى هو ثمرة التفكر .

وإذا أردت فهم هذا بمثال حسى . فطالبُ المال مادام جاداً فى طلبه ، فهو فى كلال وتعب . حتى إذا ظفر به استراح من كَدِّ الطلب . وقَدِمَ من سفر التجارة . فطالع ماحصله وأبصره . وصحح فى هذا الحال ماعساه غلط فيه فى حال اشتغاله بالطلب . فإذا صح له وبردت غنيمته له ، أخذ فى صرف المال فى وجوه الانتفاع المطلوبة منه . والله أعلم .

فصل

قال « وإنما ينتفع بالعظة بعد حصول ثلاثة أشياء : شدة الافتقار إليها . والعمى عن عيب الواعظ . وتذكر الوعد والوعيد » .

إنما يشتد افتقار العبد إلى العظة ــ وهى الترغيب والترهيب ــ إذا ضعفت إنابته وتذكره ، وإلا فمتى قويت إنابته وتذكره : لم تشتد حاجته إلى التذكير والترغيب والترهيب ، ولكن تكون الحاجة منه شديدة إلى معرفة الأمر والنهى .

و « العظة » يراد بها أمران : الأمر والنهى المقرونان بالرغبة والرهبة ، ونفس الرغبة والرهبة . فالمنيب المتذكر : شديد الحاجة إلى الأمر والنهى ، والمعرض الغافل شديد الحاجة إلى الترغيب والترهيب . والمعارض المتكبر : شديد الحاجة إلى المجادلة

فجاءت هذه الثلاثة فى حق هؤلاء الثلاثة فى قوله (١٦ : ١٢٥ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة ، والموعظة الحسنة . وجادلهم بالتى هى أحسن) أطلق الحكمة ، ولم يقيدها بوصف الحسنة . إذ كلها حسنة ، ووصف الحسن لها ذاتى .

وأما « الموعظة » فقيدها بوصف الإحسان . إذ ليس كل موعظة حسنة .

وكذلك « الجدال » قد يكون بالتى هى أحسن . وقد يكون بغير ذلك .
وهذا يحتمل أن يرجع إلى حال المجادل وغلظته ، ولينه وحدته ورفقه . فيكون مأموراً بمجادلتهم بالحال التى هى أحسن .

ويحتمل أن يكون صفة لما يجادل به ، من الحجج والبراهين ، والكلمات التى هى أحسن شىء وأبينه ، وأدله على المقصود . وأوصله إلى المطلوب . والتحقيق : أن الآية تتناول النوعين .

وأما ماذكره بعض المتأخرين : أن هذا إشارة إلى أنواع القياسات ف « الحكمة » هى طريقة البرهان . و « الموعظة الحسنة » هى طريقة الخطابة ، و « المجادلة بالتى هى أحسن » طريقة الجدل . فالأول : بذكر المقدمات البرهانية لمن لايرضى إلا بالبرهان ، ولا ينقاد إلا له . وهم خواص الناس . والثانى : بذكر المقدمات الخطابية ، التى تثير رغبة ورهبة لمن يقنع بالخطابة . وهم الجمهور . والثالث : بذكر المقدمات الجدلية للمعارض الذى يندفع بالجدل . وهم المخالفون ـ فتنزيل القرآن على قوانين أهل المنطق اليونانى واصطلاحهم . وذلك باطل قطعاً من وجوه عديدة . ليس هذا موضع ذكرها . وإنما ذكر هذا استطرادًا لذكر العظة . وأن المنيب المتذكر لاتشتد حاجته إليها كحاجة الغافل المعرض . فإنه شديد الحاجة جداً إلى العظة ليتذكر ماقد نسيه ، فينتفع بالتذكر .

وأما العمى عن عيب الواعظ : فإنه إذا اشتغل به حُرِم الانتفاع بموعظته . لأن النفوس مجبولة على عدم الانتفاع بكلام من لايعمل بعلمه ولاينتفع به . وهذا بمنزلة من يصف له الطبيب دواء لمرض به مثله . والطبيب معرض عنه غير ملتفت إليه . بل الطبيب المذكور عندهم : أحسن حالاً من هذا الواعظ المخالف لما يعظ به . لأنه قد يقوم دواء آخر عنده مقام هذا الدواء . وقد يرى أن به قوة على ترك التداوى . وقد يقنع بعمل الطبيعة وغير ذلك ، بخلاف هذا الواعظ . فإن مايعظ به طريق معين للنجاة لايقوم غيرها مقامها . ولا بد منها . ولأجل هذه النفرة قال

شعيب عليه السلام لقومه (١١ : ٨٨ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه) وقال بعض السلف : إذا أردت أن يُقبل منك الأمر والنهى : فإذا أمرت بشيء فكن أول الفاعلين له ، المؤتمرين به . و إذا نهيت عن شيء ، فكن أول المنتهين عنه . وقد قيل :

يا أيهـا الرجل المعـلم غيره هَلاَّ لنفسك كان ذا التعليم ؟
تصف الدواء لذى السقام من الضنى ومن الضنى تمسى وأنت سـقيم
لاتَنْهَ عن خُلُق . وتأتى مثـله عار عليك إذا فعلت ذميم
ابدأ بنفسك فانْهَهَا عن غَيِّها فإذا انتهت عنـه فأنت حكيم
فهناك يُقبل ما تقول ويُقْتَدى بالقول منك . وينفع التعليم

فالعمى عن عيب الواعظ : من شروط تمام الانتفاع بموعظته .

وأما تذكر الوعد والوعيد : فإن ذلك يوجب خشيته والحذر منه . ولا تنفع الموعظة إلا لمن آمن به ، وخافه ورجاه . قال الله تعالى (١١ : ١٠٣ إن فى ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة) وقال (٨٧ : ١٠ سَيَذَّكر من يخشى) وقال (٧٩ : ٤٥ إنما أنت منذر من يخشاها) وأصرح من ذلك قوله تعالى (٥٠ : ٤٥ فذكِّر بالقرآن من يخاف وعيد) فالإيمان بالوعد والوعيد وذكره : شرط فى الانتفاع بالعظات والآيات والعبر . يستحيل حصوله بدونه .

* * *

قال « و إنما تُسْتَبْصَر العبرة بثلاثة أشـياء : بحياة العقل . ومعرفة الأيام . والسلامة من الأغراض » .

إنما تتميز «العبرة» وترى وتتحقق بحياة العقل . و « العبرة » هى الاعتبار . وحقيقتها : العبور من حكم الشيء إلى حكم مثله . فإذا رأى من قد أصـابته محنة و بلاء لسبب ارتـكبه ، علم أن حكم من ارتـكب ذلك السبب كحـكمه .

وحياة العقل : هى صحة الإدراك . وقوة الفهم وجودته . وتحقق الانتفاع

بالشىء والتضرر به . وهو نور يخص الله به من يشاء من خلقه . و بحسب تفاوت الناس فى قوة ذلك النور وضعفه ، ووجوده وعدمه ، يقع تفاوت أذهانهم وأفهامهم و إدراكاتهم . ونسبته إلى القلب كنسبة النور الباصر إلى العين .

ومن تجريبات السالكين ، التى جربوها فألفوها صحيحة : أن من أدمن « يا حى يا قيوم لا إله إلا أنت » أورثه ذلك حياة القلب والعقل .

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ شديد اللهج بها جداً . وقال لى يوماً : لهذين الاسمين ـ وهما « الحى القيوم » ـ تأثير عظيم فى حياة القلب . وكان يشير إلى أنهما الاسم الأعظم . وسمعته يقول : من واظب على أربعين مرة كل يوم بين سنة الفجر وصلاة الفجر « ياحى ياقيوم . لاإله إلا أنت. برحمتك أستغيث » حصلت له حياة القلب . ولم يمت قلبه .

ومن علم عبوديات الأسماء الحسنى والدعاء بها ، وسِرَّ ارتباطها بالخلق والأمر ، و بمطالب العبد وحاجاته : عرف ذلك وتحققه . فإن كل مطلوب يسأل بالمناسب له . فتأمل أدعية القرآن والأحاديث النبوية تجدها كذلك .

وأما معرفة الأيام : فيحتمل أن يريد به أيامه التى تخصه ، وما يلحقه فيها من الزيادة والنقصان . و يعلم قصرها ، وأنها أنفاس معدودة منصرمة . كل نَفَس منها يقابله آلاف آلاف من السنين فى دار البقاء . فليس لهذه الأيام الخالية قط نسبة إلى أيام البقاء . والعبد منساق زمنه ، وفى مدة العمر إلى النعيم أو إلى الجحيم . وهى كمدة المنام لمن له عقل حى وقلب واع . فما أولاه أن لايصرف منها نفساً إلا فى أحب الأمور إلى الله . فلو صرفه فيما يحبه وترك الأحب لكان مفرطاً فكيف إذا صرفه فيما لا ينفعه ؟ فكيف إذا صرفه فيما يمقته عليه ربه ؟ فالله المستعان ولا قوة إلا به .

ويحتمل أن يريد بالأيام : أيام الله التى أمر رسله بتذكير أممهم بها . كما قال تعالى (١٤ : ٥ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا : أن أخرج قومك من الظلمات إلى

النور . وذَكِّرهم بأيام الله) وقد فسرت « أيام الله » بنعمه ، وفسرت بنقمه من أهل الكفر والمعاصى . فالأول تفسير ابن عباس وأبى بن كعب ومجاهد . والثانى : تفسير مقاتل .

والصواب : أن أيامه تعم النوعين . وهى وقائعه التى أوقعها بأعدائه ، ونعمه التى ساقها إلى أوليائه . وسميت هذه النعم والنقم الكبار المتحدَّث بها « أياما » لأنها ظرف لها . تقول العرب : فلان عالم بأيام العرب وأيام الناس . أى بالوقائع التى كانت فى تلك الأيام . فمعرفة هذه الأيام توجب للعبد استبصار العبر . و بحسب معرفته بها تكون عبرته وعظته . قال الله تعالى (١٢ : ١١١ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب) .

ولا يتم ذلك إلا بالسلامة من الأغراض . وهى متابعة الهوى والانقياد لداعى النفس الأمارة بالسوء . فإن اتباع الهوى يطمس نور العقل . و يعمى بصيرة القلب . و يصد عن اتباع الحق . و يضل عن الطريق المستقيم . فلا تحصل بصيرة العبرة معه ألبتة . والعبد إذا اتبع هواه فسدَ رأيه ونظره . فأرَتْهُ نفسه الحسَنَ فى صورة القبيح ، والقبيح فى صورة الحسن . فالتبس عليه الحق بالباطل . فأنَّى له الانتفاع بالتذكر ، أو بالتفكر ، أو بالعظة ؟ .

فصل

قال « و إنما تجتنى ثمرة الفكرة بثلاثة أشياء : بقصر الأمل . والتأمل فى القرآن . وقلة الخلطة ، والتمنى . والتعلق بغير الله . والشبع والمنام » .

يعنى : أن فى منزل « التذكر » تجتنى ثمرة « الفكرة » لأنه أعلى منها . وكل مقام تجتنى ثمرته فى الذى هو أعلى منه . ولا سيما على ماقرره فى خطبة كتابه « أن كل مقام يصحح ماقبله » .

ثم ذكر أن هذه الثمرة تجتنى بثلاثة أشياء . أحدها : قصر الأمل ، والثانى : تدبر القرآن ، والثالث : تجنب مفسدات القلب الخمسة .

فأما قصر الأمل : فهو العلم بقرب الرحيل ، وسرعة انقضاء مدة الحياة . وهو من أنفع الأمور للقلب . فإنه يبعثه على معافصة الأيام ، وانتهاز الفرص التى تمر مَرَّ السحاب ، ومبادرة طَيِّ صحائف الأعمال . ويثير ساكن عزماته إلى دار البقاء ، ويحثه على قضاء جهاز سفره ، وتدارك الفارط . ويزهده فى الدنيا . ويرغبه فى الآخرة . فيقوم بقلبه ـ إذا داوم مطالعة قصر الأمل ـ شاهدٌ من شواهد اليقين . يريه فناء الدنيا . وسرعة انقضائها . وقلة مابقى منها . وأنها قد ترحلت مُدْبِرَة . ولم يبق منها إلا صُبابة كصبابة الإناء يتصابُّها صاحبها . وأنها لم يبق منها إلا كما بقى من يوم صارت شمسه على رءوس الجبال . ويريه بقاء الآخرة ودوامها ، وأنها قد ترحلت مقبلة . وقد جاء أشراطُها وعلاماتها ، وأنه من لقائها كمسافر خرج صاحبه يتلقاه ، فكل منهما يسير إلى الآخر ، فيوشك أن يلتقيا سريعا .

ويكفى فى قصر الأمل قوله تعالى (٢٦: ٢٠٥-٢٠٧ أفرأيت إن متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون . ما أغنى عنهم ما كانوا يُمَتَّعُون) وقوله تعالى (١٠ : ٤٥ ويوم يحشرهم كأن لم يلبثوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم) وقوله تعالى (٧٩ : ٤٦ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عَشِيَّةً أو ضحاها) وقوله تعالى (٢٣ : ١١٣ ، ١١٤ قالوا : لبثنا يوماً أو بعض يوم . فاسأل العادّين . قال : إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون) وقوله تعالى (٤٦ : ٣٥ كأنهم يوم يرون مايوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ، بلاغ . فهل يُهلك إلا القوم الفاسقون) وقوله تعالى (٢٠ : ١٠٣،١٠٤ يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشرا . نحن أعلم بما يقولون . إذ يقول أمثلهم طريقة : إن لبثتم إلا يوما) وخطب النبى صلى الله عليه وسلم أصحابه يوماً والشمس على رءوس الجبال فقال « إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقى من يومكم هذا فيما مضى منه » ومَرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعض أصحابه . وهم يعالجون خُصًّا لهم قد وهَى . فهم يصلحونه ، فقال « ماهذا ؟ قالوا : خصٌّ لنا قد وهَى فنحن نعالجه . فقال : ما أرى الأمر إلا أعجل من هذا » .

وقصر الأمل بناؤه على أمرين : تيقن زوال الدنيا ومفارقتها ، وتيقن لقاء الآخرة و بقائها ودوامها . ثم يقايس بين الأمرين و يؤثر أولاهما بالإيثار .

فصل

وأما التأمل فى القرآن : فهو تحديق ناظر القلب إلى معانيه . وجمع الفكر على تدبره وتعقله . وهو المقصود بإنزاله ، لا لمجرد تلاوته بلا فهم ولا تدبر . قال الله تعالى (٣٨ : ٢٩ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبّروا آياته . وليتذكر أولو الألباب) وقال تعالى (٤٧ : ٢٤ أفلا يتدبرون القرآن ، أم على قلوب أقفالها ؟) وقال تعالى (٢٣ : ٦٩ أفلم يدّبّروا القول) وقال تعالى (٤٣ : ٣ إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون) وقال الحسن : نزل القرآن لُيتدبر و يعمل به . فاتخذوا تلاوته عملا .

فليس شىء أنفع للعبد فى معاشه ومعاده ، وأقرب إلى نجاته : من تدبر القرآن ، و إطالة التأمل . وجمع فيه الفكر على معانى آياته . فإنها تُطلع العبد على معالم الخير والشر بحذافيرهما . وعلى طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما ، ومآل أهلهما ، وتَتُلّ فى يده[1] مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة . وتثبت قواعد الإيمان فى قلبه . وتشيد بنيانه . وتوطد أركانه . وتريه صورة الدنيا والآخرة ، والجنة والنار فى قلبه . وتُحضِره بين الأمم ، وتريه أيام الله فيهم . وتُبَصِّره مواقع العبر . وتشهده عدل الله وفضله . وتعرفه ذاته ، وأسماءه وصفاته وأفعاله ، وما يحبه وما يبغضه ، وصراطه الموصل اليه ، وما لسالكيه بعد الوصول والقدوم عليه ، وقواطع الطريق وآفاتها . وتعرفه النفس وصفاتها ، ومفسدات الأعمال ومصححاتها وتعرفه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم ، وأحوالهم وسيماهم . ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة ، وأقسام الخلق واجتماعهم فيما يجتمعون فيه . وافتراقهم فيما يفترقون فيه .

---

(١) تل الشىء فى يده ـ بالمثناة الفوقية المفتوحة ـ وضعه فيها

وبالجملة تعرفه الرب المدعو إليه ، وطريق الوصول إليه ، وما له من الـكرامة إذا قدم عليه .

وتعرفه فى مقابل ذلك ثلاثة أخرى : مايدعو إليه الشيطان ، والطريق الموصلة إليه ، وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب بعد الوصول إليه .

فهذه ستة أمور ضروري للعبد معرفتها . ومشاهدتها ومطالعتها . فتشهده الآخرة حتى كأنه فيها ، وتغيبه عن الدنيا حتى كأنه ليس فيها . وتُمَيِّز له بين الحق والباطل فى كل ما اختلف فيه العالم . فتريه الحق حقا ، والباطل باطلا . وتعطيه فرقاناً ونوراً يفرق به بين الهدى والضلال . والغي والرشاد . وتعطيه قوة فى قلبه ، وحياة وسعة وانشراحا وبهجة وسرورا . فيصير فى شأنٍ والناس فى شأن آخر .

فإن معانى القرآن دائرة على التوحيد وبراهينه ، والعلم بالله وماله من أوصاف الـكمال ، وما ينزه عنه من سمات النقص ، وعلى الإيمان بالرسل ، وذكر براهين صدقهم ، وأدلة صحة نبوتهم . والتعريف بحقوقهم ، وحقوق مرسلهم . وعلى الإيمان بملائـكته ، وهم رسله فى خلقه وأمره ، وتدبيرهم الأمور بإذنه ومشيئته ، وما جعلوا عليه من أمر العالم العلوى والسفلى ، وما يختص بالنوع الإنسانى منهم ، من حين يستقر فى رحم أمه إلى يوم يوافى ربه ويقدم عليه . وعلى الإيمان باليوم الآخر وما أعدَّ الله فيه لأوليائه من دار النعيم المطلق ، التى لايشعرون فيهـا بألم ولا نكد وتنغيص . وماأعد لأعدائه من دار العقاب الوبيل ، التى لايخالطها سرور ولا رخاء ولا راحة ولا فرح . وتفاصيل ذلك أتم تفصيل وأبينه . وعلى تفاصيل الأمر والنهى ، والشرع والقدر ، والحلال والحرام ، والمواعظ والعبر ، والقصص والأمثال ، والأسباب والحكم ، والمبادىء والغايات ، فى خلقه وأمره .

فلا تزال معانيه تنهض العبد إلى ربه بالوعد الجميل ، وتحذره وتخوفه بوعيده من العذاب الوبيل ، وتحثه على التضمر والتخفف للقاء اليوم الثقيل . وتهديه فى ظلم الآراء والمذاهب إلى سواء السبيل . وتصده عن اقتحام طرق البدع والأضاليل

وتبعثه على الازدياد من النعم بشكر ربه الجليل . وتبصره بحدود الحلال والحرام . وتوقفه عليها لئلا يتعداها فيقع فى العناء الطويل . وتثبت قلبه عن الزيغ والميل عن الحق والتحويل . وتسهل عليه الأمور الصعاب والعقبات الشاقة غاية التسهيل . وتناديه كلما فترت عزماته ، وونَى فى سيره : تقدم الركب وفاتك الدليل . فاللحاقَ اللحاقَ ، والرحيل الرحيل . وتَحْدُو به وتسير أمامه سير الدليل . وكلما خرج عليه كمين من كمائن العدو ، أو قاطع من قطاع الطريق نادته : الحذر الحذر ! فاعْتَصِمْ بالله ، واستعن به ، وقل : حسبى الله ونعم الوكيل .

وفى تأمل القرآن وتدبره ، وتفهمه ، أضعاف أضعاف ماذكرنا من الحكم والفوائد .

وبالجملة : فهو أعظم الكنوز ، طلسمه الغوص بالفكر إلى قرار معانيه .

نزه فؤادك عن سوى روضاته ... فرياضه حِلٌّ لكل مُنَزَّهِ
والفهم طِلَّسْم لكنز علومه ... فاقصد إلى الطلسم تحظ بكنزه
لا تخش من بِدَعٍ لهم وحوادث ... مادمت فى كنف الكتاب وحِرْزه
من كان حارسه الكتاب ودِرْعُهُ ... لم يخش من طعن العدو وَوَخْزِه
لا تخش من شبهاتهم واحمل إذا ... ما قابلتك بنصره وبعزه
والله ماهاب امرؤ شبهاتهم ... إلا لضعف القلب منه وعجزه
ياويح تيس ظالع يبغى مسا ... بقة الهِزَبْر بعدوه وبجَمْزِه
ودخان زبل يرتقى للشمس يسـ ... تر عينها لما سرى فى أَزِّه
وجبان قلب أعزل ، قد رام يأ ... سر فارساً شاكى السلاح بهزه

فصل

وأما مفسدات القلب الخمسة : فهى التى أشار إليها : من كثرة الخلطة والتمنى . والتعلق بغير الله ، والشبع ، والمنام . فهذه الخمسة من أكبر مفسدات القلب .

فنذكر آثارها التى اشتركت فيها ، وما تميز به كل واحد منها .

اعلم أن القلب يسير إلى الله عز وجل ، والدار الآخرة ، ويكشف عن طريق الحق ونهجه ، وآفات النفس والعمل ، وقطاع الطريق بنوره وحياته وقوته ، وصحته وعزمه ، وسلامة سمعه وبصره ، وغيبة الشواغل والقواطع عنه . وهذه الخمسة تطفىء نوره ، وتعور عين بصيرته ، وتثقل سمعه ، إن لم تَصُمه وَتُبْكِمه ـ وتضعف قواه كلها . وتوهن صحته وتُفَتِّر عزيمته ، وتوقف همته ، وتنكسه إلى ورائه . ومن لا شعور له بهذا فميت القلب . وما لجرح بميت إيلام . فهى عائقة له عن نيل كماله . قاطعة له عن الوصول إلى ماخلق له . وجعل نعيمه وسعادته وابتهاجه ولذته فى الوصول إليه .

فإنه لا نعيم له ولا لذة ، ولا ابتهاج ، ولا كمال ، إلا بمعرفة الله ومحبته ، والطمأنينة بذكره ، والفرح والابتهاج بقربه ، والشوق إلى لقائه . فهذه جنته العاجلة . كما أنه لا نعيم له فى الآخرة ، ولا فوز إلا بجواره فى دار النعيم فى الجنة الآجلة . فله جنتان . لايدخل الثانية منهما إن لم يدخل الأولى .

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول : إن فى الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة .

وقال بعض العارفين : إنه ليمر بالقلب أوقات . أقول : إن كان أهل الجنة فى مثل هذا . إنهم لفى عيش طيب .

وقال بعض المحبين : مساكين أهل الدنيا خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب مافيها ، قالوا : وما أطيب مافيها ؟ قال : محبة الله ، والأنس به ، والشوق إلى لقائه ، والإقبال عليه ، والإعراض عماسواه ـ أو نحو هذا من الكلام .

وكل من له قلب حى يشهد هذا ويعرفه ذوقاً .

وهذه الأشياء الخمسة : قاطعة عن هذا ، حائلة بين القلب وبينه ، عائقة له عن سيره ، ومحدثة له أمراضاً وعللا إن لم يتداركها المريض خيف عليه منها .

فأما ماتؤثره كثرة الخلطة : فامتلاء القلب من دخان أنفاس بنى آدم حتى

يسودّ ، ويوجب له تشتتاً وتفرقاً ، وهما وغماً ، وضعفاً ، وحملاً لما يعجز عن حمله من مؤنة قرناء السوء ، وإضاعة مصالحه ، والاشتغال عنها بهم وبأمورهم ، وتَقَسُّم فكره فى أودية مطالبهم وإراداتهم . فماذا يبقى منه لله والدار الآخرة ؟ .

هذا ، وكم جلبت خلطة الناس من نقمة ، ودفعت من نعمة ؟ وأنزلت من محنة ، وعطلت من منحة ، وأحلت من رزية ، وأوقعت فى بلية ؟ وهل آفة الناس إلا الناس ؟ وهل كان على أبى طالب ـ عند الوفاة ـ أضر من قرناء السوء ؟ لم يزالوا به حتى حالوا بينه وبين كلمة واحدة توجب له سعادة الأبد .

وهذه الخلطة التى تكون على نوع مودة فى الدنيا ، وقضاء وطَر بعضهم من بعض ـ تنقلب إذا حَقَّت الحقائق عداوة ، ويعض المخلط عليها يديه ندماً ، كما قال تعالى (٢٥ : ٢٧ ـ ٢٩ ويوم يَعَضُّ الظالم عَلَى يديه ، يقول : ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا . ياويلتى ليتنى لم أتخذ فلاناً خليلا . لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى) وقال تعالى (٤٣ : ٦٧ الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو ، إلا المتقين) وقال خليله إبراهيم لقومه (٢٩ : ٢٥ إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مَوَدَّةَ بينكم فى الحياة الدنيا . ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعضٍ ، ويلعن بعضكم بعضاً . ومأواكم النار ومالكم من ناصرين) وهذا شأن كل مشتركين فى غرض . يتوادون ماداموا متساعدين على حصوله ، فإذا انقطع ذلك الغرض ، أعقب ندامة وحزناً وألماً . وانقلبت تلك المودة بغضاً ولعنة ، وذماً من بعضهم لبعض ، لما انقلب ذلك الغرض حزناً وعذاباً ، كما يشاهد فى هذه الدار من أحوال المشتركين فى خزيه ، إذا أُخذوا وعوقبوا . فكل متساعدين على باطل ، متوادِّين عليه : لابد أن تنقلب مودتهما بغضاً وعداوة .

والضابط النافع فى أمر الخلطة : أن يخالط الناس فى الخير ـ كالجمعة والجماعة ، والأعياد والحج ، وتعلم العلم ، والجهاد ، والنصيحة ـ ويعتزلهم فى الشر ، وفضول المباحات . فإن دعت الحاجة إلى خلطتهم فى الشر ، ولم يمكنه اعتزالهم : فالحذَر

الحذَر أن يوافقهم . وليصبر على أذاهم ، فإنهم لابد أن يؤذوه إن لم يكن له قوة ولا ناصر . ولـكن أذًى يعقبه عز ومحبة له وتعظيم ، وثناء عليه منهم ومن المؤمنين ومن رب العالمين . وموافقتُهم يعقبها ذُلٌّ وَبُغْضٌ له ، ومقت ، وذم منهم ومن المؤمنين ، ومن رب العالمين .

فالصبر على أذاهم خير وأحسن عاقبة ، وأحمد مآلا ، وإن دعت الحاجة إلى خلطتهم فى فضول المباحات . فليجتهد أن يقلب ذلك المجلس طاعة لله ، إن أمكنه ، ويشجع نفسه ويقوى قلبه ، ولا يلتفت إلى الوارد الشيطانى القاطع له عن ذلك ، بأن هذا رياء ومحبة لإظهار علمك وحالك ، ونحو ذلك ، فليحاربه ، وليستغن بالله ، ويؤثر فيهم من الخير ماأمكنه .

فإن أعجزته المقادير عن ذلك ، فَلْيَسُلَّ قلبه من بينهم كسلّ الشعرة من العجين ، وليكن فيهم حاضراً غائباً ، قريباً بعيداً ، نائماً يقظاناً . ينظر إليهم ولا يبصرهم ، ويسمع كلامهم ولا يعيه ، لأنه قد أخذ قلبه من بينهم ، ورقى به إلى الملأ الأعلى ، يسبح حول العرش مع الأرواح العلوية الزكية . وما أصعب هذا وأشقه على النفوس ، وإنه ليسير على من يسره الله عليه . فبين العبد وبينه أن يَصْدُقَ الله تبارك وتعالى ، ويديم اللجأ إليه ، ويلقى نفسه على بابه طريحاً ذليلا ، ولا يعين على هذا إلا محبة صـادقة ، والذكر الدائم بالقلب واللسان ، وتجنب المفسـدات الأربع الباقية الآتى ذكرها . ولا ينال هذا إلا بعدة صالحة ومادة قوة من الله عز وجل ، وعزيمة صادقة ، وفراغ من التعلق بغير الله تعالى . والله تعالى أعلم .

فصل

المفسد الثانى : من مفسدات القلب

ركوبه بحر التمنى ، وهو بحر لا ساحل له . وهو البحر الذى يركبه مفاليس العالم ، كما قيل : إن المُنَى رأسُ أموالِ المفاليس . وبضاعة ركابه مواعيد الشيطان ،

وخيالات المحال والبهتان . فلا تزال أمواج الأمانى الكاذبة ، والخيالات الباطلة ، تتلاعب براكبه كما تتلاعب الكلاب بالجيفة ، وهى بضاعة كل نفس مهينة خسيسة سفلية . ليست لها همة تنال بها الحقائق الخارجية . بل اعتاضت عنها بالأمانى الذهنية . وكلٌّ بحسب حاله : من متمن للقدرة والسلطان ، وللضرب فى الأرض والتطواف فى البلدان ، أو للأموال والأثمان ، ، أو للنسوان والمردان فيمثل المتمنى صورة مطلوبه فى نفسه وقد فاز بوصولها ، وَالْتَذَّ بالظفر بها . فبينا هو على هذه الحال ، إذ استيقظ فإذا يده والحصير .

وصاحب الهمة العلية أمانيه حائمة حول العلم والإيمان . والعمل الذى يقربه إلى الله . ويدنيه من جواره .

فأمانى هذا إيمان ونور وحكمة . وأمانى أولئك خدع وغرور .

وقد مدح النبي صلى الله عليه وسلم متمنى الخير . وربما جعل أجره فى بعض الأشياء كأجر فاعله ، كالقائل : لو أن لى مالا لعملت بعمل فلان الذى يتقى فى ماله ربه . ويصل فيه رحمه ، ويخرج منه حقه . وقال « هما فى الأجر سواء » وتمنى صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع : أنه لوكان تمتع وحَلَّ ولم يُسِقِ الهدى ، وكان قد قَرَن . فأعطاه الله ثواب القران بفعله ، وثواب التمتع الذى تمناه بأمنيته ، فجمع له بين الأجرين .

فصل

المفسد الثالث من مفسدات القلب

التعلق بغير الله تبارك وتعالى . وهذا أعظم مفسداته على الإطلاق .

فليس عليه أضر من ذلك . ولا أقطع له عن مصالحه وسعادته منه ، فإنه إذا تعلق بغير الله وكله الله إلى ما تعلق به . وخذله من جهة ماتعلق به . وفاته تحصيل مقصوده من الله عز وجل ، بتعلقه بغيره ، والتفاته إلى سواه . فلا على نصيبه من الله حصل . ولا إلى ما أمله ممن تعلق به وصل . قال الله تعالى (١٩ : ٨١ — ٨٢

واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً . كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضداً) وقال تعالى (٣٦ : ٧٥ واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون . لايستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون) .

فأعظم الناس خذلاناً من تعلق بغير الله . فإن مافاته من مصالحه وسعادته وفلاحه ، أعظم مما حصل له ممن تعلق به . وهو معرض للزوال والفوات . ومثل المتعلق بغير الله : كمثل المستظل من الحر والبرد ببيت العنكبوت ، أوهن البيوت .

وبالجملة : فأساس الشرك وقاعدته التى بنى عليها : التعلق بغير الله . ولصاحبه الذم والخذلان ، كما قال تعالى (١٧ : ٢٢ لاتجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولا) مذموما لاحامد لك . مخذولا لاناصر لك . إذ قد يكون بعض الناس مقهوراً محموداً كالذى قهر بباطل . وقد يكون مذموماً منصوراً . كالذى قهر وتسلط عليه بباطل . وقد يكون محموداً منصوراً كالذى تمكن وملك بحق . والمشرك المتعلق بغير الله قسمه أردأ الأقسام الأربعة ، لامحمود ولا منصور .

فصل

المفسد الرابع من مفسدات القلب الطعام

والمفسد له من ذلك نوعان : أحدهما مايفسده لعينه وذاته كالمحرمات . وهى نوعان : محرمات لحق الله ، كالميتة والدم ، ولحم الخنزير ، وذى الناب من السباع والمخلب من الطير . ومحرمات لحق العباد . كالمسروق والمغصوب والمنهوب . وما أخذ بغير رضى صاحبه ، إما قهراً وإما حياء وتذمماً .

والثانى : مايفسده بقدره : وتعدى حده ، كالإسراف فى الحلال ، والشبع المفرط ، فإنه يثقله عن الطاعات . ويشغله بمزاولة مؤنة البطنة ومحاولتها ، حتى يظفر بها . فإذا ظفر بها شغله بمزاولة تصرفها ووقاية ضررها ، والتأذى بثقلها ، وقوى عليه مواد الشهوة ، وطرق مجارى الشيطان ووسعها ، فإنه يجرى من ابن آدم مجرى الدم . فالصوم يضيق مجاريه ويسد عليه طرقه ، والشبع يطرقها

ويوسعها . ومن أكل كثيراً شرب كثيراً . فنام كثيراً . فخسر كثيراً . وفى الحديث المشهور « ما ملأ آدمى وعاءاً شراً من بطنه . بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه . فإن كان لابد فاعلا فثلث لطعامه ، وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه » ويحكى أن إبليس — لعنه الله — عرض ليحيي بن زكريا عليهما الصلاة والسلام ، فقال له يحيي : هل نلت منى شيئاً قط ؟ قال : لا . إلا أنه قُدِّم إليك الطعام ليلة فشَهَّيته إليك حتى شبعت منه . فنمت عن وردك . فقال يحيي : لله عليَّ أن لا أشبع من طعام أبداً . فقال إبليس : وأنا ، لله على أن لا أنصح آدمياً أبداً .

فصل

المفسد الخامس كثرة النوم

فإنه يميت القلب ، ويثقل البدن ، ويضيع الوقت ، ويورث كثرة الغفلة والكسل . ومنه المكروه جداً . ومنه الضار غير النافع للبدن . وأنفع النوم : ما كان عند شدة الحاجة إليه . ونوم أول الليل أحمد وأنفع من آخره . ونوم وسط النهار أنفع من طرفيه . وكلما قرب النوم من الطرفين قل نفعه . وكثر ضرره . ولا سيما نوم العصر . والنوم أول النهار إلا لسهران .

ومن المكروه عندهم : النوم بين صلاة الصبح وطلوع الشمس . فإنه وقت غنيمة . وللسير ذلك الوقت عند السالكين مزية عظيمة . حتى لو ساروا طول ليلهم لم يسمحوا بالقعود عن السير ذلك الوقت حتى تطلع الشمس . فإنه أول النهار ومفتاحه . ووقت نزول الأرزاق ، وحصول القسم ، وحلول البركة . ومنه ينشأ النهار . وينسحب حكم جميعه على حكم تلك الحصة . فينبغى أن يكون نومها كنوم المضطر .

وبالجملة فأعدل النوم وأنفعه : نوم نصف الليل الأول ، وسدسه الأخير . وهو مقدار ثمان ساعات . وهذا أعدل النوم عند الأطباء . وما زاد عليه أو نقص منه أثر عندهم فى الطبيعة انحرافاً بحسبه .

ومن النوم الذى لاينفع أيضاً : النوم أول الليل ، عقيب غروب الشمس، حتى تذهب فحمة العشاء . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكرهه . فهو مكروه شرعاً وطبعاً .

وكما أن كثرة النوم موروثة لهذه الآفات ، فمدافعته وهجره ، مورث لآفات أخرى عظام : من سوء المزاج ويبسه ، وانحراف النفس ، وجفاف الرطوبات المعينة على الفهم والعمل . ويورث أمراضاً متلفة لا ينتفع صاحبها بقلبه ولا بدنه معها . وما قام الوجود إلا بالعدل . فمن اعتصم به فقد أخذ بحظه من مجامع الخير . وبالله المستعان .

فصـل

ثم ينزل القلب منزل الاعتصام .

وهو نوعان : اعتصام بالله ، واعتصام بحبل الله . قال الله تعالى (٣ : ١٠٣ واعتصموا بحبل الله جميعاً . ولا تفرقوا) وقال (٢٢ : ٧٨ واعتصموا بالله هو مولاكم . فنعم المولى ونعم النصير) .

و « الاعتصام » افتعال من العصمة . وهو التمسك بما يعصمك ، ويمنعك من المحذور والمخوف . فالعصمة : الحمية . والاعتصام : الاحتماء . ومنه سميت القلاع : العواصم ، لمنعها وحمايتها .

ومدار السعادة الدنيوية والأخروية : على الاعتصام بالله ، والاعتصام بحبله . ولا نجاة إلا لمن تمسك بهاتين العصمتين .

فأما الاعتصام بحبله : فإنه يعصم من الضلالة . والاعتصام به : يعصم من الهلكة . فإن السائر الى الله كالسائر على طريق نحو مقصده . فهو محتاج إلى هداية الطريق . والسلامة فيها . فلا يصل إلى مقصده إلا بعد حصول هذين الأمرين له . فالدليل كفيل بعصمته من الضلالة ، وأن يهديه إلى الطريق ، والعُدة والقوة والسلاح التى بها تحصل له السلامة من قطاع الطريق وآفاتها .

فالاعتصام بحبل الله : يوجب له الهداية واتباع الدليل . والاعتصام بالله ، يوجب له القوة والعدة والسلاح ، والمادة التى يستلئم بها فى طريقه . ولهذا اختلفت عبارات السلف فى الاعتصام بحبل الله ، بعد إشارتهم كلهم إلى هذا المعنى .

فقال ابن عباس : تمسكوا بدين الله .

وقال ابن مسعود : هو الجماعة . وقال « عليكم بالجماعة . فإنها حبل الله الذى أمر به ، و إن ماتكرهون فى الجماعة والطاعة خير مما تحبون فى الفرقة » .

وقال مجاهد وعطاء « بعهد الله » وقال قتادة والسدى و كثير من أهل التفسير « هو القرآن » .

قال ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم « إن هذا القرآن هو حبل الله ، وهو النور المبين ، والشفاء النافع ، وعصمة مَنْ تمسَّك به ، ونجاة من تبعه » وقال علي بن أبى طالب رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم فى القرآن « هو حبل الله المتين . وهو الذكر الحكيم . وهو الصراط المستقيم . وهو الذى لا تزيغ به الأهواء . ولا تختلف به الألسن . ولا يَخْلُق على كثرة الرد ، ولا يشبع منه العلماء » .

وقال مقاتل : بأمر الله وطاعته ، ولا تفرقوا كما تفرقت اليهود والنصارى .

وفى الموطإ من حديث مالك عن سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله يرضى لكم ثلاثاً . و يسخط لكم ثلاثاً . يرضى لكم : أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً . وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ، وأن تناصحوا من وَلاه الله أمركم . و يسخط لكم : قيل وقال . و إضاعة المال . وكثرة السؤال » رواه مسلم فى الصحيح .

* * *

قال صاحب المنازل :

« الاعتصام بحبل الله : هو المحافظة على طاعته ، مراقباً لأمره » .

ويريد بمراقبة الأمر : القيام بالطاعة لأجل أن الله أمر بها وأحبها . لا لمجرد العادة ، أو لعلة باعثة سوى امتثال الأمر . كما قال طلق بن حبيب فى التقوى « هى العمل بطاعة الله على نور من الله . ترجو ثواب الله ، وترك معصية الله على نور من الله ، تخاف عقاب الله »

وهذا هو الإيمان والاحتساب ، المشار إليه فى كلام النبى صلى الله عليه وسلم كقوله « من صام رمضان إيماناً واحتساباً . ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً ـ غفر له » فالصيام والقيام : هو الطاعة و « الإيمان » مراقبة الأمر . وإخلاص الباعث : هو أن يكون الإيمان الآمر ، لاشىء سواه . و « الاحتساب » رجاء ثواب الله .

فالاعتصام بحبل الله يحمى من البدعة وآفات العمل . والله أعلم .

فصل

وأما الاعتصام به : فهو التوكل عليه . والامتناع به ، والاحتماء به ، وسؤاله أن يحمى العبد ويمنعه ، ويعصمه ويدفع عنه ، فإن ثمرة الاعتصام به : هو الدفع عن العبد . والله يدافع عن الذين آمنوا . فيدفع عن عبده المؤمن إذا اعتصم به كل سبب يفضى به إلى العطب ، ويحميه منه . فيدفع عنه الشبهات والشهوات ، وكيد عدوه الظاهر والباطن ، وشرَّ نفسه . ويدفع عنه موجب أسباب الشر بعد انعقادها ، بحسب قوة الاعتصام به وتمكنه . فتفقد فى حقه أسباب العطب . فيدفع عنه موجباتها ومسبباتها . ويدفع عنه قَدَرَه بقدره ، وإرادته بإرادته ، ويعيذه به منه .

فصل

وأما صاحب المنازل فقال :

« الاعتصام بالله . الترقى عن كل موهوم » .

« الموهوم » عنده ماسوى الله تعالى . و « الترقى عنه » الصعود من شهود

نفعه وضره ، وعطائه ومنعه وتأثيره ، إلى الله تعالى . وهذه إشارة إلى الفناء . ومراده : الصعود عن شهود ماسوى الله إلى الله . والكمال فى ذلك : الصعود عن إرادة ماسوى الله إلى إرادته .

والاتحادى يفسره بالصعود عن وجود ماسواه إلى وجوده . بحيث لايرى لغيره وجوداً ألبتة ، و يرى وجود كل موجود هو وجوده . فلا وجود لغيره إلا فى الوهم الكاذب عنده .

قال « وهو على ثلاث درجات : اعتصام العامة بالخبر ، استسلاماً و إذعاناً . بتصديق الوعد والوعيد ، وتعظيم الأمر والنهى . وتأسيس المعاملة على اليقين والانصاف » .

يعنى أن العامة اعتصموا بالخبر الوارد عن الله ، استسلاماً من غير منازعة ، بل إيماناً واستسلاماً . وانقادوا إلى تعظيم الأمر والنهى والإذعان لهما ، والتصديق بالوعد والوعيد . وأسسوا معاملتهم على اليقين . لاعلى الشك والتردد . وسلوك طريقة الاحتياط . كما قال القائل :

زعم المنجم والطبيب كلاهما لا تُبعث الأجساد . قلت : إليكما
إن صح قولكما . فلست بخاسر أو صح قولى . فالخسار عليكما

هذه طريق أهل الريب والشك . يقومون بالأمر والنهى احتياطاً . وهذه الطريق لا تنجى من عذاب الله . ولا تحصل لصاحبها السعادة . ولا توصله إلى المأمن .

وأما الإنصاف الذى أسسوا معاملتهم عليه : فهو الإنصاف فى معاملتهم لله ولخلقه .

فأما الإنصاف فى معاملة الله : فأن يعطى العبودية حقها ، وأن لاينازع ربه صفات إلٰهيته التى لاتليق بالعبد ولا تنبغى له : من العظمة ، والكبرياء ، والجبروت . ومن إنصافه لربه : أن لايشكر سواه على نعمه وينساه . ولا يستعين بها

على معاصيه . ولا يحمد على رزقه غيره . ولا يعبد سواه . كما فى الأثر الإلهى « إنى والجن والإنس فى نبإ عظيم : أخلقُ و يُعبد غيرى . وأرزق و يُشْكر سواى » وفى أثر آخر « ابنَ آدم : ما أنصفتنى . خيرى إليك نازل ، وشرك إلىّ صاعد . أتحبب إليك بالنعم ، وأنا عنك غنى . وتتبغض إلىّ بالمعاصى وأنت فقير إلىّ . ولا يزال الملك الكريم ، يعرج إلىّ منك بعمل قبيح » وفى أثر آخر « يا ابن آدم . ما من يوم جديد ، إلا يأتيك من عندى رزق جديد ، وتأتى عنك الملائكة بعمل قبيح . تأكل رزقى وتعصينى . وتدعونى فأستجيب لك . وتسألنى فأعطيك . وأنا أدعوك إلى جنتى فتأبى ذلك . وما هذا من الإنصاف » .

وأما الإنصاف فى حق العبيد : فأن يعاملهم بمثل ما يحب أن يعاملوه به .

ولعمر الله هذا الذى ذكر أنه اعتصام العامة : هو اعتصام خاصة الخاصة فى الحقيقة . ولكن الشيخ ممن رفع له علم الفناء فشمر إليه . فلا تأخذه فيه لومة لائم . ولا يرى مقاما أجل منه .

فصل

قال « واعتصام الخاصة : بالانقطاع . وهو صون الإرادة قبضاً . و إسبال الْخُلُق عن الخلق بسطا . ورفض العلائق عزما . وهو التمسك بالعروة الوثقى » .

يريد انقطاع النفس عن أغراضها من هذه الوجوه الثلاثة . فيصون إرادته ، و يقبضها عما سوى الله سبحانه . وهذا شبيه بحال أبى يزيد فيما أخبر به عن نفسه لما قيل له : ما تريد ؟ فقال : أريد أن لا أريد .

الثانى : إسبال الْخُلُق على الخلق بسطا . وهذا حقيقة التصوف [1] . فإنه كما

---

(١) هذه كلمة أعجمية ، وليست بعربية ولا إسلامية . فهى أولا ـ هندية ـ ثم يونانية . ومعناها : السعى إلى الحقيقة الأولى ، أو الحقيقة الإلهية . وهى الأساس الذى قامت عليه عقيدة وحدة الوجود . ومن حاول الدفاع عن الصوفية أو تقسيمها إلى قديمة وحديثة . فإنما ذلك عن دراسة سطحية ، وإلا فهى والفلسفة صنوان ،=

قال أبو بكر الكتانى : التصوف خُلُق . فمن زاد عليك فى الخلق زاد عليك فى التصوف .

فإن حسن الخُلُق وتزكية النفس بمكارم الأخلاق : يدل على سعة قلب صاحبه ، وكرم نفسه وسجيته . وفى هذا الوصف : يكف الأذى ، ويحمل الأذى ويوجد الراحة ، ويدير خده الأيسر لمن لطم الأيمن ، ويعطى رداءه لمن سلبه قميصه ، ويمشى ميلين مع من سخره ميلا . وهذا علامة انقطاعه عن حظوظ نفسه وأغراضها (١) .

وأما رفض العلائق عزماً : فهو العزم التام على رفض العلائق ، وتركها فى ظاهره وباطنه .

والأصل هو قطع علائق الباطن . فمتى قطعها لم تضره علائق الظاهر . فمتى كان المال فى يدك وليس فى قلبك لم يضرك ولو كثر . ومتى كان فى قلبك ضرك ولو لم يكن فى يدك منه شىء .

قيل للإمام أحمد : أيكون الرجل زاهداً . ومعه ألف دينار ؟ قال : نعم على شريطة ألاّ يفرح إذا زادت ولا يحزن إذا نقصت (٢) . ولهذا كان الصحابة أزهد الأمة مع ما بأيديهم من الأموال .

= أو شىء واحد . والصوفية متباعدة الجذور فى القدم آلاف السنين إلى ما قبل نوح عليه السلام . وصورتها واضحة ، وروائحها فائحة من سورة نوح غيرها من آى القرآن ومما ذكر الله ربنا فيها من آلهة الصوفية ود ، وسواع ، ويغوث ويعوق ، ونسر ، وقد أضلوا كثيرا . والله الهادى سواء السبيل .

(١) هذه هى الرهبانية التى كرهها وحذر منها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهى — عند الصوفية — تقوم على زعم التخلص من سنن الله فى الجبلات والطبائع البشرية . وتبديلها ، ثم تجر إلى الإباحية اعتماداً على عقيدة الحلولية الاتحادية .

(٢) لعله — رحمه الله — يقصد فرح الأشر والبطر . أما فرح المؤمن بالنعمة ليقدرها ويشكرها بحسن وضعها فى موضعها من محاب الله ومراضيها . فلا يمكن أن يكره ذلك الإمام أحمد .

وقيل لسفيان الثورى : أيكون ذو المال زاهداً ؟ قال : نعم إن كان إذا زيد فى ماله شكر ، و إن نقص شكر وصبر .

و إنما يحمد قطع العلائق الظاهرة فى موضعين : حيث يخاف منها ضرراً فى دينه ، أو حيث لا يكون فيها مصلحة راجحة . والكمال من ذلك : قطع العلائق التى تصير كلاليب على الصراط تمنعه من العبور . وهى كلاليب الشهوات والشبهات . ولا يضره ما تعلق به بعدها .

فصل

قال « واعتصام خاصة الخاصة : بالاتصال . وهو شهود الحق تفريدا . بعد الاستحذاء له تعظيما ، والاشتغال به قربا » .

لما كان ذلك الانقطاع موصلا إلى هـذا الاتصال : كان ذلك للمتوسطين . وهذا عنده لأهل الوصول .

و يعنى بشهود الحق تفريدا : أن يشهد الحق سبحانه وحده منفردا . ولا شىء معه ، وذلك لفناء الشاهد فى الشهود ، والحوالة فى ذلك عند القوم : على الكشف .

وقد تقدم أن هـذا ليس بكمال . وأن الكمال : أن يفنى بمراده عن مراد نفسه . وأما فناؤه بشهوده عن شهود ماسواه : فدون هذا الفناء فى الرتبة كما تقدم

وأما قوله « بعد الاستحذاء له تعظيما » فالشيخ لكثرة لهجه بالاستعارات عَبَّر عن معنى لطيف عظيم بلفظة « الاستحذاء » التى هى استفعال من المحاذاة . وهى المقابلة التى لا يبقى فيها جزء من المحاذى خارجاً عما ما حاذاه . بل قد واجهه وقابله بكليته وجميع أجزائه [1] . ومراده بذلك : القرب ، وارتفاع الوسائط المانعة

---

(١) قال السيد رشيد : هذا التفسير للاستحذاء لم نجده فى معاجم اللغة كلسان العرب والقاموس وشرحه . بل المعروف فيها أن معنى استحذى فلان فلانا ، طلب منه أن يلبسه حذاء . كاستطعمه واستكساه . وأظن الاستخذاء فى كلام الهروى بالخاء =

منه . ولا ريب أن العبد يقرب من ربه ، والرب يقرب من عبده . فأما قرب العبد : فكقوله تعالى (٩٦ : ١٩ واسجد واقترب) وقوله فى الأثر الإلهى « من تقرب منى شبراً تقربت منه ذراعاً » وكقوله « وما تقرب إليّ عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه . ولا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها . ورجله التى يمشى بها . فبى يسمع . وبى يبصر . وبى يبطش . وبى يمشى » . وفى الحديث الصحيح «أقرب ما يكون الرب من عبده : فى جوف الليل الأخير» وفى الحديث أيضاً « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » وفى الحديث الصحيح – لما ارتفعت أصواتهم بالتكبير مع النبى صلى الله عليه وسلم فى السفر – فقال « يا أيها الناس ، أربعوا على أنفسكم ، إنكم لاتدعون أصمّ ولا غائبا . إن الذى تدعونه سميع قريب . أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » .

فعبر الشيخ عن طلب القرب منه ، ورفض الوسائط الحائلة بينه وبين القرب المطلوب الذى لاتَقَرُّ عيون عابديه وأوليائه إلا به : بالاستحذاء . وحقيقته : موافاة العبد إلى حضرته وقُدَّامه ، وبين يديه ، عكس حال من نبذه وراءه ظهريًا ، وأعرض عنه ونأى بجانبه ، بمنزلة من ولَّى المطاع ظهره . ومال بشقه عنه .

وهذا الأمر لا يدرك معناه إلا بوجوده وذوقه . وأحسن ما يعبر عنه : بالعبارة النبوية المحمدية ، وأقرب عبارات القوم : أنه التقريب برفع الوسائط التى بارتفاعها يحصل للعبد حقيقة التعظيم . فلذلك قال « الاستحذاء له تعظيما » .

ومن أراد فهم هذا – كما ينبغى – فعليه بفهم اسمه تعالى « الباطن » وفهم

= المعجمة وهو الخضوع والانكسار لله تعالى . وإنما تكلف المصنف له هذا التفسير لأنه وجد نسخ المنازل تذكر الاستحذاء بالمهملة . انتهى كلام السيد رشيد . ويصح كلامه إذا كان الصوفية يلتزمون المفردات والأساليب العربية . لكنهم لا يلتزمون ذلك ، بل يتخاطبون باصطلاحات قد لا تمت إلى اللغة العربية بأى صلة . والشيخ ابن القيم رحمه الله – أحرص على أن يكون بيده نسخة دقيقة صحيحة من المنازل .

اسمه « القريب » مع امتلاء القلب بحبه ، ولهج اللسان بذكره . ومن هٰهنا يؤخذ العبد إلى الفناء الذى كان مشمراً إليه ، عاملا عليه .

فإن كان مشمراً إلى الفناء المتوسط . وهو الفناء عن شهود السوى ، لم يبق فى قلبه شهود لغيره ألبتة . بل تضمحل الرسوم وتفنى الإشارات ، ويفنى من لم يكن ويبقى من لم يزل . وفى هذا المقام يجيب داعى الفناء طوعاً ورغبة لا كرهاً ، لأن هـذا المقام امتزج فيه الحب بالتعظيم مع القرب . وهو منتهى سفر الطالبين لمقام الفناء .

وإن كان العبد مشمراً للفناء العالى ، وهو الفناء عن إرادة السوى : لم يبق فى قلبه مراد يزاحم مراده الدينى الشرعى النبوى القرآنى . بل يتحد المرادان فيصير عين مراد الرب هو مراد العبد . وهذا حقيقة المحبة الخالصة . وفيها يكون الاتحاد الصحيح . وهو الاتحاد فى المراد . لافى المريد . ولا فى الإرادة .

فتدبر هذا الفرقان فى هذا الموضع الذى طالما زلت فيه أقدام السالكين . وضلت فيه أفهام الواجدين .

وفى هذا المقام حقيقة يفنى من لم يكن إرادةً وإيثارًا ، ومحبة وتعظيما ، وخوفاً ورجاء وتوكلا ، ويبقى من لم يزل . وفيه ترتفع الوسائط بين الرب والعبد حقيقة ويحصل له الاستحذاء المذكور مقروناً بغاية الحب ، وغاية التعظيم .

وفى هـذا المقام : يجيب داعى الفناء فى المحبة طوعاً واختياراً لا كرهاً ، بل ينجذب إليه انجذاب قلب المحب وروحه ، الذى قد ملأت المحبة قلبه . بحيث لم يبق فيه جزء فارغ منها ، إلى محبوبه الذى هو أكمل محبوب ، وأجله وأحقه بالحب .

وهـذا الفناء أوجبه الحب الكامل الممتزج بالتعظيم والإجلال والقرب ، ومحو ماسوى مراد المحبوب من القلب . بحيث لم يبق فى القلب إلا المحبوب ومراده وهذا حقيقة الاعتصام به وبحبله . والله المستعان .

وأما قوله « والاشتغال به قربا » أى يشغله قرب الحق عن كل ما سواه . وهـذا حقيقة القرب . ألا ترى أن القريب من السلطان جداً ، المقبل عليه ، المكلم له : لا يشتغل بشىء سواه ألبتة ؟ فعلى قدر القرب من الله يكون اشتغال العبد به . والله أعلم .

فصـل

ومن منازل « إياك نعبد و إياك نستعين » « منزلة الفرار » .

قال الله تعالى (٥١ : ٥٠ ففروا إلى الله) وحقيقة الفرار : الهرب من شىء إلى شىء . وهو نوعان : فرار السعداء . وفرار الأشقياء .

ففرار السعداء : الفرار إلى الله عز وجل . وفرار الأشقياء : الفرار منه لا إليه .

وأما الفرار منه إليه : ففرار أوليائه . قال ابن عباس فى قوله تعالى (ففروا إلى الله) فروا منه إليه ، واعملوا بطاعته . وقال سهل بن عبد الله : فروا مما سوى الله إلى الله . وقال آخرون : اهربوا من عذاب الله إلى ثوابه بالإيمان والطاعة .

وقال صاحب المنازل :

« هو الهرب مما لم يكن إلى من لم يزل . وهو على ثلاث درجات : فرار العامة من الجهل إلى العلم عقداً وسعياً . ومن الكسل إلى التشمير جداً وعزماً . ومن الضيق إلى السعة ثقة ورجاء » .

يريد بما لم يكن « الخلق » و بما لم يزل « الحق » .

وقوله « فرار العامة : من الجهل إلى العلم عقداً وسعياً » .

« الجهل » نوعان : عدم العلم بالحق النافع ، وعدم العمل بموجبه ومقتضاه . فكلاهما جهل لغة وعرفاً وشرعاً وحقيقة . قال موسى (٢ : ٦٧ أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) لما قال له قومه (أتتخذنا هزواً) أى من المستهزئين . وقال يوسف الصديق (١٢ : ٣٣ و إلاّ تَصْرِفْ عنى كَيْدهن أَصْبُ إليهن . وأكن من الجاهلين) أى من مرتكبى ما حرمت عليهم . وقال تعالى (٤ : ١٧ إنما التو بة

على الله للذين يعملون السوء بجهالة) قال قتادة : أجمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن كل ما عصى الله به فهو جهالة . وقال غيره : أجمع الصحابة أن كل من عصى الله فهو جاهل . وقال الشاعر :

ألا لا يجهلن أحدٌ علينا فنجهلَ فوق جهل الجاهلينا

وسمى عدم مراعاة العلم جهلاً ، إما لأنه لم ينتفع به . فنُزِّل منزلة الجهل . و إما لجهله بسوء ما تجنى عواقب فعله .

فالفرار المذكور : هو الفرار من الجهلين : من الجهل بالعلم إلى تحصيله ، اعتقاداً ومعرفة و بصيرة . ومن جهل العمل : إلى السعى النافع ، والعمل الصالح قصداً وسعياً .

قوله « ومن الكسل إلى التشمير جِدًّا وعزما »

أى يفر من إجابة داعى الكسل إلى داعى العمل والتشمير بالجد والاجتهاد .

و « الجد » هٰهنا هو صدق العمل ، و إخلاصه من شوائب الفتور ، ووعود التسو يف والتهاون . وهو تحت السين وسوف ، وعسى ، ولعل . فهى أضر شىء على العبد . وهى شجرة ثمرها الخسران والندامات .

والفرق بين الجد والعزم : أن «العزم» صدق الإرادة واستجماعها . و «الجد» صدق العمل و بذل الجهد فيه . وقد أمر الله سبحانه وتعالى بتلقى أوامره بالعزم والجد . فقال (٢ : ٦٣ خذوا ما آتيناكم بقوة) وقال (٧ : ١٤٥ وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء . فخذها بقوة) وقال (١٩ : ١٢ يايحيى خذ الكتاب بقوة) أى بجد واجتهاد وعزم . لا كمن يأخذ ما أمر به بتردد وفتور .

وقوله « ومن الضيق إلى السعة ثقة ورجاء » .

يريد هروب العبد من ضيق صدره بالهموم والغموم والأحزان والمخاوف التى تعتريه فى هذه الدار من جهة نفسه . وما هو خارج عن نفسه مما يتعلق بأسباب مصالحه ، ومصالح من يتعلق به ، وما يتعلق بماله و بدنه وأهله وعدوه . يهرب من

ضيق صدره بذلك كله إلى سعة فضاء الثقة بالله تبارك وتعالى ، وصدق التوكل عليه ، وحسن الرجاء لجميل صنعه به ، وتوقع المرجو من لطفه وبره . ومن أحسن كلام العامة قولهم : لاهَمَّ مع الله . قال الله تعالى (٦٥ : ٢ ، ٣ ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لايحتسب) قال الربيع بن خثيم : يجعل له مخرجا من كل ماضاق على النـاس . وقال أبو العالية : مخرجا من كل شدة . وهذا جامع لشدائد الدنيا والآخرة ، ومضايق الدنيا والآخرة . فإن الله يجعل للمتقى من كل ماضاق على الناس واشتد عليهم فى الدنيا والآخرة مخرجا . وقال الحسن : مخرجا مما نهاه عنه (٦٥ : ٣ ومن يتوكل على الله فهو حسبه) أى كافى من يثق به فى نوائبه ومهماته . يكفيه كل ما أهمه . و «الحسْب» الكافى (٩:٥٩ حسبنا الله) كافينا الله .

وكلما كان العبد حسن الظن بالله ، حسن الرجاء له ، صادق التوكل عليه ، فإن الله لايخيب أمله فيه ألبتة . فإنه سبحانه لايخيب أمل آمل ، ولا يضيع عمل عامل . وعبر عن الثقة وحسن الظن بالسعة . فإنه لاأشرحَ للصدر ، ولا أوسع له ـ بعد الإيمان ـ من ثقته بالله ورجائه له وحسن ظنه به .

فصل

قال « وفرار الخاصة من الخبر : إلى الشهود . ومن الرسوم : إلى الأصول . ومن الحظوظ : إلى التجريد » .

يعنى أنهم لايرضون أن يـكون إيمانهم عن مجرد خبر ، حتى يترقوا منه إلى مشاهدة المخبر عنه . فيطلبون الترقى من علم اليقين بالخبر . إلى عين اليقين بالشهود كما طلب إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه . ذلك من ربه . إذ قال (٢:٢٦٠ رب أرِنى : كيف تُحْيِي الموتى ؟ قال : أو لم تؤمن ؟ قال : بلى ، ولـكن ليطمئن قلبى) فطلب إبراهيم أن يكون اليقين عيانا . والمعلوم مشاهداً . وهذا هو المعنى الذى عبر عنه النبى صلى الله عليـه وسلم بالشك فى قوله « نحن أحق بالشك من إبراهيم » حيث قال « رب أرنى كيف تحيي الموتى » وهو صلى الله عليه وسلم لم يشك

ولا إبراهيم . حاشاهما من ذلك . و إنما عَبَّر عن هذا المعنى بهذه العبارة .

هذا أحد الأقوال فى الحديث .

وفيه قول ثان : أنه على وجه النفى . أى لم يشك إبراهيم حيث قال ماقال . ولم نشك نحن . وهذا القول صحيح أيضا أى لوكان ماطلبه للشك لكنا نحن أحق به منه ، لكن لم يطلب ماطلب شكا ، و إنما طلب ما طلبه طمأنينة .

فالمراتب ثلاث ، علم يقين يحصل عن الخبر . ثم تتجلى حقيقة المخبر عنه للقلب أو البصر ، حتى يصير العلم به عين يقين . ثم يباشره و يلابسه فيصير حق يقين . فعلمنا بالجنة والنار الآن علم يقين . فإذا أُزلفت الجنة للمتقين فى الموقف ، و بُرِّزت الجحيم للغاوين ، وشاهدوهما عيانا ، كان ذلك عين يقين . كما قال تعالى (١٠٢ : ٦، ٧ لترون الجحيم . ثم لترونها عين اليقين) فإذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار . فذلك حق اليقين . وسنزيد ذلك إيضاحا إن شاء الله تعالى إذا انتهينا إليه .

وأما قوله « ومن الرسوم إلى الأصول »

فإنه يريد بالرسوم : ظواهر العلم والعمل . وبالأصول : حقائق الإيمان ومعاملات القلوب ، وأذواق الإيمان وارداته . فيفر من إحكام العلم والعمل إلى خشوع السر للعرفان . فإن أرباب العزائم فى السير لايقنعون برسوم الأعمال وظواهرها . ولا يعتدُّون إلا بأرواحها وحقائقها . وما يثبنه لهم التعرف الإلٰهى . وهو نصيبهم من الأمر .

والتعرف الإلٰهى لايقتضى مفارقة الأمر . كما يظن قطاع الطريق وزنادقة الصوفية . بل يستخرج منهم حقائق الأمر ، وأسرار العبودية ، وروح المعاملة . فحظهم من الأمر : حظ العالم بمراد المتكلم من كلامه ، تصريحا وإيماء ، وتنبيهاً و إشارة . وحظ غيرهم منه : حظ التالى له حفظاً ، بلا فهم ولامعرفة لمراده . وهؤلاء أحوج شىء إلى الأمر . لأنهم لم يصلوا إلى تلك التعرفات والحقائق إلا به . فالمحافظة عليه لهم علما ومعرفة وعملا وحالا ضرورية . لاعوض لهم عنه ألبتة .

وهذا القدر هو الذى فات الزنادقة ، وقطاع الطريق من المنتسبين إلى طريقة القوم .

فإنهم لما علموا أن حقائق هذه الأوامر هى المطلوبة أرواحها ، لاصورها وأشباحها ورسومها ، قالوا : نجمع هممنا على مقاصدها وحقائقها ، ولاحاجة لنا إلى رسومها وظواهرها ، بل الاشتغال برسومها اشتغال عن الغاية بالوسيلة ، وعن المطلوب لذاته بالمطلوب لغيره . وغَرَّهم مارأوا فيه الواقفين مع رسوم الأعمال وظواهرها دون مراعاة حقائقها ومقاصدها وأرواحها . فرأوا نفوسهم أشرف من نفوس أولئك ، وهممهم أعلى ، وأنهم المشتغلون باللب وأولئك بالقشر . فتركَّب من تقصير هؤلاء وعدوان هؤلاء تعطيل .

وجملة الأمر : أن هؤلاء عطلوا سره ومقصوده وحقيقته . وهؤلاء عطلوا رسمه وصورته . فظنوا أنهم يصلون إلى حقيقته ، من غير رسمه وظاهره ، فلم يصلوا إلا إلى الكفر والزندقة . وجحدوا ما علم بالضرورة مجىء الرسل به . فهؤلاء كفار زنادقة منافقون . وأولئك مقصرون غير كاملين . والقائمون بهذا وهذا هم الذين يرون أن الأمر متوجه إلى قلوبهم قبل جوارحهم . وأن على القلب عبودية فى الأمر كما على الجوارح . وأن تعطيل عبودية القلب بمنزلة تعطيل عبودية الجوارح . وأن كمال العبودية قيام كل من الملك وجنوده(١) بعبوديته . فهؤلاء خواص أهل الإيمان وأهل العلم والعرفان .

فصل

قوله « ومن الحظوظ إلى التجريد » .

يريد الفرار من حظوظ النفوس على اختلاف مراتبها . فإنه لايعرفها إلا المعتنون بمعرفة الله ومراده ، وحقه على عبده ، ومعرفة نفوسهم وأعمالهم وآفاتهما

(١) يريد بالملك القلب وبجنوده الأعضاء كما جاء فى الحديث « ألا إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله . وإذا فسدت فسد الجسد كله . ألا وهى القلب »

وربَّ مطالب عالية لقوم من العباد هى حظوظ لقوم آخرين يستغفرون الله منها ويفرون إليه منها . يرونها حائلة بينهم وبين مطلوبهم .

وبالجملة فالحظ : ماسوى مراد الله الدينى منك ، كائنا ما كان . وهو مايبرح حظ محرم إلى مكروه إلى مباح إلى مستحب ، غيره أحب إلى الله منه . ولا يتميز هذا إلا فى مقام الرسوخ فى العلم بالله وأمره ، وبالنفس وصفاتها وأحوالها .

فهناك تتبين اه الحظوظ من الحقوق . ويفر من الحظ إلى التجريد . وأكثر الناس لا يصلح لهم هذا . لأنهم إنما يعبدون الله على الحظوظ وعلى مرادهم منه . وأما تجريد عبادته على مراده من عبده :

فتلك منزلة لم يعطها أحد — سوى نبى وصديق من البشر
والزهد زهدك فيها ليس زهدك فى — ماقد أبيح لنا فى محكم السور
والصدق صدقك فى تجريدها وكذا الـ — إخلاص تخليصها إن كنت ذا بصر
كذا توكل أرباب البصائر فى — تجريد أعمالهم من ذلك الكدر
كذاك توبتهم منها فهم أبدا — فى توبة أو يصيروا داخل الحفر

وبالجملة فصاحب هذا التجريد : لايقنع من الله بأمر يسكن إليه دون الله ، ولا يفرح بما حصل له دون الله ، ولا يأسَى على مافاته سوى الله ، ولا يستغنى برتبة شريفة ، وإن عظمت عنده أو عند الناس . فلا يستغنى إلا بالله . ولا يفتقر إلا إلى الله . ولا يفرح إلا بموافقته لمرضاة الله . ولا يحزن إلا على مافاته من الله . ولا يخاف إلا من سقوطه من عين الله ، واحتجاب الله عنه . فكله بالله ، وكله لله . وكله مع الله . وسيره دائما إلى الله . قد رُفع له علَمه فشمر إليه . وتجرد له مطلوبه فعمل عليه . تناديه الحظوظ : إلىّ ، وهو يقول : إنما أريد من إذا حصل لى حصل لى كل شىء . وإذا فاتنى فاتنى كل شىء . فهو مع الله مجرد عن خلقه . ومع خلقه مجرد عن نفسه . ومع الأمر مجرد عن حظه . أعنى الحظ المزاحم للأمر . وأما الحظ المعين على الأمر : فإنه لايحطه تناوله عن مرتبته ولا يسقطه من عين ربه .

وهذا أيضاً موضع غلط فيه من غلط من الشيوخ . فظنوا أن إرادة الحظ نقص فى الإرادة .

والتحقيق فيه : أن الحظ نوعان . حظ يزاحم الأمر . وحظ يؤازر الأمر فينفذه . فالأول هو المذموم . والثانى ممدوح . وتناوله من تمام العبودية . فهذا لون وهذا لون .

فصـــل

قال « وفرار خاصة الخاصة : مما دون الحق إلى الحق . ثم من شهود الفرار إلى الحق ، ثم الفرار من شهود الفرار » .

هذا على قاعدته فى جعل الفناء عن الشهود غاية السالـكين . فيفرّ أولا من الخلق إلى الحق . و يشهد بهذا الفرار انفراد مشهوده الذى فر إليه . لـكن بقيت عليه بقية ، وهى شهود فراره . فيعدله إحساساً بالخلق . فيفر ثانياً من شهود فراره . فتنقطع النِّسَب كلها بينه و بين الخلق بهذا الفرار الثانى . فلا يبقى فيه بقية إلا ملاحظة فراره من شهود فراره ، فيفر من شهود الفرار . فتنقطع حينئذ النسب كلها .

وقد تقدم الـكلام على هذا . وأنه ليس أعلى المقامات والرتب ، ولا هو غاية الـكمال . وأن فوقه ماهو أعلى منه مقاماً ، وأشرف منزلا . وهو أن يشهد فراره ، وأنه بالله من الله إلى الله . فيشهد أنه فرّ به منه إليه . و يعطى كل مشهد حقه من العبودية . وهذا حال الـكمل . والله المستعان .

فصـــل

ومن منازل « إياك نعبد و إياك نستعين » : « منزلة الرياضة »

هى تمرين النفس على الصدق والإخلاص .

قال صاحب المنازل « هى تمرين النفس على قبول الصدق » .

وهذا يراد به أمران : تمرينها على قبول الصدق إذا عرضه عليها فى أقواله وأفعاله و إرادته . فإذا عرض عليها الصدق قبلته وانقادت له وأذعنت له .

والثانى : قبول الحق ممن عرضه عليه . قال الله تعالى (٣٩ : ٣٣ والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون) فلا يكفى صدقك . بل لابد من صدقك وتصديقك للصادقين . فكثير من الناس يصدق ، ولكن يمنعه من التصديق كِبْر أو حسد ، أو غير ذلك .

قال « وهى على ثلاث درجات : رياضة العامة . وهى تهذيب الأخلاق بالعلم . وتصفية الأعمال بالإخلاص . وتوفير الحقوق فى المعاملة » .

أما تهذيب الأخلاق بالعلم : فالمراد به إصلاحها وتصفيتها بموجب العلم . فلا يتحرك بحركة ظاهرة أو باطنة إلا بمقتضى العلم . فتكون حركات ظاهره و باطنه موزونة بميزان الشرع .

وأما تصفية الأعمال بالإخلاص : فهو تجريدها عن أن يشوبها باعث لغير الله . وهى عبارة عن توحيد المراد . وتجريد الباعث إليه .

وأما توفير الحقوق فى المعاملة : فهو أن تعطى ما أمرت به من حق الله وحقوق العباد كاملا موفراً . قد نَصَحْتَ فيه صاحب الحق غاية النصح . وأرضيته كل الرضى ، ففزت بحمده لك وشكره .

ولما كانت هذه الثلاثة شاقة على النفس جداً : كان تكلفها رياضة ، فإذا اعتادها صارت خُلُقا .

قال « ورياضة الخاصة : حسم التفرق . وقطع الالتفات إلى المقام الذى جاوزه . و إبقاء العلم يجرى مجراه » .

يريد بحسم التفرق : قطع مايفرق قلبك عن الله بالجمعية عليه ، والإقبال بكليتك إليه ، حاضراً معه بقلبك كله ، لاتلتفت إلى غيره .

وأما قطع الالتفات إلى المقام الذى جاوزه : فهو أن لا يشتغل باستحسان علوم ذلك المقام ولذته واستحسانه ، بل يلهَى عنه معرضاً مقبلا على الله ، طالباً للزيادة ، خائفاً أن يكون ذلك المقام له حجابا يقف عنده عن السير . فهمته حفظه . ليس له

قوة ولا همة أن ينهض إلى مافوقه . ومن لم تكن همته التقدم فهو فى تأخر ولا يشعر . فإنه لا وقوف فى الطبيعة . ولا فى السير . بل إما إلى قدام ، و إما إلى وراء . فالسالك الصادق لا ينظر إلى ورائه . ولا يسمع النداء إلا من أمامه لا من ورائه .

وأما إبقاء العلم يجرى مجراه : فالذهاب مع داعى العلم أين ذهب به ، والجرى معه فى تياره أين جرى .

وحقيقة ذلك : الاستسلام للعلم ، وأن لا تعارضه بجمعية ، ولا ذوق ، ولا حال . بل امض معه حيث ذهب . فالواجب تسليط العلم على الحال . وتحكيمه عليه ، وأن لا يعارض به .

وهذا صعب جداً إلا على الصادقين من أرباب العزائم . فلذلك كان من أنواع الرياضة .

ومتى تمرنت النفس عليه وتعودته صار خلقاً . وكثير من السالكين إذا لاحت له بارقة ، أو غلبه حال أو ذوق : خلى العلم وراء ظهره ، ونبذه وراءه ظهريا . وحَكَّم عليه الحال . هذا حال أكثر السالكين . وهى حال أهل الانحراف الذين يصدون عن سبيل الله و يبغونها عوجا . ولهذا عظمت وصية أهل الاستقامة من الشيوخ بالعلم والتمسك به .

فصل

قال « ورياضة خاصة الخاصة : تجريد الشهود . والصعود إلى الجمع . ورفض المعارضات . وقطع المعاوضات » .

أما تجريد الشهود ، فنوعان . أحدهما : تجريده عن الالتفات إلى غيره . والثانى : تجريده عن رؤيته وشهوده .

وأما الصعود إلى الجمع : فيعنى به الصعود عن معانى التفرقة إلى الجمع الذاتى . وهذا يحتمل أمرين .

أحدها : أن يصعد عن تفرقة الأفعال إلى وحدة مصدرها .

والثانى : أن يصعد عن علائق الأسماء والصفات إلى الذات . فإن شهود الذات بدون علائق الأسماء والصفات عندهم هو حضرة الجمع . وهذا موضع مزلة أقدام ، ومضلة أفهام . لابد من تحقيقه . فنقول :

التفرقة تفرقتان : تفرقة فى المفعولات ، وتفرقة فى معانى الأسماء والصفات .

والجمع جمعان : جمع فى الحكم الكونى ، وجمع ذاتى .

فالجمع فى الحكم الكونى : اجتماع المفعولات كلها فى القضاء والقدر والحكم .

والجمع الذاتى : اجتماع الأسماء والصفات فى الذات .

فالذات واحدة جامعة للأسماء والصفات .

والقدر : جامع لجميع المقضيات والمقدورات ، والشهود مترتب على هذا وهذا .

فشهود اجتماع الكائنات فى قضائه وقدره ــ وإن كان حقا ــ فهو لايعطى إيمانا ، فضلا عن أن يكون أعلى مقامات الإحسان . والفناء فى هذا الشهود : غايته فناء فى توحيد الربوبية الذى لاينفع وحده ، ولا بد منه .

وشهود اجتماع الأسماء والصفات ، فى وحدة الذات : شهود صحيح . وهو شهود مطابق للحق فى نفسه .

وأما الصعود عن شهود تفرقة الأسماء والصفات وعلائقها إلى وحدة الذات المجردة : فغايته أن يكون صاحبه معذوراً لضيق قلبه . وأما أن يكون محموداً فى شهوده ذاتاً مجردة عن كل اسم وصفة وعن علائقها فكلا ولما[1]

وأى إيمان يعطى ذلك ؟ وأى معرفة ؟ وإنما هو سلب ونفى فى الشهود ، كالسلب والنفى فى العلم والاعتقاد . فنسبته إلى الشهود كنسبة نفى الجهمية وسلبهم

---

(١) وهذا هو شهود الصوفية فى أول خطوة من خطوات الطريق إلى وحدة الوجود . فإن الحقيقة الإلهية عندهم فى مرتبتها الأولى لا تسمى باسم ، ولا توصف مطلقا بصفة ، وهذا هو التجريد عندهم . وتأمله مع كلام صاحب المنازل .

إلى الأخبار. لكن الفرق بينهما: أن ذلك السلب فى العلم والاعتقاد، مخالف للحق الثابت فى نفس الأمر، وكذب على الله. ونفى لما يستحقه من صفات كماله ونعوت جلاله، ومعانى أسمائه الحسنى.

وأما هذا السلب: ففى الشعور به للصعود منه إلى الجمع الذاتى، مع الإيمان به، والاعتراف بثبوته. فهذا لون وذاك لون.

والكمال شهود الأمر على ماهو عليه، ويشهد الذات موصوفة بصفات الجلال، منعوتة بنعوت الكمال. وكلما كثر شهوده لمعانى الأسماء والصفات كان أكمل.

نعم قد يعذر فى الفناء فى الذات المجردة، لقوة الوارد، وضعف المحل عن شهود معانى الأسماء والصفات[1].

فتأمل هذا الموضع، وأعطه حقه، ولا يَصُدَّنك عن تحقيق ذلك مايحيل عليه أرباب الفناء من الكشف والذوق. فإنا لاننكره، بل نقرّ به، ولكن الشأن فى مرتبته. وبالله التوفيق.

وأما رفض المعارضات: فيحتمل أمرين.

أحدهما: مايعارض شهوده الجمعى من التفرقات. وهو مراده.

والثانى: مايعارض إرادته من الإرادات، ومايعارض مراد الله من المرادات. وهذا أكمل من الأول، وأعلى منه.

وأما قطع المعاوضات: فهو تجريد المعاملة عن إرادة المعاوضة، بل يجردها لذاته، وأنه أهل أن يعبد ولو لم يحصل لعابده عوض منه. فإنه يستحق أن يعبد لذاته لالعلة، ولا لعوض ولا لمطلوب[2]. وهذا أيضاً موضع لابد من تجريده.

---

(١) إما أن يكون قد سقط عنه التكليف لأنه فقد عقله، أو أن يكون أعمى أصم أبكم.

(٢) من تأمل هذا وأطال الوقوف عنده ـ على طريقة القوم ـ ظهر له أن مرادهم: أن ربهم ومعبودهم هو الذى يطلب العبادة لنفسه، وأن العبد قد يستغنى=

فيقال : ملاحظة المعاوضة ضرورية للعامل . و إنما الشأن فى ملاحظة الأعواض وتباينها . فالمحب الصادق الذى قد تجرد عن ملاحظة عوض قد لاحظ أعظم الأعواض ، وشمر إليها . وهى قربه من الله ووصوله إليه ، واشتغاله به عما سواه . والتنعم بحبه ولذة الشوق إلى لقائه . فهذه أعواض لابد للخاصة منها . وهى من أجل مقاصدهم وأغراضهم . ولا تقدح فى مقاماتهم ، وتجريد عبودياتهم . بل أكملهم عبودية أشدهم التفاتا إلى هذه الأعواض .

نعم طلب الأعواض المنفصلة المخلوقة ـ من الجاه ، والمال ، والرياسة ، والملك ـ أو طلب الحور العين والقصور والولدان ، ونحو ذلك بالنسبة إلى تلك الأعواض التى تطلبها الخاصة معلولة (1) . وهذا لا شك فيه إذا تجرد طلبهم لها .

أما إذا كان مطلوبهم الأعظم الذاتى : هو قربه والوصول إليه ، والتنعم بحبه . والشوق إلى لقائه ، وانضاف إلى هـذا طلبهم لثوابه المخلوق المنفصل : فلا علة فى هذه العبودية بوجه ما ، ولا نقص . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم « حولها ندندن » يعنى الجنة . وقال « إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس . فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة . وفوقه عرش الرحمن . ومنه تفجر أنهار الجنة » .

ومعلوم أن هـذا مسكن خاصة الخاصة ، وسادات العارفين . فسؤالهم إياه ليس علة فى عبوديتهم ، ولا قدحا فيها .

= عنه وعن العوض والأجر منه . فلذلك يزعمون أنهم إنما يتعلقون به تعلق العاشق بالمعشوق . وهذا هو الكفر الشنيع والاستكبار الوقح . وأما المؤمنون : فيعبدون الله ربهم ورب العالمين . لأنهم موقنون أنهم لايحيون الحيـاة الآمنة الطيبة فى الأولى ولا فى الأخرى إلا بأن يكونوا عابدين لربهم أخلص العبادة ، فى كل حال ، وبكل الأعمال . فبهذا يهتدون .

(1) وهل هناك أخص وأعبد وأتقى من رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى كان يدندن حول الجنة ؟

وقد استوفينا ذكر هذا الموضع فى (كتاب سفر الهجرتين) عند الكلام على علل المقامات .

ويحتمل أن يريد الشيخ بقطع المعاوضات : أن تشهد أن الله ما أعطاك شيئاً معاوضة ، بل إنما أعطاك تفضلا وإحسانا . لا لعوض يرجوه منك . كما يكون عطاء العبد للعبد . وإنما نتكلم فيما من العبد ، مما يؤمر بالتجرد عنه ، كتجرده عن التفرقة والمعاوضة . فهذا أليق المعنيين بكلامه . والله أعلم .

فصل

ومن منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » منزلة « السماع » .

وهو اسم مصدر كالنبات . وقد أمر الله به فى كتابه . وأثنى على أهله . وأخبر أن البشرى لهم ، فقال تعالى (٥ : ١٠٨ واتقوا الله واسمعوا) وقال (٦٤ : ١٦ واسمعوا وأطيعوا) وقال (٤ : ٤٦ ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم) وقال (٣٩ : ١٧ ، ١٨ فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أولئك الذين هداهم الله . وأولئك هم أولو الألباب) وقال (٧:٢٠٤ وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا) وقال (٥ : ٨٣ وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق) .

وجعل الإسماع منه والسماع منهم دليلاً على علم الخير فيهم ، وعدم ذلك دليلاً على عدم الخير فيهم . فقال (٨ : ٢٣ ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) .

وأخبر عن أعدائه : أنهم هجروا السماع ونهوا عنه . فقال (٤١ : ٢٢ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والْغَوْا فيه) .

فالسماع رسول الإيمان إلى القلب وداعيه ومعلمه . وكم فى القرآن من قوله (أفلا يسمعون ؟) وقال (٢٢ : ٤٦ أفلم يسيروا فى الأرض ، فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها ؟ — الآية) .

فالسماع أصل العقل ، وأساس الإيمان الذى انبنى عليه . وهو رائده وجليسه ووزيره . ولـكن الشأن كل الشأن فى المسموع . وفيه وقع خبط الناس واختلافهم . وغلط منهم من غلط .

وحقيقة « السماع » تنبيه القلب على معانى المسموع . وتحريكه عنها : طلباً وهرباً وحباً وبغضاً . فهو حادٍ يحدو بكل أحد إلى وطنه ومألفه .

وأصحاب السماع ، منهم : من يسمع بطبعه ونفسه وهواه . فهذا حظه من مسموعه : ما وافق طبعه .

ومنهم : من يسمع بحاله وإيمانه ومعرفته وعقله . فهذا يفتح له من المسموع بحسب استعداده وقوته ومادته .

ومنهم : من يسمع بالله ، لا يسمع بغيره . كما فى الحديث الإلٰهى الصحيح « فبى يسمع . وبى يبصر » وهذا أعلى سماعا ، وأصح من كل أحد .

والـكلام فى « السماع » ـ مدحاً وذماً ـ يحتاج فيه إلى معرفة صورة المسموع ، وحقيقته وسببه ، والباعث عليه ، وثمرته وغايته . فبهذه الفصول الثلاثة يتحرر أمر « السماع » ويتميز النافع منه والضار . والحق والباطل . والممدوح والمذموم .

فأما « المسموع » فعلى ثلاثة أضرب .

أحدها : مسموع يحبه الله ويرضاه . وأمر به عباده . وأثنى على أهله . ورضى عنهم به .

الثانى : مسموع يبغضه ويكرهه . ونهى عنه . ومدح المعرضين عنه .

الثالث : مسموع مباح مأذون فيه . لا يحبه ولا يبغضه . ولا مدح صاحبه ولا ذمه . فحـكمه حكم سائر المباحات : من المناظر ، والمشام ، والمطعومات ، والملبوسات المباحة . فمن حرم هذا النوع الثالث فقد قال على الله مالا يعلم . وحرم ما أحل الله . ومن جعله دينا وقربة يُتقرب به إلى الله ، فقد كذب على الله ، وشرع دينا لم يأذن به الله . وضاهأ بذلك المشركين .

فصـــــل

فأما النوع الأول : فهو السماع الذى مدحه الله فى كتابه . وأمر به وأثنى على أصحابه ، وذم المعرضين عنه ولعنهم . وجعلهم أضل من الانعام سبيلا . وهم القائلون فى النار (٦٧ : ١٠ لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير[1]) وهو سماع آياته المتلوة التى أنزلها على رسوله . فهذا السماع أساس الإيمان الذى يقوم عليه بناؤه . وهو على ثلاثة أنواع . سماع إدراك : بحاسة الأذن . وسماع فهم وعقل . وسماع فهم و إجابة وقبول . والثلاثة فى القرآن .

فأما سماع الإدراك : ففى قوله تعالى حكاية عن مؤمنى الجن قولهم (٧٢ : ١ إنا سمعنا قرآناً عجباً يهدى إلى الرشد فآمنا به) وقوله (٤٦ : ٣٠ يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى ــ الآية) فهذا سماع إدراك اتصل به الإيمان والإجابة

وأما سماع الفهم : فهو المنفى عن أهل الاعراض والغفلة . بقوله تعالى (٣٠:٥٢ فإنك لاتُسمِع الموتى . ولا تُسمع الصُّمَّ الدعاء) وقوله (٣٥ : ٢٢ إن اللهُ يسمع من يشاء . وما أنت بمسمع من فى القبور) .

فالتخصيص هٰهنا لإسماع الفهم والعقل . و إلا فالسمع العام الذى قامت به الحجة : لاتخصيص فيه . ومنه قوله تعالى (٨ : ٢٣ ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم . ولو أسمعهم لتولَّوا وهم معرضون) أى لو علم الله فى هؤلاء الكفار قبولاً وانقيادا

---

(١) إذ أنهم كانوا يسمعون ويعقلون بسمع وعقل الآباء والشيوخ والسادة . وذلك كما فى قوله (٣٢ : ١٢ ربنا أبصرنا وسمعنا . فارجعنا نعمل صالحا . إنا موقنون) وكقوله (٧ : ١٧٩ لهم قلوب لايفقهون بها . ولهم أعين لايبصرون بها ولهم آذان لايسمعون بها) فإنهم زعموا أنهم ما أعطوا إلا عقل البهائم المعيشى . فأما سمع وبصر وعقل الإنسانية المفكرة المميزة التى خلقت وميزت بالتدبر والتفكر ، لتفهم عن ربها ، وتعرف الدين الحق ، وتقدر نعمه وتشكره . فتؤمن بهداه فى الفطرة ، وبهداه فى الوحى والرسالات ــ فهم عن ذلك عمون مثلهم (٢ : ١٧١ كمثل الذى ينعق بما لايسمع إلا دعاء ونداء . صم بكم عمى . فهم لايعقلون)

لأفهمهم ، وإلا فهم قد سمعوا سَمْع الإدراك « ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون » أى ولو أفهمهم لما انقادوا ولا انتفعوا بما فهموا . لأن فى قلوبهم من داعى التولى والإعراض ما يمنعهم عن الانتفاع بما سمعوه .

وأما سماع القبول والإجابة : ففى قوله تعالى حكاية عن عباده المؤمنين : أنهم قالوا (٢٤ : ٥١ سمعنا وأطعنا) فإن هذا سمع قبول و إجابة مثمر للطاعة .

والتحقيق : أنه متضمن للأنواع الثلاثة . وأنهم أخبروا بأنهم أدركوا المسموع وفهموه . واستجابوا له .

ومن سمع القبول : قوله تعالى (٩ : ٤٧ وفيكم سماعون لهم) أى قابلون منهم مستجيبون لهم . هذا أصح القولين فى الآية .

وأما قول من قال : عيون لهم وجواسيس ، فضعيف . فإنه سبحانه أخبر عن حكمته فى تثبيطهم عن الخروج : بأن خروجهم يوجب الخبال والفساد ، والسعى بين العسكر بالفتنة . وفى العسكر من يقبل منهم . و يستجيب لهم . فكان فى إقعادهم عنهم لطفا بهم ورحمة ، حتى لا يقعوا فى عَنَت القبول منهم .

أما اشتمال العسكر على جواسيس وعيون لهم : فلا تعلق له بحكمة التثبيط والاقعاد . ومعلوم أن جواسيسهم وعيونهم منهم . وهو سبحانه قد أخبر أنه أقعدهم لئلا يسعوا بالفساد فى العسكر ، ولئلا يبغوهم الفتنة . وهذه الفتنة إنما تندفع بإقعادهم ، و إقعاد جواسيسهم وعيونهم .

وأيضاً فإن الجواسيس إنما تسمى « عيوناً » هذا المعروف فى الاستعمال لاتسمى سماعين .

وأيضاً فإن هذا نظير قوله تعالى فى إخوانهم اليهود (٥ : ٤٢ سماعون للكذب أكّالون للسحت) أى قابلون له .

والمقصود : أن سماع خاصة الخاصة المقربين : هو سماع القرآن بالاعتبارات

الثلاثة : إدراكاً وفهماً ، وتدبراً ، و إجابة . وكل سماع فى القرآن مدحَ الله أصحابه وأثنى عليهم ، وأمر به أولياءه : فهو هذا السماع .

وهو سماع الآيات ، لاسماع الأبيات . وسماع القرآن ، لاسماع مزامير الشيطان . وسماع كلام رب الأرض والسماء لاسماع قصائد الشعراء . وسماع المراشد ، لاسماع القصائد . وسماع الأنبياء والمرسلين ، لاسماع المغنين والمطربين .

فهذا السماع حادٍ يحدو القلوب ، إلى جوار علام الغيوب ، وسائق يسوق الأرواح إلى ديار الأفرح . ومحرك يثير ساكن العزمات ، إلى أعلى المقامات وأرفع الدرجات . ومناد ينادى للايمان . ودليل يسير بالركب فى طريق الجنان . وداع يدعو القلوب بالمساء والصباح . من قِبل فالق الإصباح « حَىّ على الفلاح ، حَىّ على الفلاح » .

فلم يعدم من اختار هذا السماع إرشاداً لحجة ، وتبصرة لعبرة ، وتذكرة لمعرفة ، وفكرة فى آية ، ودلالة على رشد ، ورداً على ضلالة ، و إرشاداً من غَى ، و بصيرة من عمى ، وأمراً بمصلحة ، ونهياً عن مضرة ومفسدة . وهداية إلى نور ، و إخراجاً من ظلمة ، وزجراً عن هوى . وحثاً على تقى . وجلاء لبصيرة ، وحياة لقلب ، وغذاء ودواء وشفاء . وعصمة ونجاة ، وكشف شبهة ، و إيضاح برهان ، وتحقيق حق ، و إبطال باطل .

ونحن نرضى بحكم أهل الذوق فى سماع الأبيات والقصائد . ونناشدهم بالذى أنزل القرآن هدى وشفاء ونورا وحياة : هل وجدوا ذلك ـ أو شيئاً منه ـ فى الدف والمزمار ؟ ونغمة الشادن ومطربات الألحان ؟ والغناء المشتمل على تهييج الحب المطلق الذى يشترك فيه محب الرحمن ، ومحب الأوطان ، ومحب الإخوان ، ومحب العلم والعرفان ، ومحب الأموال والأثمان ، ومحب النسوان والمردان ، ومحب الصلبان . فهو يثير من قلب كل مشتاق ومحب لشىء ساكنه . و يزعج قاطنه . فيثور وجده ، و يبدو شوقه . فيتحرك على حسب مافى قلبه من الحب والشوق

والوجد بذلك المحبوب كائناً ما كان . ولهذا تجد لهؤلاء كلهم ذوقاً فى السماع ، وحالا ووجدا و بكاء .

و يالله العجب ! أى إيمان ونور و بصيرة وهدى ومعرفة تحصل باستماع أبيات بألحان وتوقيعات . لعل أ كثرها قيلت فيما هو محرم يبغضه الله ورسوله، و يعاقب عليه : من غزل وتشبيب بمن لا يحـل له من ذَ كر أو أنثى ؟ فإن غالب التغزل والتشبيب : إنما هو فى الصور المحرمة . ومن أندر النادر تغزل الشاعر وتشبيبه فى امرأته ، وأمته وأم ولده ، مع أن هذا واقع لـكنه كالشعرة البيضاء فى جلد الثور الأسود . فـكيف يقع لمن له أدنى بصيرة وحيـاة قلب : أن يتقرب إلى الله ، و يزداد إيماناً وقرباً منه وكرامة عليه ، بالتذاذه بما هو بغيض إليه ، مقيت عنده ، يمقت قائله والراضى به ؟ وتترقى به الحال حتى يزعم أن ذلك أنفع لقلبه من سماع القرآن والعلم النافع . وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ؟! .

يالله ! إن هذا القلب مخسوف به ، ممكور به منكوس. لم يصلح لحقائق القرآن وأذواق معانيه ، ومطالعة أسراره . فبلاه بقرآن الشيطان ، كما فى معجم الطبرانى وغيره ـ مرفوعاً وموقوفاً ـ « إن الشيطان قال : يارب ، اجعل لى قرآناً . قال : قرآنك الشعر . قال : اجعل لى كتاباً . قال : كتابك الوشم . قال : اجعل لى مؤذناً . قال : مؤذنك المزمار . قال : اجعل لى بيتاً . قال : بيتك الحمام . قال : اجعل لى مصائد . قال : مصائدك النساء . قال : اجعل لى طعاماً . قال : طعامك مالم يذكر عليه اسمى » والله سبحانه وتعالى أعلم .

فصل

القسم الثانى من السماع

ما يبغضه الله و يكرهه . و يمدح المعرض عنه . وهو سماع كل مايضر العبد فى قلبه ودينه . كسماع الباطل كله ، إلا إذا تضمن رده و إبطاله والاعتبار به وقَصَدَ أن يعلم به حسن ضده . فإن الضد يظهر حسنه الضد . كما قيل :

وإذا سمعتُ إلى حديثك زادنى حباً له : سمعى حديث سوا كا

وكسماع اللغو الذى مدح التاركين لسماعه ، والمعرضين عنه بقوله (٢٨ : ٥٥ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه) وقوله (٢٥ : ٧٢ وإذا مروا باللغو مروا كراماً) قال محمد بن الحنفية : هو الغناء . وقال الحسن أو غيره : أكرموا نفوسهم عن سماعه

قال ابن مسعود « الغناء ينبت النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل » وهذا كلام عارف بأثر الغناء وثمرته . فإنه ما اعتاده أحد إلا نافق قلبه وهو لا يشعر . ولو عرف حقيقة النفاق وغايته لأبصره فى قلبه . فإنه ما اجتمع فى قلب عبد قط محبة الغناء ومحبة القرآن إلا طردت إحداهما الأخرى . وقد شاهدنا نحن وغيرنا ثقل القرآن على أهل الغناء وسماعه ، وتبرُّمهم به ، وصياحهم بالقارىء إذا طول عليهم . وعدم انتفاع قلوبهم بما يقرأه . فلا تتحرك ولا تطرب ، ولا تهيج منها بواعث الطلب . فإذا جاء قرآن الشيطان فلا إله إلا الله . كيف تخشع منهم الأصوات ، وتهدأ الحركات ، وتسكن القلوب وتطمئن ، ويقع البكاء والوجد ، والحركة الظاهرة والباطنة ، والسماحة بالأثمان والثياب ، وطيب السهر ، وتمنى طول الليل . فإن لم يكن هذا نفاقاً فهو آخيَّة النفاق وأساسه .

تُلِيَ الكتاب فأطرقوا ، لا خِيفة لكنه إطراق ساه لاهى
وأتى الغناء فكالذباب تراقصوا والله مارقصوا من أُجل الله
دُفٌّ ، ومزمار ، ونغمة شاهد فمتى شهدتَ عبادة بملاهى ؟
ثقل الكتاب عليهمُ لما رأوا تقييده بأوامر ونواهى
وعليهمُ خَفَّ الغنا لما رأوا إطلاقه فى اللهو دون مناهى
يافِرْقَةً ماضَرَّ دينَ محمد وَجَنَى عليه ومَلَّه إلا هى
سمعوا له رَعْدًا وَبَرْقاً إذ حوى زجراً وتخويفاً بفعل مناهى
ورأوه أعظم قاطع للنفس عن شهواتها . ياويحها المتناهى
وأتى السماع موافقاً أغراضها فلأجل ذاك غدا عظيم الجاه

أين المساعد للهوى من قاطع　　أسبابه عند الجهول الساهى
إن لم يكن خمر الجسوم . فإنه　　خمر العقول مماثل ومضاهى
فانظر إلى النشوان عند شرابه　　وانظر إلى النشوان عند تلاهى
وانظر إلى تمزيق ذا أثوابه　　من بعد تمزيق الفؤاد اللاهى
فاحكم بأى الخمرتين أحق بال　　تحريم والتأثيم عند الله

وكيف يكون السماع الذى يسمعه العبد بطبعه وهواه ، أنفع له من الذى يسمعه بالله ولله وعن الله ؟ فإن زعموا أنهم يسمعون هذا السماع الغنائى الشعرى كذلك . فهذا غاية اللبس على القوم . فإنه إنما يسمع بالله ولله وعن الله مايحبه الله ويرضاه . ولهذا قلنا : إنه لايتحرر الكلام فى هذه المسألة إلا بعد معرفة صورة المسموع وحقيقته ومرتبته . فقد جعل الله لكل شيء قدرا . ولن يجعل الله مَنْ شربه ونصيبه وذوقه ووجده من سماع الآيات البينات ، كمن نصيبه وشربه وذوقه ووجده ن سماع الغناء والأبيات .

ومن أعجب العجائب : استدلال من استدل على أن هذا السماع من طريق لقوم ، وأنه مباح : بكونه مستلذاً طبعاً . تلذه النفوس ، وتستروح إليه . وأن الطفل يسكن إلى الصوت الطيب ، والجمل يقاسى تعب السير ومشقة الحمولة . فيهون عليه بالحُداء ، وبأن الصوت الطيب نعمة من الله على صاحبه ، وزيادة فى خلقه ، وبأن الله ذم الصوت الفظيع ، فقال (٣١ : ١٩ إن أنكر الأصوات لصوت الحمير) وبأن الله وصف نعيم أهل الجنة . فقال فيه (٣٠ : ١٥ فهم فى روضة يحبرون) . وأن ذلك هو السماع الطيب . فكيف يكون حراماً وهو فى الجنة ؟ وبأن الله تعالى ما أذن لشيء كأَذَنه ـ أى كاستماعه ـ لنبى حسن الصوت يتغنى بالقرآن . وبأن أبا موسى الأشعرى استمع النبى صلى الله عليه وسلم إلى صوته ، وأثنى عليه بحسن الصوت . وقال « لقد أوتى هذا مزماراً من مزامير آل داود » فقال له أبو موسى « لو علمت أنك استمعت لحبّرته لك تحبيرا » أى زينته لك وحسنته . وبقوله صلى الله عليه وسلم « زينوا القرآن بأصواتكم » .

و بقوله صلى الله عليه وسلم « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » والصحيح : أنه من التغني بمعنى تحسين الصوت . و بذلك فسره الإمام أحمد رحمه الله ، فقال : يحسنه بصوته ما استطاع .

و بأن النبي صلى الله عليه وسلم أقر عائشة على غناء القَينتين يوم العيد . وقال لأبي بكر « دعهما . فإن لكل قوم عيدا . وهذا عيدنا أهلَ الإسلام » .

و بأنه صلى الله عليه وسلم أذن في العرس في الغناء وسماه لهواً . وقد سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الُحداء . وأذن فيه . وكان يسمع أنساً والصحابة ، وهم يرتجزون بين يديه في حفر الخندق :

نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد ما بقينا أبدا

ودخل مكة والمرتجز يرتجز بين يديه بشعر عبد الله بن رواحة . وحدا به الحادي في منصرفه من خيبر . فجعل يقول :

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الذين قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا
ونحن إن صِيح بنا أتينا وبالصياح عَوَّلوا علينا
ونحن عن فضلك ما استغنينا

فدعا لقائله .

وسمع قصيدة كعب بن زهير . وأجازه ببردة .

واستنشد الأسود بن سريع قصائد حَمِدَ بها ربه .

واستنشد من شعر أمية بن أبي الصلت مائة قافية .

وأنشده الأعشَى شيئاً من شعره فسمعه .

وصَدَّق لبيداً في قوله * ألا كل شيء ماخلا الله باطل *

ودعا لحسان « أن يؤيده الله بروح القدس مادام ينافح عنه » وكان يعجبه شعره . وقال له « اُهْجُهم . وروح القدُس معك » .

وأنشدته عائشة قول أبى كبير الهذلى :

ومبرإٍ من كل غُـبَّر حيضة   وفساد مرضـعة وداء مُغيل[1]
وإذا نظرت إلى أسِرّة وجهـه   برقت كبرق العـارض المتهلل

وقالت « أنت أحق بهذا البيت » فسُرَّ بقولها .

وبأن ابن عمر رضى الله عنهما رخص فيه . وعبد الله بن جعفر ، وأهل المدينة .
وبأن كذا وكذا ولياً لله حضروه وسمعوه . فمن حرمه فقد قدح فى هؤلاء السادة القدوة الأعلام .

وبأن الإجماع منعقد على إباحة أصوات الطيور المطربة الشجية ، فلذة سماع صوت الآدمى أولى بالإباحة ، أو مساوية .

وبأن السماع يحدو روح السامع وقلبه إلى نحو محبوبه . فإن كان محبوبه حراماً كان السماع معيناً له على الحرام . وإن كان مباحاً كان السماع فى حقه مباحا . وإن كانت محبته رحمانية كان السماع فى حقه قربة وطاعة . لأنه يحرك المحبة الرحمانية ويقويها ويهيجها .

وبأن التذاذ الأذن بالصوت الطيب كالتذاذ العين بالمنظر الحسن . والشم بالروائح الطيبة ، والفم بالطعوم الطيبة . فإن كان هذا حراماً كانت جميع هـذه اللذات والإدراكات محرمة .

* * *

فالجواب : أن هذه حَيْدة عن المقصود . وروغان عن محل النزاع . وتعلق بما

(١) غبر الحيض ـ بالضم ـ وغبره ـ بالضم وتشديد البـاء الموحده ـ بقاياه . وكذا بقايا اللبن فى الضرع . و « المغيل » من الغيل . وهو أن تحبـل المرأة وهى مرضع ، وكانت العرب تعتقد أن ذلك يضر الرضيع ، ويروى : وداء معضل . أى لا دواء له . والمعنى : أنها حملت به وهى طاهر ليس بها بقية حيض . ووضعته صحيحاً لم يرث منها مرضا .

لا متعلق به . فإن جهة كون الشيء مستلذاً للحاسة ملائما لها ، لايدل على إباحته ولا تحريمه ، ولا كراهته ولا استحبابه . فإن هذه اللذة تكون فيما فيه الأحكام الخمسة : تكون فى الحرام ، والواجب . والمكروه . والمستحب. والمباح . فكيف يستدل بها على الإباحة من يعرف شروط الدليل ، ومواقع الاستدلال ؟ .

وهل هذا إلا بمنزلة من استدل على إباحة الزنا بما يجده فاعله من اللذة ، وأن لذته لاينكرها من له طبع سليم : وهل يستدل بوجود اللذة والملاءمة على حل اللذيذ الملائم أحد ؟ وهل خلت غالب المحرمات من اللذات ؟ وهل أصوات المعازف التى صح عن النبى صلى الله عليه وسلم تحريمها ، وأن فى أمته من سيستحلها بأصح إسناد ، وأجمع أهل العلم على تحريم بعضها . وقال جمهورهم : بتحريم جملتها ـ إلا لذيذة تلذ السمع ؟ وهل فى التذاذ الجمل والطفل بالصوت الطيب دليل على حكمه : من إباحة ، أو تحريم ؟

وأعجب من هذا : الاستدلال على الإباحة بأن الله خلق الصوت الطيب . وهو زيادة نعمة منه لصاحبه .

فيقال : والصورة الحسنة الجميلة ، أليست زيادة فى النعمة . والله خالقها . ومعطى حسنها ؟ أفيدل ذلك على إباحة التمتع بها ، والالتذاذ على الإطلاق بها ؟

وهل هذا إلا مذهب أهل الإباحة الجارين مع رسوم الطبيعة ؟

وهل فى ذم الله لصوت الحمار مايدل على إباحة الأصوات المطربات بالنغمات الموزونات ، والألحان اللذيذات ، من الصور المستحسنات ، بأنواع القصائد المنغمات ، بالدفوف والشبابات ؟ ! .

وأعجب من هذا : الاستدلالُ على الإباحة بسماع أهل الجنة . وما أجدر صاحبه أن يستدل على إباحة الخمر بأن فى الجنة خمراً . وعلى حل لباس الحرير بأن لباس أهلها حرير . وعلى حِلِّ أوانى الذهب والفضة والتحلى بهما للرجال: بكون ذلك ثابتاً وجود النعيم به فى الجنة .

فإن قال : قد قام الدليل على تحريم هذا . ولم يقم على تحريم السماع .

قيل : هذا استدلال آخر غير الاستدلال بإباحته لأهل الجنة . فعلم أن استدلالكم بإباحته لأهل الجنة استدلال باطل ، لايرضى به محصل .

وأما قولكم « لم يقم دليل على تحريم السماع » .

فيقال لك : أى السماعات تعنى ؟ وأى المسموعات تريد ؟ فالسماعات والمسموعات : منها المحرم ، والمكروه ، والمباح ، والواجب ، والمستحب . فعيِّن نوعاً يقع الكلام فيه نفياً و إثباتا .

فإن قلت : سماع القصائد . قيل لك : أى القصائد تعنى ؟ ما مُدح به الله ورسوله ودينه وكتابه . وهجى به أعداؤه ؟ .

فهذه لم يزل المسلمون يروونها و يسمعونها و يتدارسونها . وهى التى سمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأثاب عليها . وحرض حساناً عليها . وهى التى غرَّت أصحاب السماع الشيطانى . فقالوا : تلك قصائد . وسماعنا قصائد . فنعم إذن . والسنة كلام . والبدعة كلام . والتسبيح كلام . والغيبة كلام . والدعاء كلام . والقذف كلام . ولكن هل سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه سماعكم هذا الشيطانى المشتمل على أكثر من مفسدة مذكورة فى غير هذا الموضع[1] . وقد أشرنا فيما تقدم إلى بعضها ؟ .

ونظير هذا : ماغرهم من استحسانه صلى الله عليه وسلم الصوت الحسن بالقرآن . وأَذَنه له و إذنه فيه ، ومحبة الله له .

فنقلوا هذا الاستحسان إلى صوت النسوان والمردان وغيرهم ، بالغناء المقرون بالمعازف والشاهد . وذكر القدِّ والنهد والخصر ، ووصف العيون وفعلها ، والشعر الأسود ، ومحاسن الشباب ، وتوريد الخدود ، وذكر الوصل والصد ، والتجنى

---

(١) فى كتاب « إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان » فقد أطال القول هنالك ووفاه بما لا يدع مجالا لقائل ولا اعتذاراً لمعتذر .

والهجران ، والعتاب والاستعطاف ، والاشتياق ، والقلق والفراق ، وما جرى هذا المجرى . مما هو أفسد للقلب من شرب الخمر ، بما لانسبة بينهما . وأى نسبة لمفسدة سكر يوم ونحوه إلى سكرة العشق التى لايستفيق الدهر صاحبها إلا فى عسكر الهالكين ، سليباً حريباً ، أسيراً قتيلا ؟ .

وهل تقاس سكرة الشراب بسكرة الأرواح بالسماع ؟ وهل يظن بحكيم أن يحرم سكراً لمفسدة فيه معلومة . ويبيح سكراً مفسدته أضعاف أضعاف مفسدة الشراب ؟ حاشا أحكم الحاكمين .

فإن نازعوا فى سكر السماع ، وتأثيره فى العقول والأرواح : خرجوا عن الذوق والحس . وظهرت مكابرة القوم . فكيف يحمى الطبيب المريض عما يشوش عليه صحته . ويبيح له مافيه أعظم السقم ؟ والمنصف يعلم أنه لانسبة بين سقم الأرواح بسكر الشراب ، وسقمها بسكر السماع . وكلامنا مع واجد لافاقد . فهو المقصود بالخطاب .

وأعجب من هذا : استدلالكم على إباحة السماع ـ المركب مما ذكرنا من الهيئة الاجتماعية ـ بغناء بنيتين صغيرتين دون البلوغ ، عند امرأة صبية فى يوم عيد وفرح ، بأبيات من أبيات العرب ، فى وصف الشجاعة والحروب ، ومكارم الأخلاق والشيم . فأين هذا من هذا ؟ .

والعجب أن هذا الحديث من أكبر الحجج عليهم . فإن الصديق الأكبر رضى الله عنه سمى ذلك « مزموراً من مزامير الشيطان » وأقره رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذه التسمية . ورخص فيه لجويريتين غير مكلفتين ، ولا مفسدة فى إنشادهما . ولا استماعهما . أفيدل هذا على إباحة ماتعملونه وتعلمونه من السماع المشتمل على مالا يخفى ؟ فياسبحان الله ! كيف ضلت العقول والأفهام ؟ .

وأعجب من هذا كله : الاستدلال على إباحته بما سمعه رسول الله صلى الله

عليه وسلم من الحداء المشتمل على الحق والتوحيد ؟ ! وهل حرم أحد مطلق الشعر، وقوله واستماعه ؟ فكم فى هذا التعلق ببيوت العنكبوت ؟ .

وأعجب من هذا : الاستدلال على إباحته بإباحة أصوات الطيور اللذيذة . وهل هذا إلا من جنس قياس الذين قالوا (٢ : ٢٧٥ إنما البيع مثل الربا) وأين أصوات الطيور إلى نغمات الغيد الحسان ، والأوتار والعيدان ، وأصوات أشباه النساء من المردان ، والغناء بما يحدو الأرواح والقلوب ، إلى مواصلة كل محبوبة ومحبوب ؟ وأين الفتنة بهذا إلى الفتنة بصوت القِمْرى والبلبل والهزار ونحوها ؟ .

بل نقول : لو كانا سواء لكان اتخاذ هذا السماع قربة وطاعة تستنزل به المعارف والأذواق والمواجيد ، وتحرك به الأحوال بمنزلة التقرب إلى الله بأصوات الطيور ، ومعاذ الله أن يكونا سواء .

* * *

والذى يفصل النزاع فى حكم هذه المسألة : ثلاث قواعد . من أهم قواعد . الإيمان والسلوك . فمن لم يبن عليها فبناؤه على شفا جُرُف هار .

القاعدة الأولى :

أن الذوق والحال والوجد : هل هو حاكم أو محكوم عليه ، فيحكم عليه بحاكم آخر ، ويتحاكم إليه ؟ .

فهذا منشأ ضلال من ضل من المفسدين لطريق القوم الصحيحة[1] . حيث جعلوه حاكما . فتحاكموا إليه فيما يسوغ ويمتنع ، وفيما هو صحيح وفاسد . وجعلوه محكًّا للحق والباطل . فنبذوا لذلك موجب العلم والنصوص . وحكموا فيها الأذواق

---

(١) ومتى كانت كذلك ؟ يوم جاءت وافدة من الهند والفرس والنصارى ؟ وهل الصحة الحقة . والقوة والعافية إلا فيما جاء عن الله والرسول صلى الله عليه وسلم الذى قال الله فيه (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا) .

والأحوال والمواجيد . فعظم الأمر . وتفاقم الفساد والشر . وطمست معالم الإيمان والسلوك المستقيم . وانعكس السير . وكان إلى الله . فصيروه إلى النفوس . فالناس المحجوبون عن أذواقهم يعبدون الله . وهؤلاء يعبدون نفوسهم .

ومن العجب : أنهم دخلوا فى أنواع الرياضات والمجاهدات والزهد ، ليتجردوا عن شهوات النفوس وحظوظها . فانتقلوا من شهوات إلى شهوات أكبر منها . ومن حظوظ إلى حظوظ أحط منها . وكان حالهم فى شهوات نفوسهم التى انتقلوا عنها أكمل ، وحال أربابها خير من حال هؤلاء . لأنهم لم يعارضوا بها العلم . ولا قدموها على النصوص . ولا جعلوها ديناً وقربة . ولا ازدروا من أجلها العلم وأهله . والشهوات التى انتقلوا إليها جعلوها أعلى ما يشمرون إليها . فهى قبلة قلوبهم . فهم حولها عاكفون . واقفون مع حظوظهم من الله ، فانون بها عن مراد الله منهم . الناس يعبدون الله ، وهم يعبدون أنفسهم ، عائبون على أهل الحظوظ والشهوات ومزدرون لهم . وهم أعظم الناس حظوظاً . وإنما زهدوا فى حظ إلى حظ أعلى منه ، وإنما تركوا شهوة لشهوة أحط .

فليتدبر اللبيب هذا الموضع فى نفسه وفى غيره . فكل ماخالف مراد الله الدينى من العبد فهو حظه وشهوته ، مالاً كان ، أو رياسة ، أو صورة ، أو حالا ، أو ذوقاً ، أو وجداً .

ثم من قدمه على مراد الله فهو أسوأ حالا ممن عرف أنه نقص ومحنة . وأن مراد الله أولى بالتقديم منه . فهو يتوب منه كل وقت إلى الله .

ثم إنه وقع من تحكيم الذوق من الفساد مالا يعلمه إلا الله . فإن الأذواق مختلفة فى أنفسها ، كثيرة الألوان ، متباينة أعظم التباين . فكل طائفة لهم أذواق وأحوال ومواجيد ، بحسب معتقداتهم وسلوكهم

فالقائلون بوحدة الوجود لهم ذوق وحال ووجد فى معتقدهم بحسبه . والنصارى لهم ذوق فى النصرانية بحسب رياضتهم وعقائدهم . وكل من اعتقد شيئاً أو سلك

سلوكا ـ حقاً كان أو باطلا ـ فإنه إذا ارتاض وتجرد : لزمه . وتمكن من قلبه . و بقى له فيه حال وذوق ووجد . فيذوق من توزن الحقائق إذن و يعرف الحق من الباطل .

وهذا سيد أهل الأذواق والمواجيد ، والكشوف والأحوال ، من هذه الأمة المحدَّث المكاشف ـ عمر رضى الله عنه ـ لايلتفت إلى ذوقه ووجده ومخاطباته فى شىء من أمور الدين ، حتى ينشد عنه الرجال والنساء والأعراب . فإذا أخبروه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بشىء لم يلتفت إلى ذوقه ، ولا إلى وجده وخطابه ، بل يقول «لولم نسمع بهذا لقضينا بغيره» و يقول « أيها الناس ، رجل أخطأ وامرأة أصابت » فهذا فعل الناصح لنفسه وللأمة رضى الله عنه ، ليس كفعل من غش نفسه والدين والأمة .

القاعدة الثانية :

أنه إذا وقع النزاع فى حكم فعل من الأفعال ، أو حال من الأحوال ، أو ذوق من الأذواق . هل هو صحيح أو فاسد ؟ وحق أو باطل ؟ وجب الرجوع فيه إلى الحجة المقبولة عند الله وعند عباده المؤمنين . وهى وحيه الذى تتلقى أحكام النوازل والأحوال والواردات منه . وتعرض عليه وتوزن به ، فما زكاه منها وقبله ورجحه وصححه فهو المقبول . وما أبطله ورده فهو الباطل المردود . ومن لم يَبْنِ على هذا الأصل علمه وسلوكه وعمله : فليس على شىء من الدين . و إن و إن . و إنما معه خدع وغرور (٢٤ : ٣٩ كسرابٍ بقيعة يحسبه الظمآن ماء . حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً . ووجد الله عنده فوفّاه حسابه . والله سريع الحساب) .

القاعدة الثالثة :

إذا أشكل على الناظر أو السالك حكم شىء : هل هو الإباحة أو التحريم ؟ فلينظر إلى مفسدته وثمرته وغايته . فإن كان مشتملا على مفسدة راجحة ظاهرة . فإنه يستحيل على الشارع الأمر به أو إباحته . بل العلم بتحريمه من شرعه قطعى .

ولا سيما إذا كان طريقاً مفضيا إلى ما يغضب الله ورسوله موصلا إليه عن قرب . وهو رُقْية له ورائد وبَريد . فهذا لا يشك فى تحريمه أولو البصائر . فكيف يظن بالحكيم الخبير أن يحرم مثل رأس الإبرة من المسكر . لأنه يسوق النفس إلى السكر الذى يسوقها إلى المحرمات ثم يبيح ما هو أعظم منه سَوْقاً للنفوس إلى الحرام بكثير؟ فإن الغناء — كما قال ابن مسعود رضى الله عنه — هو « رقية الزنا » وقد شاهد الناس : أنه ماعاناه صبى إلا وفسد ، ولا امرأة إلا و بغت ، ولا شاب إلاّ و إلا ، ولا شيخ إلا و إلا . والعيان من ذلك يغنى عن البرهان . ولا سيما إذا جمع هيئة تحدو النفوس أعظم حَدْوٍ إلى المعصية والفجور ، بأن يكون على الوجه الذى ينبغى لأهله ، من المكان والإمكان ، والعُشَراء والإخوان ، وآلات المعازف : من اليَراع ، والدُّف ، والأوتار والعيدان . وكان القَوّال شادنا شَجِيَّ الصوت ، لطيف الشمائل من المردان أو النسوان . وكان القول فى العشق والوصال . والصد والهجران .

ودارت كؤوس الهوى بينهم فلست ترى فيهم صاحيا
فكلٌّ على قدر مشروبه وكل أجاب الهوى الداعيا
فمالوا سَكارَى ، ولاسُكرَ من تناول أمَّ الهوى خاليا
وجار على القوم ساقيهم ولم يؤثروا غيره ساقيا
فمزَّق منهم قلوباً غدت لباسا عليه يُرى ضافيا
فلم يستفيقوا إلى أن أتى إليهم منادى اللقا داعيا
أجيبوا . فكل امرىء منكم على حالِه رَبَّه لاقيا
هنالك تعلم مِنْ حمأة شَرِبْتَ مع القوم ، أم صافيا؟
وبالله لابد قبل اللقا ستعلم ذا إن تكُ واعيا
لابد تصحو . فإما هنا وإما هناك . فكن راضيا

فصــل

وإذا لم يكن بُدٌّ من المحاكمة إلى الذوق. فهلم نحاكمك إلى ذوق لا ننكره نحن ولا أنت ، غير هذه الأذواق التي ذكرناها .

فالقلب يعرض له حالتان : حالة حزن وأسف على مفقود ، وحالة فرح ورضى بموجود . وله بمقتضى هاتين الحالتين عبوديتان .

وله بمقتضى الحالة الأولى : عبودية الرضاء . وهى للسابقين . والصبر . وهى لأصحاب اليمين .

وله بمقتضى الحالة الثانية : عبودية الشكر . والشاكرون فيها أيضا نوعان : سابقون ، وأصحاب يمين . فاقتطعته النفس والشيطان عن هاتين العبوديتين ، بصوتين أحمقين فاجرين . هما للشيطان لا للرحمن : صوت الندب والنياحة عند الحزن وفوات المحبوب . وصوت اللهو والمزمار والغناء عند الفرح وحصول المطلوب فعوضَّه الشيطان بهذين الصوتين عن تينك العبوديتين .

وقد أشار النبى صلى الله عليه وسلم إلى هذا المعنى بعينه فى حديث أنس رضى الله عنه « إنما نهيتُ عن صوتين أحمقين ، فاجرين : صوت وَيْلٍ عند مصيبة . وصوت مزمار عند نعمة » .

ووافق ذلك راحة من النفس وشهوة ولذة ، ومَرَتْ فيها تلك الرقائق حتى تَعَبَّد بها من قَلَّ نصيبه من النور النبوى . وقَلَّ مشربه من العين المحمدية ، وانضاف ذلك إلى صدق وطلب وإرادة مضادة لشهوات أهل الغى وأهل البطالة . ورأوا قساوة قلوب المنكرين لطريقتهم ، وكثافة حجبهم ، وغلظة طباعهم ، وثقل أرواحهم . وصادف ذلك تحريكا لسواكنهم . وانقيادا للواعج الحب ، وإزعاجاً للنفوس إلى أوطانها الأولى[1] ومعاهدها التى سبيت منها . والنفوس

(١) إن الذى يتحرك عند سماع الغناء والموسيقى ، ويطرب ويستيقظ ويتلذذ : هو النفس البهيمية ، لا النفس الإنسانية . ولذلك استدلوا عليه بما تجده البهائم =

الطالبة المرتاضة السائرة لابد لها من محرك يحركها ، وحادٍ يحدوها . وليس لها من حادى القرآن عوض عن حادى السماع .

فتركب من هذه الأمور : إيثار منهم للسماع . ومحبة صادقة له . تزول الجبال عن أماكنها ولا تفارق قلوبهم . إذ هو مثير عزماتهم ومحرك سواكنهم . ومزعج بواطنهم .

فدواء صاحب مثل هذا الحال : أن ينقل بالتدريج إلى سماع القرآن بالأصوات الطيبة . مع الإمعان فى تفهم معانيه ، وتدبر خطابه قليلا قليلا . إلى أن ينخلع من قلبه سماع الأبيات . و يلبس محبة سماع الآيات . و يصير ذوقه وشربه وحاله ووجده فيه . فحينئذ يعلم هو من نفسه : أنه لم يكن على شىء ، و يتمثل حينئذ بقول القائل :

وكنت أرى أنْ قدتناهى بى الهوى إلى غاية مافوقها لى مطلب
فلما تلاقينا . وعاينت حسنها تيقنت أنى إنما كنت ألعب

ومنافاة النوح للصبر والغناء للشكر : أمر معلوم بالضرورة من الدين . لايمترى فيه إلا أبعد الناس من العلم والإيمان . فإن الشكر هو الاشتغال بطاعة الله

= والطيور والوحوش عند سماعها للغناء والموسيقى والحداء ، فهى تتحرك حركة بهيمية لاتجد من الإنسانية الكريمة المفكرة المميزة يقظة ورشداً تكبح به جماحها ، ولا حكمة تسكن حركتها بسكينة الاطمئنان إلى آثار أسماء الله وصفاته . فعندئذ يجد الشيطان الفرصة سانحة ، فيركب النفس البهيمية ــ وقد انسلخت من آيات ربها . ووهنت وضعفت بهذا الانسلاخ . فاتخذها عدوها مطية . فكانت معه من الغاوين . الذين ظنوا الفسوق طاعة ، والفجور تقوى ، والشرك توحيداً ، وكثيرا جداً ــ بل ذلك نتيجة حتمية لهذا الانسلاخ وما استتبعه ــ نعم كثيراً جداً مازاد إبليس فى إضلالهم وإغوائهم . فاتخذ لهم من آيات القرآن أغانى يوقعونها على نغم الموسيقى . فيزدادون عمى على عمى ، وضلالا وخسرانا باتخاذهم آيات الله ودينه هزواً ولعبا . وهيهات أن يرجى لهم مع هذا ــ وبعد هــذا ــ إنابة أو رجعة صحيحة إلى صراط الله المستقيم . وكل ذلك من ثمرات التقليد الأعمى الخبيثة . ومن آثار مارمى به المجوس واليهود والمشركون المسلمين . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

لابالصوت الأحمق الفاجر ، الذى هو للشيطان . وكذلك النوح ضد الصبر ، كما قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى النائحة ـ وقد ضربها حتى بدا شعرها ـ وقال « لاحرمة لها . إنها تأمر بالجزع . وقد نهى الله عنه . وتنهى عن الصبر . وقد أمر الله به . وتفتن الحى وتؤذى الميت . وتبيع عبرتها . وتبكى شَجْو غيرها » .

ومعلوم عند الخاصة والعامة : أن فتنة سماع الغناء والمعازف أعظم من فتنة النوح بكثير . والذى شاهدناه ـ نحن وغيرنا ـ وعرفناه بالتجارب : أنه ماظهرت المعازف وآلات اللهو فى قوم . وفشت فيهم . واشتغلوا بها ، إلاسلط الله عليهم العدو ، وبلوا بالقَحْط والجَدْب وولاة السوء . والعاقل يتأمل أحوال العالم و ينظر [١] والله المستعان .

ولا تستطل كلامنا فى هذه المنزلة . فإن لها عند القوم شأناً عظيما .

وأما قولهم « من أنكر على أهله فقد أنكر على كذا وكذا ولىّ لله » فحجة عامية . نعم إذا أنكر أولياء الله على أولياء الله [٢] كان ماذا ؟ فقد أنكر عليهم من أولياء الله من هو أكثر منهم عدداً ، وأعظم عند الله وعند المؤمنين منهم قدرا . وأقرب بالقرون المفضلة عهدا . وليس من شرط ولى الله العصمة . وقد تقاتل أولياء الله فى صِفين بالسيوف . ولما سار بعضهم إلى بعض كان يقال : سار أهل الجنة إلى أهل الجنة . وكونُ ولى الله يرتكب المحظور والمكروه متأوّلا أو عاصيا

---

(١) ذلك أنهم باللهو والغناء يقلبون حياتهم من الجد إلى اللعب والسخرية . ومن الرشد إلى السفه والغى . ومن القوة إلى الضعف والوهن . فإن حياة الغناء واللهو واللعب لابد تحلل عناصر القوة والنشاط العلمى والعملى الذى لا نجاح للأمة ولا قوة لها إلا به . فتضعف صناعياً واقتصادياً وزراعياً وعسكرياً فضلا عن انهيارها الخلق ، وشدة تعرضها للعنة الله . ويصبح أمرها فرطا . لأن قلوبها غفلت عن الحق فى سنن الله وآياته وحكمته . واتبعت هواها . فهوى بها إلى درك الوهن والضعف .

(٢) وهل هؤلاء المفتونون بالغناء والموسيقى والرقص أولياء لله ؟ ! . فمن أولياء الشيطان وأعداء الله إذن ؟ .

لا يمنع ذلك من الإنكار عليه ، ولايخرجه عن أصل ولاية الله . وهيهات هيهات أن يكون أحد من أولياء الله المتقدمين حضر هذا السماع المحدث المبتدع . المشتمل على هذه الهيئة التى تفتن القلوب ، أعظم من فتنة المشروب ، وحاشا أولياء الله من ذلك و إنما السماع الذى اختلف فيه مشايخ القوم : اجتماعهم فى مكان خال من الأغيار يذكرون الله ، و يتلون شيئاً من القرآن . ثم يقوم بينهم قوال ينشدهم شيئاً من الأشعار المزهدة فى الدنيا ، المرغبة فى لقاء الله ومحبته ، وخوفه ورجائه ، والدار الآخرة ، و ينبههم على بعض أحوالهم من يقظة أو غفلة ، أو بُعد أو انقطاع ، أو تأسف على فائت ، أو تدارك لفارط ، أو وفاء بعهد ، أو تصديق بوعد ، أو ذكر قلق وشوق ، أو خوف فرقة أو صد ، وما جرى هذا المجرى .

فهذا السماع الذى اختلف فيه القوم [1]. لاسماع المكاء والتصدية ، والمعازف والخمريات ، وعشق الصور من المردان والنسوان ، وذكر محاسنها ووصالها وهجرانها . فهذا لو سئل عنه من سئل من أولى العقول لقضى بتحريمه . وعلم أن الشرع لايأتى بإباحته . وأنه ليس على الناس أضر منه ، ولا أفسد لعقولهم وقلوبهم وأديانهم وأموالهم وأولادهم وحريمهم منه . والله أعلم .

فصل

قال صاحب المنازل :

« السماع على ثلاث درجات : سماع العامة . وهو ثلاثة أشياء : إجابة زجر الوعيد رغبة . و إجابة دعوة الوعد جهداً . و بلوغ مشاهدة المنة استبصاراً » .

---

(١) وهذا والله لم يكن منه إلا ماولد البدع المضلة ، وقسوة القلوب عن هدى الله وذكره « وخير الهدى هدى محمد صلى الله عليه وسلم . وشر الأمور محدثاتها . وكل بدعة ضلالة » وإنما شرع قدامى الصوفية من آلاف السنين ــ فى الهند والصين وغيرهما ــ المزامير والبخور وحفلات الرقص وأشباهها ليجذبوا بها النفوس البهيمية الجاهلية ، ويخدعوها عن أن تكون مخبتة لله رب العالمين . وقد ورث ذلك النصارى فى كنائسهم وبرأ الله عيسى ومحمداً وإخوانهما من المرسلين عليهم الصلاة والسلام .

الوعيد : يكون على ترك المأمور وفعل المحظور . و إجابة داعيه : هو العمل بالطاعة .

وقوله « رغبة » يعنى امتثالاً لكون الله تعالى أمر ونهى وأوعد .

وحقيقة الرجاء : الخوف والرجاء . فيفعل ما أمر به على نور الإيمان . راجياً للثواب . و يترك ما نهى عنه على نو ر الإيمان خائفاً من العقاب .

وفى الرغبة فائدة أخرى . وهى أن فعله يكون فعل راغب مختار ، لا فعل كاره ، كأنما يساق إلى الموت وهو ينظر .

وأما إجابة الوعد جهداً : فهو امتثال الأمر طلباً للوصول إلى الموعود به ، باذلاً جهده فى ذلك ، مستفرغاً فيه قواه .

وأما بلوغ مشاهدة المنة استبصاراً : فهو تنبه السامع فى سماعه إلى أن جميع ما وصله من خير فمن منة الله عليه . و بفضله عليه من غير استحقاق منه . ولا بذل عوض استوجب به ذلك . كما قال تعالى (٤٩:١٧ يمنون عليك أن أسلموا ، قل : لا تمنوا علىَّ إسلامَكم ، بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين)

وكذلك يشهد أن ما زوى عنه من الدنيا ، أو ما لحقه منها من ضرر وأذًى فهو منة أيضاً من الله عليه من وجوه كثيرة ، و يستخرجها الفكر الصحيح . كما قال بعض السلف « يا ابن آدم ، لا تدرى أى النعمتين عليك أفضل : نعمته فيما أعطاك ، أو نعمته فيما زَوَى عنك ؟ » وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه « لا أبالى على أى حال أصبحت أو أمسيت . إن كان الغنى ، إن فيه لَلشُّكر . و إن كان الفقر ، إن فيه لَلصَّبر » وقال بعض السلف « نعمته فيما زوى عنى من الدنيا أعظم من نعمته فيما بسط لى منها . إنى رأيته أعطاها قوما فاغتروا » .

إذا عَمَّ بالسراء أعقب شكرها ... و إن مَسَّ بالضراء أعقبها الأجر
وما منهما إلا له فيه نعمة ... تضيق بها الأوهام والبَرُّ والبحر

فإن قلت : فهل يشهد مِنَّتَه فيما لحقه من المعصية والذنب ؟

قلت : نعم . إذا اقترن بها التوبة النصوح ، والحسنات الماحية ، كانت من أعظم المنن عليه . كما تقدم تقريره .

فصل

قال « وسماع الخاصة : ثلاثة أشياء . شهود المقصود فى كل رمز . والوقوف على الغاية فى كل حين . والخلاص من التلذذ بالتفرق » .

والمقصود فى كل رمز : هو الرب تبارك وتعالى . فإن المسموع كله يُعَرِّف به وبصفاته وأسمائه ، وأفعاله وأحكامه ، ووعده ووعيده ، وأمره ونهيه ، وعدله وفضله . وهذا الشهود ينال بالسماع بالله ولله وفى الله ومن الله .

أما السماع به : فأن لا يسمع وفيه بقية من نفسه . فإن كانت فيه بقية قطعها كمال تعلقه بالمسموع . فيكون سماعه بقيوميته مجرداً من التفاته إلى نفسه .

وأما السماع له : فأن يجرد النفس فى السماع من كل إرادة تزاحم مراد الله منه . وتجمع قوى سمعه على تحصيل مراد الله من المسموع .

وأما السماع فيه : فشأن آخر . وهو تجريد مالا يليق نسبته إلى الحق من وصف ، أوسمة أو نعت ، أو فعل ، مما هو لائق بكماله . فيثبت له مايليق بكماله من المسموع . وينزهه عما لا يليق به .

وهذا الموضع لم يتخلص فيه إلا الراسخون فى العلم والمعرفة بالله . واضل الله عنه أهل التحريف والتعطيل ، والتشبيه والتمثيل ، و (٢ : ٢١٣ هدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه . والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) .

وأما السماع منه : فإنما يتصور بواسطة . فهو سماع مقيد . وأما المطلق : فلا مطمع فيه فى عالم الفناء ، إلا لمن اختصه الله برسالاته و بكلامه . ولكن السماع لكلامه كالسماع منه . فإنه كلامه الذى تكلم به حقاً . فمن سمعه فليقدر نفسه كأنه يسمعه من الله .

هـذا هو السماع من الله . لا سماع أرباب الخيال . ودعوى المحال ، القائل

أحدهم : نادانى فى سرى ، وخاطبنى ، وقال لى . ياليت شعرى من المنادى لك ؟ ومن المخاطِب ، يا مخدوع يامغرور ؟ فما يدريك : أنداء شيطانى ، أم رحمانى ؟ وما البرهان على أن المخاطِب لك هو الرحمن ؟

نعم نحن لا ننكر النداء والخطاب والحديث . وإنما الشأن فى المنادى المخاطب المحدث . فهاهنا تسكب العبرات .

وبالجملة فمن قرىء عليه القرآن فليقدر نفسه كأنما يسمعه من الله يخاطبه به . فإذا حصل له — مع ذلك — السماع به وله وفيه ، ازدحمت معانى المسموع ولطائفه وعجائبه على قلبه . وازدلفت إليه بأيهما يبدأ ، فما شئت من علم وحكمة ، وتعرف و بصيرة ، وهداية وغيرة .

وأما الوقوف على الغاية فى كل حين: فهو التطلب والسفر إلى الغاية المقصودة بالمسموع الذى جعل وسيلة إليها . وهو الحق سبحانه . فإنه غاية كل مطلب (٥٣ : ٤٢ وأن إلى ربك المنتهى) وليس وراء الله مرمى ، ولا دونه مستقر . ولا تقرُّ العين بغيره ألبتة . وكل مطلوب سواه فظل زائل ، وخيال مفارق مائل وإن تمتع به صاحبه فمتاع الغرور .

وأما الخلاص من التلذذ بالتفرق : فالتفرق فى معانى المسموع ، وتنقل القلب فى منازلها يوجب له لذة ، كما هو المألوف فى الانتقال . فليتخلص من لذة تفرقه التى هى حظه ، إلى الجمعية على المسموع به وله ومنه .

ولم يقل الشيخ « من التفرق » فإن المسموع إنما يدرك معناه و يفهم بالتفرق لتنوعه . ولكن ليتخلص من لذته . لا منه . لئلا يكون مع حظه . وهذا من لطف أحوال السامعين المخلصين .

فصل

قال « وسماع خاصة الخاصة : سماع ينفى العلل عن الكشف . ويصل الأبد إلى الأزل . و يرد النهايات إلى الأول » .

فالكشف : هو مكاشفة القلب لحقيقة المسموع . وعلله أمران .

أحدهما : الشبه التي تنتفى بهذه المكاشفة . فلا تبقى معها شبهة . فهذا هو عين اليقين .

والثانى : نفى الوسائط بين السامع والمسموع . فيغيب بمسموعه عنها . ويفنى عن شهودها ، ويفنى عن شهود فنائه عنها . بحيث يشهده هو المسمع لا الواسطة وهو الهادى . فمنه الإسماع . ومنه الهداية . ومنه الابتداء . وإليه الانتهاء .

وأما وصله الأبد إلى الأزل : فهذا إن ـ أخذ على ظاهره ـ : فهو محال . لأن الأبد والأزل متقابلان تقابل التناقض ، فإيصال أحدهما إلى الآخر عين المحال . وإنما مراده : أن ما يكون فى الأبد موجوداً مشهوداً فقد كان فى الأزل معلوماً مقدراً . فعاد حكم الأبد إلى الأزل علماً وحقيقة . وصار الأزلى أبدياً ، كما كان الأبدى أزلياً فى العلم والحكم .

وإيضاح ذلك : أن الأبد ظهر فيه ما كان كامناً فى الأزل خافياً . فانتهى الأمر كله إلى علمه وحكمه وحكمته ، وذلك أزلى . وهذا رد النهايات إلى الأول . فتصير الخاتمة هى عين السابقة . والله تعالى هو الأول والآخر . وكل ما كان ويكون آخراً فمردود إلى سابق علمه وحكمه . فرجع الأبد إلى الأزل . والنهايات إلى الأول . والله أعلم .

فصل

ومن منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » منزلة «الحزن»

وليست من المنازل المطلوبة . ولا المأمور بنزولها ، وإن كان لابد للسالك من نزولها . ولم يأت « الحزن » فى القرآن إلا منهياً عنه . أو منفياً .

فالمنهى عنه : كقوله تعالى (٣ : ١٣٩ ولا تهنوا ولا تحزنوا) وقوله (١٦: ١٢٧ ولاتحزن عليهم) فى غير موضع ، وقوله (٩: ٤٠ لاتحزن إن الله معنا) والمنفى كقوله (٢ : ٣٨ فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون) .

وسر ذلك : أن « الحزن » موقف غير مُسَيِّر ، ولا مصلحة فيه للقلب . وأحب شيء إلى الشيطان : أن يُحَزِّن العبد ليقطعه عن سيره ، و يوقفه عن سلوكه. قال الله تعالى (٥٨ : ١٠ إنما النجوى من الشيطان لِيَحْزُنَ الذين آمنوا) ونهى النبي صلى الله عليه وسلم الثلاثة « أن يتناجى اثنان منهم دون الثالث ، لأن ذلك يحزنه » .

فالحزن ليس بمطلوب ، ولا مقصود ، ولا فيه فائدة . وقد استعاذ منه النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال « اللهم إنى أعوذ بك من الهم والحزن » فهو قرين الهم . والفرق بينهما : أن المكروه الذى يرد على القلب ، إن كان لما يستقبل : أورثه الهم ، و إن كان لما مضى : أورثه الحزن . وكلاهما مضعف للقلب عن السير . مُفَتِّر للعزم .

ولكن نزول منزلته ضرورى بحسب الواقع . ولهذا يقول أهل الجنة إذا دخلوها (٣٥ : ٣٤ الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن) فهذا يدل على أنهم كان يصيبهم فى الدنيا الحزن ، كما يصيبهم سائر المصائب التى تجرى عليهم بغير اختيارهم.
وأما قوله تعالى (٩:٩٢ ولا على الذين إذا ماأتَوْكَ لتحملهم ، قلتَ : لاَ أجِدُ ما أحملكم عليه ، تَوَلّوْا وأعينهم تفيضُ من الدمع حَزَناً : أن لا يجدوا ماينفقون) فلم يمدحوا على نفس الحزن . و إنما مُدِحوا على مادَلَّ عليه الحزن من قوة إيمانهم ، حيث تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعجزهم عن النفقة . ففيه تعريض بالمنافقين الذين لم يحزنوا على تخلفهم ، بل غبطوا نفوسهم به .
وأما قوله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الصحيح « مايصيب المؤمن من هَمٍّ ولا نَصَب ، ولا حَزَن إلا كفر الله به من خطاياه » فهذا يدل على أنه مصيبة من الله يصيب بها العبد ، يكفر بها من سيئاته . لايدل على أنه مقام ينبغى طلبه واستيطانه .

وأما حديث هند بن أبى هالة ، فى صفة النبي صلى الله عليه وسلم « إنه كان

متواصل الأحزان » فحديث لا يثبت . وفى إسناده من لا يعرف .

وكيف يكون متواصل الأحزان ، وقد صانه الله عن الحزن على الدنيا وأسبابها ، ونهاه عن الحزن على الكفار ، وغفر له ماتقدم من ذنبه وما تأخر ؟ فمن أين يأتيه الحزن ؟ .

بل كان دائم البشر ، ضحوك السن ، كما فى صفته « الضَّحُوكُ الْقَتَّال » صلوات الله وسلامه عليه .

وأما الخبر المروى « إن الله يحب كل قلب حزين » فلا يعرف إسناده ، ولا من رواه ، ولا تعلم صحته .

وعلى تقدير صحته : فالحزن مصيبة من المصائب ، التى يبتلى الله بها عبده . فإذا ابتلى به العبد فصبر عليه ، أحب صبره على بلائه .

وأما الأثر الآخر « إذا أحب الله عبداً ، نصب فى قلبه نائحة . و إذا أبغض عبداً جعل فى قلبه مزماراً » فأثر إسرائيلى . قيل : إنه فى التوراة . وله معنى صحيح . فإن المؤمن حزين على ذنوبه ، والفاجر لاه لاعب ، مترنم فرح .

وأما قوله تعالى عن نبيه إسرائيل (١٢ : ٨٤ وابْيَضَّتْ عيناَهُ من الحزن فهو كظيم) فهو إخبار عن حاله بمصابه بفقد ولده ، وحبيبه ، وأنه ابتلاه بذلك كما ابتلاه بالتفريق بينه و بينه .

وأجمع أرباب السلوك : على أن حزن الدنيا غير محمود إلا أبا عثمان الحِيرى ، فإنه قال : الحزن بكل وجه فضيلة ، وزيادة للمؤمن . مالم يكن بسبب معصية . قال : لأنه إن لم يوجب تخصيصاً ، فإنه يوجب تمحيصاً .

فيقال : لاريب أنه محنة و بلاء من الله ، بمنزلة المرض والهم والغم . وأما إنه من منازل الطريق : فلا . والله سبحانه أعلم .

فصل

قال صاحب المنازل :

« الحزن : توجع لفائت ، وتأسف على ممتنع » .

يريد : أن مايفوت الإنسان قد يكون مقدوراً له ، وقد لا يكون . فإن كان مقدوراً توجع لفوته ، و إن كان غير مقدور تأسف لامتناعه .

قال « وله ثلاث درجات . الأولى : حزن العامة ، وهو حزن على التفريط فى الخدمة . وعلى التورط فى الجفاء ، وعلى ضياع الأيام » .

التفريط فى الخدمة عندهم : فوق التفريط فى العمل وتضييعه . بل هذا الحزن يكون مع القيام والعمل . فإن الخدمة ــ عندهم ــ من باب الأخلاق والآداب ، لا من باب الأفعال . وهى حق العبودية ، وأدبها وواجبها ، وصاحب هذا الحزن بالأولى : أن يحزن لتضييع العمل .

وأما التورط فى الجفاء : فهو أيضاً أخص من المعصية بارتكاب المحظور . لأنه قد يكون لفقد أنس سابق مع الله . فإذا توارى عنه تورط فى الجفوة . فإن الشيخ ذكر « الحزن » فى قسم الأبواب . وهو عنده من قسم البدايات .

وأما تضييع الأيام : فنوعان أيضاً . تضييعها بخلوها عن الطاعات ، وتضييعها بخلوها عن مواجيد الإيمان ، وذوق حلاوته ، والأنس بالله ، وحسن الصحبة معه

فكل واحد من الثلاثة نوعان لأهل البداية . وللسالكين المتوسطين . وكلامه يعم النوعين . و إن كان بالثانى أخص .

قال « الدرجة الثانية : حزن أهل الإرادة . وهو حزن على تعلق القلب بالتفرقة ، وعلى اشتغال النفس عن الشهود . وعلى التسلى عن الحزن » .

تعلق القلب بالتفرقة : هو عدم الجمعية فى الحضور مع الله ، وتشتيت الخواطر فى أودية المرادات .

وأما اشتغال النفس عن الشهود : فهو نوعان . اشتغالها عن الذكر الذى يوجب الشهود ويثمره بغيره .

والثانى : اشتغالها عن الشهود . لضعف الذكر ، أو لضعف القلب عن الشهود ، أو لمانع آخر . ولكن إذا قهر الشهود النفس لم تتمكن من التشاغل عنه إلا بقاهر يقهرها عنه .

وأما التسلى عن الحزن : فيعنى أن وجود الحزن فى القلب دليل على الإرادة والطلب . ففقده والتسلى عنه نقص . فيحزن على فقد الحزن ، كما يبكى على فقد البكاء . ويخاف من عدم الخوف . وهذا فيه نظر . وإنما يُحمد الحزن على فقد الحزن . أما إذا اشتغل عن الحزن بفرح محمود ـ وهو الفرح بفضل الله ورحمته ـ فلا معنى للحزن على فوات الحزن .

قال صاحب المنازل :

« وليست الخاصة من مقام الحزن فى شىء . لأن الحزن فَقْد . والخاصة أهل وجدان » .

وهذا إن أراد به : أنه لا ينبغى لهم تعمد الحزن : فصحيح . وإن أراد به : لا يعرض لهم حزن : فليس كذلك . والحزن من لوازم الطبيعة . ولكن ليس هو بمقام .

قال « الدرجة الثالثة من الحزن : التحزن للمعارضات دون الخواطر . ومعارضات القصود . واعتراضات الأحكام » .

هذه ثلاثة أمور ، بحسب الشهود والإرادة .

الأول : حزن المعارضات . فإن القلب يعترضه وارد الرجاء مثلا . فلم ينشب أن يعارضه وارد الخوف ، وبالعكس . ويعترضه وارد البسط . فلم ينشب أن يعترضه وارد القبض . ويرد عليه وارد الأنس . فيعترضه وارد الهيبة . فيوجب له اختلاف هذه المعارضات عليه حزناً لا محالة .

وليست هذه المعارضات من قبيل الخواطر . بل هى من قبيل الواردات الإلٰهيّة . فلذلك قال « دون الخواطر » فإن معارضات الخواطر غير هذا .

وعند القوم : هذا من آثار الأسماء والصفات ، واتصال أشعة أنوارها بالقلب ، وهو المسمى عندهم بالتجلى .

وأما معارضات القصود : فهى أصعب ما على القوم . وفيه يظهر اضطرراهم إلى العلم فوق كل ضرورة . فإن الصادق يتحرى فى سلوكه كله أحبَّ الطرق إلى الله . فإنه سالك به و إليه . فيعترضه طريقان لايدرى أيهما أرضى لله وأحب إليه . فمنهم : من يُحَكِّمُ العلم بجهده استدلالاً . فإن عجز فتقليداً . فإن عجز عنهما سكن ينتظر ما يحكم له به القدر ، و يُخْلِي باطنه من المقاصد جملة .

ومنهم : من يُلقى الكل على شيخه . إن كان له شيخ .

ومنهم : من يلجأ إلى الاستخارة والدعاء . ثم ينتظر ما يجرى به القدر .

وأصحاب العزائم يبذلون وسعهم فى طلب الأرضَى علماً ومعرفة . فإن أعجزهم قنعوا بالظن الغالب . فإن تساوى عندهم الأمران ، قدموا أرجحهما مصلحة .

ولترجيح المصالح رتب متفاوتة . فتارة تترجح بعموم النفع . وتارة تترجح بزيادة الإيمان . وتارة تترجح بمخالفة النفس . وتارة تترجح باستجلاب مصلحة أخرى لا تحصل من غيرها . وتارة تترجح بأمنها من الخوف من مفسدة لا تؤمن فى غيرها .

فهذه خمس جهات من الترجيح . قَلَّ أن يعدم واحدة منها .

فإن أعوزه ذلك كله تخلَّى عن الخواطر جملة . وانتظر ما يحركه به محرك القدر . وافتقر إلى ربه ، افتقار مستنزل ما يرضيه و يحبه . فإذا جاءته الحركة استخار الله ، وافتقر إليه افتقاراً ثانياً ، خشية أن تكون تلك الحركة نفسية أو شيطانية ، لعدم العصمة فى حقه ، واستمرار المحنة بعدوه . مادام فى عالم الابتلاء والامتحان . ثم أقدم على الفعل .

فهذا نهاية ما فى مقدور الصادقين .

ولأهل الجهاد فى هذا من الهداية والكشف ما ليس لأهل المجاهدة . ولهذا قال الأوزعى وابن المبارك « إذا اختلف الناس فى شىء فانظروا ما عليه أهل الثغر » يعنى أهل الجهاد . فإن الله تعالى يقول (٢٩ : ٦٩ والذين جاهدوا فينا لَنَهدينَّهم سُبلنا . و إن الله لمع المحسنين) .

وأما اعتراضات الأحكام : فيجوز أن يريد بالأحكام : الأحكام الكونية . وهو أظهر ، وأن يريد بها الأحكام الدينية . فإن أرباب الأحوال يقع منهم اعترضات على الأحكام الجارية عليهم بخلاف ما يريدونه . فيحزنون عند إدراكهم لتلك الاعتراضات على ما صدر منهم من سوء الأدب . وتلك الاعتراضات هى إرادتهم خلاف ماجرى لهم به القدر . فيحزنون على عدم الموافقة ، و إرادة خلاف ما أريد بهم .

و إن كان المراد به : الأحكام الدينية : فإنهم تعرض لهم أحوال لا يمكنهم الجمع بينها و بين أحكام الأمر ـ كما تقدم ـ فلا يجدون بداً من القيام بأحكام الأمر . ولا بد أن يعرض لهم اعتراض خفى أو جلي ، بحسب انقطاعهم عن الحال بالأمر . فيحزنون لوجود هذه المعارضة . فإذا قاموا بأحكام الأمر ، ورأوا أن المصلحة فى حقهم ذلك ، وحمدوا عاقبته : حزنوا على تَسرُّعِهم على المعارضة . فالتسليم لداعى العلم واجب ، ومعارضة الحال من قبيل الارادات والعلل . فيحزن على نفيهما فيه . والله أعلم .

فصل

ومن منازل « إياك نعبد و إياك نستعين » منزلة « الخوف »

وهى من أجل منازل الطريق ، وأنفعها للقلب . وهى فرض على كل أحد . قال الله تعالى (٣ : ١٧٥ فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) وقال تعالى (٢ : ٤٠ فإياى فارهبون) وقال (٥ : ٤٤ فلا تخشوا الناس واخشون) ومدح

أهله فى كتابه وأثنى عليهم . فقال (٢٣ : ٥٧ ـ ٦١ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون ـ إلى قوله ـ أولئك يسارعون فى الخيرات وهم لها سابقون) وفى المسند والترمذى عن عائشة رضى الله عنها قالت : قلت « يا رسول الله ، قول الله (والذين يُؤْتون ما آتوا وقلوبهم وَجِلة) أهو الذى يزنى ، ويشرب الخمر ، ويسرق ؟ قال : لا ، يا ابنة الصديق . ولكنه الرجل يصوم ويصلى ويتصدق . ويخاف أن لا يُقبل منه » قال الحسن : عملوا والله بالطاعات . واجتهدوا فيها . وخافوا أن ترد عليهم . إن المؤمن جمع إحساناً وخشية ، والمنافق جمع إساءة وأمنا .

و« الوجل » و « الخوف » و « الخشية » و « الرهبة » ألفاظ متقاربة غير مترادفة . قال أبو القاسم الجنيد : الخوف توقع العقوبة على مجارى الانفاس.

وقيل : الخوف اضطراب القلب وحركته من تذكر المخوف .

وقيل : الخوف قوة العلم بمجارى الأحكام . وهذا سبب الخوف . لا أنه نفسه

وقيل : الخوف هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره .

و « الخشية » أخص من الخوف . فإن الخشية للعلماء بالله ، قال الله تعالى (٣٥ : ٢٨ إنما يخشى الله من عباده العلماء) فهى خوف مقرون بمعرفة . وقال النبى صلى الله عليه وسلم « إنى أتقاكم لله ، وأشدكم له خشية » .

فالخوف حركة . والخشية انجماع ، وانقباض وسكون . فإن الذى يرى العدو والسيل ونحو ذلك : له حالتان .

إحداهما : حركة للهرب منه ، وهى حالة الخوف .

والثانية : سكونه وقراره فى مكان لا يصل إليه فيه . وهى الخشية . ومنه : انخش الشىء ، والمضاعف والمعتل أخوان . كتقضى البازى وتقضض .

وأما « الرهبة » فهى الإمعان فى الهرب من المكروه . وهى ضد « الرغبة » التى هى سفر القلب فى طلب المرغوب فيه .

و بين الرهَبَ والهرب تناسب فى اللفظ والمعنى . يجمعهما الاشتقاق الأوسط الذى هو عقد تقاليب الكلمة على معنى جامع .

وأما «الوجل» فرجفان القلب ، وانصداعه لذكر من يخاف سلطانه وعقوبته ، أو لرؤيته .

وأما « الهيبة » : فخوف مقارن للتعظيم والإجلال ، وأكثر مايكون مع المحبة والمعرفة . والإجلال : تعظيم مقرون بالحب .

فالخوف لعامة المؤمنين . والخشية للعلماء العارفين . والهيبة للمحبين . والإجلال للمقربين . وعلى قدر العلم والمعرفة يكون الخوف والخشية . كما قال النبى صلى الله عليه وسلم « إنى لاعلمكم بالله . وأشدكم له خشية » وفى رواية « خوفا » وقال « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ، ولبكيتم كثيراً ، ولما تلذذتم بالنساء على الفرش ولخرجتم إلى الصُّعدات تجأرون إلى الله تعالى » .

فصاحب الخوف : يلتجىء إلى الهرب . والإمساك ، وصاحب الخشية : يلتجىء إلى الاعتصام بالعلم . ومَثَلهما مثل من لا علم له بالطب . ومثل الطبيب الحاذق ، فالأول يلتجىء إلى الحِمية والهرب . والطبيب يلتجىء إلى معرفته بالأدوية والأدواء .

قال أبو حفص : الخوف سوط الله ، يُقَوِّم به الشاردين عن بابه . وقال : الخوف سراج فى القلب . به يبصر ما فيه من الخير والشر . وكل أحد إذا خفته هربت منه إلا الله عز وجل . فإنك إذ خفته هربت إليه .

فالخائف هارب من ربه إلى ربه .

قال أبو سليمان : مافارق الخوف قلباً إلا خرب . وقال إبراهيم بن سفيان : إذا سكن الخوف القلوب أحرق مواضع الشهوات منها . وطرد الدنيا عنها . وقال ذو النون : الناس على الطريق ما لم يزل عنهم الخوف . فإذا زال عنهم الخوف ضلوا الطريق . وقال حاتم الاصم : لا تغتر بمكان صالح . فلا مكان أصلح من

الجنة ، ولقى فيها آدم مالقى . ولا تغتر بكثرة العبادة ، فإن إبليس بعد طول العبادة لقى ما لقى[(١)] . ولا تغتر بكثرة العلم ، فإن بلعام بن باعورا لقى مالقى وكان يعرف الاسم الأعظم[(٢)] ، ولاتغتر بلقاء الصالحين ورؤيتهم ، فلا شخص أصلح من النبي صلى الله عليه وسلم . ولم ينتفع بلقائه أعداؤه والمنافقون .

والخوف ليس مقصوداً لذاته . بل هو مقصود لغيره قصدَ الوسائل . ولهذا يزول بزوال المخوف ، فإن أهل الجنة لاخوف عليهم ولا هم يحزنون .

والخوف يتعلق بالأفعال . والمحبة تتعلق بالذات والصفات . ولهذا تتضاعف محبة المؤمنين لربهم إذا دخلوا دار النعيم . ولايلحقهم فيها خوف . ولهذا كانت منزلة المحبة ومقامها أعلى وأرفع من منزلة الخوف ومقامه .

والخوف المحمود الصادق : ما حال بين صاحبه و بين محارم الله عز وجل . فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط .

قال أبو عثمان : صِدقُ الخوف هو الورع عن الآثام ظاهراً و باطناً .

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ يقول : الخوف المحمود : ماحجزك عن محارم الله .

وقال صاحب المنازل :

« الخوف : هو الانخلاع من طمأنينة الأمن بمطالعة الخبر » .

يعنى الخروج عن سكون الأمن باستحضار ما أخبر الله به من الوعد والوعيد .

قال « وهو على ثلاث درجات . الدرجة الأولى : الخوف من العقوبة . وهو

---

(١) أين الدليل على هذا من الكتاب أو السنة ؟

(٢) ليس عندهم فى تلك القصص إلا الإسرائيليات ، التى تسللت إلى المسلمين فى ظلمات الغفلة ، فمهدت للصوفية التى هدمت العقائد وحطمت العقول . وجرت ماجرت من الطوام والخرافات والأوهام التى حرفت الكلم عن مواضعه ، وأبعدت عن المعانى القريبة من كلام الله .

الخوف الذى يصح به الإيمان . وهو خوف العامة . وهو يتولد من تصديق الوعيد، وذكر الجناية ، ومراقبة العاقبة » .

والخوف مسبوق بالشعور والعلم . فمحال خوف الإنسان مما لا شعور له به .

وله متعلقان . أحدهما : نفس المكروه المحذور وقوعه . والثانى : السبب والطريق المفضى إليه . فعلى قدر شعوره بإفضاء السبب إلى المخوف ، و بقدر المخوف: يكون خوفه . وما نقص من شعوره بأحد هذين نقص من خوفه بحسبه .

فمن لم يعتقد أن سبب كذا يفضى إلى محذور كذا : لم يخف من ذلك السبب . ومن اعتقد أنه يفضى إلى مكروه ما ، ولم يعرف قدره : لم يخف منه ذلك الخوف . فإذا عرف قدر المخوف ، وتيقن إفضاء السبب إليه : حصل له الخوف .

هذا معنى تولده من تصديق الوعيد ، وذكر الجناية ، ومراقبة العاقبة .

وفى مراقبة العاقبة : زيادة استحضار المخوف ، وجعله نصب عينه ، بحيث لاينساه . فإنه ــ و إن كان عالماً به ــ لكن نسيانه وعدم مراقبته يحول بين القلب و بين الخوف . فلذلك كان الخوف علامة صحة الإيمان . وترَحُّله من القلب علامة ترحل الإيمان منه . والله أعلم .

فصل

قال « الدرجة الثانية : خوف المكر فى جريان الأنفاس المستغرقة فى اليقظة ، المشوبة بالحلاوة » .

يريد : أن من حصلت له اليقظة بلا غفلة ، واستغرقت أنفاسه فيها : استحلى ذلك . فإنه لا أحلى من الحضور فى اليقظة . فإنه ينبغى أن يخاف المكرَ ، وأن يُسْلَب هذا الحضور ، واليقظة والحلاوة . فكم من مغبوط بحاله انعكس عليه الحال . ورجع من حسن المعاملة إلى قبيح الأعمال . فأصبح يُقَلِّب كَفَّيه و يضرب باليمين على الشمال ؟ بينما بَدْرُ أحواله مستنيراً فى ليالى التمام . إذ أصابه الكسوف فدخل

فى الظـلام . فبُدِّل بالأنس وحشة ، و بالحضور غيبة ، و بالإقبال إعراضاً ، و بالتقريب إبعادا ، و بالجمع تفرقة . كما قيل :

أحسنتَ ظنك بالأيام ، إذ حسنت ... ولم تخف سـوء ما يأتى به القدر[1]

وسالمتك الليالى . فاغتررت بهـا ... وعند صفو الليالى يحدث الـكدر

قال « الدرجة الثالثة [درجة الخاصة] وليس فى مقام أهل الخصوص وحشة الخوف ، إلا هيبة الجلال . وهى أقصى درجة يشار إليها فى غاية الخوف » .

يعنى أن وحشة الخوف إنما تـكون مع الانقطاع والإساءة ، وأهل الخصوص أهل وصول إلى الله وقرب منه . فليس خوفهم خوف وحشة ، كخوف المسيئين المنقطعين . لأن الله عز وجل معهم بصفة الإقبال عليهم ، والمحبة لهم . وهذا بخلاف هيبة الجلال . فإنها متعلقة بذاته وصفاته . وكلما كان عبده به أعرف و إليه أقرب ، كانت هيبته و إجلاله فى قلبه أعظم . وهى أعلى من درجة خوف العامة .

قال « وهى هيبة تعارض المكاشف أوقات المناجاة . وتصون المسامر أحيان المسامرة . و تَفْصِم المعاين بصدمة العزة » .

يعنى أن أكثر ما تـكون « الهيبة » أوقات المناجاة . وهو وقت تملق العبد ر به . وتضرعه بين يديه ، واستعطافه ، والثناء عليه بآلائه وأسمائه وأوصافه . أو مناجاته بكلامه . هذا هو مراد القوم بالمناجاة .

وهذه المناجاة : توجب كشف الغطاء بين القلب و بين الرب . ورفع الحجاب المانع من مكافحة القلب لأنوار أسمائه وصفاته ، وتجليها عليه . فتعارضه «الهيبة» فى خلال هذه الأوقات . فيفيض من عنان مناجاته بحسب قوة واردها .

---

(١) سبحان الله أن يأتى قدره بالسوء . فإنه سبحانه يتجلى على عبـاده فى كل شئونهم ويدبرهم فى كل أمورهم بأسمائه الحسنى . وإنمـا يكون السوء من سوء العبد وإساءته فى استعمال نعمة ربه ، وسوء وضعها فى غير موضعها وعلى غير وجهها الذى أحبه ربه له منها .

وأما صون المسامر أحيان المسامرة : فالمسامرة عندهم : أخص من المناجاة . وهى مخاطبة القلب للرب خطاب المحب لمحبوبه . فإن لم يقارنها هيبة جلاله ، أخذت به فى الانبساط والإدلال . فتجىء الهيبة صائنة للمسامر فى مسامرته عن انخلاعه من أدب العبودية .

وأما فصمها المعاين بصدمة العزة : فإن «الفصم» هو القطع[1] أى تكاد تقتله وتمحقه بصدمة عزة الربوبية بمعانيها الثلاثة . وهى : عزة الامتناع ، وعزة القوة والشدة ، وعزة السلطان والقهر ، فإذا صدمت المعاين كادت تفصمه وتمحق أثره . إذ لا يقوم لعزة الربوبية شىء . والله أعلم .

فصل

القلب فى سيره إلى الله عز وجل بمنزلة الطائر . فالمحبة رأسه . والخوف والرجاء جناحاه . فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران . ومتى قطع الرأس مات الطائر . ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر . ولكن السلف استحبوا أن يقوى فى الصحة جناح الخوف على جناح الرجاء ، وعند الخروج من الدنيا يقوى جناح الرجاء على جناح الخوف . هذه طريقة أبى سليمان وغيره .

قال : ينبغى للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف . فإن غلب عليه الرجاء فسد .

وقال غيره : أكمل الأحوال : اعتدال الرجاء والخوف ، وغلبة الحب . فالمحبة هى المركب . والرجاء حادٍ . والخوف سائق . والله الموصل بمنه وكرمه .

فصل

ومن منازل « إياك نعبد وإياك نستعين » منزلة « الاشفاق »

قال الله تعالى (٢١ : ٤٩ الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون)

---

(١) الفصم ـ بالفاء ـ كسر الشىء أو قطعه بلا فصل ولا بينونة ـ وهو المناسب هنا . فإن أبانه ، يقال : قصمه ـ بالقاف ـ ولفظ المتن المطبوع بالقاف وهو غلط ، إلا إذا أريد معنى الفصم بالفاء .

وقال تعالى (٥٢ : ٢٥ ـ ٢٧ وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون * قالوا : إنا كنا قبلُ فى أهلنا مشفقين * فمنَّ الله علينا . ووقانا عذاب السموم) .

« الاشفاق » رقة الخوف . وهو خوف برحمة من الخائف لمن يخاف عليه . فنسبته إلى الخوف نسبة الرأفة إلى الرحمة . فإنها ألطف الرحمة وأرقها . ولهذا قال صاحب المنازل :

« الاشفاق : دوام الحذر ، مقرونا بالترحم . وهو على ثلاث درجات . الأولى : إشفاق على النفس أن تجمح إلى العناد » .

أى تسرع وتذهب إلى طريق الهوى والعصيان ، ومعاندة العبودية .

« و إشفاق على العمل : أن يصير إلى الضياع » .

أى يخاف على عمله أن يكون من الأعمال التى قال الله فيها (٢٥ : ٢٣ وقدمنا إلى ماعملوا من عمل فجعلناه هَباء منثوراً) وهى الأعمال التى كانت لغير الله ، وعلى غير أمره وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . و يخاف أيضا أن يضيع عمله فى المستقبل ، إما بتركه . و إما بمعاصى تفرقه وتحبطه . فيذهب ضائعاً . و يكون حال صاحبه كالحال التى قال الله تعالى عن أصحابها (٢ : ٢٦٥ أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار . له فيها من كل الثمرات ـ الآية) قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه للصحابة رضى الله عنهم « فيمن ترون هذه الآية نزلت ؟ فقالوا : الله أعلم . فغضب عمر ، وقال : قولوا : نعلم ، أو لا نعلم . فقال ابن عباس : فى نفسى منها شىء يا أمير المؤمنين . قال : يا ابن أخى قل. ولا تَحْقِرَنَّ نفسك . قال ابن عباس : ضُربت مثلا لعمل . قال عمر : أى عمل ؟ قال ابن عباس : لعمل . قال عمر : لرجل غنى يعمل بطاعة الله . فبعث الله إليه الشيطان . فعمل بالمعاصى حتى أغرق جميع أعماله » .

قال « و إشفاق على الخليقة لمعرفة معاذيرها » .

هذا قد يوهم نوع تناقض . فإنه كيف يشفق مع معرفة العذر ؟ وليس بمتناقض .

فإن الإشفاق ـ كما تقدم ـ خوف مقرون برحمة . فيشفق عليهم من جهة مخالفة الأمر والنهى ، مع نوع رحمة ، بملاحظة جريان القدر عليهم .

قال « الدرجة الثانية : إشفاق على الوقت : أن يَشو به تفرق » .

أى يحذر على وقته : أن يخالطه مايفرقه عن الحضور مع الله عز وجل .

قال « وعلى القلب : أن يزاحمه عارض » .

والعارض المزاحم : إما فترة ، و إما شبهة ، و إما شهوة . وكل سبب يعوق السالك .

قال « وعلى اليقين : أن يداخله سبب »

هو الطمأنينة إلى من بيده الأسباب كلها ؛ فمتى داخل يقينه ركون إلى سبب وتعلق به ، واطمأن إليه : قدح ذلك فى يقينه . وليس المراد : قطع الأسباب عن أن تكون أسباباً ، والإعراض عنها فإن هذا زندقة وكفر ومحال . فإن الرسول سبب فى حصول الهداية والإيمان . والأعمال الصالحة سبب لحصول النجاة ودخول الجنة . والكفر سبب لدخول النار . والأسباب المشاهدة أسباب لمسبباتها ولكن الذى يريد أن يحذر منه : إضافة يقينه إلى سبب غير الله ، ولا يتعلق بالأسباب بل يفنى بالمسبب عنها .

والشيخ ممن يبالغ فى إنكار الأسباب . ولا يرى وراء الفناء فى توحيد الربوبية غاية . وكلامه فى الدرجة الثالثة فى معظم الأبواب : يرجع إلى هذين الأصلين . وقد عرفت مافيهما ، وأن الصواب خلافهما . وهو إثبات الأسباب والقوى . وأن الفناء فى توحيد الربوبية(١) ليس هو غاية الطريق . بل فوقه ماهو أجل منه وأعلى وأشرف .

---

(١) ليس توحيد الصوفية هو توحيد الربوبية الذى جاء فى القرآن تقرير المشركين به . وإنما عندهم : أن ربهم هو الحلية ، أو النواة الأولى والمادة التى نبت منها كل الوجود . كما يقول ابن عربى « وما الكون إلا ولد . والله والده » وهذه هى الوحدة التى يقوم عليها دين الصوفية المنحرفون عن صراط الله المستقيم .

ومن هاتين القاعدتين عرض فى كتابه من الأمور التى أنكرت عليه ماعرض

قال « الدرجة الثالثة : اشفاق يصون سعيه عن العُجْب . و يكف صاحبه عن مخاصمة الخلق . و يحمل المريد على حفظ الجدّ »

الأول : يتعلق بالعمل . والثانى : بالُخلُق . والثالث : بالإرادة . وكل منها له مايفسده .

فالعجب : يفسد العمل كما يفسده الرياء . فيشفق على سعيه من هذا المفسد شفقة تصونه عنه .

والمخاصمة للخلق : مفسدة للخُلُق . فيشفق على خُلقه من هذا المفسد شفقة تصونه عنه .

والإرادة : يفسدها عدم الجد . وهو الهزل واللعب ، فيشفق على إرادته مما يفسدها فإذا صح له عمله وخلقه وإرادته : استقام سلوكه وقلبه وحاله . والله المستعان .

فصل

ومن منازل « إياكَ نعبد و إياكَ نستعين » منزلة « الخشوع »

قال الله تعالى (٥٧ : ١٦ ألم يَأْنِ للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ، وما نزل من الحق ؟) قال ابن مسعود رضى الله عنه « ما كان بين إسلامنا و بين أن عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين » وقال ابن عباس « إن الله استبطأ قلوب المؤمنين . فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن » وقال تعالى (٢٣ : ١ قد أفلح المؤمنون . الذين هم فى صلاتهم خاشعون) .

و « الخشوع » فى أصل اللغة : الانخفاض ، والذل ، والسكون . قال تعالى (٢٠ : ١٠٨ وخشعت الأصوات للرحمن) أى سكنت ، وذلت ، وخضعت . ومنه وصف الأرض بالخشوع . وهو يبسها ، وانخفاضها ، وعدم ارتفاعها بالرى والنبات . قال تعالى (٤١ : ٣٩ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة . فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وَرَبَتْ) .

و « الخشوع » قيام القلب بين يدى الرب بالخضوع والذل ، والجمعية عليه .

وقيل « الخشوع » الانقياد للحق . وهذا من موجبات الخشوع .

فمن علاماته : أن العبد إذا خولف وَرُدَّ عليه بالحق ، استقبل ذلك بالقبول والانقياد .

وقيل « الخشوع » خمود نيران الشهوة . وسكون دخان الصدور . و إشراق نور التعظيم فى القلب .

وقال الجنيد : الخشوع تذلل القلوب لعلام الغيوب .

وأجمع العارفون على أن « الخشوع » محله القلب . وثمرته على الجوارح . وهى تظهره . و « رأى النبى صلى الله عليه وسلم رجلا يعبث بلحيته فى الصلاة ، فقال : لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه » وقال النبى صلى الله عليه وسلم « التقوى هٰهنا — وأشار إلى صدره — ثلاث مرات » وقال بعض العارفين : حسن أدب الظاهر عنوان أدب الباطن . ورأى بعضهم رجلا خاشع المنكبين والبدن . فقال : يا فلان ، الخشوع هٰهنا . وأشار إلى صدره . لا هٰهنا . وأشار إلى منكبيه .

وكان بعض الصحابة — رضى الله عنهم — وهو حذيفة ، يقول « إياكم وخشوع النفاق . فقيل له : وما خشوع النفاق ؟ قال : أن ترى الجَسَد خاشعاً والقلب ليس بخاشع » ورأى عمر بن الخطاب — رضى الله عنه — رجلاً طأطأ رقبته فى الصلاة . فقال « ياصاحب الرقبة ، ارفع رقبتك . ليس الخشوع فى الرقاب . إنما الخشوع فى القلوب » ورأت عائشة — رضى الله عنها — « شبابا يمشون و يتماوتون فى مشيتهم ، فقالت لأصحابها : من هؤلاء ؟ فقالوا : نُسَّاك . فقالت : كان عمر بن الخطاب إذا مشى أسرع . و إذا قال : أسمع . و إذا ضرب : أوجع . و إذا أطعم : أشبع . وكان هو الناسك حقاً » وقال الفضيل بن عياض : كان يُكرَه أن يُرى الرجل من الخشوع أكثر مما فى قلبه . وقال حذيفة رضى الله عنه « أول ماتفقدون من دينكم الخشوع . وآخر ما تفقدون من دينكم الصلاة . ورب مصل لاخير فيه . و يوشك

أن تدخل مسجد الجماعة فلا ترى فيهم خاشعاً » وقال سهل : من خشع قلبه لم يقرب منه الشيطان .

فصل

قال صاحب المنازل :

« الخشوع : خمود النفس . وهمود الطباع لمتعاظم ، أو مفزع » .

يعنى : انقباض النفس والطبع . وهو خمود قوى النفس عن الانبساط لمن له فى القلوب عظمة ومهابة . أو لما يفزع منه القلب .

والحق : أن « الخشوع » معنى يلتئم من التعظيم ، والمحبة ، والذل والانكسار .

قال « وهو على ثلاث درجات . الدرجة الأولى : التذلل للأمر . والاستسلام للحكم ، والاتضاع لنظر الحق » .

التذلل للأمر : تلقيه بذِلَّة القبول والانقياد والامتثال . ومواطأة الظاهر الباطن ، مع إظهار الضعف ، والافتقار إلى الهداية للأمر قبل الفعل ، والإعانة عليه حال الفعل ، وقبوله بعد الفعل .

وأما الاستسلام للحكم : فيجوز أن يريد به : الحكم الدينى الشرعى . فيكون معناه : عدم معارضته برأى أو شهوة . ويجوز أن يريد به : الاستسلام للحكم القدرى . وهو عدم تلقيه بالتسخط والكراهة والاعتراض .

والحق : أن «الخشوع» هو الاستسلام للحكمين . وهو الانقياد بالمسكنة والذل لأمر الله وقضائه .

وأما الاتضاع لنظر الحق : فهو اتضاع القلب والجوارح ، وانكسارها لنظر الرب إليها ، واطلاعه على تفاصيل ما فى القلب والجوارح . وهذا أحد التأويلين فى قوله تعالى (٥٥ : ٤٦ ولمن خاف مقام ربه جنتان) وقوله (٧٩ : ٤٠ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى) وهو مقام الرب على عبده بالاطلاع والقدرة والربوبية .

لخوفه من هذا المقام : يوجب له خشوع القلب لا محالة . وكلما كان أشد استحضاراً له كان أشد خشوعاً . وإنما يفارق القلب إذا غَفَل عن اطلاع الله عليه ، ونظره إليه .

والتأويل الثانى : أنه مقام العبد بين يدى ربه عند لقائه .

فعلى الأول : يكون من باب إضافة المصدر إلى الفاعل .

وعلى الثانى : ــ وهو أليق بالآية ــ يكون من باب إضافة المصدر إلى المخوف . والله أعلم .

فصل

قال « الدرجة الثانية : ترقب آفات النفس والعمل . ورؤية فضل كل ذى فضل عليك . وتنسم نسيم الفناء » .

يريد : انتظار ظهور نقائص نفسك وعملك وعيوبهما لك . فإنه يجعل القلب خاشعاً لا محالة ، لمطالعة عيوب نفسه وأعماله ونقائصهما : من الكبر ، والعجب ، والرياء ، وضعف الصدق ، وقلة اليقين ، وتشتت النية ، وعدم تجرد الباعث من الهوى النفسانى ، وعدم إيقاع العمل على الوجه الذى ترضاه لربك ، وغير ذلك من عيوب النفس ، ومفسدات الأعمال .

وأما رؤية فضل كل ذى فضل عليك:فهو أن تراعى حقوق الناس فتؤديها . ولا ترى أن مافعلوه من حقوقك عليهم . فلا تعاوضهم عليها . فإن هذا من رعونات النفس وحماقاتها . ولاتطالبهم بحقوق نفسك . وتعترف بفضل ذى الفضل منهم . وتنسى فضل نفسك .

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية ــ قدس الله روحه ــ يقول : العارف لايرى له على أحد حقاً . ولا يشهد له على غيره فضلا . ولذلك لايعاتب ، ولا يطالب ، ولا يضارب .

وأما تنسم نسيم الفناء : فلما كان الفناء عنده غاية ، جعل هذه الدرجة كالنسيم

لرقته . وعبر عنها بالنسيم للطف موقعه من الروح ، وشدة تشبثها به . ولا ريب أن الخشوع سبب موصل إلى الفناء ، فاضله ومفضوله .

فصــل

قال « الدرجة الثالثة : حفظ الحرمة عند المـكاشفة . وتصفية الوقت من مراءاة الخلق . وتجريد رؤية الفضل » .

أما حفظ الحرمة عند المـكاشفة : فهو ضبط النفس بالذل والانكسار ، عن البسط والإدلال ، الذى تقتضيه المـكاشفة . فإن المـكاشفة توجب بسطاً . ويخاف منه شطح ، إن لم يصحبه خشوع يحفظ الحرمة .

وأما تصفية الوقت من مراءاة الخلق : فلا يريد به أنه يصفى وقته عن الرياء . فإن أصحاب هذه الدرجة أجل قدراً وأعلى من ذلك .

وإنما المراد : أنه يُخفى أحواله عن الخلق جهده ، كخشوعه وذله وانكساره ، لئلا يراها الناس فيعجبه اطلاعهم عليها ، ورؤيتهم لها . فيفسد عليه وقته وقلبه وحاله مع الله . وكم قد اقتطع فى هذه المفازة من سالك ؟ والمعصوم من عصمه الله . فلا شىء أنفع للصادق من التحقق بالمسكنة والفاقة والذل ، وأنه لاشىء . وأنه ممن لم يصح له بعدُ الإسلام حتى يدّعى الشرف فيه .

ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية ــ قدس الله روحه ــ من ذلك أمراً لم أشاهده من غيره . وكان يقول كثيراً : مالى شىء ، ولا منى شىء ، ولا فيَّ شىء . وكان كثيراً ما يتمثل بهذا البيت :

أنا المُـكَدّى وابن المـكدى وهكذا كان أبى وجدى

وكان إذا أثنى عليه فى وجهه يقول : والله إنى إلى الآن أجدد إسلامى كل وقت . وما أسلمت بعد إسلاماً جيداً .

وبعث إلىَّ فى آخر عمره قاعدة فى التفسير بخطه . وعلى ظهرها أبيات بخطه من نظمه :

أنا الفقـير إلى رب البريات ... أنا المسكين فى مجموع حالاتى
أنا الظلوم لنفسى . وهى ظالمتى ... والخـير إن يأتنـا من عنده يأتى
لا أسـتطيع لنفسى جلب منفعة ... ولا عن النفس لى دفع المضرات
وليس لى دونه مولًى يُدَبِّرنى ... ولا شفيع إذا حاطت خطيئاتى
إلا بإذن من الرحمن خالقنـا ... إلى الشفيع .كما قد جاء فى الآيات
ولست أملك شيئاً دونه أبداً ... ولا شريك أنا فى بعض ذرات
ولا ظهـير له ، كى يسـتعين به ... كما يكون لأرباب الولايات
والفقرلى وصف ذات . لازم أبدا ... كما الغنى أبدا وصف له ذاتى
وهـذه الحال حال الخلق أجمهم ... وكلهم عنـده عبدٌ له آتى
فمن بغى مطلبا من غير خالقه ... فهو الجهول الظلوم المشرك العاتى
والحمد لله مِلء الـكون أجمعه ... ما كان منه . وما من بعد قديأتى

وأما تجريد رؤية الفضل : فهو أن لا يرى الفضل والإحسان إلا من الله . فهو المانّ به بلا سبب منك ، ولا شفيع لك تقدم إليه بالشفاعة . ولا وسيلة سبقت منك توسلتَ بها إلى إحسانه .

والتجريد : هو تخليص شهود الفضل لوليه ، حتى لاينسبه إلى غيره . و إلا فهو فى نفسه مجرد عن النسبة إلى سواه . و إنما الشأن فى تجريده فى الشهود . ليطابق الشهود الحق فى نفس الأمر . والله أعلم .

فصـل

فإن قيل : ماتقولون فى صلاة من عدم الخشوع : هل يعتد بها أم لا ؟

قيل : أما الاعتداد بها فى الثواب : فلا يعتد له فيها . إلا بما عَقَل فيه منها . وخشع فيه لربه .

قال ابن عباس رضى الله عنهما « ليس لك من صلاتك إلا ماعقلت منها » .

وفى المسند مرفوعاً « إن العبد ليصلى الصلاة ، ولم يكتب له إلا نصفها ، أو ثلثها ، أو ربعها ـ حتى بلغ عشرها » .

وقد علق الله فلاح المصلين بالخشوع فى صلاتهم . فدل على أن من لم يخشع فليس من أهل الفلاح . ولو اعْتُدَّ له بها ثواباً لكان من المفلحين .

وأما الاعتداد بها فى أحكام الدنيا ، وسقوط القضاء : فإن غلب عليها الخشوع وتعقلها اعتد بها إجماعاً . وكانت السنن ، والأذكار عقيبها جوابر ومكملات لنقصها .

وإن غلب عليه عدم الخشوع فيها . وعدم تعقلها ، فقد اختلف الفقهاء فى وجوب إعادتها . فأوجبها أبو عبد الله بن حامد من أصحاب أحمد ، وأبو حامد الغزالى فى إحيائه ، لافى وسيطه و بسيطه .

وأحتجوا بأنها صلاة لا يثاب عليها ، ولم يضمن له فيها الفلاح ، فلم تبرأ ذمته منها ، و يسقط القضاء عنه كصلاة المرائى .

قالوا : ولأن الخشوع والعقل : روح الصلاة ومقصودها ولُبُّها ، فكيف يعتد بصلاة فقدت روحها ولبها ، و بقيت صورتها وظاهرها ؟ .

قالوا : ولو ترك العبد واجباً من واجباتها عمداً لأبطلها تركه . وغايته : أن يكون بعضاً من أبعاضها بمنزلة فوات عضو من أعضاء العبد المعتق فى الكفارة ، فكيف إذا عدمت روحها ، ولبها ومقصودها ؟ وصارت بمنزلة العبد الميت . إذا لم يعتد بالعبد المقطوع اليد . يعتقه تقرباً إلى الله تعالى فى كفارة واجبة . فكيف يعتد بالعبد الميت .

وقال بعض السلف : الصلاة كجارية تهدى إلى ملك من الملوك . فما الظن بمن يهدى إليه جارية شَلاَّء ، أو عوراء ، أو عمياء ، أو مقطوعة اليد والرجل ، أو مريضة ، أو دميمة ، أو قبيحة ، حتى يُهدى إليه جارية ميتة بلا روح وجارية قبيحة . فكيف بالصلاة التى يهديها العبد ، و يتقرب بها إلى ربه تعالى ؟ والله

طيب لا يقبل إلا طيباً . وليس من العمل الطيب : صلاة لاروح فيها . كما أنه ليس من العتق الطيب عتق عبد لا روح فيه .

قالوا : وتعطيل القلب عن عبودية الحضور والخشوع : تعطيل لملك الأعضاء عن عبوديته ، وعزل له عنها . فماذا تغنى طاعة الرعية وعبوديتها ، وقد عزل ملكها وتعطل ؟ .

قالوا : والأعضاء تابعة للقلب ، تصلح بصلاحه ، وتفسد بفساده . فإذا لم يكن قائماً بعبوديته ، فالأعضاء أولى أن لا يعتدّ بعبوديتها ، و إذا فسدت عبوديته — بالغفلة والوسواس — فأنَّى تصح عبودية رعيته وجنده ومادتهم منه ، وعن أمره يصدرون ، و به يأتمرون ؟ .

قالوا : وفى الترمذى وغيره ، مرفوعاً إلى النبى صلى الله عليه وسلم « إن الله لا يستجيب الدعاء من قلب غافل » وهذا إما خاص بدعاء العبادة ، و إما عام له ولدعاء المسألة ، و إما خاص بدعاء المسألة الذى هو أبعد . فهو تنبيه على أنه لا يقبل دعاء العبادة الذى هو خاص حقه من قلب غافل .

قالوا : ولأن عبودية من غلبت عليه الغفلة ، والسهو فى الغالب لا تكون مصاحبة للإخلاص . فإن الإخلاص قصد المعبود وحده بالتعبد . والغافل لا قصد له . فلا عبودية له .

قالوا : وقد قال الله تعالى (١٧ : ٤ ، ٥ فويل للمصلين . الذين هم عن صلاتهم ساهون) وليس السهو عنها تركها ، و إلا لم يكونوا مصلين ، و إنما هو السهو عن واجبها : إما عن الوقت ، كما قال ابن مسعود وغيره . و إما عن الحضور . والخشوع ، والصواب : أنه يعمّ النوعين . فإنه سبحانه أثبت لهم صلاة . ووصفهم بالسهو عنها فهو السهو عن وقتها الواجب ، أو عن إخلاصها وحضورها الواجب . ولذلك وصفهم بالرياء . ولو كان السهو سهو ترك لما كان هناك رياء .

قالوا : ولو قدرنا أنه السهو عن واجب فقط ، فهو تنبيه على التوعد بالويل على سهو الإخلاص والحضور بطريق الأولى لوجوه :

أحدها : أن الوقت يسقط فى حال العذر . و ينتقل إلى بدله . والإخلاص والحضور لا يسقط بحال . ولا بدل له .

الثانى : أن واجب الوقت يسقط لتكميل مصلحة الحضور . فيجوز الجمع بين الصلاتين للشغل المانع من فعل إحداهما فى وقتها بلا قلب ، ولا حضور . كالمسافر . والمريض ، وذى الشغل الذى يحتاج معه إلى الجمع ، كما نص عليه أحمد وغيره .

فبالجملة : مصلحة الإخلاص والحضور ، وجمعية القلب على الله فى الصلاة : أرجح فى نظر الشارع من مصلحة سائر واجباتها . فكيف يظن به أنه يبطلها بترك تكبيرة واحدة ، أو اعتدال فى ركن ، أو ترك حرف ، أو شَدَّةٍ من القرآن ، أو ترك تسبيحة ، أو قول « سمع الله لمن حمده » أو قول « ربنا ولك الحمد » أو ذكر رسول الله — صلى الله عليه وسلم — بالصلاة عليه . ثم يصححها مع فوت لُبِّهَا ، ومقصودها الأعظم . وروحها وسرها .

فهذا ما احتجت به هذه الطائفة . وهى حجج — كما تراها — قوة وظهوراً .

قال أصحاب القول الآخر : قد ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم فى الصحيح أنه قال « إذا أذن المؤذن أدبر الشيطان ، وله ضراط حتى لا يسمع التأذين . فإذا قضى التأذين أقبل . فإذا ثُوِّب بالصلاة أدبر . فإذا قضى التثويب أقبل حتى يخطر بين المرء و بين نفسه ، فَيُذَكِّره ما لم يكن يذكر . و يقول : أذْكُر كذا ، أذكر كذا . لما لم يكن يذكر . حتى يَظَلَّ الرجل لا يدرى كم صلى . فإذا وجد ذلك أحدكم فليسجد سجدتين وهو جالس » .

قالوا : فأمره النبى صلى الله عليه وسلم فى هذه الصلاة التى قد أغفله الشيطان

فيها ، حتى لم يدر كم صلى : بأن يسجد سجدتى السهو . ولم يأمره بإعادتها ، ولو كانت باطلة ـ كما زعمتم ـ لأمره بإعادتها .

قالوا : وهذا هو السر فى سجدتى السهو ، ترغيما للشيطان فى وسوسته للعبد ، وكونه حال بينه و بين الحضور فى الصلاة . ولهذا سماها النبى صلى الله عليه وسلم « المرغمتين » وأمر من سها بهما ، ولم يُفَصِّل فى سهوه الذى صدر عنه موجب السجود بين القليل والكثير ، والغالب والمغلوب. وقال « لكل سهوسجدتان » ولم يستثن من ذلك السهو الغالب ، مع أنه الغالب .

قالوا : ولأن شرائع الإسلام على الأفعال الظاهرة . وأما حقائق الإيمان الباطنة : فتلك عليها شرائع الثواب والعقاب . فلله تعالى حكمان : حكم فى الدنيا على الشرائع الظاهرة وأعمال الجوارح . وحكم فى الآخرة على الظواهر والبواطن . ولهذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يقبل علانية المنافقين . و يَكِلُ أسرارهم إلى الله فيُنا كحون . و يرثون و يورثون ، و يعتد بصلاتهم فى أحكام الدنيا . فلا يكون حكمهم حكم تارك الصلاة ، إذ قد أتوا بصورتها الظاهرة ، وأحكام الثواب والعقاب . ليست إلى البشر . بل إلى الله . والله يتولاه فى الدار الآخرة .

قالوا : فنحن فى حكم شرائع الإسلام نحكم بصحة صلاة المنافق والمرائى ، مع أنه لا يسقط عنه العقاب ، ولا يحصل له الثواب فى الآخرة . فصلاة المسلم الغافل المبتلى بالوسواس وغفلة القلب عن كمال حضوره . أولى بالصحة .

نعم : لا يحصل مقصود هذه الصلاة من ثواب الله عاجلا ولا آجلا . فإن للصلاة مزيد ثواب عاجل فى القلب من قوة إيمانه ، واستنارته ، وانشراحه وانفساحه ووجود حلاوة العبادة ، والفرح والسرور ، واللذة التى تحصل لمن اجتمع همه وقلبه على الله ، وحضر قلبه بين يديه ، كما يحصل لمن قرّبه السلطان منه ، وخصه بمناجاته والإقبال عليه والله أعلى وأجل .

وكذلك مايحصل لهذا من الدرجات العلى فى الآخرة ، ومرافقة المقربين .

كل هذا يفوته بفوات الحضور والخضوع . و إن الرجلين ليكون مقامهما فى الصف واحداً . و بين صلاتيهما كما بين السماء والأرض . وليس كلامنا فى هذا كله .

فإن أردتم وجوب الإعادة : لتحصل هذه الثمرات والفوائد : فذاك إليه إن شاء أن يحصلها و إن شاء أن يفوتها على نفسه . و إن أردتم بوجوبها أنا نلزمه بها ونعاقبه على تركها . ونرتب عليه أحكام تارك الصلاة فلا .

وهذا القول الثانى أرجح القولين . والله أعلم .

تم الجزء الأول بحمد الله وحسن توفيقه . و يليه إن شاء الله الجزء الثانى . وأوله :

﴿ فصل ومن منازل « إياك نعبد و إياك نستعين » منزلة « الإخبات » ﴾

والحمد لله رب العالمين . وصلى الله وسلم و بارك على عبده ورسوله محمد خاتم المرسلين ، و إمام المتقين وعلى آله أجمعين . وجعلنا الله من آل هذا الرسول وحزبه المفلحين فى الدنيا والآخرة . وأوردنا حوض سنته فى الدنيا لنرد حوضه المورود يوم يقوم الناس لرب العالمين .

وكان الفراغ من طبعه وتصحيحه حسب الطاقة بمطبعة السنة المحمدية فى اليوم الحادى عشر من شهر جمادى الآخرة سنة ١٣٧٥ هجرية . الموافق ٢٨ من شهر يناير سنة ١٩٥٦ ميلادية .

فهرس

الجزء الأول من كتاب مدارج السالكين

مقدمة الناشر
٣ خطبة الكتاب
٥ هداية القرآن (كلام نفيس)
٧ اشتمال الفاتحة على المطالب العالية
١٢ إسناد النعمة لله دون الغضب
١٣ المغضوب عليهم والضالون
١٨ الصراط المستقيم
١٩ الصراط على الله وإلى الله . والفرق بين الحرفين
٢٢ هداية القرآن وضلال المعرضين عنها وهو من أحاسن الكلام
٢٣ إضافة الصراط إلى المنعم عليهم
٢٤ التوسل لقبول الدعاء
« فصل فى اشتمال الفاتحة على أنواع التوحيد الثلاثة
٢٥ توحيد العلم
٢٨ دلالة الحمد على توحيد الأسماء والصفات
« دلالة أسماء « الله والرب والرحمن والرحيم والملك » على الأسماء والصفات
« حقيقة الأسماء فى أسمائه تعالى
٣٠ دلالة الأسماء الخمسة على الذات والصفات
٣٢ دلالة اسم الجلالة على الأسماء والصفات
٣٣ الاستواء على العرش
٣٤ ارتباط الخلق والأمر بأسمائه « الله والرب والرحمن »
٣٤ إيقاع الحمد على مضمون هذه الأسماء
٣٧ فصل فى مراتب الهداية الخاصة والعامة العشر
٣٧ المرتبة الأولى التكليم
٣٨ الثانية الوحى
٣٩ الثالثة إرسال الرسل
« الرابعة التحديث
٤١ الخامسة الافهام
٤٢ السادسة البيان العام
٤٣ السابعة البيان الخاص
« الثامنة الاسماع
٤٤ التاسعة الالهام
٤٥ درجات الالهام الثلاث ـ الدرجة الأولى منه وهى النوع الأول من الخطاب المسموع
٤٦ النوع الثانى منه
٤٧ النوع الثالث منه
٤٨ الدرجة الثانية
٤٩ الدرجة الثالثة من المرتبة التاسعة للالهام
٥٠ المرتبة العاشرة من مراتب الهداية هداية الرؤيا
٥١ فصل فى اشتمال الفاتحة على شفاء القلوب والأبدان
٥٧ علة الرقية وشرط نفعها
٥٨ فصل فى اشتمال الفاتحة على الرد على جميع المبطلين ، مجملا ومفصلا .

٥٩ فصل والمقرون بالرب الخ .
« الرد على أهل الوحدة
٦١ فصل الرد على المجوس والقدرية
٦٢ فصل فى تضمنها الرد على الجهمية وذلك من وجوه
٦٤ فصل فى تضمنها الرد على الجبرية
٦٥ فصل فى تضمنها الرد على القائلين بالموجب بالذات دون الاختيار والمشيئة .
٦٦ فصل فى تضمنها الرد على منكرى تعلق علمه تعالى بالجزئيات
٦٨ فصل فى تضمنها الرد على منكرى النبوات
٧٠ إثبات كلام الله تعالى
٧١ فصل فى تضمنها الرد على من قال بقدم العالم
٧٢ فصل فى تضمنها الرد على الرافضة
٧٤ اشتمال الفاتحة على معانى القرآن والعبادة والاستعانة
٧٨ فصل انقسام الناس على أصلى العبادة والاستعانة إلى أربعة أقسام .
« (القسم الأول) أهل العبادة والاستعانة بالله .
٧٨ القسم الثانى المعرضون الخ .
٨١ القسم الثالث من له نوع عبادة الخ
٨٢ القسم الرابع من شهد تفرد الله الخ
٨٣ فصل لا يكون العبد متحققا « بإياك نعبد » إلا بأصلين : متابعة الرسول والاخلاص .
٨٣ انقسام الناس بحسب هذين الأصلين إلى أربعة أقسام .
« أحدها أهل الاخلاص .
٨٤ الثانى من لا إخلاص له
٨٥ الثالث من أخلص .
« الرابع من أعماله على متابعة الأمر والنهى .
« فصل أهل مقام « إياك نعبد » أربعة أصناف
« فصل أصناف الناس فى طرق منفعة العبادة وحكمتها
« الصنف الأول نفاة الحكم والتعليل
٨٦ الصنف الثانى القدرية النفاة
٨٧ الصنف الثالث من زعموا أن فائدة العبادة الرياضة
٨٨ الصنف الرابع وهم المحمدية الابراهيمية
١٠٠ بناء « إياك نعبد » على أربع قواعد
١٠١ دعوة الرسل إلى التوحيد والعبادة
١٠٢ مقام العبودية وأهله
١٠٣ لزوم العبودية إلى الموت
١٠٥ فصل فى انقسام العبودية إلى عامة وخاصة
١٠٧ فصل فى مراتب « إياك نعبد » علماً وعملا
١٠٩ قواعد العبودية الخمس عشرة ، منقسمة على القلب واللسان والجوارح. فواجب القلب منها خمس

١٠٩ عبوديات اللسان الخمس
١١٤ العبوديات الخمس على الجوارح
١٢٢ فصل فى منازل « إياك نعبد » التى ينتقل القلب فيها منزلة منزلة فى سيره إلى الله تعالى
١٢٣ أولها : اليقظة . ثانيها : العزم . ثالثها : الفكرة
١٢٤ رابعها البصيرة ثلاث درجات
« الأولى البصيرة فى الأسماء والصفات
١٢٥ الثانية فى الأمر والنهى
١٢٦ الثالثة فى الوعد والوعيد
« طريقة صاحب المنازل وتقسيمه البصيرة إلى ثلاث درجات الأولى
١٢٧ الثانية
١٢٩ الثالثة
١٣١ منزلة القصد ، درجاته الثلاث ، اقتران العزم بالتوكل
١٢٣ ترتيب مقامات السالك وكون أولها وآخرها التوبة
١٣٥ المقامات والأحوال واللوامع والبوارق عند أرباب السلوك
١٣٦ السالكون بالنسبة للمقامات أبرار ومقربون
« ترتيب المنازل
١٤٠ منازل العبودية الواردة فى القرآن والسنة ثلاث مراتب
« أولها اليقظة
١٤١ الثانى مطالعة الجناية
١٤٣ الثالث الانتباه
١٤٤ مطالعة الجناية ثلاث أشياء
« الفكرة معناها وأقسامها
١٤٦ الفكرة فكرتان . فكرة تتعلق بالعلم وفكرة تتعلق بالطلب
١٤٧ التوحيد ومذهب الهروى فيه وأهل الوحدة
١٤٨ الفناء ـ تعريفه ، ودرجاته
١٤٩ الدرجة الأولى فناء المعرفة ، والثانية : شهود الطلب
١٤٩ الثالثة : الفناء عن شهود الفناء
١٥٣ أقسام الفناء عن وجود السوى ، وعن شهود السوى
١٥٨ الفناء عن وجود السوى له سببان أصل هذا الفناء الاستغراق فى توحيد الربوبية
١٦٠ مايعرض للسالك على طريق الفناء
١٦١ هلاك السالك ونجاته بالعلم
١٦٣ الفرق الطبيعى والفرق الشرعى
١٦٥ أضاليل المعطلة ودحضها
١٦٦ الدرجة الثالثة من درجات الفناء فناء الخواص
١٦٩ الرجوع إلى منازل « إياك نعبد وإياك نستعين »
« منزلة المحاسبة ولها ثلاثة أركان
١٧٠ الركن الأول المقايسة بين ما للعبد وما لله
١٧٣ الركن الثانى : التميز بين ما للعبد وما عليه

١٧٤ التعبد بالبدع
١٧٥ الركن الثالث: الرضا بالطاعة والتعيير بالمعصية
١٧٦ التعيير بالذنب ومفسدة الإدلال بالطاعة ، وفائدة الاعتبار والاستصلاح بالذنب
١٧٨ مقام التوبة وهى أول منازل السالكين وآخرها
١٧٩ حقيقة التوبة ، وتعريف التوفيق والخذلان
١٨٢ شرائط التوبة ثلاثة : الندم والإقلاع ، والاعتذار
١٨٤ حقائق التوبة وعلامة قبولها
١٨٧ إدلال أهل الطاعات ، واحتقار أهل المعاصى
١٨٨ أعذار الخليقة منها محمود ومذموم
١٩٠ ضلالة الاعتذار بالقدر ودحضها
١٩٤ تحبب الرب إلى عبده وابتعاد العبد وإعراضه
١٩٦ المعنى الثانى لأعذار الخليقة ، عذرهم بالقدر ومؤاخذتهم بالأمر
١٩٨ خطر الفناء فى توحيد الربوبية ومن ضل فيه
١٩٩ السير فى بحار القدر
٢٠٠ دفع القدر بالقدر
٢٠١ أسرار حقيقة التوبة ثلاثة
« عز التوبة والطاعة
« نسيان الجناية ، التوبة من التوبة
٢٠٤ لطائف أسرار التوبة ثلاثة أشياء
٢٠٤ أولها النظر إلى الجناية
٢٠٥ فوائد الاعتبار بالمعصية
٢٠٧ مراتب الذل والخضوع
٢٠٩ اقتضاء أسماء الله لمتعلقاتها .
« فرح الله بتوبة التائب
٢١٠ عناية الله بالنوع الإنسانى
٢١٣ اللجأ إلى الله يستمطر رحمته
٢١٤ مثل فرح الرب بتوبة العبد . حكمة الخلق والأمر . استحالة العبث
٢١٦ الطاعة التى تضحك الرب من عبده
٢١٧ إقامة الحجة على العبد بتبليغه الرسالة . وهو النظر الثانى
٢١٩ كيف تحق كلمة الكفر والضلال وكلمة العذاب
« النظر الثالث : النفس الأمارة
٢٢١ اللطيفة الثانية من لطائف أسرار التوبة : النظر إلى السيئة لا يبقى حسنة . سيد الاستغفار
٢٢٢ النظر الرابع : تدرج الشيطان فى الإغواء له سبع عقبات . الأولى : الكفر . والثانية : البدعة
٢٢٣ الثالثة : الكبائر
٢٢٤ العقبة الرابعة : الصغائر
« « الخامسة : المباحات
٢٢٥ « السادسة : الأعمال المرجوحة
« عقبة تسليط جند الشيطان .
٢٢٧ اللطيفة الثالثة من لطائف أسرار التوبة . مشاهدة الحكم لا حسن معها ولا قبح .

٢٢٧ مقاما الجمع والفرق .
٢٢٨ فرق الفرق . بطلان مذهب النفاة
٢٣٠ بطلان نفى التحسين والتقبيح .
« تصريح القرآن بحسن الأفعال وقبحها .
٢٣٣ الأدلة القرآنية على حسن الأفعال وقبحها لذاتها
٢٣٥ حل الطيبات وتحريم الخبائث من أعلام نبوة نبينا . ودليل على الحسن والقبح الذاتى
٢٣٧ تنزه الخالق عن الظلم والعبث والسدى وتحريمه للظلم ، دلائل على الحسن والقبح الذاتى
٢٣٨ عدم تسويته بين الصالح والطالح ، وأدلة توحيده دلائل على الحسن والقبح الذاتى
٢٤٠ أمثال القرآن فى صدقة المرابى المان والمخلص دليل على الحسن والقبح الذاتى .
٢٤٢ الفقه والطب مبنيان على التعليل والأسباب . المذاهب الثلاثة فى الأسباب والطبائع
٢٤٤ غلط السالكين فى الفرق الطبيعى والشرعى ، وضلالهم فى إسقاط الأوامر والنواهى
٢٤٦ أهل الفرق النفسى خير من أهل الجمع المسقط للفرق الشرعى
٢٤٧ من زعم سقوط الأمر والنهى عن الواصل إلى عين الجمع أو الفناء والاصطلام
٢٤٨ القيام بأمر الله خير من الفناء ومقام الجمع
« الترجيح بين تفرقة الأمر والجمعية
٢٥١ الفرق بين المشيئة والمحبة والرضاء
٢٥٣ شهود الجبرية والقدرية . الفرق بين المشيئة والمحبة
٢٥٤ تفسير «أعوذ برضاك من سخطك»
٢٥٦ رد قولهم : الرضاء بالقضاء
٢٥٧ توبة العامة ومفاسدها عند الخاصة
٢٥٨ مفاسد توبة العامة ومثال كون حسنات الأبرار سيئات المقربين
٢٥٩ ضلال من يحتقر كثرة الطاعات .
« ابن سبعين الزنديق .
٢٦١ مثل لفضل كثرة الطاعات على الفناء وشهود الحقيقة
٢٦٣ تولد وحدة الوجود من تعطيل الجهمية وفناء الصوفية .
٢٦٥ توبة الأوساط من استقلال المعصية واستكثار الطاعة .
٢٦٦ توبة الخواص من تضييع الوقت .
« لا وقوف فى الشريعة ولا الطبيعة
٢٦٨ التوبة من الغفلة عن مراد الحق وما دون الحق ومن رؤية علة التوبة .

٢٧٠ شهود العبودية من فضل الله ومنته أكمل من الفناء والغيبة عنه
٢٧٢ تأخير التوبة ذنب تجب التوبة منه .
« التوبة العامة حتى مما لا يعلم
٢٧٣ هل تصح التوبة من ذنب دون آخر ، أم تتوقف صحتها على التعميم؟
٢٧٦ الخلاف فى اشتراط عدم العود إلى الذنب فى صحة التوبة
٢٧٧ إحباط الأعمال والموازنة بين الحسنات والسيئات للترجيح .
٢٧٩ الأحوال الثلاثة للموازنة بين الأعمال .
٢٨٠ من عاد إلى الذنب بعد التوبة يعود إليه إثم ما تاب منه
٢٨٢ توبة العاجز عن الذنب
٢٨٣ التوبة من قريب وخطر الإصرار والتسويف
٢٨٦ توبة من العاجز : الندم .
» التوبة من الذنب المتوقفة على ارتكاب بعضه .
٢٨٧ التوبة من معصية تتوقف على الوقوع فى مثلها
٢٨٩ شروط التوبة أداء الحقوق والاستحلال فى الغيبة والقذف
٢٩١ استحلال التائب من إغتابه أو قذفه . وهل يرجع إلى درجته قبل الذنب ؟
٢٩٣ قد يعود إلى درجته وقد ينزل عنها وقد يعلو عنها . ومثال ذلك .
٢٩٤ تفضيل الطائع الذى لم يعص على التائب توبة نصوحا .
٢٩٧ وجوه ترجيح التائب المحسن على من لم يعص
٢٩٨ فرح الرب بالتوبة لما فيها من الذل والانكسار .
٣٠١ تبديل الحسنات سيئات
٣٠٦ حقيقة التوبة بحسب القرآن .
٣٠٧ التوبة المطلقة هى الدين كله والاستغفار المفرد والمقرون بها
٣٠٩ حقيقة التوبة النصوح
٣١٠ الفرق بين تكفير السيئات ومغفرة الذنوب
٣١٢ توبة العبد بين توبتين من الرب
٣١٤ مبدأ التوبة ومنتهاها
٣١٥ الصغائر والكبائر واللمم والمحقرات من الذنوب
٣١٦ خلاف السلف فى اللمم
٣١٨ تحقيق معنى الاستثناء المنقطع
٣٢٠ الأحاديث وأقوال السلف فى الكبائر
٣٢٤ ضلال من رجح قياسه أو ذوقه أو عقله أو تقليده أو سياسته على سنة الرسول صلى الله عليه وسلم
٣٢٦ التوحيد الصحيح يستلزم الطاعة
٣٢٨ الأحوال والصفات التى تكون معها الكبيرة صغيرة وبالعكس
٣٢٩ قوة الإيمان والعلم التى يسامح صاحبها بما لا يسامح به غيره

٣٣٢ رحمة قاتل المائة والبغى التى سقت الكلب محبة الله لأوليائه .
٣٣٤ مؤاخذة القربين ومسامحتهم بما لا يؤاخذ ويسامح به غيرهم
٣٣٥ ما يتاب منه اثنا عشر
« أولها : الكفر والحكم بمالم ينزل الله
٣٣٧ الكفر الأكبر خمسة أنواع : (١) التكذيب (٢) الإباء والاستكبار (٣) كفر الإعراض (٤) الشك (٥) النفاق
٣٣٨ الجحود نوعان : مطلق ومقيد
٣٣٩ الشرك نوعان : أكبر وأصغر
٣٤٠ الشفاعة وما هو منها شرك بالله
٣٤١ الشرك القديم والحديث
٣٤٤ الشرك الأصغر والشرك الفاشى فى الناس
٣٤٦ عبادة الموتى
٣٤٧ النفاق وأضرار المنافقين فى الدين
٣٤٩ إفسادهم للعلم والدين
٣٥١ وصفهم وضرب الأمثال لهم فى القرآن .
٣٥٢ تطبيق صفاتهم على آيات القرآن
٣٥٥ تعاقبهم وجزاؤهم
٣٥٨ خوف المؤمنين الصادقين أن يتلوثوا ببعض صفات النفاق
٣٥٩ الفسوق الذى يخرج عن الإسلام والذى لا يخرج عنه
٣٦٠ نبأ الفاسق ورواياته
٣٦٠ رد شبهة على القرآن من أسباب النزول .
٣٦١ فسق العمل وفسق الاعتقاد ، والتوبة من كل منهما
٣٦٣ شرط توبة القاذف وكذب الخطأ وكذب المخالفة لحكم الله وإن صدق
٣٦٥ توبة السارق المحدود ، وهل يشترط فيها ضمان المسروق ؟
٣٦٦ الترجيح بين أدلة الجمع بين الحد وضمان المسروق
٣٦٨ الإثم والعدوان ، لا سيما عدوان النظر .
٣٧٠ العدوان فى أكل الميتة
٣٧١ الفحشاء والمنكر
٣٧٢ القول على الله علم
« المحرم لذاته
٣٧٤ توبة من تعذر عليه أداء الحق
« قضاء الصلاة المتروكة بغير عذر
٣٧٥ حجج القائلين بقضاء الصلاة المتروكة عمداً والقائلين بعدمه
٣٨٣ قضاء رمضان وشرط وجوبه وكفارة تأخيره
٣٨٥ تأخير الصلاة فى الحرب كيوم الأحزاب
٣٨٧ التوبة من المعصية فى حقوق العباد التى تعذر ردها
٣٨٩ مبنى الشرائع على تحصيل المنافع وتعطيل المفاسد . الإذن اللفظى كالاذن العرفى .

٣٩٠ العوض المحرم يتصدق به أم يرد لمن أعطاه ؟
٣٩١ توبة الغاصب تعذر عليه الرد
٣٩٢ الذنوب التى لاتقبل التوبة منها
٣٩٣ قتل العمد
٣٩٤ غفران القتل والكبائر بالتوبة
٣٩٦ تأويلات النصوص العامة فى خلود العصاة فى النار
٣٩٧ التعادل والترجيح فى الخلق كالشرع
٣٩٨ حق المقتول على من قتل قصاصا
٣٩٩ مشاهد الناس فى المعصية وموقعها من نفوسهم. وهى ثلاثة عشر مشهداً
٤٠٠ الأول مشهد الحيوانية
٤٠١ القتل بالعين والسحر
٤٠٤ الثانى : مشهد رسوم الطبيعة ولوازم الخلقة
٤٠٤ الثالث : مشهد الجبرية
٤٠٥ الرابع : مشهد القدرية النفاة
٤٠٦ الخامس : مشهد الحكمة
٤٠٨ حكمة تقدير المعاصى، وكونها بقدر الله ومشيئته
٤١٠ الجبرية والقدرية ومذهبهما
« السادس : مشهد التوحيد
٤١١ توحيد الربوبية يوصل إلى توحيد الإلهية
٤١٣ السابع : مشهد التوفيق والخذلان
٤١٤ التوفيق والتوحيد
٤١٥ مذهب القدرية والجبرية وتوسط أهل السنة بينهما
٤١٧ الثامن : مشهد الأسماء والصفات
٤١٩ لوازم الأسماء الحسنى واقتضاؤها وآثارها . سريان الأسماء والصفات فى الخلق والأمر
٤٢٠ عبادة الله بجميع أسمائه وصفاته
« الأسباب مع المسببات
٤٢١ التاسع : مشهد زيادة الايمان وتعدد شواهده
٤٢٤ أثر الذنوب فى النفس وشهودها
٤٢٦ العاشر : مشهد الرحمة
٤٢٧ الحادى عشر : مشهد العجز والضعف
٤٢٨ الثانى عشر : مشهد الذل والانكسار
٤٣٠ الثالث عشر : مشهد العبودية والمحبة والشوق الخ
٤٣٣ منزل التوبة جامع لكل منازل الإسلام . منزل الإنابة .
٤٣٤ أنواع الإنابة ، أخذ الله العهد على العباد كافة
٤٣٦ الرجوع إلى الله إصلاحا يستقيم بثلاثة أشياء . والرجوع إليه عهدا كذلك
٤٣٧ الاطمئنان على مجاهدة النفس علامات الإنابة . الخائف على غيره الراجى لنفسه غير منيب
٤٣٨ المسافة بين العمل والقلب وبين القلب والرب . الرجوع إلى الله حالا
٤٤٠ منزل التذكر طلب . والتفكر وجود

٤٤٢ الناس ثلاثة بحسب تأثير الآيات المقروءة والآيات المشهودة فى قلوبهم
٤٤٤ أبنية التذكر ثلاثة : الانتفاع ، والاستبصار ، والظفر .
٤٤٥ تفسير الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالأحسن
٤٤٧ الاستبصار بثلاثة أشياء
٤٤٩ إجتناب ثمرة الفكر بثلاثة أشياء
٤٥١ فوائد تدبر القرآن والتأمل فى معانيه
٤٥٢ كليات معانى القرآن ومقاصده
٤٥٣ آثار مفسدات القلب الخمسة .
« أولها خلطة الناس ومعاشرتهم .
٤٥٦ ثانيها : ركوب بحر التمنى
٤٥٧ ثالثها : التعلق بغير الله تعالى
٤٥٨ رابعها : الطعام
٤٥٩ خامسها كثرة النوم
٤٦٠ منزلة الاعتصام
٤٦٣ الاعتصام بالله ودرجاته اعتصام العامة
٤٦٤ اعتصام الخاصة
٤٦٥ قطع العلائق عن الخلق
٤٦٦ اعتصامهم بشهود الحق والفناء فيه
٤٦٨ الفناء العالى والمتوسط
٤٦٩ منزلة الفرار إلى الله
٤٧٠ الجهل بالعلم والعمل
« الخروج من الكسل إلى ضده ومن الضيق إلى السعة
٤٧١ فرار الخاصة من الخبر إلى الشهود
٤٧٢ علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين
٤٧٣ رسوم العبادات مرادة كأرواحها
٤٧٤ الفرار من حظوظ النفس إلى الله
٤٧٥ فرار خاصة الخاصة إلى الفناء المحض
« منزلة الرياضة
٤٧٦ رياضة الخاصة
٤٧٧ رياضة خاصة الخاصة
٤٧٨ التفرقة والجمع كل منهما قسمان
٤٧٩ ترك المعارضة والمعاوضة
٤٨١ منزلة السماع
٤٨٣ السماع الذى مدحه الله تعالى
٤٨٤ سماع القبول والإجابة
« سماع خاصة الخاصة . سماع القرآن .
« سماع الشعر والقصائد
٤٨٦ القسم الثانى من السماع ما يبغضه الله ومنه الشعر والغناء
٤٨٧ أدلة مستحلى السماع من الشعر والرجز والغناء
٤٩١ رد استدلالهم على حل السماع والتعبد به
٤٩٣ غناء الجاريتين وسماع النبى (ص) وعائشة لهما وإنكار الصديق ذلك
٤٩٤ فصل النزاع بمسألة السماع بثلاث قواعد . الأولى تحكيم الحال والذوق
٤٩٦ تحكيم الوحى فى الأحوال والأذواق وكون المفاسد علة التحريم
٤٩٧ محاكمة السماع إلى عبوديتى السراء والضراء . الصبر والشكر
٤٩٩ منافاة النوح والغناء للشكر والصبر أثر فشو السماع فى الأمم

٥٠١ درجات سماع العامة ، إجابة الوعد والوعيد ومشاهدة المنة .
٥٠٣ سماع الخاصة بثلاثة أشياء
٥٠٤ سماع خاصة الخاصة
٥٠٥ الحزن ليس محمودا
« منزلة الحزن فى الدين وهو نوعان
٥٠٩ كون الخاصة ليسوا من مقام الحزن فى شىء
٥١١ منزلة الخوف
٥١٢ أثر الخوف وتعريفه . والفرق بينه وبين الخشية والرهبة والوجل
٥١٤ درجات الخوف ثلاثة
٥١٧ منزلة الاشفاق ودرجاتها
٥٢٠ منزلة الخشوع
٥٢١ تعريف الخشوع ودرجاته الثلاث
٥٢٥ هل تصح الصلاة بلاخشوع ويسقط بها الفرض أم لا ؟
٥٢٦ حجج المانعين لصحة الصلاة بغير خشوع ولا حضور قلب وتفكر
٥٢٨ دلائل كون صلاة الغافل صحيحة فى الدنيا باطلة فى الآخرة
٥٢٩ خاتمة الجزء الأول